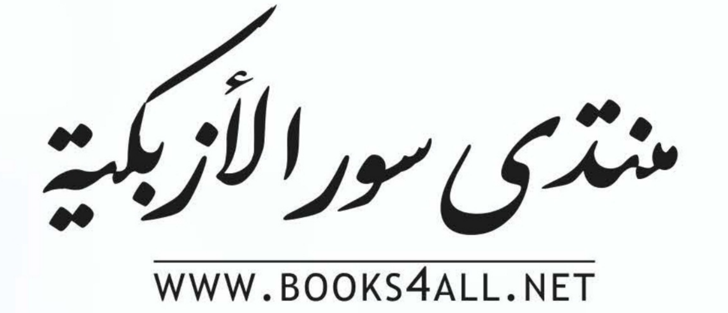


ميكل ونتر

المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى

ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم
مراجعة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ميكل ونتر

المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى

ترجمة

إبراهيم محمد إبراهيم

راجعه وعلق عليه

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠١

Michel winter

Egyptian society
under ottoman rule

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الموضوع	الصفحة

الفصل التاسع

الموضوع	الصفحة

تقديم

سببان يجعلان ترجمة هذا الكتاب الى العربية ، اضـــافة حقيقية للمكتبة التاريخية المصرية ، لأنه يضم جديدا سواء بالنسبة لبعض المفردات التاريخية التى لم ترد فى الكتب العربية التى ألفت فى الموضوع أو بالنسبة لبعض التحليلات ، وهذا بدوره يرجع لسببين :

أولهما : أن ميكل ونتر Winter توافرت له باقة من المصادر والمراجع لم تتوافر لسواه ، فقد أمدنا فى كتابه هذا بمعلومات عن القبائل العربية فى مصر جمعها من الدفاتر العثمانية الأرشيفية المخصصة لأمور مصر ، وهى دفاتر مكتوبة بالعثمنلية (التركية التقليدية قبل التطور الذى لحق بها عقب كتابتها بالحروف اللاتينية) ، ولا ندرى ان كان ونتر يتقن قراءة هذه اللغة وفهمها وبالتالى ترجم عنها ، أم أنها ترجمت له ، لكننا على أية حال نفهم من سياق عرضه ، ومن قائمة المراجع والمصادر العامرة فى آخر كتابه ، أن هذه الوثائق كانت متاحة له ، قريبة منه ينهل منهـا ما يشاء ، كما رجع المؤلف أيضا لمصادر عبرية وهو فيما يبدو يقصد بها تلك الكتابات التى كتبها يهود ، سواء كتبوها بالعبرية أو بغيرها من اللغات الأوربية ، أما عن مصادره العربية ، فقد كان حريصا على الرجوع الى كل ما يتصل بفترته الزمنية مخطوطا ومطبوعا ، وبعض ما أشار اليه لم يرجع اليه المؤلفون المصريون والعرب الذين كتبوا عن فترته الزمنية ، ومن ذلك بعض كتابات محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : النزهة الجلية فى ذكر ولاة مصر والقـاهرة (مخطوط ــ جامعة برنسـتون ــ الولايات المتحدة) ، والتحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية (مخطوط ــ فينا) ، والنزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط ــ برنستون) ، وكتب أخرى مخطوطة كثيرة لا نجد اشارات عنها فى المؤلفات العربية .

ثانيهما : أن المؤلف دخل حلبة التأليف فى هذا المجال متسلحا بخلفية ثقافية عريضـــة انعكست فى منهجه ، فهو لم ير أنه خرج عن الموضوع عندما سجل ملاحظاته بشـــأن أن كثيرا من الظواهر المتعلقة بالصوفية والأضرحة ظلت كما هى حتى القرن التاسع عشر ، وكان الرجل ملما بمجمل التاريخ المصرى عندما أرجع بعض الممارسات المتعلقة بالموالد الى التاريخ المصرى القديم ، كما كان متسلحا بدراسات اجتماعية بشكل واضح ، عندما فسر انتشار الطرق الصوفية ، واقبال أهل البلاد والفلاحين عليها ، بالرغبة فى (الانتماء) طلبا (للحماية) فى مجتمع يتسيد فيه العسكر المماليك ، وكان رائعا عندما توقف ليعرف رأى النساء فى العناصر العسكرية : أهن يملن للعسكر المماليك أم للعسكر الترك (الانكشارية) ؟ فرأى النساء ــ فيما يقول ــ مهم ، فالبعض يحرص على أن يفعل ما يرضى النساء ، وبالتالى فهن أحيانا كثيرة يشكلن النموذج المطلوب ، أو الذى يحرص البعض على تشكيل نفسه وفقا له • وتسلح المؤلف بمعرفة عريضة بالأعراق أو الأصول الاثنية وفسر بها بعض الأحداث تفسيرا مقبولا ، ففسر على سبيل المثال انقلاب خاير بك (المملوك) على بقية المـــاليك بأنه كان جورجيا ، بينما كانوا هم شركس ، كما فسر غلبة العنصر الفلاحى على طلبة الأزهر ، بأن الالتحاق بالأزهر كان هو السبيل الوحيد الذى يسمح بمقتضاه للفلاح أن يقيم فى القاهرة ، وتعرض للمماليك الأباظية وغيرهم •

يقول أبو زيد الهلالى سلامة (ولا كل من ركب الحصان خيال) ونقول على منواله (ولا كل من عنده وثائق مؤرخ) ، فقد خلص المؤلف بمعلومات طريفة ومفيدة من خلال المصادر نفسها التى رجع اليها آخرون ولم يفطنوا لما فطن اليه • لقد حدثنا عن جماهيرية بعض العلماء والصوفية ، لكنه حدثنا أيضا عن أن هذه الجماهيرية فى بعض الأحيان كانت من صنع المماليك أنفسهم ، فالعالم أو الصوفى لا يجد مبررا للاقتراب من أصحاب السلطة الا القول بأنه يسعى فى حوائج الناس ، وحوائج الناس فى أيدى السلطة ، وهكذا فالعالم أو الشيخ الذى تقبل السلطة وساطته أو شفاعته تحقق له عند أصحاب الحاجات (جماهيرية) ومن تتباطأ فى الاستجابة لشفاعته أو وساطته تقلل ــ بذلك ــ من شأنه ، ويسوق المؤلف سياقات أخرى لتفسير أن الصوفية والعلماء ، كانوا فى الغالب لا يمثلون للسلطة معارضة حقيقية ، وأنهم مالوا لتراث مؤداه ضرورة طاعة ولى الأمر •

＊＊＊

وليس من هدفنا فى هذه المقدمة استعراض كل ما ورد فى الكتاب ومناقشته ، فهو كثير ، وانما أكتفى هنا ببعض الأفكار ذات الدلالة من النوع الذى يؤكد حيوية التاريخ ٠

الفلاح لما ملك

بعد الخلفية التاريخية ، قسم المؤلف بحثه الى فصـــول جاعلا كل فصل لمكون من مكونات المجتمع المصرى فى العهد العثمانى ، مع استطرادات ضرورية تعود بالحدث الى ما قبل العصر العثمانى ، أو تتابع تطوره بعد ذلك ٠ فجعل فصلا للطبقة الحاكمة ويقصد بهم العسكر ســواء أكانوا عثمانيين أم مماليك ، وكما هو مفهوم ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الهيمنة الحقيقية للمماليك ٠ كما حدثنا عن الجيش فى القرن السادس عشر ، وفى الفصل الذى يليه ينتقل الى مكون آخر وهم العربان ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن العلماء والمقصود علماء الأزهر وهو يعرض فى هذا الفصل للبيئة الأزهرية عموما ، وفى الفصل الذى يليه يحدثنا عن الصوفية ، وهو فى الحالتين ـ عند حديثه عن العلماء وعند حديثه عن الصوفية ـ يورد فقرات خاصة بالأعراق ethnic groups ، وهى مسألة مهمة كما أشرنا من قبل ، وفى فصل آخر يحدثنا عن الأشراف ونقيبهم ، فقد آثر لأسباب سنوضحها أن يفرد لهم فصلا رغم حديثه العرضى عنهم فى فصليه عن العلماء والصوفية ٠ يرى المؤلف أن الدولة العثمانية حاولت تشجيع تركيبات أو تكوينات أو عناصر محلية غير مملوكية لاحداث نوع من التوازن الداخلى مع المماليك ، لهذا فهو يرى أن نقابة الأشراف صناعة عثمانية ، رغم وجود الفكرة على نحو ما منذ العصر العباسى ، كما أشار من قبل الى أن المراسيم السلطانية كانت أحيانا توجه الى الباشا ونقيب الأشراف ، بل وأحيـــانا كان يذكر فيهـــا بعض مشــــايخ الطـــرق الصوفية ٠٠ الخ ٠

وأخيرا يحدثنا عن أهل الذمة ٠ المؤلف اذن لم يفرد فصلا للفلاحين ٠ ألا يعد هذا خطأ منهجيا ؟ لم يكن المؤلف غافلا عن ذلك ، فاعتذر بقلة المعلومات المتاحة ، اذ يبدو أن الوثائق العثمانيـــة أفردت دفاتر مهمة (مهمى دفترى) للعناصر العسكرية فقط ، كالمماليك والبدو ، أو للعناصر التى يمكن أن تقوم بدور ســـياسى ، أو يمكن أن تكون أداة فى أيدى السياسيين العثمانيين كآل البيت (الأشراف) ، أما الفلاحون فكانوا كما مهملا ، ومع هذا فقد أشار المؤلف لمراسيم وأوامر عثمانية بضرورة معاملة الفلاحين معاملة حسنة ، وهو الأمر الذى كان يصعب متابعته لوضع مصر

الخاص شبه المستقل من الناحية الفعلية فيما يتعلق بالأمور الداخلية على الأقل ٠

ومع هذا فقد أشار المؤلف للفلاحين فى فقرات متفرقة فى سياق فصوله ، لكن أطرف هذه الاشارات اشارته (لعصبة الفلاح) ، والفلاح هنا هو الحاج صالح (المتوفى سنة ١٧٥٥) وهو منوفى نشأ يتيما فقيرا ورهنه سيده لقاء دين كان يدين به للملتزم ، ولما سدد سيده الدين رفض صالح أن يعود للقرية ، ومن المفهوم أن سيده الجديد (الملتزم) عطف عليه وأيده ، وظل صالح فى بيت الأمير ومع مرور الوقت ازدهرت حالته واشترى مماليك وجوارى ورتب زيجات بينهم واشترى لهم دورا ، وزودهم بمصادر للدخل ٠٠ لقد قلد هذا المنوفى الفلاح الأمراء المماليك وسار فى ذلك قدما فقدم الرشاوى ومارس أساليب التحايل كى يلحق مماليكه فى الأوجاقات وعمل على ترقيتهم ، واشترى مماليكه مماليك بدورهم وشكلوا جماعة شديدة البأس ٠ ويبدو أن هذا الفلاح المنوفى كان مدبرا يضع الأقشة (*) على الأقشة فكون ثروة ، لدرجة أنه كان يقرض ابراهيم كتخدا وزوجته ٠

لكن هذه القروض لم تكن ترد ، وتقول المصادر ان (صالح) المسن — حتى وهو فى ذروة سلطته — كان يركب حمارا ولا يتبعه سوى خادم واحد ٠ وهذا سيقودنا الى الحديث عن الظروف التاريخية الاجتماعية التى جعلت للمصرى أساليب مختلفة فى اخفاء الثروة ٠

تهريب الأموال واخفاؤها

من الطبيعى أن يكون المظهر الدال على الثراء والقوة لازمة من لوازم حياة الأمراء المماليك ، أو المماليك الذين اشتروا بدورهم مماليك ، أو العلماء والصوفية الذين اشتروا — فى مرحلة لاحقة — مماليك ٠ لكن كيف يطمئن أى من هؤلاء على ثروته ، فالمصادرة أمر وارد ، ووصول عصبة مناوئة للسيطرة على زمام الأمور رغم وجود الباشا العثمانى أمر وارد ٠٠٠ لذا كان المعتاد أن يكون هناك مكانان أو موضعان للأمير أو للمملوك الثرى ، قصره الذى يسكن فيه ، ومكان آخر سرى يحفظ فيه جانبا من ثروته ، ويضع عليه حراسا لحسابه ، ولا يتردد عليه بشكل علنى ، وفى بعض الأحيان كانت هذه الثروات المخبأة توضع فى أحياء لها قداسة خاصة بالقرب من الأزهر أو الحسين ٠٠ وعلى أية حال ، فقد كان الحراس سرعان

(*) بضم الالف وتسكين القاف — عملة صغيرة ٠

ما يقرون بالحقيقة بعد تعريضهم للضرب المبرح ، ولم يكن الدرويش ليعدم تعليلا يخون به سيده حتى بالقرب من الأزهر أو الحسين ـ اذا حان الجد ، وقلب الدهر ظهر المجن ٠

أما الطريقة الثانية ، فقد تجلت فى الحاج صالح الفلاح المنوفى الآنف ذكره ، وهى أن يظهر صاحب المال بمظهر زرى ، فالحاج صالح صاحب المماليك كان لا يركب الا حمارا ولا يتبعه سوى خادم ٠ لكن الحاج صالح ـ على أية حال ـ كان ربيب الأمـــراء ، فماذا عمن هـم دونه ؟ استئناسا بمنهج المؤلف الذى مفاده أن الأوضاع الاجتماعية لا تتغير تغيرا مفاجئا ، نستأذن فى النقل عن الرحالة بوركهارت (١) ما نصه :

« شيوع عادة اخفاء الثروة وأسبابها فى الدولة العثمانية (النص : تركيا) وأسبابها تتضح من خلال الحادثة التالية : لقد حدث فى القاهرة سنة ١٨١٣ أن طلب محمد على ١٥٫٠٠٠ كيس من القبط العاملين فى المجال المالى بمصر ، فقسم القبط المبلغ بين أنفسهم ، وكان على المعلم فلتوس وهو رجل كبير السن ـ وكان قبل ذلك ماليا كبيرا ـ أن يدفع ألفا ومائتى كيس (حـوالى ١٨٫٠٠٠ جنيه اســــترلينى) فادعى الفقر ، وبعد مساومات طويلة قبل أخيرا أن يدفع مائتى كيس ، فأرسل الباشا فى طلبه وهدده فأصر ، فأمر الباشا بضربه ، وبعد أن تلقى ٥٠٠ جلدة وأصبح نصف ميت تقريبا أقسم أنه لا يمكنه أن يدفع أكثر من مائتى كيس ، فظن محمد على أنه صادق ، الا أن ابراهيم باشا ابن محمد على الذى كان حاضرا قال انه متأكد أن هذا الرجل لديه أموال أكثر من ذلك ، وبناء عليه تلقى فلتوس ثلاثمائة جلدة أخرى ، وبعدها اعترف أن لديه المبلغ المطلوب وأنه سيدفعه ، فسمح له بالعودة الى بيته ، وبعد أسبوعين بعد أن شفى من آثار الضرب بدرجة تسمح له بالمشى أرسل الباشا اليه مندوبين فى بيته وتم استدعاء العمال ، فنزل فلتوس معهم الى مرحاض (كنيف) ، وفى قاع المرحاض (الكنيف) أزاحوا حجرا كبيرا كان يسد حفرة على شكل ممر يحوى كوة مقنطرة بها صندوقان من الحديد ، وعند فتحهما وجدوا الفى كيس من السكوينات ، فحملوا منها للباشا المطلوب وتركوا الأكياس الباقية له ، الا أن فلتوس مات بعد ذلك بثلاثة أشهر ليس بسبب الضرب وانما حزنا على ماله الذى فقده ٠ وعبثا حاول رجال محمد على بعد موته الوصول لبقية أمواله ، فلم يجدوها فى الموضع الذى

(١) رحلات فى شبه الجزيرة العربية ، ترجمة د٠ عبد العزيز الهلابى ود٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠

عاينوها فيه قبل موت فلتوس ، ولم يجدوها فى أى مكان آخر • هل استطاع فلتوس رغم مرضه الشديد أن ينقل كنزه سرا فى مكان أمين ؟ ربما فعل ، فلم يكن هناك حارس معين على منزله عقب وعده بالدفع ، وقد ظن الباشا أن هذه الأموال خبئت فى بعض الأماكن السرية وفقا للعادة السائدة بشكل عام فى بلاد الشرق » (*) • لا نسوق هذا النص للتدليل على أن عددا من أهل الذمة كانوا قد أحرزوا ثروات كبيرة ، فقد خصص المؤلف فصلا لذلك ــ وانما لنشير الى الأسلوب الثانى أو الطريقة الثانية فى اخفاء الثروة ، ولنسمها الطريقة « الفلاحى » وهى التظاهر بالفقر ، فلم تحدثنا الرواية عن قصر يمتلكه فلتوس ، أو آثار للنعمة بادية عليه ، وقد ظل الرجل يضرب ثم يضرب وهو يقسم أنه رجل (غلبان) •• ولا شك أن الثروة الهائلة التى كان يمتلكها بتناقضها مع مظهره وطريقة حياته ، جعلته مثار دهشة ، وربما اعجاب ظل فى الضمير الشعبى فترة طويلة ، فقد تحور اسمه بعد ذلك الى فرطوس •• فاذا أظهر شخص ما قدرا كافيا من الحيطة والحذر والمكر فهو (ابن الفرطوس !) وهى عبارة لازالت تتردد رغم نسيان أصلها التاريخى •

وقد تداخلت عناصر أخرى لاخفاء النعمة لدى العامة ــ خاصة الفقراء والطبقة المتوسطة ــ مع العامل السابق ، كالخوف من الحسد وطلب الستر وما الى ذلك ، حتى أصبحت لازمة شعبية تظل باقية رغم اختفاء السبب أحيانا ، وكان محمد على باشا على وعى بهذه « الخصلة » فوصف الفلاحين « باللؤم والمكر » •• لكن التعمق فى الجذور الثقافية للظواهر يوضح كثيرا من الأمور المعاصرة وأظن أن تلك واحدة من أهداف التاريخ كعلم مفيد ، وعلى هذا أليس من الضرورى وضع ذلك فى الاعتبار عند تحديد عدد الفقراء أو من هم دون خط الفقر ، فكثير من الفقراء من ذوى الأصول الفلاحية أقل فقرا بكثير مما يبدو عليهم ، والبعض من ذوى المظهر الملوكى الباهر (الفشخرة) ربما كانوا فقراء •

واذا أضفنا تراث التقية الفاطمى أو الشيعى (التقية بتشديد مع فتح التاء والياء) الى ذلك اتضح عمق هذا الأسلوب الثانى ، وتقضى التقية أن يكتم المرء (ذهبه ومذهبه وذهابه) أى لا يبدى أو لا يظهر أيا منها ، وأسهمت الحركة الديرية المصرية هربا من الاضطهاد البيزنطى فى تعميق ذلك أيضا • لذا ، فمسئولية تقدير الضرائب بشكل صحيح مسئولية صعبة فى ظل هذه الظروف التاريخية •

(*) صص ٢١٧ ــ ٢١٨ ، حاشية •

المماليك المصريون ـ حركات وأنداب

ظل المماليك المصريون لفترة طويلة لا يواجهون أعداء خطرين « اذ ان الفرنجة قد طردوا ســنة ١٢٩١ ، ومع مطلع القرن الخامس عشر بعد انسحاب تيمور لنك من الشام لم يعد المغول يشكلون تهديدا أيضا ، فلم يطور الجيش طرقا فنية عسكرية جديدة كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة • ذلك أن المماليك رفضوا استخدام الأسلحة النارية وهى التسليح الحديث لذلك الزمان ، معتبرين أنهـــا أسلحة لا تمت للفروسية أو الرجولة أو الاسلام كما لم يكن من الممكن استخدام البندقية من فوق صهوة جواد ، وبذلك لم تعد محل تفكير لدى المماليك ، بهذا المعنى ، فالمهارة العســكرية والعبقرية القتالية لدى المماليــك قوامهــا الفروسية ، ونتيجة لذلك مر الجيش المملوكى بفترة طويلة من الركود ولم يضم أراضى جديدة تحت الحكم المملوكى ••• » (*) • لقد انغلقت العسكرية المملوكية اذن على نفسها ، واقتنعت بأنها فى أمان من العدو الخارجى ، لكن كان لابد لها من تصريف طاقاتها بشكل أو بآخر ، فتم تفريغها من المضمون القتالى الحقيقى ، وتحولت التدريبات العسكرية الى ما يشبه الألعاب الرياضية ، واستخدام الصوت كالصيحات المرعبة وما إلى ذلك ، واللعب بالسيف ، واظهار الحركات البارعة على الأرض أو على ظهور الخيل ، وامتناع المماليك عن اقتناء الأسلحة النارية يرجع فى سببه الحقيقى الى عدم ضرورتها لحفظ الأمن الداخلى وفقا لمفهوم ذلك العصر ، فالبندقية كانت سلاحا متطورا للمواجهات الخارجية التى أغمض المماليك عيونهم عنها لأكثر من مائة عام • والمتصفح لكتاب ابن زنبل الرمال عن واقعة السلطان الغورى مع السلطان العثمانى سليم الأول العثمانى ، والذى نشر بعنوان (آخرة المماليك) يدرك مفهوم هذا التحليل ، فابن زنبل يحدثنا عن مهارة المماليك فى (الأنداب) ، وهو مصطلح يوازى ما نسميه (الحركات) بالبعد الشعبى للكلمة • وكانت (أنداب) المماليك تثير بالفعل اعجاب العسكر العثمانيين : قفز فوق الحصـــان ، ودوران من أســفله ، ولعب بالسيف وتحريك للرمح ، ••• الخ لكن عند الحرب الحقيقية كانت النتيجة صفرا سواء فى مرج دابق (الشام) أو الريدانية (مصر) ومما عمق هذا الاتجاه (الأنداب أو الحركات) أن طائفة أولاد الناس كانوا لفترة ما لا يلتحقون بالجيش المملوكى ، وانما يتم توجيههم للعمل فى مضمار التجارة أو الاشتغال بالعلم •• الخ ، ولأنهم من بيوتات عسكرية واءموا بين حياتهم الجديدة ونوع من التدريبات (الأنداب)

(*) الفصل الاول ، ص ١٩ •

الرياضية المفرغة من معناها العسكرى ، ·· وتوارثت الأجيال هذه الأنداب (الحركات) حتى بعد أن ذبح محمد على عددا منهم فى مذبحة القلعة الشهيرة ١٨١١ ، فقد ظل عدد كبير منهم ومن أولادهم فى الجهـــاز الادارى ·· لكن هناك شواهد كثيرة تشير الى أن هذا التراث بدأ يتقلص فى مصر الحديثة ، فقد بات واضــحا للعيان الاهتمام بالهدف وتحقيقه لا مجرد (الأنداب) أو (الحركات) بصرف النظر عن النتيجة ، وأوضح مثال على هذا حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فقد حققت القيادة المصرية بجيش مصر (الهدف) المحدد سلفا ، وفقا لقدراتها ولم تعبأ بمزيد من (الأنداب) ·· حتى فى مضمار الكرة ، كانت البراعة فى (ترقيص) الخصم واثارة اعجاب المتفرجين بحركات (أنداب) تعمى عن تسجيل الأهداف ــ كان هذا فى جيلى على الأقل ، وأظن أن احراز مصر لنصر عالمى فى عام ١٩٩٨ يعد أيضا علامة على هذا التحول الذى نتحدث عنه ، وهناك اشارات أخرى تدل على هذا التحول ··

لقد كان تقدم الجيش المملوكى بقيادة قنصوه الغورى نحو الحدود الشـــامية العثمانية فيما يقول ونتر « بمثابة خطوة غير عادية ، حتى ولو كانت دفاعية فحسب ·· » يريد ونتر أن يقول انها كانت مجرد حملة مظهرية لم تكن تقصد القتال ، ويؤكد هذا الرأى الى حد كبير ابن زنبل الرمال فى كتابه الذى أشرنا اليه آنفا · انهــا كانت مجرد (أنداب) أو (حركات) ، وكانت العاقبة وخيمة ، وفى التاريخ المعاصر حدث شىء كهذا ، وكانت النتيجة نكسة · لكن الأمور تغيرت تغيرا وئيدا مبتعدة عن التراث المملوكى فى هذا الشأن ، والذى ترعرع فى فترة السلم الطويلة ، وان كان هذا لا يمنع من بقايا لهذا التراث تبدو واضحة على المستوى الفردى فى الشارع المصرى ، فلا بأس أن يندفع صبى بدراجته نحوك فتنزعج حتى اذا أوشك أن يدهمك ، تراه قد تحول بعيدا عنك فجأة بدراجته ، وهو يضحك · انها (أنداب) مملوكية ! حركات · وقد يفعل راكب السيارة أو الأوتوبيس الشىء نفسه · أنداب ! أو حركات لهــا جذورها ، فالتراث الثقافى ينتقل من جيل الى جيل على النحو نفســـه ــ تقريبا ــ الذى يرث فيه الأبناء ملامح آبائهم ··

ويعيب ابن اياس على الحكم العثمانى أنه أبطل المهرجانات الكثيرة التى كان يقيمها المماليك « فيعرضون فيها مهاراتهم الفذة فى العروض والمهرجانات وفنون القتال » (*) ·

(*) ص ٢٥ الفصل الاول ·

ومن الأمور الطريفة أن ونتر استقصى آراء قطاعات بعينها من المجتمع المصرى ــ من خلال الوثائق ، وقال انه من المفيد أن نعرف آراء النساء ، هل كن يفضلن المماليك أم العثمانيين ؟ وانتهى من خلال وثائقه أنهن كن يفضلن أصحاب الأنداب والحركات والمهرجانات ــ أى المماليك ، واذا تقدم لاحداهن عثمانلى ومملوكى اختارت ــ بلا تردد ــ المملوك (أبو الحركات) .

ورأى النساء ــ فيما يقول ونتر ــ دائما رأى له وزنه ، لذلك ليس غريبا أن نجد الكتائب العثمانية فى خاتمة المطاف تصبح أقرب الى الطبيعة المملوكية ، بدلا من أن تؤثر هذه الكتائب النظامية ــ أو التى كانت نظامية فى بدايتها ــ فى الشخصية المملوكية ، ومن المفهوم أن سلطة الباشا العثمانى والانكشارية ظلت تضمحل شيئا فشيئا ، وعندما أتى بونابرت الى مصر واجه ــ فى الأساس ــ المماليك .

وقد حاول الفلاح المصرى عندما أتيحت له الفرصة أن يتشبه بالمماليك فى تكوين عصبة له بالشراء ، لكنه لم يفلح بطبيعة الحال ، وان ظل هذا أملا عزيزا لديه ، وهو ما أفردنا له فقرة فى هذه المقدمة (الدراسة) .

لقد حقق النظام المملوكى فى بواكيره أهدافه على مستوى الدفاع عن البلاد ضد الغزو الخارجى ، لأنه كان تنظيما عسكريا ذا أهداف عسكرية ، لكنه بعد ذلك ظل (عسكريا) دون هدف (عسكرى) واضح ، فتوجهت طاقاته للجبهة الداخلية ، فارتبط بالحرف والحرفيين ، وسيطر على تشكيلاتهم ، وارتبط بالتجارة والتجار ، فكان من المحال ظهور تاجر كبير بعيدا عن سطوته ، وتغلغل حتى فى الطرق الصوفية والأوقاف ، ووجه العلماء (رجال الدين) وتحكم فى نفوذهم ، وكان على وعى كامل بكيفية صناعة شعبية لبعضهم وسلب شعبية آخرين ، كما هو واضح فى الفصل الذى كتبه ونتر عن العلماء .

لقد حاولت الدولة العثمانية اسباغ الشرعية على قوى مختلفة فى المجتمع المصرى لتوازن بهم قوة المماليك ، لكن التراث المملوكى كان يتغلغل فى هذه القوى الجديدة ، فحتى البدو تشبهوا بالمماليك ، ويضرب لنا ونتر مثالا بالهوارة في الصعيد الذى حموا المماليك الآبقين وتزاوجوا معهم .

اللحية ـ لمحات من تاريخها السياسي والاجتماعى

يحدثنا ونتر أن السلطة العثمانية حرصت فى بداية الأمر على عدم ادماج المماليك فى الجيش العثمانى فى مصر وألزمتهم بأن يستمروا فى لبس الزمت الأحمر المعتاد ، لكن هذه السياسة تغيرت بعد ذلك ، وصدرت الأوامر بأن يلبسوا كما يلبس الجنود العثمانيون ، ولم يكن فى ذلك ما يثير المشاكل ، وانما المشـــاكل سببتها اللحية ، فقد كان الجنود العثمانيون حليقى اللحية ، بينما أصر المماليك على الاحتفاظ بلحاهم ٠٠ « وفى احدى المناسبات حين تفقد خاير بك المماليك وهو والى مصر العثمانى، يقال انه قص لحية كل مملوك وأعطاها له وقال : يجب عليكم الخضوع للقانون العثمانى ، فاحلقوا لحاكم ولتكن أكمامكم ضيقة ٠٠٠ » ٠

ومن السهل أن نتصور أن هذا الاجراء لم يكن يعجب المماليك جنودا أو أولاد ناس ، لأن اطلاق اللحية كان مرتبطا لديهم بمناسبة عزيزة ، فلم يكن الأستاذ أو الأمير يسمح لأى مملوك من مماليكه باطلاق لحيته الا اذا أعتقه ، فطالما كان المملوك فى حوزة سيده ، فلابد أن يكون ناعم الخدين فربما يحتاجه سيده فى أمور تتطلب نعومة الخدين ، أما وقد سمح له باطلاق لحيته فهذا يعنى أنه أصبح حرا ٠

وفى البلاد التى ظهرت فيها حركات سلفية قوية فى القرنين التاسع عشر والعشرين كان حلق اللحية بمثابة اعلان للمعارضة ، وكانت السلطة تتعامل بالفعل مع حالقى اللحى كمعارضين ، وتشـير الى ادراجهم فى كشوف خاصة تمهيدا لاتخاذ اجراء ما ، وكان بعض الحليقين اذا أحس الواحد منهم بقرب اتخاذ اجراء ما ، أعفى لحيته وتركها تطول لتكون له ـ عند اللزوم ـ شفيعا يكذب التقارير ٠

ويتخذ غالب أهل الخليج لحية وسطية ، أى غير مكتملة من الجانبين ، وذلك ليتميزوا عن أصحاب اللحى فى دول مجاورة ، فاللحية ذات الخواص الخاصة هنا تعبر عن انتماء وطنى ٠

وانتشرت اللحى بين عدد كبير من المصريين العائدين مؤخرا من شبه الجزيرة العربية ، وكان ذلك فى جانب منه لأسباب اقتصادية ، فقد ارتبط فى شعورهم ـ أو لا شعورهم ـ الثراء المادى باللحية ، وهذا من قبيل الربط بين أمرين لا صلة بينهما فى الواقع ٠

منهجان فى كتابة التاريخ

سنقارن هنا بين نموذجين من نماذج الكتابه التاريخية ، أحدهما لأستاذ مصرى فاضل أتيح له من المصـــادر ما لم يتح لغيره ، وثانيهما النموذج الذى قدمه لنـا ونثر مؤلف هذا الكتـــاب ، ولتكون المقـــارنة ذات دلالة ، لابد من اختيار موضوع واحد تناوله كل منهما · فليكن هذا الموضوع هو « العلماء » والمقصود طبعا علماء الأزهر وطلبته ·

فنحن نجد المؤرخ المصرى يكتفى بالوصف الظاهرى أو الخارجى ، وسنورد هنا كل ما أورده :

كان علماء الأزهر وطلابه فئة اجتماعية لها مكانة متميزة ، فالأزهر مركز التعليم الاسلامى بمذاهبه المختلفة ، وهو منبع الحياة الفكرية فى مصر ، والمركز الأول فى العالم الاسلامى الذى له مكانة متميزة ، وكانت أروقته تضم طلابا من مختلف أرجاء العالم الاسلامى ، وكانت السلطات العثمانية والمملوكية تعترف لرجال الأزهر بمكانتهم ، وتعتبرهم زعامة شعبية يخشى جانبها ، وقد أدرك عامة الناس والتجار والحرفيون هذه المكانة وتلك الزعامة ، فكانوا يلجأون الى الأزهر ، كلما اشتد بهم الحال ، فيذكر مصدر معاصر أنه بسبب غش العملة « ضاعت رساميل الخلق ، واشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، فاجتمع أهل الأسواق ، ودخلوا الجامع الأزهر ، وشكوا أمرهم الى العلماء ، وألزموهم بالركوب الى حضرة الوزير ، فى شأن ذلك الأمر ، فركب الشيخ محمد النشرتى ، وركب خلفه جميع العلماء ، وتوجهوا الى الديوان ، وأفهموه على القضية ، وتضرر الناس» فعقد الباشا الديوان ، ووضع الديوان حدا لهذه الأزمة التى ألمت بأهل القاهرة ، وكان ذلك يوم السبت ٤ شـــوال ١١١٤ هـ /٢١ فبراير ١٧٠٣ م ·

واستمرت معاونة العلماء للعامة واستعمال نفوذهم ، طوال فترة القرن الثامن عشر ، التى اشتعلت بالصراعات المملوكية ، وكثرة تعدى الأمراء المماليك على أموال وأحياء القاهرة ، ففى ربيع الأول ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٦ م ، وقع تعد من حسين بك على أهل الحســـينية ، فذهب أهل الحسينية « الى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبـوا الى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم وقال لهم أنا معكم ، فخرجوا من نواحى الجامع ، وقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنـارات ،

يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير ، فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ، ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم ، فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظات ، ومحمد كتخدا أرنؤود الجلفى كتخدا ابراهيم بك وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه من تضاعف الحال ، وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ، ونأتى بهـــا من محل ما تكون ، واتفقوا على ذلك ، وقرأوا الفـاتحة وانصرفوا » ٠

هكذا استطاع شيخ من شيوخ الأزهر أن يضع حدا لصلف المماليك وطغيانهم واستطاع أن يجبرهم أن يردوا ما نهبه حسين بك ورجاله من أهل حى الحسينية ٠ والأمثلة كثيرة على وقوف علماء الأزهر فى وجه أى ظلم أو عدوان كان يحدث على السكان ، وأصبح علماء الأزهر خلال العصر العثمانى ، القوة التى تمثل الرأى العام ، وتطالب برفع المظالم عنهم ، بطيب قلب وانشراح صدر ، وأصبحت لهم مكانتهم الاجتماعية المتميزة التى يجلها العامة ، ويوقرها الحكام ، وأصبحوا شريحة ذات مكانة من شرائح مجتمع القاهرة ٠

فالمعانى الأساسية فى النص لا تخرج عما يلى :

- الأزهر كانت له مكانة كبيرة ٠
- كان يضم طلابا من جنسيات مختلفة ٠
- معاونة العلماء للعامة ٠ (وأمثلة على ذلك) ٠

ولنقارن هذه الطريقة فى التناول التاريخى بما يطالعه القارىء فى كتاب ونتر هذا عن الأزهر وعلمائه اذ نفهم ما يلى :

- « من الأمور التى لها دلالتها أنه لم يوجد واحد قط من مشايخ الآزهر فى القرن الثامن عشر (بل والتاسع عشر) من مواليد القاهرة ، بل كانوا جميعا من قرى مصر » اذن لقد كان الأزهر نافذة أطل من خلالها أهل البلاد الأصليون (الفلاحون) على الحياة العامة ، أو ظهروا من خلالها على سطح التاريخ ، وكان من الطبيعى ـ رغم كونهم علماء ـ أن ينظر اليهم ـ أحيانا ـ الانكشارية (المستحفظان) أو العربان أو التفكجية أو الجركس ٠٠ الخ كعنصر مختلف لا يحول بينهم وبين احتقارهم سوى

العلم الديني ·· وكان من الطبيعي أيضا أن يحس بعض علماء الأزهر (الفلاحين) بشيء من الدونية أمام العناصر الأخرى التي أشرنا اليهـا آنفا ، ولم يحل بين نمو هذا المنحى الدوني أيضا سوى العلم الديني الذي يحملونه · يقول ونتر : « فبعض العلماء كانوا يخجلون من أصولهم الريفية ويحاولون اخفاءها ، ومن ناحية أخرى حافظ الآخرون على صلاتهم بقراهم مدى الحياة (بلدياتهم) حتى بعد أن تكون أسماؤهم قد لمعت في العاصمة ، وكانوا يسافرون الى قراهم مرة أو مرتين في العام ويصدرون الفتاوى للقرويين ويبرمون عقود الزواج ويفضون المنازعات ·· الخ ·· » فكلمة الأزهريين اذن مرادفة ـ الى حد ما ـ للفلاحين ، وعندما نقول قام طلبة الأزهر وعلماؤه بكذا أو بكذا فكأنما نقول قام الفلاحون أو أولاد الفلاحين بكذا وكذا ·· ومعنى هذا أن الأزهر الشريف رغم أنه قد دخله بعد ذلك عدد من أهل المدن من أصول أولاد الناس ، ومن المغاربة وغيرهم يمثل في حقيقة الأمر التراث الفلاحي ، وربما ظل الأمر كذلك الى حد ما حتى الآن ، وربما أيضا يفسر لنا هذا العلاقة الحميمة بين الكنيسة القبطية والأزهر ، فكلاهما من عناصر فلاحية ، انها نتيجة منطقية وحقيقه تاريخية اذن ألا نجد أزهريا واحدا متورطا في عمليات الارهاب التي استهدفت أقباط مصر ، كما أن الاتجاه الغالب في الأزهر هو محاولة تطوير الطرق الصوفية وتخليصها من البدع التي تخالف الدين صراحة ، لا مواجهتها وتحديها · بل لقد كان أحد مشايخ الأزهر في الفترة الأخيرة صوفيا ، وكان له لحية كريمة ذات شعبتين ، وكان في طريقة دعوته ومظهره العام وتركيزه على الكرامـــات والمعجزات لا يختلف عن أي بابا من باباوات الكنيسة القبطية ·

ـ ويستعرض ونتر الأعراق التي كانت موجودة في الأزهر من خلال الأروقة ، رواق الأتراك ، رواق المغاربة ، رواق الصعايدة ·· الخ وهذا أمر معتاد كما يشير الى الخلافات والنزاعات العرقية ، وهذا أمر مفهوم ، لكنه يضيف الى ذلك بعدا جديدا عميقا وهو أن المذهب الشافعي (مذهب الفلاحين خاصة) كان له السيادة ، وأن صراعا بدأ ينشب بشكل صارخ بين الشافعية ، والأحناف ، واعتبر ذلك تعبيرا عن الوطنية المصرية بشكل مبكر ، لكنه يعود فيورد وقائع تاريخية تؤكد أن النزعة الى دولة الاسلام تغلبت في النهاية على الوطنية بمفهومها الوطني (المصرية) ·· ولنورد أفكاره المعبرة عن هذا هنا :

« وقد أخبر الشيخ العريشي ابراهيم بك شيخ البلد أن الشيخ الدمنهوري ـ شيخ الأزهر ـ رشحه وهو في فراش مرضه نائبا له ، ونال

العريشى تأييد الأمراء والشيخ السادات من زعماء الصوفية ، فعينه الأمراء شيخا للأزهر (أى عينوا العريشى الحنفى مذهبه) ، فأغضب تعيين العريشى مؤسسة الأزهر النى يسيطر عليها الشافعية الذين اعتبروه مغامرا غريبا ، وقال العلماء ان منصب شيخ الأزهر حق للشافعية وليس من حق حنفى أن يطالب به ، ٠٠ وأرسل الشافعية بزعامة محمد ابن الجوهرى ، وهو شيخ وقور مستقل شكوى لابراهيم ومراد الحاكمين مطالبين بتعيين الشيخ أحمد العروسى الشافعى بدلا من العريشى ٠ الا أن البكوات الذين كانوا عادة يترددون فى أن يساقوا الى خلافات العلماء . اعتبروا الشكوى تحديا لسلطتهم ، فقال ابراهيم بك : من المستحيل أن يغير الصغار ما فعله الكبار ، واعتبر أن الاعتراض على تعيين حنفى شيخا للأزهر شىء غير منصف وغير اسلامى وقال : أليس الأحناف مسلمين ؟ أليس هذا هو أقدم مذهب ؟ وأليس الأمراء والقاضى بأحناف ؟ أليس السلطان نفسه حنفيا ؟ ٠٠ وبدت حجة ابراهيم بك معقولة ومنصفة ٠٠ ويجب أن نكرر أن الطبقة الحاكمة سواء من العثمانيين أو المماليك لم تفرض أبدا مرشحا من مذهبها على الأزهر » ٠ ويستطرد ونتر ذاكرا ما يفيد أن المذهب الشافعى ارتبط كثيرا بأهل البلاد الأصليين ، وبذوى الأصول الفلاحية أو القروية على نحو خاص فيواصل قائلا : « وذهب العلماء الى ضريح الامام الشافعى ليلة الجمعة وقضوا الليلة هناك ٠ ان مثل هذه الزيارة المنظمة الى ضريح الولى وصلت الى حد المظاهرة بين علماء الشافعية ومؤيديهم من غير العلماء ٠٠ وكان المتحدث عن العلماء هو الشيخ محمد بن الجوهرى ٠٠ الذى كان يحظى باحترام الأمراء لأنه على النقيض من غيره من العلماء لم يسع الى صحبتهم ولم يطمع فى هباتهم ٠٠ أخبر الشيخ الجوهرى مراد بك « باسم الامام الشافعى سيد البلاد ٠٠٠ » » ٠

الشىء الطريف أن المصادر التى رجع اليها ونتر هى نفسها التى رجع لها غيره ممن اكتفوا ، بالوصف الظاهرى وهو الاتجاه السائد لدى المؤرخين الجامعيين المصريين ، وهو اتجاه مطلوب ولا أحد يقلل من شأنه لكنه اتجاه وثائقى أو أثرى وليس هو التاريخ ، وانما تبدأ من عنده مهمة المؤرخ ، ولا تنتهى اليه ٠

ــ وكما حدثنا ونتر عن أبعاد المذهب الشافعى ، وأبعاد المذهب الحنفى الذى كان ينظر اليه كمذهب للحكام (الترك والمماليك) ، يحدثنا أيضا عن ارتباط المذهب المالكى بأهل المغرب فى مصر ، ونفهم أن كثيرين من المغاربة كانوا قد أصبحوا من سكان الريف المصرى الى جانب من سكن

منهم في القاهرة ، بالاضافة للبدو المغاربة (العربان) في الصحراء الغربية وفي ضواحي القاهرة أيضا ، وكان بعض شيوخ الأزهر الأوائل فلاحين مستقرين (من أصول مغربية) قدموا من ريف مصر والتحقوا بالأزهر٠٠ لكن بمرور الوقت كانت السيادة العددية للشافعية خاصة منذ أصبح الشيخ العروسي شيخا للأزهر بلا منازع ، وهذا يعني سيادة العناصر الفلاحية أو الريفية من القبط المسلمين ٠٠ وفي ظل هذه المعلومات نفهم أن الجبرتي رغم عدم احترامه للشيخ الشرقاوي (ت ١٨١٢ م) لأمور أوردها ، ذكر أنه ـ أي الشيخ الشرقاوي ـ كان يدافع عن حقوق الفلاحين ضد غبن الأمراء ، لكن دفاعه على أية حال كان دفاعا هادئا أو لنقل شافعيا ٠

ويذكر ونتر أن المغاربة في الأزهر (وكذلك الشوام) كانوا يتسمون بالعدوانية الشديدة ولم يكونوا مسالمين كالشافعية ، فقد منع بعض المغاربة الشيخ العروسي شيخ الأزهر من دخول المسجد واحتجزوه للمطالبة بمخصصاتهم ٠ وفي سنة ١٧٧٢ ، طالب المغاربة بأملاك وقف فقام نزاع بينهم وبين يوسف بك ، فوقف الشيخ دردير الزعيم المالكي الشهير بتصلب الرأي الى جانب المغاربة ضد يوسف بك (مالكي في هذه الفترة تعني أنه غالبا مغربي) وحدث صدام قتل فيه بعض المغاربة وجرح آخرون ، وتدخل اسماعيل بك لانهاء النزاع ٠٠٠ والحقيقة أن الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (*) يعطينا صورة وثائقية لسطوة العنصر المغربي وأماكن تمركزهم على الخريطة المصرية (الفيوم ، امبابة ، بعض مناطق الوادي ٠٠٠ الخ) ، وهو يورد لنا هذه المرة تحليلا رائعا يفسر سبب تمرد المغاربة المصريين (أي المصريين من أصل مغربي) في عهد الدولة العثمانية بينما لم يتمردوا على هذا النحو العنيف في عهد الحكم المملوكي المباشر ، وهو بذلك يقدم لنا دليلا قويا على الدور الحضاري المهم الذي حاولت الدولة العثمانية أن تلعبه في تنظيم ولاياتها ، لكنها لم تستمر فيه للنهاية وتركت النظم المحلية تتصرف في أمور البلاد الداخلية ووجهت همها للقوى الخارجية ٠

« سار العثمانيون ، بعد بسط نفوذهم على البلاد العربية ، على سياسة كان اطارها العام قائما على عدم تعقيد الأمور ، طالما ظلت هذه البلاد تقدم الخزينة المطلوبة منها سنويا ، وجريا على هذه السياسة

(*) في كتابه فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، ص ٣٥١ ٠

فان العثمانيين ، لم يحاولوا طوال فترة حكمهم ، وضع عوائق أمام انتقال الأفراد من بلد عربى الى آخر ، ولم تعرف البلدان العربيه ، التى خضعت للحكم العثمانى ، الحدود السياسية ، بالمعنى المعروف لنا الآن ، ولذا فان كثيرا من الأفراد كانوا ينتقلون من بلد عربى الى آخر ، ويشتغلون فى البلد الذى ينتقلون اليه بالمهنه التى يريدونها ويرغبون فيها ، ما دامت قدراتهم الفنية تمكنهم من الاشتغال بهذه المهنة • وقد أتاحت هذه السياسة الفرصة لكثير من المغاربة ، أن يستقروا فى مصر ، وان كان استقرار بعض المغاربة فى مصر سابقا للوجود العثمانى فى البلدان العربية ، ولكن الوجود المغربى ازداد فى بلدان المشرق العربى فى العصر العثمانى بصورة عامة وفى مصر بصورة خاصة لأسباب كثيرة ، سوف تبرزها هذه الدراسة فى حينها ، هذا بالاضافة الى وجود بعض قبائل العربان المغاربة التى أتت الى مصر فى فترات مختلفة ، وكانت تتجول فى ريف مصر وقراه ، حتى أصبحت تشكل قوة تخشاها السلطة وتعمل على محاربتها ، كما سنرى فيما بعد ، وقد أتاح لها نظام الحكم العثمانى أن تلعب دورا بارزا فى أحداث تاريخ مصر فى تلك الفترة ، فى مختلف جوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وهذا ما سوف تحاول هذه الدراسة أن تبرزه •

أولا : دور المغاربة فى الحياة السياسية المصرية

سبقت الاشارة الى أن استقرار المغاربة فى مصر ، كان سابقا للفتح العثمانى ، ويتضح من أقوال المصادر المعاصرة أنه كان لهم تأثيرهم ومكانتهم فى داخل المجتمع المصرى ، وقد شاركوا فى محاولة صد العثمانيين عن مصر ، حيث يذكر مصدر معاصر أن التجريدة التى أعدها السلطان طومان باى لملاقاة السلطان سليم ، كان يتقدمها نحو مائتين من الرماة والتركمان والمغاربة ، ولذا فان السلطان سليم لم يستطع أن يتناسى المغاربة حينما أراد تسفير بعض الفئات من مصر الى استانبول ، فكان من بين الفئات التى وقع عليها اختياره « أعيان تجار المغاربة » ومن الذين سافروا من تجار المغاربة « الشيخ سالم ، وسعيد التاجورى ، وسعيد اللبدى وأبو سعيدة وآخرون » ويستفاد من هذه الأقوال صراحة ، مشاركة المغاربة فى أحداث الحياة السياسية فقد وقفوا يدافعون عن مصر ، وتعرض التجار المغاربة ــ وكان التجار فى ذلك العصر يلعبون دورا بارزا فى الحياة السياسية ــ الى ما تعرض له غيرهم من طوائف المجتمع المصرى ، على يد السلطات العثمانية فى بداية الحكم العثمانى • ولكن الدور السياسى البارز الذى لعبه المغاربة فى الحياة السياسية المصرية فى العصر

العثمانى يبرز بصورة واضحة فيما قامت به قبائل العربان المغاربة التى كانت تنتشر فى أرجاء البلاد شمالها وجنوبها ، وبصورة خاصة منذ القرن السابع عشر حينما بدأ النفوذ العثمانى يصاب بشىء من الضعف ، نتيجة لبروز العنصر المملوكى على مسرح الحياة السياسية المصرية ، واستئثار الأمراء المماليك بمعظم المناصب الادارية ، وبسط نفوذهم على الحامية العثمانية ذاتها ، منذ ذلك الوقت ازداد نفوذ عربان المغاربة فى مصر ، وقاموا بكثير من الأعمال السلبية التى سببت ازعاجا لسلطات القاهرة ، فتذكر المصادر المعاصرة أن أحمد باشا والى مصر فى عام ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م ، جرد حملتين على رأس كل منهما صنجق احداهما الى البحيرة فى الدلتا ، والأخرى الى البهنسا بالصعيد ، لمحاربة عربان ابن وافى المغاربة ، ويبدو من أقوال هذه المصادر ان هاتين الحملتين رغم ما بذلتاه من جهود لكسر شوكة هؤلاء العربان ، فانهما لم تستطيعا تحقيق الهدف المراد منهما ، لذا فاننا نجد الباشا يرسل خلفهما قوة ضخمة أخرى تتضح ضخامتها مما تذكره المصادر من انه كان على رأسها « اسماعيل بيك وجميع الكشاف وكتخدا الباشا ، وأغوات البلكات ، وكتخدا الجاويشية ، وبعض اختيارية وحاربوا ابن وافى وعربانه مرارا ، ثم وقعت بينهم وقعة كبيرة فهزم فيها الأحزاب ، وولوا منهزمين نحو الغرق » ، ويبدو أن هذه الجهود الحربية التى بذلتها سلطات القاهرة ، لم تستطع القضاء على نفوذ العربان المغاربة وعبثهم بالحياة فى ريف مصر ، مما سبب كثيرا من الاضطراب للسلطة فى القاهرة ، حتى وصل أمر عصيان عربان المغاربة للسلطة السياسية فى مصر ، الى السلطات السياسية العليا فى استانبول ، فاضطرت سلطاتها فى ١١١٠ هـ/١٦٩٩ م ، أن تصدر مرسوما الى حسين باشا واليها فى القاهرة بأن يعمل جادا فى القضاء على « عبد الله بن وافى » المغربى بجهة قبلى ، ومن معه من العربان واجلائهم عن البلاد ، وتنفيذا لهذا الأمر جمع حسين باشا الأمراء والأغوات ، وناقشهم فى أمر عربان المغاربة ، وأعمالهم التى باتت تحرك سلطات الدولة العثمانية فى استانبول ، فاتفق رأى هذا الجمع على « اخراج تجريدة ، وأميرها ايواظ بيك ، وصحبته ألف نفر من الوجاقات » ، ويبدو أن مقاومة عربان ابن وافى وأنصاره لهذه التجريدة كانت عنيفة ، مما اضطر ايواظ بيك أن « يطلب المدد لكثرة جموع العربان ، فعمل الباشا ديوانا ، واتخذا قرارا بارسال نجدة مكونة من خمسة من الأمراء الصناجق ، وأغوات الاسباهية الثلاثة وأتباعهم وأنفارهم ، فتهيئوا للسفر ، ونزلوا الجيزة ، وأقاموا أياما ثم ورد لهم الخبر بأن ايواظ بيك يحارب

مع العربان وهزمهم ، وفروا الى الوجه البحرى من طريق الجبل ورجع الأمراء الى مصر » ٠

« ٠٠٠ ومع كل هذه المطاردات المتصلة ضد عربان المغاربة ، فانهم لم يستكينوا لسلطات القاهرة السياسية ، بل ظلوا يسببون لها الازعاج ، وعدم الاستقرار ، بصورة مستمرة ، وهذا ما لم يحدث منهم فى العصر المملوكى ، مما يدعو الى التساؤل ، ما الدوافع التى دفعتهم للقيام بمثل هذه الأعمال ضد السلطات العثمانية ـ المملوكية فى الفترة موضـــوع البحث ربما كانت الاجابة عن هذا التساؤل ترجع الى أن هذه السلطات حاولت منذ بدء عهدها ان تضع حجرا على حركة العربان عموما والحد من امتيازاتهم التى حصلوا عليها فى ريف مصر ، حيث نجد أن قانون نامه مصر ، الذى صدر فى عهد السلطان سليمان بن سليم تضمن فصلا عن أحوال العربان يشمل المواد ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، من مواد هذا القانون هى فى مضمونها عبـارة عن قيود والتزامات على العربان وشيوخهم ، ونص انه يجب على الكشاف « ان يوقعوا عليهم الجزاء دون خوف بعد الرجوع الى أمير الأمراء وناظر الأموال ، وهذا الأسلوب لم يألفه العربان من قبل فى العهد المملوكى هذا بالاضافة الى ان نظام ادارة الأراضى الزراعية الذى سار عليه العثمانيون ـ سواء كان نظام المقاطعات ، أو ما عرف بنظام الأمانات ، أو نظام الالتزام ـ مكن الأمراء المماليك ورجال الحامية العثمانية من معظم الأراضى المصرية ، وأوجد حجرا على معظم امتيازات العربان ، مما جعل العربان عموما بمن فيهم عربان المغاربة يقفون موقف المقاومة من سلطات القاهرة ، ويشاركون فى كل الحركات المضادة لها ، والهادفة الى اضعافها » ٠

ونظرا لشدة بأس البدو المغاربة كان البكوات المماليك يستعينون بهم فى كثير من الأحياء بدلا من مقاومتهم ، مخالفين بذلك أوامر الباب العالى ، وانتهى الأمر بما يشبه التحالف بين البكوات والبدو فى حالات كثيرة ؛ مما يفسر ما لعبه هؤلاء المغاربة البدو فى الحياة الاقتصادية بعد ذلك كما يتضح من هذا التقرير للمؤلف نفسه :

« ان الدور الذى لعبه المغاربة فى الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ، لا يقل أهمية عن دورهم فى الحياة السياسية ، وان تميز بأنه كان دورا ايجابيا وذا فاعلية ، نتيجة للنفع الاقتصادى الذى عاد على المجتمع المصرى من وراء هذا النشاط الاقتصادى عن طريق نشاط

المغاربة التجارى داخل مصر أو نتيجة للمتاجرة بين مصر وبلاد المغرب العربى ۰۰۰۰ ووثائق العصر التى لا يمكن حصرها فى مثل هذه الدراسة تزخر بالأسانيد التى تثبت فاعلية هذا الدور وأثره على الحياة الاقتصادية المصرية (٣٠ مكرر) ، فقد اشـتغل المغاربة بالمتاجرة فى جميع أنواع السلع التى كانت رائجة ، وتمثل عصب الاقتصـاد فى ذلك العصر ، وبخاصة تجارة عصر الزيوت ، حتى ان المتتبع للوثائق الخاصة بالتجار الذين كانوا يمارسون نشاطهم بوكالة الزيت ببولاق ، يكاد يجزم بأن هذه التجارة كانت حكرا على المغاربة فقلما يعثر على تاجر يعمل بهذه التجارة غير مغربى ، وبخاصة أهل تونس وطرابلس الغرب ، وربما كان تعليل هذه الظاهرة يعود لجودة نمو أشجار الزيتون ببلاد المغرب العربى ، وعلى وجه الخصوص تونس التى أصبحت تعرف لدى الشعب المصرى عامة باسم « تونس الخضراء » ، وأيضا فان اشتغال المغاربة بتجارة البن يدل على ضخامة الثروة التى تكونت لدى معظمهم ، لأن هذه التجارة فى تلك الفترة كانت من التجارات المربحة ، وكان الذين يعملون بها من أصحاب رؤوس الأموال الضخمة لما تحتاجه من عمليات استيراد وايجاد وكلاء لهم فى موانىء البحر الأحمر ، وبخاصة ميناءا مخا وجدة » ۰



ولا شك أن الأخ ابراهيم محمد ابراهيم قد بذل جهدا طيبا فى نقل هذا الكتاب الى العربية ، وأدى به حرصه على دقة المعنى الى التسامح قليلا فى جمال الأسلوب ، فالمؤلف قد أكثر من الجمل الاعتراضية ، وكانت جمله فى غالبها طويلة مركبة ، لكن الأخ ابراهيم ظل يدق النص دقا وئيدا حتى فك مغاليقه ، كما اجتاز بنجاح عقبة مصطلحات العصر فأتى كتابه مقبولا نرجو أن يحقق غرضه ، فقد أطال ابراهيم الدق حتى أخرجه سويا ، فالرجل اذن دقاق ـ بتشديد القاف وفتحها ، نرجو أن يمد المكتبة العربية بمزيد من الترجمات ۰

وعلى الله قصد السبيل ۰

د۰ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مقـــدمة

يعد تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى أحد الفصول التى لقيت أقل قدر من الدراسة فى تاريخ هذه البلاد ، فى الحقبة الاسلامية (*) • لقد حكم سلاطين المماليك مصر لمدة ٢٦٧ عاما (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) ، ثم أصبحت ولاية عثمانية لمدة ٢٨١ عاما (منذ أن قام سليم الأول باسقاط السلطة المملوكية فى عام ١٥١٧ حتى الغزو الفرنسى فى ١٧٩٨) (**) •

ومن الناحية الرسمية ، ظلت مصر جزءا من الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ، ومع ذلك ، فقد حظيت الفترة المملوكية بدراسة أكثر دقة مما حظيت به الفترة العثمانية • ويبدو أن أسباب ذلك واضحة• اذ انه فى الفترة الأولى (المماليك) كانت مصر مركز الامبراطورية ، أما فى القرون الثلاثة التالية ، فقد صارت ولاية •

وقد يشرح هذا التغير فى مكانة مصر جزئيا ، على الأقل ، ثراء المصادر التاريخية ــ وبصفة رئيسية كتب التاريخ الحولى ، ومعاجم الأعلام ــ

(★) يعتبر الاستاذ ونتر فترة الحكم العثمانى ضمن ما اصطلح عليه المؤرخون العرب بالتاريخ الاسلامى الوسيط ، بينما الرأى الشائع فى عالمنا العربى والاسلامى هو اعتبار عام ١٤٥٣ ــ وهو العام الذى سقطت فيه القسطنطينية على يد العثمانى محمد الفاتح ــ هو بداية التاريخ الحديث ، وهذا يجعل التاريخ الحديث فى العالم العربى ، بل والاسلامى ، فى الفترة نفسها التى يبدأ فيها التاريخ الأوربى الحديث (القرن الخامس عشر) ــ (المراجع) •

(★★) من الناحية الشكلية (الرسمية) ظلت مصر تابعة للدولة العثمانية حتى سنة ١٩١٤ ، ومن الناحية الفعلية استمر المماليك يشاركون فى الحكم على نحو أو آخر فى ظل الدولة العثمانية ، كما كان الخلفاء العباسيون يعينون بعض المماليك كولاة تابعين لهم فى مصر ، ومعنى هذا أن حكم الرقيق الأبيض استمر فترة أطول بكثير من الفترة الرسميه لحكمهم التى تمثلها دولة سلاطين المماليك فى مصر (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) ــ (المراجع) •

بالنسبة للفترة المملوكية اذا ما قورنت بالفترة العثمانية • ومع ذلك ، تعد دراسة تاريخ مصر العثمانية مهمة مثيرة للتحدى • فبالنسبة لهذه القرون الثلاثة ، لدينا مصادر أرشيفية تركية وعربية واوربية (فرنسية بصفة رئيسية) ـ ومثل هذه المصادر ـ غائبة كلية تقريبا ـ بالنسبة لزمن المماليك •

ان روايات الرحلات التى تصف مصر العثمانية والتى كتبها رحالة أتراك وأوربيون وآخرون من شمال أفريقية تتفوق من حيث الكم والكيف على ما يوجد عن السلطنة المملوكية •

وتعتبر دراسة التاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية دراسة جذابة من وجهة نظر أخرى • اذ افتتن المؤرخون بتفرد الظاهرة المملوكية • لقد كانت هذه الظاهرة غير انسانية من بعض النواحى (مثلا كان المماليك يحرمون من فرصة توريث ممتلكاتهم وامتيازاتهم لأبنائهم) ، غير أن هذه الظاهرة زودت الاسلام بقوة عسكرية رائعة ونظام سياسى راق • فكان النظام الاجتماعى فى الدولة المملوكية صارما وقائما على بناء هرمى • غير أن المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى كان أكثر مرونة (*) : اذ صارت الخطوط الحادة التى تفصل النخبة المملوكية عن شرائح المجتمع الأخرى ، خاصة داخل الجيش أقل تميزا •

وابتداء من أواخر القرن السادس عشر ، حين ضعفت قبضة اسطنبول على الولاية (مصر) ، يستطيع المرء أن يتكلم عن وجود حراك اجتماعى أكثر وضوحا : فقد ظهرت فى الصدارة عناصر اجتماعية محلية مثل العرب البدو ، وعلماء الدين والصوفية ، والأشراف محققين نفوذا وسلطة الى درجة لم يكن من الممكن حدوثها تحت حكم السلاطين المماليك • لذا ، فان

(★) تحليل فى منتهى الخطورة ، ولا نتفق معه اطلاقا ، وان كان المقصود بصرامة النظام العسكرى المملوكى انه حقق بعض الانتصارات العسكرية ، ففى ظل الدولة العثمانية ـ وكان جانب كبير من نظمها ذا طابع مملوكى ايضا ـ تم فتح شرق اوربا كله ، بالاضافة لمناطق اخرى • وقد تعرضنا لهذه النقطة بالتفصيل فى المقدمة التى كتبناها لهذا الكتاب ـ (المراجع) •

البنى الاجتماعية الصــــارمة تزود مؤرخى مصر العثمانية باطار ملائم للمقـــارنة (*) ٠

كما سبق أن قلنا ، كانت مصر العثمانية ، مجالا للدراسة طال اهماله ٠ وبدأ الاهتمام به ينمو مع التقدم الهائل الحديث الذى أحدثته الدراسات العثمانية بصفة عامة ٠ ذلك أن الاستخدام الموسع للمحفوظات العثمانية ابتدأ بدراسات عن مصر العثمانية قام بها ستانفورد ج ٠ شو Stanford J. Shaw ، فتحت آفاقا جديدة للبحث ٠

يجب دراسة مصر بين القرنين السادس عشر والسابع عشر (وفى القرن الثامن عشر أيضا) من حيث خلفيتها العثمـــانية ، آخذين فى الاعتبار ، الملامح الخاصة للتاريخ والمجتمع المصرى ٠

وليست القرون الثلاثة للحكم العثمانى فى مصر ، أيضا موثقة بدرجة واحدة توثيقا جيدا ولم يكتب عنها ما يكفى من الحوليات : فهناك الكثير مما يعرف عن القرن الثامن عشر أكثر مما يعرف عن المائتى سنة السابقة ٠ فبالنسبة للقرن الثــامن عشر ، توجد عدة دراسات أساسية : منها عمل أ٠ ريمون Raymond عن القاهرة ، ومقالات د ٠ أيلون Ayalon التى يقارن فيها بين المجتمع العسكرى المملوكى فى ظل الدولة العثمانية بنفس المجتمع تحت حكم السلاطين المماليك ٠ وكتاب ب٠جران Gran عن الحياة الاجتماعية والفكرية ، ودراسة كريسيليوس Crecelius عن عهدى على بك الكبير ، ومحمد بك أبو الدهب ٠ وهذان الحاكمان من الحكام المماليك البارزين ، وكذلك دراسة عبد الرحيم عبد الرحمن عن الريف ٠

وهناك حاجة الى القيام بمزيد من الدراسة للقرنين السادس عشر والسابع عشر، رغم أن ب٠م٠هولت P. M. Holt قد درس النخبة العسكرية فى القرن السابع عشر كما وصف ج٠هـ٠ النحال النظام القضائى ٠

وآمل فى أن يسهم الكتاب الحالى فى البحث فى التاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية ، عن طريق تقديم ما توصــلت اليه من خــلال المحفوظات

(★) والعبارة أيضا تعنى أن البنى الاجتماعية العثمانية هى ـ الى حد ما ـ بنى مملوكية ، فالفارق فى الدرجة وليس فى النوع ـ (المراجع) ٠

والحوليات وغير ذلك من المصادر ، واثقا فى أنه سيكون من المفهوم أن كتابتى عن الفترة المتأخرة تعتمد على الأسس الصلبة التى وضعها دارسون آخرون ، بينما فى الفترة المبكرة ، كانت هناك حاجة كبيرة الى التنقيب عن الأصداف قبل أن تظهر الخطوط العريضة لتاريخ مصر الاجتماعى بصورة أوضح ٠

وتحاول هذه الدراسة أن تتتبع تطور التكوينات الاجتماعية الأساسية عبر تلك الفترة ، وذلك بوصف التغيرات وتفسيرها ٠ وانى على علم تام بمزالق هذا المنهج ٠ ذلك أن الفترة الزمنية التى يغطيها هذا الكتاب من الطول بحيث تقتل الموضوع أو تستنفده ٠ والمعلومات المتاحة فى غالب الأحيان نادرة ، وغير كاملة ، بل وأحيانا مشتتة وغير مترابطة ٠ ولقد حددت طبيعة المعلومات والمصادر ، الطريقة التى تم بها تناول كل مبحث ٠ وتعد الوثائق الأرشيفية هى المصادر الرئيسية بالنسبة لبعض التكوينات الاجتماعية مثل الجيش والعرب والبدو واليهود ٠ ومن ناحية أخرى ، كان من الضرورى الاعتماد فقط تقريبا على الحوليات وكتب التراجم لمثل تلك المباحث التى تتناول العلماء والصوفية والأشراف ٠ ان الوضع المثالى ـ الذى تكمل فيه الوثائق الرسمية ، والحوليات وحكايات الرحلات سردنا التاريخى ـ لا يظهر كثيرا بكل أسف ٠ فمعظم المحفوظات فى اسطنبول ٠ وهذه بها نقاط القوة ، وكذلك نقاط الضعف التى توجد فى الوثائق الرسمية التى تصدرها ادارة مركزية مسئولة عن احدى الولايات ٠ وكذلك الحوليات التى قام مصريون بكتابتها باللغة العربية أو التركية فانها تمثل النظرة المحلية للأحداث والشخصيات ٠

لم أتمكن من تخصيص فصل منفصل للطبقة الاجتماعية التى تشكل غالبية سكان مصر فى الفترة العثمانية ، وأعنى بها طبقة الفلاحين ٠ ذلك أن تناول هذا الموضوع بأى قدر عادل كان سيتطلب المزيد من المعلومات أكثر مما هو متاح لدى فى الوقت الحاضر ٠

الفصـــل الأول

خلفيــة تاريخيــة

السلطنة المملوكية (١٢٥٠ ـ ١٥١٧)

بعد فترة طويلة من الانحدار والسلبية تحت حكم الخلفاء الفاطميين الأواخر ، أصبحت مصر ، مرة أخـــرى ، مركزا لدولة قوية يحكمهـا صلاح الدين وخلفاؤه من الأيوبيين (١١٧١ ـ ١٢٥٠) ٠

وتجمعت حول مصر امارات الشام والعراق التى يحكم كلا منها حاكم من الأسرة الأيوبية ، وكان هؤلاء الحكام يعترفون عادة بحاكم مصر باعتباره سلطانا عليهم لما لمصر من موارد اقتصادية ووضع جيوبوليتيكى مهم ٠

وكان الصليبيون يتحرشـــون بالدولة الأيوبية ، وكانوا ما يزالون يتشبثون بعناد بسواحل الشام وفلسطين كما كان يأتيهم ، من آن لآخر ، دعم من الخارج بالرغم مما اعتراهم من الضعف الشديد بسبب الهزيمة الساحقة التى ألحقتها بهم قوات صــلاح الدين فى حطين بفلســـطين عام ١١٨٧ م ٠

وحين أدرك المسيحيون أن الجهود يجب أن توجه نحو مصر وليس الشام ، قاموا بشن هجومين كبيرين ضد مصر (١٢١٩ ـ ١٢٤٩) وفشل هذان الهجومان ، غير أن هزيمة الصليبيين لم تكن أمرا سهلا ٠

فقد أدى موت الملك الصالح نجم الدين أيوب آخر السلاطين الأيوبيين المهمين أثناء المعركة مع لويس التاسع الى حدوث أزمة فى الدولة ٠

وبعد أن استولى الفرنجة على ميناء دمياط فى ١٢٤٩ ، توجهوا نحو المنصورة ، التى تقع على بعد خمسين ميلا الى الجنوب ، حيث هزمهم المسلمون بالاعتماد على قوات الملك الصالح التى تسمى المماليك البحرية ، (فبراير ١٢٥٠) • فمهد هذا النصر الطريق أمام المماليك لاغتصاب السلطة وانشاء سلطنتهم ، التى دامت قرنين ونصف قرن •

ولقد كانت دولة المماليك كيانا سياسيا فريدا من نوعه (١) فلم تكن بصفة عامة تحت حكم احدى الأسر الحاكمة ، وانما تحت حكم أقلية من الجند ، أو المماليك ، أو العبيد العسكر الذين نالوا حريتهم • وكان المماليك عبيدا بيض البشرة تم شراؤهم وتربيتهم ثم تدريبهم كصفوة عسكرية • ولقد ولدوا خارج نطاق سلطان الاسلام ، عادة فى سهول أوراسيا الشاسعة شمال بلاد الاسلام أو فى القوقاز لوالدين غير مسلمين يفضل أن يكونوا من سلالة تركية ، وكانوا يستجلبون وهم ما يزالون صبية ، أو مراهقين عن طريق النخاسين (تجار الرقيق) • وكان نظام استخدام الرقيق للأغراض العسكرية يمارس منذ أزمنة مبكرة فى العصر الاسلامى ، وتوطدت أركانه أثناء حكم الخليفة العباسى المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) ، ثم انتشر فى جميع أنحاء أرض الاسلام •

ولقد اشترى الملك الصالح المماليك بأعداد كبيرة ، وهى سياسة مهدت لاستيلاء المماليك على الدولة بشكل نهائى • وكانت ظاهرة جلوس العبيد السابقين فى أماكن سادتهم غير مسبوقة ؛ لذا كان وضعهم غير مقنن شرعا • اذ كانوا فى حاجة الى اضفاء الشرعية على حكمهم وأن يزيلوا بقايا الأيوبيين • وسنحت لهم الفرصة حين دحروا المغول الذين كانوا يبدون فى حالة من المنعة فى عين جالوت ، بفلسطين (١٢٦٠) ثم أحضر الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) الى القاهرة واحدا من سلالة الخلفاء العباسيين ببغداد ، بعد أن محيت هذه الأسرة تقريبا أثناء احتلال المغول المدمر لمدينة بغداد ، فى ١٢٥٨ ، وبذلك أضفى على حكمه هالة من الشرعية •

لقد كان بيبرس ، مؤسس السلطنة المملوكية حاكما قديرا وفريدا الى جانب كونه قائدا عسكريا • اذ حول مصر والشام والحجاز الى وحدة

مترابطة وأكثر قوة • وفيما بعد ، وضع هذا النظام حدا لوجود الفرنجة فى الشرق ، ورد المغول الى ما وراء نهر الفرات •

وتحت حماية الفرسان المماليك المهرة ، شيدت السلطنة الجديدة حياة اجتماعية دينية قائمة على مبادىء المذهب السنى المحافظ وبذلك استمرت فى سياسة الأيوبيين الدينية • فرعت العلم وقامت بحماية قافلة الحجيج السنوية الى مكة والمدينة كما أقامت آثارا رائعة فى المدن الرئيسية فى مصر والشام •

وكانت هذه الانجازات وغيرها تمول من عوائد الزراعة والتجارة الدولية وبصفة رئيسية تجارة التوابل الشرقية المربحة التى كانت تمر عبر السلطنة الى أوربا •

وكان المماليك يميزون تمييزا حادا بين الحكام والمحكومين • فكانت السلطة السياسية لا تتركز سوى فى أيدى المماليك •

وأثناء النصف الأول للسلطنة (١٢٥٠ ــ ١٣٨٢) كان معظمهم من سلالة الكيبتشاك Quipchak التركية وبعد ذلك،حتى عام ١٧١٥، كانوا يأتون من القوقاز وكانوا من الشركس • وكانت المصادر العربية وسكان البلاد الأصليون من الناطقين بالعربية يطلقون عليهم المماليك الأتراك، سواء كانوا من الأتراك أو الشركس أو من أصـول أخرى لأنهم جميعا كانت أسماؤهم تركية ، كما كانوا يتكلمون بالتركية • ولقد أبعد هذا التتريك المماليك عن محكوميهم ، الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية وأسماؤهم عربية • وبالرغم من جميع هذه الفوارق بين المماليك ورعاياهم ، الا أن حكم المماليك كان ينظر اليه باعتباره كامل الشرعية بما أن المماليك كانوا مسلمين حريصين على الدين وأثبتوا قدرتهم على الدفاع عن الاسلام ، ويحافظون على الأمن الداخلى • وكان المماليك يعتنقون الاسلام ويتدربون كجند وينالون حريتهم • وكان أكثرهم موهبة وطموحا يشق طريقه الى أعلى البناء الهرمى فيصبح الواحد منهم ضابطا أو أمير عشرة رجال أو

اربعين أو مائة • وكان السلطان يتم اختياره من بين أعلى رتب الأمراء ، وغالبا ما كان ذلك يتم بعد صراع شرس بين الجماعات المختلفة •

وفى الفترة التى كان المماليك فيها من أصول تركية (أى الفترة التركية أو البحرية) رسخت أسرة قلاوون نفسها ، ولكن أثناء السيادة الشركسية (الفترة البرجية) تم التخلى عن مبدأ الأسر ، مع تنافس أكثر أمراء المائة من أجل السلطنة •

ولم تكن عضوية الطبقة الحاكمة بالوراثة • فلا يمكن لأبناء المماليك الالتحاق بالصفوة العسكرية ، أو أن يتولوا مناصب سياسية • وكان من يلتحقون منهم بالجيش يسمون أولاد الناس ، غير أنهم كانوا مقصورين على الخدمة فى الرتب المنخفضة ، وكانوا يتلقون مرتبات متواضعة ولم تتح لهم فرص الترقى • وكانت الحياة العملية الأخرى المفتوحة أمامهم هى أن يكونوا علماء أى دارسى دين بحيث يدفع آباؤهم ما يؤمن مستقبلهم وذلك بتعيينهم مدراء أو أوصياء على مؤسسات دينية (الوقف) يكون الأب قد قام بانشائها • وكان مبدأ عدم توريث مكانة المماليك (أى رتبهم العسكرية ومناصبهم) قائما على أساس القناعة التى أثبتت نفسها لعدة قرون ، وهو أنه للحفاظ على حيوية المماليك ومستوياتهم الراقية لابد من استيراد مماليك جدد باستمرار من خارج دولة الاسلام •

وكان يعتقد أن أبناء المماليك الذين ولدوا بالفعل فى مصر أو الشام، أكثر لينا من أن يكونوا من الفرسان • فالمماليك الشبان الجدد القادمون من السهوب الأوراسية هم الأبرع •

وبالاضافة لذلك ، كان يخشى أن يؤدى تفضيل أولى القربى والميل الى تعيين الأبناء الى اضعاف النظام العسكرى المملوكى والبنية الاجتماعية ، التى قام عليها مجتمع المماليك •

لقد خرج المماليك عن أعرافهم (نظامهم الطبقى) عندما تم تعيينهم كوكلاء ومندوبين ، وكان هذا التعيين فى السلك المدنى لازما لأمور الحكم • اذ انهم ـ لهذا الغرض ـ قاموا باختيار عدد من المماليك الذين ولدوا فى مصر ويتحدثون العربية ، ليكونوا موظفين حكوميين ومسـئولين ماليين

وتجارا أثرياء وكتبة . ورغم حيــاة الرخاء التى كان يحياهــا هؤلاء ، وما يتمتعون به من نفوذ الا أن هؤلاء الوســطاء كانت تنقصهم القوة السياسية . فقد كان فى مقدور سلطان قوى الارادة أن يلقى بأى ذى منصب عال فى غياهب السجن دون محاكمة حقيقية ، بل ويصــــادر ممتلكاته . ويروى أن أحد السلاطين بلغ به الغضب مداه عندما رفض قضاة المذاهب الأربعة الموافقة على اعــدام موظف كبير لاتهامه بالزنا ، فأصدر أمرا بعزلهم جميعا وعين قضاة آخرين بدلا منهم .

وكان معظم الجهاز الادارى من المسلمين ، لكن هذا لم يمنع من أن المسيحيين واليهود قد لعبوا دورا حيويا كجامعى خراج وعشور ومراقبى حسابات وصرافين ومسئولين عن دور السك . وفى مقابل دفع ضريبة الرأس (الجزية أو الجوالى) (*) تتمتع هذه الأقليات (أهل الذمة) بالعيش فى أمان وممارسة شعائر دينهم دون اعتراض ، الا أنهم فى بعض الأحيان كانوا عرضة للاضطهاد والابتزاز .

وكان غالب السكان يعيشون فى قرى ومدن صغيرة وكانوا فلاحين يزرعون الأرض خصبة التربة فى وادى النيل . ويتعرض هؤلاء الفلاحون لضرائب باهظة لا ترحم كما يتعرضون لظلم فادح : ان ظروفهم المعيشية وما يتعرضون له من استغلال تعد أمرا مرعبا اذا قارنا أوضاعهم بأوضاع المسلمين المعاصرين أو الأوربيين . وتشكل القبائل العربية عنصرا مهما من سكان القرى والصحراء ، وثمة بعض البدو ، وأنصاف البدو يعيشون جانبا من العام فى القرى . وكان العرب ، وهو لفظ كان يشير فى ما قبل العصر الحديث الى البدو ، هم المجموعة الوحيدة بجانب الجيش التى كانت تركب الخيول وتحمل السلاح .

وكانوا كثيرين ، ويشتهرون بالشجاعة وغالبا ما هبوا فى تمرد ضد المماليك . غير أنهم لم يشــكلوا قط تهديدا جديا لسيطرة المماليك ، اذ كانوا يفتقرون الى الوحدة ، والانضباط والتدريب .

(★) الجوالى جمع جالية وهى مصطلح مملوكى ، وفى سنة ١٨٥٤ استخدم المصطلح التركى ويركو التى كانت تجبى من الشخص بصرف النظر عن دينه ، لكن الجوالى ظلت فى مصر خاصة لسيطرة ثقافة المماليك ــ (المراجع) .

وكان سكان المدن ، ونحن هنا نشير الى دمشق وحلب فى الشام ، والقاهرة التى كانت كل مدن مصر قزما الى جانبها ، كان سكان هذه المدن من الحرفيين وأصحاب محال التجارة ولم تكن لهم طوائف (نقابات) تحمى حقوق الأعضاء ومصالحهم ، ولم يكن يحد من جشع الأمير أو استغلال طبقات سكان المدن سوى الترتيبات الخاصة أو الوساطة وليس حكم القـــانون ٠

وعند سفح الهرم الاجتماعى كانت طبقة العمـــال المطحونة ، أى أفقر النـــاس الذين أصبحوا يقومون بأشــق الأعمال وأدناها ٠ فكان هؤلاء يمارسون العنف ضد الأقليات الدينية أو ينهبون منازل الأمراء الذين يقعون خارج السلطة وقل نفوذهم ـ اذا ما أتيحت لهم الفرصة،ومن بين حثـــالة المجتمع كانت هنـــاك جمـــاعات منظمـــة من الزعر (*) والحرافيش ٠

ولكن الاسلام منح ترابطا لمجتمع يتكون من العشائر ، والقبائل وأحياء المدن ٠ فكان العلمـــاء أو طـــلاب العلوم الدينية ورجال الشرع يشكلون عنصرا هاما فى المجتمع وكانوا يؤثرون فى جميع طبقات المجتمع، اذ كانوا يتصرفون باعتبارهم مناصرى الدين ومعلميه ومفسريه وكان أكثرهم ثراء وأكثرهم تميزا ـ غالبا ما يحتفظ بصلة الحكام ويعين قاضيا أو موظفا بالدولة أو معلما ٠

ويمثل الصوفيون عنصرا مهما آخر فى الحياة الدينية ، وكانت لهم حظوة خاصة لدى الطبقات الدنيـــا ، رغم أن هذه الحظوة لم تكن لهم وحـــدهم ٠

وفى أواخر العصر الوسيط كان تأثير الاسلام الرسمى النمطى كما يقدمه العلماء قد صار شيئا لا يكاد يكون مذكورا ، من الناحية العملية ، فى الريف المصرى ٠ فبينما كان يتصارع الصوفية مع العلماء فى المدن

(*) الزعر (بتشديد الزاى وفتحها) والمفرد : ازعر ـ (المراجع) ٠

من أجل التأثير فى المجتمع المسلم ، فهم ـ أى الصوفية ـ حلوا محلهم فى الريف ٠

وتعد فترة حكم الشركس أو المماليك البرجية فترة اضمحلال اذا ما قورنت بفترة المماليك البحرية الأتراك ٠

ولم يعد للسلطنة أعداء خطرون ، اذ ان الفرنجة كانوا قد طردوا عام ١٢٩١ م ، ومع مطلع القرن الخامس عشر ، بعد انسحاب تيمورلنك من الشام ، لم يعد المغول يشكلون تهديدا أيضا ٠ فلم يطور الجيش طرقا فنية عسكرية جديدة (تكتيكات) ، كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة ٠ ذلك أن المماليك رفضوا استخدام أسلحة نارية ، وهى التسليح الحديث لذلك الزمان ، معتبرين أنها أسلحة لا تمت للفروسية ، أو الرجولة أو الاسلام ٠ كما لم يكن من الممكن استخدام البندقية من فوق صهوة جواد وبذلك لم تعد محل تفكير لدى المـــــاليك ، بهذا المعنى ، فالمهارة العسكرية والعبقرية القتالية لدى المماليك قوامها الفروسية ٠ ونتيجة لذلك ، مر الجيش المملوكى بفترة طويلة من الركود ولم يضم أراضى جديدة تحت الحكم المملوكى ، الا قليلا فظلت حدود السلطنة على ما كانت عليه تقريبا تحت حكم بيبرس فى القرن الثالث عشر ٠

وبينما كانت السلطنة المملوكية تضمحل ، حققت جارتها الشمالية، الدولة العثمانية تقدما سريعا (٤) ٠ فقد تطورت الامبراطورية العثمانية من امارة صغيرة أقيمت فى بداية القرن الرابع عشر فى الركن الغربى الشمالى من الأناضول كواحدة من بين العديد من الامارات التركية واشتبكت فى الحرب المقدسة ضــد البيزنطيين ٠ وحين توسع العثمانيون باطراد على حساب الحكام المسيحيين فى البلقان الممزق وعلى حســاب الامارات التركية فى الأناضول ، أصبحوا قوة شديدة تحت حكم السلطان محمد الثانى (١٤٥١ م ـ ١٤٨١) الذى حقق الحلم الاسلامى القــديم بفتح القسطنطينية التى سرعان ما أعيد تسميتها باسطنبول (١٤٥٣) ٠ وحتى ذلك الوقت ، لم يكن هناك ســوى قليل من الاتصــال بين العثمانيين والمماليك ، باستثناء منازعات صغيرة من آن لآخر تتعلق بصفة رئيســية بالحج الى مكة ٠

وبعــد أن استولى العثمانيون على القسطنطينيــة ، تزايد توجس المماليك ، من التوسع العثمانى ٠

وقرب نهاية القرن الخامس عشر (١٤٨٥ ــ ١٤٩١) ، زاد الموقف توترا وتفجر فى صراع عسكرى من أجل السيطرة على الامارات التركمانية فى الأناضول ٠ وكانت هذه الامارات فى الاقليم الواقع على الحدود بين الامبراطوريتين (العثمانية والمملوكية) ٠

وكان ثمة مجال آخر للاحتكاك ، ألا وهو اللجوء السياسى الذى أعطاه السلطان المملوكى للأمير العثمانى الذى كان قد فر من اسطنبول ٠

وفى نهاية القرن ، صارت العلاقات الدولية فى الشرق الأوسط فجاة أكثر تعقيدا ٠ اذ حرم اكتشاف البرتغاليين لطريق الرأس الى الهند مصر من عوائد تجارة التوابل ، فأسهم ذلك فى مصاعب الدولة الشديدة أصلا٠ كما أدى امتداد النشاط البرتغالى التجارى والعسكرى الى المحيط الهندى الى تهديد البحر الأحمر ، والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ٠

ولم يستطع المماليك أن يتخذوا موقفا ضد البرتغال لأنهم لم تكن لديهم قوات بحرية ، مما دعاهم الى الاتجاه للعثمانيين من أجل العون البحرى وحصلوا عليه ٠

وثمة عامل آخر لتعقد الموقف يتمثل فى صعود الأسرة الصفوية الشيعية للسلطة فى فارس ٠ فبعد قرون من عدم الاستقرار ، والتشرذم ، توحدت البلاد على يد اسماعيل شاه الذى جعل من المذهب الاثنى عشرى الشيعى المذهب الرسمى للدولة ٠ فشعر العثمانيون بالتهديد ، اذ ان أراضيهم فى شرق الأناضول التى كانت تسكنها قبائل تركمانية كانت عرضة للدعاية الشعبية العلوية التى يشنها الحاكم الصفوى ، وهو نفسه من أصل تركمانى ٠ فذبح السلطان العثمانى سليم الذى يكنى (يفوز) ــ أى المتجهم ــ المتعاطفين مع المذهب الصــفوى (الاثنى عشرى) فى الأناضول ٠

ثم هزم سليم اسماعيل فى موقعة تشالديران (*) عام ١٥١٤ ، فى أذربيجان ، ورغم الضعف الذى حاق بالصفويين ، الا أنه لم يتم القضاء عليهم نهائيا ٠

(★) أو جالديران او بكاف فارسيه كالديران ٠

وخشى العثمانيون من امكانية عقد معاهدة بين المماليك والصفويين ٠ غير أنهم كانوا يعتبرون الصفويين التهديد الأخطـر ٠ فحين قاد سليم جيشا قويا نحو شمال الشام ، لم يكن واضحا ما اذا كان يوجه جيشه نحو المماليك أو الفرس ٠

وكان تقدم الجيش المملوكى بقيادة قنصوه الغورى نحو الحدود الشامية العثمانية بمثابة خطوة غير عادية ، حتى ولو كانت دفاعية فحسب، وكان لسليم مبرره فى اعتبارها عملا حربيا (٥) ٠ وهزم المماليك فى الموقعة القصيرة التى حدثت فى اغسطس عام ١٥١٦ على سهل مرج دابق ، شمال حلب ومات السلطان المسن فى ميدان القتال ، ربما بسبب الصـدمة ٠

ومكنت الأسلحة النارية العثمانيين من التفوق التام على المماليـك الذين انخفضت معنوياتهم وتفرقوا كما أن العثمانيين فاقوهم عددا ربما بنسبة واحد الى ثلاثة (حوالى ٦٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠) ٠ كما ساعد على انتصار العثمانيين غدر خاير بك ، الذى كان حاكما على امارة هامة من الناحية الاستراتيجية من حيث الموقع ، وهى حلب ، والذى كان عليه أن يقود مفرزة من المماليك ضد العثمانيين ، الا أنه فى لحظة حرجة انحاز الى العثمانيين كما كان متفقا عليه سابقا ٠ فاستحوذ العثمانيون بيسر على الشـام ٠

لم يندم المماليك على أنهم اعتبروا مصر دائما مركزا لسلطنتهم ، التى لم تمثل الشام فيها سوى وضع المنطقة العازلة ٠ فكانت العقود الأخيرة لحكم المماليك للشام مليئة بالمتاعب والحروب الأهلية والتدهور الاقتصادى ٠ فلا غرو فى أن السكان المحليين فى الشام نظروا بلا مبالاة لهزيمة المماليك ، بينما كانت بقايا جيشهم تتراجع نحو مصر ٠

وفى القـاهرة ، أجبر كبار الأمراء طومان باى ، نائب الغورى ، على أن يتولى السلطنة ٠ ولما كان رجلا مخلصا وشجاعا ، فقد حاول اعادة تنظيم ما بقى من المماليك ومساعديهم من البدو ، بالرغم من أن خزانته كانت خاوية ٠

أثناء ذلك بدأ سليم يتقدم بجيشه عبر صحراء سيناء · وقام ببضع محاولات تتسم بالتردد للتفاوض للوصول الى تسوية بدلا من أن يحاول فتح مصر · فاقترح على طومان باى الاستمرار فى حكم مصر بعد الاعتراف بسيادة سليم ، وهو ترتيب لم يكن بحال مناقضا للسياسة العثمانية العامة · وحين فشلت المفاوضات بسبب اصرار خاير بك على سحق المماليك أو لأن تحركات سليم الدبلوماسية لم تكن مخلصة ، أو لأن مستشارى طومان باى قتلوا مبعوثى سليمان ـ صار القضاء على السلطنة المملوكية أمرا حتميا (٦) ·

وفى يناير ، ١٥١٧ ، هزم العثمانيون المماليك فى الريدانية ، الواقعة تماما فى شمال القاهرة·وذهبت جهود طومان باى فى الاستمرار فى القتال بلا جدوى · ففر الى اقليم البحيرة ، حيث لجأ الى منزل حسن ابن مرعى ، وهو أحد شيوخ البدو الذى كان مدينا له · فاقسم الشيخ العربى سبع مرات على المصحف بأنه لن يسلم طومان باى للعثمانيين ، غير أنه سرعان ما حنث بيمينه . وخان طومان باى وسلمه الى سليم الذى أمر بشنق السلطان المملوكى كما لو كان مجرما عند باب زويلة بالقاهرة ·

وكان اعدام سلطان بهذه الطريقة أمرا غير مسبوق وكان المنظر مؤثرا كما وصفه ابن اياس وهو شاهد عيان على الفتح · أما سليم ، فقد حقق غرضه : وراح يذكى الشائعات القائلة بأن طومان باى كان ما يزال يقاوم العثمانيين ، لذا فقد عوقب بالقتل وعرف الأهالى المصريين أن السلطة المملوكية قد انتهت (٧) ·

الفتح العثمانى

وقع الفتح العثمانى وقع الصدمة ـ شأنه شأن أى احتلال عسكرى على السكان · فابن اياس الذى يروى الأحداث بالتفاصيل ، يقارن الفتح بفتح نبوخذ نصر لمصر فى الأزمنة القديمة ، الذى يفترض أنه خرب البلاد كلها ، كما يقارنه بتدمير بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ ، ذلك الدمار الذى كان يعتبر لكل مسلم له وعى بالتاريخ كارثة شديدة (٨) ·

وبينما تعتبر هذه المقارنات مبالغات شديدة ، فهى تكشف عن اتجاه هذا المؤرخ الحولى ضد العثمانيين · اذ ان ابن اياس كان ينتمى الى طبقة أولاد الناس ويؤثر سقوط المماليك فيه تأثيرا شخصيا · ومع ذلك ، فقد كان دائما ذا عقل عادل فى ملاحظة مجتمعه بصفة عامة ولم يتردد فى أن يوجه نقـده الى دولة المـماليك وجنـدها · فالجزء الخامس من كتابه يعد استنكارا صريحا حادا للعثمانيين مقدما نظام المماليك بشكل يثير الحنين الى الماضى · ولا يوجد قليل من الشك فى أن ابن اياس كان يتكلم بالنيابة عن الرأى العام القاهرى · ومع ذلك ، فان نقائص المماليك كانت معروفة للمصريين بعد حكم دام لأكثر من قرنين ونصف · لذا لا يمكن أن نصف الفتح العثمانى بأنه مجرد تغيير سيد تركى بسيد تركى آخر · فطبقا لابن اياس ، لم يخل الفتح العثمانى من اراقة الدماء (*) ، فالحرب بين العثمانيين والمماليك كانت حربا بين دولتين سنيتين اسلاميتين ، وكان لا ينبغى أن يلحق بالسكان المدنيين أى ضرر على الاطـلاق · فالجنود العثمانيون نهبوا القاهرة لمدة ثلاثة أيام حتى أوقفهم أمر السلطان فكان المماليك يذبحون بشكل منظم · وكثير من المدنيين الذين كان يشتبه فى اخفائهم للمماليك أو مساعدتهم كانوا يقتلون ، مع أن الرقم الذى أعطاه ابن اياس للقتلى وهو ١٠٠٠٠ مضخم تضخيما كبيرا · ووصف ابن اياس عدة مرات كيف كان يقتل المماليك ، رغم وعود بالعفو كان يمنحها لهم سليم شخصيا (٩) ·

ومن الأمور بالغة الأهمية للتاريخ السياسى والاجتماعى لمصر تحت الحكم العثمانى ، أن ذبح العثمانيين للمماليك سرعان ما توقف وتم الابقاء عليهم فى مصر ، كما تم دمجهم فى الحامية العثمانية · ولا تذكر المصادر بوضـــوح السبب الذى أوقف ذبحهم · وهنـــاك بعض الأدلة على أن خاير بك قد تدخل نيابة عن المماليك وظن العثمانيون أنه من الحكمة الابقاء على جنود مهرة كهؤلاء كانوا يتحدثون اللغة التركية مثلهم ، بالاضافة الى أنهم كانوا من السنة ·

وفى سبتمبر ، قبل أن يغادر سليم مصر مباشرة ، صدر عفو عن المماليك · فخرجوا من مكامنهم يرتدون ملابس فلاحين : اذ كانوا معدمين

(*) Not bloodless.

وبلا جيـــاد ٠ ومن الواضح أن العثمانيين لم يكونوا قد قرروا كيفية معاملتهم ٠ فى البداية حظر على المماليك أن يرتدوا ملابس العثمانيين وأمروا أن يرتدوا « زمت أحمر ومالوتة » وهو الزى المعتـاد للمماليك ٠ وانقلب الأمر فى عام ١٥٢١ ٠ اذ حذر المماليك بأن يفقدوا حياتهم اذا ارتدوا ملابسهم المعتادة وصدرت لهم الأوامر بارتداء ملابس عثمانية ٠ وكان أوضح تمييز بين الجماعتين هو أن العثمانيين كانوا حليقى اللحى بينما كان المماليك ملتحين ٠ وفى احدى المناسبات حين تفقد خاير بك المماليك، وهو والى مصر العثمانى ، يقال انه قص نصف لحية كل مملوك ، وأعطاه له وقال : « يجب عليكم الخضـوع للقانون العثمانى ، فاحلقوا لحاكم وضـيقوا أكمامكم ، وكـونوا فى كلٍ شىء كالعثمانيين » ٠ ولا تعطى المصادر أسباب هذه التغيرات ، غير أنه لابد أن لها علاقة بالشجار الدائم والمعارك الحامية الدامية بين المماليك والعثمانيين ٠

ولقد تنوقلت الأخبار بخروج المماليك والعثمانيين ليـلا لارتكاب الجرائم وكل منهم متنكر فى زى الآخر ٠ ولقد عانى المماليك من التمييز : اذ كانت رواتبهم تدفع بعد تأخير سبعة أشهر وكان تدهورهم الاجتماعى باديا للعيان ، فى حين أن البيروقراطيين (الموظفين) تجاسروا الآن على الاقتران بأرامل المماليك أو أخواتهم ، ولم تعد فرق الموسيقا تقف على أبواب كبار أمراء المماليك لتعزف الموسيقا ٠

ومع مرور الوقت ، على كل حال ، تحسن وضع المماليك ٠ فمرة أخرى كان يتم تعيين أمراء المماليك لفرض النظام على الفرق العثمانية المتمردة ، وحدث هذا بعد الفتح بستة عشر شهرا فقط فارتفعت الروح المعنوية لدى المماليك ارتفاعا كبيرا بعد أن مات السلطات سليم ، وخلفه ابنه سمليمان ، الذى عرف فيما بعد بسليمان القانونى أو العظيم حسب المصادر الأوربية فى سبتمبر عام ١٥٢٠ ٠ وأصبح خاير بك ، الذى كان يسمى المماليك (صرم قديمة) ــ أصبح الآن يخاطبهم باحترام بلقب أغا ٠ كذلك ساعدت جنود وحدة مملوكية ، تتكون من عدة مئات من الجنود ،

كان سليم قد نفاهم الى اسطنبول ـ على فتح جزيرة رودس عام ١٥٢٢ ٠ وحين شهد سليمان أداءهم فى القتال ، عبر عن دهشته من أن « مثل هؤلاء المماليك المدهشين » كانوا يقتلون فى عهـد أبيه ٠ وهكذا قبل السلطان المماليك ، أخيرا كجزء لا يتجزأ من الجيش الامبراطورى غير أن أوضاعهم مع الوحدات كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار ٠

فلقد أصيب ابن اياس من قسوة العثمانيين فى مصر لأنه قد عرف عنهم أنهم كانوا مجرد حكام فى بلادهم ٠ فهو يصور سليم على أنه رجل متعطش للدماء فظ عصبى لا ذوق له ٠ لا يحافظ على كلمته ، ولا يعـدل بين الناس ، كما كان يتعاطى الخمر فيصبح ضعيف الشخصية ، فلم يتمتع بكرامة الملوك أو ما يتحلون به من آداب السلوك ٠

ويقول هذا المؤرخ الحولى ان الجنود العثمانيين كانوا عامة ممن يشربون الخمر وكانوا من مدمنى الشبك (*) ، كما لم يكونوا ينتهكون حرمة شهر رمضان ، ولم يكن بعضهم حتى يقيم الصلاة ، وكانوا ينتهكون حرمة الأضرحة والأماكن المقدسة (١٠) ٠ كذلك ، كثيرا ما كان الجنود يسرقون الطعام من أصحاب الحوانيت أو لم يكونوا يدفعون الثمن المقرر ٠ وكان الناس يكرهون على جذب المدافع الثقيلة أو يشحنون أعمدة الحجارة التى يكون العثمانيون قد انتزعوها من بعض القصور ، داخل بعض السفن المتجهة الى اسطنبول ٠ كما كان الرخام يخلع من المبانى ويشحن الى الحاضرة العثمانية ٠ وكثيرا ما كان الجند العثمانية يتحرشون بالنساء والصبية فى الدروب ٠ ولقد منع أحد القضاة العثمانيين النساء القاهريات من الخروج الى الطرقات ومنعهن من ركـوب الحمير ، حتى لا يفســـدن الجنود ، كذلك حظر على العثمانيين ألا يتزوجوا من نساء مصريات ، والا عرضوا حياتهم للخطر ٠ كما قام الاحتلال العثمانى بتغيير نظام المهرجانات٠ فأثناء زمان المماليك ، كان المصريون يشاهدون احتفالات رائعة ، ومراسم متعددة الألوان كان يعرض فيها الفرسان المماليك مهاراتهم الفذة فى العروض والمهرجانات وفنون الحرب ٠

(*) غليون طويل القصبة ٠

أما الآن ، فقد ساء المصريين ما يبدو من روح المساواة التى كانت سائدة فى الجيش العثمانى ، التى كانت عديمة القيمة ، حيث لم يكن من الممكن للمرء أن يتبين الأمير من الجندى العادى ٠

ولم يطرأ على بال ابن اياس الذى أسف على زوال هذه العروض أن ما كان يبديه المماليك من مظاهر زهو وفخار وعجب ان هو الا دليل على تدهور مهاراتهم العسكرية ٠ وعلى النقيض من ذلك ، فالمؤكد أن الجيش العثمانى الكفء الحريص لم يبدد الوقت والمال فى الاحتفالات البراقة فى مصر ، التى كانت بعيدة عن الحاضرة العثمانية ٠ فيكتب ابن اياس بأسى أن الاحتفالات السنوية بالمولد النبوى مرت دون أن يشعر بها أحد فى ظل العثمانيين ٠ فلم يحدث الاجتماع التقليدى بين القضاة الأربعة والأمراء فى بلاط السـلطان ، كما تم الغاء توزيع الطعام على الأهالى ٠ وباع العثمانيون الخيمة الكبيرة التى تستعمل فى هذا الاحتفال ، والتى كلفت السلطان المملوكى قايتباى ٣٠ر٠٠٠ دينار ، باعوها لتجار مغاربة لقاء ٤٠٠ دينار ٠ وقد كانت أحدى روائع الدنيا ٠ اذ احتاج الأمر الى ٥٠٠ من الخدم لنصبها ٠ وكانت الخيمة ، على حد قول ابن اياس ، احدى رموز المملكة ٠ وبيعت بأبخس ثمن ٠ اذ لم يفهم العثمانيون قيمتها ، فاضطر من أتى بعد ذلك من الملوك الى التخلى عن استخدامها ٠ فأحدث بها العثمانيون ضررا بليغا وكان هذا من بين أعمالهم السيئة فى مصر(١١) ٠ وصدم أهالى القاهرة حين علموا بما يمارسه العثمانيون من ترحيل الى اسطنبول ٠ ذلك أن جماعات من الأعيان وأصحاب الحرف الذين كانت هناك حاجة لهم للقيام بأعمال التشـييد فى اسطنبول من موظفين ، ومسـيحيين ويهود تم ترحيلهم ٠ وكان أبرز مثال هو آخر الخلفـاء العباسيين ، المتوكل بن المستمسك يعقوب ، وقد كان موضع احتـرام رغم انعدام سلطته السياسية ، وأسر فى مرج دابق ، وأجبر على الذهاب الى اسطنبول مع العثمانيين ٠ فعامله سليم معاملة محترمة وأعطاه احساسا بالأهمية ، ونفوذا لم ينعم به من قبل على الاطلاق ٠

ورغم أن الجميع كانوا يعلمون أن الخلافة عاجزة ، الا أنها كانت مازالت لها أهمية رمزية ٠ فكان نفى الخليفة بمثابة الاشارة بأن مصر لم

تعد مقر خلافة ، أو مركز امبراطورية ، وانما أصبحت مجرد ولاية تدار من حاضرة قصية (١٢) ٠

وخلفت سياسة الترحيل الاجبارى المنفيين وأسرهم التى بقيت بعدهم فى حالة من المعاناة ٠ فبعض المنفيين قد فقدوا فى البحر ، وكان الآخرون يشعرون بالوحدة وعانوا مشقة شديدة فى اسطنبول ٠

وكان يسمح للمنفيين بالذهاب الى بلادهم فى زيارات قصيرة ، بعد أن تكون السلطات قد أخذت الاحتياطات التى تضمن عودتهم الى اسطنبول٠ وحين اعتلى سليمان السلطة ، حل احسانه محل قسوة أبيه سليم فسمح لمعظم المنفيين بأن يعودوا الى مصر (١٣) ٠

كما صاحبت سنوات الفتح الأولى مشاق اقتصادية ٠ ذلك أن سيطرة العثمانيين على ممتلكات رعاياهم ــ بما فى ذلك الممتلكات الخاصة وعوائد الوقف والمعاشات ــ كانت سيطرة صارمة ، ذلك أن أولئك الذين لم يحظوا برضى مفتشى الوقف أو الذين كانوا يقصرون فى اتباع الاجراءات الادارية كانوا يفقدون حقوقهم ٠ فأمر أصحاب الحوانيت بأن يستبدلوا بالأوزان والمكاييل المصرية تلك المستخدمة فى اسطنبول ٠ وتم تداول عملات جديدة ولكن لأنها كانت أقل قيمة ، فانها جعلت الأهالى يفقدون ما يصل الى ثلث قيمة مالهم ٠ كما كان موظفو الخزانة والوكلاء ، بمن فيهم من خدموا فى أيام المماليك ، يظلمون الناس بشكل أكثر شراسة مما كان يحدث من قبل ٠ اذ عين موظف عثمانى يسمى (قسام) كى يجبى ضرائب الميراث ، وهو ابتكار آخر بدا ظالما ٠ كما كان ينظر اليه باعتباره ضد الشريعة الاسلامية ٠ وكانت تصدر النظم الخاصة بمعدلات التبادل والأسعار مرات متكررة ، مما نتج عنه تضخم واغلاق للأسواق وكذلك القلق والتذمر العام (١٤) ٠ ولم يكن من بين ما صنعه العثمانيون أكثر اثارة للاستفزاز من الابتكارات القانونية خاصـــة فى الأمور الحساسة الخاصة بالقوانين الشخصية ٠ فكان هناك قدر كبير من الازدراء ازاء القوانين العثمانية غير الشرعية ، رغم قلة المعرفة بها ٠

وكان أكثر التغييرات القانونية اساءة هو فرض ضريبة على عقود الزواج التى تسمى يسق Yasaq (*) وكان يطلب أن تدفع مرتين عن المرأة التى سبق لها الزواج • فاستنكر علماء القاهرة هذه الضريبة ، باعتبارها انتهاكا للسنة النبوية وتناقص عدد الزيجات لفترة من الوقت •

كان المغاربة أقل ميلا للحلول الوسط كما كانوا غير هيابين حين يتعرض الدين للخطر • ويقال ان أحد العلماء المغاربة صرخ فى وجه الكاشف « هذا قانون الكفار » يقصد اليسق (١٥) ، وثمة اجراء عثمانى آخر استخف باعتزاز القضاة المصريين المهنى كما كان يؤثر تاثيرا فى مصالحهم •

اذ ان العثمانيين فى استهدافهم الوصول الى اقتصاد أقوى وقدر أكبر من المركزية ، قاموا بفصل الكثير من القضاة ونوابهم • واقتصرت جميع أعمال التقاضى وغير ذلك من الأمور القانونية على المدرسة الصالحية فلم يعد من المسموح للقضاة أن ينظروا القضايا فى مساكنهم • وخضع قضاة المذاهب الأربعة لقاض تركى ، كان أجهل من حمار ، حسب ما يقول ابن اياس ، ولم يكن لديه أى فهم بالشريعة • ففرض مدفوعات متنوعة وحد من سلطة القضاة المحليين ، كما نصب من نفسه وصيا على أخلاق النســـاء وذلك بالحـــد من حريتهن فى مغادرة منازلهن والتحرك فى المـــدينة (١٦) • اذ كانت فكرة العثمانيين عن العدالة تختلف عما ألفه المصريون •

ففى احدى الحالات ، على سبيل المثال ، قاضى يهودى أحد أمراء المماليك على مبلغ من المال ، وحين رفض الأمير أن يذهب الى المحكمة ، أرسل القاضى التركى أحد الانكشارية لاحضاره • وظل الأمير فى الحجز الى أن وفى بمطالب اليهودى • أما تحت حكم المماليك ، فلم يكن من الممكن

(★) اليسق : الأصل اللغوى بمعنى المنع ، واستخدمت أيضا بمعنى قانون وهى من المغولية ، كما كان يطلق على القواس (الضابط) اسم اليسقى بمعنى منفذ القانون •
بتصرف عن أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من دخيل : القاهرة ، دار المعــارف ، مادة يسق ـ (المراجع) •

التفكير أن يقاضى يهودى أحد الأمراء · وأصدر هذا القاضى التركى نفسه حكما لصالح احدى النساء كانت قد قاضت زوجها ، وهو امير ذو نفوذ ·

لقد حضر الى مصر الديار بكرى ، وهو مؤرخ حولى تركى ، كما كان قاضيا ، مع جيش سليم ، وهو يقول ، ان الأهالى كانوا مسرورين من مساواة الجميع ، أمام المحكمة العثمانية (١٧) ، غير أنه يبدو أن كراهية ابن اياس ، لهذا القاضى ولنظام القضاء العثمانى ، عامة ، تعكس اتجاه الأهالى بشـــكل أكثر أمانة · اذ كان هناك شعور بأن موقف الاســلام والشريعة قد ضعف منذ الفتح العثمانى (١٨) ·

وفى واقع الأمر ، لم تكن الامبراطورية العثمانية أقل التزاما بالاسلام من السلطنة المملوكية ، كما كانت الشريعة هى حجر الزاوية فى الحياة العامة · وبمرور الوقت أدرك المصريون هذه الحقيقة الأساسية ، غير أن سلسلة من الأخطاء وكذلك اجراءات تتسم بتبلد الحس من جانب العثمانيين ، أسهمت فى استجاباتهم السلبية الأولى · ومع الوقت ، أصلح العثمانيون الكثير من أخطـــائهم المبكرة السابقة واعتادهم المصريون · فتلاشى تدخل اسطنبول فى طريقة الحياة المصرية ·

وعلى كل ، فلقد ظهر من آن لآخر ، توتر واحتكاك أثناء القرون الثلاثة التى حكم فيها العثمانيون مصر كما سيتضح لاحقا ·

ومما سهل تحول مصر من حكم المماليك الى حكم العثمانيين أن الحاكم الأول لم يكن أحد الباشوات العثمانيين ، وانما كان خاير بك ، الأمير المملوكى الذى انضم الى العثمانيين أثناء موقعة مرج دابق (١٩)· اذ توافق تعيين عضو من الصفوة الحاكمة السابقة مع مبادىء العثمانيين فى ادارة الأقاليم المفتوحة · واحتفظ خاير بك بالعديد من العـــادات والمراسم التى كانت موجودة فى السلطنة المملوكية · وكان لقبه الرسمى هو ملك الأمراء الذى قصد منه أن يكون ترجمة للقب التركى ـ العثمانى البيكلر بك وهو رتبة يحوز عليها حاكم أحد الولايات · فلم يكن فى استطاعته أن يحمل لقبا يشير الى الاستقلال ، مثل لقب السلطان ، كما لم يكن باشا ، بما أنه لم ينحدر من المؤسسة العثمانية الحاكمة ، كما كان الحال بالنسبة

لأسلافه . وكما ذكرنا من قبل ، فلقد ساعد على انقاذ المماليك وعينهم بصفات متنوعة ، أساسا فى ادارة الأقاليم ، حيث كان لا غنى عنهم لمعرفتهم الوثيقة بنظام الرى وبالبدو .

ومع ذلك ، فقد ظل خاير بك وفيا لسادته العثمانيين حتى وفاته فى أكتوبر عام ١٥٢٢ . ونظرا الى أنه كان يخشى من عدم اعادة تعيينه فى نهاية كل مدة سنوية فقد كان يطيع الأوامر والنظم الصادرة من اسطنبول. وكان يحث العلماء أن يحسنوا نقل أخباره فى اسطنبول ، تلك الأخبار الخاصة بسلوكه كحاكم ، كما كان يمنح هبات ضخمة من المال للمبعوثين العثمانيين كى يقوى من موقفه .

وتلقى خلفية خاير بك ضـــوءا على حياته العملية غير العادية . اذ وصل الى القيادة العليا المملوكية رغم أنه ولد فى جورجيا ، وليس فى بلاد الشركس ، مثل غالبية المماليك ، ولم يكن قط عبدا . ويعتقد ابن اياس أنه كان يكره المماليك الشراكسة ، غير أن هذا ليس قابلا للتصديق بما أن الكثير من المماليك مدينون بحياتهم له . وكان رجلا حاذقا ، يسعى الى صالحه الشخصى ويقوم المواقف حق التقويم ويناور بمهارة كى يصل الى صالحه الشخصى بين قوى غالبا ما تكون متصارعة . وشكا كل من الجنـــود المماليك والعثمانيين من أنه لم يكن يحسن معـــاملتهم . وكان شديد البخل ، وكانت الأجور المستحقة للجنود والموظفين دائما تأتى متأخرة بينما كان آخذا فى اثراء نفسه . ولم يبد أى كرم الا وهو على فراش الموت ، كما أبدى التدعيم للمؤسسات الدينية والأفراد . ويرسم ابن اياس صورة لخاير بك باعتباره شخصا سيىء الطبع ، قاسيا كثير الشراب . فلقد كان قادرا على أن يحكم على الناس بالموت لسبب تافه أو لمجرد نزوة . اذ أمر فى احدى المرات بشنق أحد الرجال لم تكن جريرته سوى أنه التقط بعض ثمار خيار الشانبار الذى كانت تحتكره الحـكومة (كان هذا النوع من الخضراوات يســتعمل كملين) ، كما أنه أعطى المسئول اليهودى عن دار سك العملة سلطة فوق المسلمين ، بأن أعطاه سلطة على أموال عامة ، وهى سلطة أسىء استخدامها . وكذلك عين موظفا مسيحيا فى وظائف مركزية . ومن ناحية أخرى ، أطاح خاير بك بالأسرة الكبيرة التى احتكرت بعض الوظائف وهى أسرة بنى الجيعان ، وكانت مسئولة عن الجهاز المالى لما يربو على قرن من الزمان .

أظهر خاير بك حصافته حين ألقى بأذن صماء لحاكم الشـــام ، جانباردى الغزالى الذى حاول قتـال العثمـانيين . وكان الغزالى أميرا مملوكا انضم الى سليم شأنه شأن خاير الا أنه على النقيض منه كان يعتز باستقلاله فظن أن وفاة سليم وتولى ابنه عديم الخبرة جعلت الفرصة سانحة أمامه . بل ان خاير حكم على مماليك بالموت مع أنهم لم يفعلوا سوى محاولة الانضمام الى المتمردين ، بمن فى ذلك بعض عوام القاهرة الذين كانوا يثرثرون باحتمال أن خاير بك قد ينضم الى التمرد (٢٠) .

وكذلك كان خاير بك ماهرا وقديرا ولولا المظالم التى ارتكبها لكان حاكما عظيما ، حسب ما كتب عنـــه ابن اياس . وحين مات اختـــار العثمانيون حاكما أكثر صلة بالعثمانيين : فلقد أرسلوا مصطفى باشا ، عديل السلطان سليمان ليخلف خاير بك ، فى قلعة القاهرة ومقر الحكم وحل الترك محل المصريين كمسئولين عن المخازن وكطهاة .

وربما كان أمرا مميزا للفترات الانتقالية أن من يعينون فى مناصب عليا لا يكونون من أمراء المماليك وانما من بين أولاد الناس أو البيروقراط وكان مثالا لهذا هو الزينى بركات بن موسى الذى كان مفتشا على السوق (محتسب) ، كما عين قائدا لقافلة الحج السنوية الى مكة والمدينة (أمير الحج) وهو منصب مسئول وله مكانة . وكان هذا المنصب لا يعين فيه زمن الحكم المملوكى سوى الأمراء الذين يحملون رتبة أمير مائة ، وهو أعلى منصب فى جيش المماليك . واعتبر الرأى العام القاهرى هذا التعيين شيئا يبين عدم احترام العثمانيين للحج . وفيما بعد ، صار ابن موسى أحد أكثر الزعماء المصريين نفوذا .

وثمة رجل آخر صار مرموقا أثناء أوائل الحكم العثمانى فى مصر هو جانيم الحمزاوى الذى كان أميرا غير أنه لم يكن مملوكا ، أى لم يكن من المماليك . فلقد كان ضابط اتصال مع اسطنبول ، وقام بدور هام فى التطورات السياسية .

التمرد المملوكى ورسوخ الحكم العثمانى

قاد جانيم السيفى واينال ، وهما من حكام الأقاليم فى مصر الوسطى، أول تمرد مملوكى فى مايو عام ١٥٢٣ • اذ بدأ الوقت مناسبا للقيـام بتمرد ، بعد أن مات سليم وخاير بك ، وكان مصطفى باشا حاكما ضعيفا • كان الأمراء المتمردون يريدون أن يستردوا سلطنتهم وأيدهم فى ذلك الكثير من المماليك والعرب • وكان حاكم مصر العليا العربى القوى على ابن عمر مؤيدا سلبيا • وفى محاولة لتقوية الحكم ، منح بركات بن موسى رتبة أمير العسكرية ، غير أنه أخفق فى تكوين جيش من العرب البدو وقتله المتمردون كخائن حين كان يحاول التفاوض معهم•وفى النهاية ، تم سحق التمرد وقتل جانيم واختفى اينال • وأضاف التمرد مزيدا من التوتر فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين • اذ انضم الكثيرون من المماليك للتمرد وقتلوا ، ويقال ان أولئك الذين ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ساروا ضد رفاقهم السابقين بقليل من الحماس (٢١) (*) • وكان التمرد الذى حث عليه أحمد باشا ، الذى كان يعرف فيما بعد بأحمد الخائن تحديا أكبر للحكم العثمانى (٢٢) ، وكان أحمد باشا قد أصبح هو الحاكم العثمانى فى مصر فى سبتمبر ١٥٢٣ وسرعان ما بدأ فى الاعداد لتمرده • فصادر أسلحة الانكشارية ، لأنه استنتج عن حق بأنهم سيكونون الأكثر وفاء للسلطان من بين جميع الوحدات الموجودة فى مصر » •

فتم الضغط على القابو قولارى أو جنود السلطان لكى يعودوا الى اسطنبول وتودد أحمد باشا الى المماليك ، بل وأصدر عفوا عن بعضهم من بين الذين كانوا فى السجن بسبب اشتراكهم فى التمرد السابق •

لقد استفاد الباشا كثيرا من أصله الشركسى ـ أما مسألة ما اذا كان هذا الأصل صحيحا أم مزيفا فهذه مسألة منفصلة خارج موضوعنا ـ وعلى هذا ألمح الى أن السلطنة المملوكية سيتم استردادها • وبدأ فى طلب النقود من التجار وموظفى الدولة واليهود وكذلك صادر رسميا الخيل وجميع الحيوانات التى يمكنها نقل البشر والأشياء ، كما تم نقل الأشخاص

(*) لم يحاربوا رفاقهم السابقين (المماليك أيضا) بحماس •

الذين يعيشون بالقرب من القلعة . وأمر باطلاق سراح المشايخ العرب الذين وضعهم خاير بك فى السجن لسلوكهم غير المنضبط .

وعين أحمد بن جيعان ـ الذى كان خاير بك يسىء معـــاملته ـ « دفتر دار » كما أمر الباشا على بن عمر حاكم مصر العليا والذى كان يغير على الأقاليم النوبية بأن يمده بألف من العبيد الســـود ، وكان ينوى تدريبهم على استخدام الأسلحة النارية كى يحلوا محل الانكشارية . وكذلك أخذ العبيد السود من البيوت القاهرية ووضعوا تحت السلاح . لقد ثبت فشل مثل هذه المحاولة فى الماضى فى التاريخ المصرى ، وقدر لها أن تثبت فشلها مرة أخرى .

كما اختار أحمد باشا مستشارين جددا . وكان أحدهم هو ابراهيم المرقبى ، وهو بدوى استطاع أن يشق طريقه الى بلاط الحاكم ، غير أنه قد نفى الى اسطنبول ، حيث أصبح على علاقة صداقة مع أحمد باشا .

فجعل منه الأخير مستشارا له فى شئون البدو حين صار حاكم مصر ، أما جانيم الحمزاوى ، وهو أمير يدين بالولاء ، وأيضا خبير فى شئون البدو ، فتم القبض عليه ، واتهامه بالاثراء بطرق غير مشروعة .

تمرد الباشا ضد اسطنبول عام ١٥٢٤ ، واتخذ لقب سلطان ، وأمر بأن تسك النقود باسمه ، وأصدر مرســـوما بأن يدعى له فى خطب الجمعـــة . ولكى يسبغ الشرعية على وضعه ، دعا أحمد القضـــاة الأربعة الكبار والخليفة العباسى الى القلعة ، فى هلال كل شهر كى يقدموا له التحية كما جرت العادة تحت حكم السلاطين المماليك .

وكانت الانكشارية واليهود هم أكثر من لحق بهم أشد الضرر . فهـــرب ابراهام كسترو رئيس ســك العملة الى اسطنبول وهنـــاك أبلغ عن خيانة أحمد . وفى فبراير عام ١٥٢٤ ، احتل المتمردون القلعة التى كانت الانكشارية تسيطر عليها . ففاجأت قوات أحمـــد الانكشارية باستخدام النفق السرى وذبحتهم . ولم يدم حكم أحمد أكثر من بضعة أشـــهر . اذ فاجأه جانيم الحمزاوى وجماعة من الأمراء فى حمامه ، فهرب أحمد باشا الى اقليم الشرقية ، حيث لجأ احمد بن بقار ، أحـــد

مشايخ البدو ، غير أنه أسر وقطع رأسه فى مارس ١٥٢٤ ، منهيا بذلك آخر جهد مصرى جاد كى تنفصل مصر عن الدولة العثمانية ؛ حتى تمرد على بك الكبير فى ١٧٦٠ .

ورغم فشل تمرد أحمد بك المعروف بالخائن ، الا أن مصر ظلت فى حالة من القلاقل، ذلك لأن التمرد حرك البدو فى كل أنحاء البلاد . اذ كان البدو واقعين تحت وهم أن العثمانيين فى مصر أنهكوا ويمكن هزيمتهم بسهولة . وعلى أية حال ، فقد كان العرب مفككين كما كانت أسلحتهم ومستوى تنظيمهم فى حالة أدنى ، ووصل دعم جديد الى مصر ، وأخضعت الولاية نهائيا .

وفى الثانى من أبريل ١٥٢٥ ، جاء الى مصر ابراهيم باشا ، الصدر الأعظم الشهير فى حكومة سليمان واستعاد السلطة العثمانية . (الصدر الأعظم هو المعادل المعاصر لرئيس الوزارة) .

وعبر عن استيائه من المعارك المتكررة بين الوحدة العثمانية والمماليك ، فخاطبهم قائلا :« فلنتوقف عن تسمية بعضنا البعض بالتركمانى أو الشركسى فنحن جميعا خدم السلطان واخوة فى الاسلام » .

حضر المشايخ العرب الى القلعة لتقديم الاحترامات له ، غير أن ابراهيم باشا ألقى القبض عليهم . وتم شنق الضالعين فى تمرد أحمد باشا ، وأطلق سراح الآخرين ، وأعيد تعيينهم فى أقاليمهم .

وأثناء اقامة ابراهيم التى دامت بضعة أسابيع ، أصدر قانونى نامه مصر لتقنين الممارسة الادارية ونظم الحكم فى مصر . وهذه الوثيقة التى وصل الينا نصها بالكامل ، تعد ذات أهمية قصوى بما أنها تعكس الأحوال فى مصر بعد اعادة الفتح بفترة قصيرة ، وكذلك مبادىء الادارة العثمانية (٢٣) . لقد وضع اسم القانون ، فى المحل الأول ، أسس الادارة العسكرية ، التى ظلت سارية المفعول على مدى القرون الثلاثة التالية . وتلقى الوثيقة الضوء على ادارة الكشاف (*) للأقاليم الصغرى الذين كانوا

(*) لم يكن منصب الكاشف (جمعها الاستاذ المترجم كشفة ، وجعل مفردها أحيانا كاشفا ، وهو ايضا صحيح) حديثا فى مصر العثمانية ولكنه كان موجودا زمن المماليك ايضا =

مسئولين عنها ، كما كان الحال فى السابق ، مع المحافظة على نظام الرى ، والحفاظ على الأمن (عملية حماية القرويين من البدو المغيرين) والتفتيش على جبـــاية الضرائب • وفى بعض الأقاليم ، أسـندت هذه المسئوليات الى مشـايخ العرب • كذلك خصصت فقـــرات طويلة لكيفية معـاملة الفـــلاحين وكيفية جبـاية الضرائب منهم • كذلك تناول القانون عمل مسح شامل للأملاك والأراضى الزراعية والأرض المراحة (الأرض التى تحرث وتترك عاما كاملا لاراحتها) والأراضى التى لا يصلها فيضان النيل ، ومؤسسات الوقف ومخازن الغلال ، والموانى ودار سك العملة • وعلى الباشا ، الذى يشار اليه باسم ملك الأمراء ، عقد اجتماعات منتظمة لمجلس الدولة (الديوان) أربع مرات أسبوعيا كما هو الحال فى الديوان العالى فى اسطنبول • ومن أبرز ملامح القانون هو أن أهم ما فيه يعد استمرارا لما كان وقت المماليك ، رغم أن العثمانيين اضطروا الى قمع تمردين خطرين وسحق الاضطرابات البدوية•فالقانون ينص بصفة خاصة على أن القوانين التى تتناول الضرائب ، والجمارك ، وغير ذلك من الأمور المالية والادارية التى أصدرها قايتباى ــ الذى كان مملوكا سلطانيا فى الفترة من ١٤٦٨ الى ١٤٩٦ ، والذى حارب العثمانيين فى الأناضول ــ تظل سارية المفعول • كذلك أعطى القانون للمماليك اعترافا رسميا • ورغم أن القانون لا يكاد يدع أى مجال للشك فى أنه سيتم التحكم فيهم تحكما وثيقا عن طريق ضـباط من اسـطنبول ، الا أنه مع ذلك ، قد تم تنظيمهم فى كتائب • بل ان المعاشات والألقاب التى تم الحصـــول عليها فى زمن المماليك تم الاعتراف بها • ومن الملحوظ ، أنه رغم أعمال التمرد الا أن العثمانيين قبلوا المماليك • اذ عين بعض المماليك فى منصب الكاشف وقادة قافلة الحج (أمراء الحج) •

فى ذلك الوقت ، كانت الامبراطورية قوية وتشعر بالثقة كذلك لا تتوقع وقوع تمرد من جانب المماليك مرة أخرى •

لم تصبح مصر قط مقاطعة عثمانية منتظمة ؛ اذ لم يطبق فيها التيمار (النظام الاقطاعى العسكرى) الذى كان يشير الى الاندماج التام لاحدى

= وقد اقتصر منصب الكشاف فى الصعيد الأعلى على العربان ، وكان ولاة الأقاليم تابعين له ، وغالب الكشفة كانوا مماليك وان لم يكونوا كذلك روعى ألا يكون لهم عصبة •

صلاح هريدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية ، القاهرة ، دار المعـارف ، ١٩٨٤ • صص ١٣٢ـ١٣٣

الولايات داخل الدولة العثمانية • ذلك أن العثمانيين كانوا برجماتيين عمليين وأدركوا أن الطبيعة الخاصة للاقتصاد المصري تحبذ أقل قدر من التدخل فى ادارته • فكان الحاكم يتلقى راتبا سنويا (سالين) يأخذه من الخزانة المصرية • وكانت مصادر الدخل الرئيسية هى ضرائب الأراضى (الخراج) والجمارك التى تجمع فى الموانىء البحرية ، وضرائب العزب (المقاطعات) وهذه المصادر كانت تستخدم للحفاظ على الحامية ، والادارة والجيش والبحرية فى اليمن ، والحبشة (اثيوبيا) والبحر الأحمر وكذلك لدعم المدينتين المقدستين فى الحجاز ولتنظيم قافلة الحج • وأى زيادة كانت ترسل سنويا الى اسطنبول (٢٤) • فكانت موارد مصر مستغلة • فبالاضافة الى الارسالية السنوية المعروفة باسم (ارسالينى خازينى) وهو (تحويل نقدى يرسله حاكم مصر الى اسطنبول) ، كانت هناك أوامر لدى الباشا بأن يرسل كميات كبيرة من المنتجات الزراعية وغيرها الى اسطنبول •

ونتيجة لحملة سليم فى ١٥١٦ ـ ١٥١٧ ، والفتوحات الاقليمية التى حققها ابنه سليمان ، انتقل قلب العالم العربى الى أيدى العثمانيين • فصار تحت ملكهم فى ذلك الوقت ، المدن العربية الكبرى ، بما فى ذلك ، حواضر الخلافة السابقة كدمشق والقاهرة وبغداد بالاضافه للأراضى المقدسة فى القدس والخليل • والأمر الأهم من ذلك ، من وجهة النظر الدينية ، هو اللقب الذى أخذه السلطان العثمانى من المماليك : أى خادم الحرمين الشريفين ، فى مكة والمدينة • وكانت مصر من الناحية السياسية والاستراتيجية والاقتصادية من بين أهم الاضافات للدولة العثمانية • ولقد ورث العثمانيون عن المماليك التحكم فى البحر الأحمر والحجاز التى لم يحكموها حكما مباشرا ، ولكن من خلال حكام يتمتعون بالحكم الذاتى ، أى الأشراف ، من نسل النبى ﷺ • وأصبحت مصر قاعدة عامة (للانتقال والتمرين) من أجل العمليات العسكرية فى أقاليم اليمن المضطربة ، والحبشة ، وفى البحر الأحمر ، والمحيط الهندى •

موجز للتاريخ السياسى لمصر العثمانية : يمكن تقســـيم التاريخ السياسى الى أربع فترات رئيسية (٢٥) :

١ ـ القرن السادس عشر حين كان يحكم مصر حكما فعليا باشوات تعينهم اسطنبول · ونشأت الاضطرابات الأولى حوالى عام ١٥٩٠ مع أعمال التمرد التى قام بها الجنود · ويقمع محمد باشا (١٧٠٦ ـ ١٧١١) الجنود المتمردين (الكثير منهم من المماليك) وبعده أخذ الباشوات يفقدون السلطة بالتدريج ·

٢ ـ فى القرن السابع عشر ، تنتقل السلطة الى كبار الأمراء (البـــكوات) ·

٣ ـ وفى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، تنتقل السلطة الى الكتائب السبع (أساسا الى الانكشارية) الذين قد أنهكتهم المنافسات الداخلية ·

٤ ـ طوال معظم القرن الثامن عشر ، كانت السيادة تخص بكوات المماليك الذين كانوا دوما يقتتلون فيما بينهم ، حتى عام ١٧٩٨ حين وضع الاحتلال الفرنسى حدا لنظام المماليك ·

وتتوقف التغطية التفصيلية للأحداث السياسية التى قدمها المؤرخون الحوليون عند اقرار ابراهيم باشا للأمور فى مصر واصدار قانونى نامه مصر عام ١٥٢٥ · اذ ينتهى تسجيل ابن اياس التاريخى الممتاز المكتوب باللغة العربية عند نوفمبر سنة ١٥٢٢ أما تسجيل الديار بكرى المفصل المكتوب بالتركية ، فلا يتعدى عام ١٥٢٥ · وظهر مؤرخون حوليون آخرون فى القرن السابع عشر قدموا لنا حوليات قليلة متناثرة الأحداث وأدنى بكثير من المستويات والمعايير الموجودة فى التراث التاريخى المصرى الذى كان ابن اياس آخر ممثليه · وقد يشير هذا الانقطاع فى التراث الحولى التاريخى الى أن حقبة سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) وما بعد ذلك كانت مستقرة لم تحدث فيها أحداث ذات مغزى سياسى بارز وتقبلت ولاية مصر بهدوء وسلبية حكم المنتصر ·

ففى واقع الأمر ، تبين المواد الأرشيفية (أو سجلات المحفوظات) فى تلك الفترة أن اسطنبول كانت أكثر انشغالا باليمن والحجاز الى حد كبير من انشغالها بمصر ·

وكان معظم الحكام الذين أرسلوا لمصر أقوياء وأكفاء ، والمعطيات التاريخية القليلة المتاحة عنهم تتحدث عن أعمالهم أو عن الأثر الذى تركوه فى نفوس رعاياهم ٠

وقد يعكس تدهور كتابة التاريخ المصرى أيضا أن مصر لم تعد هى مركز الأحداث ، عند المعاصرين ، وانما مجرد مقاطعة ٠ ولم يشعر المصريون الذين كان المؤرخون الحوليون يكتبون من أجلهم بالظلم تجاه الحكم العثمانى ، غير أنه توجد مؤشرات على انخفاض الروح المعنوية فى دوائر المتعلمين ٠ مما لم يشجع بالتأكيد على كتابة التاريخ ٠ بالاضافة الى ذلك ، فان الباشوات الذين كانت فترات حكمهم قصيرة ، فى المعتاد والذين كان من الممكن استدعاؤهم فى أى وقت ، لم يقدموا الرعاية أو حتى الانتباه للحوليين أو الكتاب بالقدر الذى كان يفعله المماليك (٢٦) ٠

وكما حدث فى أنحاء أخرى من الدولة العثمانية ، فقد أدى الاستقرار الى تدهور اقتصادى ومالى ٠ فلما تأذى الجنود من التضخم ، حاولوا تعويض أنفسهم باجبار الحرفيين والتجار على الدخول معهم فى شراكات ، وكذلك الحصول بالقوة على نقود مقابل الحماية (اتاوات) فى المدن ، وفرض ضريبة غير قانونية وهى (الطلبة) على الفلاحين ٠ وفى عام ١٥٨٦ ، ثار الجنود ضد الباشا ٠ فى بداية الأمر ، هاجموا الموظفين ، والضباط غير أنه فيما بعد اعتدى على آحد الباشوات وفى ذلك الوقت ، أصبح الضباط أنفسهم متمردين ٠ وفى سبتمبر عام ١٦٠٤ ، نشبت فتنة نتج عنها قتل ابراهيم باشا الذى عرف فيما بعد بالمقتول ٠ فالقى خلفه القبض على العديد من المتمردين وقام باعدامهم ، غير أن النظام لم يستعد بشكل له احترامه حتى جاء حكم محمد باشا (١٦٠٧ — ١٦١١) الذى أكسبه قمعه الحازم للجنود غير المنضبطين وصف قول قيران Qul Qiran اى محطم الجنود المتمردين٠اذ انه لدى وصوله مصر،قام بالغاء (الطلبة) غير أن الجنود فى كتيبة الفرسان الذين كانوا موزعين فى الريف ، تجمعوا فى طنطا فى الدلتا ، داخل ضريح الولى المحبوب سيدى أحمد البدوى وأقسموا على مقاومة ذلك القرار ٠

وكان رد فعل محمد باشا ردا سريعا وذلك بتنظيم قوة من الفرق الموالية له ومن البدو ، التى قامت بسحق التمرد • وقتل الكثير من مثيرى الفتنة كما نفى ٣٠٠ الى اليمن • ومن غير الواضح هل كانت الانتفاضة أكثر بكثير من محاولة قام بها الجنود الغاضبون للتشبث بامتيازاتهم غير القانونية فى وجه عزم الباشا على اعادة النظام والعدل •

ويحاول المؤرخون المحدثون اعتبـــار الانتفاضـــة حركة مملوكية انفصـــالية لاسترداد الســـلطنة ، غير أن الأدلة المتاحة لا تؤيد مثل هذا الاستنتاج • اذ لا يوجد دليل مقنع على أن جميع المتمردين كانوا من المماليك ، مع أنه بالتأكيد كان يوجد بعض منهم • وتقول رواية محمد بن أبى السرور البكرى الصـــديقى ، وهو مراقب معـــاصر للأحـــداث ، ان المتمردين قاموا باختيـــار سلطان ووزير من بينهم • فلو صـــدقت هذه المعلومة ، فانها تؤيد الافتراض القائل بوجود تمرد سياسى ضد العثمانيين ، غير أنه بما أن ابن أبى السرور اتخذ جانب العثمانيين ، فمن المحتمل أنه كان رجع الصدى لدعايتهم • وأيا كان الأمر ، فمن الغريب أنه بالرغم من أن هذا المؤرخ الحولى كان على دراية بالتفاصيل الدقيقة للانتفاضة ، الا أنه لم يذكر اسم سلطان المتمردين هذا اذا وجد مثل هذا الشخص على الاطلاق (٢٧) • ورغم أن محمد باشا كان شخصا مسموع الكلمة ومعروفا بأعماله العامة ، الا أنه لم يحاول تغيير الاتجاه القائل بضـــعف قبضة السلطان على المقاطعات (الولايات) • وأخذ الباشوات يفقدون السلطة باضـــطراد أثنـــاء القرنين التـــاليين وصاروا أدوات لاسباغ الشرعيـــة على ســـلطة السلطان • وقضـــوا وقتهم فى القلعة كسجناء نسبيا فى قصورهم • وأخذ كبار الأمراء البكوات يتخلصـــون من الحاكم أكثر فأكثر اذا لم تكن سياسته ترضيهم ، ويبلغون السلطات فى اسطنبول • وأصبح من المعتاد أن يعين أحد كبار البكوات مندوبا ، أو حاكما بالنيابة (قائم مقام) من قبل زملائه ويسير أمور الحكم الى أن يصل الباشا •

وتحمل العثمانيون الذين يتسمون بالنظرة الواقعية هذا الترتيب الشاذ، كما يبدو ، لتحقيق حد أدنى من أهداف الحكومة المركزية فى مصر :

١ ـ مجرد اعتراف رسمى بسيادة السلطان وذلك بقبول الحاكم وغيره من كبار الشخصيات العثمانية والمبعوثين ، وذكر اسم السلطان فى خطب الجمعة فى المساجد وكذلك سك عملات تحمل اسمه ولقبه ٠

٢ ـ ارسال الخزينى أو الخزانة السنوية أو التحويل المالى ٠

٣ ـ ان الجيش المصرى (رسميا الجيش العثمانى ، المعسكر فى مصر) كان يرسل ، عند الطلب ، مفرزة من الجنود ـ تصل عادة الى ٣٠٠٠ رجل ـ للقتال ضمن حملات فى آسيا وأوربا والبحر المتوسط ٠ وطالما تم تحقيق هذه الأهداف الثلاثة ، كانت اسطنبول تشعر بالرضى ، مهما بدا من استقلال الأمراء المحليين فى مصر ٠

لقد شهد القرن السابع عشر دخول البكوات ، أو الأمراء ذوى الرتب الرفيعة فى مصر ٠ فمن الناحية الشكلية ، كان هناك ٢٤ من البكوات الذين كانوا يتحكمون فى مناصب حكومية مهمة ، ولقد بين هولت أن هؤلاء البكوات ـ أو كما يسميهم زعماء عسكريين ـ كانوا خلفاء شرعيين للقيادة العليا المملوكية ، التى ظلت تحت غلالة عثمانية رقيقة ، رغم أنهم لم يكونوا من المماليك ٠ وكانت هناك أشكال معادلة بالضبط فى سلطنة المماليك للوظائف التى كان يؤديها أمير الحج والدفتردار (مسئول الخزانة) والقائم مقام وحاكم اقليم جرجا الضخم فى الصعيد رغم أن هذه الوظائف كانت تحت أسـماء مختلفـة ٠ والشىء الذى يؤيد الافتراض بأن البكلكية (البكوية) كانت استمرارا لمؤسسات المماليك أو بعثا لمناصبهم هو أنها كانت فريدة لا مثيل لها سوى فى مصر ٠ وغالبا ما كان يسمى البكوات المصريون بالسـناجق حسب ما تذكر المصـادر ، غير أن رتبة البكوات السناجق التى كانت شيئا معياريا فى الامبراطورية ، لم تستخدم فى مصر ٠ وبينما كان لقب البك فى الأماكن الأخرى فى الامبراطوريه يعنى أنه أمير مسئول عن وحدة ادارية أو اقليمية تسمى سنجق ، فان لقب سنجق أو بك ، فى مصر ، لم يكتسب أى ظلال اقليمية أى لم يكن يعنى أنه مسئول عن أحد الأقاليم ، كذلك لم تكن له علاقة بنظام التيمار الذى لم يطبق على مصر مطلقا (٢٨) ٠ وكما سنفصل فى الفصل الثانى ، فان

البكلكية التي أدارت نفسها بهــذه الطرق تغيرت فى كثير من الجوانب العديدة المهمة · فانقسمت الطبقة العســكرية الى عصبتين : الفقارية والقاسمية ، الذين تشكل منافساتهم العنيفة الدامية التاريخ السياسى في القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ·

وثمة أسطورة ذكرت فى مقدمة كتاب عبد الرحمن الجبرتى عن تاريخ مصر العثمانية ، تشرح هذه الأسطورة الاسمين اللذين استمدت منهما هاتان العصبتان اسميهما ، وهى أن اثنين من شباب المماليك تطورت المنافسة بينهما الى كفاح مرير قبل سليم الأول·وفى الواقع ، لم يرد ذكر القاسمية والفقارية قبل بداية القرن السابع عشر ، ويرتبط ظهور المنافسة بين العصبتين الى بداية العمل بالبكلكية (البكوية) · وكان لكل عصبة حلفاؤها من البدو : الفقارية السعد ، والقاسمية الحرام · ومن بين الكتائب كانت كتيبة العــزب تقليديا حليفة للقاسمية ، بينما كانت غالبيــة الانكشارية فقارية ·

وكان أبرز ممثل للبكلكاتية (البكوية) فى القرن السابع عشر رضوان بك الفقارى ، الذى شغل منصب أمير الحج لما يقرب من ربع قرن حتى وفاته ، فى عام ١٦٥٦ · وكان رضوان أميرا ثريا وقويا نجح فى احباط مساعى منافسيه القاسمية وعدة ولاة لازاحته عن منصبه كأمير للحج · وسعوا لتعيينه واليا على ولاية الحبش (*) ، وهى ترقية أقرب ما تكون الى النفى · ومما قوى من مكانته تحالفه مع على بك ، حاكم جرجا ، وهى المديرية التى كانت تمد القاهرة بالحبوب · وهناك من أرجع أصل رضوان بك الى سلاطين المماليك ، وزعم أنه ينحدر عن قريش قبيلة النبى ﷺ · وكان تأكيد أصل رضوان بك النبيل تحديا للسلطة العثمانية · واذا ما اقتبسنا كلمات هولت نجد أنه يقول: « تتضمن شجرة العائلة أن رضوان بك كان يمارس وظيفته (كأمير للحج) ليس كموفد من قبل السلطان العثمانى الكائن فى بلاد بعيدة ، وانما باحساس من الحق الموروث استمده من أجداده المماليك والقرشيين » (٣٠) ·

(*) ارتريا الحالية ـ (المراجع) ·

ولم يكن هذا يعنى أن رضوان أو أى بك آخر فى زمانه كان يدبر أى خيانة ضد العثمانيين فالوقت لم يكن مناسبا لذلك ٠ بل على العكس من ذلك ، فحين كان وضع رضوان فى مصر عرضة للخطر ، اندفع الى اسطنبول ليعلن عن ولائه للسلطان ورتب أن يعاد الى منصبه كأمير الحج فى مصر ٠

وبعد وفاة رضوان ، أثارت عجرفة فقارية ردا فعليا قاسميا عنيفا ٠ وكان الباشاوات العثمانيون يستغلون التنافس بين المعسكرين كى يقووا من مصالحهم ٠ فبالرغم من أن سلطتهم فى التصرف بشكل مستقل قد ولت ، الا أنهم استطاعوا أن يثيروا كل عصبة على الأخرى ، ويتخذوا جانب الجماعة التى يتصادف أن مصالحها تتفق مع غاياتهم ٠

وهكذا تكون تآلف عام ١٦٦٠ من مصطفى باشا ، وبكوات القاسمية بقيادة أحمد بك البوسنى ، وكتيبة العزب ٠ وفى ٢٧ أكتوبر ، ذبحت جماعة من البكوات الفقارية ، فى ترانه Tarrana وبعد ذلك بعامين ، يتسبب حاكم آخر هو ابراهيم باشا فى قتل أحمد بك البوسنى ، مما عجل بتدهور البكلكية (البكوية) ٠ وظل البكوات يشغلون مناصب تقليدية ، غير أنهم لم يعودوا يلعبون أدوارا هامة ٠ وحاولت اسطنبول أن تعيد تأكيد سيطرتها على الادارة المصرية اذ قصد الباب العالى الى ادارة المالية المصرية وذلك باستخدام كتبة من اسطنبول وأن تزيد العوائد من ٢٣ مليون بارة فى السنة الى ٣٠ مليون بارة ٠

وعموما ، فقد فشل العثمانيون فى مواجهة المعارضة العنيدة التى أبداها العسكريون فى مصر ، الذين كانوا قد تحولوا الى جهاز فى حد ذاته له مصالحه وأصبح لديه روح الفريق ٠

وحانت ساعة الكتائب السبع فى الحامية العثمانية (الأوجاقات) ، وهنا حدثت التطورات السياسية الرئيسية ٠ ففى أثناء الربع الأخير من القرن السابع عشر ، والربع الأول من القرن الثامن عشر ، انتقل مركز الثقل السياسى الى الانكشارية ، وهى أغنى الكتائب السبع وأكبرها

وأقواها · وتحل المعارك بين الانكشارية والعزب وهى ثانى الكتائب من حيث القوة وكثرة العدد محل تنافس بيوت المماليك ، فى الحوليــات المصريــة ·

لم يعد منصب البك مطلوبا ، اذ لم يستطع الباشا أن يحصل على القدر الذى كان يتقاضاه من المرشحين للبكلكية (البكوية) كما كان يحدث من قبل · والأمر الأكثر أهمية من ذلك ، أنه قد أصبح من المقبول ترقية ضابط من الكتائب الى رتبة البكلكية (البكوية) التى صـــارت عاجزة الآن (أصبح منصب البكوية بلا سلطات) ·

وكما كان الحال بين البكوات ، فان الصراع بين العصـــابات العسكرية وداخلها فى الكتائب كانت له جوانب اقتصادية وعسكرية بما أن الكتائب كانت تسيطر على العديد من المزارع المربحة · فكما تبين حياة أحد صــغار العسكريين كشـــك محمد باشودأباشى kusuk M. basodabasi أو الصغير الرتبة ، فى كتيبة الانكشارية ، كيف أن ضابطا صغيرا استطاع لبرهة أن يصبح أكثر الرجال نفوذا فى القاهرة · اذ استطاع أن يستخدم سلطته ليخفض من سعر القمح ضد مصالح المضاربين فى الحبوب وأن يلغى دفـــع ضريبـــة الحماية غـــير الشرعيـــة ، وبذلك لعــب دور المدافع عن حقوق العامة · وتكشف حياة محمد العملية ، من عام ١٦٧٦ حين استولى على السيطرة على كتيبة الانكشارية حتى اغتياله عام ١٦٩٤، بعض الأحوال السياسية المعقدة فى مصر فى ذلك الوقت · اذ حاول أعداء محمد أن يقصوه عن موقعه الحاسم فى مقر الانكشـــارية وذلك بنفيه الى قبرص أو نقله الى كتائب أخرى ، غير أنه نجح فى تثبيت اقدامه سيدا على مصر لمدة عامين ونصف حتى وفاته (٣١) ·

ودارت الأزمة التالية أيضا حول الانكشارية · وكان الشـــخص الرئيسى هو افرانج أحمد ، وهو باشودأباشى basodabasi انكشارى · وحاولت جماعة من ثمانية ضباط انكشارية يعاونهم العزب أن يزيحوه · ونجحوا فى البداية ، وأجبر افرانج أحمد أن يقبل رتبة بك ، غير أنه بمرور الوقت ، تمكن من العودة الى منصبه الأصلى ، فى الانكشارية ·

وانشقت القوى العسكرية فى مصر معسكرين معادين ، ولم يكن افرانج جلب معه تدعيمات من بدو الهوارة ، وبعض العناصر من الكتائب الأخرى ، خاصة العزب ، لما كان يتمتع به الانكشارية من مكانة وأرباح • فابتداء من شـهر مارس الى يونيـو عام ١٧١١ ، وصلت الأعمال العدائية بين المعسكرين الى نشوب المعارك المسلحة • ويعطى تكوين المعسكرين فكرة عن التعقيدات السياسية والعسكرية • اذ وقفت الى جانب افرانج أحمد غالبية الانكشارية ، والباشا ، ومحمد بك ، وحاكم الصعيد الفقارى الذى جلب معه تدعيمات من بدو الهوارة ، وبعض العناصر من الكتائب الأخرى ، ومعظم بكوات الفقارية وأهالى منازل مماليكهم •

وعلى الجانب الآخر كان هناك تقريبا العزب والكتائب الاخرى ، وكذلك ٦٠٠ من الفارين من الفقارية ، وبكوات القاسمية ، وقايتاظ بك ، وهو من كبار الفقارية كان قد تشاجر مع أيوب بك ، الزعيم الفقارى ، فانضم الى القاسمية • واستعر أوار المعـارك فى القـاهرة وحولها وأثناء القتال قصفت القلعة •

وقتل ايواظ بك وهو أحد القادة القاسمية المهمين،وغادر مصر اثنان من زعماء القاسمية المهمين ، وهما : أيوب بك ، ومحمد بك ، الذى سبق ذكره ، وهو حاكم الصعيد ، وذهبوا الى اسطنبول ، وتم أسر افرانج أحمد ، وأعـدم فى (٢٢ من يونيو ١٧١١ م) ولم تكن الحرب الأهلية التى وقعت عام ١٧١١ ، علامة على هزيمة نظام الانكشارية ، والفقارية ، فحسب ، وانما ما هو أكثر مغزى من ذلك ، أنها كانت تشير الى اضمحلال هذه الأنظمة بمرور الوقت ، وصعود نجم نظام البكلكية (البكوية) الذى دام حتى الاحتلال الفرنسى عام ١٧٩٨ • اذ ان الانكشارية وغيرهم من الكتائب قد اعتراهم الضعف والوهن بعد عقد من الصراع المستمر ، وحتى أثنـــاء الصراع نفســـه ، عاودت البكلكية (البكوية) باعتبارها قوة عسكرية وسياسية مركزية (٣٢) • ومنذ ذلك الوقت فصاعدا . كان صراع الفرق داخل مجتمع المماليك هو القصة السياسية لمصر فى القرن الثامن عشر • وأصبح التنافس بين القاسمية والفقارية قبيحا وداميا ، اذ كان الهدف النهائى هو القضاء التام على الجانب الآخر • كما أن

اغتيال البكوات على يد معارضيهم الذين كانوا يشعرون بالغيرة مما يتمتعون به من جاه ومال ، وأصبح شيئا كثير التكرار ٠

وبعـد الصراع المسلح ، انتقلت زعامة القاسـمية المنتصرين الى اسماعيل بك ، الابن الأكبر ذى الستة عشر عاما لايواظ بك ، الذى كان قد قتل ٠ وبعد أن قتل ، تم اغتيال اسماعيل نفسه عام ١٧٢٤ وهو من الأمراء الذين كانوا يتنافسـون معه على السـيادة ٠ وكان محمد بك شركس ، من أبرز المتنافسين الذين تلوا اسماعيل ، وهو رئيس فرع آخر داخل القاسمية ٠ وتميز هذا الأمير المفرط فى الحكم الفردى الخالى من المبادىء بأنه كان أول من حاز لقب شيخ البلد الذى كان يحظى به كبير البكوات ، الذى كان أقوى شخصية فى القاهرة ٠ وتسمى الحكومات العثمانية ، فى العـديد من الوثائق الرسمية ، هذا اللقب « ابتكاراً شيطانيا » ومصدر جميع متاعب مصر (٣٣) ٠ غير أن اسطنبول ، اضطرت، على مضض ، أن تتحمل اللقب الجديد ، الذى كان اختراعا ابتدعه البكوات ، وعبر عن سيطرتهم وعجز الحاكم ٠ وفى البداية تحالف محمد شركس مع ذى الفقار ٠ وكان مغتال اسماعيل بن ايواظ أحد اثنين طامعين فى السيادة ٠ وكان ذو الفقار يحوز على تأييد الباشا فنفى شركس فى شمال أفريقية ، وتسلل الأخير الى مصر ، مع أتباعه وشكلوا معارضة لحكام القاهرة ٠ فهزم فى المعركة وأغرق فى النيل فى ١٢ أبريل ، ١٧٣٠ ، بينما كان يحاول الهرب ٠ كما قتل مؤيدو شركس (ذو الفقار) فى القاهرة بعد ذلك بيومين ٠ وكان سقوط محمد بك شركس علامة على عودة الفقارية ٠ وعلى كل ، كانت عصابات المماليك تميل الى الانشقاق الى أقسام أصغر فرعية تتنافس مع بعضها ، مما أفرغ انتصار البكوات من أى معنى ، كما لم يعطوا قادة الكتائب أى فرصة لاحياء بعض من نفوذهم القديم ٠ انتقلت السلطة السياسية الى حكم ثلاثى : هؤلاء الثلاثة كانوا اثنين من ضـباط الكتائب ، عثمان كتخدا القزدوغلى (وهو من الانكشارية) ويوسف كتخدا (عزب) وأحد البكوات هو محمد بك قطامش ٠ وقتل الثلاثة جميعا بعد ذلك فى مذبحة من تدبير بكير باشا فى نوفمبر ١٧٣٦ ، وكانت واحدة من أكثر المعارك التى أريقت فيها الدماء وأسوئها فى حوليات مصر العثمانية ٠ وأودت بحياة أحد عشر أميرا وبك ، وقائد كتيبة ٠

وظهر ثلاثى حاكم جديد ، يتكون أيضا من ضابطين ، أحدهما انكشارى والآخر عزب يحمل لقب كتخدا ٠ وتحدى هذا الثلاثى ضابط انكشارى آخر ، هو ابراهيم تشافوش (شاويش) الذى يعرف على نطاق أوسع باسم ابراهيم كتخدا ، الذى سادت شخصيته القوية المسرح المصرى لمدة عشر سنوات : (١٧٤٣ ــ ١٧٥٤) ٠ وكان شريكه هو رضوان كتخدا الذى قاد أيضا عصبة الجولفية الأصغر حجما ، كضابط من العزب،وساعد ابراهيم فى مطاردة عثمان بك ، المملوك وخليفة ذى الفقار ، حتى أخرجه من البلاد ٠ ولم يشكل رضوان كتخدا أى تهديد لابراهيم بما أنه كرس وقته وطاقته لبناء مساكن رائعة ، وكذلك لرعاية الشعراء ٠ وكان ابراهيم كتخدا هو رئيس القزدوغلية ، وهى جماعة قوية متحالفة مع الفقارية ٠ ومن الجدير بالملاحظة ٠ أنه لم يكن هو نفسه من البكوات ، وأنه وصل للسلطة بحكم وضعه فى كتائب الانكشارية ، والكثير من مماليكه قدر لهم أن يصبحوا من البكوات ٠ وكان حكم ابراهيم ورضوان هو آخر مراحل التحول من حكم الكتائب ــ وبصفة رئيسية ــ الانكشارية الى حكم البكلكية المملوكية (البكوات المماليك) ٠ فبعد وفاة ابراهيم فى نوفمبر ١٧٥٤ ، قتل مماليكه رضوان ، واختفى الجولفية Julfiyya كقوة سياسية ٠

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، احتكر القزدوغلية السلطة السياسية فى مصر حتى الاحتلال العثمانى ٠ ولم تتوقف المشاحنات ، حيث حلت المنافسات الشخصية بين البكوات القزدوغلية محل المنافسات بين العصابات ٠

بعد سنوات عديدة من عدم الاستقرار ، أصبح على بك الكبير أو بولوت كابان Bulut Kapan « صائد السحاب » شيخ البلد ، (الذى جعل الناس تطلق عليه هذا الاسم هو طموحه وعجرفته) بعد أن انقلب على على العزاوى ؛ الذى كان يسمى أيضا الكبير ، مما جعل المؤرخين فيما بعد يخلطون بين الاثنين ٠ وكان العزاوى مملوكا لابراهيم كتخدا مثل على بولوت كابان نفسه ٠ وكانت الفترتان اللتان قضاهما على فى المنصب كشيخ البلد (١٧٥٦ ــ ١٧٦٦ و ١٦٦٧ ــ ١٧٧٢) نقطة

تحول فى تاريخ مصر العثمانية • فباعتباره طاغية ، وشديد الطموح ، كان أول حاكم منــذ أحمد الثائر ، ـ قبل ذلك بقرنين ونصف ـ يحــاول أن يفصل مصر عن الدولة العثمانية ويعيد السلطنة المملوكية • فأعد عدته بدقة وقسوة غير مسبوقتين • غير أنه أخل بالتوازن القديم بين القوى المحلية لكى يحقق أهدافه •

وعن طريق الاغتيال والنفى ، أزال الكثير من البكوات ، والعصابات المملوكية ، بمن فى ذلك حلفاؤه السابقون • وكان أحد مساعدى على بك والذى رشحه للقب بك ، بوسنيا يســـمى أحمد باشــا الجزار • غادر ذلك الرجل مصر فى الوقت المناسب كى ينقذ نفسه من طغيان على • وعرف فيما بعد بحاكم صيدا • ومحا على بك استقلال الانكشارية بعد أن طهرها من كبار ضباطها عن طريق الاعدام أو النفى •

وبعد هذه الاجراءات ، لم يعد لكتائب الانكشارية الا وجود شكلى وأصبحت مهامها الرئيســية هى حمــاية الحرفيين والتجار ، ومساعدة البكوات المماليك فى سحب أموال من الخزانة بدعوى أنها رواتب الجند الانكشارية ، الذين تم تسجيل أسمائهم كجنود (المقصود : سحب أموال على أنها أجور لجنود انكشــارية مســجلين وهم فى الحقيقة غير عاملين بالجنــدية) •

أنشأ على بك جيشا كبيرا يضم مماليكه العديدين والمرتزقه من شمال أفريقيا والدروز والبدو والشيعة والمسيحيين •

ومع مقدم عام ١٧٧٠ ، حطم الحكم الذاتى الذى كان يتمتع به اتحاد البدو فى الصعيد والدلتا • وكان الهوارة فى الصعيد قد اغتنموا تحت قيادة الشيخ همام الثرى القوى ، فرصة الصراعات المستمرة فى القاهرة وحصلوا على حكم ذاتى نسبى فى الأراضى الواقعة بين أسيوط وأسوان • وهرب الكثير من الأمراء المتمردين والهاربين من المعــارك المتكررة الى الجنوب ، وانتظر بعضهم ظروفا أفضل بينما استقل آخرون من الهوارة • ولما كان على بك عازما على أن يمد حكمه على البلاد بأكملها فقد هزم على

بك هماما ، الذى توفى بعد ذلك بفترة قصيرة (١٧٦٩) . وفى نفس العام ، أسر الشيخ سويلم أهم مشايخ العرب فى الوجه البحرى ، وتم اعدامه . وبدأ على بك سياسة جمع المال قسرا بغلظة غير عادية . فكثيرا ما فرض ضرائب غير قانونية (أفانيات) Avanias على التجار الأوربيين فى مصر ، وعلى الاقباط والأثرياء الآخرين . أما أكثر من أصابهم ضرر سياسة على ، فهم الجالية اليهودية التى ظلت لعدة قرون مسئولة عن الجمارك ودار سك العملة وتغيير العملة . فقبض على بك على العديد من موظفى الجمارك اليهود وأخذ أموالهم عنوة ، وأعدمهم . وأعطى مناصبهم للمسيحيين الشـــوام الذين كانوا قد وصلوا حـــديثا ، فكان حـــكم على بالتأكيد هو أعنف صـــفعة لليهـــود المصريين لقرون عديـــدة .

وبدأ على يتحدى السيادة العثمانية مباشرة . ففصـــل الولاة فى عامى ١٧٦٨ و ١٧٦٩ ، وهى حركة عادية ، فى حد ذاتها ، غير أنه أيضا لم يسمح بوصول ولاة آخرين . واتخذ امتيازات الحاكم المستقل ، وأمر بأن ينادى باسمه فى صلاة الجمعة وأن يكتب على العملة . ووسع من علاقاته الخارجية ، مستهدفا ضم أراضى الحجاز والشام ، التى كانت أجزاء من السلطنة المملوكية . ولم يكن تدخله فى الحجاز عام ١٧٧٠ أمرا غير عادى ، ذلك أن الحكام فى القاهرة كثيرا ما فوضهم السلطان العثمانى بأن يتصرفوا هناك نيـــابة عنه فى صراعات أسر أشراف مكة المتكررة .

وفى بعض المناسبات ، أحل بك مصرى محل حاكم جدة ، وكانت حملة على بك على سورية عام ١٧٧١ ، تحديا سافرا للسلطان .

وكان على بك يعتمد فى تحركاته الجريئة على قوتين : الشـــيخ ظاهر العمر حاكم الجليل ، الذى كان مثله منكبا على محاولات للحصول على الاستقلال ، والروس ، الذين كانوا ، فى ذلك الوقت ، فى حالة حرب ضد السلطان ويبحثون عن حلفاء فى شرق البحر المتوسط . وبدأت قوات على بك تتبدد أثناء الحملة على الشام ، فمع أن القائدين اللذين كانا

يقودان قواته اسماعيل بك ، ومحمد بك أبو الدهب هزما قوات السلطان وكانا على وشك الاستيلاء على دمشق ، الا أنه لم يتم لهما ذلك ، وتوقفا بعد أن كانا على وشك اعلان تمرد شامل ضد السلطان بالاتفاق مع الروس · وأوقفا الحملة فجأة وعادا الى مصر ، فى خريف ١٧٧١ ·

وكان لهما اليد العليا على على فى الصراعات التى جاءت مع مرور الوقت ، وفر على الى صديقه ظاهر العمر ، وبقى معه لمدة تقرب من سنة · ثم تم اغراؤه بالعودة الى مصر برسائل مزيفة من مؤيديه هناك يعدونه فيها أن يعيدوه الى السلطة ، فأسره مملوكه السابق ، وتوفى بعد ذلك بأسبوع ـ ربما مسموما فى مايو عام (١٧٧٣) ·

وعندما أصبح أبو الدهب شيخا للبلد ، جعل سياسته مع العثمانيين مناقضة تماما لسياسة على بك الكبير فأظهر ولاءه لهم بقبوله الوالى العثمانى رافضا سياسة على بك الكبير التى لم تكن تنهج نهجا اسلاميا ، وأظهر أبو الدهب عواطفه الدينية بتوقير علماء الدين وبدعمه المالى للمؤسسات الدينية الا أن حكمه لم يطل فقد مات فجأة سنة ١٧٧٥ أثناء معركة فى الشام ضد ظاهر العمر · ويقول كريسيليوس Creselius الذى كتب دراسة مقارنة بين على بك ومحمد أبى الدهب ، ان مصر نعمت فى ظل حكم كلا الرجلين بحكومة قوية فرضت القانون والنظام اذا قارنا حكمهما بحكم من كان قبلهما مباشرة ، ومن أتى بعدهما مباشرة أيضا (٣٤) ·

وتبعت وفاة (أبو الدهب) سنوات من المصاعب الداخلية ، حيث تصارع البكوات القزدوغلية Quzdughli على السيادة · ونشأ من هذه الصراعات الحكم الثنائى ، المكون من ابراهيم بك ، ومراد بك ، وكانا مملوكين من مماليك أبى الدهب · لم يتمردا بشكل سافر ضد الباب العالى، غير أنهما توقفا بالفعل عن ارسال التحويلات المالية السنوية الى السلطان · ·

وأصبح ابراهيم شيخا للبلد ، غير أنه كان يستشير شريكه ، مع أنهما تشاجرا وتم عقد الصلح بينهما ·

وتضافرت النزاعات السياسية الداخلية بالاضافة الى سلسلة من الكوارث الطبيعية ـ مثل الأوبئة كالطاعون وارتفاع فيضان النيل وظهور طاعون الماشية ـ تضافرت كل هذه العوامل على أن تسبب للأهالى مصاعب اقتصادية مرعبة • كما كان جور الحكم الثنائى المستغل أكثر نوعا ما من المعتاد ، تحت حكم بكوات المماليك •

عند هذا الحد ، حاولت اسطنبول أن تفرض الحكم العثمانى المباشر على مصر • فغزا الأمير آلاى جزايرلى حسن باشا مصر فى أغسطس عام ١٧٨٦ ، ومزج تحركاته العسكرية ضد ابراهيم ومراد باعلانات تعد باعادة الحكم العادل المبنى على قانون نامه الذى أصدره سليمان ومبادىء الاسلام • وفى البداية ، اهتم السكان اليائسون بما قال ، ولكن مع مرور الوقت ، فقد حسن باشا شعبيته • ذلك أنه فى تعامله مع الفلاحين وسكان المدن كان ظالما شأنه شأن المماليك ، فنصحه اسماعيل بك الذى عينه حسن باشا شيخا للبلد بأن يأخذ المال قسرا كما فعل البكوات •

أثناء ذلك ، تقهقر ابراهيم ومراد الى الصعيد ولم يقدر حسن باشا على ارجاعهما من هناك• وفى أكتوبر عام ١٧٨٧ ، تم استدعاء حسن باشا لأن الدولة العثمانية كانت على شفا الحروب مع روسية • وفى عام ١٧٩١ ، قضى الطاعون على أعداد رهيبة ، وكان اسماعيل بك من بين الضحايا • وكان هو الذى حكم القاهرة بعد رحيل حسن باشا • ودخل ابراهيم ومراد القاهرة مرة أخرى واستأنفا الحكم فى يوليو • ورغم أن نظامهما لم يلق تحديا أساسيا الا أن الأحوال ازدادت تدهورا ، بسبب الأزمات الاقتصادية والسياسية التى دامت وقتا طويلا •

وفى ١ يوليو ١٧٩٨ ، وصلت قوات الحملة الفرنسية الى الاسكندرية كى تعطى اشارة البدء لحقبة جديدة ، فى تاريخ مصر والشرق الأوسط • ولم يكن ابراهيم ومراد على استعداد لمواجهة الفرنسيين كما لم يكونا على علم بالرياح التى كانت تهب ، والتى وضعت حدا لنظام المماليك ، ومجتمعهم •

الفصـــل الثـــانى

تقلبــات الطبقة الحاكمة

اتجاهات المصريين نحو العثمانيين ـ ملاحظات عامة

كما يشير عنوان هذا الكتاب ، فانه يقوم الاتجاهات المصرية نحو العثمانيين ويبحث فيها · ان المؤرخ الذى يتحمل مهمة كهذه تواجهه مشكلات منهجية معقدة · فالى أى حد كان المؤرخون الحوليون ممثلين لمجتمعهم ؟ فلقد رأينا أن ابن اياس كان يعبر عن آلام المماليك الذين سقطت دولتهم · وكان الكثير من المؤرخين الحوليين اللاحقين من بين علماء الدين أو الموظفين الذين كانوا يتحدثون نيابة عن قطاعات خاصـــة من المجتمع ، وكانـوا يعتمدون على حسن نيـة العثمانيين · كما يجب على المرء أن يأخذ حذره من النظر للأمور بغير منظور العصر الذى يؤرخ له · فرغم وجود التوترات العرقية زمن العثمانيين ، الا أن هذه التوترات لم تكن لها أى صلة بالأيديولوجيات القومية ، التى لم تطرأ الا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والأكثر من ذلك ، فان العثمانيين ـ كما يبدون فى كتابات المؤرخين الحوليين العرب ، وكتاب التراجم والصوفية وكتاب الرحلات ـ ليسوا ، بالضرورة ، هم العثمانيين الذى تكشـــفهم الحقيقة الموضوعية ، هذا اذا ما وجدت ـ أى الحقيقة الموضوعية ـ مطلقا فى الأمور التى نهتم بها (١) فكما رأينا فى الفصل السابق ، فان ابن اياس كان ينظر للاحتلال العثمانى لمصر على أنه كارثة · كذلك فان محمد ابن طولون المتوفى ١٥٤٦ والذى كان شاهدا على الغزو وهو كاتب شامى ، كان أيضا شديد الانتقاد للنظام الجديد ، رغم أنه عبر عن نفسه بنبرة أقل مرارة وانفعالا بكثير من تلك التى اتخذها معاصره المصرى

(ابن اياس) (٢) ويعطى الكتاب العرب فى الجيل التالى العثمانيين صورة أفضل • مثل الصوفى المصرى عبد الوهاب الشعرانى المتوفى ١٥٦٥ (٣) والفقيه ابن نجيم المتوفى ١٥٦٣ (٤) وعبد القادر الجزيرى المصرى المتوفى ١٥٥٣ ، والذى كان أمينا لعدة أمراء لقوافل الحج (٥) ، والمؤرخ المكى ، قطب الدين النهروالى (المتوفى ١٥٨٢) (٦) ، وفى القرن السابع عشر ، يمدح جميع المؤرخين الحوليين من أمثال مرعى بن يوسف الهانبالى ومحمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (٧) ، الدولة العثمانية وعلى الأخص ، أسرتها الحاكمة ، باعتبارهم مسلمين لا يرقى اليهم أى ظل من الشك • ففى كتاباته المهمة ، يكيل النهروالى الثناء على العثمانيين باعتبارهم سنيين متحفظين وحكاما أقوياء عادلين • ويشعر بالامتنان بصفة خاصة ، لتأييدهم للعلماء والصوفية • وباعتباره مكيا ، فهو يقدر الجوانب الدينية للأحكام العثمانية : مثل التنظيم الكفء للحج ، والكرم الذى أبدوه نحو أهل مكة ، والمدينة ، وتشييد مبان للاستخدام الدينى والمدنى فى الأرض الحرام (٨) • ولم يكن شىء من هذا بالشىء الجديد ، غير أن الطريقة التى تم بها ذلك كانت فريدة • وتتسم بالاستمرار ومدح سليمان على اعترافه بالوقف ، وهى أفعال شاركه فيها أعداؤه المهزومون • ويوصف بأنه شاعر مطبوع بالتركية والفارسية ، وربما بالعربية أيضا ، كما وصفه عموما بأنه سلطان مثالى • غير أن أسمى آيات الثناء كانت من نصيب سليمان : فهو يسمى مجدد الدين فى القرن الهجرى العاشر (٩) ، ويسميه الصوفى الشعرانى القطب الزاهر وهو أهم لقب صوفى (١٠) • وكتب مرعى بن يوسف الكرمى الهانبالى اطراء مفصلا للأسرة العثمانية سماه قلائد القيان فى فضائل آل عثمان •

وكان المؤلف من العلماء ، ولد فى فلسطين ، غير أنه يمكن اعتباره مصريا من الناحية الاجتماعية والثقافية ، من حيث انه قضى معظم حياته وسنوات ابداعه فى مصر (١١) • فما الذى غير شعور الكتاب العرب ؟ لا يمكن استبعاد المداهنة ، غير أنها لا يمكن أن تشكل كل الاجابة • اذ لم يكن هناك سوى القليل مما يشكو منه الكتاب قبل المعاهدات العثمانية ، فهم كانوا فى الغالب من العلماء ، والصوفية • فكان عليهم أيضا أن يسلموا بأن العلماء العثمانيين لم يكونوا جهلة ، كما كان يعتقد

فى السابق ، فالكثير منهم كانوا باحثين جادين ، وكان بعضهم من أفضل الباحثين فى علوم الاسلام (١٢) • وثمة تفسير آخر لشرح قبول المصريين والعرب الآخرين للسيطرة العثمانية يكمن فى خبرتهم السياسية والاجتماعية • لقد حكمهم اجانب لعدة قرون ، كانوا غالبا من أصول تركية أو شركسية •اذ كانت النظرية الاسلامية والسياسية ـ وكذلك الممارسة ـ أنه ما ان يستولى الحاكم على السلطة ويثبت قدرته على الحكم ؛ حتى يصبح حكمه حكما مشروعا • وليس من الضرورى أن يشارك المحكومين اللغة أو الأصل • وان كان هذا لم يمنع ظهور توترات مصرية ـ تركية وحالات ظهرت فيها كراهية المصريين للترك•ذلك أن الفوارق فى الطباع كانت من الضخامة بحيث لم يمكن غض النظر عنها ، اذ خلقت صورا سلبية وقوالب ثابتة لدى كلا الجانبين•فغالبا ما كان المصريون يشعرون بأن الأتراك ليسوا مسلمين صالحين • وكان الأتراك يتساءلون عن مقدرة المصريين على الحكم والقتال ، اذ كانوا يستخدمون فى وصفهم ألفاظ تحقير ، مثل لفظ تات Tat أو مقلاجى Miylaji حين يشيرون الى المصريين واعتبروهم أدنى منهم اجتماعيا (١٣) • كما أن استيعاب الأراضى العربية داخل الدولة العثمانية أجبر المصريين وغيرهم من المتكلمين باللغة العربية على مراجعة صورتهم الذاتية • فتحت حكم المماليك ، كانوا يعرفون أنفسهم على أسس دينية فقط•وكان المماليك يدعون أتراكا ، غير ان تركيتهم شىء أكثر وظيفية منه حق مولد ، فهى ميزتهم على رعاياهم •

ويشير المؤرخون العرب ، وعلى رأسهم ابن اياس ، الى المماليك على أنهم أتراك ، بينما كان يشار الى العثمانيين على أنهم (أروام) (تراكيما) أو (عثمانية) (١٤) • ولم يكن فى استطاعة أحد سوى نخبة المماليك استخدام أسماء تركية ، وهم وحدهم الذين كانوا يتحدثون باللغة التركية، رغم أنها لم تكن هى اللغة الأم عند الشراكسة ، الذين وصلوا الى السلطة فى السلطنة المملوكية عام ١٣٨٢ •

لم يكن هناك شك فى عروبة مصر سواء من حيث اللغة أو الثقافة ، وكانت اللغة العربية هى لغة الحكم • ولكن بعد أن فتح العثمانيون مصر ، كان الوجود التركى فى مصر سائدا بشكل كبير ويشعر به الكثير من

طبقات المجتمع ، رغم أن الحكام الجدد لم ينظر لهم على أنهم أتراك ، وانما كمسـلمين ٠

أصبحت اللغة التركية هى لغة الحكومة والقضاة وغيرهم فى الجهاز الادارى ، خاصة أولئك الذين كانوا فى مراتب عليا ٠ فهم كانوا يتحدثون بها ٠ ويظهر فى المصادر اصطلاح جديد للاشارة الى الأهالى المحليين الذين كانوا يتحدثون باللغة العربية : وهو أولاد العرب أو بالتركية أفلاد اعـراب ٠

ومن الواضح أن المماليك ، الذين بقوا تحت الحكم العثمانى ، لم يعد يمكنهم أن يعتبروا أنفسهم أتراكا ، وصاروا الآن يشار اليهم على أنهم شراكسة (مماليك أو غز) (١٥) ٠

وبمرور الوقت ، ضـاقت الفجوة الاجتماعية بين الأهالى ، بينما اتسعت الفجوة بينهم وبين الأتراك ٠ اذ شعر المصريون بأنه بالرغم من أن مصر صارت مكانتها هى مكانة ولاية فى الدولة العثمانية ، الا أنها مازالت بلدا منفصلا ٠ فمن الناحية السياسية ، كانت بلاد العثمانيين تسمى الدولة ، أو السلطنة وأحيانا الدولة الرومية ، أى الدولة التركية ٠ وكان يشـار الى مقاطعات الدولة المتكلمة بالتركية ، على أنها الديار الرومية ، أى الأراضى التركية ٠

وعموما ، كان يشار الى مصر على أنها الديار المصرية ، أى أرض مصر ، بمعنى أنها بلاد منفصلة ، رغم ارتباطها بالدولة العثمانية ٠ اذ لم يذهب أى سلطان عثمانى الى مصر سوى سليم الأول ٠ ولم يتابع المصريون خلفاءه الا على البعد ، رغم أنهم كانوا يعتبرون هؤلاء السلاطين شخوصا موقرين مبجلين محبين للخير (١٦) ٠

ولم يلاحظ المؤرخون الحوليون سـوى اعتلائهم العرش ووفاتهم أما ما دون ذلك فهو نزر يسير ٠ وفى القاهرة ، كانت الاحتفالات بمولد ابن للسلطان فى اسطنبول أو بانتصار عثمانى فى ميدان القتال ، محدودة بتعليق الزينات على الحوانيت والمنازل والألعاب النارية ٠

ويجب التأكيد على أنه قبل نهاية القرن الثامن عشر لم يزعم السلطان العثمانى لنفسه لقب الخليفة ، ولكن مع قدوم هذا الوقت ، كانت الظروف السياسية قد تغيرت • فحينما كانت الامبراطورية فى قمة مجدها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كانت السلطنة من القوة بحيث لم تكن فى حاجة الى اللقب المحمل بظلال تاريخية ـ وهو لقب الخليفة ـ لكى تخلعه على السلطان •

ولقد بين المؤرخون ، من قبل ، أن المزاعم القائلة بأن آخر خليفة عباسى فى القاهرة نقل حقوقه الى سليم الأول بعد الفتح العثمانى لمصر ، ان هى الا أسطورة خلقت فى أواخر القرن الثامن عشر • وأحيانا كان يسمى المادحون العرب وغيرهم العثمانيين « ورثة الملك والخلافة » غير أن هذا لقب شرفى فارغ من أى مدلول سياسى أو دينى (١٧) •

الباشا : كان كبار ضباط الجيش يحكمون مصر العثمانية • والاستخدام العثمانى اللغوى الذى قسم الأهالى الى فئتين أساسيتين ، عسكرى ، « الطبقة العسكرية » والرعية (حرفيا ، قطيع السلطان) يعكس الواقع الاجتماعى (*) • وغالبا ما كانت الطبقة الحاكمة تستخدم سلطتها كى تثرى نفسها ، بشكل قانونى أو غير قانونى • وكان بعض المدنيين يعملون بالتجارة ، وغالبا ما كانوا فى وضع مهزوز غير مأمون اذ كان من الممكن للجنود والأمير استغلالهم وابتزازهم • وفى مصر ـ كما كان الحال فى معظم المقاطعات العثمانية ـ كان الحاكم (الوالى)هو أعلى مسئول من حيث الرتبة ، فهو الذى كان يدير الولاية ، باعتباره ممثل السلطان ، وكان مسئولا عن حماية مصالح الحكومة المركزية ، بما فى ذلك جمع الضرائب وتسليمها والحفاظ على القانون والنظام ، وحماية مصالح الدولة الاستراتيجية فى مصر والأقاليم الداخلة فى مجالها الجغرافى السياسى (الجيوبوليتيكى) : كالبحر الأحمر ، والحجاز واليمن وولاية الحبش •

(*) the sultans flocks وبطبيعة الحال ليس هذا هو مفهوم الرعية فى التاريخ الاسلامى ، وانما المقصود هو من يجب أن يرعاهم السلطان أو المسئول عنهم السلطان وقد استخدمت الكلمة منذ فجر التاريخ الاسلامى المبكر دون أن يكون لها هذه الدلالة •

ومن بين مسئوليات الحاكم تنظيم وحماية قافلة الحج الى مكة ، وتزويد مكة والمدينة بالحبوب من مصر ٠

وكان ينفذ واجباته الادارية من خلال الديوان ، أو مجلس الدولة ، الذى كان ينعقد أربع مرات أسبوعيا ، وكان مشكلا على غرار ديوان السلطان فى اسطنبول ٠ هناك كانت تناقش أهم الأمور الخاصة بالدولة ويبت فيها ، وتقرأ الفرمانات ٠

وكان الوالى هو القائد الأعلى للقوات فى مصر ، برتبة باشا ، وقد منح عدة باشوات رتبة وزير (١٨) ٠ وفى فرمانات القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، كان الباشا يلقب بكلربك مصر فى المعتاد ٠ وفى أزمنة لاحقة ، كان يلقب بوالى مصر ٠

ويمكن اعتبار سلطة الباشا مؤشرا مفيدا يدل على قوة اسطنبول فى مصر ٠ ففى أثناء القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، كان الباشـــا هو حاكم مصر الفعلى ، وكانت سلطته هى العليا رغم تحدى الفرق المتمردة له ، اذ كانت حـكومة السلطان العثمانى تعطيه صلاحيات كاملة وهو ما يتضح حتى فى تركيب وصياغة فرمانات التولية ٠ فمع أن الفرمانات كانت تعبر عن مشيئة السلطان الشخصية ، حتى فيما يخص أتفه الأمور ، مثل منح علاوة للجنود العاديين ، الا أنها كانت فى الواقع ، تعكس اقتراحات الباشا ٠ وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، تدهورت سلطة الباشا الى مجرد ممثل لسلطة السلطان ٠

أما فى القرن السادس عشر حيث المصادر نادرة (١٩) ، فقد كان الباشا يلقى بظله فوق جميع أصحاب المناصب فى مصر ٠

ويسجل المؤرخون الحوليون بعناية تواريخ وصولهم وعزلهم ، وهذه التواريخ هى التواريخ الوحيـــدة الدقيقة فى هذا القرن ٠ وكانت شخصياتهم تحظى بعناية كبيرة ، وكذلك سياساتهم وأعمالهم ٠ ولما كانت مصر من أهم الولايات ، فان باشواتها كان يتم انتقاؤهم من بين أفضل الاداريين ، وأولئك الأكثر قربا من السلطان وأحيانا يكونون من أقربائه ٠

وكان الباشا يرقى الى منصب الصدر الأعظم بعد أن يكون قد أكمل فترة حكمه في مصر ، بينما نجد الآخرين ، الأقل حظا ، يزجون فى السجن أو تقطع رؤوسهم بمجرد أن يصلوا الى بلاط السلطان .

وكان الكثيرون من الباشوات يحضرون الى مصر بعد أن يخدموا فى مقاطعات أو ولايات رئيسية أخرى . ففى القرن السادس عشر ، أعطى لقب خادم لما لا يقل عن ستة باشوات ، وهو مخفف لكلمة طواشى ، أى أنهم كانوا طواشيين قضوا حياتهم العملية فى منزل السلطان . ويشرح مصطفى على وهو مؤرخ عثمانى شهير ، وكاتب وشاعر ، زار مصر فى نهاية القرن السادس عشر قائلا : « لقد كانت عادة ذلك الزمان أن يعطى حكم مصر لأشخاص من طبقة الطواشية متى صار المنصب شاغرا ، لأنهم متحررون من الحاجة الى زوجات ، وأطفال ، وبالتالى تعود جميع ممتلكاتهم فى النهاية الى السلطان » (٢٠) .

وكان تعيين الباشا لمدة سنة واحدة . غير أن المدة عادة ما كانت تجدد الى عامين أو ثلاثة . أثناء ٢٨١ سنة من حكم العثمانيين لمصر ، تولى ١١٠ باشوات حكمها ، مما يجعل متوسط فترة حكم كل منهم عامين ونصفا .

وفى أوائل القرن الثامن عشر ، فاز رامى محمد باشا بامتياز بأن عين لفترة خمس سنوات . وفى القرن السادس عشر احتفظ سلمان باشا الشهير بمنصبه لمدة ١٠ سنوات (١٥٢٥ ـ ١٥٣٥) ، وبعد أن أرسل فى حملة بحرية فى المحيط الهندى ، عاد الى منصبه لسنتين آخريين (١٥٣٦ ـ ١٥٣٨) . وخدم داود باشا أحد عشر عاما من ١٥٣٨ حتى وفاته . وكان وضع هؤلاء استثنائيا ، تماما فقد كان يحدث دائما أن يستدعى أحد الباشوات بعد أن يقضى بضعة أشهر فقط فى منصبه .

وحين كان يعزل أحد الباشوات ، كان يؤدى واجباته قائم مقام حتى يصل مرسال (مسلم ومتسلم) من اسطنبول بمرسوم يعين الباشا التالى . وكان الباشوات الذين يحضرون بحرا ، يقضون بضعة أيام فى الميناء

النهرى بولاق ، أما الحاكم الذى كان يحضر برا ، فيبقى فى حى العديلية Adiliyya شمال القاهرة · وكان كبار الأمراء يرحبون بالوالى عند وصول ضباط الجيش والموظفين الذين كان يخلع عليهم الخلع (أردية الشرف) ، وكان الجيش يتوقع الترقيات لدى وصول الباشا الجديد ، الشبيهة بالعلاوة التى كان يتلقاها انكشـــارية اسطنبول حين يعتلى العرش سلطان جديد (٢١) ، وبعد ذلك بعدة أيام ، كان الباشا يطوف بالقاهرة فى موكب وهو فى طريقه الى سكنه فى القلعة ، مركز الحكم ، حيث كانت توجد مصلحة سك العملة والديوان ، والمكاتب المركزية · ونادرا ما كان الباشوات يغادرون القلعة ، بل انهم فى النصف الثانى من الحكم العثمانى ، كانوا سجناء نسبيا هناك · على كل ، ففى القرن السادس عشر ، كان الباشوات ما يزالون يتجولون فى البلاد · اذ حارب داود باشا شخصيا الكثير من البدو · ولقد تجول ابراهيم باشا (١٥٨٣ ـ ١٥٨٤) فى أقصى مديريات الصعيد حيث فتش على مناجم الزمرد ، كما زار الأهرام ، على أمل أن يجد كنوز مصر القديمة · وفى المحلة الكبرى ، أمر بهدم احدى الكنائس بنيت على موقع أحد المساجد · كذلك زار ضريح الولى أحمد البدوى فى طنطا أكثر الأولياء المصريين شعبية ·

وفى المناسبات القليلة التى كان الباشوات يغادرون فيها القلعة ، كانوا يحضرون احتفالات يقيمها الأمراء تكريما لهم ، فى قصور وسرادقات خارج المدينة ، فى مواضع مثل قصر العينى ، أو المقياس ، فى جزيرة الروضـــة ·

وكان الباشا يترأس أهم المراسم والاحتفالات فى العام ، مثل فتح الخليج فى أوائل اغسطس حين يرتفع النيل وكذلك عند رحيل قافلة الحجيج الى مكة ، فى شهر شوال · وفيما عدا ذلك ، كان الباشوات يلزمون القلعة · وفى عدة مرات أثناء القرن الثامن عشر ، مع أن الباشـــا كان يعبر عن رغبته فى أن يقود شخصيا حملة ضد قبائل البدو أو ضد أحد البكوات المتمردين ، لم يكن هذا سوى لفتة يقوم بها للتأكيد على خطورة الموقف ، ولم يلق الأمراء صعوبة كبيرة فى اثنائه عن الذهاب (٢٢) ·

ولما كانت فترة الباشوات فى الحكم قصيرة فى العادة ، فكانوا غالبا ما يحاولون أن يثروا بسرعة ، ولم يكونوا مهتمين برعاية مشروعات لن يجنوا ثمارها لأن هذه المشروعات كانت تستلزم الكثير من الجهد والوقت والمال · وعلى عكس سلاطين المماليك ، الذين كانت لهم أضرحة رائعة مشيدة فى مصر ، لم يكن الولاة العثمانيون يريدون أن يدفنوا فى مصر ·

وكان الباشوات يتلقون أجورا سنوية (سليينات) Salyanes ولم يكونوا يحوزون اقطاعيات عسكرية ، بما أن مصر لم نكن تدار من خلال نظار التيمار (*) · واستفادوا ، بالاضافة لذلك ، من مصادر مختلفة للحصول على الدخول (٢٣) ·

وبالرغم من افتقار الباشوات العام للحافز ، للبدء فى اقامة مشروعات مكلفة، فلقد قدم الكثيرون منهم أعمالا خيرية، وأقاموا منشآت عامة ومبانى دينية · ولقد بين ريمون ، بطريقة مقنعة ، أنه بينما لم يثر العثمانيون القاهرة بالتأكيد بالآثار الرائعة ، كما فعل المماليك ، الا أنه يمكن مع ذلك ، اعتبار الفترة العثمانية فترة شهدت تطورا كبيرا فى المدن (٢٤) · اذ شيد الباشوات فى القرن السابع عشر ، والبكوات فى القرن الثامن عشر منشآت عدة كما أصلحوا مرافق المياه ، والخانات (أماكن استراحة القوافل ليلا) والحمامات والمتنزهات العمومية ، والقصور · كما شيدوا الكثير من المبانى الدينية ، مثل المساجد والمدارس الدينية والتكايا ومدارس تحفيظ القرآن للأطفال والأضرحة · وكذلك أسهم الباشوات بالأموال لتزويد الحجاج الى مكة بمرافق للماء والطعام والراحة والأمن ·

وكان الباشوات ، متأثرين فى هذا العمل ، أحيانا ، بميولهم الدينية · فعلى سبيل المثال ، كان شريف محمد باشا راعيا لمقام الحسين ابن على ، حفيد النبى ، ﷺ ، حيث كان يعتقد أن رأس الحسين يوجد بهذا المقام · ولقد وهب حاكم سابق لليمن الرواق اليمنى فى الجامع الأزهر ، وقام باشا آخر برعاية تكية للصوفية الأتراك (٢٥) ·

(*) نوع من الاقطاع العسكرى ·

واهتم العديد من الباشوات اهتماما خاصا بالرعاية الاجتماعية . وذلك بأن أخذوا على عاتقهم اطعام عدد معين من الفقراء فى أوقات المجاعات وكانوا يجبرون كبار الأمراء أن يحذوا حذوهم (٢٦) ٠

ويميز المؤرخون الحوليون عادة بين الحكام الخيرين والحكام الظالمين اذ كان بعضهم كرماء محسنين ٠ بينما كان الكثيرون منهم ظلمة أنانيين وغاصبين (٢٧) ٠ فحسن باشا ، الذى عزل عام ١٥٨٣ ، كان بصفة خاصة حاكما ظالما ومغتصبا ٠ وفى القليل من الحالات ينحى المؤرخون الحوليون باللوم على مندوبى الباشوات أو الكتخدا للسياسات غير المحبوبة أو غير الشعبية ٠ فكان بيع السلع اجباريا (كالنحاس وهو مثال معروف) للتجار بناء على أمر الباشا قد سبب الكثير من التذمر ٠ وفشل بعض الباشوات فى أن يتعاملوا بكفاءة مع عصابات المجرمين ، بينما كان الآخرون سيئى السمعة بسبب السهولة التى كانوا يعدمون بها الناس لأقل اساءة ٠

وفى العصور الوسطى ، وزمن العثمانيين أيضا كانت اتجاهات الحاكم الدينية ذات أهمية كبيرة فى تشكيل صورته العامة ٠ فكان هناك حاكمان هما أفيز Üveys باشا (١٥٨٧ ـ ١٥٩١) وابراهيم باشا (١٦٠٤) من القضاة ، عينوا فى منصب دفتردار (*) ٠ مثل هذه الحياة العملية كانت غير مطروحة فى السلطنة المملوكية ، حين كانت الفجوة بين رجال السيف ورجال القلم لا يمكن عبورها ٠

ولقد عرف بعض الباشوات بنعوت تشير الى ميولهم الدينية ٠ فكان خادم حافظ أحمد باشا (١٥٩١ ـ ١٥٩٥ يحفظ القرآن ، وكان يختمه

(★) الدفتردار من اليونانية Diphthear بمعنى جلد الحيوان والرق الذى يستعمل للكتابة عليه ، ودخلت الفارسية بمعنى مجموعة الصحف ، فالدفتردار هو صاحب الدفتر ٠٠ وفى العهد العثمانى كان الدفتردار بمثابة وزير للمالية ٠٠ ثم حصل بكوات مصر على حق تعيين الدفتردار ولم يعد قصرا على المسئول المالى ، اذ كان البكوات يمنحون هذا اللقب لشجعان الجند ورجال السياسة دون نظر فى خبرتهم المالية وظهر فساد هذا النظام فتم العدول عنه ٠ (محمد السعيد سليمان ، صص ٩٨ ـ ١٠٤) ـ (المراجع) ٠

كل أسبوع بعد أن يصلى الجمعة جماعة · وكان اسكندر باشا (الذى عين عام ١٥٦٨) يعرف بأبى النور ؛ لأنه هو الذى أمر بأن تمسح جميع مساجد القاهرة وأضرحتها وتنظف ، وتزودها بالشموع · وثمة محمد باشا آخر كان يسمى غازى بعد أن قمع تمرد محمد بك ، الحاكم المملوكى لجرجا فى الصعيد عام ١٦٥٩ · ومنذ أن عرف محمد باشا أن هناك بكوات آخرين أيدوا المتمرد ، سمى حملته غزوة وهو لفظ يستخدم فقط فى قتال الكفار والهراطقة · فحصل الحاكم على فتوى من العلماء معلنة أن محمد بك متمرد ، وخائن · وكان العرض العسكرى قبل الحملة يشمل الذين اتبعوا سنة النبى ﷺ وشاركوا فى الذكر ، وكذلك أشرافا (أى منحدرين عن الرسول) يقودهم نقيب الأشراف · وكان هناك على الأقل ، ثلاثة من الباشوات يعرفون بأنهم صوفية ، وهو لقب دينى له اهمية خاصة : الصوفى على باشا ، (١٥٦٣ ـ ١٥٦٥) وكان زاهدا لا يرتدى سوى ملابس من الصوف الخشن ، ويتردد على زيارة مقابر الأولياء فى القرافة ، والصوفى ابراهيم (الذى قتله الجنود المتمردون عام ١٦٠٤) وكان درويش مولويا (*) فى قونية · أما الثالث فكان محمد باشا (١٦١١ ـ ١٦١٥) ·

فى وقت السلطنة المملوكية ، كان هنـاك من السلاطين من يوقر الصوفية ، ولكن لم يطلق على أى سلطان مملوكى وصف الصوفى ، وهو تغير يبين التقدم الذى حققه الصوفية تحت حكم العثمانيين · ويقال ان معظم الباشوات رجال أتقياء يلتزمون بالشريعة ·

وعموما ، فلقد كانت هناك استثناءات : اذ وصف دوكاجين أغلو محمد باشا (١٥٥٤ ـ ١٥٥٦) بأنه رجل داعر لأنه اعتاد أن يذهب الى

(★) طريقة صوفية منسوبة لمولانا جلال الدين الرومى ، وجلسات الذكر فيها تصاحبها الموسيقا ، واول درجة فيها هى (محب) ثم (مريد) ثم (درويش) ثم ان كانت له قدرات خاصة ـ (شيخ) او (خليفة) ، وهى طريقة متسامحة مع الاديان الاخرى ، ونلقى استهجانا من الفقهاء · وقد اختفت تدريجيا بعد ذلك ·

دائرة المعارف الاسلامية ٦١٠ جى · بريل ـ المادة ـ (المراجع) ·

النيل حيث كان يغنى علنا ومعه آلة شبيهة بالقيثار • فاستدعى بناء على أمر من السلطان سليمان متهما بالخروج على أحكام الشريعة وأعدم • كما أعدم بيرم باشا فى ١٢٦٨ بأمر من السلطان ، على ما يقال ، بتهمة عدم احترام أحكام الشريعة • وكان الباشوات يظهرون ورعهم فى حياتهم الشخصية والعامة معا •

وكما أشرنا من قبل ، كان أحد واجبات الباشا الرئيسية تنظيم الحج الى مكة وأن يكون مسئولا عن أمن الحجاج وراحتهم •

وكان كل حاكم عين حديثا ، فى المعتاد ، يزور ضريح الامام الشافعى فى القاهرة • وكان الكثير من الباشوات يزورون مقابر أخرى مقدسة ويأمرون بترميمها • وكان الباشوات يشاركون فى الصلوات التى كانت تؤدى جماعة حين يكون النيل شديد الانخفاض أو شديد الارتفاع •

وربما كانت الصيغة الورعة التى يصدر بها خادم مسيح باشا (١٥٧٥ ـ ١٥٨٠) جميع الفرمانات ، خير معبر عن عواطف الحاكم الدينية وعمله الرسمى • وهذه هى الصيغة المقصودة :

الحمد لله ، رب العالمين • والصلاة والسلام على نبينا سيدنا محمد ، وآله وصحبه • ان المؤمنين أى المسلمين اخوة فأفشوا السلام بين اخوتكم • واتقوا الله لعلكم ترحمون • يا عباد الله ، اعملوا بشرع الله •

كان الباشوات لا يفضلون أن يموتوا فى مصر ، لو كان الأمر بيدهم • وكان أولئك الباشوات الذين يعرفون أنهم على وشك الموت فى القاهرة ، اما نتيجة لمرض مميت ، أو لأنهم قد حكم عليهم بالاعدام ، كانوا يختارون مدافنهم بالقرب من ضريح شريف مثل ضريح الشافعى أو مقبرة الليث ابن سعد (٢٨) •

الجيش المصرى فى القرن السادس عشر ـ الجيش فى قانونى نامه مصر •

كان أساس الجيش العثمانى هو حامية سليم مع اضافات تمت

فيما بعد · ووضع قانونى نامه ـ مصر الذى أصدره ابراهيم باشا اطاره القانونى والادارى فى عام ١٥٢٥ (٢٩) · وكان الجيش يتكون من سبع وحدات ، كتيبتان من الأوجاقات (المشاة بالمعنى الحديث) وخمس كتائب من الخيالة · وكانت كتيبتا المشاة هما مستحفظان القلعاى (حماة القلعة) وهم من الانكشارية ، والعزبان أو العزب وهى الكتائب (السيباهى) وكانت تشمل اثنين من نخبة الوحدات المتفرقة Shavushes وكانوا أعلى الجنود أجرا ، والشركس أوجاقى (وهى وحدة شركسية) والمتطوعين التوفينكجيان (*) Tufenkjiyan (الجنود المسلحون بأسلحة نارية Auaketaevs) ·

ويكشف هذا القانون عن مبادىء السياسة العثمانية نحو مصر بصفة عامة ، والجيش بصفة خاصة · ومن المهم أن واضعى هذه الوثيقة اللافتة للنظر تنبأوا فى أوج السلطة العثمانية بالتعديات التى كان لها أن تضعف الانضباط فى الجيش المصرى فى خلال بضعة عقود · وأوضح معالم الوثيقة هو جهد الحكومة ألا تفقد السيطرة على الجيش ، وهذا أمر مفهوم ، بالنظر الى أعمال التمرد من جانب المماليك ، التى كانت قد قمعت توا ، والطبيعة المركزية العامة للدولة العثمانية · اذ لم يكن يسمح بأى تعيينات حتى فى أقل الرتب ما لم تصدق عليها اسطنبول · وكان النظام شديد الصرامة وكان عدم الخضوع معناه التسريح من الخدمة

(★) التفكجى هو مستخدم البندقية و « تفنك » أو توفنك بالتركية أى البندقية ، وتفكشيان صورة أخرى من تفكجى ·

وتشافوش chavush التركية أو جاويش بجيم مشربة وواو مضمومة هى الجاويش منصب عسكرى ، وهم أنواع منهم جاويشية الجيش الانكشارى ، ورئيس جاويشية الانكشارية هو جاووشباشى وله مسميات أخرى وكتخدا الانكشارية هو رئيس وجاق الانكشارية ·

والوجاق من التركية اوجاق والجمع وجاقات والوجاقات الستة التى صارت سبعة بعد سنة ١٥٥٤ : وجاق الانكشارية ، وجاق العزب ، وجاق الجميلة ، وجاق التفكجية ، وجاق الجراكسة (فرسان عرفوا فى مصر باسم الاسباهية) ، وجاق الجاويشية ومهمته حمل الأوامر والفرامانات من الباشا ، ولهذا الوجاق كتخدا ، وجاق المتفرقة ومهمتهم السيطرة على الوجاقات الأخرى عند الضرورة ··

أحمد السعيد سليمان ، مرجع سابق ، صفحات متفرقة ·

أو الموت • وكان يتحتم ابلاغ المقاطعات والولايات الأخرى فورا بأسماء الجنود المسرحين • والتدبير الحكيم العثمانى كان أيضا جليا : فالوثيقة تحدد أقصى عدد من الجنود فى كل كتيبة ، وتعطى تحذيرا صارما ضد الحاق أى رجال قبل ظهور مكان شاغر • وحتى فى هذه الحالة ، لا تتم أى تعيينات حتى يوجد عدد معين من الأماكن الشاغرة ، أى خمسين فى الأوجاقات الأكبر • عندها فقط يمكن ابلاغ الأمر لاسطنبول ، ويتم اعداد طلب لاحلال آخرين محلهم •

ويولى هذا القانون اهتماما مناسبا لجعل الفرق فى حالة استعداد وقادرة على أداء واجباتها • وهكذا يجب على المتطوع (الجونيليان) أن يكون قادرا على استخدام حربة من فوق صهوة جواد ويرمى بسهم بأى من يديه •

وعلى التوفينكجيان (حملة الأسلحة النارية) أن يكونوا مهرة فى اطلاق النار من أسلحتهم من فوق الخيل • وتحظر النظم على المدنيين ، بيع أو انتاج أو تخزين الأسلحة النارية أو الرصـــاص ، ومن يفعل ذلك معرض للاعدام • وكان الواجب الرئيسى لكتائب الخيالة هو مساعدة حكام الأقاليم أو الاداريين (الكشاف) فى جمع الضرائب من القرويين ، والحفاظ على النظام ، والتحكم فى رجال القبائل البدو • وهناك تحذير للجنود بعدم اساءة معاملة الفلاحين ، وألا يأخذوا طعاما منهم دون دفع ثمنه • وبالمثل ، فهمت السلطات العثمانية ، فى هذا التاريخ المبكر أن الفرق المتمركزة فى المدينة كحرس وشرطة يمكن أن يتعدوا على معايش الحرفيين وأصحاب الحوانيت وذلك بالتدخل فى الأنشطة التجارية أو أخذ الاتاوات بالقوة • فكان من يتهم من الجنود بهذا العمل عرضة للخصم من راتبه •

وكان واجب كتيبتى المشاة الكبيرتين ، المستحفظان والعزب ، هو حراسة القلعة وكان على جميع الجنود بلا استثناء (بمن فيهم المتزوجون) أن يعيشوا داخل المجمع الضخم الذى يضم المنشآت العسكرية • وكانت الوحدة الأولى (المستحفظان) تقوم بعمل الشرطة فى موانى النهر أى

مصر العتيقة ، وبولاق ، والكتيبة الأخرى العزب تحرس باب السلسلة بالقلعة وكانت هاتان الكتيبتان تتكونان بالكامل من الأتراك (روملو) ، وكان الشراكسة والبدو يستبعدون من هاتين الكتيبتين بشكل خاص (٣٠) ٠

ويحدد هذا القانون أن أبناء الجنود ، قول أوغولارى **qul oghullari** (معناها الحرفى ، أبناء عبيد السلطان) فى هذه الكتائب يسمح لهم بالالتحاق بالجيش ، حتى أثناء حياة آبائهم ٠

ومن الأمور التى لها مغزى أنه فى القرن السادس عشر ، نفسه ، تخلى الجيش العثمانى عن المبدأ القاضى بألا يتزوج الانكشارية حين يكونون فى الخدمة الفعلية وتخلى كذلك عن اعتبار الطريقة الوحيدة لقيد الجنود تكون من خلال نظام الدفشرمة (ضريبة الدم) ، الذى ينطوى على تعليم دينى وتعليم عسكرى فى قصر السلطان ، أو فى الأناضول ، بالنسبة للمجندين الذين ولدوا كمسيحيين وأخذوا بعيدا عن أوطانهم فى مقاطعات الدولة العثمانية فى البلقان ٠

وكانت لكتيبة المماليك الشركس أهمية خاصة ٠ فمن خلال هذه الكتيبة ، انضم المماليك الى الجيش العثمانى ، غير أن قائد الكتيبة الأغا (القائد) والكاهيا Kahya الكتخدا (نائب القائد) لابد أن يكونوا من الأتراك (الروملو) وهو دليل على أن الشراكسة لم يحظوا بالثقة الكاملة ٠ كما يدل على أن الحاجة للحفاظ على الانضباط فى صفوفهم يعبر عنها بألفاظ شديدة القوة ٠ وعلى النقيض مع غيرها من الكتائب ، لم تكن كتيبة المماليك الشركس يشغل أفرادها المناصب العسكرية الشاغرة ٠ وانما يحول رصيدها الى الخزانة (٣١) ٠ وثمة شك مشابه للشك الذى يلحق بالمماليك ، يتضح أيضا فى الفقرة التى تناقش كتيبة التشافوتشية (الجاويشية) ــ Ghayush ــ ومبعوثى الباشا والمساعدين والأعوان والرسل ــ التى تتكون من ٤٠ رجلا ٠ فى هذه الحالة تسد الأماكن الشاغرة فقط من كتائب الخيالة ، من الجونليان Gönüllüyan والتوفينكجيان ٠

ولقد تم التأكيد على عدم دفع راتب جندى (علوفة ulufe) (*) لأى من كتائب أبناء الشراكسة والفلاحين ، (يقصد أهل البلد وليس الفلاحين بالضرورة أو البدو) · ويمكن عزل الأغا لعصيانه هذا الأمر ، بينما يواجه مندوبه وكاتبه عقوبة الموت (٣٢) · ولم تكن سياسة استبعاد أى شخص ليس من أصل تركى خاصة بمصر ، ذلك أن الوثائق تبين أن هذا كان هو أيضا الحال فى الشام (٣٣) · ان الأمر الذى كان غير عادى هو ادماج المماليك الشراكسة ، بالرغم من وجود كل هذه الشكوك والتوترات · ذلك أن الأتراك قرروا أن المماليك السنيين المتكلمين بالتركية ، مع ما لديهم من تقاليد طويلة فى ادارة مصر ، يعتبرون شيئا ثمينا جدا بحيث لا يمكن الاستغناء عنه · وكان لهذا الخروج على مبادىء التنظيم العسكرى والتجنيد عند العثمانيين ، أبلغ الأثر على تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى ·

الشروخ الأولى فى النظام العسكرى

أثناء حكم سليمان القانونى وفيما تلا ذلك من عقود ، كان الجيش المصرى حامية عثمانية نمطية رغم أنه كان كبير العدد بشكل واضح ، حوالى ١٠٠٠٠ منهم ٨٫٨٠٠ « مصرى » (٣٤) · وكانت مسئوليات هذا الجيش عديدة ، ومتنوعة : جمع الضرائب ، والمحافظة على القانون والنظام ، وحراسة قافلة الحج ، وحماية الريف من البدو المغيرين · وتمركزت قوة كبيرة من حوالى ألف وحدة ـ أى عشر الجيش ـ فى الصعيد وحده (٣٥) ·

وفى القرن السادس عشر ، كان على الجيش المصرى أن يعوض أو يدعم الوحدات الشامية التى كانت دائما تعانى من نقص فى الأفراد ، كما كان على الجيش المصرى أن يقوم بالمهمة الكريمة ، مهمة اقرار سلطة السلطان فى اليمن ـ وبدرجة أقل ـ فى الحبشة (**) ·

(★) العلوفة هى المواد الغذائية اللازمة للانسان والحيوان ، لكنها تعنى أيضا الراتب · محمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ ـ (المراجع) ·

(★★) المقصود ولاية الحبش (ارتريا) ـ (المراجع) ·

وكانت المسميات فى الجيش المصرى وتركيبته مشابهتين للحاميات فى كل أنحاء الدولة العثمانية • وكانت القيادة المركزية فى اسطنبول تمارس التحكم فى الجيش المصرى حتى فى أقل التفاصيل طبقا للقانون المشار اليه (قانون نامه ـ مصر) • وكانت الفرق والوحدات المصرية تتحرك شمالا الى الشام أو جنوبا الى اليمن حسب الأوامر التى يتم تسلمها من الحكومة العثمانية (٣٦) • وكان ضباط من حرس السلطان يعطون مراكز قيادية فى مصر ، وبالتبادل ، كان الجنود المتمركزون فى مصر ينقلون الى اسطنبول • وكان والى مصر يرفع الالتماسات للسلطان كى يمنح الترقيات أو يرفع أجور الجنود الذين أثبتوا مهارتهم وولاءهم (٣٧) • وفوق ذلك ، كان لابد أن تغطى الميزانية المصرية التكاليف الناتجة عن صراع العثمانيين المستمر ضد القبائل العربية المتمردة فى اليمن ، سواء وافق على ذلك والى مصر أو المؤسسة العسكرية أم لا (٣٨) • وغالبا ما كان الوالى يرسل فرقا الى اليمن دون مؤونة كافية أو أجور ، ملقيا المسئولية على الباشا العثمانى فى اليمن ، مما كان يتسبب فى معاناة للجنود المصريين (٣٩) •

على أية حال ، فلقد ظهر أثناء القرن السادس عشر جيش اقليمى يتمتع بروح الفريق وله مصالح خاصة به • ويبدو لفظ مصر قلارى Misr qullari أو جنود مصر فى وقت مبكر ٩٧٥ هـ/١٥٦٨ م فى وثيقة رسمية تتناول مصادمات حدثت بينهم والقابو قلارى جنود الباب العالى (أو عبيد الباب العالى) الذين كانوا قد أرسلوا الى مصر ، لمساعدة الباشا (٤٠) •

وكما كان الحال فى الشام وفلسطين ، كان الجنود المصريون يخدمون تحت رئاسة ضباطهم ، الذين يسمون أغوات أو بكوات • وكان البكوات المصريون قادة (سيردار) يحرسون المقاطعات ويحفظون القانون والنظام هناك وكانوا أحيانا ما يعينون برتبة بكوات سنجق • (قواد سناجق أو فى أقاليم فرعية) فى فلسطين • وفى ذلك الوقت ، كانت السنجقيات هى غزة والقدس وصفد • وكان البكوات يخدمون فى فلسطين ولكن ليس تحت امرة بكلر بك beylerbeyi دمشق ، الذى تقع سنجقياتهم تحت

قضائه ، وانما تحت امرة بكلر بك مصر ، الذى ظل قائدهم وضابطهم الأعـلى ٠

وبمجرد انتهاء فترة عملهم فى فلسطين ، كانت تصدر لهم الأوامر بالعودة الى مصر كى يعينوا كما يأمر الوالى (٤١) ٠

وكانت الخدمة العسكرية فى مصر تعد أكثر أمنا ، ويسرا وأبعث على السرور وأكثر ربحا من أى مكان آخر فى سائر الدولة العثمانية ، مما جلب الحسد على جند مصر (المسير قولارى) (٤٢) ٠ وكان هذا الشعور ومحاولة رصد مزاعم القابو قولارى (الجند القادم من اسطنبول أو عبيد السلطان) ضد المصريين ، موضوعا لرسالة (أو مقاله مطولة) شديدة التشويق كتبها على أفندى ، فى منتصف القرن السابع عشر ، وهو كاتب مغمور فى الجهاز الادارى للعسكرية المصرية ٠ ولقد كتب بالتركية ، يصف مسئولا رفيعا فى البلاط العثمانى ، يتوقف فى مصر أثناء الحج الى مكة ٠ ويرد على حسن الضيافة الذى عامله به كبار الضباط فى القاهرة ، بهجوم عنيف على الحيـــاة الناعمة التى يحياها الجنود المصريون بالنسبة للحالة الخشنة التى يعيش فيها رفقاؤهم من العثمانيين ٠ ويجادل بأن الجنود المصريين يتقاضون أجورهم دون أن يضطروا الى دخول الحرب ، بينما يضطر القابو قولارى أن يشنوا الحملات فى كل عام ٠ وبالرغم من ذلك ، فان على أفندى يدافع عن الجيش المصرى ذاكرا الخدمات المنوعة التى يقدمها للدولة والأهم من ذلك ، أنه ، مع أن المصريين ليسوا أقل استعدادا للقتال وليسوا أسوأ من القابو قولارى ، الا أنهم يفوقونهم الى حد بعيد فى سلوكهم الدينى والأخلاقى ٠ كما أن الجيش المصرى شديد الانضباط والولاء ولا يتعدى مطلقا على سلطة الباشا وغيره من الحكام (٤٣) ٠

ومع أن هذه الرسالة كتبت فى القرن السابع عشر ، الا أن الحجج الخاصة بالجيش المصرى تنطبق أيضا على القرن السادس عشر ٠ ومن الممكن القول بأن هذه الرسالة منحازة ، الا أنها تعكس قضايا حقيقية ٠ فهناك ما يكفى من الأدلة على أن مصر كانت بحق ، تعد مكانا آمنا ، لأداء

الخدمة العسكرية ، بل وملجأ للذين يريدون أن ينفضوا عن عاتقهم حروب الدولة الدائمة · وينص مرسوم امبراطورى بتاريخ ١٠١٣ هـ /١٦٠٥ م صراحة على أن الجنود الراغبين فى تجنب القتال فى حملة عسكرية ، يحصلون على مرسوم (أمر شريف) بوسائل معينة ، ثم يذهبون الى مصر بذريعة القيام بعمل رسمى · ويؤمر باشا مصر بتجاهل هذه المراسيم التى لم يتم الحصول عليها بطرق سليمة ، ويرسل بالرجال الى الجبهة (٤٤) · والأسوأ من ذلك ، فان صياغة العديد من الأوامر السلطانية تكشف أن القيادة العليا العثمانية قد فقدت الثقة فى نظامها وترابطها ، مع نهاية القرن السادس عشر ، على النقيض من تحكم اسطنبول المطلق تقريبا فى الشئون المصرية فى بداية الفتح العثمانى ·· ذلك أن الأوامر المؤرخة ٩٩٩ هـ /١٥٩١ م و ١٠٠٣ هـ /١٥٩٥ م تبلغ البكلربكوات فى مصر أن هناك بعض الأفراد يحصلون على تعيينات رسمية فى الادارة المصرية من خلال صلاتهم فى اسطنبول · لذا كان الوالى يؤمر بتجاهل هذه المراسيم والتعيينات (بيرات berat) ؛ وألا يعين أى شخص قبل أن يصبح هناك منصب شاغر (محلول) وأن يعتمد على فطنته حتى لا يحمل الخزانة ما لا تطيق · وفى الوقت نفسه ، تسلم اسطنبول بأن الوضع فى مصر فى غاية الفوضى ، والارتباك ، وتحاول تحديد عدد الجنود بدقة ، وتحديد أجورهم ورتبهم (٤٥) ·

ولقد أسهمت الحياة الطيبة نسبيا فى مصر ، وكذلك بعدها عن اسطنبول فى نمو البيرقراطية المصرية والجيش ، وهو أمر كان موضع انتقاد المراسيم الامبراطورية · اذ يقرر أحد المراسيم المؤرخ ٩٧٥ هـ/ ١٥٦٨ م أنه يوجد عدد كبير من المطلوب من التشافوش Chavush والجنود المتفرقة فى مصر أكثر من اسطنبول نفسها (٤٦) · كما يضيف على ذلك أن الأعداد لا يجب أن تتعدى تلك الأعداد المحددة فى القانون (*) (حيث لا يسمح بأكثر من ٤٠ تشافوشى) اذ انه فى سنة ٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م ، كان هناك ٤٥٠ تشافوشى (جاويش) ، مع أنه لم يكن مسموحا فى ذلك الوقت سوى بـ ١٨٠ من الشافوشية و ١٨٠ من المتفرقة · كذلك

(*) المقصود قانون نامه مصر الذى سبقت الاشارة اليه ·

كانت هناك زيادات كبيرة فى الوحدات الأخرى : ففى ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م ، كان هناك ١٤٠٠ من الانكشارية بدلا من الألف التى كان مسموحا بهم ، و ٧٠٠ من جنود العزب بدلا من ٥٠٠ (٤٧) ٠

وتبين العديد من المراسيم أن النظام العسكرى والمالى قد تدهور أثناء النصف الثانى من القرن السادس عشر ٠ اذ كان راتب الجندى يتكون من أجره الأساسى (ابتداء) حسب كتيبته ورتبته ، زائد (تراقى) (أى منح) ٠ وكان من حق الجندى أن يتقاضى أجرا اضافيا اذا ما اشترك فى احدى الحملات ، أو كانت هناك توصية خاصة بشأنه ٠ كذلك حين كان يتولى باشا جديد منصبه ، كانت القوات تطلب مبلغا خاصا وعادة ما كانت تتسلمه ٠ ففى ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ ـ ١٦٠٦ م حين رفض أحد الباشوات أن يقدم هذه الزيادة ، حطم الجنود المتمردون خيمته فوق رأسه (٤٨) ٠

بالاضافة الى أجرهم المنتظم (العلوفة) ، كان من حق الجنود أن يحصلوا على تموين من الحبوب من مخازن الغلال الامبراطورية (*) فى القاهرة وكذلك الحصول على علف لحيواناتهم ٠ وكان الجنود المحالون الى التقاعد ، والأيتام وأرامل الجنود المتوفين أيضا يتلقون أموالا من الخزانة ٠ وكانت الفروق فى الأجور فروقا كبيرة ٠ فحسب ما ورد فى أحد مصادر منتصف القرن السابع عشر ، كان الراتب الأساسى كما يلى : يتقاضى الجندى من المتفرقة ١٢ من الأقشات يوميا (كانت الأقشا عملة فضية صغيرة ، بل هى أصغر وحدات العملة العثمانية) : والشافوش ١ ، والجنولو ١٠ ، والتافينجى ٩ ، والشركسى ٨ ، والانكشارية ٧ ، والعزب ٦ (٤٩) ٠ غير أنه فى القرن السادس عشر ، كان الأجر الفعلى أعلى بكثير ، حيث كان الجندى من المتفرقة يحصل على ما يتراوح بين ٥٠ الى ٦٨ أقشا ، يوميا ، بالاضافة الى نصيب من الحبوب وغير ذلك من الترقيات ، أى المنح (٥٠) ٠ فشكا القابو قولارى من أنهم

(*) المقصود العثمانية ، أى المخصصة للارسال الى عاصمة الدولة ٠

يتلقون مرتباتهم مرتين أو ثلاثا فى السنة ، بينما يحصل المصريون على رواتبهم كل شهر (٥١) ٠

وكانت رواتب الأمراء والباشوات أعلى بكثير اذا ما قورنت برواتب رجالهم ٠ اذ كان البك السنجق فى القرن السادس عشر يتقاضى عادة ٢٠٠٠٠٠ر٢٠٠ أقشا سنويا ، وكانت تصل منحه الى ما هو أكثر من ٢٠٠٠٠ر٢٠ ٠ وكان أهم الأمراء وأكبرهم أجرا ، هو الدفتردار ، أو مدير الخزانة الذى كان دخله السنوى ٣٠٠٠٠ر٣٠ زائد منح تبلغ ٣٠٠٠٠ر٣٠ أقشا (٥٢) ٠

وكان الشافوشات وجنود المتفرقة من وحدات النخبة ولم يكن أعضاؤهم من الأمراء ولا من الجنود النظاميين ٠ وكانت الحكومة تثق بهم حتى أثناء انهيار الانضباط ٠ وثمة مرسوم يأمر الباشا بأن يحجم عن تعيين البكوات السناجق والأغوات (من أمراء وقادة كتائب) فى الأمور المتعلقة بمخازن الغلال ، ولا يستخدم سوى المتفرقة والشافوشات (الجاويشية) ٠ فكان جنود هاتين الكتيبتين غالبا ما يعينون كشافا وأمناء (مفتشين ماليين) وهكذا يزيدون من فرصهم فى الترقى الى البكلكية ٠ وكانوا يزيدون من دخولهم بالعمل مدراء أو أوصياء على مؤسسات الوقف (٥٣) أو بجمع ضرائب العزب ٠

الطواشية

كان الطواشية والأغوات السود الذين يرسلون من قصر السلطان الى مصر ليعملوا كمدراء للوقف جماعة خاصة تتقاضى رواتب ومعاشات فى مصر ٠

وكان الجنود المصريون يمقتونهم أشد المقت وكانوا يشعرون بالغيرة لما يتقاضونه من رواتب مرتفعة وما لهم من صلات فى اسطنبول (٥٤) ٠ وكان الأغوات السود فى الأساس من مصر وعن طريقها يرسلون الى مجمع حريم السلطان فى اسطنبول ٠ فمنذ بداية الحكم العثمانى ، كان يطلب من باشا مصر أن يرسل أغوات سودا لطيفى المنظر من الأجانب (عجم) لا يفهمون اللغة التركية (٥٥) ٠

ولقد أرسل الباب العالى ، على الأقل مرتين ، فى القرن الثامن عشر منشورات حادة لمنع التمثيل بالغلمان الصغار الذين قدر لهم أن يكونوا طواشيين فى الحريم . وفى عام ١١٢٧ هـ/١٧١٥ م ، تم ارسال مرسوم سلطاني الى والى مصر والى قاضيها معلنا أن خصاء الصبية لتحويلهم الى طواشية عمل غير انسانى وانتهاك للشريعة وأمر السلطان . ونص المرسوم أن خصاء الصبية يتم فى أماكن بشعة شبيهة بالمذابح (أماكن ذبح الحيوانات) فى جرجا والفيوم بل والقاهرة نفسها . وأشار المرسوم الى الفتوى التى أصدرها شيخ الاسلام المفتى الأعظم عبد الرحيم فى اسطنبول ، والذى أعلن أن هذا النوع من التمثيل يعد بدعة . وقال ان الكثير من الصبية التعساء لاقوا حتفهم بعد الخصاء ، وقدر للباقين أن يحرموا من النسل وكان عليهم أن يقضوا بقية حياتهم فى صحبة الحريم . يجب اعلان هذا المرسوم ويحفظ الأصل فى قلعة القاهرة (٥٦) .

كان من الممكن أن يكون هذا المرسوم المؤثر أكثر اقناعا ما لم يأخذ الباب العالى فى طلب مدد جديد من الطواشية من مصر قبل اصدار هذا المرسوم بوقت طويل وبعد اصداره .

لدينا ، على الأقل ، ثلاثة مراسيم ، بتواريخ ١١٢٤ هـ /١٧٢٢ م و ١٢٥٠ هـ / ١٧٣٧ م موجهة الى حاكم مصر طالبة بالحاح أغوات من أجل حريم السلطان . ذلك أن الباشا أمر بأن يرسل ثلاثين أو أربعين من الخصيان جميلى المنظر عشرة من خصيان حريمه والباقى من بيوت الأغنياء الآخرين (٥٧) .

وصحيح أن مرسوم ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م نص بجلاء أن الخصيان يجب أن يؤخذوا من بيوت الأمراء الذين ماتوا ، ولم يذكر ايجاد خصيان جدد ، غير أن الطلب يجب أن يلبى ، حين يأتى .

تغلغل غير النظامين فى الجيش

كان على السلطات فى القاهرة واسطنبول ان تكون حريصة على منع الجنود من ظلم المدنيين والاساءة اليهم . ويسجل مرسوم بتاريخ

٩٨٧ هـ/١٥٧٨ م شكوى ضد أمراء وأغوات يتاجرون فى الطعام وغيره من المؤن محققين احتكارا لمواد معينة ، مما أدى الى نقص فى الطعام فى اسطنبول (٥٨) • اذ اعتاد أن يحضر رجال فى خدمة الأمراء الى القرية ويأخذوا النقود من الفلاحين عنوة فى مقابل حماية غير قانونية ضد الكشاف ومشايخ العرب ، الذين كانوا مسئولين عن ادارة الأقاليم (٥٩) • وينص مرسوم صادر فى ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م ، أن الضباط الذين يقومون بوظيفة الكاشف والأمين كانوا يقتلون الأشخاص بلا مبرر • وكان أمر السلطان لا لبس فيه : اذا كان الناس قد قتلوا انتهاكا للشريعة ، فيجب معاقبة القتلة طبقا لها ، حتى لو كانوا من السباهية (المصريين) أو عبيد الباب العالى ، ولم تكن هناك حاجة حتى الى احالة الأمر للسلطات المركزية (٦٠) •

واجهت القيادة العليا العثمانية مشكلة أساسية من التسلل المستمر للعناصر غير المأذونة أو المفوضة الى جيش مصر وغيرها من الولايات • ولقد تنبأ بالمشكلة واضع قانونى نامه مصر الذى أشرنا اليه كثيرا فيما سبق والذى اشترط أن الجنود الحقيقيين فقط (قول) هم الذين يتم تعيينهم ، وليس الرجال الذين يعملون فى خدمة الباشوات أو الأمراء (٦١) • ويمكن للمرء هنا أن يتبين ميل المسئولين رفيعى المستوى ابتداء من الباشا حتى الأمراء والأغوات ، الى أن يضعوا عبيدهم وأتباعهم فى الجيش لكى يزيدوا من سلطتهم ونفوذهم • وكان الباب العالى على وعى بهذا التطور وحذر منه ولكن على ما يبدو دون طائل •

ان هؤلاء الجنود الذين هم دون المستوى والذين لم يجندوا أو يدربوا فى نظام الدفشرمة divsirme العثمانى النظامى كان يعتقد أنهم يحدثون مشكلات فى الانضباط• اذ يقال ان خدم البكوات والأغوات والدفترتارات كانوا متهمين بالقيام بتعديات ، وكان الباب العالى يريد من كل صاحب منصب أن يكون مسئولا عن الرجال الذين هم فى خدمته (٦٢) •

ففى القرن السادس عشر ، ارتقى الكثير من أمثال محدثى النعمة Parvenus هؤلاء الى مراكز بارزة ، كما يبين لنا وضع اثنين من امراء

الحج ، فأيدين Aydin بن عبد الله الرومى الذى عمل أميرا للحج عام ٩٥٢ هـ /١٥٤٥ م ، ربما كان من أصل تركى كما يشير نعته بالرومى • وغالبا ما كان يوحى اسم ابن عبد الله أن أبا الشخص مجهول أو غير مذكور ، اما لأنه من معتنقى الاسـلام أو لأنه مملوك • وقيل عنـه انه بدأ حياته كبائع متجول فى سوق خان الخليلى بالقاهرة • ومن هـذه الأصول شديدة التواضع ارتفع شأن أيدين كى يصبح ضابطا ثم كاشفا وأخيرا أميرا للحج • وكانت حياة مصطفى وهو الآخر ابن عبد الله رومى أكثر من ذلك مدعاة للدهشة فهو أيضا كان شديد الفقر ، فى صغره • وبعد أن عمل سروجياً فى الجيش ، أصبح غنيا عن طريق نهب خزانة أحمد باشا « الخائن » • واستطاع أن يعين كاشفا وبعد ذلك أصبح أمير الحج • وبهذه الصفة نال كنية النشار ؛ لأنه كان يقتل قطاع الطرق بنشرهم الى نصفين (٦٣) • وبعد أن خدم كأمير للحج لمدة تسع سنوات من ٩٣٨ هـ / ١٥٣٢ م ، نصب مع مرور الوقت حاكما على اليمن وأخيرا حاكما على مصر نفسها (١٥٦١ ـ ١٥٦٤) (٦٤) •

ومن أهم أسباب انهيار نظام التجنيد فى الجيش هو الحاجة لارسال آلاف من الجنود الى اليمن والى الحبشة ، (المقصود ولاية الحبش وهى ارتريا الحالية) بدرجة أقل • وكان قمع الاضطرابات العديدة والعنيفة التى كانت تشعلها القبائل العربية بقيادة الأئمة الزيدية فى اليمن عالية التكلفة من الناحية المالية والقوى البشرية بالنسبة للباشوات المصريين • اذ كانت الخدمة فى ولاية اليمن الخطرة الجبلية القصـية شيئا ممقوتا بشـدة ، حيث كان الجنود العثمانيون الذين يرسلون من اسطنبول والشام ومصر يمقتون الخدمة هنـاك • ويتضح من الفرمانات العثمانية العديدة التى توجه الى باشا مصر والمتعلقة بالشئون اليمنية أن الحكومة العثمانية لم يكن لديها فكرة حقيقية عن عدد الجنود الذين ذهبوا بالفعل الى اليمن ، وعدد من بقوا هناك ، ولابد أن عدد الخسائر فى الأرواح ، وكذلك الفارين كان مرتفعا جدا • فوجد الباب العالى من المستحيل عليه تقريبا أن يقدم تدعيما كافيا للحكام الواقعين تحت ضغط شديد وحصار • فأمر على باشا السمين والى مصر ١٥٤٩ ـ ١٥٥٤ بأن يرسل ٥٠٠ رجل

غير أنه لم يتمكن من ارسال سوى ٢٢٠ (٦٥) • وفى ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢ م ، لم يذهب الى اليمن سوى ٥٠٠ رجل بدلا من ٣٠٠٠ كانوا مطلوبين(٦٦)• ولكى تحل اسطنبول هذه المشكلة ، جزئيا ، على الأقل ، اتخذت اجراءات متنوعة لاغراء الجنود بالخدمة فى اليمن • فوعد أولئك الذين ذهبوا بالمنح ، أما من رفضوا الذهاب فهددوا بالتسريح من الجيش • كما ألح على ولاة مصر بأن يشجعوا جنودهم على الخدمة فى اليمن • ويخدم الجنود المصريون هناك بالدور ، (المقصـــود لفترة محدودة) عادة لمدة ثلاث سنوات (٦٧) • غير أن هذا لم يكن كافيا ، فاضطرت الحكومة الى تجنيد رجال من خارج الجيش النظامى ، كأبناء الجنود ، واخوانهم (قول أوغلو فى قرينداشى qul Oghlu ve qarindashi) وكان هؤلاء يقيدون اذا كانوا من الأتراك روملو ، (روم أوغلانى) كعبيد ومن حراس الأمراء ، وغيرهم من الشخصيات البارزة باغرائهم بأن يتم قبولهم كجنود مصريين نظاميين (٦٨)• وفى عام ١٠٣٧ هـ /١٦٢٨ م ، حين ألحق الجنود ليخدموا فى اليمن ، هرب الكثير من العبيد البيض والسود من مالكيهم كى ينضموا الى الجيش . ويقال ان الحرفيين والصـــناع قد اختطفوا بالقوة من شوارع القاهرة والحقوا بالجيش (٦٩) •

ونتيجة لذلك ، فانه مع أن السياسة كانت تقتضى ضم من هم من أصل تركى فحسب ، تسلل أولاد العرب الى الجيش • وكان بعضهم من المصريين أبناء البـــلاد ، بينما جاء آخرون من المقاطعات العربية فى الدولـة •

ويذكر وجود أولاد العرب فى الجيش لأول مرة قرب نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حين تمرد الجنود • اذ عكست أعمال التمرد هذه ، التدهور العـــام الذى حدث للأحوال الاجتماعيـة والسياسية والاقتصادية فى الدولة (٧٠) ، فقد أدى التضخم وغيره من العوامل الاقتصادية الى اضطرابات فى الأناضول ، وهو ما يسمى بتمردات الجلالى 'Jelali revolt (٧١) • ولم تنج الولايات العربية من أعمال التمرد المشابهة ، التى نشبت فى اليمن فى الستينات من القرن السادس عشر ، والشام (بعد عام ١٥٧٤) ومصر فى (١٥٨٩ ـ ١٦٠٩) ذلك أن أجور

الجنود التى تم تثبيتها منذ عقود تآكلت بسبب التضخم وانحطاط قيمة العملة • فاستولت الكتائب فى المدن والأقاليم الريفية على النقود بالقوة من الأهـــالى كى يزيدوا من مكاسبهم ، وحين حاولت الحكومة المركزية وولاتها ايقافهم ، كان رد فعل الجنود عنيفا • وحين ثار الجنود فى تمرد لأول مرة أثناء ولاية أوفيز Üveys باشا (حاكم مصر من ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ـ ٩٩٩ هـ /١٥٩١ م) ، نادوا فى شوارع القاهرة ألا يستخدم أولاد العرب عبيدا أتراكا أو يشتروا مماليك (٧٢) • وقام السباهيون (الخيالة) بمحاولة فاشلة لاغتيال الباشا ، حين حاول أن يســـتعيد النظام • ورفع السباهيون المتمردون مطلبا مشابها أثناء حكم محمد شريف باشا ، (٩١٤ هـ /١٥٩٦ الى ١٠٠٦ هـ /١٥٩٨ م) ، الذى أعلن أنه سيلتزم بحزم بما جاء فى قانونى نامه مصر • وأعلن بلا مواراة : لن أعطى رواتب للفلاحين (أى للمصريين المتكلمين باللغة العربية ، وليس بالضرورة الفلاحين) فالرواتب فقط للأتراك (الرومو أوغلانى Rum Oghlani) فبلغت موجة التمرد ذروة جديدة باغتيال ابراهيم باشا ، عام ١٦٠٤ م ، المعروف بالمقتول ، وهو أول حاكم فى مصر العثمانية تقتله قواته (٧٣) •

وكما ذكرنا آنفا ، فان السباهيين المتمردين قد عوقبوا عام ١٦٠٤ م بواسطة قول قيران محمد باشا ، الذى قام بالغاء الطلبة (بضم مع تشديد الطاء وســكون اللام وفتح الباء) وهى ضريبــة غير قانونية كانوا قد فرضوها على القرويين •

وفى الأوقات العسيرة ، لم يرد الجنود المتكلمون بالتركية أن يتقاسموا رواتبهم مع الأغراب وناضلوا لطرد أولاد العرب من الجيش ، واستمر هذا النضال حتى القرن التالى •

بقاء المماليك فى ظل الحكم العثمانى

يعد بقاء المماليك هو القضية الأكثر غموضا فى التاريخ الاجتماعى للجيش المصرى تحت الحكم العثمانى لكنها أيضا قضية مثيرة للباحث • ومن بين العقبات التى تقف حائلا دون تقصى تاريخهم ، ندرة المصادر التى يرجع تاريخها الى العقود الأولى للفتح العثمانى • اذ انه كما أثبت ديفيد

أيالون David Ayalon فى دراسة حول تحول مجتمع المماليك تحت الحكم العثمانى « فان الصفة المميزة للمماليك ، وهى أسماؤهم التركية ، اختفت لأن أعضاء من الطبقة الحاكمة التى كانوا يشكلون جزءا منها ، ـ بمن فى ذلك السلاطين ـ كانت لهم أسماء عربية » .

ولا يشكل هذا التغيير الأساسى صعوبة أمام المؤرخ فحسب ، وانما يعكس أيضا واقعا سياسيا واجتماعيا جديدا . ذلك أن الخط الفاصل بين المماليك وغير المماليك لم يعد واضحا كما كان من قبل . فأصبح الحراك الاجتماعى بين طبقة المماليك ، والجنود غير المماليك والمدنيين ، ممكنا بشكل متزايد . وكان التغيير الرئيسى الثانى الذى أكد عليه أيالون هو التخلى عن المبدأ الذى كان بالغ الأهمية فى السلطة وهو أن مكانة المملوك ليست وراثية ، لكن الذى حدث فى عصر العثمانية أن أولاد المماليك غالبا ما كانوا يرثون رتب آبائهم فى مصر العثمانية ، وكذلك ثرواتهم ووضعهم الاجتماعى (٧٤) .

لقد سبق لنا أن ناقشنا ضم المماليك فى الجيش من خلال الأوجاقات الشركسية Charakise Ojagi أو الكتيبة الشركسية ، عند حديثنا عن قانونى نامه مصر . اذ كانت نية اسطنبول هى الحط من المماليك بحيث يصبحون قوة من الدرجة الثانية من حيث الأهمية ووضعهم تحت رقابة صارمة . وفى حقيقة الأمر ، لم تتخذ هذه الكتيبة أى دور مهم ، ولم تزد عن كونها واحدة من كتائب الخيالة السبع غير أن المماليك لم يوجدوا فى الكتيبة الشركسية وانما فى وحدات أخرى أيضا ، خاصة بين البكوات الشركس (البكلارية الشركسية) التى صارت مرموقة فى القرن السابع عشر .

ورغم أن واضعى المراسيم العثمانية كانوا مترددين بشكل واضح فى الاشارة الى أى جماعات عرقية ، فيما عدا الأتراك ، الا أن هناك وثيقة جلية بتاريخ ، ٩٩٤ هـ /١٥٨٦ م تأمر بأن يرسل الجنود القادرون من الترك والشركس (يرار قو رومولو وى شركس قولوندان) الى اليمن(٧٥) . ولا يمكن لأحد أن يخطىء التأكيد العرقى ، ذلك أن الترك والشركس عنصران

يقدمان نوع القوى البشرية التى تسعى اليها القيادة العليا العثمانية ٠ وعموما ، فقد كان تكرار الاشارة الى الترك أكثر بكثير من الاشارة الى الشركس ، وكان هذا له مغزاه الكبير فى حد ذاته ٠

وثمة لفظ عسكرى آخر يمكن أن يكون له احالة مملوكية هو لفظ جندى (رجل خيالة) (*) ٠

وكتب الدياربكرى — بعد الفتح العثمانى ببضع سنوات ، مترجما اللفظ العربى الشهير أولاد الناس بأولاد المماليك ، جندى أرغلانارى Jundi Oghlandary (أبناء الجنود) (٧٦) باللغة التركية كما يكرس مصطفى على ، الكاتب والرحالة العثمانى ، فقرات طويلة مفصلة للجند المصريين ، وكذلك يظهر هذا اللفظ من آن لآخر فى الوثائق الرسمية ٠ وقد يكون جندى هو ببساطة المعادل المصرى للفظ العثمانى سيباهى (٧٧) ٠

لقد لوحظ أن الخيالة المصريين والخيل المصرى يتمتعون بمكانة ، وأحيانا كان السلطان يرسل فى طلب عدد من الفرسان المصريين والخيل (٧٨) ٠ وقد يبدو أن المماليك كانوا يشكلون على الأقل جزءا من الجند المصريين غير أننا مرة أخرى ، نذكر أنه من المستحيل علينا تبين الحدود التى تميز الجند أو الكيانات المملوكية ، طالما لم يكن هذا الفصل رسميا ، أو كيانات واضحة التحديد مثل الكتائب السبع وكان العمود الفقرى للعنصر المملوكى الشركسى هو البكوات الشراكسة ٠ وكانت رتبة بك أو سنجق بك موجودة فى جميع القوات العثمانية ٠ ففى التدرج الهرمى بالجيش ، كانت هذه الرتبة أعلى بدرجة عن الأغا أو (قائد الكتيبة) وكان فى امكان الأغا الذى يبرز نفسه فى المعركة أو أداء الخدمات أن يوصى بترقيته الى رتبة بك ٠

وكانت نية الحكومة ألا يتعدى عدد البكوات فى مصر اثنى عشر ، غير أنه يتضح من العديد من المراسيم أنه على العكس من رغبة السلطان ، وصل العدد الى ثلاثين على الأقل ، مع نهاية القرن السادس عشر ، وأصبح أربعين فى منتصف القرن السابع عشر ٠ اذ انه من الواضح أن أحدا لم يكترث باصرار الباب العالى فى القرن السادس عشر ألا يوجد أكثر من اثنى عشر من البكوات ، (وفى القرن السابع عشر أربعة وعشرين) ،

(★) المقصود انه اذا قيل (جندى) أو (رجل خيالة) انصرف الذهن فى بعض الفترات الى أن المقصود مملوك ٠

والا يحصل أحد على البكوية قبل أن يوجد منصب شاغر (٧٩) • وحين قام قـــول قيران محمد باشا باعادة تنظيم الجيش بعد سحق التمرد السيباهى ، عام ١٦٠٩ ، سرح الجميع عدا اثنى عشر من أجدر البكوات ، أما السبعة عشر الآخرون فقد تم نفيهم الى اسطنبول • غير أن هذا الاجراء سرعان ما تم التخلى عنه ، شأنه شأن اصلاحاته الأخرى (٨٠) •

من الناحية المبدئية ، كان لابد أن يأتى البكوات وغيرهم من أصحاب الرتب الرفيعة من بيت السلطان ، كما لاحظ مصطفى على حين زار القاهرة عام ١٥٩٩ م • غير أنه أثناء زيارته للقصر ، فى سنة ١٥٦٨ م ، لم يجد تحقيقا لطلبه ، الا فى ثلاثة فقط من بين البكوات الثلاثين الذين التقوا به • أما البقية ، فكانوا من الأجانب والمتسلقين الذين وصلوا الى مناصبهم العليا بطرق متنوعة ، وفى الغالب مشبوهة (٨١) • فكانت مهمة البك أو السنجق أحيانا ما تعطى لابن أحد الباشوات ، أو أحد أشراف مكة ، بل حتى لأحد مشايخ العرب • اذ كما قال هولت ، فانه قد حدث عكس تام للعرف العثمانى ذلك أن السنجق (علم) لم تكن له أهمية فى مصر التى هى مجرد منطقة تحت حكم أحد البكوات ، وانما هو بالأحرى كان يشير الى رتبة البك • وغالبا ما كان البكوات يقومون بافتعال المناصب الأدبية كدفتردارات ، وكشاف ، أو أمراء حج أو قادة لقوات مهمات خاصة (سردارات) • وعموما ، فلقد بدا أنه من الصعب التحكم فيهم ، وهم يقفون خارج نظام الأوجاقات وفوقه (٨٢) •

وفى القرن السادس عشر كانت اسطنبول قلقة أصلا من احتمال أن يكون للبكوات المصريين الكثير من الأتباع قادرين على احداث المتاعب • وتوجد أدلة على أن البكوات كانوا يميلون الى ظلم الرعية ، وكان من المفضل أن يتعامل مع الأهالى المدنيين ضباط أقل رتبة وأكثر اعتمادا على الدولة مثل الأمناء ومن هم أدنى منهم (٨٣) • ومن المهم أن نؤكد على أنه ، رغم أن البكوات لم يكونوا جميعا من المماليك ، الا أن عددا كبيرا منهم كان كذلك ، حتى أن طريقة الحديث فى القرن السادس عشر ، تفرق بين البكوات والبكوات الشراكســة ، اذ كانت المراســيم تتحــدث عن

(★) المقصود أن مصر لم يكن لمنصب السنجق أو حامل السنجق فيها قيمـة ، بعكس الولاية العثمانية الأخرى •

أمراء مصر وأمراء الشركس أو محافظة بكلارى ، « أو البكوات المدافعين » أو شركس بكلارى (٨٤) وينبغى أن ينصرف انتباهنا الى هذه الجماعة الأخيرة ٠

القرن الســـابع عشر

ويقدم لنا تمرد السباهيين في القرن السابع عشر ، وقمعه بواسطة القول قيران Qul Qiran محمد باشا ، عام ١٦٠٩ م والانقلاب الكبير ، والصراعات المسلحة داخل الجيش المصرى فى القــاهرة فى ١٧١١ م — كلها تقدم اطارا مناسبا لمناقشــة التطورات الاجتماعية والسياســية فى الجيش العثماني بمصر فى القرن السابع عشر ، وهى فترة تم فيها الاسراع بالاتجاهات السابقة عليها اسراعا شديدا ٠ اذ صار انهيار الباشوات أكثر وضـــوحا ، وظهرت البكلكية باعتبارها القوة المركزية المســـتقلة تقريبا ٠ ففى أثناء العقود الأخيرة من القرن السابع عشر والعقود الأولى من القرن الثامن عشر ، تمت تقوية كتيبة (أوجاق) الانكشارية بشكل مبهر اقتصاديا وسياسيا ٠ وفى أثناء القرن السابع عشر ، كان الباشا (الوالى) يلقى احتراما عاما باعتباره ممثلا لســـلطة السلطان وكان ما يزال قادرا على فرض ارادته ٠ غير أنه كان عليه أن يعــامل القوى الأخرى ليس على أنهم تابعون له وانما كشركاء تقريبا ٠ وفى ١٦٢٣ ، رفض الجيش ، لأول مرة ، أن يقبل « باشا جديدا » ٠ وتمت تلبية طلبهم وحين وصل الوالى المعين الى الاسكندرية ، طردته الحامية ٠ وفى عـــام ١٦٣١ م ، نما صدام خطير آخر بين الجيش (المماليك) والباشا ٠ فقرر موسى باشا ، الوالى ، التخلص من قايطاس Qaytas ، وهو أحد زعماء البكوات الذين تحدوا سلطته ٠ فحين أتى قايطاس لتحية الباشا فى أحد الأعيــاد ، أمر الباشــا باغتياله ٠ فانتقم البكوات لمقتل رفيقهم ، بخلع الباشا وتعيين واحد من بينهم ، كقائم مقام ، أو نائب للحاكم وأبلغوا اسطنبول بالحادثة ٠ فأصبح ذلك سابقة : ان ايقاف الباشا عن طريق العسكريين الكبار وقبول الباب العالى للأمر الواقع عن طريق ارسال من يحل محله ، أصبح شيئا روتينيا فى القرنين السابع والثامن عشر ٠ فعلى سبيل المثال ، فى عام ١٠٨٦ هـ/١٦٧٦ م عزل كبار قادة الجيش أحمد باشا ، لأنه فرض ضرائب غير عادية ، وخفض من دخول بعض وحدات

الجيش • وعومل الباشا الموقوف بالاهتمام المناسب ، وكانت تتم العناية به مؤقتا فى خيمة كبيرة داخل القلعة أو فى أحد المنازل فى المدينة حتى رحيـــله (٨٥) •

فى معظم الحالات ، كانت خلافات الباشا مع الجيش ومع البيروقراطية المصرية والباب العالى خلافات مالية ، ولم تكن سياسية • وصار اجراء مستقرا لدى كل باشا جديد أن يفحص حسابات سلفه قبل أن يسمح له بمغـــادرة مصر ، وكان لابد من تسوية ديونه للخزانة • ففى عام ١٠٢٩ هـ /١٦٢٠ م ، قبض حسين باشا على الباشا السابق قبل أن يتمكن من الرحيل ، غير أن الأخير تمكن من الهرب أثناء التحقيق معه • (وأطلقت قذيفة مدفعية على مركبه فى ميناء الاسكندرية ولم تصـبه) ولقد اتهم شاه سيفار أوغلو غازى محمد ، باشا ١٦٥٧ ــ ١٦٥٩م ، (وهو حاكم قوى ، قمع تمردا قام به حاكم الصعيد) بابتزاز مبلغ ضخم من المال يعادل خزينة ، أى التحويل المالى السنوى الى اسطنبول ــ وأعدم لهذه الفعلة فى القاهرة • وبعد ذلك ، بفترة قصيرة ، وصل فرمان آخر ، ولكن بعد فوات الأوان ، من الباب العالى طالبا أن يرسل دون أن يلحق به أى ضرر الى العاصمة العثمانية (٨٦) • وفى القرن السابع عشر ، كان فى امكان أى من الباشوات ، حتى الضعفاء منهم ، أن يجعل ارادته تسود ، لو أنه تصرف بحزم • فلعدة لحظات من الأزمة أثناء تمرد عسكرى ، كان الباشا يرفع راية السلطنة ويأمر خدم السلطان المخلصين بأن يتجمعوا تحت الراية ، أما أولئك الذين يقصرون فى القيام بذلك ، فكانوا يهددون بالطرد من الجيش أو بما هو أوخم من ذلك • وكان أول من فاز بتأييد الجيش بهذه الطريقة هو قول قيران محمد باشا ، وتكررت هذه الطريقة الدرامية فى مخاطبة الموالين وعزل المتمردين عدة مرات عن طريق الباشوات بعد ذلك (٨٧) •

وربما كان أهم تطور حدث فى مصر فى القرن السابع عشر هو نشوء البكلكية كقوة سياسية كبرى • ذلك أن هذا التطور لا يشير فحسب الى جهد كبار القادة العســـكريين الأقوياء لتثبيت امتيازاتهم ازاء حكومة

مركزية ضعيفة وممثلها وهو الباشا ، وانما كان يشير أيضا الى التأكيد على التقاليد والطموحات المماوكية · ولهذا دلالته المهمة ·

فهو يعنى احياء التراث السياسى المملوكى ممثلا فى ظهور نزعة الانقسام (التشرذم) الى عصبات ، كما تجلى فى حالات الثأر التى لا تنقطع بين الفقارية والقاسمية ، والتى ترجع جذورها الى زمن السلطان سليم الأول ، اذ نشأ هذا التشرذم نتيجة نزاع بين أخوين يسميان « ذو الفقار وقاسم » فحمل الفصيلان المتنازعان اسميهما ، غير أن الأصل التاريخى الفعلى لهذا الانقسام غامض (٨٨) · ويرجع تاريخ أول اشارة يعطيها المؤرخون الحوليون الى الجماعتين الى تمرد السيباهيين الذى وقع عام ١٦٠٩ · ويوحى السياق الذى تذكر فيه احدى العصبتين أنه قد تم اقرار ادعائها بحكم بعض الأقاليم (٨٩) · وظل الصراع بين العصبتين للقرنين التاليين موضوعا محوريا فى الحياة السياسية لمصر العثمانية مع اختلاف فى درجة الحدة من آن لآخر وكذلك اختلاف فئات المشاركين (من بكوات وضباط كتائب ، وجنود ، ورجال قبائل من العرب) الا أن هذه الصراعات كانت تتميز بالمواجهات بين التحالفات التى كانت غالبا مبنية على علاقة غير رسمية بين عميل وراع(*) على النمط المملوكى الذى حل محل الأوجاقات ، التى ظلت رسميا دون أن تمس ، رغم ما ألم بها من ضعف ، حتى نهاية الفترة العثمانية فى مصر (**) · وكانت الصراعات دامية وعنيفة ، وكانت المصالح الاقتصادية والسياسية والشخصية عرضة للخطر ؛ لأن البكوات كانوا يحتكرون نسبيا جميع مواقع السلطة ومصادر الدخل خلال قسم كبير من القرن السابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر فمع منتصف القرن السابع عشر على أكبر تقدير ، شغل البكوات أكثر المناصب سلطة وربحا · وأطلق عليهم لقب قائم مقام ، حين يكون الباشا غائبا أو معزولا ·

وامتلك الكثير من هؤلاء البكوات مماليك ، وغيرهم من الأتباع ، كما استخدموا ثروتهم للفوز بتأييد الباب العالى ، أو باشا مصر أو الأوجاقات .

(★) client-Potion أى مملوك وتوابعه او رجاله ـ (المراجع) ·

(★★) المعنى : استطاع التشرذم المملوكى اخيرا ان تكون له الغلبة حتى على المؤسسة العسكرية نفسها (الاوجاقات) او الوجاقات ـ (المراجع) ·

حسب ما كانت تسمح تعقيدات الموقف السياسى (٩٠) • وثمة صراع نموذجى وقع عام ١٦٤٧م بين القاسمية والفقارية ، تورط فيه رضوان بك الفقـــارى ، الذى سبق ذكره ، وأمير الحج ، وحليفه على بك ، حاكم الصعيد (٩١) الذى طمع فى ممتلكاته أميران من القواسمية،قنصوه بك ، ومامى بك ، (أو مماى Mumay) اللذان تمتعا بتأييد الباشا • وحاول كلا الجانبين الفوز بتأييد الباب العالى ، وربما كان نجاح الفقارية هو الذى رجح كفة الميزان فى صالحهم • غير أن مساندة الأوجاقات فى القاهرة كان أمرا حساسا • اذ استدعى رضوان بك على بك من جرجا ، فحسم المعركة بظهوره تحت قلعة القاهرة على رأس جيش ضخم من جنوده النظاميين وغير النظاميين وكذلك البـدو • وجعـل اسـتعراض القوة الذى كان مصحوبا بتوزيع الهدايا من المال والطعام بين الأوجاقات جعل هذا كله يحسم من هو المتحكم فى الموقف • وبنداء عام من القوات أو الفرق المجتمعة ، نودى به كى يحقق فى الاتهامات التى تقول ان قنصوه ومامى قد اختلســا أموالا من الخزانة • فألح مؤيدو اثنين من بكوات القاسمية عليهما بأن يرفضا أن يؤخذا الى داخل القلعة للتحقيق ، غير أنهما لم يكترثا ، ربما لأن ثقتهم فى الباشا كانت فى غير محلها • وفى الليل ، تم شنقهما ، وفى اليوم التالى أنزل تابوتاهما من القلعة •

وحدثت أحداث مشابهة ، مرتين على الأقل ، أثناء تمرد محمد بك ، وهو حاكم آخر للصعيد ، عـام ١٦٥٩ ، وأثنـــاء الاضطرابات الكبرى عام ١٧١١ م (٩٢) •

وأثناء الصراع ، أظهر على بك سلوكا غير ودى نحو الباشا وذلك بأن رفض تقـديم احتـــراماته له فى القلعة (وربما شك أيضـــا فى وجود شرك) ، كما حـاول السـيطرة على القلعـة • كذلك كان على متباطئا فى اطاعة أمر الباشا بأن يعود الى اقليم (الصعيد) • وحين نفد صبر الباشا ، حاول أن يرسل حملة ضد البك الذى أخذ يتراجع ببطء ، غير أن الجيش عصى أمر الباشا • وقالت الانكشارية : « ان واجبنا هو جباية الضرائب » • وقالت الجاويشية والمتفرقة أيضا القول نفسه • ومع تسليم كتائب السيباهية بأن الحملات العسكرية من هذا النوع من مسئوليتهم الا أنهم انحازوا الى على بك ، وهكذا لم يقلق لعدم خضوعهم

وتمت عملية تطهير دقيقة للأوجاق ، من مؤيدى البك المهزوم ، فاطمأن رضوان وعلى على منصبيهما مدى الحياة ٠

وبعد ذلك بإثنتى عشرة سنة ، أظهر خلف على بك ، كحاكم للصعيد، محمد بك ، استقلالا مشابها ، حين تحدى سلطة الباشا وذلك باستعراض للقوة تحت القلعة ٠ لقد كان عادة متهورا عدوانيا غير أنه واجه حاكما عنيدا قوى العزم ، هو غازى محمد باشا ٠ وبما أن الجيش لم يؤيد محمد بك ، فلم يواجه الباشا الا مقاومة ضئيلة ، فى الاعلان عن أنه متمرد وبالتالى تنظيم حملة تأديبية ضده ٠ فى هذه المرة ، كان اتجاه الباب العالى ، أيضا مختلفا ٠ اذ قام السلطان بتنصيب محمد بك حاكما على الحبشة (*) ، بسبب تأثر السلطان بخبير فى الشئون المصرية كان يفهم أن محمد بك كان يأمل فى أن يصبح حاكما مستقلا ٠ ولكن حين ازدرى محمد بك هذا التعيين ، اتجهت قوة عسكرية كبيرة الى مقره فى منفلوط وسحقت التمرد ، وأعدم محمد بك فى ٨ مارس عام ١٦٥٩ م ٠

لقد كان تمرد محمد بك حادثا غير عادى ، لأنه مع أن البكوات ، كانوا أحيانا يتحدون سلطة الباشا ، الا أنهم كانوا يبذلون جهدا كبيرا كى يظهروا ولاءهم للسلطان والدولة العثمانية ٠ حتى رضوان بك ، أمير الحج العظيم ، الذى ادعى أنه ينحدر من سلالة سلطانى المماليك الشركسيين برقوق وبرسباى ، وأنه من أصل قرشى (وهكذا مقررا قرابته بقبيلة النبى ﷺ) الا أنه كان شديد الحرص على الحفاظ بوشائج جيدة من الباب العالى ، مدركا أن حياته العملية لن تدوم أو تصمد أمام عدم رضى السلطان ٠ وتبين شجرة العائلة الزائفة التى زعمها رضوان أن الوعى السياسى المملوكى وكذلك الذكريات كانت حية تماما وبشدة فى القرن السابع عشر ، أكثر مما كانت فى الخمسمائة سنة التى تلت الغزو العثمانى لمصر (٩٣) ٠ ونحن على تمام الثقة من أن أكبر الممثلين لهذا الكيان المملوكى كانوا من المماليك الشركس ومن انحدروا عنهم ، رغم التسليم بأن هذا الوعى لم يكن مقصورا عليهم وحدهم ، اذ كان هناك الكثير من البكوات ممن لم يكونوا من الشركس

(*) المقصود ولاية الحبش ، ارتريا الحالية – (المراجع) ٠

أو من المماليك • وكما يخبرنا افيليا شلبى الرحالة التركى الشهير الذى زار مصر فى السبعينيات من القرن السابع عشر ، فان المماليك أتوا من أقاليم مختلفة ، ومن جماعات عرقية متنوعة • ورغم أن الشركس يبدون هم العنصر البارز ، فكان هناك أباظية Abaza وجورجيون وروس ، وامريتيون Imeretians ومينجرليون Mingrelians وغيرهم (٩٤) • ومع ذلك ، فان ظاهرة وجود عنصر شركسى واضح فى الجيش ، وهى الظاهرة التى أشرنا اليها سابقا ، فى القرن السادس عشر ، تصبح أكثر وضوحا وجلاء فى القرن السابع عشر • وليس الأوجاقات الشركس هم الجديرين بانتباهنا ، وانما البكوات الشركس بالأخرى والذين يشار اليهم كجهاز منفصل ، يتميز بوضوح عن غيره من البكوات (٩٥) ، الذين يسمون ببساطة بكوات أو سناجق بكلارية • اذ كان البكلارى (البكوات) الشركس يسيرون ، فى المواكب الاحتفالية ، تحت الأعلام الخاصة بهم ، بشكل منفصل عن غيرهم من البكوات • وحين كان المؤرخ الحولى يصف قوة مصرية أرسلت لقمع تمرد فى الحجاز ، عام ١٦٣١ ــ ١٦٣٢ م فهو يميز تمييزا واضحا بين البكوات المصريين (النظاميين) والبكوات الشراكسة (٩٦) • وفى سياق آخر نجد اشارة عارضة مرة الى جند شراكسة ومرة الى جند مصرلية (مصرية) وثمة أدلة أخرى يمكن الحصول عليها من الفرمانات التى نجد أنها بينما تأمر أن تنضم المفرزات المصرية الى الجسم الرئيسى للجيش العثمانى ، نجدها أيضا تأمر بأن ينضم عدد معين من البكوات الشراكسة الى الجنود (٩٧) •

ويقدم لنا افيليا شلبى (سلبى) ملحوظات قيمة عن المماليك • والأدلة التى يقدمها ذات أهمية خاصة ، بما أنه كان حاد الملاحظة ، رغم ما يعرف عنه من حالات عدم الدقة ، اذ كان يهتم بالأمور اللغوية والثقافية والاجتماعية • انه يرى مصر كشخص خارجى ــ باعتباره تركيا عثمانيا ــ ولكن ليس كشخص غريب تماما • فهو يقارن المماليك بيوسف كما جاء فى القرآن الكريم ، والذى تربى فى مصر ، وبمرور الوقت صار سيد هذه البلاد • فالمماليك ، بالمثل ، تم استيرادهم من أقاليم مختلفة وأرسلوا الى بيوت تلقوا فيها تعليما جيدا ، وازدهروا حتى صاروا « عزيز مصر » ، وهو نعت قرآنى يعنى حاكم مصر •

ويقول افيليا ، ان هؤلاء المماليك ، يتنكرون للغتهم الشركسية أو الأباظية ، ويتحدثون باللغة العربية الممزوجة بالتركية ، وبذلك يوجدون لهجة شاذة غريبة على مصر ، أى لهجة تركية بها نسبة كبيرة من الكلمات العربية • ويجب أن نلاحظ بالطبع ، أن التركية العثمانية الصحيحة كانت تحتوى على الكثير من الألفاظ العربية (٩٨) كما يكشف افيليا اتجاه المماليك نحو الامبراطورية العثمانية • اذ يكتب أنه فى كل مرة يمر فيها الشركس بجامع وضريح خاير بك ، كانوا يشيحون بوجوههم ، لأنهم كانوا يتذكرون أنه الحاكم الذى أعطى مصر للعثمانيين • ومن ناحية أخرى ، كانوا يولون الكثير من التوقير لقبر طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، الذى أعدمه سليم كما كانوا يوقرون قبر أحد أمراء المماليك هو قورت باى الذى قاتل بشجاعة ضد جيش سليم ، وقتل سنان باشا ، الصدر الأعظم للسلطان سليم (٩٩) •

وفى وصفه لمدينة منوف Minuf ، يتناول افيليا سكانها شديدى المراس • اذ انهم لو كانوا موحدين ، كما يقول ، لاستطاعوا طرد الأتراك ، بل وتمكنوا من السيطرة على الحجاز • غير أن الله برحمته ، جعلهم يعيشون تحت حكم سلالة طاغية من المماليك ، الذين لم تاخذهم بهم رحمة (*) • ويهتم اهتماما خاصا بأن يذكر أن هؤلاء الجنود أو المماليك ، لم يتكلموا اللغة التركية وأن أسماءهم لم تكن تشبه أسماء الأتراك • اذ يستخدمون أسماء مثل أزبك Ozbek وتيمورتاش ، وتمراز ، وقنصوه والغورى ولاجين ، وقورت باى ، وشاهين ، وجنفيردى وجامبولاد وهم أباظية وشركس وجورجيون وأحباش سود (١٠٠) • ومن سوء الحظ ، أن المعلومات المذكورة فى هذه الفقرة ، لا يمكن تحقيقها بواسطة أى مصادر أخرى (١٠١) • فهى توحى بأن تحول الأسماء المملوكية من اللغة التركية الى العربية تحت حكم العثمانيين ، رغم أنه صحيح ، على وجه العموم ، خاصة بالنسبة للقرن الثامن عشر ، الا أنه لم يكن قد اكتمل فى القرن

(★) المقصود طبعا هنا أهل معد بشكل عام ، ولانه قابل أهل منوف ، فحديثه هنا من قبيل اطلاق الجزء على الكل •

السابع عشر • فمعظم الأسماء المذكورة فى الفقرة السابقة ، هى أسماء تركية ويرجع تاريخها الى السلطنة المملوكية •

وكانت الأوجاقات ، فى القرن السابع عشر أكبر كتلة فى الجيش • ومن الناحية النظرية ، كان هناك ما يزال خط يفصل البادى شاه أو عبيد السلطان أى الجنود النظاميين عن عبيد كبار الشخصيات أى المماليك وغيرهم من الحاشية • وكانت الحكومة العثمانية تحاول المحافظة على هذا التقسيم ، رغم أن نجاحها فى ذلك كان نجاحا محدودا (١٠٢) • اذ ان تركيبة الجيش الاجتماعية قد مرت بتغير مستمر ، أفقده بالتدريج طابعه التركى العثمانى النقى ، وأصبح أكثر اختلاطا من الناحية العرقية • ومن الصعب قياس مدى هذه التغيرات ، غير أن التطورات الرئيسية تبدو واضحة • اذ لابد أن غالبية الجنود كانوا من الأتراك أو من المتكلمين بالتركية ، غير أن نسبة المتكلمين باللغة العربية ، أو أولاد العرب ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، وهو تغير خلق توترا • وفى النهاية ، تم طرد العرب من هذه الكتائب • وتطور نوع أعمق من الاحتكاك بين الميسرى قولارى Misri qullari أو الجنود المصريين النظاميين ، والروم أوغلانى Rum Oghlani الأتراك ، وهو فى الحقيقة صراع بين فريقين من الناطقين بالتركية • وكان الميسرى قولارى مصريين مدجنين domisticated ، من الذين ربما ولدوا فى مصر ، وكانوا مرتبطين بها ارتباطا قويا • أما الروم أوغلانى فكانوا من القادمين الجدد من الأتراك بينما كانت جذورهم فى مكان آخر • فكانت تشكيلاتهم عددها أقل فى الجيش المصرى ، وخدم معظمهم كحملة بنادق نظاميين ، (سيكبان) ، مع قادة عسكريين أفراد ، مثل حاكم الصعيد • وبينما يعد التقسيم العرقى بين أولاد العرب وغيرهم تقسيما واضحا محددا ، فان الفوارق بين النظاميين من الروم أوغلانى والمصريين متداخلة وغير واضحة الى حد بعيد (١٠٣) • فنحن نذكر أن رد فعل الجنود النظاميين ضد أولاد العرب قد بدأ فى القرن السادس عشر • ويوحى الدليل المتاح بأن الصراع كان محدودا ؛ باعتباره موجها ضد أصحاب الرتب العالية من البيروقراطيين العرب،الذين كانوا يستخدمون عبيدا وخدما يتكلمون التركية • وعلى أية حال ، فقد غمر العرب الكتائب فى القرن السابع عشر • وكان للصراع الذى سبق ذكره بين رضوان بك وعلى بك ، ضد قنصوه بك ومامى بك ، عام ١٦٤٧ م ـ كان له جانب معاد للعرب • اذ رأس على بك ، حاكم الصعيد جيشا كبيرا ودخل القاهرة لمساعدة حليفه • وحين قام على بمبادرته ، أعلن أن جميع أولاد العرب فى

الكتائب ، يجب أن يتخلوا عن مناصبهم فى الجيش فى تاريخ محدد ، سواء كانوا مصريين أو من أبناء دمشق ، أو حلب ، أو بغداد • ولم ينطبق هذا المرسوم سوى على المتفرقة ، وكتائب الجاويشية الخيالة ، وليس على كتائب المشاة الكبيرة من انكشارية وعزاب الذين زعموا أن رفاقهم كانوا فى الحملات على كريت ، واتضح أن غالبية الانكشارية كانوا من أولاد العرب وكان من الطبيعى أن يجد سكان القاهرة من المصريين أن من السهل عليهم أن يدخلوا الكتائب المدنية والمشاة الخاصة بالانكشارية والعزاب التى كانت متمركزة فى المدينة ، بدلا من دخول وحدات السيباهية ، أى القوات الراكبة فى الريف • فسأل ضباط الانكشارية والعزاب : اذا تم طرد أولاد العرب من الكتائب ، فمن سيذهب للحرب فى خدمة السلطان ؟ فرد على بك بعنف ، لدى الكثيرون من غير النظاميين من الأتراك الرومى أوغلانى من حملة البنادق • ويمكن تعيينهم انكشارية بدلا من أولاد العرب • كما عبر على بك عن رغبته أن يصلح على نفقته الخاصة ، الحجرات المخربة فى الأحياء السكنية فى قلعة القاهرة ، ويسكن هؤلاء الانكشارية الجدد هناك بهدف سرى هو الاستيلاء على القلعة • فى هذه الحالة بالذات ، توحد الجيش ضد على بك ، وأجبروه على العودة الى منصبه فى جرجا •

وبعد ذلك بثلاث سنوات ظهر محمد بك ، وهو حاكم طموح آخر لجرجا ، صعد نجمه فى أثناء التمرد ضد باشا مصر ، فقد عين ايضا فى جيشه الخاص جنودا (روم أوغلانى) من الأناضول •

كان حكام جرجا من المماليك ، غير أنهم كانوا يجندون (سيكبانى) أتراكا ، وهم (أى السيكبانى) لم يكونوا من المماليك ، للخدمة فى جيوشهم الخاصة • وكان محمد بك يخطط للقيام بعملية تطهير للكتائب من معارضيه وأعد قوائم بالأشخاص الذين ينبغى القضاء عليهم • ووزع المال وبطاقات العام لرشوة المناصرين المحتملين (١٠٤) •

فى ١٠٥٦ هـ /١٦٤٦ ـ ١٦٤٧ م ، زادت الحركة المناوئة للعرب فى الكتيبة • بقيادة (زوربا (المسمى بيرم ـ الذى ربما كان تركيا ـ والذى

(★) لم يكن مسموحا ـ كما هو معروف ـ للفلاحين ان يستقروا فى القاهرة الا اذا أثبت احدهم انه يدرس بالأزهر •

طالب بطرد أولاد العرب من الكتيبة ونال ما طلب ، وطلب أن يحل محلهم رجال أشداء • ويكتب المؤرخ الحولى : أنه منذ ذلك الوقت فصاعدا، أصبح الانكشارية صعبا قيادهم • وفى اليوم نفسه ، شكت كتيبة الجاويشية أيضا مطالبة بطرد أولاد العرب والقبط والدمشقيين وأبناء حلب من بينهم • وباركت السلطات هذه الاجراءات المضـادة للعرب • فأصدر مصطفى باشا الحاكم مرسوما ينص على ألا يخدم أى من أولاد العرب فى الجيش ، وبعد ذلك بخمس سنوات، فى ١٠٧١ هـ، صدر فرمان عثمانى من اسطنبول يأمر ألا تدفع رواتبهم (١٠٥) •

وفى ١١١٠ هـ /١٦٩٨ م ، قيل ان بدو الهوارة رفضوا أن يدفعوا ضرائبهم نقدا ، أو عينا ، مدعين أنهم انكشارية وعزاب (عزب) • ومع أن ضباط الكتائب أنكروا هذا الادعاء فيما تلا ذلك من تحقيق ، الا أن شبه الرحل من الصعيد استطاعوا أن يزعموا هذا الزعم ، فهذا يوحى بالمدى الذى تهاوت اليه الحواجز الى حد دخول الرعية فى الجيش (١٠٦) •

وفى نهاية القرن السابع عشر ، ظهر اصطلاح (غريب يجيت) Yigit ، وهو يعنى « شباب من الريف » فى المصادر التاريخية • ففى ١٠٩٤ هـ /١٦٨٢ ـ ١٦٨٣ م ، تم ارسال ٢٠٠٠ غريب يجيت فى احدى الحملات ، ملحقين بكتائب الانكشـارية والعزاب • ومرة أخرى ، عام ١١١١ هـ /١٦٩٩ ـ ١٧٠٠ م تم ارسال ٥٠٠ من المتطوعين serdengecti فى حملة مع ٢٠٠٠ من الجنـود النظاميين (قولار) (١٠٧) ولم يـكن استيعاب عناصر متنوعة غير نظامية فى الجيش العثمانى شيئا تنفرد به مصر • ومع أن هذه الظاهرة كانت لها أسبابها الاقتصادية والاجتماعية والتنظيمية والتكنولوجية التى تشترك فيها مصر مع غيرها من المقاطعات الأخرى ، بما فى ذلك الأجزاء التركية من الامبراطورية ، الا أنها أى الظاهرة ، كانت لها أسبابها المحلية أيضـا • ذلك أن تكرار الأوامر السلطانية التى تطلب كتائب مصرية كان أكثر فى القرن السابع عشر منه فى القرن السادس عشر • وبالاضافة الى ذلك ، فان أعداد الجنود

المطلوبة فى كل مرة ، كانت كبيرة فما طلبه الباب العالى من باشا مصر كان ٣٠٠٠ فى القرنين السابع والثامن عشر · وللوفاء بهذه الطلبات ، تم تجنيد الكثير من الجنود غير النظاميين ، كغريب يجيت أو متطوعين الذى دخلوا الجيش مع مرور الوقت ، مع أنه كان من صالح العسكرية وفقا للعقيدة الراسخة عند الباب العالى أن يفضل الأتراك والشراكسة أيا كان أصلهم والاقليم الذى جاءوا منه على الجنود المتكلمين باللغة العربية (١٠٨) ·

ومع انزواء القرن السابع عشر ، زادت سلطات الأوجاقات ، وهم أساسا الانكشارية ، (أو كتائب المستحفظان) لبضعة عقود قليلة قبل سيطرة البكلكية · فكانت قوة الانكشارية سياسية واقتصادية · كما ازدهرت كتائب المستحفظان والعزاب الكبيرة ، بالنسبة لغيرها من الأوجاقات · وهنا ، يقدم افيليا ، مرة أخرى ، ملحوظة ثاقبة ، حين قال انه من المفيد للمرء أن يكون فى أحد هذين الأوجاقين ، وان جنودا من المتفرقة والجاويشية الفرسان ، (الذين كان راتبهم الاسمى أعلى بكثير) كانوا ينضمون الى الانكشارية والعزاب (١٠٩) · وفى القرن السابع عشر ، بدأ جنود الكتائب فى شراء القرى وأصبحوا ملتزمين ، أى جامعى ضرائب العزب ، مثل البكوات · وثمة مؤشر آخر على نفوذهم المتزايد هو أن الوصاية على مؤسسات الوقف التى كانت قد أعطيت فى السابق الى الأغوات السود (الخصيان) ، كانت تنتقل الى قواد الكتائب · (وسوف تنتقل فى القرن الثامن عشر بالكامل تقريبا الى البكوات) (١١٠) ·

وكما ذكرنا فى الفصل السابق ، فمحور السياسة المصرية ومحركوها الرئيسيون لم يكونوا لفترة هم البكوات ، وانما صغار الضباط فى أوجاق الانكشارية ، مثل كوك محمد أو افرانج أحمد ·

ويقدم دى مايى ، De Maillet القنصل الفرنسى فى القاهرة ، تلخيصا معاصرا مفيدا لموقف مصر فى نهاية القرن الثامن عشر · ففى

تقرير مؤرخ فى صيف عام ١٦٩٢م ، ملحق به مراسلات تمتد عبر عقد من الزمان ، يقدم دي مايى صورة واضحة معها تقييمات هامة كتبها مراقب عليم وذكى • اذ يعترف القنصل بضعف الباشوات ، ومع ذلك فهو يعتقد أنه من الخير التفاوض معهم من التفاوض مع غيرهم من الشـــخصيات الرفيعة ؛ لأنه ـ عادة ما يمكن الاعتماد عليهم أكثر من ضباط الجيش (المماليك) • فمع أن الباشا لم يكن يبقى فى منصبه أكثر من ثلاث سنوات تقريبا ، الا أن قادة الكتائب كانوا يتغيرون طوال الوقت • وقدر دى مايى أن عدد الجنود الذين يتقاضون مرتبات فى مصر هو ١٢٫٠٠٠ ويؤكد تقريره ما جاء فى المصادر العربية والتركية القائلة بأن كتيبة الانكشارية ، وهى أكبر الكتائب ، الى حد بعيد ، هى أقوى وأغنى وأكبر الوحدات العسكرية فى مصر • وكان أغا الانكشارية ، الذى كان أيضا رئيس الشرطة ، شخصا مهابا ذا نفوذ فى القاهرة ، بحيث كان القناصل غالبا ما يشتكون من وسائله الظالمة التعسفية • ومع ذلك ، فان الحاكم الفعلى للكتيبة كان هو مندوب الأغا ، وهو كتخدا أو (كاهيا) • ولم يكن أحد يستطيع ، حتى ولو كان الباشا ، الأمر باعدام أحد الانكشارية ، دون موافقة الكتخدا • ويلاحظ دى مايى اتجاها أصبح أكثر تسيدا فى القرن الثامن عشر : وهو انضمام الكثير من أولاد العرب الى كتيبة المستحفظان والعزاب مع أنهم ليسوا جنودا حقيقيين ، اذ اكتسبوا تعييناتهم العسكرية من أجل الحماية واستطاعوا دفع ثمنها • وفى تقرير آخر ، يقول دى مايى، ان غالبية التجار المصريين الأثرياء كانوا ، اما انكشارية أو عربا أو تحت حمايتيهما (١١١) • وكان مثل هؤلاء الأعضاء من الكتيبة يميزون اصطلاحا عن أولاد العرب الذين انضموا الى الجيش باعتبارهم جنودا حقيقيين ، اذ كانوا يسمون يولداز Yoldas أو « رفيق » ، ولم يحضر الرفاق أية معـــارك (١١٢) •

ويستمر القنصل ليلقى نظرة شاملة على الوحدات الأخرى مثل كتائب العزاب والسيباهى • ويكاد يكون اضمحلال البكلكية فى هذه الفترة واضحا • ففى تقرير القنصل ، لايظهر البكوات الا كجباة ضرائب من الفلاحين العرب مسئولين عن الريف ، ولا يبدو أنهم يؤثرون عليهم باعتبارهم ذوى نفوذ خاص • بل انه ، على العكس يقول : « لو أن أحد البكوات

كان يخشى على حياته فهو يســعى الى حماية الانكشــارية » • ويقول دى مايى ان تقسيم أهــالى مصر ــ وعلى الأخص الطبقة الحاكمة ــ الى فريقين ، (سماهما دى مايى سعد وحرام وليس قاسمية وفقارية ، رغم أنه كان يعرف اللفظين الأخيرين) وكان هذا يمكن الباشا من حكم البلاد ؛ وذلك بالمناورة والايقاع بينهما • ولم يكن من الممكن سوى بهذه الطريقة منع قيام تمرد ضد السلطان ، بما أن مصر كانت بلدا مليئا بالسكان وأن أهلها كانوا من المحتمل أن يثوروا ضد حاكميهم •

وطبقا لما ذكره مايى ، كان الجيش المصرى أصغر الحاميات العثمانية ، بالنسبة لحجم البلاد • اذ كان من اليسير جدا الدفاع عن البلاد ضد الهجوم الخارجى ، مادامت محاطة بالصحراء والماء (١١٣) •

نحو صعود نجم البكوات المماليك فى القرن الثامن عشر

بالنسبة للقرن الثامن عشر ، فان لدينا ثراء نســبيا فى المصــادر مما يعيننا على فهم المجتمع المصرى ، وعلى الأخص الطبقة الحاكمة • مما جعل القرن الثامن عشر مجالا للدراسة على نحو أفضل مما عليه الحال بالنسبة للقرنين السابقين عليه • فبالاضافة للوثائق الرسمية ، هناك حكايات الرحالة ، وبعضها يتمتع بجودة أعلى من ذى قبل ، وكذلك هناك التقارير القنصلية • غير أن منجم المعلومات عن تاريخ مصر من ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٨ ــ ١٦٨٩ م حتى حكم محمد على هو عمل عبد الرحمن الجبرتى ، المسمى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) الا أن حكم محمد على خارج مجال دراستنا (١١٤) • ويثبت هذا العمل العظيم من جديد ، أنه فى التاريخ الاجتماعى لا يوجد بديل لوجود مؤرخ محلى يكون مخبرا عادلا ومعبرا بصدق كامل عن مجتمعه •

لقد كتب الجبرتى ، الذى ولد عام ١١٦٧ هـ/١٧٥٣ م ، كتابا مليئا بالمعلومات بصفة خاصة عن الســنوات التى شــهدها • ذلك أن تغطيته للفترة المبكرة أو السابقة عليه تعد مبتورة ومفصلة فى الوقت نفسه ؛ لأنه كان عليه أن يعتمد جزئيا على معلومات متناثرة على درجة أقل من التوثيق •

ومع أن المؤرخين الحوليين العرب ، فى مرحلة سابقة ، ونخص منهم كتاب أحمد شلبى « أوضح الاشارات » الذى يقدم مسحا للأحداث التى وقعت فى مصر الى ١١٥٠ هـ /١٧٣٧ م ، يضيفون الكثير لفهمنا لمصر فى القرن الثامن عشر ، الا أن هذه الكتب لا ترقى الى تاريخ الجبرتى • ولكى نلخص العلاقة بين اسطنبول ومصر فى القرن الثامن عشر نقول : لقد كانت الأهداف الثلاثة للباب العالى فى مصر (كما ذكرنا فى الفصل الأول) وهى الاعتراف بالسلطان ، ودفع مبلغ الخزينة ، وارسال كتائب مصرية للاشتراك فى الحروب العثمانية ـ متحققة بالفعل • غير أن تحقيقها كان قد تعرض لقدر كبير من التآكل • ففى بداية القرن الثامن عشر كانت الأوجاقات هى أقوى الأجهزة داخل الطبقة الحاكمة المصرية • واستخدم الانكشارية والعزاب وظائفهم كشرطة وأوصياء على العاصمة لاستغلال أكثر مصادر الدخل ربحا • وبالمثل ، قام السيباهيون بظلم الريف • والأكثر من ذلك ، وجود وفرة من الأدلة على أن ضباط الانكشارية والعرب كانوا يمدون نشاطهم الاقتصادى الى القرى أيضا • فكان التحكم فى كتيبة الانكشارية هو مفتاح السلطة السياسية ، وكان على الطموحين من البكوات أن يضموا الأوجاقات الى جانبهم كى يصلوا الى السيادة • لقد كانت الصراعات فى مصر العثمانية هى فى العادة بين الأوجاقات وفى معظمها بين الانكشارية والكتائب الست الأخرى التى تحسدهم على ثرائهم وسلطتهم ، أو بين عصابات البكوات • وتغلغلت الانقسامات بين الجماعات المتحاربة بين الأوجاقات والبكلكية ، (مؤسسة البكوات المماليك) اذ كان هناك ضباط وجنود من الأوجاقات والبكوات فى الجانبين •

تدهور وضع الوالى العثمانى

ان انهيار السلطة العثمانية فى مصر فى القرن الثامن عشر يصبح واضحا من خلال مراقبة المرء اضمحلال نفوذ الباشا داخل الجهاز السياسى • ففى أثناء العقود الثلاثة الأولى من القرن ، كان الباشوات لايزالون هم الشخصيات المركزية التى تدور حولها الأحداث الكبيرة فى القاهرة • فكانوا ينحازون فى الصراعات بين عصابات البكوات المماليك ، بما فى ذلك الحرب الأهلية التى وقعت عام ١٧١١ م ، محاولين تحريك

القوى المختلفة لفائدتهم السياسية والمالية . فكان الباشا يستفيد استفادة ضخمة من أعمال التطهير الغالبة فى صفوف كبار العسكريين المتحاربين ، وذلك لأن جميع أصحاب المناصب الجدد والكشاف والملتزمين وما شاكلهم ، كان عليهم أن يدفعوا له جعلا من المال (حلوان) (١١٥) . ويظهر هذا بوضوح فى كلمات بكير باشا (١٧٢٨ ــ ١٧٢٩) ، فيما يتعلق بحسابات محمد باشا،سلفه. اذ ادعى الأخير أن ميزانيته كانت مجرد ٢٧٥ كيسا ، غير أن بكير رفض اعطاءه وصلا بالكامل قائلا : لقد كان هذا الرجل حاكما على مصر لمدة سبعة أعوام ، وقتل ١٨٤٠ من السناجق ، و ١٢ كتخدا وأغا ، وغيرهم من الضباط (يعنى أن هؤلاء الرجال قتلوا أثناء فترة حكمه ، وليس بمعنى أن الباشا مسئول شخصيا عن موتهم) والآن كان اسماعيل باشا واليا على مصر لمدة عامين فقط (١٦٩٥ ــ ١٦٩٦) بما فى ذلك نصف سنة كان قد أوقف أثناءه . كما أنه عقد وليمة كبيرة تكلفت ٩٠٠ كيس ، وبعد هذا كله مازال لديه ٢٠٠٠ كيس (١١٦) . كان معنى كلام بكير باشا الضمنى أنه من غير المحتمل أن يكون محمد باشا لم يكسب سوى هذا القدر القليل جدا من الأملاك التى تمت مصادرتها ومن الحلوان التى كان يحصل عليها من المعينين الجدد . وحاول محمد باشا رشوة الجيش بمبلغ ٦٠٠ كيس لاغرائه على تمكينه من الفرار الى جدة أو عزل بكير باشا .

وأثناء الاضطرابات التى أعدم فيها الكثير من الأمراء أو اغتيلوا أو فروا من البلاد ، كانت اسطنبول شديدة الحرص على الاستيلاء على أملاكهم . فتم ارسال العديد من الفرمانات ، محذرة من اهمال هذا الأمر ، كما أرسل الباب العالى وكلاء خاصين من الخزانة المركزية للتأكد من أن اسطنبول قد نالت نصيبها (١١٧) . ورغم هذه التحذيرات ، حرمت الخزانة المصرية من مبالغ الحلوان ، كما لم يتلق السلطان المبالغ السنوية أو المعروفة باسم الجزية السنوية بانتظام ، خاصة أثناء النصف الثانى من هذا القرن . فكانت حالات القصور هذه سببا رئيسيا لحملة حسن باشا فى ١٧٨٦ ــ ١٧٨٧ م لاعادة فتح الولاية (يقصد مصر) . وكان أمراء المماليك حذرين من تحدى السلطان وممثليه تحديا سافرا ، حتى تمرد على بك الكبير . ومع ذلك ، فان تكرار المرات التى رفض فيها

الجيش الباشوات ، ومنهم من تولى مناصبهم – الأمر الذى سبقت الاشارة اليه فيما يتعلق بالقرن السابق – تزايدت تزايدا كبيرا • وفى حالات قليلة جدا ، هدد الباشوات ، كما هوجمت مقار سكنهم أو خدمهم •

وفى يوليو ، عام ١٧٢٤ م ، وتحت ضغط محمد شركس ، اضطر الباشا الى الاستقالة ، وأن يخلى القلعة • وضحى بسبعة من الأغنام شكرا لله على نجاحه فى الابتعاد دون أن يمسسه ضرر • ذلك أن شكوى حررت ضده ووقعها مندوبون عن جميع الكتائب بالاضافة الى كبار العلماء والصوفية • كما شكا الجيش الى الباب العالى من أن دسائس الباشا تسببت فى نشوب معارك بين الناس وأنه متهم بالفساد وسوء الحكم •

وكان الرأى العام يعتبر الباشوات مسئولين عن المصاعب الاقتصادية ، وبصفة رئيسية ، انخفاض العملة ، رغم أن قدرتهم على تحسين الأحوال كانت تتقلص على الدوام •

وفى احدى المرات ، بينما كان أحد الباشوات يغادر سكنه فى القلعة بعد أن عزله الجيش ، تبعته الدهماء ، وهم يغنون : « باشا ، باشا ، يا وجه القملة ، من قلة عقلك يا باشا ، تعمل دى العملة » (١١٨) •

ومن المفهوم أن ايجاد منصب شيخ البلد ، فى أوائل القرن الثامن عشر ، الذى كان يتولاه أقوى أمراء القاهرة قد أغضب الباب العالى ، الذى لم يعجز عن رؤية هذا الفعل كتعد على سلطته • عموما ، تحمل العثمانيون ، بمرور الوقت ، هذا الاستعراض المصرى لشبه الاستقلال ، لما عهد عن العثمانيين من مرونة • الا أن العثمانيين أخيرا قرروا وضع حد لهذا فصدر فرمان بتاريخ ١١٤٣هـ/١٧٣٠ – ١٧٣١م يتوعد بالموت أى شخص يستخدم هذا اللقب ، غير أن مرسوما آخر صدر بعد ذلك بخمس عشرة سنة ينادى بعثمان بك، وهو أمير سابق للحج، شيخا للبلد (١١٩)• ذلك أن الباب العالى كان على وعى تام بحدود سلطته فى مصر • وينعكس تآلفه مع هذا الواقع فى الكيفية التى توجه بها الفرمانات الامبراطورية

لكبار الشخصيات المصرية • ففى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، لم تكن الأوامر الشريفة توجه الا لبكلاربكات مصر ، ولا يذكر أحد مرؤوسى الباشا ، مثل الدفتردار أو القاضى الا اذا كان يراد له أن يأخذ علما بالموضوع أو يتصرف ازاءه ، فى هذه الحالة فحسب يذكر اسمه فى رأس الوثيقة بعد الباشا • وكانت الصيغة الشائعة لمخاطبة الباشا ، الوزير (فلان) باشا الذى يحرس مصر (ميسير مهافازاس اندا أولان Misr Muhafazas inda olan) • أما فى القرن الثامن عشر ، فكانت الفرمانات والمراسيم توجه بشكل روتينى لوالى مصر ، وكبير القضاة ، والأمراء أى البكوات والضباط والاختيارية (قدامى الضباط أو الشيوخ فى الكتيبة) وأحيانا تضاف مخاطبات أخرى : شيوخ المذاهب الأربعة وغيرهم من العلماء • واذ أجرى العثمانيون هذه التغييرات ، فانهم كانوا يسلمون بأن على واليهم أن يتقاسم سلطته مع عدة قوى محلية (١٢٠) • كما كان الباشوات أنفسهم على وعى بهذا الموقف • فحين جاء محمد نشنجى باشا الى مصر عام ١٧٢١ كى يبدأ فترة حكمه المكونة من خمس سنوات ، قدم الخلع المعتادة الأربع الى البكوات وقال : أنا ضيفكم ، وأنتم أمناء السلطان المخولون (١٢١) •

تدهور الأوجاقات

لقد سبق أن ذكرنا أنه كانت توجد شبكة من الحمايات جيدة الثبات وان لم تكن قانونية ،(يمكن تسميتها بترتيبات للحماية) حتى ان الأوجاقات انتشرت مهيمنة على أنشطة التجار والحرفيين • وفى سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨ م ، اجتمعت الكتائب (الأوجاقات) الست ضد الانكشارية فى محاولة لوضع حد لامتيازاتهم • فقدمت الكتائب الست شكوى للباشا تعدد مطالبها • وتكشف هذه الوثيقة عن المدى الذى بلغته الانكشارية فى التحكم فى الاقتصاد • وكانت النقاط الأساسية فى هذه الشكوى هى :

ألا يكون موظفو دار السك والمذبح والجمرك من الطبقة العسكرية ، وألا يكونوا من المندمجين بالأوجاقات ، ولا يجب على التجار أن يسعوا الى حماية الأوجاقات ، ولا يقرر الموازين والمكاييل سوى المحتسب والقاضى ، (المحتسب هو مفتش السوق) ، كما لا ينبغى أن تكون القوارب

التى تحمل الحبوب من الصعيد الى القاهرة تابعة للأوجاقات ، ولا يجب التعرض لها ، ويجب أن تخزن جميع الحبوب فى مخازن الغلال الخاصة بالدولة كما لا ينبغى أن تباع حبوب البن للتجار الأوربيين • وآخر مادة ذكرت لها أهمية خاصة ، لأن الانكشارية كانوا يتاجرون مع الأوربيين انتهاكا لحظر واضح من الباب العالى ، مما يرفع أسعار التجزئة للسلع فى الأسواق المصرية ويخلق ندرة فى اسطنبول • وقام الانكشارية من جانبهم بوضع قائمة من الشكاوى يتهمون فيها الأوجاقات القديمة بمخالفات متنوعة (١٢٢)• أما الحكومة العثمانية ، فأخذت جانب الأوجاقات الستة • فأمرت بالغاء جميع الحمايات ، والضرائب غير القانونية والمكوس (رسوم العبور) وأن تزال دار السك ومخزن البارود من مقر الانكشارية الى الديوان • كما أخبر القاضى الحرفيين بأنهم باعتبارهم مدنيين ، لا يجب أن يرتبطوا associate with بالأوجاقات • فألح الحرفيون ، عموما ، ذاكرين أنهم عسكر أولاد عسكر بل وهددوا القاضى • فلم تنجح جهود الباب العالى الرامية الى فصل الجيش عن المدنيين (*) (١٢٣) •

وحاولت الحكومة العثمانية أن تبعد الجيش (القطاع العسكرى) عن النشاط الاقتصادى ولم يكن ذلك لأسباب تخص الانضباط العسكرى فحسب ، وانما لأسباب اقتصادية أيضا • فقد حمى التجار والحرفيون أرباحهم من الضرائب أثناء حياتهم وممتلكاتهم العقارية بعد موتهم ، وذلك بربط أنفسهم بالأوجاقات • (المقصود تهربهم من الضرائب) •

ولقد أثر هذا الاضمحلال فى الانضباط العسكرى حتما فى أداء الوحدات المصرية التى أرسلت لتدعيم الجيش العثمانى على جبهات مختلفة • وكان المصريون ، فى وقت من الأوقات ، يعرف عنهم أنهم مقاتلون باسلون بل فى بعض الحالات ، أفضل من الجنود الذين يأتون من الولايات العثمانية القديمة (١٢٤) ، غير أنه فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الثامن عشر ، وجهت الى الباشوات المصريين العديد من

(*) المقصود الفصل الايجابى ، بمعنى أن يكون للقطاع العسكرى مهامه ، وللآخرين مهامهم ، ومفهوم القطاع العسكرى يعنى هنا ـ كما هو واضح ـ قطاع الأمن الداخلى ايضا ـ (المراجع) •

المراسيم السلطانية تشكو من الانحطاط فى مستويات الفرق المصرية • وتبين هذه المراسيم أن الأداء المصرى كان مخجلا بصفة خاصة ، أثناء عمليات شنت على الجبهة الفارسية ١١١٤ هـ / ١٧٣١ م ، و ١١١٩ هـ / ١٧٣٦ ـ ١٧٣٧ • ولقد طلب الباب العالى ٣٠٠٠ رجل وهو العدد المعتاد فى ذلك الوقت ، غير أن ما يقل عن ١٠٠٠ قدموا أنفسهم • وفى الطريق الى المناطق الكردية شمال العراق اليوم ، أساء المصريون معاملة السكان المسلمين وتلكأوا خلف الجسم الرئيسى للجيش وهرب جنود كثيرون واختفوا • وتم القبض على عدد من الضباط فى كركوك بسبب جبنهم وعدم طاعتهم (١٢٥) وتم اعدام ضابط من الانكشارية •

كان المطلوب أن يكون الجنود المرسلون من مصر حسنى التعليم ومدربين حسب المستويات المصرية الرفيعة (ميسر تيرييزى) Misir teriyesi وألا يكونوا من المدربين الذين دربهم البكوات تدريبا خاصا (تشيراق) Chiraq ، كما يجب أن يأتوا من الغربية والمنصورة والبحيرة والشرقية بدلا من أن يحضروا من بلاد فقيرة ، مثل القليوبية ، والجيزة والمنيا ومنفلوط والفيوم حتى لا يعانوا ماديا ، وأن يتلقوا رواتب مرتفعة (أغير Aghir علوفيـﻯ) ولكن يجب أن يتسموا بحسن السلوك والتدين (١٢٦) •

واذا حكمنا من اللغة التى كتبت بها المراسيم ، فان المتاعب كانت متأصلة وسببها احلال المصريين الحقيقيين Sahih Misirli محل جماعة من الأكراد ـ لا يعرف اسمها أو اصولها ـ والفلاحين والأتراك • ويوصفون بأنهم مجندون جدد ، لم تظهر أسماؤهم فى قوائم المرتبات الرسمية ، وبدلا من المخضرمين الذين كان من حقهم تقاضى مرتبات مرتفعة بسبب خبرتهم فى القتال ، كان المصريون يرسلون بجنود يتقاضون رواتب منخفضة ، من الذين كانت رواتبهم تصل الى مجرد اثنين من الأقشات وهو مبلغ دون المكافأة على القيام بحملة • وكانت الطريقة المفضلة التى كان يستخدمها الجنود الأكثر ثراء لتجنب واجب القتال هى ارسال بديل (بدل) وكانت المراسيم تعلن مرة تلو الأخرى أن أولئك الذين استدعوا

يجب أن يحضروا شخصيا (بالنفس) ويبدو أن بعض أعضاء الأوجاقات استخدموا حيلة أخرى : بأن يجعلوا أسماءهم تنتقل من وحدات القتال الى أقسام اخرى • وتقول احدى العبارات التى كثيرا ما تظهر فى المراسيم بألا تشتمل المفرزة المصرية على عرب (عرب طايفسلى مخلوط دمييب) (Lrab ta'ifesili makhlut dmeyip.) ويبدو أنها تشير الى البدو ، أساسا مع أن احدى الوثائق تحذر بالتجديد من التحاق العرب فى الكتائب الراكبة (١٢٧) •

وكانت الفرق المصرية ترسل عادة لحراسة مدن فى الحجاز حيث كانوا متهمين بتعديات مشابهة • اذ كانوا يرسلون بوكلاء بدلا من الذهاب بصفة شخصية ، ويعتقد أن الكثير من العرب قد تسللوا داخل المفارز المصرية • وكان من الشكاوى المكررة ضد الجنود الذين كانوا يرسلون الى الحجاز أن الكثير منهم كان يشتغل بالتجارة • ذلك أن اغراء المتاجرة فى مكة ، وغيرها من مدن الحجاز ــ حيث كانت التجارة دائما مرتبطة بالحج ــ كانت على ما يبدو ، من القوة بمكان بالنسبة لكل الجنود والضباط • فكان تعديهم على نطاق التجار يتسبب فى احداث تعقيدات • على سبيل المثال ، شكا شريف مكة ، عام ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م الى السلطان من أن الجنود المصريين استولوا على ميراث تجار متوفين مدعين أن هؤلاء التجار كانوا ينتمون الى العسكر وأنهم ألحقوا فى كتائبهم (١٢٨) •

كذلك فشلت الحكومة العثمانية فى جهودها لمنع البكوات من زج أنفسهم فى شئون الأوجاقات• فثمة فرمان امبراطورى بتاريخ ١١٣٨ هـ / ١٧٢٦م يمنع الجنود من عقد تجمعات فى منازل البكوات الطموحين لأن ذلك قد يؤدى الى الفتنة والتناحر ، ولم تسمح لهم الحكومة الا بالاجتماع فى مقر الانكشارية ، والجنولويان Günülluyan أو منازل الدفتردار أو أمير الحج (١٢٩) • وهناك تطوران هما اللذان أضعفا الأوجاقات ، وحرماهما بمرور الوقت ، من الطابع العسكرى • التطور الأول هو تحويل الجيش الى الطابع المملوكى ، بمعنى زيادة عدد المماليك فى المواقع الرئيسية داخل الأوجاقات • أما التطور الثانى فهو ازالة النزعة العسكرية بتدفق العناصر المدنية غير المقاتلة • وعلى المدى الطويل ، كان للتطور الأول الأثر الأعظم •

وفى بداية القرن الثامن عشر ، حاول كبار البكوات امثال اسماعيل ابن ايواظ ومحمد شركس و « ذى الفقار » ، الفوز بالسيادة عن طريق الحصول على تأييد ضباط الأوجاقات ورجالهم • فصار من المعتاد أن يضع أمراء المماليك مماليكهم فى مواقع النفوذ داخل الأوجاقات • وكان أعضاء الكتائب السبع ما يزالون يسيرون بمشية عسكرية تحت راياتهم فى الحمـــلات الحربية ، وهكذا كانوا يتميزون عن جيـــوش البـــكوات الخاصة (١٣٠) ، غير أن التميز اختفى فى وقت لاحق من القرن • فصارت الكتيبة عاجزة ، ولم تعد سوى بيوت المماليك هى التى لها أهمية سياسية وعســـكرية • وبعد أن فقدت الكتائب المتدهورة قدراتها العســـكرية وطموحاتها العسكرية ، لم تعد ندا للمماليك الذين أحسن تنظيمهم بالاضافة الى ثقافتهم السياسية ذات الطابع العسكرى (١٣١) (*) • ومن العسير على المرء أن يحدد على وجه الدقة ، متى تطور هذا الاتجاه ، غير أنه من الواضح أن تدهور الأوجاقات كان قد اكتمل تقريبا ، بعد حكم ابراهيم كتخدا ورضوان كتخدا (١٧٤٣ ـ ١٧٥٤) • لقد كان حكم على بك بمثابة الضربة القاضية للأوجاق • فثمة وثيقة بتاريخ ١٠ شعبان ١١٧٢ هـ/ ٨ أبريل ١٧٥٩ م ، تشير الى أن المماليك ربما قد سيطروا بالفعل على جميع قيادات الكتائب الرفيعة (١٣٢) • وتشــتمل الوثيقــة على محضر اجتماع لديوان مصر مع مبعوث الباشا والسلطان ، وهذا الاجتماع كان مقصورا على القراءة الصارمة لفرمان عثمانى يذكر الأمراء وقادة الجيش بواجباتهم • ويبدو أن الاجتماع كان على أقصى درجة من الأهمية بحيث حضرته القيادة العليا بأكملها ، وقد ذكرت الوثيقة أسماء جميع الذين حضروا • ومن الأمور التى لها مغزى ، أن جميع الأسماء كانت (عبد الله) أى أنهم رجال لا يعرف آباؤهم • وبما أن معتنق الاسلام الجديد كان يسمى ابن عبد الله ، فمن المحتمل أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من المماليك • فمن بين الأربعة عشر بك الذين كانوا حاضرين ، كان ثمانية يحملون اسم ابن عبد الله • بل ان نسبة قادة الكتائب الذين كانت

(★) المقصود اتقانهم فن الصراع • النص: Their militant political Culture – (المراجع) •

أسماء آبائهم عبد الله أكبر ، اذ من بين ٨٦ ضابطا كان هناك ٤٣ ابن عبد الله • ولا يوجد تفسير واحد على انهيار الكتائب وعلو شأن المماليك • اذ لاحظ ريتشارد بوكوك ، وهو رجل انجليزى زار القاهرة فى ١٧٣٧ م وكتب وصفا تفصيليا حساسا (واعيا) لهذه البلاد ، يبين انتقال السلطة من الكيانات العسكرية (الرسمية) أى (الأوجاقات) الى المماليك • وفى هذا التاريخ المبكر ، قال ان الحكومة حقا مملوكية قلبا وقالبا • وحين كان بوكوك يشرح انتقال السلطة من الأوجاقات الى البكوات، قال : « ان رجال الأوجاقات كانوا يشترون الأراضى ؛ مما أجبرهم على الخضوع للبكوات (أن يكونوا تابعين لهم) حتى لا يدمروا قراهم ، حيث كانت الأجهزة العسكرية ثرية ، ولها خزانة واقطاعية ، تقريبا فى القاهرة • وبينما كان ضباط الانكشارية والعزاب أغنياء ، كان الجنود الأفراد فقراء حتى انهم لم يملكوا شراء قرى » • فلم يكن الجنود ، اذن ، خاضعين للبكوات ، ولم يكونوا مجبرين على الذهاب الى منازلهم (١٣٣) •

ان شرح بوكوك يتضمن أنه بمجرد أن بدأت الكتائب المتمركزة فى القاهرة فى شراء أراض من البكوات الذين كانوا يتحكمون فى الريف ، حتى أصبحت هذه الكتائب عرضة لابتزاز البكوات •

ولا شك فى أن الرحالة الانجليزى قد وضع اصبعه على سبب اقتصادى مهم ، ولكن هناك أسبابا أخرى • ولقد شجع ضعف السلطة العثمانية هذا انتشار المماليك على حساب الأوجاقات • وكان النظام السياسى المصرى آخذا فى اللامركزية ، وكان على أى فرد أو جماعة ترغب أن تسود أن تعنى بمصالحها الخاصة وتبنى قوتها • وكان من الممكن عمل ذلك بانشاء جيوش خاصة من المماليك وغيرهم من الأتباع • وتعد حياة ابراهيم كتخدا العملية (١١٦٨ هـ /١٧٥٤ م) ، مثالا على ذلك • فبالرغم من أنه كان قائد احدى الكتائب ولم يكن من البكوات ، الا أنه حشد قوة مستقلة تتكون من حوالى ٢٠٠٠ من المماليك ليكتسب الرئاسة ، كما أنشأ بيتا مملوكيا قويا سيطر على الحياة السياسية المصرية حتى سقوط المماليك بعد غزو بونابارت ومذبحة محمد على (١٣٤) •

المجتمع المملوكى فى القرن الثامن عشر ، الولاءات والعصبات

فى بدايات القرن ، أحيانا ما كان المؤرخ الحولى أحمد شلبى يميز بين البكوات من المماليك وغير المماليك تمييزا واضحا (١٣٥) ولم يذكر الجبرتى مثل هذا فى النصف الثانى من ذلك القرن . اذ انه ، فى ذلك الوقت ، لم تتكون الطبقة الحاكمة الا من المماليك وحدهم . ولقد وصف أيلون المجتمع العسكرى المملوكى تحت الحكم العثمانى وقام بتحليله ، مقارنا اياه بمماليك السلطنة . فمع أن الفوارق بين الاثنين كبيرة ، الا أن الكثير ظل على حاله دون تغيير (١٣٦) . فالمماليك ، شأنهم شأن سابقيهم ، فى أواخر العصور الوسطى كانوا يستوردون الى مصر فى الثانية عشرة من العمر أو الرابعة عشرة ، وعن طريق تجار الرقيق يباعون الى كبار العسكريين . وكانت البلدان الأصلية التى أتوا منها هى البلدان نفسها ـ بصفة رئيسية القوقاز وعبر القوقاز ـ وكان تعليمهم العسكرى يجعل منهم فرسانا من أرقى طراز . ان المثال الأساسى لعبودية المملوك ـ أى ولاء المملوك التام لسيده الذى دربه ورباه وحرره ـ كان هو عماد مجتمع المماليك فى مصر العثمانية ، كما كان الحال فى السلطنة المملوكية . فحين كان السيد يقرر أن مملوكه قد بلغ سن النضج ، وأنه مستعد لتولى أحد المناصب ، كان يعتقه ، ويسمح له بأن يطلق لحيته . فهو الآن رجل حر ، لم يعد يعتمد على أحد . وغالبا ما كان السيد يعين هؤلاء العبيد السابقين فى مناصب فى الجيش ، أو فى البكلكية أو فى قيادة الكتائب . وفى الكثير جدا من الأوقات كان السيد يقرر من يتزوجها عبيده السابقون ، وهو قرار كان يدفع بالمملوك الى الأمام اجتماعيا وماليا .

وثمة فقرة فى تأريخ الجبرتى تعطينا فكرة عن الانضباط بين المماليك وانهيار ذلك الانضباط . ففى السادس من ذى القعدة ١٢٠١ هـ / ٢٠ أغسطس ١٧٨٦م ، أعلن أنه لا يجب أن يركب المماليك الركائب وحدهم فى شوارع المدينة . وفى الماضى ، لم يكن المماليك يخرجون دون أسيادهم ، غير أن هذه القاعدة قد أهملت . أما الآن ، فقد تزوج المماليك وامتلكوا المنازل ، والخدم وأخذوا يخرجون بحرية ويدخنون علنا ، حتى قبل أن يعتقوا (١٣٧) . وثمة نوع آخر من الولاء كان يتوقعه الناس من

المملوك ذلك هو التضامن مع الآخرين من عبيد سيده ، الذين كانوا يسمون كوشداشين Kushdashin (*) أو اخوة ، (كوشداش Kushdash كلمة فارسية فى صيغة المفرد وهو لفظ مملوكى يرجع الى عهد السلطنة) وكان هؤلاء الاخوة يتحدون الأعداء الخارجيين وكانوا يشكلون عصبة المماليك ، أو البيت ، الذى كان يضم السيد ورفاقه وحلفاءه • وبينما كان من الممكن لولاء كهذا أن يكون قويا ، الا أنه كان أكثر هشاشة من القيد الذى يربط العبد بسيده • وحين كانت احدى العصبات المملوكية تهزم منافسيها ، كثيرا ما كان الكوشداشين ينقلبون ضد بعضهم البعض فى صراعهم من أجل السلطة والثروة • فكانت عصبات المماليك من فقارية وقاسمية وجولفية ، وقزدوغلية وغيرهم يعملون بتنظيم قائم على الرعاية التى يقدمها الأقوياء ، والمخدومون والولاة والتحكم فى المصالح الاجتماعية والاقتصـــادية •

ومع ذلك ، فنحو نهاية القرن الثامن عشر ، أى ابتداء من حكم على بك فصاعدا ، صارت الصراعات بين الأشخاص أكثر منها بين العصبات • وكانت الرابطة بين السيد والمملوك أقوى فى المجتمع العسكرى ، غير أنه كانت هناك أشكال أخرى من الخدمات • فنحن نسمع الكثير عن السراجين التـــابعين للأمراء والذين كانوا يعملون كحرس راكبين وكثيرا ما كانوا يغتالون أعداء سيدهم • فلقد كانوا مجرمين يرهبـــون المدنيين وذلك بمهاجمتهم وسرقتهم ، بالاضافة الى التحرش بالنساء والصبية • فمثلا ، كان لمحمد شركس العديد من السراجين الذين أطلق يدهم فى أعمال الطغيان وارتكاب الأخطاء الكبرى فى حق القاهريين • وحسب ما يروى المؤرخون الحوليون ، فان السيفى السراجى كان أسوأ مخلوقات الله (١٣٨) •

وقيــل ان السراجين (**) كانوا مســـيحيين غير مختنين يتنكرون

(★) أو الخوشداشية ـ (المراجع) •

(★★) السراج خادم غير مملوك أى ولد حرا ، والحر فى هذه الفترة أقل قيمة ومركزا اجتماعيا من المملوك وجمع سراج هو سراجين ، والكلمة من أصل فارسى ومعناها التابع أو المولى أو الخادم • انظر ، احمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من دخيل ـ مادة سراج ـ (المراجع) •

كمسلمين ، لأنه حسب ما قيل ، لا يمكن للمسلم الحق أن يكون شديد القسوة على أبناء دينه •

وبلغ حكم السراجين الارهابى نهايته مع سقوط محمد شركس ، مؤقتا على الأقل • اذ صدرت الأوامر بألا يملك البك سوى اثنين من السراجين ، ولم يعط للضباط الصغار فى الشوارع سوى سراج واحد • كذلك أخرج الكثيرون من سراجى الأمراء والأجانب الذين كانوا فى خدمتهم خارج مصر (١١٣٨ هـ / ١٧٢٦ م) (١٣٩) •

وثمة نوع آخر من العلاقة هو بين السيد وشراقه (فى المصادر العربية ، تهجى هذه الكلمة التركية اشراق (*) وهو نوع من التدريب كان أيضا مفضلا ومحميا) • وكان هذا رباطا أضعف ، غير أنه رباط مهم فى المجتمع المصرى وكذلك فى السياسة • وهنا علاقة أخرى هى علاقة السيد والتابع ، وهذا تعبير أكثر عمومية ، ويمكن أن يكون مرادفا للفظ مملوك ، شيراق ، ولكنه قد يشير ببساطة الى رجل فى خدمة أحد كبار الشخصيات ، أو أحد مؤيديه (١٤٠) • ويلاحظ أيلون أن الصراعات بين العصبات كانت قصيرة فى أيام السلطنة ، ولم تستغرق أكثر من جيل واحد ، ولكن البيوت المملوكية فى مصر العثمانية كانت تستمر فى أعمالها الثأرية الاجرامية لفترات أطول ، بل أحيانا تستمر على مدى أجيال • والسبب الرئيسى الذى أدى الى هذه الفروق هو أنه فى السلطنة كان أولاد المماليك (أولاد الناس) مستبعدين عن النخبة العسكرية ، مما أدى بالضرورة الى اختصار فترة التطاحن • أما فى مصر العثمانية ، حين اندمجت العائلة البيولوجية (يقصد العائلة الممتدة) (**) من العشائر المملوكية ، استمرت أعمال الثار لفترات طويلة •

فى بعض الأحيان ، كانت تنشأ المنافسات بين أبناء أحد الأمراء ومماليكه ، كما كان الحال مع محمد بك ، أحد أبناء ابراهيم بك أبى شنب ، ومحمد شركس مملوكه •

(*) الأشراقى اى التابع • وفلان من اشراقى يعنى من صبيانى وهى من التركية چرانج او جمان بمعنى الصبى يسلم للمعلم لياخذ عنه الصنعة • عن احمد السعيد سليمان ، نفسه ، ص ١٦ •

(**) النص : biological family – (المراجع) •

كما ان ارتباط المجتمع العسكرى المملوكى مع قبائل العرب البدو ، التى كانت دائما تمارس الانتقام الدموى ، ربما يكون له تأثيره فى هذا الاتجاه · ومن الأسباب المهمة التى أدت الى سقوط السلطنة المملوكية هو رفض الجيش المملوكى أن يستخدم البنادق ؛ مما كان من شأنه أن يجبر الخيالة على أن يصبحوا جنودا راجلة (مشاة) (١٤١) · لم يكن التغيير الحادث فى مصر العثمانية ممثلا فى ازدراء المماليك للقتال كمشاة ، وانما تكنولوجية الأسلحة النارية : اذ كان من الممكن استخدام المسدس والخزن القصيرة على صهوة جواد ، وهو ما فعله المماليك بفاعلية · وكانت النتيجة ، كما يشير أيلون ، هى العدد الكبير جدا من الخسائر فى الأرواح فى المعارك والمناوشات بين فرق المماليك فى العهد العثمانى والتى كانت أعلى بكثير من الخسائر بين مماليك السلطنة (١٤٢) ·

وكانت الصراعات داخل مجتمع المماليك فى زمن العثمانيين تهدف بلا كلل الى القضاء على المنافسين · وأحيانا كان الجنود أو الأمراء المنهزمون يتم نفيهم الى الشام ، والحجاز واسطنبول وقبرص أو الى الاسكندرية أو مراكز متطرفة كالصعيد والبحر الأحمر وشواطىء البحر المتوسط (١٤٣) · وأحيانا كان الأمير ينفى الى قرية أو اقليم ثم يصبح ملتزما لهذه المنطقة التى نفى اليها ·

وكانت القاهرة مركزا لجميع الأنشطة الا أن كونهم بعيدين عن العاصمة ، قد قلل من أهميتها من الناحية السياسية · وتزخر كتب الحوليات والسير بأسماء الأمراء الذين أعدموا ، عادة بقطع الرأس ، من جانب أعدائهم أو قتلوا فى المعركة · وكانت مشاعر الكراهية والشك عميقة جدا ، حتى ان أحدا لم يكن ينتظر العفو والصلح · وكان عدد الأفراد الذين قتلوا بطرق عنيفة فى ازدياد ، حتى ان الجبرتى لاحظ عند تأبين من ماتوا موتا طبيعيا أنهم كانوا يقولون عنهم لقد ماتوا فى فراشهم (١٤٤) · ولم يكن من المعتاد مراعاة الكرم نحو المعارضين · فحين انتصرت جماعة اسماعيل بن ايواظ على محمد شركس ، هرب الأخير وقبض عليه العرب البدو الذين أطلقوا سراحه على أن يتوجه الى قبرص · وعاش اسماعيل كى

يندم على هذا الفعل الكريم • اذ عاد محمد شركس سرا الى القاهرة ، وأمر بقتل اسماعيل ودمر عصبته تدميرا تاما (١٤٥) •

وعند الكلام عن الصراعات بين عصبات المماليك ، فان مقر قائد احدى عشائر أو جماعات المماليك يستوجب منا الانتباه • فلقد كانت العصبة تستعد للمعركة بتخطيط الاستراتيجيات وتوزيع الأسلحة والمال على الأنصار فى سكن البك (المسمى باللغة التركية ، qonaq قناق وبيت ببساطة باللغة العربية) ويكتب الجبرتى مرارا عن أهمية البيت المفتوح (بيت مفتوح) بالنسبة لتنظيم العصبة وفتح الأعمال العدائية ضد أعدائه • فبعد وفاة أحد الزعماء ، كان يتوقع من كبير مماليكه أو من أحد الأمراء البارزين أن يفتح بيت سيده • وكان ذلك يتطلب الكثير من المال ، حتى ان أعضاء العصابة الآخرين كانوا يقدمون مساعدات مالية للأمير كى تمكنه من أن يقوم بذلك •

المماليك الذين يملكهم المدنيون

يشير أيلون الى فرق رئيسى آخر بين نظام المماليك الكلاسيكى ومصر العثمانية (ونظام المماليك فى مصر العثمانية) • فبينما كان من الأمور التى يستحيل التفكير فيها فى السلطنة المملوكية أن يتمكن شخص مدنى من امتلاك المماليك ، كان هذا يحدث فى مصر العثمانية • اذ انه ، فى القرن السادس عشر كان الجيش ساخطا على أولاد العرب الذين يملكون المماليك • الا أن الأوامر المتكررة التى تمنع المدنيين من أن يحتفظوا بعبيد من البيض (مماليك) لم تكن تلقى الطاعة • ففى وقت متأخر يصل بنا الى عام ١٧٣٦م ، أعلن فى القاهرة ، أن المدنيين والمغاربة والبيروقراطيين والتجار لا ينبغى أن يمتلكوا مماليك بيضا ، وجوارى (١٤٦) • ومهما يكن من أمر ، فان المدنيين استمروا فى شراء المماليك • وعلى سبيل المثال ، كان أبو الجبرتى رجلا ثريا لديه الكثير من المماليك • وثمة مثال شهير آخر يتعلق بعصبة مملوكية تسمى جماعة الفلاح ، وكان مؤسسها فلاح بسيط هو الحاج صالح (توفى حوالى ١٧٥٥ م) • لقد بدأ حياته كشخص يتيم فى احدى القرى فى مديرية المنوفية • ورهنه سيده لقاء

دين كان يدين به للملتزم وهو ضابط في احدى الأوجاقات . فلما سدد السيد دينه ، رفض الفتى العودة الى القرية ، وظل فى بيت الأمير . ومع مرور الوقت ، ازدهرت حياته فاشترى مماليك ، وعبيدا شبابا من الجنسين . ورتب زيجات بينهم ، واشترى لهم دورا ، كما زودهم بمصادر للدخل . وكذلك قام برشـــوة ذوى النفوذ والتحايل عليهم كي يلحق مماليكه فى الأوجاقات حيث ترقوا ، واكتسبوا بيوتا ، وأتباعا ومماليك خاصين بهم ، وبذلك شكلوا فصيلا شديد القوة .

وكان الحاج صـــالح يقرض النقـــود لابراهيم كتخدا ولأمرائه القزدوغلية .

وكان صالح المسن ، حتى في ذروة سلطته ، يركب حمارا ولا يتبعه سوى خادم واحد .

وفى النهاية ، حاق الفقر بجماعة الفلاح ، بسبب هذه القروض التى لم تكن ترد على ما يبدو (١٤٧) .

وهناك مثال آخر على انشاء عصبة مملوكية على يد شخص من أصل متواضع غير عسكرى ونعنى بها بيت الجولفية أو عصبة الجلفية ، وهى عصـــبة شهيرة ترجـــع لســـلالة مملوك كان يمتلكه تاجر من قـــرية جلف Julf . وورد فى المصادر أيضا ذكر لمماليك امتلكهم حداد (١٤٨) .

وحتى العلماء كان فى استطاعتهم امتلاك المماليك ، رغم أن هذا كان نادر الحدوث . فالشيخ محمد شنن ، شيخ الأزهر ، أى أكبر علماء الدين بالأزهر ، الذى هو جامع وجامعة ، كان رجلا ثريا لديه مماليك ، قد وصل أحدهم الى رتبة البكوية (١٤٩) .

ولم يكن رؤساء القبائل العربية ، عادة يمتلكون المماليك ، رغم أن بعضـــهم كانت له الثروة والســـلطة لفعل ذلك . وكان همـــام ، وهو شيخ الهوارة فى الصـــعيد ، هو حالة خاصـــة ، لأن رؤساء الهوارة كان ينظر اليهم على أنهم حكام اقاليم أكثر من كونهم « شيوخ بدو » . كذلك

كانت أراضى الهوارة ملجأ للمماليك الذين فروا من المذابح وأعمال التطهير فى العاصمة. واستقروا فى الاقليم ، واندمجوا بمرور الزمن ، مع السكان المحليين وفقدوا تميزهم الاجتماعى باعتبارهم مماليك (١٥٠) ٠

البيوتات والأسر المملوكية

كان أمراء المماليك من بين أكثر أهالى مصر ثروة ، اذ كانوا يملكون منازل رائعة فى أجمل وأغلى أجزاء القاهرة ، مثل تلك التى تقع على شواطىء البحيرات كبركة الرطلى وبركة الفيل ، وبركة الأزبكية ٠ وكانوا يبحرون فى البحيرات ، استجلابا للبهجة ، ويسيرون على طرق المتنزهات القريبة ٠ كذلك كان الكشاف الذين كانوا يظلون فى مديرياتهم معظم العام يعيشون فى القصور ٠

وكان الكثير من الأمراء يحرصون على البناء فبنوا مبانى للعلماء ، والصوفية ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم ، (الكتاتيب) كما كانوا يرعون الأشغال العامة ، فى المحل الأول ، وكانوا يبنون مساكنهم وقصورهم حيث كانوا يحتفظون فيها بحريمهم وعبيدهم وخزائنهم ويقال ان شخصا يسمى على بك ، (تم اعدامه عام ١٢٧٧ م) ، كان لديه ٤٨ مملوكا ، وسبعة من الخصيان ، و ٤٨ سراجا ٠ وكان لدى حريمه ستون ، من الجوارى البيض والسود والحبشيات ٠

وكان زعماء المماليك يملكون عددا أكبر من المماليك ، فابراهيم كتخدا امتلك ٢٠٠٠ مملوك ، وابراهيم بك ٦٠٠ ، ومراد بك ٤٠٠ ٠

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان البكوات الأقل أهمية يملك كل منهم ما بين ٥٠ و ٢٠٠ مملوك (١٥١) ٠ واذا ما أخذنا فى الاعتبار المنافسات والتقلبات التى تملأ القاهرة ، فاننا ندرك أن مسكن الأمير كان معرضا للهجمات من جانب أعدائه ٠ اذ غالبا ما كان يتم اجتياح سكن الأمير ويدمر ، وتؤخذ جميع ممتلكاته بمن فى ذلك زوجاته ومحظياته وجواريه بالكامل ٠ وحين فر عثمان بك ، الذى ذكرناه سابقا من مصر ، دخل الجيش ونهب منزله ٠ ويقول الجبرتى ، انه كان يحتوى على كنوز بلغت من القيمة ما جعل الكثير من الذين قاموا بعملية النهب

تجارا وأشخاصا بارزين · اذ انه حتى الرخام والخشب اقتلع من أماكنه قبل اضرام النار في المنزل · كما أن بيت محمد شركس بك الطاغية قد محى تماما بعد هزيمته · لقد بنى شركس المنزل بالسخرة ، لذا فان العمال الذين استؤجروا لهدمه استعذبوا هذا الانتقام ، حتى انهم قالوا : « لقد بنيناه دون ثمن ، والآن ، حمدا لله ، أننا نهدمه بثمنه » (١٥٢) ·

وكان الأمراء وغيرهم من الأثرياء أحيانا ما يخفون ممتلكاتهم القيمة في مكان آخر : اذ كان يتم بناء مكان ثان للأشياء القيمة بجوار الجامع الأزهر والمقام الحسـينى ، لأن هذه المناطق تعد واقعة تحت الحماية باعتبارها أماكن مقدسة ؛ وبالتالى كانت آمنة نسبيا في الأوقات التى تقع فيها المتاعب ·

لقد كان الزواج فى المجتمع المملوكى ، فى مصر العثمانية وسيلة شائعة لاكتساب الثروة أو المكانة · فكما سبق أن ذكرنا ، كان السادة أحيانا ما يقومون بترتيب زيجات مماليكهم · فيكتب الجبرتى أنه لدى وفاة شخص مرموق ، كان المملوك يهرع الى بيت سيده الأمير ، ويقبل يده ويطلب السماح له بأن يقترن من أرملة المتوفى · وبعد الحصول على الاذن ، اعتاد المملوك أن يذهب مباشرة الى منزل الرجل المتوفى ؛ وأحيانا كان ذلك يتم قبل أن يغادر موكب الجنازة المكان ، ويستولى على الممتلكات والزوجة · وغالبـا ما كان هذا يسر الأرملة ، كمـا يكتب الجبرتى ، طالما أن المملوك شـاب حسن المنظر ، ويختلف عن زوجها الراحل · فكانت تعطيه كل ما يملك زوجها ، بما فى ذلك ما تم اخفاؤه من أشياء · وهكذا يقطع المملوك أقصر الطرق كى يصير أميرا (١٥٣) · وكان المماليك كثيرا ما يتزوجون من جوار من أعراق مماثلة لأعراقهم ، أى شركسيات أو جورجيات أو تركيات · كذلك تزوج بعض المماليك بنات تجار أغنياء ، أو من بنات العلماء أو كبار الصوفية · وكما رأينا سابقا ، فلم يكن من المعتاد أن يتزوج المماليك أرامل سادتهم أو أرامل أى أمير ذى سلطة · وكانت النساء فى المجتمع المملوكى كثيرا ما يتزوجن العديد من المرات ؛ وذلك بسبب حدوث الموت السابق لأوانه والذى كان كثير الحدوث بين المماليك · وتعد حالة ابنة ايواظ بك ، القائد القاسمى الذى قتل فى

الحرب الأهلية التى وقعت عام ١٧١١ م حالة متطرفة ؛ غير أنها لا تعد حالة وحيدة . اذ انها فقدت أربعة اخوة ، كانوا جميعا من الأمراء ، كما فقدت زوجين عن طريق الاغتيال . ولقد توفيت بعد زواجها الثالث بوقت قصير وكان زوجها الثالث هذا أيضا واحدا من بكوات المماليك . وكان أحد اخواتها هو اسماعيل بك ابن ايواظ ، وقد تآمرت ضد محمد بك شركس انتقاما لمقتل أخيها وذلك بتقديم مبالغ ضخمة من المال ـ ٥٠٠ كيس لعصبة اسماعيل و ٣٠٠ الى الباب العالى ـ لكن دون طائل (١٥٤) .
وتبين حالات مثل هذه، أنه رغم أن النساء كان ينظر اليهن باعتبارهن متاعا يمكن وهبه ونقله كما يشاء المرء ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن المرأة المملوكية سلبية دائما . ذلك أن الحوليات التاريخية تصف بشكل مؤثر وفاء الزوجات ، والأخوات والأمهات ، اللاتى أخفين رجالهن وساندنهم حين كان يتم التفتيش عنهم ، أو كن يتوسلن ، دائما ـ بلا جدوى ـ لانقاذ حياتهم حين كانوا يقعون في أيدى أعدائهم . وبعد أن كان يحكم بالموت على أحد أمراء المماليك ، كانت قريباته من النساء يحاولن عادة تسلم جثته لدفنه بكل احترام (١٥٥) .

امراء المماليك كحكام

رغم أن حكم المماليك فى مصر كان عموما ، دكتاتورية عسكرية ظالمة مستغلة ، الا أن المؤرخين كانوا على تمام الوعى بالفروق بين الأمراء كأفراد ، ولقد قدم الكثير منهم بشكل يبرز مزاياهم كحكام وكذلك كأفراد . فحين ارتفع نجم اسماعيل بك ابن ايواظ بين أمراء القاهرة ، لم يكن عمره يزيد عن ست عشرة سنة ، وكانت لحيته بالكاد تظهر . وكانت النساء يسمينه قشطة بك ، على سبيل التحبب . وبالرغم من حداثة سنه ، الا أنه كان حاكما حاذقا وعادلا ذا طبيعة كريمة سمحاء . وكثيرا ما غادر القاهرة عدة مرات بما فى ذلك ست مرات كأمير للحج . وكانت قلة من البكوات تجرؤ على هذا الفعل خوفا من وقوع انقلاب ضدهم أثناء غيابهم (١٥٦) .

وكان هناك حاكم قدير وخير ، هو عثمان بك ذو الفقار الذى كان الجبرتى يعرفه معرفة شخصية ، بما أنه كان صديقا حميما لأبيه .

ويكتب الجبرتى أن عثمان كان يستمع فى بيته الى قضايا الناس العاديين ومطالبهم ، كما كان يعقد جلسات خاصة كى يستمع الى قضايا النساء ومناقشة قضايا المحافظة على الأمن ، وكان البدو يخشونه فلم يتسببوا فى حدوث أى متاعب • وحين كان مفتشا على الأسواق ، (محتسب) ، كان يحمى الفقراء •

وكان يلتزم بصرامة بتعاليم الشريعة ، ولم يكن يستولى على المواريث بشكل غير قانونى ، كما كان دأب الكثير من الأمراء (١٥٧) •

لقد امتدح المؤرخون عدة مستبدين متسلطين مثل ابراهيم كتخدا وعلى الكبير على صيانتهم للأمن العام • وكانت أيام ابراهيم كتخدا أيام رفاهية اقتصادية عامة حين كان الطعام رخيص الثمن (١٥٨) •

وكان أمراء المماليك يحكمون أساسا ، عن طريق الاجبار (الاكراه coercion) غير أن الكثيرين منهم كانوا يمارسون النفوذ من خلال وسائل متنوعة من الرعاية وتكوين الروابط مثل تجنيد عملاء من بين العلماء ، والصوفية والتجار والعوام •

وكان ابراهيم بك أبو شنب الذى توفى ١٧١٧ أو ١٧١٨ م فى الثانية والتسعين من العمر ، حاكما محسنا ومعتدلا • وكان ما يتميز به هو رعاية متسولى القاهرة (١٥٩) • كذلك كان بيت البك ، الذى كان مقرا لعصبة من المماليك ، هو أيضا المركز الذى مارس منه نفوذه ويحتفظ بروابط مع المدنيين • ويصف الجبرتى الكرم الشديد الذى كان يعامل به كبار الشخصيات جميع أصحاب الحاجات • فاذا حضر أى شخص لمقابلة الأمير بشأن مشكلة ما أثناء تناول الطعام ، كان يقدم له الطعام أيضا •

وكان كبار الشخصيات يوزعون الطعام والهدايا ، فى الاجازات على الفقراء •

وبينما كان من الممكن أن تكون كلمات المؤرخ نوعا من الحنين الى الماضى ، الى حد ما وتنحو نحو المثالية ، الا أنه من المؤكد أن وصفه يعكس

موقفا حقيقيا وجوا عاما • وحسب قوله فان الأمراء لم يكونوا يتصرفون بدافع الاحسان فحسب ، عن طريق تقديم الصدقات والهدايا الى المحتاجين الذين يستظلون بحمايتهم وانما كانوا يفعلون ذلك بغرض زيادة عملائهم ومكافأة مناصريهم (١٦٠) •

المماليك ، سماتهم ووعيهم

كان المماليك يرتدون سراويل مميزة حمراء عريضة تسمى شالفار Shalvar ومع مطلع القرن السابع عشر ، صار الشالفار جزءا من زى السيباهية ، الذين كانوا ــ فى مصر ــ مطابقين للمماليك ، الى حد كبير • وتظهر هذه الحقيقة أثناء الصراع بين الحاكم ابراهيم باشا (١٦٠٤ م) والسيباهية الذين أعدم الكثيرين منهم • ولقد شنق أحد الفلاحين وألبست جثته بالشالفار اظهارا لبغض الباشا للجند ، أى السيباهية والمماليك ، وعلق ابريق فى جثة الرجل المحكوم عليه ، ربما فى تلميح قاس لطبقة الفلاحين • وفيما بعد ، قتل الباشا المتمردين من السيباهية (١٦١) •

وفى وقت لاحق فى القرن السابع عشر ، يؤكد افيليا جلبى (شلبى) على أن السراويل المصرية الحمراء التى تسمى الشالفار كان يرتديها جنود الوحدات الراكبة ولكن الانكشارية لم يرتدوها (١٦٢) • وفى أوائل القرن الثامن عشر يكتب بوكوك : « ان لباس المماليك هو الثوب القصير الذى يوضع فى سراويلهم الواسعة التى تربط فى الساق حول كلا المفصلين السفليين وتترك القدم عارية ، ويرتدون نوعا من الأحذية الذى يستخدمه العرب حين يركبون الدواب • وفيما سوى ذلك ، فهم يرتدون مثل الأتراك » (١٦٣) •

ولكى ننهى هذا المسح لنخبة المماليك ، من الضرورى مناقشة توجههم اللغوى والثقافى ، وتركيبهم العنصرى والعرقى ، ووعيهم ونظرتهم الدينية وأخلاقهم • ومن سوء الحظ ، فان مصادر المعلومات أقل عن اللغة المكتوبة ولغة التخاطب عند المماليك مما يتمنى المرء • فنحن نعلم أنهم كانوا يتحدثون بالتركية • فيقول الجبرتى ، بصفة خاصة ، ان الاسم العربى عواد كان ينطق أواظ ، ملحونا باللغة التركية (١٦٤) •

وكانت الثنائية اللغوية التركية والعربية سائدة بين المماليك . اذ توجد اشارات الى أمراء ممن كانوا يتحدثون ويكتبون ويقرءون العربية بالاضافة للتركية . ويقال ، بشكل عابر ، عن محمد بك شركس انه يستخدم صيغة التأنيث للتحدث عن الذكور ، وعلى كل ، فان هذا يعتبر طريقة أو لازمة فردية فهذه الرواية تثبت أنه كان يتكلم العربية (١٦٥) . هذا ويقال عن بك آخر انه كان يكتب ويتكلم العربية والتركية بطريقة حسنة (١٦٦) . وحتى خاير بك ، فى بداية الفترة العثمانية كان يتكلم اللغة العربيـة بطلاقة (١٦٧) . وهذا الازدواج اللغوى لا يجب أن يدهشنا اذا ما تذكرنا أن المجتمع المملوكى احتوى على رجـال ولدوا فى مصر ، لم يكن لهم أن يكونوا غرباء عن اللغة العربية مثل مجتمع المماليك ابان السلطنة . ان فقرة افيليا جلبى (شلبى) ، التى أشرنا اليها سابقا ، حين تحدثنا عن لغة المماليك ، تقوى أيضا من هذا الانطباع (١٦٨) . وفوق ذلك كله ، فان المماليك كانوا متعلمين تعليما جيدا نسبيا . اذ يكتب بوكوك : « ان خـير تعليم ، هو الذى يتلقاه المماليك فهم يفهمون العربية والتركية . وغالبا ما يكتبون باللغتين » (١٦٩) .

وخير مثال على هذا هو نعى ابراهيم كتخدا البركاوى (الذى توفى عام ١٧٣٨ أو ١٧٤٨ م) ، وهو ابراهيم كتخدا الشهير . فلقد اشترى مماليك ودربهم على القراءة والكتابة والخط . وكان المتعلمون والخطاطون يختلفون الى منزله . وكان ، شأنه شأن بعض الأمراء الآخرين ، شغوفا بالكتب ، فاشترى كتبا فى الكثير من الفنون والعلوم ، ووجد بعض من أندر الكتب فى مكتبته (١٧٠) .

وأخيرا ، لابد أن الصلة بين المماليك والعلماء والصوفية كانت قد حسنت من لغتهم العربية على نحو هائل . وتعيدنا هذه النقطة الأخيرة الى مسألة تدين المماليك ، التى سبقت الاشارة اليها . لقد كان الاسلام هو قناة التطبع الثقـافى للمماليـك فى مصر . اذ لم يكن من الممـكن اعتبارهم أرستقراطية ، ونخبة دونما التزام بقيم المجتمع المصرى ، التى كان الاسلام أبرزها . فهناك العديد من السير التى كتبت عن المماليك والاشارات التى أعطيت عنهم كجماعة تصورهم كمسلمين ورعين . فتقواهم الشخصية ، والاحترام الذى يبدونه لرجال الدين ، وانشاؤهم ومساندتهم

للمدارس الدينية ، ومحاولة بعضهم اجتثاث المشروبات الكحولية والبغاء ــ كلها شواهد على تدين لا جدال فيه ٠

لقد سجل الكثير من الأمثلة عن أمراء يوقرون المساجد والأضرحة الدينية ، ويعد توقيرهم للمقدسات المصرية ، على وجه التحديد ، أمرا له أهمية خاصة ٠ ويعتبر احترامهم لضريح الامام الشافعى ، مؤسس أكثر المذاهب شيوعا ونفوذا فى مصر والمؤسس الوحيد لأحد المذاهب المدفون فى البلاد ، وكذلك ضريح سيدى أحمد البدوى ، أحب الأولياء وأكثرهم شعبية فى مصر ، خير مثالين على ما سبق ذكره (١٧١) ٠ ولم يخرق قوانين الاسلام وروحها سوى عدد صغير من الأمراء ؛ غير أن هذا مما يؤكد القاعدة العامة ٠

من بين هؤلاء الأمراء خليل بك قطامش ، أمير الحج الذى وضع مماليكه بين الممرات الضيقة بالقرب من العقبة كشحاذين لمضايقة الحجاج وسلبهم ٠ واشتكى سلطان المغرب فتلقى تأكيدا بأن الآثم قد أعدم (١٧٤٧ م) (١٧٢) ٠

وثمة حالة أخرى أكثر اثارة للاهتمام : هى حالة يوسف بك الكبير . وهو أحد مماليك محمد بك أبى الذهب ، الذى يصفه الجبرتى بأنه مندفع ومتقلب المزاج ٠ ويذكر الجبرتى بصفة خاصة : « انه كان يكره الفقهاء والعلماء (المعممين) فلقد عزل الشيخ حسن الكفراوى عن الافتاء والتدريس ، لأنه اعتبر أن الشيخ مؤمن بالخرافات ٠ وفى حقيقة الأمر ، كان الكفراوى يحتفظ فى منزله بأحجبة للجاذبية الجنسية كان يعطيها للجوارى تساعدهن على جذب انتباه سادتهن ٠ فأمر يوسف بك باغراق هذا الشيخ ثم عرض الأحجبة هذه على غيره من الأمراء وأخذوا يضحكون معا من الشيوخ ٠

وفى حادثة ثالثة ، أنحى باللائمة على أحد العلماء على قرار معين اتخذه بانهاء احدى الزيجات ٠ فوضع الأمير الشيخ فى الزنزانة فى سجن للفلاحين الذين لم يتمكنوا من سداد ما عليهم من ديون ٠ ولم يطلق البك سراح الشيخ ، الا حين تدخل على الصعيدى ، وهو شيخ ذو نفوذ ،

بالصراخ فيه وسبه (١٧٣) ٠ لقد كان تدين المماليك أكثر تجليا اذا ما قورن بالعساكر العثمانيين ، الذين كانوا سيئى السمعة بسبب تراخيهم فى أمور الدين ٠ وكذلك التزم المماليك بصيغة فى الاسلام كان ينادى بها ويرفع لواءها العلماء المصريون ، كما برز الدليل على ذلك فى حادثة وقعت عام ١٧١١ م ، حين ظهر واعظ تركى فى مسجد السلطان المؤيد فى القاهرة ، وهاجم بشراسة ايمان المصريين بالأولياء - فبينما أيد الخطيب الجنود الأتراك بالكتائب السبع فى الحامية العثمانية، وقف أمراء المماليك الى جانب العلماء المصريين ، وأخيرا أرسلوا بالواعظ الى المنفى (١٧٤) ٠

الى أى حد كان العنصر والوعى العنصرى (الجنسية) شيئا هاما فى مجتمع المماليك ؟

وفقا لما لدينا من معلومات ، لا يمكن سوى وضع تقييم عام جدا للتركيب العنصرى للمجتمع المملوكى ٠ ذلك أن المصادر لا تذكر سوى عنصر أو أصل الأمير ٠ ومعظم المماليك كانوا من الشركس والجورجيين والأكراد والبوسنيين والألبان ، بل لقد ورد ذكر عدد من الأناضوليين (الروم) والأرمن ، بل واثنين من اليهود تحولا للاسلام (١٧٥) ٠ وفى القرن الثامن عشر ، صار من الأمور الأكثر عسرا تحديد المماليك على أسس عنصرية أو عرقية ٠ ومع ذلك ، فقد كان من المتوقع أن يكونوا من أجناس معينة دون غيرها ، كما يبين حديث الجبرتى الذى يفيد أنه : حين غزا حسن باشا مصر لاعادة تثبيت السلطة العثمانية فى ١٧٨٦ لم ينجح فى السيطرة على الصعيد ، حيث كان ابراهيم ومراد يقاومانه ٠ وبعد رحيل حسن المفاجىء ، أجبر خليفه ، اسماعيل بك على أن يحث تجار الرقيق على توريد المماليك ٠ ولأن الوقت لم يكن كافيا ، لم يقدم لهؤلاء المماليك سوى التدريب العسكرى مهملا تعليمهم الاسلامى ٠ وينتقده الجبرتى على ذلك ، ويضيف أنهم كانوا مماليك سيئى السلوك من أجناس غير معتادة من جبال الروميلى (*) والبانيا (١٧٦) ٠

ان معنى التضامن العنصرى يظهر فى كتاب الجبرتى ، وانما نادرا ما يكون النظر الى العلاقة داخل مجتمع المماليك فى حد ذاته ٠ اذ كانت

(*) البلقان - (المراجع) ٠

الصراعات بين المماليك دائما صراعات تعتمد على العصـــبة من حيث طبيعتها . وأحيانا كان المماليك يحبذون أناسا من جوار عنصرى معين . وهكذا ، ففى معركة خطرة نشبت فى الأزهر فى أبريل ، عام ١٧٩٩ بين الطلبة السوريين والطلبة الأتراك والعلماء ، ساند الأمراء الأتراك بسبب الجنسية . وتقدم نفس هذه العاطفة العنصرية كسبب لشرح الاحترام الذى يبديه المماليك نحو خطيب بوسنى (١٧٧) . أما أقوى عامل جعل المماليك متماسكين معا فى ترابط فهو المصلحة الذاتية . ومع ذلك ، يمكن تمييز خلق واضح فى اتجاهاتهم وأفعالهم الجماعية . وأول هذا النسق الخلقى وأهمه هو اعتزازهم كنخبة محاربة ، وولاؤهم لبيت المماليك . وثانى هذه الأمور ارتباط المماليك بمصر ، الذى كان قويا ، كما كان هو الدافع وراء الكثير من أعمالهم .

وعلى عكس الفرق العثمانية ، لم تكن للمماليك جذور خارج مصر ، التى كانت وطنهم الوحيد . فكان الأمراء دائما يفضلون الاقامة فى مصر عن أن يقبلوا ترقية فى أى مكان آخر ، لأن مغادرة مصر كانت تعتبر بمثابة الذهاب الى المنفى . حتى فى اسطنبول ، كان يشعر البك المملوكى أنه مقتلع من جذوره ووحيد (١٧٨) .

ثالثا كان هناك ، فى الوعى الجمعى لدى المماليك كراهية كامنة نحو العثمانيين ، نادرا ما طفت على السطح . ولم تظهر بوضوح الا بسبب على بك الكبير ، الذى كان يطمح الى استرداد السلطنة المملوكية . غير أن الكراهية المتبادلة وانعدام الثقة من نواح عدة كانت واضحة من خلال عدة أحداث واشارات (١٧٩) . وكان وعى المماليك العرقى (العنصرى) غير واضح ، وقد ضعفت الشخصية الشركسية الى حد كبير فى القرن الثامن عشر لكى تحل محلها شخصية مملوكية أكثر عمومية . غير أن الفجوة الاجتماعية بين المماليك (من جميع الأصول) والأتراك العثمانيين تعمقت . ولا يوجد من يصف هذه الفجوة أفضل من الجبرتى . اذ تبين الفقرة التالية من كتابه بوضوح كيف كان المماليك جذابين للنساء المصريات . (دائما ما يكون اتجاه النساء مؤشرا مفيدا) . من الواضح أن المصريين لم يعتبروهم مستغلين أجانب كما يظن بعض الدارسين المحدثين ، وانما

كأرستقراطية مصرية محترمة خالصة ، تقريبا كجزء لا يتجزأ من أولاد العرب ، على العكس من الأتراك ٠

ويكتب الجبرتى فى وصفه لمذبحة المماليك على يد عسكر محمد على عام ١٨١١ حيث تعدت كل الحدود فى قتل المصريين « أى أمراء المماليك » ٠ وكيف أنهم مزقوا ملابسهم ، دون أن تأخذهم الشفقة بأى انسان ، وبذلك يكشفون عن ضغينتهم الخفية ، واختلط المماليك مع العسكر الترك ٠ فهم يسكنون فى تجاور معا فى جميع الأحياء والمناطق ٠٠٠ وكان يجاورهم الكثيرون من قادة العسكر فى كل الأحياء ويتبعونهم ويعرفون جميع أفعالهم وأماكن تواجدهم ٠ واندمجوا هم واختلطوا بالمماليك بل كانوا صحبتهم فى الليل مظهرين لهم الصداقة والحب ، بينما كانت قلوبهم مليئة بالحقد والضغينة لهم أى للمماليك كلا بل لكل العرب ٠ ولا يمكن التعبير عن هذا الوضع بشكل أكثر جلاء ، فحسب ما يقوله الجبرتى : كان المماليك تقريبا مطابقين لأولاد العرب ، على النقيض التام مع العسكر الأتراك (١٨٠) ٠ ويستمر : وحين وقعت المذبحة أسرع الأتراك فى تحقيق أملهم وملأ السرور قلوبهم ٠ وعلى وجه الخصوص ، انتقموا فى أمور تتعلق بالنساء : لأنهم كانوا يرون الرجل البارز منهم اذا حاول الاقتران بأبسط امرأة فانها كانت تأبى بازدراء ، ولو أنه مارس ضغطا عليها لسعت الى اللجوء عند رجل يمكنه حمايتها ضده ٠ أو لربما استطاعت الهرب من منزلها ٠ واختفت لبضعة أشهر ٠ وكل هذا على العكس من حالة كان يمكن أن يطلب فيها مملوك من احط الأصول يدها للزواج ٠ عندها كانت ستقبل مباشرة ٠

لقد حدث حين عقد محمد على باشا سلاما مع مماليك الألفية (عصبة) وبحثوا عن منازلهم (أسراتهم) فان كثيرا من النساء اللاتى كن يختفين تجمعن ورحن يتنافسن للتزوج منهم وأعددن لهم الملابس وقبلن الهدايا منهم ٠٠٠ وكل هذا حدث على مرأى من الأتراك الذين كبتوا ذلك بكل غل فى صدورهم (١٨١) ٠

ولننهى مسالة المصطلحات المستخدمة فى هذا الموضوع نذكر أنه فى بداية الحكم العثمانى فى مصر كان العرب يطلقون على المماليك اسم

الترك ، وكان المؤرخون الأتراك يطلقون عليهم اسم الشركس • وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر لا تتفق المصادر العربية على المسمى الذى تطلقه عليهم ، لكنها لا تسميهم مماليك أبدا ، غير أن مصطلح (جنود) أو (أجناد) Jundis يرد فى المصادر التركية ليعنى المماليك دائما • وفى بعض الأحيان ، يبدو أن (طائفة الشركسية) أو الشركس كانت تعنى مماليك ، الا أن هذا لم يكن مؤكدا ولا واضحا ، والجبرتى يشير لهم بجنس المماليك ويسميهم « المصرية » أو « المصرلية » •



الفصـــل الثـــالث

العلاقة بين الدولة والعرب البدو

تقـــديم

لقد استخدم العديد من المؤرخين المحدثين مصادر عربية وأوربية لتقديم صورة مترابطة عن الأحداث السياسية الرئيسية المتعلقة بالحكم العثمانى فى مصر حتى عام ١٥٢٥ ٠

وعلى كل ، فان هذه الروايات تحذف عنصرا لعب دورا مركزيا فى الفترة العاصفة التى تلت الفتح ، حذفا تاما تقريبا ، وهذا العنصر هو البدو ، أو حسب استعمال المصادر المعاصرة (العربان) ٠

ان هذه الفجوة التى يحاول هذا الفصل سدها نجمت أساسا عن اهمال الباحثين للمصادر التركية ، التى اشتملت على معلومات كثيرة عن العرب (البدو) ٠ واذا ما أردنا أن نعد دراسة عن الفترات الأولى ، فمن المهم أن نلحق هذه الروايات بكتاب الحوليات التركى ، (ذكر الخلفاء والملوك المصرية) ٠ وهذا الكتاب رغم شـــهرته لم تتم دراسته دراســة كافية ٠ مؤلف هذا الكتاب هو عبد الصمد الدياربكرى ، وهو أحــد القضاة الذين أتوا مع السلطان سليم الأول، وظل فيها كقاض ومستشار٠ وتمتع الدياربكرى بميزة القرب الوثيق من مركز السلطة العثمانية فى مصر ، وهو شىء كان يكرهه ابن اياس كراهية تامة ، حيث انه كان متعاطفا مع المماليك الآفلين ٠ ويخبرنا الدياربكرى عن حالة الأحكـــام العثمانية واخبار الحكام بالتفصيل ٠ ويتركز اسهامه الرئيسى فى أنه

استمر من حيث انقطع كتاب ابن اياس ، ويصل ما يكتبه الى ٩٤٧ هـ / ١٥٤١ م ، رغم أن روايته التفصيلية لم تتعد ٩٣١هـ /١٥٢٥ م · ويتبين من رواية الدياربكرى أن الدور الذى لعبه البدو فى تلك السنوات المضطربة كان أكبر بكثير مما كان يدرك الكثيرون · أما الفجوة المتمثلة فى المدة فى الحوليات التفصيلية التى تلت الدياربكرى ، فقد ملأها جزئيا كتاب عرب غير مصريين من شوام ومن أهل الجزيرة العربية ، وكذلك عن طريق مواد الأرشيف والمحفوظات العثمانية وبخاصة مجموعة الفرمانات ـ Muhimme Defteri وهى محفوظة بترتيب زمنى فى اسطنبول ، وتبدأ من قرب نهاية حكم السلطان سليمان القانونى ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م (١) ويمكن لهذه الفرمانات أن تخبرنا بالكثير عن مشايخ العرب ، وبصفة رئيسية عن قواعدهم الادارية والمالية وكذلك معاملاتهم مع الدولة ·

ان العدد الكبير من المراسيم الذى أرسل الى القاهرة وما تحتويه يظهر أن المشايخ العرب ، فى القرن السادس عشر ، كانوا مشكلة أرقت السلطتين المحلية والمركزية أكثر من أية قضية أخرى ·

وسنورد بضع ملحوظات أولية عن العرب البدو · ان لفظ عرب فى المصادر المكتوبة باللغة العربية فى أواخر العصور الوسطى وفى الفترة العثمانية ، لا يستخدم تقريبا الا للاشارة الى البدو · غير أنه يجب التزام الحذر فى تطبيق لفظ البدو على القبائل العربية بالبلاد حتى لو كانوا بدوا فى تنظيمهم القبلى وتقاليدهم وعقليتهم · وهذا يرجع الى ظروف مصر الجغرافية والبيئية · ذلك أن العرب لم يكونوا بدوا رحلا بالمعنى الخالص للكلمة ، فالكثيرون منهم كانوا يتقنون الزراعة ·

وكان مجتمع العرب البدو فى مصر العثمانية يتكون من تنويعة كبيرة من القبائل والعشائر · ولم يكن ثمة شىء كثير تشترك فيه سوى التنظيم القبلى وادعاء الأصل العربى · لذا ، فان التعميم فيما يتعلق بالعرب من السهل أن يوقعنا فى الخطأ · وعلى سبيل المثال ، بينما كانت بعض القبائل أو العشائر تشتهر بأنها من قطاع الطرق، والمتمردين ، فان آخرين كانوا معروفين بالطاعة والخضوع ، ويقدمون خدمات حيوية للحكومة ·

بل ان القبيلة الواحدة كان يمكن أن تضم كلا من المشـــايخ الموالين والمتمردين • والأكثر من ذلك ، كما سيتضح لاحقا ، فان نفس القبيلة أو الزعيم يمكن أن يؤيد بالتبادل الحكومة أو بعض الأمراء أو العصبات ويعارضها وفقـــا للظروف • وتشرح هـــذه البراجماتية (النفعيـــة) التناقض الظاهر فى اتجاهات البدو وسياستهم • فبالرغم من العداوة بينهم وبين المماليك ، التي ترجع جذورها الى استيلاء المماليك على مصر وحكمها فى منتصف القرن الثالث عشر ، الا أنه توجد حالات من التعاون الوثيق بين هذين المجتمعين الميالين للحرب أثناء مصر العثمانية • وبالمثل ، فان سلوك العرب نحو العثمانيين لم يكن متسقا • ومع هذا ، فان هناك قاعدة بديهية للغاية ، تنطبق على مصر كما تنطبق على غيرها من البلاد ، وهى أن قوة البدو تعد مؤشرا على قوة الدولة ، اذ كلما كانت الحكومة قوية ، كانت القبائل العربية ضعيفة ، والعكس بالعكس •

دور العرب فى أحداث مصر السياسية ، ١٥١٦ – ١٥٢٤

حين كان السلطان المملوكى قنصوه الغورى ، يقوم بمحاولته اليائسة للاستعداد للمعركة الوشيكة مع سليم الأول ، حاول أن يدعم قواته وذلك بالحاق الفرسان العرب ، من جميع أنحاء مصر ، فجمع كشاف الأقاليم ومشـــايخ العرب وأمرهم بتجنيد ٢٠ر٠٠٠ من رجال القبـــائل العرب • وفشلت هذه الجهود ، عموما ، ولم يستفد منها سوى الكشاف والمشايخ ، (صفر ٢٩٢ هـ / مارس ١٥١٦ م) وفقا لما أورده ابن اياس •

وبعد هزيمة المماليك فى موقعة مرج دابق ، احتل العثمانيون الشام بأسره وتحركوا عبر صحراء سيناء، حيث واجهوا بعض المناوشة من جانب البدو • واستمر البدو فى سرقة وقتل الجنود الذين أسروهم بعد معركة الريدانية ، خارج القاهرة (فى ٢٣ يناير ١٥١٧) • ويكتب ابن اياس ، الذى كان يبغض البدو بغضا شديدا ، أنهم كان فى امكانهم تخريب البلاد بأكملها لولا أن تداركتها رحمة الله (٢) •

وفى صفر ٩٢٣ هـ / مارس ١٥١٧ م ، جاءت أعمال التمرد من مديرية الشرقية • وذكرت الأخبـــار أن البدو لا يهاجمون الجنود العثمانيين

فحسب ، وانما ينتهزون الموقف غير المستقر للاغارة على القرى والمدن ونهبها وحرقها ، ومن بين هذه المدن ، قليوب وقلقشندة ، وشبرا المنية (ربما شبرا الخيمة) على بعد بضعة أميال من القاهرة · فاضطر سليم الى ارسال قوة مكونة من ١٥٠٠ رجل لصدهم (٣) ·

وقام طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، بتنظيم المقاومة ، ببسالة رغم أن القسم الرئيسى من جيشه قد تحطم فى مرج دابق والريدانية · واخبر سليم أنه لا يزال هناك تحت امرته الكثير من البدو والمماليك المقاتلين بالفعل · وبعد آخر معركة شنها طومان باى ، وخسرها فى الجيزة (معركة المنوات) استعرض العثمانيون ٣٠٠ من رؤوس المماليك والبدو المذبوحين فى القاهرة (٤) · ففر طومان باى الى طروجة ، التي تقع فى أحد أقاليم البدو فى مديرية البحيرة ، مرتديا ملابس قبيلة هوارة القاطنة فى الصعيد· وهناك وجد ملجأ عند حسن بن مرعي شيخ العرب في المديرية ، وأخيه شكر · اذ كان الشيخ مدينا للسلطان بأفضال أسداها طومان باى حين كان يعمل داودار للسلطان الغورى (مساعده) · ومع ذلك ، فقد خان حسن مرعى طومان وسلمه لسليم ، الذى أمر بأن يشنق على باب زويلة فى القاهرة (٥) · ولم يكن من شأن هذا الغدر الا أن يزيد من الكراهية المتبادلة وانعدام الثقة بين العرب والمماليك ·

يروى الدياربكرى أن حسن بن مرعى كان يتفاخر بأن العثمانيين مدينون له بملك مصر · اذ انه ما لم يقم بتسليم طومان لسليم ، لتمكن السلطان المملوكي من طرد العثمانيين خارج مصر · غير أن شخصا ما قد استمع الى مرعى ، فحين أتى الى القلعة فى شهر رجب ٩٢٣ هـ / أغسطس ١٥١٧ م ، تم القبض عليه مع شيخين آخرين بأمر من سليم بالرغم من وعد بحسن المعاملة قطع له ·

ويلاحظ ابن اياس أن الناس قد فرحوا بما حاق بحسن بن مرعى من سوء الطالع ، لأن طومان باى كان حاكما عادلا متواضعا وشجاعا (٦) ·

وأثناء تلك الفترة ، كانت الشرقية أكثر أقاليم البلاد استعصاء على الحكم العثمانى ؛ بسبب الاضطرابات التى كان يحدثها البدو هناك • وكان أهم مثير للشغب هو الشيخ عبد الدايم بن بقار الذى تمرد ضد كل من المماليك والعثمانيين • اذ انه نهب القرى وهاجم القوافل القادمة من الشام أثناء حملة سليم وبعدها • كما سرق المماليك الذين التجأوا الى اقليمه ، واستولى على عوائد القرى المخصصة للوقف بطريقة غير قانونية (٧) • ولقد حاول خاير بك ، أول حاكم عثمانى لمصر ، أن يهدىء الشرقية وذلك باسباغ منصب شيخ العرب على أحمد بن بقار ، أبى عبد الدايم ، وكذلك عن طريق تعيين بيبرس ، أخى عبد الدايم نائبا عنه • ولقد مكنت المساعدة العسكرية التى قدمت لأحمد بن بقار من أن يطرد عبد الدايم من مقره فى منية الغمر •

عند هذه النقطة ، حاول عبد الدايم أن يتوافق مع الحكومة • فظهر أمام خاير بك فى القلعة حاملا منديل الأمان ، الذى أرسل اليه من خلال كشاف الأرياف • وأحضر هدايا من الخيول والأغنام والجمال ، وغادر مرتديا خلعة شرف (٨) •

وفى التاسع عشر من ذى القعدة ٩٢٣ هـ / الثالث من ديسمبر ١٥٧١ م ، تم احكام بوابات المدينة وأحيائها وبدأ بحث مضن عن حسن ابن مرعى الذى هرب من السجن عن طريق تحطيم أغلاله وتعليق نفسه فى جدار القلعة بواسطة أحد الحبال • وتطور البحث عن الشيخ الى حملة عسكرية ؛ خشية أن يتمكن من جمع العرب حوله ويتسبب فى احداث الاضطرابات • كذلك فان هربه جعل خاير بك يعجل بارسال خطاب الى السلطان فى اسطنبول • اذ كان البدوى قد أودع السجن بناء على أمر السلطان ، لذا كان هربه ، يسبب حرجا خاصا لخاير بك • ويتحدث الخطاب عن ارسال قوة من ٣٠٠ فرقة عثمانية وخمسمائة من المماليك تحت قيادة قايد باى ، وهو ضابط مملوكى ، ضد حسن بن مرعى ومعهم ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ من الموالين العرب على سبيل الدعم • فتوجهت الفرق نحو الجيزة ، وهى مزودة بالأسلحة النارية الصغيرة والمدافع لصد البدو الذين كانوا قد غزوا الاقليم من جهة الغرب بتحريض من حسن ،

وكانوا يضايقون بدو عزالة Azzala الذين كانوا يعيشون هناك (٩) ٠

ان ما قصر خاير في الابلاغ عنه هو أن الحملة واجهت مصاعب بسبب الشجار المستمر بين الجنود المماليك والجنود العثمانيين ، مما أدى الى أن هدد الجنود العثمانيون بأن يقتلوا قائدهم المملوكى ، فاقترح الشيخ حماد رئيس العزالة فى الجيزة ، على خاير بك بأن يسترجع جيشه ، لأنه كان يشك فى قدرة جيش الحكومة المفكك على هزيمة ٢٠٫٠٠٠ من البدو (١٠) ٠

ومع ذلك ، ففى التاسع من ذى الحجة ٩٢٣ / الثالث والعشرين من ديسمبر ، ١٥١٧ ، هاجم الجيش العثمانى البدو فى مديرية البحيرة ، ودفعوا بهم نحو الغرب ٠ وحاول حسن بن مرعى اقناع الباشا بأنه لم يخطط للتمرد وأن دافعه هو ثأره مع اسماعيل ابن أخى الجوالى ، وهو شيخ عربى منافس له ٠ كما أرسل حسن أخاه (شكر) برسالة شخصية الى خاير بك ٠ فقبض قايت (*) باى وهو أحد أمراء المماليك على شكر ، فورا حين اشتبه فى أنها حيلة من تلك التى عرفت عن البدو ٠ غير أن حسن ابن مرعى ظل مطلق السراح ٠ وأخيرا ، وافق خاير بك على منح الشيخ العربى الأمان (١١) ، وهى حركة بارعة من جانب الحاكم ، مادامت الشرقية قد وقعت مرة أخرى فى الاضطرابات٠ ذلك أن عبد الدايم بن بقار استأنف أعماله الخبيثة مرة أخرى ، وذلك بقطع كل اتصال بين القرى والاغارة عليها ٠ فراجع قايت باى فرقه الشركسية ؛ حيث انه قد أمر بقيادة قوة ضد عبد الدايم ، فلما وجد أن هذه القوة تفتقر الى السلاح والخيل ألغى الهجوم ٠ وعلى أية حال ، فان استعراض القوة فى حد ذاته ، ردع البدو ٠ وحاول بيبرس بن بقار ، بمساعدة أحد مشايخ الصوفية ، أبو الحسن بن أبى العباس الغمرى ، أن يخرج بحل توفيقى بين أخيه عبد الدايم وأبيه أحمد ٠ ويبدو أن ظهور قبيلة بدوية أخرى على مسرح الأحداث ، شجع عرب الشرقية على انهاء حربهم الثائرة (١٢) ٠ وكان القادمون الجدد هم عرب السوالم ، القادمون من الشمال ، وعلى الفور

(*) تكتب احيانا قايد ، والصيغتان تترددان في الكتب العربية ٠

قام بنو بقار بمطاردتهم · وكان عرب السوالم أيضا يصحبهم عرب من جبل نابلس فى فلسطين ، فروا من الحكم الجائر الذى كان يحكم به جانبردى الغزالى الشـــام · وحين وصـــل الســـوالم الى بركة الحج والمطرية ، بجوار القاهرة ، قام قايت باى بصدهم (١٣) ·

ومرة أخرى ، دعى عبد الدايم للحضور الى خاير بك ففعل ذلك وهو يرتدى منديل الأمان · وما از علم أحمد بذلك حتى هرع الى القلعة ، والقى خطبة طويلة أمام الحاكم ، استنكر فيها أفعال ابنه الشريرة ، وقال انه أفضل من يعرفه · كما حذر خاير بك أن عبد الدايم ، اذا تم اطلاق سراحه ، فان خاير بك سيتحمل المسئولية الأخلاقية · كما أقنع قائد القلعة وأمراء آخرون خاير بك بسجن عبد الدايم وأربعين من رفاقه ، وذلك بأن استخدموا حججا مشابهة لتلك التى استخدمها أحمد · وكذلك تمت مصادرة أموال عبد الدايم ، بما فيها سواقيه وثروته الحيوانية · وفى الأسابيع التالية ، قتل الكثير من أتباع الشيخ شنقا ، أو بالخازوق والشق الى شطرين ، وبعد ذلك تم عرض أجسادهم فى أجزاء مختلفة من القاهرة (١٤) · وفى العشرين من ربيع أول ، عام ٩٢٥ / الثانى والعشرين من مارس عام ١٥١٩ ، قتل اينال السيفى طراباى كاشف الغربية حسن ابن مرعى وأخاه شكر ، وبذلك انتقم لخيانتهما لطومان باى · اذ دعا الكاشف الشيخين لحضور حفل ، ولما سكرا ، هوى عليهما عدد من المماليك الشراكسة وقتلوهما · ويقال ان أحد القتلة ، وصل به الأمر الى حد شرب دم الشيخ ، كما مثلوا بجثتيهما · وقيل أيضا ان رأسيهما علقا على نفس الحصان الذى أخذ على ظهره طومان باى الى القاهرة ، بعد الغدر به · وفى العاصمة ، عرض رأسا الشيخين عند باب النصر · وكذلك قتل أخ ثالث لهما كان يسكن فى القاهرة · ومن المفهوم ، أن الشركس ، وعائلة طومان باى ، استعذبوا طعم الانتقام (١٥) ·

وبعد ذلك بوقت قصير ، قتل كاشف قليوب على الأسمر بن أبى الشوارب بنفس الحيلة بالضبط · فعند اجتماع المشايخ العرب ، صاح حسام الدين بن بغداد بغضب متهما المماليك بأنهم يقتلون البدو لولائهم للعثمانيين · فقرر المشايخ أنه اذا ما استمر الكشاف في اضطهادهم ،

فلسوف يحجمون عن التعاون مع الكشاف · فامر خاير بك الكشاف بان يدعوا العرب لشأنهم ، املا منه فى تهدئتهم · وحين اتهمت عائلة الشيخ المقتول الكاشف بقتله بلا ذنب ، دافع الكاشف عن براءته وشنق أحد مماليكه ، زاعما أنه ارتكب الجريمة · ويشك الدياربكرى فى أن هذا المملوك قد أخذ ككبش فداء عن سيده (١٦) ·

وفى بداية صفر عام ٩٢٦ هـ / يناير ١٥٢٠ ، تصرفت الحكومه بقسوة مع السوالم ، الذى كانوا يحدثون فوضى فى الشرقية ·

ويكتب الدياربكرى ، وهو من حاشية خاير بك ، أن الحاكم تجول فى المديرية ، متظاهرا بالصيد ، ولكن من الناحية الفعلية كى يشرف على العمليات التى كانت تجرى ضد السوالم · فتم ترتيب يجعل الكشاف فى منطقة بلبيس ، يدعون رؤساء السوالم الى وليمة ، وعندها يقتلهم الجنود · فقتل الكاشف بهذه الطريقة ١٢ من مشايخ السوالم · ويقول الدياربكرى ، ان وجود خاير بك فى المديرية تسبب فى بؤس عظيم للقرويين : اذ أعطاه المشايخ العرب أموالا ، و ٢٠٠٠ رأس من الغنم والخيول التى أخذوها من الفلاحين (١٧) ·

وأثناء هاجم العرب من منطقة بلبيس ، رجال القبائل من السوالم وحملو، معهم الكثير من الغنائم والكثير من النساء والأطفال وكان ممن خططوا لهذه العملية ، الزينى بركات بن موسى وهو موظف كبير ، كان محتسبا تحت حكم سلاطين المماليك وكذلك العثمانيين · وعين فى عام ١٩٢٤ هـ /١٥١٨ ــ ١٥١٩ م ، أمير قافلة الحج المصرى كما أسندت اليه مهام حساسة ذات علاقة بشئون البدو ، قام بها فتسبب عن نتائج وخيمة (١٨) اذ اغار ابن موسى على مضارب السوالم ، فهدم مساكنهم ، وأخذ نساءهم وأطفالهم بعيدا ، بمن فى ذلك أبرز ٦٠ شخصا فى القبيلة · وفى العاشر من صفر ٩٢٦ هـ / الحادى والثلاثين من يناير ١٥٢٠ م · دخل ابن موسى القاهرة مرتديا ملابس بدو الهوارة · وحملت رؤوس مشايخ السوالم على رماح أمام حصانه · وكانت خلفه على ظهر حصان ست جثث مسلوخة لمشايخ السوالم مثبتة بالقش وعليها ملابس بدوية (١٩) ·

وبعد عودة خاير بك مباشرة الى القلعة ، عرف أن السوالم الغاضبين قد خربوا مدينة الصالحية وبضع قرى مجاورة ، وذلك باضرام النيران فيها ، كما أحاطوا بقوات اياس ، الكاشف المسئول عن سياسة القبضة الحديدية . فأنحى خاير باللائمة على اياس ، قائلا انه لم يكن يريد شيئا سوى طرد السوالم من البلاد . والآن ، بعد هذه المعاملة القاسية ، فلسوف يقاتلون بغضب . ويضيف الدياربكرى أن القبيلة البدوية التى يكون مشايخها فى الأسر ستكون هادئة ، ولكن حين يقتلون ، وتسبى نساؤهم فمن المؤكد أن البدو سوف يقاتلون (٢٠) . كذلك كان من المطلوب تهدئة الشرقية بسبب خشية خاير بك من أن ينتشر تمرد جانبردى الغزالى حاكم الشام فيصل الى مصر . فأرسلت قوة ، بقيادة كاشف البحيرة ، وهو رجل حساس متواضع ، لوقف تعديات البدو . وبعد أن أخبر السوالم أن مقاومة الدولة شيء ميؤوس منه ، وعد بأنهم اذا ما تعاونوا مع الحكومة ، فان واحدا منهم سيتولى منصبا حكوميا ولسوف يستمتع الجميع بالأمن . ثم سمى خاير بك عدة رؤساء من السوالم بمشايخ العرب محل رفاقهم المذبوحين وأطلق سراح نجم شيخ عرب العايد الذى سجن لتحالفه مع السوالم . بل أكثر من ذلك ، فقد أمر خاير بك المشايخ العرب أن يستعدوا لغزو محتمل قد يقوم به جانبردى الغزالى ، وأخبرهم بأن يهاجموا قواته فى نقاط استراتيجية (٢١) . وعلى أية حال ، لم يعد الهدوء الى الشرقية . اذ نهب البدو قاطية Qatya فى سيناء ، والخطارة على الحدود الشرقية من الاقليم (الولاية) ، وكانوا يتحركون نحو الصالحية . فلما أحس الشيخ أحمد بن بقار بالخطر ، أرسل بنسائه الى القاهرة وأخفى أمواله وأقمشته وحيواناته وطيوره . ومرة أخرى ، يلاحظ الدياربكرى أن القوات التى أرسلت لصد البدو تسببت فى قدر أكبر من الضرر مما فعله البدو وذلك بأخذ ممتلكات الفلاحين ونسائهم وأطفالهم (٢٢) . وكان هذا كله يقع فى خضم أنباء بوقوع غزو وشيك يقوم به جانبردى الغزالى . وعلى ما يبدو ، لم يكن فى خطة المتمرد الشامى أن يقود هجوما على مصر ، غير أنه أرسل ببدو وأكراد كقوة استطلاع . وقاتل الغزاة البدو المؤيدون للغزالى العرب المحليين فى حدود مصر الشرقية . فشن العرب هجوما ليليا على بدو

اقليم نابلس بقيادة طراباى بن كراجا ، واستولوا على جمالهم وخيولهم كغنائم (٢٣) ٠

ولم يرتكب سوى شيخ عربى واحد الخطأ القاتل بمساندة الغزالى ٠ اذ اتصل أحمد بن قاسم أبو الشوارب من قبيلة بنى بقار بالمتمرد ، على أمل أن يكون رئيسا للبدو فى اقليمه ٠ وحين سحق العثمانيون تمرد الغزالى فى فبراير عام ١٥٢١ ، ندم الشيخ على لعبته وعفا خاير بك عنه ٠ ومع ذلك ، فقد كان الحاكم متحفزا لأول زلة يقع فيها الشيخ ، وحين حدثت هذه الزلة ، أمر الحاكم كاشف الشرقية باعدامه (٢٤) ٠

وكالمعتاد ، كان اضطراب البدو مؤشرا صحيحا على عدم الاستقرار السياسى وكان البدو ، فى ذلك الوقت ، فى حالة من الاثارة الدائمة ٠ فهرب بيبرس بن بقار الى سيناء لأنه خشى من أن يوجه اليه اللوم على حدوث الاضطرابات٠وصار أحمد بن بقار هو المتحدث باسم عرب الشرقية٠ فقاد ابن موسى ، مرة أخرى ، قوة الى الاقليم (الولاية) لقمع البدو لكى يحاول أن يضع حدا للقتال الدائر بين القبائل نفسها ٠

وفى الغرب ، غزا عرب من الجبل الأخضر ، اقليم (ولاية) البحيرة ونهبوا أهل البلاد (٢٥) ٠

وسوف نتذكر أنه بعد وفاة خاير بك ثار جانم السيفى واينال ، وهما اثنان من أمراء المماليك ، وانضم اليهما الكثير من الشركس والعرب٠ ووصل متمردو البدو الى بركة الحبش ، على بعد حوالى خمسة أميال جنوب القاهرة ، وكان بعضهم قد عسكر بالفعل فى الجيزة ٠ فهرب الكثيرون من الفلاحين الى المدينة حيث اشتد الذعر بالأهالى ، الذين بدأوا فى اخفاء ممتلكاتهم ، واغلاق محالهم حتى هددهم الباشا بالشنق ما لم يتوقفوا عن ذلك (٢٦) ٠

وأعطى بركات بن موسى لقب سنجق بك Sanjaq beyi وهو لقب عسكرى ؛ لكى يقوى وضع الحكومة ٠ فذهب الى الشرقية حيث عبأ عرب بنى حرام وقبائل بنى وائل الذين أحضرهم الى أطراف المدينة ٠ فلم يؤد

هذا الا لزيادة خوف الناس (٢٧) · ويسجل الدياربكرى دهشة القاهريين من منظر جيش من البدو · فكان الناس يعلقون ساخرين : « كنا نظن أن العثمانيين أعقل من أن يشكلوا جيشا من البدو » · اذ لا يقاتل العرب قتالا جيدا الا من أجل معاشهم وشرف أسرهم· والا فانهم يقفون ويتفرجون حتى يروا من هو الفائز ، ثم ينهبون ممتلكات الخاسر (٢٨) ·

وكان قائد فرق الموالين هو جانم الحمزاوى ، وهو أحد وجوه تلك الفترة نفوذا وتنوعا · ورغم أنه ينحدر عن أصل مملوكى ، الا أنه امتزج كلية فى المجتمع والثقافة العثمانيين ، غير أن الدياربكرى يشير اليه باعتباره مندوب الباشا (كتخدا) · كما قام بالكثير من الرحلات الى اسطيبول · وكذلك عمل كأمير للحج ، وكان يعد خبيرا فى شئون البدو · فكان مشايخ البدو يتجهون اليه مرارا ليعرضوا عليه مشكلاتهم (٢٩) ·

وحين أدرك جانم مدى عدم استعداد فرقه للمعركة ، توقف عن القتال ·

أما ابن موسى فكان فى حالة أكثر سوءا بكثير · اذ اتفق مع العرب أن يعطيهم أربعة رؤوس من الغنم يوميا ، و ٢٠٫٠٠٠ رغيف من الخبز ، وعلفا لخيلهم · غير أن مؤنه نفدت بعد بضعة أيام ، وظل محافظا على وعده فقط مع الشخصيات البارزة من البدو · وبناء على ذلك ، هدد الآخرون بقتله (٣٠) ·

وكان اينال ، الذى كان يؤيده العديد من البدو ، متجها فى طريقه لمساعدة جانم · وفى الجيزة ، سرق حماد شيخ عرب عزالة متعلقاته · وذهب جميع مشايخ العرب البارزين : أحمد بن بقار وعشرة من أبنائه ، وحسام الدين بن بغداد من المنوفية ، واسماعيل بن الجوائلى — كلهم ذهبوا الى الحاكم للتعبير عن ولائهم له · ومنحوا جميعا الخلع · وقد لوحظ غياب على بن عمر ، رئيس الهوارة ، وحاكم الصعيد (٣١) · وحاول ابن موسى ان يتفاوض مع المتمردين ، بل ألمح انه يتفاوض سرا مع

المماليك • ومع ذلك تم قتله ، بأمر من جانم السيفى • وكان هناك اعتقاد بأن أحمد بن بقار يحمل ضغينة نحوه ، وحرض على قتله فى ٢٧ رجب ، ٩٢٩ هـ /١٥ يونيو ١٥٢٣ (٣٢) •

ولم تعد هناك امكانية لتأخير الهجوم على المتمردين • فكما جرت العادة فى مصر العثمانية ، حسمت المدافع نتيجة المعركة ، لأن البدو اختفوا بمجرد اطلاق المدافع ، وهو ما كانوا يخافون منه ، تاركين المؤيدين من المماليك المتمردين وحدهم فى الميدان •

وبعد أن سحق التمرد ، أسرع البدو فى مطاردة المماليك الفارين وقطعوا رأس ٥٠٠ منهم وسلموها للعثمانيين • فقام العثمانيون بعرضها على أبواب القاهرة (٣٣) •

وفى الخامس عشر من شعبان ٩٢٩ هـ / التاسع والعشرين من يونيو ١٥٢٣ ، وصل موظف رفيع الرتبة من اسطنبول بفرمانات بتنصيب أحمد بن بقار وعلى بن عمر • ومن الواضح أن السلطان لم يكن قد علم بعد عن ميول الأخير التمردية •

توقف المسئول الكبير عند منية الغمر ، حيث استضافه أحمد بن بقار وأكرمه ببذخ • وبعد ذلك بوقت قصير ، أحضر الشيخ ضرائب الشرقية بالكامل للباشا • ويقول الدياربكرى انه رغم أن الشيخ تسبب فى الكثير من المتاعب كما كان مسئولا عن موت ابن موسى ، لم يكن الباشا ليستطيع أن يتسـبب له فى أى أذى بسـبب الفرمانات والتكريم الذى قد تلقاه توا (٣٤) • واستمرت اضطرابات البدو فى مديريتى الشرقية والغربية • ومرة أخرى طلب شيخ عرب البحيرة العون لمواجهة الغزاة من الغرب • وفى الشرقية ، تلقى البدو صفعة عنيفة على يد الكاشف اذ هاجمهم بالمدافع وقتل ما يزيد على ٤٠٠ منهم • وكان بدو عزالة يتحركون بعيدا عن جوار العاصمة نحو الصعيد ، تتبعهم قوة تتألف من ٦٠٠ من الرجال ، كان يرشدهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى (٣٢) •

لقد دأب المؤرخون غالبا على غض النظر تماما عن الدور المهم الذى لعبه البدو في تمرد أحمد باشا « الخائن » ، فمنذ البداية ، تعاون أحمد

و.بعديد من مشايخ العرب ، وعلى الأخص على بن عمر ، معا ، اذ كان على البدو أن يبينوا ما اذا كانوا قد أخذوا جانب أحمد الباشا ذى اليد العليا أم لا • فذهب على بن عمر الى العاصمة ليعلن عن تأييده لأحمد باشا ، وبلا شك ، لمناقشة حركتهم التالية معه • وكذلك فعل نجم شيخ عايض ، لأنه كان قد فقد حظوة النظام السابق • فأطلق أحمد الباشا عبد الدايم ابن بقار من السجن ، وأعاد تعيينه فى مديرية الشرقية ، ووعده بالمزيد من الترقى • كما عين أحمد بن بقار شيخ عرب (٣٦) • ومن ناحية أخرى ، فر ابن أخى الجويلى مع عائلته نحو الغرب (٣٧) • وكان هذا الرجل شيخ البحيرة ويظهر ولاءه للعثمانيين • ولما غضب أحمد باشا لفراره ، ألقى باللوم على مستشاريه لشئون البدو • لقد كانت واحدة من أولى خطوات أحمد باشا هى أن يحاول التخلص من الانكشارية • وقبل أن يعلن عصيانه ، أرسل بسبعين منهم الى اسطنبول • وحين وصل الانكشارية الى الميناء البحرى ، ميناء رشيد علموا بأمر التمرد ، وقرروا العودة لمساندة رفاقهم فى القلعة ، التى كانت محاصرة • وحاول الانكشارية أن يعودوا دون أن يلحظهم أحد ، ولكن عندما مروا بقليوب ، رآهم ابن أبى الشوارب ، شيخ عرب القليوبية ونصب لهم كمينا وسلمهم الى أحمد باشا • فأمر بقطع رؤوسهم (٣٨) •

بعد الانقلاب المضاد الذى قامت به جماعة من الأمراء الموالين بقيادة جانم الحمزاوى ، ومحمد بك ، هرب أحمد باشا الى الشرقية ، وهناك أكرم أحمد بن بقار وفادته ووعد بمساندته • وحين اتصل محمد بك بالشـــيخ البدوى وحذره من أن يأوى متمردا ، أجاب ابن بقار اجابة دبلوماسية بأن كرم الضيافة البدوية لا يسمح له بأن يقتل ضيفه أو يقوم بتسليمه الى ملاحقيه • فاذا أراد محمد بك أن يأسر محمد باشا ، فعليه أن يأتى له ، كما قال • وهكذا أمن ابن بقار نفسه ضد جميع الأحداث المحتملة ، على الأقل فى الوقت الحاضر (٣٩) • فأرسل محمد بك جانم الحمزاوى على رأس قـوة ، غير أن جانم تردد ، بســبب التوترات بين العثمانيين والمماليك ومؤيدى أحمد باشا الكثيرين • فعين محمد بك قاضيا ليحل محله فى القلعة وقاد الجيش بنفسه • ومرة أخرى ، تلاشى البدو حين انطلقت المدافع • فتم أسر أحمد باشا ، وقطع رأسه فى السادس من

مارس عام ١٥٢٤ ، بعد الاقامة بين العرب فى الشرقية لمدة ثلاثة عشر يومـا (٤٠) ٠

لقد تم تجاهل استمرار القبائل العربية فى تحدى الدولة العثمانية بعد تمرد أحمد باشا تجاهلا تاما ٠ ومن الناحية السياسية ، لم تبد تهديداتهم بنفس خطورة أفعال أحمد باشا ، أما من الناحية العسكرية ، فان البدو تقريبا أنهكوا القوات العثمانية فى مصر (٤١) ٠

ويصف الدياربكرى البدو بأنهم كانوا فى حالة من النشوة المفرطة ٠ اذ تجمع عرب الفيوم والصـعيد وأقسـموا على أن يظلوا متحدين حتى يستولوا على القاهرة أولا ثم بقية البلاد ، ذلك أنهم اعتقدوا أنه من اليسير هزيمة الفرق العثمانية القليلة التى مازالت فى القاهرة ٠ وحين وصلت الطليعة البدوية الى الجيزة سار جانم الحمزاوى الذى لا يكل ، لملاقاتهم ٠ ومـرة أخرى ، لم ينسـق الشـيخ حماد ، شـيخ عزالة الحاذق ، وراء المتحمسين ٠ فاتصل بكاشف الجيزة ، ووعده بأن يحل الائتلاف البدوى دون اراقة دماء (٤٢) ٠

وأثناء ذلك طلبت الوحدات التى أرسلت الى الصعيد تدعيما ٠ فألحق قاسم باشـا بالجيش جنودا من طراز أدنى ـ كأبناء المماليك ، والأتراك أو الأناضوليين Ervam ٠ لقد فعل ذلك حين وجد نفسه فى مسيس الحاجة الى جنود ٠ فأرسل الباشا قوارب فى أعلى النيل تحمل البنادق والمدافع ، للتخفيف عن الوحدات المحاصرة ٠

وفى مكان آخر كان البدو يقطعون الاتصالات فى سيناء ٠ وفى رجب من عام ٩٣٠ هـ/ يونيو ١٥٢٤ م ، تم ارسال قوات حكومية الى ستة مواقع مختلفة للتعـامل مع الانقلاب البدوى ٠ اذ ان القوات العثمانية نشرت نفسها على شكل فرق صغيرة (٤٣) ٠ ذلك أنه ما دامت غالبية الجنود كانوا يقاتلون البدو فى المديريات ، فلقد تبقى عدد غير كاف ليقوم بعمل الشرطة فى العاصمة حيث نشط اللصوص وقطاع الطرق (٤٤) ٠

ويشعر الدياربكرى بالاحتقار نحو أحد السناجق البكوات كان قد تم ارساله الى الشرقية ٠ ذلك أنه بعد أن فقد الكثير من رجاله ، طلب

المساعدة ، مدعيا أنه لم يكن ، يعرف كيف يقاتل البدو • وعاد أخيرا ، مهيض الجناح الى القاهرة (٤٥) ، حيث كان الناس يقولون ان العثمانية تنقصهم قوة بشرية كافية تمكنهم من التمسك بمصر وأنهم على شك التخلى عن الولاية • فقام قاسم باشا باستعراض قوة جبارة فى شوارع العاصمة كى يبدد هذه الشائعة • وفى شعبان ٩٣٠ هـ / يوليو ١٥٢٤ م ، أتت تقارير بأن الجيش يصد العرب (البدو) فى الصعيد (٤٧) • وفى ذى القعدة ٩٣٠ هـ / سبتمبر ١٥٢٤ م ، وصل مدد من الانكشارية وحراس الحصون (هيسار ارليرى) hesar erleri من اسطنبول ، كما وصل ثلاثة سناجق بكوات مع فرقهم من الأناضول • وتقرر أن يحل محل الكشاف فى المديريات سناجق بكوات عثمانيون ؛ كى يكبحوا البدو بمزيد من الفعالية (٤٩) • وصار واضحا أن تطلعات العرب (البدو) للسيطرة على البلاد وطرد العثمانيين خارجها ما هى الا أضغاث أحلام • فبالرغم من تفوق البدو العددى على العثمانيين ، الا أنهم لم تكن أمامهم أية فرصة فى مواجهة الأسلحة الأكثر تطورا والانضباط الأفضل ، وموارد الدولة الكبيرة • ولم يقم أحد بتقييم هذا الموقف أفضل مما فعل مصطفى على ، المؤرخ والشاعر والكاتب العثمانى ، الذى ترك لنا وصفا حيا للقاهرة غير أن كلماته التى كتبت عام ١٥٩٩ م ، تنطبق على الأحوال السائدة فى عام ١٥٢٤ م (*) : بالنظر الى قوات سلطان الروم (السلطان العثمانى) الجبارة ووجود عدة آلاف من البدو غير الموالين فى القاهرة وحدها ، فمن أغرب الأشياء أن يحدث عدد ضئيل من الجنود العثمانيين أثرا كبيرا عظيما حقا • ذلك أن مجموع الجنود العثمانيين الذين يتلقون رواتب فى مصر لم يزد على عشرة آلاف جندى،ومع أن العرب البدو البغضاء حول البلاد أكثر من عدة آلاف الا أن الله العلى قد أحال وحدتهم الى تفكك فقمعهم العثمانيون • فصارت القبائل المختلفة أعداء لبعضها بعضا ، بل وأتت بعض القبائل لتعلن خضوعها لحاكم مصر ، وبهذا التراجع يهزمون أعداءهم ويقتلون الكثيرين منهم • وما لم يكن الحال هكذا ولولا أن تحول اتحادهم الى فرقة ، وانفصم اتفاقهم ، لم يكن من الممكن حكم البر المصرى بأقل من مائة ألف جندى • وهذا فضل آخر لله القدير على السلطان العثمانى (٥٠) •

(*) اى ان النص التالى فى فترة زمنية لاحقة •

وفى ذى الحجة ٩٣٧ هـ / سبتمبر ١٥٢٤ ، كان التقييم فى اسطنبول أن الموقف فى مصر أصبح تحت السيطرة بصفة عامة . فتم استدعاء الانكشارية والسناجق البكوات من المديريات ، وأمروا بالعودة الى المقاطعات التركية من الدولة العثمانية . الصعيد فقط لم يكن قد ساده الهدوء بالكامل (٥١) . وفى التاسع من جمادى الآخرة ٩٣١هـ / الثانى من أبريل ، ١٥٢٥م ، وصل الى مصر ابراهيم باشا الصدر الأعظم واستعاد السلطة والمكانة العثمانية بالكامل . وكذلك حضر كبار البدو الى القاهرة ليقسموا يمين الولاء والطاعة له . فقبض ابراهيم مباشرة على ثلاثة من أبرز مشايخ العرب : على بن عمر شيخ الصعيد ، وأحمد بن بقار شيخ الشرقية ، وحسام الدين بن بغداد شيخ اقليم (ولاية) (*) المنوفية .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، شنق على بن عمر عند باب زويلة لاشتراكه مع أحمد باشا . كما كان على بن عمر يحمل بين جنبيه طموح أن يصبح حاكما مستقلا . ولقى أحمد بن بقار نفس المصير . مع أنه كما ذكرنا من قبل ، كان بصفة عامة مواليا للعثمانيين ، الا أنه اقترف الخطأ القاتل بايوائه للمتمرد ، وان كان ذلك على استحياء . أما ابن بغداد ، فقد أطلق سراحه ؛ لأن ابراهيم باشا كان مقتنعا بأنه لم يكن يتورط فى القيام بأية أنشطة معادية للعثمانيين (٥٢) .

ويكرس « قانونى نامه مصر » الذى وضعه ابراهيم باشا عدة فقرات للمشايخ العرب . فكانت السياسة العثمانية نحوهم مطابقة لسياستهم نحو المماليك . وبالرغم من تمرد العرب ، الا أن العثمانيين يفهمون أنهم لا غنى عنهم لحكم الريف ، فأدمجوهم فى البناء الادارى طبقا للمبادىء التى كانت سارية تحت حكم قايد باى السلطان المملوكى العظيم . فيعطى شيخ العرب نفس الوظائف والسلطة التى كانت للكاشف ، فالقانون ينص على أن هؤلاء المشايخ مثل الكشاف (الحكام الاقليميين) (٥٣) . لقد ذكرت الوثيقة عدة مشايخ عرب مشهورين لا يعزلون حتى بأمر بكوات مصر . واذا حدث أن فعلوا فعلا خاطئا ، فيجب رفع الأمر الى اسطنبول . ويسمح للباشا بأن يزيح أو يؤدب غيرهم من المشايخ العرب ، غير أنه يحظر عليه أن يتصرف بناء على الهوى أو الدوافع غير المبررة (٥٤) .

(*) استخدام عثمانى لاقاليم مصر ـ (المرجع) .

كما يمنع قانوننامه مصر بصفة خاصة ، البدو من أن يحتفظوا أو يؤووا عبيدا عسكريين (أى جنودا عثمانيين أو مماليك) (٥٥) .

وجهة النظر الرسمية عن مشايخ العربان في النصف الثانى من القرن السادس عشر

المصادر الرئيسية عن مشـايخ العربان فى القرن السادس عشر توجد فى الفرمانات الامبراطورية المحفوظة فى مجموعة دفاتر الأمور المهمـة « مهمى دفترى muhimme Defteri » فى محفوظات مكتب رئيس الوزراء ، (الصدر الأعظم) فى اسطنبول . وتضيف المصـادر العربية والتركية بعض التفاصيل .

ومن المفهوم أن المحفوظات تقدم عن المشايخ العرب ، الذين شغلوا مناصب ادارية مهمة ، أكثر بكثير مما تقدم عن القبائل العربية .

ومع ذلك ، يجب أن نتذكر ان المشايخ كانوا يدينون بمناصبهم كسادة للكثير من ريف مصر — لأسلحة رجال قبائلهم .

وتشير الوثائق الى العرب أى البدو ، بعبارات عامة ، وهم يذكرون دائما تقريبا كمثيرى شغب ، ومتمردين ، وباعتبارهم مصـــدرا دائما للازعاج بالنسبة للقرويين والدولة . ومن حين لآخر ، يتجاسرون على الأحياء التى توجد فى تخوم المدينة مثل القاهرة القديمة وبولاق (٥٦) . كما أنهم أحيانا ما يتسببون فى خسائر حقيقية فى الزراعة . فمثلا ، فى السابع والعشرين من رمضان عام٩٢٨هـ / العشرين من أغسطس ١٥٢٢م، هدم العرب جسرا ؛ مما أدى الى هبـوط منســـوب ميـــاه النيـــل الى ما يقرب من عشرين سنتيمترا تحت منسوبه المعتاد فى هذا الوقت من السنة ، ونتيجة لذلك ارتفعت فورا أسعار الحبوب (٥٧) . فكان البدو يعتبرون أخطر تهديد لأمن مصر الداخلى . وكان ضباط الجيش يكافأون بالترقية أو بالانتقال حالا ؛ للقتال ضد البدو وقطع رؤوس أكبر عدد ممكن منهم . غير أن القبائل كان فى امكانها أيضـــا أن توجه قواهـــا العسكرية ضد القبائل المعادية والمناوئة للحكومة ، كما بينا سابقا .

ولعب شيوخ البدو ورجال قبائلهم دورا شـديد الأهمية فى قمع تمرد السيباهية الذى وقع عام ١٦٠٩ م بقيادة محمد باشا . غير أنه حتى فى هذه الحالة ، كانت هناك رغبة شديدة للتمييز بين العرب والقوات العثمانيـة النظامية (٥٨) . ويجب التأكيـد على حقيقة أن الكثير من العرب ، أو ربما معظمهم ، لم يكونوا من البدو الرحل ، وانما بالأحرى أنصاف رحل ، أو فلاحون موسميون . فعلى سبيل المثال ، جاء الكثيرون من عرب الجبل الأخضر الى اقليم البحيرة سنويا لزراعة الأرض هناك : وكان عليهم أن يدفعوا ضرائب منتظمة (خراج) مقابل قطعانهم (٥٩) .

وظائف مشـــايخ العرب

كانت مناصب مشايخ العرب تعنى حرفيا أو بشكل أدق رئيس العرب . وكان هذا ارثا من أيام سلطنة المماليك . ثم صار حيويا للادارة المالية لمصر العثمانية . وبالرغم من انتفاضة العرب وما سببوه من فوضى ، الا أن « قانونى نامه مصر » الذى وضعه ابراهيم باشا أعاد التأكيد على دور المشايخ فى ادارة الريف (٦٠) . أولا وقبل كل شيء ، كان شيخ العرب ملتزما بجمع الضرائب نقدا، (وايضا على هيئة حبوب فى الصعيد) من الاقليم (الولاية) الواقع تحت سيطرته (٦١) . كما كان مسئولا عن الأمن العام والزراعة والأشغال العـامة ، وعلى الأخص ، نظام الرى المهم والحساس ، اذ كان عليه أن يحرص على أن تكون القنوات والسدود فى حالة جيدة (٦٢) .

فى الصعيد ، كان المشايخ يشرفون على اقراض التقاوى من مخازن الغلال الحكومية للفلاحين (٦٣) . وكانوا يبلغون عن التغيرات المناخية غير المعتادة ، مثل العواصف الباردة وأثرها على المحصول (٦٤) . وكان يساعد المشايخ فى ادارة أقاليمهم كتبة ومحاسبون وجباة ضرائب بعضهم من الذميين أى أهل الكتاب ؛ ولعلهم كانوا من الأقباط ، فكان المشايخ مسئولين عن حفظ الدفاتر التى تخضـــع للتفتيش من جـــانب السلطات العثمانية المحلية والمركزية . وفى الأمور المتعلقة بامتلاك الأراضى أو المنـــازعات حولها ، كان على الشيخ أن يطيع قرارات الطبراق قاديسىtoprq qadisi وهو قاضي متخصص في شئون الأرضي (٦٥) .

وتشير الفرمانات السلطانية الى مشايخ العرب كحكام أقاليم ولم تشر اليهم أبدا كزعماء لقبائلهم · بل ان احدى الوثائق تستخدم اصطلاح (أقاليم مشايهى) أى مشايخ الأقاليم ، وهو ما يعبر بدقة أكثر عن وظيفة المشايخ كما تراها الحكومات (٦٦) ·

وفى حالة غير معتادة ، الى حد ما ، أسند منصب شيخ اقليم البحيرة لضابط عثمانى من كتيبة المتفرقة · ولقد دفع هذا الضابط مبلغ ١٠ر٠٠٠ التونات (عملة ذهبية) ثمنا لهذا المنصب (٦٧) ·

ان المصادر العربية التى تحدثت عن هذه الفترة أكثر علما عن مجتمع البدو كما تعطى أسماء القبائل العربية (٦٨) · وعلى أية حال ، فمن الواضح ، أن الساطات فى اسطنبول ليست على دراية أو الفة بالقبائل العربية فى مصر ، كما يحتمل أنها لم تكن مهتمة بأسمائها أو أصولها · ذلك أن الأقاليم (الولايات) الوحيدة التى تذكر الفرمانات مشايخها هى الصعيد والمنوفية والبحيرة والجيزة وتذكر الأخيرة (الجيزة) مرات أقل من غيرها · أما المناصب الباقية (المخصصة للبدو) فتحوزها العشائر الكبيرة : كبنى بغداد فى المنوفية ، وبنى خبير فى الجيزة ، وعائلة عيسى بن عمر فى البحيرة · ولقد ظل الصعيد تحت سيطرة بنى عمر لوقت طويل جدا ، حتى انه أصبح مرتبطا به حتى فى الاستخدام الرسمى · ذلك أن أحد المراسيم يسمى الصعيد عمر أغاو ولايتى ، أى اقليم (ولاية) بنى عمر (٦٩) ·

كما رأينا ، سابقا ، لقد كانت قبيلة (بنو بقار) زعيمة عائلات الشرقية فكان منصب مشايخ العرب قصرا عليهم · غير أنه لم يرد ذكر لبنى بقار أو أى مشايخ عرب آخرين فى الشرقية فى (المهمى دفترى) ، وهى وثائق ترجع الى النصف الثانى من القرن السادس عشر · ولا يعنى صمت هذا المصدر (الوثائق آنفة الذكر) عدم وجود مشايخ عرب قد أوفوا بوظائفهم المالية فى الشرقية (قاموا بمهام وظائفهم خير قيام) ، بما أن المراسيم الموجودة فى (المهمى) (دفاتر الأمور المهمة) هى مجرد ردود فعل لا تتسم بالاستمرار تعبر عنها الحكومة المركزية بخصوص شئون الولاية · ومن الممكن أيضا أن اقليم (ولاية) الشرقية

كانت تعد مستعصية على الحكم بدرجة أكثر مما ينبغى ، كما أنها كانت مشرذمة بحيث لا يمكن ائتمان مشايخ العرب عليها كملتزمين • وثمة سبب آخر يشرح غياب الاشارات الى بنى بقار وغيرهم من المشايخ العرب فى الشرقية هو أن داود باشا (من ١٥٣٨ الى ١٥٤٩ م) قام بقمع البدو ، بقتل ما يقرب من ٦٠٠٠ منهم وطرد بنى البقار وبنى حرام وبنى قرتباى Qartbay خارج الشرقية (٧٠) •

مشايخ العرب والكشاف فى الفرمانات العثمانية

ان مناصب مشايخ العرب والكشاف مترادفة نسبيا ، حيث تنطبق الأوامر والأحكام نفسها على كليهما • كما أن منصب الكاشف موروث منذ أيام سلطنة المماليك ، ولم يوجد فى النظام العثمانى سوى فى مصر •

وكان على الكشفة ، شأنهم شأن مشايخ العرب ، أن يقوموا بالاشراف على الزراعة ، والأشغال العامة ، والأمن العام ، وكان كلاهما يلعب دورا فى تحصيل الضرائب • والشىء الذى كان يميزهما عن بعضهما هو أن الكشفة كانوا ضباطا بالجيش ، أى أمراء ، بينما لم يكن المشايخ أعضاء فى الطبقة العسكرية (عسكر) (٧١) •

وخير مثال على التطابق بين المنصبين ، أن أحد المراسيم يحظر على أى شخص يعمل باسم أرفع المسئولين فى مصر ، بمن فى ذلك الباشا نفسه ، من أخذ الأموال بالقوة (همايات) himayat من الفلاحين مقابل حمايتهم من رجال الكشفة ومشايخ العرب ، ويشكو المرسوم من أن هذا التصرف يشجع القرويين على عدم دفع ضرائبهم للكشفة ومشايخ العرب (٧٢) •

ومما قوى من الانطباع بأن المنصبين متطابقان فى الكثير من النواحى تلك الحقيقة الملفتة ، وهى أنه لا يذكر أى كاشف فى الأقاليم (الولايات) الواقعة تحت سيطرة مشايخ العرب ، والعكس بالعكس الا حين توجد سجلات عن وقوع تصادمات بين أحد مشايخ العرب وأحد الكشفة داخل نفس الاقليم (الولاية) •

ان المراسيم التالية توضح هذه النقطة : لقد ادعى سليمان شيخ عرب اقليم المنوفية أن خمسين قرية من الغربية قد تم ضمها الى ملتزمية المنوفية • وقال ان هذه القرى تقع تحت سيطراته غير أن كاشف الغربية رفض الاعتراف بهذا الادعاء • وحتى يقوى الكاشف معارضته لعملية الضم ، أرسل هو وكبار المسئولين بمن فيهم الباشا ، ٦٠ أو ٧٠ من الفرسان للاغارة على القرى موضع النزاع • وبعد أن أعلن المغيرون أن لهم حقوقا فى هذه القرى ، حملوا معهم طعام الفلاحين وحيواناتهم (٧٣) • واتهم شيخ العرب هو نفسه الكاشف بارغام الفلاحين على دفع المال ، معلنا أنه بينما كان الكشفة فى السابق يستخدمون ثيران الفلاحين فى أداء الأشغال العامة ــ لحفر القنوات ــ فهم الآن يأخذون منهم النقود للغرض نفسه • وتسبب هذا الغبن فى أن يرحل الفلاحون عن قراهم ، مما أدى الى انخفاض كبير فى العوائد الريفية حسب ما قال الشيخ (٧٤) • لم تجادل السلطات فى اسطنبول فى حق شيخ العرب فى أن يوجه اتهاما ضد الكاشف ، وتعاملوا مع الشكوى باعتبارها صراعا بين حكام من نفس الرتبة فى مناطق متجاورة •

بالاضافة الى ذلك ، كان الاسم الصحيح الرسمى للشيخ هو منصب (شيخول أرابلك) Shyhül Arablik كما استخدمت الفرمانات ألفاظ الملتزم وحاكم وأمير ، وبك ، بل وكاشف • ولقد أسبغت على بعض مشايخ العرب ألقابا عسكرية شرفية ورتبا ، وهى حقيقة منعكسة فى الوثائق ، حيث يكرمون بصيغ التبريك لأجل الرجال ذوى المكانة الخاصة ، مثل ، (زيد قدره) أو (دام مجده) (٧٥) •

مساواة مشايخ العرب بغيرهم من أصحاب المناصب

كان شـيخ العرب يتسـلم قرارا عثمانيـا (بيراتى همايون (berat-i-Hümayon ولباس الشرف (خلعة) hil-et وعادة ما يتاقى هذا التعيين من الباشا بعد أن يكون السلطان قد أقره • وعلى أية حال ، كان المشايخ يذهبون مباشرة الى قصور السلاطين فى اسطنبول ، ويحصلون على براءاتهم (قرارات التعيين ولبـاس الشرف) • وفى ربيع الآخر

٩٨١ هـ / أغسطس ١٥٧٥ م على سبيل المثال ، ذهب سليمان من اقليم (ولاية) المنوفية وعمران من الصعيد الى اسطنبول وأقنعا مستشارى السلطان بأن يعزلوا شيخى هذين الاقليمين وأن يسبغوا المنصبين عليهما • وتقول الفرمانات الامبراطورية ان سليمان أخبر السلطان أن منصور وعلم حاكمان ظالمان فاسدان • وأنهما ضاعفا من الضرائب ولكن بدلا من تحويل المال الى الخزانة ، اختلسا هما والكتبة مبلغ خمسين كيسا (والكيس يعادل ٢٥٫٠٠٠ بارة أو ٥٠٫٠٠٠ أقشا Ugches فى ذلك الوقت) • ووعد سليمان بأنه اذا ما تم تعيينه شيخا للعرب ، فلسوف يسترد هذه الأكياس الخمسين ، ولكنه اذا ما أخفق ، فلسوف يدفع المال هو نفسه • كما زعم أنه مادام أجداده كانوا مشايخ عرب الاقليم ، فان لديه الحق الأقوى فى المطالبة بالمنصب • فقبل السلطان عرض سليمان (٧٦) •

ومع البراءات السلطانية كان مشايخ العرب الذين يعينون حديثا يحصلون على فرمانات بتدبير أمور ادارية متنوعة فى مناطقهم ، على ما يبدو من خلف ظهر الباشوات اذ كانوا يخطرون بهذه التعيينات ، والترتيبات عن طريق فرمانات سلطانية (٧٧) •

وليس مما يثير الدهشة أن السلطان ومستشاريه لم تكن لهم دراية بالحدود الدقيقة للمناطق التى كانوا يسندونها الى مشايخ العرب • فنتج عن هذا صراعات ومعارك دموية بين المشايخ المتناحرين • اذ أحضر حلس (*) محمد شيخ اقليم البحيرة ، اتهاما رسميا ضد شيخ آخر يدعى حماد ابن خبير ، الذى أصبح ملتزما على منطقة الجبل الأخضر (فى برقة خارج مصر) وأرض عربان شعبة وهو اسم يشير الى أن البدو كانوا يسكنونها • واشتملت براءة حماد على مادة بعدم تعدى مصالح أى شخص آخر على هذه الأرض • وعرف فيما بعد أن بدو الجبل الأخضر كانوا يحضرون سنويا الى البحيرة كى يحرثوا الأرض ، هناك ، ويدفعوا ضرائب ثمنا لهذا الامتياز • وبالمثل كانت تنتمى منطقة عربان شعبة للمتزمية البحيرة • لقد نتج عن هذا الوضع الملتبس نزاع مسلح قتل فيه أكثر من ٢٠٠ شخص • وهناك تلميح بأن حمادا هو الذى أثار هذا الصدام (الذى نقل بعد ذلك الى منطقة الجيزة) ويخلص الفرمان بأن تعيين حماد باطل ولاغ بما

(★) حلس ، بفتح الحاء واللام اسم متداول حتى الآن فى مصر لكنه نادر / بفتح الحاء واللام ـ (المراجع) •

أنه يشمل شرط أن تكون براءته صالحة فقط اذا كانت الأقاليم ليست جزءا من التزام قائم (موجود) (٧٨) ٠

وفي بعض الحالات ، كانت اسطنبول تدع تعيين مشايخ العرب خصيصا للباشا ، الذى كان من سلطته أن يرشح واحدا أو اثنين أو أكثر من المرشحين للمنصب (٧٩) ٠ وكان السلطان يتبع نصائح ممثليه في جميع القرارات غير المهمة المتعلقة بادارات مقاطعة قصبية مثل مصر ٠ وانتهز الباشوات فرصة هذا الوضع ، وكانوا يعينون من يشاءون٠ فذكرهم فرمان حاد اللهجة فى عام ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م بأنهم يجب أن يحصلوا على موافقة السلطان على كل تعيين (٨٠) ٠

مشايخ العرب كقادة للجيش

من أبرز ملامح التاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية ، صعود العناصر المحلية وضيق الفجوة التى تفصل بين الحكام والمحكومين التى وجدت فى زمان المماليك ٠ وربما كان العرب هم خير مثال على هذا الاتجاه (٨١) ٠ ففى مصر العثمانية ، كان مشايخ العرب يعينون قادة ومشرفين على الأمراء العثمانيين والمماليك ٠ ومع أن هذا لم يكن كثير الحدوث ، الا أن مجرد حدوثه ، يشهد على حيوية البدو كما يشهد على القدر الأكبر من المرونة لدى المؤسسة العسكرية (أو كما قد يفضل البعض أن يعتبروه ضعفا فى الانضباط) ، وثمة بضعة أمثلة توضح هذه النقطة ـ اذ أعطى حماد بن خبير الذى سبق ذكره رتبة سنجق بك ـ واسمه مذكور بجانب الأمراء العثمانيين ـ وهو يقاتل المتمردين فى اليمن (٨٢) ٠ كما أشار عمران ، أحد مشايخ العرب فى الصعيد ، الى السلطات فى اسطنبول بأن من سبقوه لديهم من ٥٠ الى ٦٠ من الانكشارية من القاهرة تحت امرتهم لمساعدة الحاكم العربى فى الصعيد على جمع الضرائب ٠ ولديهم اربعة مدافع من نوع الزربزين zarbzen ، غير أن الباشا الذى مر بالصعيد فى طريقه لتولى الحكم على الحبش (*) أخذ الانكشارية والمدافع ٠ وطلب عمران الى السلطان بأن يضع مشايخ محلهم ، ولبى الطلب من حيث المبدأ (٨٣) ٠

(*) ايالة الحبش ، تكاد تكون ارتريا الحالية وليس المقصود اثيوبيا ـ (المراجع) ٠

لقد كان أعلى منصب وصل اليه العرب البدو فى القرن السادس عشر هو منصب حكام اقليم البحيرة · وعلى الأقل ، نصب ما لا يقل عن شيخين كأمراء للحج ، وهو أحد أكبر المناصب امتيازا وأكثرها ربحا فى مصر (٨٤) · أما أثناء السلطنة المملوكية ، فلم يكن يطمح لهذا المنصب سوى أعلى الأمراء رتبة (أمير مائة ، مقدم ألف) ومن المؤكد أنه لم يكن من الممكن لأى من مشايخ عرب أن يصلوا الى هذا المنصب ·

لقد كان عيسى بن اسماعيل ابن أمير شيخ عرب العونة فى البحيرة ، أميرا للحج فى ٩٦٣ هـ /١٥٥٥ م ، ومن ٩٧٠ هـ /١٥٦٢ ـ ٦٣ م الى ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ ـ ٦٥ م · وكان ابنه عمر ، الذى خلفه أميرا للحج فى عام ٩٩٩ هـ و ١٠٠٠ هـ /١٥٩١ ـ ٩٢ م ومرة أخرى فى ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ ـ ١٥٩٤ م و ١٠٠٣ هـ /١٥٩٤ ـ ١٥٩٥ م ، (٨٥) · وفى ٩٣٣ هـ / ١٥٨٥ م ، نصب عمر بن عيسى قائدا للكتيبة المصرية فى الجيش العثمانى المقاتل فى فارس · ومن الأمور التى لهـا مغزى أن الفرمانات تشير اليه كحاكم للبحيرة ، وليس كشيخ عرب الاقليم (الولاية)· ان الفرمانات ذات العلاقة بتلك الحملة تحرص على النص على أنه سيقود رجال القبائل العرب (البدو) ممن هم تحت حكمه ، مشـايخ البدو ، وكشفة وبكوات شركس وجنود ممن يتقاضون رواتب فى مصر ، ومع ذلك فان لغة الفرمانات كانت تعطى الانطباع أن التركيز كان فقط على تجنيد قوات عربية (من البدو) ومملوكية ، وليس على تجنيد كتائب عثمانية نظامية (٨٦) ·

تمويل مشـايخ العرب :

هناك قدر قليل من الشك فى أن مشايخ العرب كانوا من بين أثرياء الناس فى مصر · ذلك أن براءة الملتزمية كانت تتطلب مقدما قدره عدة مئات من الأكياس · وتبين المعلومات المتناثرة فى الوثائق ان بعض المشايخ كانت لهم ممتلكات تسـاوى ما بين ٥٠٫٠٠٠ و ٢٥٠٫٠٠٠ من القطع الذهبية (ألتونات) (٨٧) · وكان هناك مشايخ يملكون قرى (ملك : أى أرض يملكها بصفة خاصة) ، من مزارع ومعدات زراعية ، وثروة حيوانية وعبيد · وصـار بعض المشـايخ أثرياء ، عن طريق ادارة أقاليمهم

بتدبر (٨٨) ومنح أحد مشايخ الصعيد احتكار مناجم الزمرد كملتزم فى مقابل ١٥ كيسا سنويا (٨٩) ٠

ومع ذلك ، كان المشايخ دائما مدينين للخزانة ، مما يجبرهم على اقتراض النقود ، بصفة رئيسية من أثرياء التجار فى القاهرة ٠ وكانت ديون مشـايخ العرب ثقيلة بصفة خاصـة ، أحيانا تصل الى ٠٠٠ر١٥٠ ألتون ومئات الآلاف من أرادب الحبوب (٩٠) ٠

وتبين الوثائق الرسمية بوضوح كيف أن المشايخ لم يستطيعوا أو يشاءوا أن يوفوا بالتزاماتهم كملتزمين ٠ فهرب بعضهم ، وتم القبض على آخرين ، وأودعوا السجون الى أن دفعوا الديون المسـتحقة عليهم للحكومة ٠ وكثيرا ما كان ينفى المشايخ الى رودس ، حيث يحتفظ بهم فى القلعة ٠ وأعدم الباشوات عددا قليلا من المشايخ ٠ وكان السبب الرسمى هو التمرد أو الفتنة غير أن المؤرخين الحوليين أحيانا ما كانوا يشتبهون فى أن الباشوات كانوا يطمعون فى ثروات المشايخ (٩١) ٠ ولما كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون جمع المال بيسر من مشـايخ العرب الذين يستطيعون اخفاء ممتلكاتهم ، فان الحكومة أسست وحدة مسلحة خاصـة تسمى هافالى ، havale أو التكليف ، من سلطتها الاستيلاء على ممتلكات أى شيخ (٩٢) ٠

ان الفرمانات التى تم تلخيصها فيما بعد تعطى أمثـلة على هذه المواجهات ذات العلاقة بالضرائب بين المشايخ والسلطات وهى توضح الطبيعة المعقدة وغير المرضية بين مشايخ العرب والدولة ٠ فقد سجن يونس ، شيخ عرب الصعيد بسبب عدم تسديد الديون للخزانة ٠ وبعد أن أطلق سراحه ، وعودته الى منصبه استدان نقودا من تجار القـاهرة كى يشترى ملابس وأسلحة ومعدات لنفسـه ولحاشيته قبل أن يرحل الى جرجا ٠ وفى الطريق ، أعيد القبض عليه ، وتمت مصادرة جميع نقوده ومتعلقاته لتغطية ديونه القديمة ٠ فشكا لعلماء الدين ، غير أن تفاصيل شكاواه غير معروفة ، ومن المحتمل أنه أودع السجن مرة أخرى (٩٣) ٠

وبينما كان حماد يتفقد منطقة خليج الاسكندرية ، باعتباره مفتشا ماليا ، ليشرف على جباية الضرائب ، استدعى منصور بن بغداد شيخ عرب اقليم المنوفية ، الذى كان مدينا للخزانة بما يزيد على ٢٧٥ كيسا . فتعلل منصور بكثرة نفقاته ، غير أن المرسوم أكد على أنه أساء ادارة الانتاج الزراعى فى اقليمه ، وانهارت الحواجز والسدود نتيجة لاهماله ، وتركت الأرض القابلة للزراعة دون أن تبذر فيها البذور أثناء الموسم . والأسوأ من ذلك ، أنه جمع حوله الخارجين على القانون والهاربين من حروب اليمن ، ورفض تسليمهم للسلطات . ولكى يزيد الطين بلة ، لم يطع أوامر القضاة بالاعتراف بجرائمه . فعزل أخيرا ، وحل محله علام ، غير أن علام ، أيضا ، سرعان ما أصبح مدينا ، فأرسلت وحدة هافالى لمصادرة ممتلكاته . وينتهى المرسوم بلهجة مرة حيث يقول انه من الصعب جعل مشايخ العرب يسددون ديونهم ، وانه ربما يفضل الاعتماد على الكشفة . وادعى المرسوم أن الملتزمين كانوا يثرون ، ويشيدون لأنفسهم منازل كبيرة على حساب الجمهور . فيجب سجن المدينين للخزانة وألا تترك لهم اقشة aqche واحدة أو حبة حنطة وهذه صيغة متكررة فى المراسيم (٩٤) .

ربما نتذكر أن سليمان من عشيرة بنى بغداد ذهب مباشرة الى قصر السلطان فى اسطنبول حيث أسند اليه منصب شيخ عرب المنوفية ، محل منصور الذى ذكر منذ قليل ، وعلام . ويكشف فرمان حرر بعد ذلك بعامين عن أن سليمان وفى بمطالب الخزانة عن عام ٩٨١ هـ /١٥٧٣ ـ ١٥٧٤م غير أنه لم يدفع كل المستحق عن السنة التالية. وفى احدى الليالى، اختفى وصودرت ممتلكاته التى تساوى (١٩٠٨٤ آلتون) ، وعين علام مرة أخرى شيخا للعرب ، ويبدو أن سليمان كان ينوى أن يمارس مهارته فى الاقناع ، مرة أخرى ، لأن الفرمان يقول انه من المحتمل أن يكون متجها الى اسطنبول . فيؤكد السلطان لبكوات مصر ، الذين يوجه لهم الفرمان ، أنه لدى وصول سليمان الى اسطنبول ، فلسوف يعاد الى القاهرة مقيدا فى الأغلال . (٩٥) . وكذلك المماليك كانوا يتنافسون فيما بينهم عن طريق الدس بل والصراع المسلح من أجل السلطة ومن أجل الدخل العائد (الملتزمية) . ولم يكن من غير المعتاد قط أن يسجن شيخ لعدم سداد

الديون أو حتى بتهمة الاختلاس ، ثم يطلق سراحه ويعاد تعيينه ، ونجد مثلا يوضح هذا الوضع ، اذا ما تدبرنا حالة منصور بن بغداد من مديرية (اقليم) المنوفية ، والذى سبق ذكره · اذ كان منصور باشا طائشا ، أساء ادارة الاقليم ، واعتمد على أصدقائه ذوى النفوذ فى اسطنبول · ومع ذلك فقد عزله سنان باشا ، حاكم مصر ، فى الرابع عشر من ذى القعدة ، عام ٩٧٩ هـ / التاسع والعشرين من مارس ، عام ١٥٧٢ م ، وحل علام محله · وظل منصـور فى السجن لمدة عامين حتى أطلق حسـين باشا سراحه ، وأعاد تعيينه ، ولكن بعد ذلك بثمانى سنوات عزله آوفيز Üveys باشا ، مرة أخرى (٩٦) ·

مشايخ العرب كحكام ظلمة

هناك الكثير من الأدلة على أن مشايخ العرب كانوا ظلمة ومستغلين ، شأنهم فى ذلك شأن الكشفة · فهناك الكثير من الأمثلة على الضرائب الثقيلة واختلاس المال العام ، ومعاملة القرويين معاملة فظة · ويعد هذا الفرمان التالى الصادر للبكوات ودفتر دار مصر مثالا لهذه التصرفات :

لقد ذهب اثنان من سكان قريتين من اقليم المنوفية الى قصر السلطان فى اسطنبول وقدما شكوى ضد منصور وعلام ، شيخى عرب الاقليم · اتهم الشاكيان الشيخين بقتل الرجال ، واختطاف النسـاء ، والصبية ومهاجمة منازل القرويين وحقولهم مسببين الضرر للمحاصيل ، وكذلك سرقة الجمال · فحولت هذه الأعمال القرى خرابا ، فهرب سكانها · وطالب الشاكيان بأن تحقق محكمة دينية (*) فى ظروف القتل · وذهب القرويان الى أبعد من ذلك باتهام شيخى العرب ، اللذين كانا ملتزمين بأنهما لم يكتفيا بأجرهما السنوى الذى كان يتراوح بين ٣ ـ ٤ أكياس ، بل كانا يأخذان بالقوة كيسين اضافيين ، ولم يكونا يسلمانهما للخزانة · واقترح الشاكيان بأن يقوما هما أنفسهما مباشرة بدفع ضرائبهما للقرية (**)

(*) كذا بالنص ، والمقصود محكمة تنظر فى الأمر من وجهة نظر المذاهب الاسلامية الأربعـة ، لا مجرد تطبيق النسق العثمانى ، وهى صياغة لا تعنى وجود محاكم غير دينية وانما تفيد تمسحهم بالدين ـ (المراجع) ·

(**) اشارة الى شيخ القرية الذى يقوم بدوره بالتوريد للقاهرة ـ (المراجع) ·

كما فعلا فى احدى المرات . كما عرضا أن يدفعا كيسا اضافيا اما مقدما ، أو على أقساط ، وأن يقدما رهائن ضمانا لقيامهما بالدفع . وأضافا أنهما قادران على ادارة قريتهما بأنفسهما وطلبا الحماية خوفا من المشايخ (٩٧) . وبكل أسف ، لا نعرف قرار الحكومة بخصوص هذا الأمر . وبعض المشـــايخ كانوا يزرعون الأرض التى يملكها غيرهم ويأخذون المحصول لأنفســـهم .

وثمة تصرف آخر غير قانونى سبقت الاشـــارة اليه ، وهو أن عبد الدايم بن بقار كان يختلس أموال الأوقاف الموقوفة على أهالى مكة والمدينة ، ولم يردعه أن الأغا شكا الى الباب العالى (القصر السلطانى) ؛ متهما أحد مشـــايخ البدو بالتزوير بازالة اسم قرية دشـــته Dashta من قائمة القرى الموقوفة عوائدها على البدو البعيدين عن مكة والمدينة ، فأصدر الباب العالى فرمانا لعلاج هذا الموقف ، الا أن عبد الديم بن بقار لم يضع هذه السابقة فى اعتباره وكرر الجرم (٩٨) .

احلال الأمراء محل مشايخ العرب

يبين الفرمان الذى يعدد مساوىء منصور بن بغداد ، أن الحكومة بحثت امكانية الاستعاضة عن مشايخ العرب بالكشفة .

وبعد ذلك ، أثناء ولاية مســيح باشـــا الطويلة نسبيا (٩٨٢ ــ ٩٨٨ هـ /١٥٧٥ ــ ١٥٨٠ م) ، بذلت محاولة جادة لتخليص الدولة من خدمات المشايخ . ويبدو أن الأمر الذى حرك السلطات لاتخاذ اجراء ما هو الأداء المخيب للآمال الذى أداه الحكام العرب فى الصعيد . وهذا الاقليم ، بسبب بعده وأهميته الاقتصادية كمصدر مصر الرئيسى للحبوب ، كانت له أهمية خاصة ، غير أنه كان خاضعا لحكم سيىء . وفى بداية المحرم ٩٨٢ هـ / أبريل ١٥٧٤ ، وضع عمران الذى كان قد عين حديثا كشيخ عرب الصعيد ، فى السجن ، بسبب سوء ادارته للعوائد ، كما تم وضع ممتلكات أحمد ، وهو شـــيخ عرب ســـابق ، (وصف فى وثيقة سابقة باعتباره أكثر أمانة) تحت طائلة وحدة (*) هافالى Havale كى تجمع ما عليه من متأخرات .

(*) اى أصبح من حق وحدة الهافالى هذه مصادرة جزء من ممتلكاته بما يفى بما عليه من متأخرات لم يدفعها .

ويشكو الباشا فى رسالة موجهة الى رؤسائه فى اسطنبول من أن بعد الصعيد عن القاهرة ، يمكن مشايخ العرب من تجاهل ضباط الهافالى ، أى التكليف والمراسيل (الشافوشية) المبعوثين من العاصمة ، فكان المشايخ يدفعون ديونهم للمرابين الخاصين بدلا من أن يدفعوا ما عليهم للخزانة • واستنتج السلطان فى أحد الفرمانات ، أنه منذ الفتح العثمانى لمصر ، لم يخضع مشايخ البدو قط لشروط التزامهم (عملهم كملتزمين) وكثيرا ما اختلسوا المال العام ، وآووا قطاع الطرق ، والبدو المتمردين ، بدلا من قمعهم (٩٩) • ويبين هذا الفرمان السلطانى أن الباشا قد طلب من السلطان أن يوافق على عزل مشايخ العرب وينصب أمراء سناجق بكوات محلهم ، تدفع الخزانة المصرية رواتبهم السنوية ، ويقوم وكلاء الرواتب (فورمينـــا) بجـمع الضرائب ، ويعطى الأمراء ســلطات لحفظ القـانون والنظام ، بما فى ذلك صـلاحية فرض أحكام بالاعدام (وهى صلاحية لم تكن لدى مشايخ العرب) فأمر الباشا بأن يحدد عدد البكوات السناجق المطلوبين لاخضـاع الصـعيد ، من الضباط القادرين فقـط ، على أن يكونـوا جميعـا من المســلمين الورعين ، وعلى دراية بأحوال الاقليم ، ويجب أن يكون عدد الجنود الذين يخضعون لهم كافيا ، لكى يضعوا حدا لتصرفات البدو • وأكد فرمان آخر بالتاريخ نفسه على عسف المشايخ الذى أدى بالفلاحين أن يهجروا قراهم • فصدر فرمان بأن جميع الأقاليم المصرية ـ وليس الصعيد فحسب ـ توضع تحت امرة بكوات سناجق كما أمر الباشـــا باعداد قائمة بمن يرشحهم (١٠٠) • وكان الاستثناء من الترتيب الجديد هو اقليم البحيرة ، التى كان يحكمها هيلاس (حلس) محمد • اذ كان لمشايخ العرب ، فى هذه الولاية (الاقليم) ، كما بينا مكانة خاصة ، كأمراء حج وسردارات • ان ولاء هيلاس (حلس) محمد ، أو الطبيعة المعضلة لاقليم الحدود الحساسة التى لم يكن فى امكان أى غريب تناولها ، قد يشرح المعاملة الخاصة التى كانت توليها الحكومة للبحيرة : وقد يكون أحد الأسباب فى اتخاذ القرار فى الاستمرار فى اجراء الاصلاح السياسى والادارى هو عدم وجود مرشح لتولى منصب الحاكم العربى للصعيد فى المحرم سنة ٩٨٣ هـ / أبريل ١٥٧٥ • فلقد هرب الشيخ أحمد وتسبب ترشيح عمران فى نشوب خلاف • فبينما كان يؤيد الأخير

بعض أعضاء ديوان القاهرة ، أيد الآخرون يونس ، وهو شيخ آخر من عشيرة بنى عمر . وكان هذا الشيخ فى السجن بسبب الدين . وبعد التفكير فى ابراهيم بك ، ورفضه ، وسنجق بك من ضباط ابراهيم فى أقصى الجنوب ، وقع الاختيار أخيرا على سليمان بك ، وهو ضابط قد سبقت له الخدمة فى القدس . وطبقا للفرمان ، فان جمع الضرائب الزراعية فى الصعيد أسند لموظفين من الخزانة (أمناء) أو (أومينا) والى الملتزمين الذين أمروا بأن يسلموا الضرائب مباشرة الى القاهرة . وكان سليمان منوطا به مسئولية حفظ الأمن العام ، وكانت هناك فرق كافية مكلفة لمساعدته . وهذا الفرمان ، يعكس أيضا ، تردد اسطنبول بخصوص أفضل سبيل يمكن اتباعها وهى بوضوح تترك للباشا القرار الأخير . فنصب الباشا سليمان حاكما على جرجا فى ذى الحجة ٩٨٣ هـ / مارس ١٥٧٦م ، ومسئولا عن جمع عوائد الأقاليم كملتزم كما جعله مسئولا عن النظام العام (١٠١) . وفى البداية ، بدت السياسة الجديدة غاية فى النجاح . ففى الخامس والعشرين من رجب عام ٩٨٤ هـ / الثامن والعشرين من أكتوبر ، ١٥٧٦م ، هنأ السلطان الباشا بعد أن تلقى تقريره ، الذى وصف مصر بالهدوء والازدهار . وكرس قسم خاص من التقرير للتحدث عن الطريقة الممتازة التى كان يدير بها سليمان بك الصعيد الذى لم يستمتع بمثل هذه الدرجة من الأمن منذ الفتح العثمانى لمصر (١٠٢) . وخصص مرسوم آخر لطلب سليمان بك لخمسة عشر ألف ألتون لبناء حصن فى جرجا . وكانت حجة المرسوم هى أنه اذا ما عسكر الجنود هناك فان هذا سيقوى أمن المديرية ، الى حد كبير ، ولسوف يستطيع التجار أن يتنقلوا بأمان أكثر ، ويستحسن ابقاء العرب مكبوحين ، بما أن الحصن يمكن استخدامه لسجن الرهائن من القبائل التى ترفض دفع الضرائب . وفى مناسبة أخرى ، طلب البك عسكرة قوة متحركة قوامها ألف جندى فى جرجا تحت قيادته . وتمت تلبية هذه المطالب (١٠٣) . وفى نهاية ٩٨٤ هـ / مارس ١٥٧٧ م ، رقى سليمان الى رتبة باشا ، كما عين حاكما على الحبش (*) (١٠٤) . وعلى أية حال ، فلقد صدر فرمان ، بعد ذلك بعدة

(★) ايالة الحبش .

أشهر ينص على أنه لا يستطيع الذهاب الى هناك بسبب نقص الأموال وأن أخاه قد تم ارساله بدلا عنه • ولما كانت الخدمة فى الحبشى شيئا غير محبب تماما وغالبا ما كانت تعتبر شكلا من أشكال النفى ، فمن الممكن أن مصاعب سليمان المالية لم تكن سوى ذريعة للتنصل من المهمة • وبعد ذلك بشهرين ، فى ربيع الأول عام ٩٨٥ هـ/مايو ١٥٧٧ م ، أعيد تنصيب سليمان سنجق بك على جرجا براتب سنوى ٥٠٠٫٠٠٠ أقشا (وهو ما يساوى ٢٥٠٫٠٠٠ بارة فى ذلك الوقت) (١٠٥) ، وقد يبدو ، عموما ، أن القيادة العليا فى اسطنبول قد أصرت على ارسال سليمان الى الحبشى رغم الحاجة اليه فى مصر لقمع تمرد بدوى • فسليمان ، يطلق عليه الفرمان لقب باشا قمع التمرد ، لقتله ما يزيد على ١٥٠ من البدو • وبعد أن حدث انهيار حاد فى دخول الصعيد بسبب تمرد البدو ، كانت هناك حاجة الى ١٥٠ قاربا لارسال ما يزيد على ١٠٠٫٠٠٠ أردب من الحبوب للقاهرة • ويكشف الفرمان ، عموما ، أن الحكومة المركزية كانت تشك فى أن سليمان يحجب هذا الجزء من الحبوب • فأجبر على ارساله لمخازن الغلال السلطانية (١٠٦) • وتأكد الشك بعد وقت قصير • ذلك أن الفرمانات التى صدرت فى ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م و ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م موجهة الى البكلكية ودفتردار مصر وسليمان باشا ، تأمره بأن يسدد النقود التى ما يزال يدين بها للخزانة المصرية • وتماما كما فعل المشايخ العرب من قبل ، أنحى سليمان باشا باللائمة على الشراقى التى تسببت فى عدم دفع ما عليه ، أى الأرض غير المروية التى لا يصلها فيضان النيل • فأمر حاكم مصر بألا يدع سليمان ، فى النهـــاية ، يغادر الى الحبشى (*) (١٠٧) ، وأعادت السلطات فى القاهرة واسطنبول الدورة من جديد ، أى الى حيث كانت منذ خمس أو ست سنوات : فعادوا الى الحكام الأصليين للصعيد ــ مشايخ العرب من عشيرة بنى عمر • وأعطيت بكلكية مصر حق الاختيار بين عمران وعلى وكان كلاهما منفيين فى رودس حين صدرت الفرمانات عام ٩٨٧ هـ /١٥٧٩ م (١٠٨) • واستمر بنو عمر فى حكم الصعيد حتى عام ١٦١٠ م ، حين نصب أمير عثمانى بدلا منهم •

(*) أى احتجازه وعدم السماح له بمغادرة مصر •

ومن الواضح أن الحكومات كانت قد قررت أنها ليست قادرة على الاستغناء عن خدمات مشايخ العرب ، رغم البداية المبشرة فى فترة حكم سليمان بك • وليس من المعروف ما اذا كان القرار بالاستغناء عن مشايخ العرب واحلال الكشفة بدلا منهم قد تم تنفيذه فى الأقاليم الأخرى كما كان مخططا • غير أن لغة الفرمانات ومحتواها توضح أن السلطات كانت تعتبر تنصيب سليمان بك فى الصعيد بمثابة الخطوة الأولى نحو سياسة ريفية جديدة ، تلك السياسة التى باءت بالفشل كما ظهر (١٠٩) •

القرن السابع عشر

لقد رأينا كيف أن العرب البدو فى القرن السابع عشر كمحتسبين وحكام كانوا مهمين ، رغم كونهم كانوا مصدرا للمشاكل ، كأدوات للادارة العثمانية لمصر فى القرن السادس عشر • ومع ذلك ، حاول العثمانيون ، نحو نهاية القرن ، احلال أمراء من الجيش النظامى محلهم • فحكم البكوات السناجق الصعيد من ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ حتى حوالى ١٦٦٠ م ، حين انتهت سيطرة البكوات • وتصادف انهيار البكوات مع النشاط المتجدد الذى طرأ على القبائل العربية فى الصعيد وفى غيره من الأماكن (١١٠) • ولم يشهد القرن السابع عشر اعادة ظهور البكلكية وحسب ، وانما شهد أيضا التعاون الوثيق بين عصبة مماليك الفقارية مع جماعات بدو الصعيد ضد تحالف القاسمية وقبيلة بنى حرام • كما أن الاعتماد المتبادل بين جماعات المماليك وقبائل البدو قد تطور ، فالاضطرابات التى يثيرها البدو كان يمكن قمعها لكن نفوذ زعماء البدو وسلطانهم فى القرى التى يستمد منها البكوات المماليك قوتهم الاقتصادية ، كان أمرا لا يمكن تجاهله ، فقد كان شيوخ العرب يقدمون دعما اقتصاديا وعشائريا ، فشيوخ عرب الصعيد على نحو خاص كانوا يرسلون سفنا محملة بالحبوب وغيرها من المنتجات الزراعية الى أصدقائهم وحلفائهم فى القاهرة ، وكان المدد العسكرى لكتائب الحكومة مهما تماما كما كان مهما لفرق factions المماليك ، فالفرسان العرب ساعدوا محمد باشا فى قمع تمرد السباهيين فى سنة ١٦٩٠م (١١١) كما كانوا شركاء فى انتصار الزعيمين الفقاريين على أمراء القاسمية سنة ١٦٤٧ م (١١٢) ، وفى هزيمة محمد بك حاكم جرجا المتمرد على يد قوات

الحكومة سنة ١٦٥٩ م (١١٣) • وفى هذه المواجهات وغيرها عاون الهوارة وغيرهم من قبائل الصعيد مثل مقاتلى قبيلة بنى خبير حكام الجيزة الذين يتردد ذكرهم فى مصادر القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فابن خبير (أو خبير أوغلو Habiroghlu كما تذكره المصادر التركية) كان قد أنعم عليه برتبة سنجق بك فى القرن السادس عشر ، وأدى خدمات عسكرية فى اليمن (١١٤) •

وقد شجع ضعف الباشوات فى القرن السابع على هجرة البدو بكثرة الى مصر قادمين من الشمال الأفريقى ، فأبو سالم العياشى الرحالة المغربى المشهور الذى زار مصر فى منتصف القرن السابع عشر يصف انهمار البدو من طرابلس وبرقة تخلصا من الحكم القاسى هناك أو لدوافع اقتصادية • فاستقرت قبائل من الشمال الأفريقى فى البحيرة ، وأهم هذه القبائل : الهنادى وبهجة وأفراد afrad ، ويذكر العياشى أن حكام القاهرة كانوا بمثابة قبيلة واحدة فى مواجهة القبائل الأخرى (١١٥) • وكانت أكثر القبائل البدوية شغبا هم بنو وافى الذين أحدثوا دمارا خاصة فى البحيرة والبهنسا ، فى أواخر القرن ، وقد تم ارسال عدة تجريدات عسكرية ضدهم ، وفى سنة ١١١١ هـ/١٦٩٩ م ، ورد أمر سلطانى بارسال قوة من ألف كتيبة بقيادة القائد الشـــهير ايواظ بك الفقارى ، لمواجهة عبد الله بن وافى البدوى المغربى الخارج على القانون وطرده هو وقبيلته خارج مصر • حقيقة لقد تم قتل ابن وافى ، وكذلك تم رد قبيلته التى كانت تشكل تهديدا للقاهرة نفسها (١١٦) •

وبشكل عام ، فقد قامت القبائل العربية بعدة مهام حيوية ، حيث كانت مسئولة عن أمن مواطنيها مقابل ما تدفعه لها الحكومة من اعانة مالية• فقد كانت القبائل العربية تقوم بواجب الدرك darak وهو واجب ضرورى على طول طرق الحج التى كانت تحت اشرافهم ، من حيث توفير المياه وغير ذلك والحماية من اللصوص (١١٧) •

كما كانوا أيضا يقدمون وسائل النقل لقوافل الحج وحمل الامداد السنوى من الحبوب الى مكة والمدينة (١١٨) ويكتب الجزيرى ، الذى

عمل أمينا لسر أمير الحج لسنوات كثيرة ، فى القرن السادس عشر ، أن العرب الذين يكونون مسئولين عن درك ، كانوا يسرقون من الحجاج فى أرض درك شيخ آخر . وكانت منطقة العقبة خطرة بصفة خاصة ، منذ هاجم العرب الحجاج هناك ، أثناء عودتهم من مكة (١١٩) . وكان العرب البدو كثيرا ما يهاجمون القوافل بسبب شعور ـ سواء أكان مبررا أم لا ـ بأن الدعم المالى الذى يتلقونه غير كاف . فكانوا مرارا قساة نحو القرويين والمسافرين (١٢٠) .

القرن الثامن عشر ، ذروة قوة القبائل العربية

الاضمحلال المستمر فى سلطة الدولة وازدياد حدة المنافسات العرقية فى القاهرة ، كلها قدمت فرصا جديدة لمشايخ العرب . وثمة عشيرتان ، بالتحديد ، الحبايبة فى وسط الصعيد ، والهوارة فى الصعيد ، حصلوا على حكم ذاتى نسبى وثراء مهول وسلطة ، ذلك أن المشايخ استغلوا المعارك داخل المجتمع العسكرى لفائدتهم محققين نفوذا مع أمراء المماليك ، بل ومع الكتائب العثمانية . فلم يرفض بعض عرب الهوارة أن يدفعوا ما عليهم من ضرائب على أساس أنهم انكشارية ، وعزاب فحسب (١٢١) وانما اتخذ الهوارة جانب الفقارية والانكشارية فى الصراع المسلح الذى وقع عام ١٧١١ م ، بينما أيد منافسهم ـ الأمير البدوى على اخميم ـ القاسمية ، وكتيبة العزاب (١٢٢) .

وكان البك المملوكى على جرجا ، وهى المركز الادارى للصعيد هو الحاكم الاسمى على الجنوب ، غير أن السلطة الحقيقية كانت فى يد مشايخ العرب ، الذين تدخلوا حتى فى ترشيح بك جرجا . لقد كتب بوكوك فى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر : « كانت هناك أربع وعشرون منطقة فى الصعيد ، غير أن الكثير منها ابتلعها مشايخ العرب الآن .. ويملك هؤلاء المشايخ الكبار غالبا أتراكا (يقصد مماليك) فى خدمتهم ، الذين اضطروا أن يفروا من القاهرة فى أزمنة الاضطرابات العامة ، حيث كانوا فى الجانب الضعيف (١٢٣) . وكانت هذه الاضطرابات كثيرة الوقوع . كان مقر زعماء الهوارة ، هو فرشوط ، فى اقليم قنا ، ومن هناك كانوا يتحكمون فى الغرب ، West ونصادمت مصالحهم مع مصالح عرب الجنوب،

بصفة رئيسية فى مديرية اخميم البدوية ، وكذلك مع شيخ بدوى آخر فى برديس ، الذى استولى على كامل الضفة الشرقية أمام النيل بين قنا واسنا ٠

وحوالى ١٨٤٠ م ، هزم الهوارة تحت قيادة الشيخ همام الأمير البرديسى هزيمة حاسمة وفى منتصف القرن كانت الأسرة الحاكمة العربية فى أخميم قد أبيدت ٠ وعرقل اعتلاء الشيخ همام السلطة حكم ابراهيم كتخدا القوى ، ولكن بعد وفاة ابراهيم كتخدا فى عام ١٧٥٤ م ، حكم همام الصعيد دون ازعاج (١٢٤) ٠

ان السيرة المحملة بالثناء التى كتبها الجبرتى عن الشيخ همام تستحق التناول ٠ فرأى الجبرتى عن هذا الشيخ يلقى الكثير من الضوء ، وبما أن المؤرخ كان مشبعا بقيم مجتمعه لذا فان تقييمه يعكس مكانة همام الكبيرة (١٢٥) ٠ يقول الجبرتى ما معناه :

ان شيخ العرب ، الأمير العظيم همام بن يوسف بن أحمد الهوارى كان يرعى الأغنياء والفقراء على السواء ، ولم يكن هناك ما يعادل ثروته وكرمه وحسن ضيافته ٠ كان لديه ما يزيد على ٣٠٠ جارية ، وعبيد سود ، ومماليك ٠ وكانت حقوله يحرثها ١٢٠٠٠ ثور وكان لديه الكثير من الطواحين والسواقى والجاموس والقطعان ٠ وكانت محاصيله تشمل قصب السكر ٠ كما كانت مخازن غلاله دائما ممتلئة ٠ وتزاوج لاجئو المماليك القاسمية الذى كان يؤويهم مع أهله ، وتعلموا التحدث باللغة العربية ٠ ولقد عين الكثير من الكتبة كى يديروا اقطاعيته ٠

كان همام رجلا عميق التدين ٠ فمد كرم ضيافته الى الكثيرين من العلماء المهمين ٠ كما أعان علماء فى القاهرة ٠ فكان سقوط همام والهوارة نتيجة السياسات الطاغية التى كان يتبعها على بك ، الذى ربما ، لم يستطع تحمل وجود حاكم فى شهرة واستقلال همام ٠ ومما عجل بنهاية الشيخ المعركة بين على بك وصالح بك ، صديق همام وحليفه ٠ وهو ما أدى به الى اللجوء اليه فى فرشوط ٠ لقد خان همام ابن عمه ٠ فغادر هذا الشخص الى اسنا حيث مات فى السابع من ديسمبر ١٧٦٩ م ،

أما كبار الهوارة عندئذ ، فاما سلموا لمحمد بك أبى الدهب أو ذهبوا للمنفى ٠

لقد خلف ابن همام ، درويش أباه فى فرشوط ، غير أنه كان حاكما ضعيفا ٠ فلم يمض وقت طويل قبل أن يستولى أقوياء القاهرة على جميع ثروته ، تاركينه يموت مفلسا ٠

لقد كان اسماعيل أبو على شيخا هواريا آخر ٠ وقام بحكم اقليمى قوص وقنا ٠ وقتله مراد بك عام ١٧٧٩ م وقسمت أراضيه بين الكشفة٠ وبمرور الوقت ، فقد الهوارة قوتهم العسكرية وصاروا فلاحين ٠

وعلى النقيض من الهوارة ، الذين كانوا اتحادا بدويا مستقرا قديما ، حيث قدموا من تونس الى مصر ، فى القرن السادس عشر ، فان الحبايبة فى وسط الصعيد ناشئون جدد من أنواع مختلفة ، دون أصل لامع ٠ وتدين نهضتهم الخاطفة فى أوائل القرن الثامن عشر بالكثير لجسارتهم وامتيازهم كفرسان ٠

لقد قدموا من شتب وهى قرية صغيرة بالقرب من أسيوط فى الجنوب ، واستقروا فى اقليم القليوبية ، تماما شمال القاهرة ٠ وكانت دجوة هى مركزهم ، وهى قرية ذات موقع لا يستهان به على ضفة النيل ٠ واتخذ الحبايبة اسمهم من حبيب بن أحمد ، أول مشايخهم البارزين ٠ وصارت العشيرة المتزعمة بين عرب الدلتا ٠ ومن الناحية السياسية ، كانوا فى منافسة مع بدو جماعة بنى حرام ، الذين كانوا يعيشون أقرب الى الاسكندرية ٠ وشأن الحبايبة شأن الكثير من القبائل العربية الأخرى ، لم يكونوا من البدو الرحل ، أو شبه رحل ، وانما كانوا عربا مستقرين يكسبون قوتهم من الزراعة ، أو استغلال الفلاحين (١٢٦) ٠ لقد دخل حبيب وابناه سالم وسويلم (١٢٧) فى ثأر سافر ضد اسماعيل بن ايواظ ، أقوى أمراء القاهرة ، بعد نصر القاسمية فى عام ١٧١١م ٠ وبناء على تحريض من قايتاس ، البك الفقارى الذى أراد أن يحسم النزاع مع القاسمية ، قام سالم بالهجوم على خيل اسماعيل

بينما كانت ترعى ، وبذلك بدأ حربا طويلة بين مساعد اسماعيل والعرب • وانطلقت المدافع فى هذه الحرب ، وقتل خلق كثير • اذ دمر اسماعيل دجوة ، وأعلن فى كل البلاد ألا يجرؤ أحد على تقديم المأوى لحبيب وابنيه • كما هدد بهدم أى قرية تعصى هذا الأمر • ويستفيض أحمد شلبى كثيرا فى وصف المعارك بين اسماعيل وسالم بن حبيب ، اذ أظهر الاخير قدرا كبيرا من الجسارة ، مفاجئا البك تحت قصره ، ومهاجما قراه ، وحاملا معه حيواناته ، وكذلك حظر حركة المرور فى النهر والبر (١٢٨) • وأخيرا أجبر الحبايبة على أن يتراجعوا الى غزة فى فلسطين ، حيث قضى حبيب نحبه •

وعاد سالم ، بعد فترة ، الى قليوب واتصل بابراهيم بك أبى شنب ، زعيم القاسمية الشيخ الوقور • وساعد ابراهيم سالم وقبيلته وذلك بالتوسط نيابة عنهم مع بنى وافى الذين كانوا تحت حمايته • فسمحوا للحبايبة بأن يضربوا الخيام على أرضهم الى الغرب منهم • كذلك قدم ابراهيم الطعام وغير ذلك من المؤن الى الحبايبة من القرى الخاصة به ، غير أنه بعد موت ابراهيم ، واجه الحبايبة الفاقة •

ولما كان سالم فى حالة يأس ، فقد مثل سالم أمام اسماعيل بن ايواظ وطلب منه الرحمة ، بما أنه كان قد تعب من التنقل من مكان لآخر مثل البدو الرحل ، كل يوم فى واد • فسامحه اسماعيل وسمح له ولأهله بالعودة الى مكانهم السابق فى اقليم القليوبية •

وهنـــاك أعاد سالم مركزه القديم واستأنف المهمة بالغة الأهمية وهى حراسة ضفتى النيل بين بولاق الميناء النهرى بالقاهرة ورشيد ، وذميـــاط •

وتمكن سالم من أن يعيد نفسه كشيخ قوى وثرى يملك الكثير من المزارع الكبرى ، وحدائق يزرعها بستانيون ، من دمشق ورشيد وكان له جوار بيض وعبيد سود (ولكن ليسوا مماليـك) • كما لعب سالم دورا نشطا فى المعارك ضد محمد بك شركس •

وتوفى سالم فى السادس من آغسطس ١٧٣٦م،وخلفه أصغر اخوته سويلم الذى كان أيضا حاكما كفئا • فتحكم فى حركة المرور النهرى تماما • اذ كان المجرمون من خدمه يبحرون فى قوارب ويوقفون السفن فى النيل ، ويطلبون نقودا غير قانونية •

لقد امتدت شبكة رعاية سويلم على غالبية قرى اقليمى القليوبية والشرقية ، اذ كان كل الملتزمين والضباط والرؤساء فى القرى يطيعونه • غير أن صلات سويلم مع بكوات المماليك فى القاهرة ألقت به فى صراعات السلطة هناك • فى البداية ، هاجم عثمان بك الفقارى دجوة ثم هاجمها ابراهيم كتخدا ، غير أنه فى كلتا الحالتين فان العرب ، بعد أن حذروا ، رحلوا مع نسائهم وممتلكاتهم •

أخيرا توصل سويلم الى اتفاق مع ابراهيم مؤداه أن يتخلى الأول عن الاتاوة التى كان يأخذها عنوة من القرى ومن القوارب المبحرة على فرعى دلتا النيل •

وانتهى حكم سويلم حينما هاجمته قوات على بك • هرب سويلم الى بدو الهنادى فى البحيرة حيث أسر وقطع رأسه • وكذلك تم تحطيم الهنادى • وعفا على بك عن بقية أعضاء الحبايبة • غير أنه شتتهم ، بعد ذلك ، وسمح لهم مراد بك بالعودة الى قراهم • وكان الشيخ التالى هو أحمد بن على بن سويلم • ولكن حكمه كان مجرد ظل لحكم جده (١٢٩) • وحتى بعد أن تحطم الاتحاد البدوى الكبير ، أثناء حكم على بك ، لم يوقف البدو أنشطتهم الحربية •

وكانوا فى بعض الأحيان فريســة سهلة بالنســبة للأمراء الذين لا مبدأ لهم ، وعلى الأخص مراد وابراهيم • غير أنهم كانوا قادرين على ازعاج النظام العام • وفى عام ١٧٨٥ م ، طلب بدو البحيرة من الحاكمين المساعدة ضد غيرهم من البدو ، المجاورين لهم • فذهب مراد بك الى البحيرة ، لمساعدتهم ، من الناحية المظهرية ، ولكن بما أن الجماعة الأخرى قد رشته ، فقد قاد أولئك الذين وعدهم بالحماية الى كمين مميت ، وعاد

بالغنيمة الى القاهرة (١٣٠) • وفى حالة أخرى ، أثناء حملة حسن باشا على مصر ، خطط العرب هجوما ليليا على بيوت المماليك ، غير أن المماليك الذين تطايرت اليهم أخبار الخطة ، أقاموا كمائن للمهاجمين (١٣١) • وفى حادثة أخرى ، عام ١٧٨٧ م ، نجد أن اسماعيل بك ، شيخ البلد فى عهد حسن باشا ، كان متسامحا بشكل غريب نحو بدو عايض الذين كانوا قد هاجموا قافلة تجارية فى الطريق من السويس الى القاهرة• فخربوا كميات كبيرة من التوابل ، والبن والقماش ، واختطفوا زوجات التجار ، بهدف الاحتفـاظ بهن كفدية • ونظرا للحاجة الى خدمات العرب لم يتعاطف اسماعيل مع التجار (١٣٢) • وتشير هذه الحوادث ومثيلاتها الى انهيار الأمن العام والحكومة الرسمية نحو نهاية القرن الثامن عشر • ان سياسة القبضة الحديدية الطائشة التى اتبعها البكوات الذين خلفوا على بك ، ومحمد أبو الدهب والحملة الفرنسية وحقبة محمد على باشا ـ أضعفت البدو العرب اضعافا شديدا • ولم يتمكنوا قط من استرداد حكمهم الذاتى واستقلالهم فى المجتمع المصرى بعد ذلك •

الفصل الرابع

علماء الدين

بين الحاكم والمحكوم

لقد تمتع علماء الدين المصريون بمكانة اجتماعية واقتصادية ودينية ووظيفية بين الحكام والمحكومين فى ظل حكم المماليك • وكما أشار سابقا الكتاب المعاصرون لتلك الفترة ، خاصة ابن اياس ، فقد حرم الحكم العثمانى العلماء من الكثير من امتيازاتهم ، بمن فيهم الشعرانى • وكان لهذا الرأى ما يبرره فى بداية الاحتلال ، ولكن مع الوقت ، استرد العلماء نفوذهم بل زادوه مع نهاية الحقبة العثمانية • اذ انه باستثناء المناصب القضائية العليا التى كان العلماء الأتراك يحرمون منها العلماء المصريين على مدى القرون الثلاثة التالية ، استمر المصريون فى عملهم دون ازعاج تقريبا من جانب الحكومة العثمانية التى كانت تحترم مكانة العلم الدينى عند المصريين (١) فقام العلماء بوظائفهم فى مجتمع اسلامى : فهم سدنة المعايير والقيم الدينية ، والتقاليد ، كما أنهم المحافظون على الاستقرار الاجتماعى والوحدة ، اذ يعبرون فوق الكثير من الفجوات والخلافات ، التى كان من شأنها أن تقطع أواصر المجتمع ، كما أنهم كانوا يقدمون نخبة متعلمة قامت بدور المتحدث نيابة عن الناس ، وكذلك عملوا كوسطاء بينهم وبين من يحكمونهم •

ولم يكن فى هذا أى جديد ، اذ كان العلماء يقومون بهذه الأدوار فى الأوقات الأخرى ، والأماكن الأخرى غير أنه فى خضم أحوال مصر العثمانية الصعبة ، بل والفوضوية أحيانا ، كانت هناك حاجة خاصة الى

الدور الذى كان يضطلع به العلماء ، رغم أن معظمهم كانوا شديدى التحفظ مع قلة كان لها مهابة كانت تميز الكثير من الصوفية ٠

ففى ظل الدكتاتورية العسكرية المستغلة القاسية التى سادت مصر العثمانية ، كان العلماء ، فى الغالب ، هم الملجأ الأخير للرعية المقهورة ، وبالمثل ، فقد كانوا يشكلون حلقـــة وصـــل بين الطبقة الحاكمة وعامة الناس ٠ اذ استطاع العلماء أن يسبغوا رداء من الشرعية على حكم الأمراء ، وكان أمرا حصيفا من جانب من هم فى السلطـة ألا يستفزوا العلمـــاء وألا يدفعوا بهم الى معارضة نشطة سافرة للنظام ٠ ذلك أن الحكام كانوا ينظرون اليهم بريبة ، الا أن العلماء كانوا أداة مفيدة (٢) ٠

وبعد تراث طويل من النظرية السياسية والممارسة ، صار العلماء يعارضون أعمال التمرد ضد الحكام ، حتى الظالمين منهم ، وأخذوا يعظون بمبدأ الطاعة ، بما أن يوما واحدا من الفتنة أسوأ من أربعين سنة من الطغيان كما ذكر قول قديم شائع ٠ كان الحكام ، سواء منهم من كانوا ولاة عثمانيين أو بكوات مماليك يظهرون احترامهم للعلماء ويؤيدونهم بطرق متنوعة ٠ كما عرف عن الكثير من الباشوات والأمراء توقير العلماء والأخذ بمشـــورتهم ٠

يمكن اعتبار فترة حكم محمد بك أبى الدهب ١٧٧٣ ــ ١٧٧٥ م ، ذروة نفوذ العلماء على حاكم مصرى ٠ اذ كان أبو الدهب يحترمهم ، ويساندهم ماديا ، ويستمتع بصحبتهم ، ويقبل وساطاتهم (٣) ٠

ومن ناحية أخرى ، كان الأمير يوسف بك فى القرن الثامن عشر مثلا غير معتاد لأمير يكره العلماء ودخل معهم فى الكثير من الصدامات (٤) ٠ غير أنه كقاعدة عامة ، كان أهل السلطة يحثون العلماء على اصدار فتاوى حين يجرى الاعلان عن تمرد أحد الأمراء ، أو فيما يشـــبه ذلك من أزمات سياسية ٠ ونادرا ما كان العلماء يتخذون موقفا فى هذه المنازعات ، فلم يكن من الصعب على أحد جانبى الصراع الحصول على فتوى ، تبرر موقفه وتندد بمنافسه (٥) وبالمثل ، كانت توقيعات كبار العلماء مطلوبة على شكاوى الأمراء الموجهة الى الحكومة المركزية فى اسطنبول (٦) حين كان هؤلاء

الحكام يدركون أن اجراء اقتصاديا جائرا بدرجة تدفع بالعلماء الأليفين الى معارضته علنا ، فانهم ـ أى الحكام ـ كانوا غالبا مستعدين للتفاوض على حل توفيقى (٧) ٠

كان العلماء يتمتعون بحصانة من المعاملة الفظة التى كان يلقاها غيرهم ، ومن المؤكد ، أن هذه الحصانة لم تكن مطلقة بأية حال من الأحوال ، كما كانت درجتها تختلف اختلافا كبيرا حسب شخصية الباشا أو البك الذى يكون فى السلطه ٠

وعادة ، كان الأمراء يحترمون العلماء ولا نقرأ عن عالم تعرض لاضطهاد ، ونادرا ما نقرأ أن أحدهم قد أسيئت معاملته اساءة حقيقية ٠ اذ تعد الحالات القليلة التى حدث فيها عقاب استثناء ٠ وفى احدى المرات ، نفيت مجموعة من العلماء من القاهرة ، الى قراهم فى أعقاب القتال الذى وقع فى عام ١٧١١ م والذى اضطروا فيه الى الانحياز الى أحد الطرفين (٨)٠ اذ وجد عالم صغير المقام شاهدا (شاهدا محترفا) (*) مذنبا بتزييف وثيقة قانونية ٠ فحلقت لحيته وحمل بطريقة مخجلة على ظهر أحد الجمال خلال شوارع القاهرة ثم نفى الى تينه Tina (٩) ٠ وفى حالة أخرى ، قتل خطيب احدى القرى بالخوزقة لما يفترض بأنه خصص مأوى لزعيم البدو سالم بن حبيب ، الذى كانت الحكومة قد أدانته واعتبرته خارجا على القانون (١٠) ٠ على أية حال ، فمن الواضح أن القرية كانت مغمورة لذا ، لم يتمتع الخطيب بالحصانة التى يتمتع بها عالم من الأزهر ٠ ولقد ضرب أحد الأمراء الجزيرى ، المؤرخ المعروف للحج والذى كان قاضيا (١١) وأهانه غير أن هذه الحالة ، أيضا لا تعد نموذجا ٠ وفوق ذلك ، كان الجزيرى موظفا بالخزانة وبالرغم من أنه كان عالما ، الا أنه فى هذه الحالة عومل كموظف ٠٠

ولم يكن العلماء يتدخلون عادة فى السياسة ، ولا يكادون يهتمون بما اذا كان هذا الأمير أو ذاك الباشا سيكون حاكمهم ٠ غير أنهم كانوا ، من حين لآخر ، يرفعون أصواتهم تحبيذا لحركة سياسية بعينها ، مثل تنصيب أحد الأمراء ، أو المصالحة بين البكوات ، من أجل تجنب الصراع

(*) المقصود شاهد زور ٠

الذى يمكن أن يكون مدمرا بالنسبة للناس (١٢) . كان العلماء ممزقين ، بين مصالحهم الشخصية ، التى كانت عادة ما يتم اشباعها ، بشـــكل معقول، حتى من الحاكم الجائر، وبين مسئوليتهم الأخلاقية كناطقين، بالنيابة عن المجتمع المسلم بصفة عامة . اذ كان ديدنهم هو مبدأ الطاعة للسلطة السياسية ، مما استبعد اى فعل متطرف أو عنيف . وأيا كان الأمر ، فان الكثير كان يتوقف على شخصية العالم كفرد .

العلمـــاء كقضـــاة

كما سبق ذكره ، لقد تأثر العلماء المصريون بشـــكل غير طيب بالاحتلال العثمانى ، بصفة رئيسية ، فى مجال ادارة العدالة . اذ يشكو ابن اياس مرارا مر الشـــكوى من بدع العثمانيين ، أو نواياهم التى يفترضها : مثل تعيين قضاة أتراك كان أهل القاهرة يعتبرونهم جهلة ، وعزل القضاة المحليين ، والخوف من أن يحل القانون العثمانى (اليسق) Yasaq محـــل الشريعـــة ، واليسق هو قانون ادارى علمـــانى ، والخوف من فـــرض ضرائب غير شرعية على عقـــود الزواج ، وظهـــور اشاعات بالغاء مذاهب الفقه الاسلامى باستثناء المذهب الحنفى (١٣) .

ان الصورة التى تظهر مما أخبرنا به ابن اياس وغيره من المصادر فيما يتعلق بادارة العثمـــانيين للعدالة فى مصر ليست واضـــحة كل الوضوح . وتبين تذبذبات فى السياسات . اذ بدا أن خطوات السلطان سليم الأولى تبرر أسوأ شكوك المصريين . ذلك أنه قام بتعيين شخص فى منصب قاضى العرب ــ أى القاضى المسئول عن الشئون العربية (المصرية) ــ يصفه ابن اياس بأنه « أجهل من حمار » (١٤) . وبعد ذلك ، فى رجب ٩٢٨ هـ / مايو ١٥٢٢ م ، قام بتعيين أحد كبار القضاة الأتراك ليكون فى منصب قاضى عسكر .

لقد أحدث القضاة الأتراك انطباعا شديد السوء فى نفوس نظرائهم المصريين .

لقد كان من الواضح أن النظام الجديد لم يكن يريد أن يخضع نظام القضاء المصرى ، للقضاة العثمانيين فحسب ، وانما أراد أيضا أن يبسط

النظام ويجعله نظاما مركزيا ـ وبذلك يجرى عملية توفير أو اقتصاد ـ عن طريق تقليل عدد نواب القضاة والرسل (*) • ويعبر ابن اياس عن حزنه لأن القضاة والأعيان والعلماء (المعممين) لم يعودوا يظهرون فى مدرسة الصالحية « التى جرى العرف أنها حصن العلماء » ويلاحظ أن القضاة المصريين كانوا يخشـــون من فقد مناصبهم فلم يجرؤوا على تحـــدى الأتراك (١٦) • وثمة بدعة أخرى لم تلق ترحيبا هى تعيين القسامين ، أى الموظفين المسئولين عن التعامل فى المواريث ، سواء القسمة العسكرية ، أى أراضى العسكريين المتوفين ، أو قسمة عربية ، والمقصود بها قسمة أراضى المدنيين (١٧) • وبالرغم من هذه السياسة ، الا أن هناك دليلا على أنه ، عند نقطة معينة ، قام سليم بتعيين ـ أو بالأحرى أعاد تعيين ـ أربعة قضـــاة مصريين من المتكلمين باللغة العربية ، فى مناصـــبهم كى يرأسوا القضاء على المذاهب الأربعة ، وهم ، كما ذكرهم الحوليون : كمال الدين الطويل للمذهب الشافعى ، ونور الدين الطرابلسى للحنفية ، والدميرى للمالكية ، وأحمد بن النجار للحنابلة ـ وجميعهم شخصـــيات تاريخية معروفة خير المعرفة (١٨) •

وفى جمادى الآخرة سنة ٩٢٨ هـ / يونيو ١٥٢٢ م ، تم فصل هؤلاء القضاة الأربعة ، الا أنهم عينوا مرة أخرى فى شوال ٩٢٩ هـ / أغسطس ١٥٢٣ م (١٩) • اذ يبدو من المؤكد أنه كان هناك أربعة قضاة (على المذاهب الأربعة) أثناء ثورة أحمد باشـــا ، اذ ان هذا الترتيب (تعيين قضاة على المذاهب الأربعة) يتفق مع سياسة الثائرين فى احياء المؤسسات (النظم) المملوكية (٢٠) •

لقد شدد القانون الذى أصدره السلطان سليمان القانونى والمعروف باسم قانونى نامه مصر ، بصفة خاصة على وضع القاضى • وينص على التخلى عن عادة احضار المتخاصمين أمام الوالى (رئيس الشرطة) وأن مجلس القاضى هو المكان الوحيد للتقاضى (٢١) • وكان هذا النص يتماشى

(*) baillif أو الرسول ـ المقصود قضاة التنفيذ أو ما يشبه المحضرين الآن •

مع السياسة العثمانية العامة من حيث اعطاء القضاة دورا مركزيا في كلا النظامين القضائى والادارى ٠

لم يحتكر الأتراك العثمانيون منصب كبير قضـــاة مصر فحسب وانما تم تعيينهم أيضا فى مناصب قضائية أخرى فى كل من مصر نفسها وفى الحجاز ٠ ومع ذلك ، فان العلماء المتكلمين بالعربية ، وغالبيتهم من المصريين ، عينوا قضاة ، وان لم يكن هذا فى أعلى المناصب ٠ وكان هناك قضاة شوام من بين هؤلاء ٠ وكان المصريون يعينون ، بشكل روتينى ، كقضاة محليين : كقاض على أحد أحياء المدن ، وكانت فترة المنصب بحسب نص القانون ، ثلاث سنوات ، غير أن شاغلى المناصب ظلوا مددا أطول من ذلك ، مما كان يضـــايق الحــكومة المركزية فى اسطنبول كثيرا (٢٢) ٠

وكان منصب قاضى العســكر مـوازيا لمنصب الباشـــا الى حـد كبير ٠

وأثناء القرن السادس عشر ، كان كبير القضاة العثمانيين من أصحاب المناصب الأقوياء ، بحيث كان يبقى فى مصر مدة أطول ٠ ودون المؤرخون الحوليون بعناية تاريخ وصوله وتاريخ رحيله (٢٣) ٠

وأصبحت مدة توليه المنصب أقصر ، بحيث كانت تدوم عاما أو اثنين ، فى المتوسط ٠ ومع مقدم القرن الثامن عشر ، صار شخصية عديمة الأهمية ، الى حد ما ٠ من الناحية الاجتماعية والسياسية ، رغم منصبه الرسمى الرفيع ، ومن الجدير ملاحظته ، أن المؤرخين الحوليين فى القرن الثامن عشر ، من أمثال أحمد شلبى والجبرتى ، لا يكادون يذكرون كبير القضاة ، وحتى فى المرات النادرة التى يذكرونه فيها ، لا يفعلون سوى التأكيد على الدرجة التى صار اليها من حيث انه صار شخصا ثانويا ٠ وفى عـــام ١٧١١ م ، أثناء حادث تورط فيه « الواعظ » التركى أصبح القاضى العثمانى طرفا فى النزاع ، رغم ارادته ، وأثبت أنه شخص سلبى رعديد لا يملك آية سلطة دينية أو عامة (٢٤) ٠

وثمة قاضي عسكر آخر كان قد أعلن بعجرفة لدى وصوله فى عام ١١٣٣ هـ/١٧٢٠ م أنه سوف يصلح ديانة المصريين ٠ وجلب له قوله هذا السخرية من الشعب على تدخله لأنه لم ينجز أى شيء ، وتورط فى الدسائس السياسية بلا داع (٢٥) ٠ ويجب الاشارة ، أخيرا ، الى أن النظام القضائى قد مر بعملية تمصير بطيئة ٠ اذ ان لغة سجلات القسمة (الميراث) صارت باللغة العربية بدلا من اللغة التركية ، غير أن الأمر الأكثر دلالة ، هو تناقص عدد القضاة الأتراك ، ففى ١٧٩٨م لم يكن هناك سوى ستة قضاة من الأتراك العثمانيين ، وكان الباقون من العرب (٢٦) ٠

المذاهب

درس علماء المسلمين المذاهب الاسلامية وطبقوها ٠ وكان لكل مذهب تراثه الشرعى والعلمى وكتبه الدراسية ٠ كما كانت المذاهب وحدات اجتماعية ، وكان من الشائع نشوء توتر بين الطلبة والعلماء المنتمين للمذاهب المختلفة (٢٧) ٠ وكان التوزيع الجغرافى للمذاهب فى مصر شديد البساطة ٠ فالقاهرة كان يسيطر عليها المذهب الشافعى ، رغم وجود مجتمع كبير من الحنفية والمالكية بها ، حيث استمد المنصب الحنفى الكثير من قوته من الحكومة العثمانية ، اذ كان المذهب الحنفى هو مذهبها الرسمى ، وساعدت الجالية التركية على انتشاره ٠

وكان المذهب الحنفى دائما هو مدرسة الفقه والتشريع لمعظم الأتراك والمماليك قبل الفتح العثمانى وبعده ، الا أن المماليك لم يجعلوا مذهبهم الحنفى هو السائد من الناحية التشريعية والفقهية فى السلطنة ٠

وكان المذهب المالكى فى مصر امتدادا لنفس المذهب فى شمال أفريقية ، حيث كان سائدا ٠ وتعكس خريطة المالكية فى مصر الهجرات المتجهة نحو الشرق التى قامت بها قبائل من شمال أفريقية الى مصر فى العصور الوسطى والعصور الوسطى المتأخرة ٠ وبالمثل كان اقليم الصعيد، فى غالبه من المالكيين ، ربما نتيجة لهجرة القبائل العربية من أصول تنتمى الى شمال أفريقية ، من الدلتا نحو الجنوب ٠ لذا كان المذهب

المالكى فى مصر ، مرتبطا الى حد كبير بالسكان الذين كانوا اما من الأجانب (مغاربة) ، أو السكان الذين يعيشون فى أماكن قصية (كالصعيد) حيث أهله الذين يسهل التعرف عليهم بسبب لهجتهم ومظهرهم وطبعهم ٠

أما المذهب الحنبلى الذى لم يكن له أتباع كثيرون فى مصر المملوكية، فلم يلبث أن اختفى فى مصر العثمانية ٠

كتب الشعرانى فى القرن السادس عشر سير بضعة علماء حنابلة كان يعرفهم ٠ ولكن لا توجد سير للحنابلة المصريين فى كتاب الجبرتى ٠ ومع قدوم القرن السابع عشر ، كانت المصادر تتحدث عن مذاهب ثلاثة وليس أربعة (٣١) ٠ بينما اختفت مناصب قضاة المذاهب الأربعة من الوجود مع نهاية الدولة المملوكية ، كانت مناصب كبار المفتين للمذاهب الثلاثة مهمة فى مصر العثمانية ، وكان المفتون ، على الدوام ، من بين العلماء المصريين ٠

التكوين العلمى للعلماء

كما سبق أن ذكرنا ، لم تكن الحقبة العثمـــانية فى مصر ، فترة مبدعة أو خلاقة ، ولم يغفل المراقبون المعاصرون عن الجو الفكرى المجدب الذى ساد الأزهر ، اذ يفهم من كتابات حسن الحجازى ، وهو شاعر وهجاء القرن الثامن عشر ـ كثيرا ما يذكر الجبرتى نظمه عن الأزهر ـ أن علماء الأزهر كثيرا ما يجعلون عباءاتهم أكبر حجما وأكمامهم أكثر عرضا كى يكونوا سادة على الأهالى (٣٢) ومع ذلك ، فلقد كان الكثير من العلماء دارسين مخلصين للعلم على مدى حياتهم ، يسـعون الى تلقى العلم من معلمين مختلفين ، وقاموا بتأليف كثير من الكتب لكن اطلاعهـــم كان مقصورا على الموضـــوعات التقليدية الدينيـــة ، الا أنهم حتى فى هذه المجالات المحدودة لم يظهـــروا سوى قدر قليل من الأصالة ٠ والجبرتى يذكر ، رغم هذا ، بضعة علماء ، ممن كانوا يهتمون بالجبر والحساب والجغرافية والفلك والمنطق وغير ذلك (٣٣) ٠

وثمة لقاء فى شوال عام ٦٠١ هـ / أكتوبر عام ١٧٤٧ م بين أحمد باشا ، أحد الوزراء العثمانيين ، وكبار علماء القاهرة بزعامة شيخ الأزهر

الشبراوى ، تقدم لنا تفهما نادرا للعالم الفكرى للعلماء وادراكهم الذاتى. اذ خاب أمل الوزير لدى علمه أن كبار علماء مصر غير قادرين على مناقشة العلوم الرياضية معه . فقال الشبراوى شارحا : نحن لسنا بأعظم العلماء (فى مصر) وانما نحن الذين أخذوا على عاتقهم خدمة العلماء وتمثيل حاجاتهم أمام رجال الحكم والحكام ، فمعظم أهل الأزهر لا يشغلون أنفسهم بالعلوم الرياضية ، باستثناء الحساب والمقاييس اللازمة لتوزيع المواريث. وأضاف الشيخ أن دراسة العلوم الدقيقة تتطلب آلات ومهـارات فنية ، غير أن معظم الأزهريين من الفقراء ، وهم مجموعة من بسطاء الناس ، من القرى والبنادر ، تندر بينهم القدرة على شىء كهذا . وحين استسلم الوزير تقريبا الى أن المصريين جهولون بالعلم ، اتجه الى والد الجبرتى ، الذى تفوق فى هذا المجال فأحدث فى نفس الوزير انطباعا عظيما (٣٤) . وتكشف هذه الحادثة العارضة القصيرة المنعزلة المؤسفة ، عن الكثير من الحقيقة . ذلك أن معلومات العلماء العامة محدودة ، باستثناء الدراسات الدينية ، كما ذكر الشبراوى . كما أن اشارته الى الخلفية الاجتماعية للعلماء ليست أقل أهمية سواء فى الأزهر أو غيره . وتبين التأبينات التى كتبها الجبرتى بجلاء أن غالبية العلماء ، كانوا ، فى حقيقة الأمر ، من أصل قروى وجاءوا الى القاهرة للدراسة وهم شباب مدقع الفقر . ومن الأمور التى لها دلالتها أنه لم يوجد واحد فقط من مشايخ الأزهر فى القرن الثامن عشر (والقرن التاسع عشر أيضا) من مواليد القاهرة ، بل كانوا جميعا قرويين (٣٥) ، كما يبين هجاء الشربينى فى القرن السابع عشر . فبعض العلماء كانوا يخجلون من أصولهم الريفية ويحاولون اخفاءها (٣٦) ومن ناحية أخرى ، حافظ الآخرون على صلات لمدى الحياة مع أهل قراهم (البلديات) حتى بعد أن تكون أسماؤهم قد لمعت فى العاصمة .

وكانوا يسافرون الى بلادهم مرة أو مرتين فى العام ، ويصدرون الفتاوى للقرويين ، ويسوون المنازعات ، ويبرمون عقود الزواج ، وغير ذلك باعتبارهم كسلطات دينية فى قراهم (٣٧) .

ويمكن شرح جاذبية الأزهر وغيره من المدارس الدينية لشـــباب القرويين ، حين نعرف أنه قبل القرن التاسع عشر كان القرويون ممنوعين

من الاستقرار فى القاهرة ، وكانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك بشـــكل قانونى هو الالتحاق بالأزهر وبذلك تتوافر للشـــخص فرصـــة للحراك الاجتماعى من خلال طلب العلم ، فى القاهرة ٠

احوال العلماء الاقتصـــادية

يجب أن نؤكد على أن العلماء لم يكونوا طبقة اقتصادية اجتماعية متجانسة ، فالقليل منهم ، كانوا على قدر كبير من الثراء ، غير أن الغالبية كانت من الفقراء ٠ كانت الحكومة وكذلك المتبرعون من الأفراد ينفقون عليهم ٠ فكان هؤلاء العلماء الفقراء مطمئنين الى حد أدنى من العون على الأقل٠ وكان هذا العون أكبر بكثير مما يمكن أن يأمل فيه بقية الأهالى(٣٨) وكان قليل من العلماء المحظوظين يتلقون دخولا مرتفعة ومنتظمة باعتبارهم مدراء للوقف ٠

وبنى مشايخ الأزهر منازل واسعة فى المناطق الراقية الغالية على ضفة النيل ، مثل بولاق أو على بركة الأزبكية ٠ وكان لدى شيخ الأزهر شنن الكثير من العبيد والجوارى ، بل ومماليك ، الأمر الذى لم يكن معتادا مطلقا بالنسبة لأحد الأهالى (٣٩) ، اما الغالبية الكبرى ، عموما ، فكانت تكسب قوتها عن طريق التدريس ٠ اذ كان فى امكان العالم أن يزيد من دخله عن طريق اصدار الفتاوى ، ونسخ المخطوطات وما الى ذلك من أعمـــال ٠

وتظهر الكثير من الأدلة أن التنافس على المناصب التعليمية كانت منافسة شرسة ٠ فلقد حدث كثيرا أن قطع العلماء المصريون كل الطريق الى اسطنبول لاقناع ذوى النفوذ هناك كى يقوموا بتعيينهم فى مناصب تعليمية أو غير ذلك من المناصب فى مصر ، وكان هذا يتطلب عزل من يقوم على المنصب ، وقد يكون هذا المعزول أكثر كفاءة (٤٠) ٠

وكان بعض العلماء يشغلون أنفسهم بالتجارة ، على الأقل لبعض الوقت حتى ان أحـد الباشـوات حين انقص من معاشات العلماء ، ادعى انهم تجار حقا (٤١) ٠

ويوضح أحد الفرمانات بتاريخ أغسطس١٧٣٤م، أن العلماء من أصحاب المشروعات ، أو الذين يعملون كملتزمين entrepreneursكانت السلطات تحابيهم وتعاملهم معاملة خاصة ليست كمعاملة غيرهم ، اذ حصل أحد مشايخ الأزهر على قرار سلطاني خاص باعفائه من الضرائب وغيرها من المصروفات (٤٢)٠ وكان هذا الشيخ قد بنى لفائدته الشخصية ، قاربا لحمل المسافرين لمولد البدوى فى طنطا ٠ وكان مصدر الدخل الدائم لأحد العلماء هو الجوالى ، أو الجزية التى كانت مفروضة على المسيحيين المحليين واليهود ، مع أن هذه المبالغ لم تكن سوى جزء صغير من النقود التى كانت تدفع للعلماء والمؤسسات الدينية (٤٣) ٠ اذ كان معظم دخل العلماء يجىء من مؤسسات الوقف التى كانت عوائدها هى أساس رواتبهم، ومنها كان يصرف على صيانة المؤسسات الدينية٠وقد تكون ممتلكات الوقف قرى ومبانى مدنية ، وغير ذلك من المشروعات التى تدر عائدا ٠ وكانت القرى الخاصة بالوقف معفاة من الضرائب الأخرى المنتظمة وغير ذلك من المصروفات ٠ كما يتضح من الفرمانات العثمانية ، أنه لم تكن هناك مراعاة لهذا المبدأ أحيانا (٤٤) ، فكثيرا ما كان أحد الأثرياء ـ ربما من الطبقة الحاكمة ـ يوقف ويرشح عالما كوصى على هذا الوقف ، وفى الكثير من الحالات ، كان أوصياء الوقف ، هم من الطبقة الحاكمة ـ مثل الأمراء وضباط الجيش أو من بين موظفى الحكومة ٠ فعلى سبيل المثال ، كان القائم على أوقاف الأزهر أميرا وليس عالما (٤٥) ٠ وكانت ادارة الأوقاف عملا عسيرا متشعبا ، وكثيرا ما شكا العلماء من أن الملتزمين لم يقوموا بتسليم المنوط بهم تسليمه ٠ وكانت الحكومة المركزية فى اسطنبول تحاول أن تحل مشكلة ادارة الوقف عن طريق تحويلها الى ادارة مركزية ، وذلك بتعيين مفتش أعلى ، فى العادة ، أحد الأغوات ، أى خصيان الحريم السلطانية ٠ وفى القرن الثامن عشر ، كان العلماء أنفسهم يدخلون طبقة الملتزمين (٤٦) ، وكانت المعاشات تدفع لأولاد العلماء وعائلاتهم ٠ ومن حين لآخر ، كانت الحكومة تلغى هذه العطاءات ففى ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ ـ ١٧٣٥ م ، وقعت مواجهة بين قاضى عسكر ومتحدث بلسان العلماء بخصوص معاشات الأولاد والعائلات ، اذ وصل أمر من اسطنبول معلنا قطع هذه الحصص ٠ وجادل كبير القضاة قائلا بما أن هذا هو أمر السلطان ، فتلزم

طاعته ، غير أن الشيخ المنصورى، متحدثا عن العلماء قال، ان هذه المعاشات والعطاءات قد أقرها حكام سابقون • وادعى أن حقوق المعاشات لم تعد قابلة للتفاوض وانها تمول انشاء المساجد والأسبلة العمومية وغير ذلك من المؤسسات الدينية • واذا كان للمعاشات أن تقطع ، فسيكون فى ذلك ضرر على الدين • وعليه ، قال ، فى الختام ، ان أمر الحاكم يتعارض مع الشريعة ولا تجب طاعته (٤٧) •

الانقســـامات العرقيـــة

من الناحية العرقية : كانت طبقة العلماء فى مصر متجانســة تمام التجانس • فالغالبية العظمى كانت من المصريين المتحدثين باللغة العربية ، غير أنه كان هناك تسرب مستمر من العلماء الذين حضروا الى مصر بغرض الدراسة ، أو أولئك الذين توقفوا فيها وهم فى طريقهم الى بلادهم وهم قادمون من الحج ، فأثروا حياة مصر الفكرية والدينية •

وكان المغـــاربة هم أكبر جماعة من العلماء الأجانب ، الذين تم استيعابهم وتمثلهم بدرجات مختلفة داخل المجتمع • وهناك معلومات موثقة بشكل جيد عن جالية مغربية كبيرة فى مصر فى ذلك الوقت • اذ يروى الجبرتى عن حالة العديد من العلماء المغاربة ، الذين اندمجوا فى حياة الأزهر الدراسية والاجتماعية ، فكان بعضهم يحتلون مناصب فى رواق المغـاربة القوى فى الأزهر (٤٨) • بينما كان المصريون (من علمـــاء وغيرهم) يترددون فى السفر للخارج ، بصفة عامة ، وكانت القـــاهرة ترحب بالعديد من العلماء من الشام والجزيرة العربية ، بحيث ان بعضهم تمكنوا من أن يعيشوا حياة عملية لامعة فى الأزهر (٤٩) •

وثمة مسألة هامة تتعلق بوجود العلماء الأتراك وأنشطتهم فى مصر • اذ كان الأتراك هم أكبر جالية أجنبية فى القاهرة • وكان فى الأزهر رواق تركى ، وكما تبين واقعة عام ١٧١١ م ، تلك الواقعة الخاصة بالخطيب التركى ، فانه كان هنـــاك طلاب أتراك آخرون فى مســـاجد أخرى غير الأزهـــر •

كثيرا ما يلاحظ افليا Evliya ، الذى يبدو أنه يفضل الأتراك على العرب ، كما قال مرارا ، وجود مساجد يقتصر مصلوها على الأتراك ، كما فى مسجد مردن Mardan أو ألتى بارمك أفندى Alti Barmak وكثيرا ما يلاحظ أن أسلوب العمارة فى الكثير من المساجد كان تركيا ، كما يتكلم عن الكتاتيب المخصصة للأطفال الأتراك (٥٠)،غير أنه حتى افليا، الذى أعار كبير أهمية للوجود التركى فى مصر ، لا يأتى على ذكر علماء من الأتراك ، باستثناء بضعة قضاة ، بينما يتكلم بالفعل عن علماء مصريين • وهذا يكمل الصورة التى تظهر فى مصادر أخرى ، وبصفة رئيسية عند الجبرتى ، وهى أن الجالية التركية الكبيرة فى مصر لم تخرج علماء لهم أية أهمية ، وحتى اذا كان ذلك قد حدث ، فان هؤلاء العلماء لم يبقوا فى مصر أو لم يكن لهم أى أثر على حياتها الدينية أو العلمية • ومن غير المحتمل تماما أن الجبرتى لم يذكر سير العلماء الأتراك فى كتابه لافتقاره الى المعلومات الخاصة بهم ، ذلك لأنه كتب عن الأجانب بمن فيهم بعض الأتراك ، اذا كانوا بارزين اجتماعيا ، على نحو من الأنحاء (٥١) •

نمو الأزهر أثناء الحقبة العثمانية

من بين أوضح التطورات فى التاريخ الثقافى لمصر العثمانية ذلك التطور الكبير الذى حدث للأزهر ، أكبر مسجد جامعى College-mosque • اذ انه مع قدوم الاحتلال العثمانى ، كان الأزهر مؤسسة دينية مستقرة عريقة خاصة بالتعليم الدينى • ومنذ انشائه عام ٩٧٠ هـ ، بواسطة الفاطميين كمركز تعليمى اسماعيلى يقوم بالدعاية لهذا المذهب ، حوله الأيوبيون الى جامعة سنية ، فاكتسب شهرة فريدة ، ومكانة خاصة• غير أن الأزهر لم يكتسب موقعا خاصا، سوى أثناء الحقبة العثمانية، بحيث طغى بظله على جميع المدارس المصرية فجعلها عديمة الأهميه نسبيا • ويجب النظر الى نمو الأزهر ومركزيته تحت الحكم العثمانى على أنه تعبير اضافى آخر عن التأكيد على الاسلام المصرى (يقصد طريقة المصريين فى فهم الاسلام وممارسته : المترجم) أثناء تلك الحقبة •

فى بداية الحكم العثمانى ، كان الأزهر غير مهم نسبيا • فمثلا ، لا يؤكد ابن اياس على أن الأزهر كان محورا للعملية التعليمية الدينية ،

بل انه يسمى المدرسة الصالحية ، وليس الأزهر « قلعة العلماء » ، غير أنه يجب ملاحظة أن الأزهر هو الذى احتج على ضريبة الزواج التى فرضها العثمانيون ، اذ يروى ابن اياس أن حوالى ١٠٠ من الأزهريين ظهروا أمام خاير بك للتعبير عن معارضتهم (٥٢) · وطبقا لابن اياس ، فان العثمانيين أضروا بالكثير من المؤسسات الاسلامية فى القاهرة ، غير أنه لم يأت ذكر للأزهر مطلقا كواحد من هذه التى أضيرت ، وبعد ذلك بعقود عدة ، يظهر الأزهر ، فى كتابات الشعرانى ، باعتباره المؤسسة المركزية التى تبرع لها بعض الباشـــوات الذين حكموا مصر ، وفى تلك المؤسسة أطلقوا مبادرات لأعمال الخير التى تفيـــد طلاب الأزهر (٥٣) · وكتب رحالة مســـلمون ، أثناء الحقبة العثمانية ، من أمثـــال افليا جلبى (شلبى) Evliya Celebi والحجاج المغاربة ، عن الأزهر باعجاب شديد ، معترفين بأنه لا يوجد ما يدانيه فى العـــالم كمركز عظيم ثرى ومحترم يختص بالتعليم الدينى ، اذ كان يعج ليل نهار بالدرس ، والصلاة والذكر ·

أصبح الأزهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مؤسسة علمية حقا ، وملاذا للعلماء (٥٤) · حقيقة لقد كانت هناك مدارس أخرى فى القاهرة ، غير أنها كانت عديمة الأهمية ، بالمقارنة بالأزهر ، بل ان الكثير من المناصب التعليمية فى المؤسسات الأخرى كان يقوم عليها مشـــايخ أزهريـــون (٥٥) ·

بنيـــة الأزهـــر

كان عدد طلاب الأزهر يتراوح ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ كان يقوم بتعليمهم ٧٠ من الأساتذة بالاضافة الى المساعدين والمعلمين ، ويتحدث فرمان عثمانى بتاريخ ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م عن حوالى ٤٠ من العلماء والمفتين الذين جاءوا الى الديوان ليشكوا من مخصصاتهم ، بينما اجتمع حـوالى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ من الطلبـــة فى الجامع نفســه ، للتظاهر بسبب تأخر أعطياتهم ·

وكان الطلاب ينتظمون فى أروقة أو دور ضيافة حيث كانوا يسكنون ويدرسون ويتسلمون جراياتهم (٥٦) ، وكانت الأروقة تنقسم على أسس عرقية واقليمية · وهكذا ، كانت هناك أروقة للاتراك (الأروام) والشوام،

والمغاربة ، وأهل الصعيد وأهالى مديرية الشرقية ، وما الى ذلك · وبعض الأروقة مثل المغربى والصعيدى ورواق الطلبة العميان ، كانت مضطربة بشكل شنيع ، اذ كانت التوترات والصدامات بين الجماعات العرقية داخل الأزهر كثيرة الحدوث كما سنرى فيما بعد (٥٧) ·

كانت الدراسة فى الأزهر تسير على نسق ما كان يحدث فى العصور الوسطى · اذ كانت غير رسمية ، حيث كان كل شىء متروكا تقريبا لاجتهاد الطالب واختياره ، بل ان المؤسسة نفسها لم تكن لها متطلبات للالتحاق ، أو مقررات محددة للدراسة أو امتحانات ، وما أشبه ذلك ، قبل نهاية القرن التاسع عشر · وكان الطالب هو الذى يحدد الدرس الذى يحضره (٥٨) ·

كان الطلبة يحصلون على الاجازة ، وهى شهادة أو رخصة بتدريس مادة معينة درسوها على شيخهم · وكانوا يحصلون على هذه الاجازة منه هو وليس من الأزهر ، كمؤسسة · كان التعليم فى الأزهر ينحو أكثر نحو الفردية بمعنى عدم خضوعه لنسق معين ، على النقيض من نظام المدارس (التعليم) العثمانية الذى كان منتظما أكثر من ذلك بكثير ويعتمد على التدرج الهرمى · فالشيخ يصل الى درجة الأستاذية باجماع زملائه ، رغم ضرورة وجود تأكيد رسمى على ذلك من السلطات المصرية (٥٩) ·

منصب شيخ الأزهر

كانت نشأة منصب شيخ الأزهر نحو نهاية القرن السابع عشر مؤشرا على نهضة الأزهر · ولقد تأكد هذا المنصب ، الخاص بالشيخ ، فى القرن الثامن عشر ، حين ضعف الحكم العثمانى ، شأنه شأن تحول منصب كبير الأشراف (نقباء الأشراف) الى العائلات المصرية فأكد الاسلام المصرى بذلك نفسه (*) ·

ومع ندرة المعلومات المتعلقة بالتركيبة الداخلية للأزهر ، قبل القرن الثامن عشر ، الا أنه يبدو أن عالما كان يعرف بأنه أعلى من الآخرين · اذ يذكر الشعرانى ، بالفعل ، رأس المدرسين فى الأزهر ، رغم عدم وضوح

(★) المقصود كما ذكر المترجم طريقة المصريين فى فهم الاسلام وممارسته ·

وظائفه (٦٠) . وثمة مصطلحات أخرى تشير الى الرفعة مثل شيخ مشايخ الأزهر تظهر أحيانا فى المصادر (٦١) . غير أن أيا من هذه الألقاب لم يكن له وزن شيخ الأزهر وسلطته ، وهو منصب كان يخصص لرئيس العلماء الأزهريين منذ القرن الثامن عشر ، وكثيرا ما ترجم ب «عميد الأزهر» (فى التسلسل الهرمى فى الكنيسة الكاثوليكية يستخدم لفظ عميد للاشارة الى رئيس كنيسة كبيرة : المترجم) فمنذ نشأة هذا المنصب وهو على درجة قصـوى من الأهمية ، غير أنه لم توضع اجراءات واضـحة لاختيار من يتولاه . لذا ، فلا عجب فى أن صار المنصب شيئا تتكالب عليه الفرق والمذاهب وكان تعيين شيخ جديد للأزهر أحيانا ما يصحبه قدر من العنف. وتكشف الصراعات التى تحيط بهذا المنصب قدرا كبيرا من التوترات داخل جهاز العلماء ومجتمع الأزهر بصفة عامة .

من بين أول ستة مشايخ للأزهر ، كان هناك خمسة من المالكية (٦٢). ولم يكتسب الشافعية احتكارهم للمنصب الا ابتداء من الشيخ السادس فصاعدا . وأول شيخ للأزهر ، كان محمد بن عبد الله الخراشى ، الذى توفى عام ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م وخلفه محمد النشرتى (٦٣) . وبعد وفاة النشرتى عام ١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م ، نشب صراع عنيف أدى الى قتل عدد من الناس . وكان هذا الصراع بين أتباع شيخين هما : النفراوى والقلينى، على المنصب الذى أضيفت اليه مهام تعليمية (تدريسية) فى المدرسة العقبغاوية أو الأقباغاوية Aqbughawiyya . وبعد أن وبخ نقيب الأشراف الشيخين فى الديوان على سلوك أتباعهم ، تم أخيرا تعيين القلينى (٦٤) وكان شيخ الأزهر التالى ، محمد شنن ، (١١٣٣ هـ ١٧٢١ م) الذى كان واسع الثراء ومن كبار ملاك الأراضى وباعتباره من رجال الأعمال ، استطاع أن يقنع الباب العالى بأن يتبرع بخمسين كيسا ، لاجراء اصلاحات فى الأزهر ، ثم ساهم ، اسماعيل بك ، الرجل القوى فى مصر ، فى ذلك الوقت ، بثلاثة عشر كيسا أخرى .

وعلى النقيض من ذلك ، كان شيخ الأزهر التالى ، ابراهيم موسى الفيومى ، (١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م) رجـل دنيـا فاهمل ادارة هـذه المؤسسة (٦٥) .

وكان الشيخ عبد الله الشبراوى ، الذى كانت له علاقات جيدة جدا مع الأمراء ، هو أول شيخ شافعى يتولى منصب شيخ الأزهر • وكان دارسا مهما ، وشاعرا جمع لعلى باشا بن الحكيم تاريخا لمصر ، ضم فصلا عن الحكام حتى زمانه • وتحت زعامة الشبراوى ، شعر العلماء بالكرامة والوقار (٦٦) • ومات الشبراوى فى ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م ليخلفه الشيخ محمد بن سالم الحفنى ، أو الحفناوى ، (١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م) ، الذى عرف بصفة خاصة باعتباره « صوفى خلوتى » (٦٧) وتبعه عبد الرءوف السجينى (ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م) •

وكان شيخ الأزهر التالى ، أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى ، نسيج وحده ، بما أنه لم يكن معروفا بأى مذهب بعينه ، وانما حصل على اجازات من علماء من جميع المذاهب الفقهية • كما كان يقدم الفتاوى حسب تعاليم جميع المذاهب ، ولهذا السـبب كنى بالمذهبى ، أى رجل جميع المذاهب • لقـد كان مثـلا آخر ليتيم معدم وصل الى الأزهر ، وارتقى الى مراتب الشهرة والثراء والنفوذ • فكان الأمراء يعطونه الهبات ، ولكنهم أيضا كانوا يحترمونه لتعبيره عن رأيه بقوة (٦٨) •

وتبع وفاة الدمنهورى فى العاشر من رجب ١١٩٢ هـ / الرابع من أغسطس ١٧٧٨ م ، صراع طويل على المنصب • وتطور ذلك الصراع الى مواجهة بين الشـافعية والحنفيـة مع ما فى ذلك من ظـلال وطنيـة مصرية • كان الطامح الى المنصب هو الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشى وهو رجل طموح غير عادى • وبدت فرصته ضئيلة ، لأن علماء القاهرة اعتبروه غريبا خارجا ، وافدا ، لكونه حنفيا ومن أبناء العريش ، وهى مدينة صغيرة فى شمال سيناء • غير أنه كان أيضا صوفيا خلوتيا • وكان ذلك فى تلك الفترة ، من المتطلبات الضرورية للقبول الاجتماعى بين كبار العلمـاء •

وقد أخبر العريشى ابراهيم بك ، شيخ البلد ، ان الدمنهورى حين كان فى فراش مرضه رشحه نائبا له • ونال العريشى تأييد الأمراء ، والشيخ السادات ، من زعماء الصوفية ، فعينه الأمراء شيخا للأزهر •

فاغضب تعيين العريشى مؤسسة الأزهر التى يسيطر عليها الشافعية ، الذين اعتبروه مغامرا غريبا يحمل خرجا • (تعبير أمريكى يصف الجنوبيين الذين ذهبوا الى الشمال للتكسب) وقال العلماء ان المنصب من حق الشافعية ، وليس من حق حنفى أن يطالب به ، وعلى الأخص شخص من مكان قصى • فأرسل الشافعية ، بزعامة محمد بن الجوهرى ، وهو شيخ وقور مستقل ، شكوى لابراهيم ومراد اللذين كانا يحكمان مصر ، مطالبين بتعيين الشيخ أحمد العروسى ، وهو شافعى ، بدلا من العريشى • الا أن البكوات الذين كانوا فى المعتاد ، يترددون فى أن يساقوا الى مشاجرات العلماء ، اعتبروا الشكوى تحديا لسلطتهم • فقال ابراهيم بك : « من المستحيل أن يغير الصغار ما فعله الكبار » واعتبر أن الاعتراض على تعيين حنفى شيخا للأزهر شىء غير منصف وغير اسلامى وقال : « أليس الحنفية مسلمين ، وأليس هذا هو أقدم مذهب ؟ والأمراء والقاضى والباشا • أليسوا بحنفيين ، وأليس السلطان نفسه ينتمى الى هذا المذهب ؟ » وبدت حجة ابراهيم بك معقولة ، ومنصفة ، كما أننا ، ينبغى ، أن نكرر أن الطبقة الحاكمة سواء من العثمانيين أو المماليك لم تفرض أبدا مرشحا من مذهبها على الأزهر •

ذهب العلماء الى ضريح الامام الشـــافعى ، ليلة الجمعة ، وقضوا الليلة هناك • ان مثل هذه الزيارة المنظمة الى ضريح الولى وصلت الى حد المظاهرة بين علماء الشافعية ومؤيديهم من غير العلماء ضد تدخل الأمراء فى شئونهم الداخلية • وكان المتحدث عن العلماء هو محمد بن الجوهرى الذى سبق ذكره ، والذى كان يحظى باحترام الأمراء لأنه على النقيض من غيره من العلماء ، لم يسع الى صحبتهم ولم يطمع فى هباتهم • أخبر ابن الجوهرى مراد بك « باسم الامام الشافعى سيد البلاد » بأنه أى مراد، عليه أن يخلع رداء الشرف على العروسى باعتباره رأس الشافعية ، تماما كما كان الشيخ الدردير رأس المالكية • وبالفعل نصب العروسى ، وصار مرموقا بعد ذلك ، كما يقول الجبرتى •

على ما يبدو حل العروسى محل العريشى كشيخ للأزهر ، رغم ان الجبرتى لا يقول ذلك بالتحديد • واستمرت المنافســـة بين الزعيمين

الدينيين لمدة سبعة أشهر • اذ كان الحنفية يساندون العريشى • كما كان يؤيده الشيخ السادات والمغاربة حسب اتجاه شيخهم أبى الحسن القلعى وكذلك الأمراء • ومن الواضح أن جميع القوى غير الشافعية تجمعت خلف العريشى ضد احتكار الشافعية للمنصب • وجاء سقوط عبد الرحمن العريشى على حين غرة • لقد بدأت شرارته بنزاع عنيف بين رواقين حنفيين فى الأزهر ، وهما التركى والشامى ، قتل فيه أحد الأتراك وجرح آخر • فشكا الأتراك لبكوات المماليك • فتعاطفوا معهم من قبيل القرب العنصرى (الجنسية) كما يقول الجبرتى • وأمر العريشى باجراء تحقيق فى الأمر باعتباره مسئولا عن الشوام ، غير أنه بدلا من تقديم قائمة بمثيرى الشغب ، كما أمر ، فقد سلم قائمة بأسماء وهمية بينما فر مرتكبو الحادث من الشوام • فخلع ، عندئذ ، من منصب كبير مفتى الحنفية ، وتوفى بعد ذلك بوقت قصير فى بيته ، رجلا مهيض الجناح ، وتولى شخص آخر الرواق الشامى • ولم يسمح لأبناء المجدل وطبرية بالعودة الى الرواق ، وكان على الشوام أن يقدموا ١٠٠ رغيف من الخبز يوميا كدية (بدل دم) (٦٩) • وهكذا صار أحمد العروسى شيخ الأزهر بلا منازع واحتفظ الشافعية باحتكارهم للمنصب •

ورغم أن الشيخ أحمد العروسى دارس وعالم وصوفى خلوتى وصديق حميم للشيخ الصوفى الشهير المبجل أحمد العريان ، مع هذا كله ، لم يكن لأحمد العروسى أن يستمتع بمنصبه ، على أية حال ، لأن مدته كانت فى زمن سيادة عدم الاستقرار السياسى والمصاعب الاقتصادية الخطرة • وكثيرا ما وقع تحت ضغط جماعات خارج الأزهر كى يتدخل نيابة عنهم لدى الأمراء • كذلك فان المغاربة والشوام الذين كانوا معادين له ، ويتميزون بالعدوانية ، قاموا بتمرد مطالبين بمخصصاتهم (٧٠) • وبعد وفاة العروسى عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٤ م قام ، مرة أخرى ، الشيخ محمد ابن الجوهرى باختيار خليفة العروسى • وكان آخر مشايخ الأزهر فى الحقبة العثمانية هو عبد الله الشرقاوى • وكان أيضا صوفيا خلوتيا ممارسا لهذه الطريقة • وكانت صوفيته جلية فى اعماله ، وحاول أن يجرب نفسه أيضا فى كتابة التاريخ • وقام الفرنسيون بتعيينه رئيسا

لديوانهم · وجمع ثروة ، أثناء الحكم الفرنسى بالاستيلاء على ممتلكات الناس الذين غادروا مصر بسبب الاحتلال · فلم يكن رأى الجبرتى فى الشرقاوى رأيا طيبا ، غير أنه لم تكن تعوزه الشجاعة وفى احدى الحالات الشهيرة ، التى سنأتى على ذكرها ، دافع عن حقوق الفلاحين ضد غبن الأمراء · ومات الشرقاوى فى أول شوال ١٢٢٧ هـ ، التاسع من أكتوبر عـــام ١٨١٢ م · وبعـد صراع على المنصـب رشح محمــد الشنوانى خلفا له (٧١) ·

الأزهر فى الحياة العامة

لم يكن الأزهر أكبر المساجد وأكثر المؤسسات توقيرا على مستوى العالم من حيث العلم الدينى الاسلامى فحسب، بل كان يمثل المركز العصبى للرأى العام فى القاهرة · فكان الأزهر غالبا بؤرة لاضطرابات الأهالى ، اذ كان الطلاب يبدأون التظاهرات ، غير أن عناصر خارجية أحيانا ما كانت تقوم بها · فهناك عناصر كانت تريد أن تعبر عن حنقها من خلال هذه المؤسسة · ذلك أن القيام بتظاهرة ضد القلعة ، مركز الحكومة ، كان لابد أن تنتهى نهاية مفجعة بالنســبة للمشــاركين فيها ، اذ كان الجنود سيقطعون دابرهم بلا رحمة ، كما حدث ، بالفعل ، عدة مرات · فكان من التعقل القيام بالضغط على السلطات من خلال الأزهر ، الذى كان يتمتع بحصانة من نوع ما ·

كانت الاضطرابات التى يبدؤها الطلاب والمعلمون من الأزهر عادة ما يكون سببها هو الضيق الاقتصادى حين تنقص العطاءات والجرايات نقصا كبيرا أو تتأخر · وكان فى استطاعة الأزهريين أن يقصروا رد فعلهم على رفع شكوى ، غير أنه فى الحالات الأكثر جدية ، اعتاد الطلبة المقيمون أن يغلقوا بوابات الأزهر ويشوشوا على الدروس والصلوات هناك وكذلك فى المساجد المجاورة ، مثل مقام الحسين ومدرسة محمد بك (٧٢) · وثمة اجراءات أكثر تطرفا كانت تشمل صـــعود الطلبة فوق المآذن ، حيث يصيحون ويلعنون الأمراء ·

فى مثل هذه الحالات ، تغلق الحوانيت الموجودة فى المناطق المجاورة اما تضامنا مع الأزهريين ، أو كاحتيـــاط لتحاشى ما يمكن أن يقع من صدامات مع السلطات ٠

لقد حدثت حادثة معبرة تمام التعبير عن هذا النوع فى جمادى الأولى عام ٩١١ هـ / يونيو ١٧٧٢ م ، حين كانت القضية أملاك وقف يطالب بها المغاربة ٠ فنشب نزاع بينهم وبين يوسف بك ٠ ويوسف بك هذا هو الأمير الذى سبق ذكره باعتباره معاديا للعلماء ٠ ووقف الشيخ الدردير ، الزعيم المالكى الشـــهير بتصـــلب الرأى ، الى جانب المغاربة ضـــد يوسف بك ٠

وحدث اضراب فى الأزهر والأسواق ، وتبع ذلك قيام مظاهرات ، فنشبت صدامات عنيفة بين المغاربة ورجال البك قتل فيها بعض المغاربة وجرح آخرون٠ فتدخل اسماعيل بك ، أقوى أمراء مصر ، الى جانب العلماء وتم الوصول الى حل توفيقى (٧٣) ٠

وفى احدى المظاهرات التى نجمت عن أزمة اقتصادية فى الأزهر والقاهرة بصفة عامة ، خرج طلبة الأزهر ، وخاصة العميان ، يصحبهم الفقراء من الأحياء المجاورة واختطفوا الطعام من الحوانيت ٠ فحصل الأزهريون على وعـــد بأن مشـــكلتهم سوف تحـــل (٧٤) ٠ وكان من الممكن ممارســـة الضـــغط على شـــيخ الأزهر نفســـه ٠ ففى ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ، قام الشوام وبعض المغاربة فى وجه الشيخ أحمد العروسى مطالبين بمخصصاتهم ، فأغلقوا بوابات المسجد ، ومنعوا الشيخ من المغادرة ، لبعض الوقت ٠ ولم يدخل العروسى الأزهر لبعض الوقت ، وكان لا يلقى دروسه الا فى المدرسة الصالحية ٠ وذهب الى اسماعيل بك كى يرفع حالة الطلاب ، غير أن البك اتهمه بتحريضهم ٠ وأخيرا رتب على بك ، الدفتردار ، ناظر الأزهر ، نظاما يمكن الطلبة من الحصول على جراياتهم من الخبز (٧٥) ٠

كانت الاضطرابات تنشب أيضا حين يتعدى مسئولو الأمن أو الجيش على سلام الأزهر نفسه وخصوصيته أو أحياء المدينة المجاورة ٠ ففى عام

١١٤٣ هـ/١٧٣٠ـ١٧٣١ م ، ضايق آغا الانكشارية سكان الأحياء المجاورة للأزهر ، مرات كثيرة ، وذلك فى مطاردته ثلاثة من الهـاربين لأسـباب سياسية • فشكا الأهالى للعلماء ، فاغلقت أبواب الأزهر احتجاجا • فخشيت الحكومة من أن تنتج عن ذلك انتفاضة من الأهالى فمنع الأغا من الاقتراب مما جاور الأزهر (٧٦) • وفى حالة مماثلة عام ١٢٠٥هـ/١٧٩١م، ضايق كبير شرطة القاهرة (الوالى) أهل حى الحسـينية ، فأغلقوا الحوانيت ، وجاءوا الى الأزهر يحملون الطبول للتظاهر ، مما أجبر العلماء على الغاء دروسهم • وبعد مفاوضات معقدة مع الأمراء ، تم عزله الوالى ، وحاول من أتى بعده قصارى جهده أن يسترضى المشايخ (٧٧) •

كما سبق أن أشرنا ، كان العلماء يعدون ملاذا للجماعات التى ليست لها أية صلة بالأزهر والذين يشعرون بأن جورا ما قد حاق بهم • ذلك أن العلماء كانوا هم المتحدثين الوحيدين باسم الأهالى فهم ـ أى العلماء ـ موضع احترام للحكام • وأحيانا ، كان العلماء على وعى برد فعل الحكام ولذا ، كانوا غير راغبين فى مواجهة الأمراء فى مسائل لا تخصهم بالتحديد والقطع • ولم يكن هناك سوى القليل من العلماء ممن لديهم شجاعة تجعلهم يتصرفون باعتبارهم محاكم شعبية • فعلى سبيل المثال ، قاد الشـيخ الدردير مظاهرة ضد الأمراء ، وأعلن عن استعداده لتحقيق العدل أو أن يموت شهيدا • كما وقف الشرقاوى دفاعا عن حقوق مستأجريه ضد أحد الأمراء ، كما سنصف فيما بعد (٧٨) • وكذلك حدث أن أصبح العلماء هم أنفسهم عرضة لغضب الأهالى •

وفى احدى المرات ، فى زمان مجاعة ، دخل المتظاهرون الأزهر ، وأوقفوا الدروس ، وضربوا العلماء ، (١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م) (٧٩) • ولم تنقص الشجاعة شيخ الأزهر أحمد العروسى وكذلك الزعامة ، غير أنه كان فى مأزق بين الحكام وجماعات المحتجين ، بعد أن فرض اسماعيل بك ضرائب فادحة وقروضا على تجار معينين ، وأصحاب الأعمال ، فشق بعضهم طريقه الى داخل الأزهر ، وأجبروا العروسى أن يغلق بوابات المسجد • وتعامل معه الرجال بفظاظة شديدة ، حتى ان الطلبة اضطروا

لحمايته · وتحت الضغط ، صادق العروسى على شكاية المهاجمين الموجهة الى اسماعيل بك الذى اتهمهم فيما بعد بالتحريض (٨٠) ·

وأثناء الحرب الأهلية بين اسماعيل ومنافسيه ـ أى البكوات الذين تراجعوا الى الصعيد وحاربوه من هناك ـ عانت القاهرة من الصراع الذى دام وقتا طويلا · ذلك أن المتاريس والتحصينات التى أقيمت للدفاع عن المدينة جعلت الحياة العادية أمرا مستحيلا ، اذ لم يتمكن الناس من الوصول الى النيل بحرية وارتفع سعر مياه الشرب بشكل موجع · فركب العروسى ومعه العديد من مشايخ الأزهر الى الديوان ، حيث طالبوا ، بشجاعة ، بل بعدوانية ، بوضع حد لمعاناة الأهالى · وحين قرىء الفرمان العثمانى أمام العروسى قاطع قائلا : « ادخل فى صلب الموضوع · فنحن لا نفهم اللغة التركية » وعبر عن غليان الأهالى بسبب الحرب المطولة : « ان الأمراء المصريين لا يقتتلون أبدا بهذه الطريقة · فهم يصطدمون فى معركة واحدة وهى التى تحدد الفائز ، والخاسر · أى دون التسبب فى متاعب تزيد عن الحد للسكان المدنيين » (٨١) ·

وأثناء فترة ولاية الشيخ الشرقاوى مشيخة الأزهر ، دافع هو والعلماء عن حقوق الناس مرة أخرى · ذلك أن الفلاحين الذين كانوا مستأجرين فى احدى القرى التى كان الشرقاوى ملتزما عليها ، شكا هؤلاء الفلاحون من الأمير المعروف محمد بك الألفى · فحاول الشرقاوى أن يحل المشكلة بالتفاوض مع مراد بك وابراهيم بك ، غير أنه باء بالفشل ، نظرا لتعمق النظام الاستغلالى للأمراء · فقاد الشرقاوى والمشايخ مظاهرة ضخمة ، انضم اليها أهالى بعض أحياء مختلفة من المدينة · فلما رأى الأمراء آفاق حركة الاحتجاج هذه ، وجدوا أنه من الحكمة التفاوض على تسوية · فوضع كبير القضاة وثيقة تلغى الضرائب الجائرة الظالمة ، وأصدر الباشا أمرا بنفس المعنى ، ووقع عليها الحاكمان مراد وابراهيم ·

ظن العامة ، بسذاجة ، أن علماءهم نجحوا فى ابعاد الظلم فى مصر ، غير أن الجبرتى الذى يروى الواقعة ، لم يداخله أى وهم · اذ لم يكد يمضى شهر واحد بعد ذلك ، حتى عاد الموقف الى ما كان عليه ، ان لم يكن

أسوأ • فعلى سبيل المثال نزل مراد بك على دمياط ، وفرض ضرائب مرتفعة بصفة خاصة على سكانها (٨٢) •

الخــــاتمة

كثيرا ما يتهم الجبرتى غالبية العلماء بمداهنة الحكام للحصول على تعيينات ، وهبات وثروة وتكريم • غير أنه سيكون من الخطأ وصم جميع العلماء بالخضوع للحكام • فكما يبين الجبرتى نفسه ، خرج من بين العلماء رجــال ذوو شخصــــية كانوا يتحـدون الأمراء اذا ما هــــدد أحــــد امتيازاتهم أو استقلالهم ، أو اذا بلغت معاناة العوام حدودا لا تطاق • وكان هؤلاء العلماء من ذوى العزم ، الذين كانوا يستنكفون من صحبة الحكام ويرفضون ما يمنحونهم من فوائد ، فكانوا موضع احترام الأمراء ، بل وكان هؤلاء الأمراء يخشونهم أحيانا •

كان العلماء حلقة وصل شديدة الأهمية بين الحكام والرعية : فلم تستطع الطبقة الحاكمة سواء كانت من المماليك أو العثمانيين أن تتجاهل ممثلى دينهم ، الذين حملوا قيمه وتراثه •

ورغم أنه ربمــا كان من الممكن شراء معظــم العلماء ، الا أن الأمراء الباشـــوات لم يقللوا من شـــأن الزعامة الدينيــة التى يحتمل أن تسبب لهم المتاعب •

وحتى الأمثلة القليلة التى ذكرناها فى هذا الفصل توضح أن الأمراء كانوا فى المعتاد يفضلون أن يستخدموا العلماء من أجل التفاوض والوصول الى حلول توفيقية مع الأهالى ، بدلا من الاحتكاك بهم •

وفى الختام نقول : ان العلماء لم يكن متوقعــا منهم أن يجعلوا هذا الحكم العسكرى الجائر فى مصر العثمانية معتدلا ، غير أنهم كانوا مقياسا لحالة الأهالى المزاجية كما كانوا أحيانا قادرين على ردع أسوأ أنواع سوء

الحكم • فاذا ما أخذنا في الاعتبار ظروف العلماء والقيود التى كانت تحدهم ، لاتضح أنهم وحدهم الذين استطاعوا أن يكونوا بمثابة زعماء يتحدثون باسم الناس • وبالرغم من موقعهم المميز ، الا أنهم كانوا ، فى نهاية الأمر ، أقرب الى الرعية منهم الى الطبقة الحاكمة •

الفصــل الخــامس

التصــوف والمتصــوفة

كان المجتمع المصرى ، تحت الحكم العثمانى ، كما كان دائما عميق التدين • كما كانت الصوفية ، جزءا لا يتجزأ من هذا التدين ، اذ لا يمكن فهم حياة الشعب المصرى الدينية والثقافية والاجتماعية بدونها • ولم تكن الصوفية طائفة منفصلة ، وانما هى حركة شعبية بلغت كل ركن من أركان المجتمع •

ومع بداية القرن السادس عشر ، فقدت الدراسات الدينية الاسلامية الكثير مما تمتعت به من أصالة وجدة فى الســـابق ، بالرغم من كثرة الكتابات وبالرغم من النشاط الواسع فى مجال التعليم • ذلك أن سمة القراءة المجدبة التى انشغل بها العلماء ، تلك التى ركزت على المسائل الشرعية الفنية ، النظرية ، لم تكن قادرة على أن تقدم للمجتمع المسلم ، وبخاصة عامة الناس ، ما للدين من تجربة دافئة حميمية عاطفية ، أى ذلك الشعور بالاتصال بالله اتصالا مباشرا والتفاعل مع تعاليم النبى (ﷺ) وهو ما قدمه الصوفية •

لقد أدى هذا الخلل الى زيادة النشـــاط الدينى والثقافى للصوفية فى مصر وفى أصقاع الاسلام الأخرى فى أواخر حقبة العصور الوسطى •

وعلى الصعيد الاجتماعى ، تعد العلاقة بين الاسلام السنى المعيارى من ناحية ، والصوفية من ناحية أخرى ، أكثر تعقيدا الى حد بعيد • ولقد حاول أبو حامد الغزالى (ت ١١١١ هـ) ، الذى يمكن اعتباره أهم علماء

التوحيد فى كل العصور، حاول فى كتاباته المهمة أن يصل الى حد توفيقى يلتزم به الصوفية بأحكام الشريعة وأن يقبل الفقهاء الصوفية باعتبارها جزءا مشروعا من الاسلام لا يتجزأ عنه • اذ أصر الغزالى على الالتزام بطاعة الشريعة ، غير أنه كان يعتقد أن الصوفية قد منحت الاسلام عمقا ومعنى يتعدى التفاصيل الشرعية العقيمة والتحايل على قوانين الأخلاق • غير أن المواجهة بين العلماء والصوفيــة لم تكن مواجهــة فكرية فحسب ، وانما كانت أيضا تنطوى على مصالح ، وطموحات ، وحسد •

ومن الصعوبة بمكان أن نصدر أحكاما عامة عن الصلات بين السنة والصوفية ، بسبب ما لهذه الوشائج من تعقيد ودقة وبسبب الطبيعة المختلفة لهذين الجانبين من جوانب الاسلام • فبينما السنة متسقة ذات شكل موحد ، كانت الصوفية بلا شكل محدد كما كانت متعددة الوجوه ، ذلك أن تعليم العلماء واتجاهاتهم كانت متشابهة فى كل مكان عبر العالم الاسلامى (السنى) بأكمله ، رغم الخلافات المذهبية والمحلية ، بينما كشفت الحركات الصوفية ، على النقيض من ذلك ، عن تنوع يبعث على البلبلة غالبا ما تكون ظاهرة داخل الطريقة الصوفية الواحدة ، كمــا سيتضح فيما بعد •

ومن أقدم الأزمنة ، كانت السنة والصوفية فى حالة منافسة • فالتوترات بين المتصوفة ، من ناحية ، وعلماء التوحيد ، والفقهاء ومعلمى المدارس ، من ناحية أخرى ، شكلت علامات على وجود ديانة حية كما أسهمت بالكثير فى الثقافة الاسلامية •

ويحاول هذا الفصل أن يصف الصوفية المصرية ومكانها فى الاسلام ابان الحقبة العثمانية •

أثر الفتح العثمانى على الصوفية المصرية

لم يقم الفتح العثمانى بتحويل كبير فى مؤسســات مصر الدينية • فالصوفية سبق أن كانت نشطة وناضجة تحت حكم المماليك ، ذلك أن

الطرق الصوفية والزوايا والتكايا (جمع تكية) ومآدب الصوفية واحتفالاتهم كانت أمورا مألوفة • وعلى أية حال ، فقد أعطى نظام الحكم العثمانى دافعا قويا للصوفية ، فأثناء القرون الثلاثة للحكم العثمانى حققت الصوفية تقدما عظيما فى المجتمع المصرى • فلو قارن المرء الوضع فى نهاية الحقبة المملوكية (١) مع ما حدث من تطورات فى القرن السادس عشر (كما رآها عبد الوهاب الشعرانى وغيره) (٢) مع القرن السابع عشر (الأوصاف التفصيلية التى كتبها افليا شلبى(جلبى)) ، وكذلك مع التقديم الشامل البانورامى للمجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر (كما كتبه عبد الرحمن الجبرتى) اذا قمنا بكل هذه المقارنات ، فلسوف يدرك المرء أن نفوذ المتصوفة قد تزايد • فتعددت الطرق الصوفية، واشتدت أنشطتها : اذ تم الاحتفال بالمزيد من الموالد ، كما تم بناء المؤسسات الصوفية كالزوايا والتكايا وارتبط الكثير من العلماء بالصوفية •

ومع وضوح حقائق التزايد فى نفوذ الصوفية المصرية ونشاطها ، الا أنه من الصعب تحديد الأسباب الكامنة وراء هذه التطورات • غير أنه من المؤكد أن مزاج الحكام العثمانيين المواتى كان له الأثر الكبير فى تقوية وضع المتصوفة ومكانتهم • فلم يعتنق الأتراك الاسلام عن طريق علماء توحيد من السنة ، وانما عن طريق الدراويش • ومن ثم ازدهرت جميع أشكال الصوفية فى الأقاليم التركية ـ ابتداء من التوحيدية (الكلية) المعقدة التى نادى بها ابن عربى (توفى ١٢٤٠ هـ) ، ومن خلال الأشعار الصوفية لجلال الدين الرومى ، الصوفى المتوفى (١٢٧٣ هـ) ، الى الممارسات الدينية الخشنة للدد dedes (مشايخ اتراك متصوفة) •

وبصفة عامة ، فان الأتراك والفرس كان لديهم ميل صوفى أقوى بكثير مما كان لدى العرب ، ومع ذلك لم ينعدم التأييد للمتصوفة بين أمراء المماليك •

ومع أن رعاية العثمانيين للمتصوفة موثقة توثيقا جيدا ، الا أن مساندة المماليك لهم كانت أيضا أمرا قائما • ومع أنه تحت حكم المماليك

كان هناك غالبا توتر خطير بين العلماء والمتصوفة ، وأن العلماء هم الذين علموا المماليك تعاليم الاسلام ، الا أن أمراء المماليك وجنودهم وقروا الأولياء (٣) . وثمة تفسير آخر يمكن أن يشرح تقدم الصوفية الى شغل دور مركزى فى المجتمع المصرى قد سبقت الاشارة اليه ألا وهو تدهور حال العلماء . فبالرغم من أنهم لم يكونوا بارزين بسبب أفكارهم الأصيلة أو قدرتهم الابداعية ، الا أنهم كانوا حراس تراث طويل لم ينقطع من العلم ، والأهم من ذلك ، أنهم قد لعبوا دورا لا غنى عنه فى الحكم . فقطع الاحتلال العثمانى التطور المطرد للطابع المصرى للاسلام. ونحن لا ننسى كيف نعى ابن اياس تدهور المؤسسات الاسلامية أثناء السنوات الأولى من الحكم العثمانى . فبعد عام ١٥١٧ ، لم يتم تعيين العلماء المتكلمين باللغة العربية من أبناء البلاد فى مناصب القضاء ، وهى المناصب الأكثر نفوذا وربحا وأوكلت هذه المناصب الآن دائمـــا لأغراب يتكلمون التركية . وبالرغم من ضعف الخلافة العباسية السياسى قبل أن يقوم العثمانيون بالغائها ، الا أن هذا المنصب كان محل تبجيل ورمزا تقليديا على عظمة مصر (٤) . وعلى الصعيد الفكرى ، حدث انقطاع تام مفاجىء بعد الفتح العثمانى مباشرة فى حركة التاريخ المصرى الثرية ، فمن الأمور التى لها مغزى كبير أن أبرز كاتب مصرى فى القرن السادس عشر كان الشعرانى ، وهو متصوف . وكانت جميع هذه التطورات نتيجة تحول مصر من سلطنة الى مجرد ولاية ، وربما نشـأ عن هذا ضـيق واسـع النطاق ، وكان هذا الوضع مواتيا للصوفية . فازدياد نفوذ الصوفية يصلح مقياسا للتدهور الفكرى والثقافى للشعب المصرى أثناء الحقبة العثمانية . ولقد ملأت الصوفية ، الى حد ما ، الفراغ الذى أوجده الفتح العثمانى . فبينما كان العلماء منشغلين بأعمال الحكم الادارية والقانونية (الشرعية) ، قامت الصوفية بتغذية الحياة الداخلية ، بتوجهات غير سياسية بل ودنيوية . فقدمت العزاء للمظلومين ، كما أمدتهم أيضا بالطعام الذى كان يتم توزيعه على الفقراء أثناء الاحتفالات بالموالد ، وكذلك من خلال مؤسسات خيرية مختلفة ذات صلة بالصوفية .

الطرق الصـــوفية

بالرغم من أنه فى مصر وغيرها كان هنـاك مشايخ أفراد منعزلون ، الا أن النشاط الصوفى الرئيسى كان يجرى داخل اطار الطرق ٠

ان الجدل بعيدا عن الحقـــائق دليل تاريخى ضعيف غير أن ندرة المعلومات المتعلقة بطرق صـوفية معينــــة فى حقبــــة المماليك الثرية توحى أن الطرق لم تكن كثيرة (٥) ومن الواضح ، عموما ، أن عددها نما مع الوقت ٠ ولقد قدم افليا جلبى (شلبى) أسماء العديد من الطرق فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وكذلك الجبرتى وغيره من مصادر القرن الثامن عشر (٦) ٠ ويقرر المليجى ، كاتب سيرة الشعرانى ، والذى كتب كتابه بعد وفاة الشعرانى بمائة وستة وثلاثين عاما ، (٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م) ، أن الشعرانى انضـم الى ٢٦ طريقة (٧) وترجع صـعوبة التأكد من عدد الطرق الصوفية الى عالم الصوفية غير المنظم أو غير المتبلور فى مصر العثمانية ٠

وفى عـــام ١٨١٢ ، أعطى محمـد على باشا لرأس الأسرة البكرية (آل البكرى) سلطة رسمية على كافة الطرق والمؤسسات المرتبطة بها ، وهكذا خلق تنظيما مركزيا وقناة تستطيع الحكومة من خلالها أن تراقب الجمعيات الصوفية ٠ وقبل ذلك ، كانت الطرق تفتقر الى أى رئيس أعلى أو أى جهاز ، رغم تمتع الأسرتين البكرية والوفائية بالمكانة المميزة ، من الثروة والمكانة الاجتماعية مما أعطاهم الزعامة ، غير أنها لم تكن رسمية ولم تكن سلطة متكاملة (مترابطة) (٨) ٠

وطبقا لما كتبه المليجى ، فلقـد قال الشعرانى ان (الأقطـــاب) الرئيسيين فى المجتمع الصوفى أيامه كانوا السادات الوفائية والبيت أو الطريقة الصوفية الخاصة بمحمد شمس الدين الحنفى ، (٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م) وسيدى مدين الأشمونى ، (شيخ صوفى آخر من القـرن الخامس عشر) وبيت سيدى « أبو العباس الغمرى » المتوفى سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩ ـ ١٥٠٠ م (٩) ٠

وحتى اذا كانت هذه القائمة دقيقة، فهى لا تعطينا ضوءا عن الطرق التى كانت موجودة فى القرن السادس عشر ، ذلك لأن اختيارات الشعرانى ذاتية ، تستبعد أى طريقة غير سنية ، فالشعرانى كان مرتبطا ، بطريقة أو أخرى ، بهؤلاء « الأقطاب » الأربعة • وحتى اذا ما توافرت قائمة كاملة للطرق الصوفية ، فهى لن تكشف عن الصورة بكاملها ، بما أن بعض الطرق كانت رئيسية ، وأخرى متفرعة عنها ، أو طرقا فرعية • فالطرق الصوفية كانت تميل الى الانقسام : فطرق جديدة تظهر وتنشق ، ثم تنشق مرة أخرى •

وتميز كتابات الدارسين بين الطرق الصوفية التى تلتزم بالشريعة، وتلك الطرق الخارجة على التعاليم التى تغض النظر عن الشريعة مركزة على الجانب الايمانى وحده • فمثلا من بين الطرق الممثلة فى مصر ، كانت القادرية والشـــاذلية تعد طرقا سنية ملتزمة ، والرفاعية ، والأحمدية والأزدية ، وغيرها كانت تعد طرقا غير ملتزمة بالشريعة • وعلى كل فان الخط الفاصل بين الصوفية الملتزمة وغير الملتزمة غير واضح دائما • فعلى النقيض من الرهبان المسيحيين ، لم تكن الطرق الصوفية دائما نظما محكمة تعترف بسلطة مركزية وترتبط بمذهب واحد ، وانما كانت غالبا روابط غير محكمة تعمل على أصعدة اجتماعية مختلفـة ، ولديها ايمان وممارسة يختلفان اختلافات كبيرة •

كذلك كانت مسألة تحديد الطابع الدقيق لطريقة ما مسألة معقدة ، لأن الكثير من المتصوفة السنية لم يكونوا راغبين فى أن يؤكدوا أو حتى يصرحوا بعضويتهم فى احدى الطرق ، على الأقل ، فى أوائل الحقبة العثمانية • وبدلا من ذلك ، كانوا يعلنون أحيانا ، بشكل اعتذارى ، عن ولائهم للمجتمع المسلم بعامة ، وللشريعة والصوفية بصفة عامة (الطريق القويم) (*) ، وهكذا يتكتمون على أية صـلة بأية طريقة • فالمتصوف السنى كان ولاؤه لشيخه وليس لأى تنظيم •

(★) فى النص طريق القيم ، وهو خطأ مطبعى غالبا •

ان هذا النوع من العلاقة يبرز بوضوح فى أعمال الشعرانى عن حياة المتصوفة (طبقات المتصوفة) ، حيث يصور وسطه الخاص المكون تقريبا من مشايخ صوفية سنيين ٠ ففى قاعة الصور (يقصد طبقات الشعرانى) هذه التى تمثل رجال الدين ، نادرا ما يذكر انتماء أى شخص باحدى الطرق ، ذلك أن التركيز دائما ما يكون على علاقته بمعلميه ، اخوته على الطريق ، وتلاميذه (١٠) ٠ ففى العديد من كتابات الشعرانى الكثير من الاشارات لذاته ، فلقد كتب سيرة ذاتية مطولة بعنوان لطائف المنن ــ ولم يذكر قط عضويته فى أى من الطرق ٠ فأخطأ بعض الدارسين المحدثين ووصفوه بأنه شاذلى ، غير أن القراءة المدققة فى أعماله تبين أنه بينما كان يحمل تقديرا عظيما لهذه الطريقة ، الا أنه لم ينتم اليها ٠ اذ يمكن وضع الشعرانى ضمن التراث الشاذلى ، ولكن ليس فى الوسط الاجتماعى للطريقة ٠ ذلك أن الطريقة الشاذلية كانت صيغة صوفية مدنية مثقفة أرستقراطية ، بينما كان الشعرانى فتى قرويا له أذواق بسيطة ومتواضعة ٠

كان الشعرانى وزملاؤه من المشايخ مرتبطين بفرقة سيدى أحمد البدوى المتوفى فى سنة ١٢٧٦ ، وهو أكثر أولياء المتصوفة شعبية فى مصر ، وكانوا يعتبرون من الأحمدية ، على الأقل من وجهة نظر الأجيال اللاحقة ٠ ومع ذلك ، فانهم انتقدوا الأحمدية أو (البدوية) طريقة أحمد البدوى انتقادا شديدا ، لأنهم كانوا من الدراويش غير المنضبطة ، التى انتهكت أحكام الشريعة وكانوا متهمين بسوء التصرف الدينى والأخلاقى ٠ فكيف يمكن تفسير هذا التناقض الظاهرى ؟

ان العنصر المشترك بين المشايخ الصوفية السنة الملتزمين والدراويش الأحمدية هو تبجيلهم لسيدى أحمد البدوى ٠ ولقد كافح المتصوفة السنة ضد نفوذ الدراويش عن طريق محاولة نشر الاسلام الحقيقي بين عامة الناس ، الذين كانوا واقعين تحت تأثير الدراويش ٠

وشنت المعركة من أجل الاسلام الصافى النقى باسم الولى ، مستخدمه حججا مثل : « ان ما تفعلونه أو ما يعلمه الدراويش لكم » ضد رغبة أحمد البدوى • فلو كانت هذه الأفعال مقبولة لديه لفعلناها نحن أنفسنا ولكنها ليست كذلك (١١) • من الواضح اذن ، أنه كانت هناك أكثر من طريقة واحدة للانتماء لاحدى الطرق أو الارتباط بفرقة أحد الأولياء •

وعلى العكس من زمن الشعرانى ، فاننا نجد فى جميع السير التى كتبها الجبرتى عن العلماء والمتصوفة سجلا منتظما لانتماءاتهم لطرقهم تقريبا كجزء من أسمائهم ، مثل مسقط رؤوسهم ومدارسهم الفقهية (١٢)، وقد يشير هذا التغيير بشكل جيد الى أنه مع مقدم القرن الثامن عشر كانت الطرق الصوفية قد تبلورت وصارت أكثر وضوحا من الناحية التنظيمية •

الطرق الصوفية الرئيسية

فى أوائل الحقبة العثمانية ، كانت الشاذلية هى أقدم الطرق الصوفية من الناحية الفكرية كما كانت أكثر هذه الطرق ارستقراطية فى مصر • كان أبوها الروحى هو أبو مدين شعيب المتوفى سنة ٩٧١ ، غير أن المؤسس الفعلى لهذه الطريقة التى تحمل اسمه هو أبو الحسن الشاذلى (المتوفى فى سنة ١٢٥٨) ، وكان كلاهما متصوفة من شمال أفريقية • فغادر الشاذلى شمال أفريقية الى الاسكندرية ، التى صارت مركزا صوفيا مهما • واذ تغلبت الطريقة على معارضة العلماء ، صارت طريقة شعبية ، فأفرزت الكثير من الشعراء الموهوبين ، والكتاب الذين كانت تنتشر رسائلهم فى الكثير من دوائر المتصوفة الذين يجيدون القراءة ، وكانت القصائد والأوراد ترتل فى الاحتفالات الدينية (١٣) • ذلك أن الطريقة كانت تهدف الى تهذيب الحياة الداخلية ، فلم تفرض ملبسا معينا وكانت عادة لا تنشىء صفة (*) ، (أى مكانا لاعتزال المتصوفة) (١٤) كما انها لم تشجع الالتصاق بولى أو ضريح •

(*) صفة بضم الصاد وتشديد الفاء وفتحها •

كما لم ترحب الطريقة بالاستجداء ونبذ الدنيا من أجل حياة التأمل ، وأصرت على أن يحيـــا المتعاطفون معهـا أو المنضـمون اليها حياة منتجة اجتماعيا واقتصاديا • فلم يكن الشاذلية ، بأية حال ، عازفين عن الثروات الدنيوية ولم يكونوا زهادا : فكان الكثير منهم حسنى الملبس الى حد ملفت، ويقيمون حفلات كانت تعزف فيها الآلات الموسيقية ، مما كان يضايق كثيرا المتدينين المتزمتين الصارمين • وثمة جماعة شاذلية هامة تعد مثالا جيدا على هذا النمط الأرستقراطى من الصوفية • هذه الجماعة هى الطريقة الوفائية التى سيأتى المزيد من الحديث عنها لاحقا •

وبمرور الوقت ، فقدت الشاذليـــة موقعها المركزى فى الصوفية المصرية • ذلك أن بعض من خرج عنها بعد ذلك ، وبالأخص العيسوية والعربية كانت من بين طرق أهل البدع • التى يكتب عنها الجبرتى ملحوظات تحقيرية • وثمة جماعات شاذلية قد طورت نظريات حلولية . مثبتين بذلك ما قيل عنهم وهو أن الطرق الصوفية قادرة على تحويل نفسها من السنة الى الهرطقة • والعكس بالعكس (١٥) • فالأحمدية التى تسمى أحيانا ، البدوية ، أخذت اسمها من سيدى أحمد البدوى ، وهو الولى الذى يعد ضريحه فى طنطا ، فى الدلتا ، مركز الطريقة • وعلى النقيض من الشاذلية ، لم تخرج الأحمدية كتابا ، أو معلمين عظاما وانما كانت طريقة شعبية • وكان لونهم المميز هو اللون الأحمر ، اذ كانت تلون به عباءات المنتمين للطريقة وراياتهم •

وكانت الأحداث الرئيسية فى حياة الطريقة ، ومازالت ، هى احتفالات المولد عند ضريح الولى ، وهى الأحداث التى كانت وماتزال تجذب أعرض الجماهير • وكما سبق ذكره ، فان المتصوفة الأحمدية السنة على غرار الشعرانى (اذا كان من الممكن حقا اعتبارهم أعضاء فى الطريقة الأحمدية) قد حاولوا أن يرتقوا بهذه الموالد • اذ ألغى محمد الشـــناوى ، شيخ الشـــعرانى ، بعض المظـــاهر الأكثر صـخبا التى كانت شـــائعة اثناء المولد ، مثل المواكب الصاخبة بالطبول والنايات ، وأعد حلقات الذكر بدلا من ذلك (١٦) • وكان المتصوفة السنة ينظرون باحتقار الى دراويش

الأحمدية باعتبارهم فاسدين ومنحلين بشكل ميؤوس منه · ويابى بعض المشايخ المتصوفة قبول من يتقدمون اليهم ممن كانوا واقعين تحت تأثير الأحمدية · ولقد اعتبر كل من الشعرانى والجبرتى الأحمدية واحدة من الطرق المرذولة ، التى استنكر العلماء والمتصوفة السنة ما تذهب اليه من تطرف وتعد وافراط (١٧) · ولم يكن المنتمون للطريقة الأحمدية من بين النخبة ، غير أنها لم تكن خارجة على التعاليم الدينية الصحيحة خروجا تاما · وتماما كما استطاع المتصوفة السنة فى القرن السادس عشر أن يرتبطوا بالأحمدية كذلك فان الطرق ، فى الأزمنة اللاحقة كانت لها تعبيرات وتشعبات مختلفة ·

وحين كان الجبرتى يصف موالدهم العنيفة ، استنكر الطـــرق الشــيطانية التى تطابق نفســها (عن زيف) مع الأولياء المدفونين فى الأضرحة الشهيرة ، مثل الأحمدية والقادرية والبرهانية وغيرها (١٨) · والجبرتى مثل الشعرانى الذى سبقه بثلاثة قرون ، لا يوجه هجوما ضد الأحمدية (والطرق الأخرى) بما فى الهجوم من معنى ، وانما يهاجم أكثر تعبيراتهم السوقيـــة · ومما يؤيد رأينـــا دمغه للطريقـــة القادرية بأنها شيطانية ، وهى المعروفة لدى الجميع بأنها سنية · والأكثر من ذلك ، فان الجبرتى كتب بنفسه ، سيرا لمشايخ الأحمدية ، الذين كان ينظر اليهم نظرة استحسان : وفى تأبينه للشيخ ربيع الشيال (المتوفى ١١٢١ هـ / ١٧١٠ م) ، يصف الشيخ بأنه رجل مبارك ، وواحد من المتصوفة الفضلاء الأحمدية فى دمياط · اذ كان زاهدا شـــديد الورع حريصا على أداء الصلوات ، ويراعى الأحكام الدينية ، والذكر · وكان يتكسب قوته ببساطة عن طريق العمل كحمال (١٩) ·

ويبدو انه من المؤكد أن الطريقة الأحمدية كان لها عدد أكبر من الأتباع والمراكز والأفرع من غيرها من الطرق · فبينما كانت الأحمدية اقل شأنا من الناحية الثقافية ، من الشاذلية ، الا أنها كانت أكثر شيوعا بكثير ، وأكثر نفوذا من الناحية الاجتماعية ، بما أن الارتباط الروحى بسيدى أحمد البدوى كان بمثابة الصرعة (المودة) بين الطبقة الحاكمة فى السلطنة المملوكية · وحين خرج السلطان قنصوه الغورى للحرب فى

الشام ضد العثمانيين ، جنبا الى جنب مع الخليفة العباسى ، أخذ معه زعماء الأحمدية والرفاعية كى يعطى حملته شرعية دينية (٢٠) • ولم يقل نفوذ الأحمدية بعد الفتح العثمانى ، اذ لا تدع أوصاف افليا جلبى أى مجال للشك فى أن الأحمدية فى القـرن الســابع عشر كان لهم أكبر عدد من الأتباع (٢١) • ويقول لين ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، عن الأحمدية : « انها طريقة كبيرة العدد وشديدة الاحترام » (٢٢) • اذ ربما كانت الطريقة الأحمدية أفضل تنظيما من معظم الطرق الأخرى • اذ كان بها شيخ مشايخ الأحمدية رئيسا على سائر المشايخ •

وفى تأبين الجبرتى للشيخ على بن محمد الشناوى ، المكنى بندق (المتوفى فى سنة ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م) ، يصف الشيخ بأنه « رئيس مشايخ الأحمدية فى زمانه » (٢٣) • وكان ينحدر نسبه مباشرة من محمد الشناوى ، الذى سبق ذكره ، كأحد مشايخ الشعرانى ، والذى كان يعيش فى محلة روح ، شمال طنطا (٢٤) • ان هذه المعلومات تؤكد على ارتباط المتصوفة السنة بالطريقة الأحمدية كما أنه من الواضح أن هذه الصلات ظلت لقرون • اذ يكتب على مبارك أن الأحمدية لها ١٦ فرعا وهو أكثر مما لدى أية طريقة أخرى •

وفى وقت متأخر ، يصل الى أوائل القرن العشرين ، كان لرئيس الأحمدية سيطرة على جميع مشايخ الطرق الفرعية (٢٥) •

وثمة نوع آخر من الصوفية « غير المنتظمة » يعرف باسم المطوعة قد يكون طريقة فرعية للأحمدية • ومن الواضـــح أنهم كانوا يعتبرون خارجين جدا عن السنة ، ومتهمين بالجهل التام بالاسلام ، ومبغضين لعلماء الشرع (الذين كان فى امكانهم أن يرشدوهم الى الطريق القويم) وكذلك باثارة الفتن والزنى • وهذا يتضح من اشارات الشعرانى العديدة لدراويش المطوعة وكذلك من فتوى أصدرها الشيخ أبو الحسن العدوى الصعيدى (المتوفى فى ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م) ضدهم • ويبدو من المؤكد أن المطوعة كانوا ، بصفة رئيسية ، فى مديرية الشرقية أو فيها فقط وكذلك فى الصعيد ، حيث كان الاسلام بشكله النقى فى أضعف حالاته هنــاك (٢٦) •

وكانت البرهامية (أو البرهانية) شأنها شأن الأحمدية ، طريقة مصرية خالصة ، اذ نشأت فى مصر وكان مركزها فيها ، ولم يكن لها أتباع كثيرون فى أى مكان آخر . وكانت البرهامية التى اشتقت اسمها من اسم ابراهيم الدسوقى (المتوفى سنة ١٢٨٨) مرتبطة بالفعل بالأحمدية التى تتقدمها بقليل والأكثر شعبية . فدسوق ، مسقط رأس مؤسس الطريقة ، تقع فى جوار طنطا ، وقد تكون البرهامية قد نشأت نتيجة المنافسة بين البلدتين . وكان اللون الأخضر هو لون البرهامية ، وكان مولد الدسوقى يعقد بعد مولد أحمد البدوى بأسبوع واحد (٢٧) .

وتعد الطريقة الرفاعية واحدة من أقدم الطرق فى الاسلام . وأخذت اسمها من أحمد الرفاعى (المتوفى ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ أو ١١٧٧ م) ، وكانت سافرة فى عدم اتباع التعاليم الاسلامية المعروفة ، وتعرف بالتعذيب الذى يتعرض له أنصارها ، اذ اعتادوا على طعن وحرق أنفسهم دون أن يتسببوا فى جرح أجسادهم ، كما كان يشتهر عنهم قدرتهم على التعامل مع الثعابين ، وكان للرفاعية وجود جيد فى مصر .

وصارت السعدية وهى فرع من الرفاعية ، أسسها الشيخ الشامى سعد الدين الجيباوى (المتوفى ١٣٣٥ م) ، صارت وثيقة الصلة بعادة غريبة وهى عادة (الدوسة) باللهجة العامية الدوس « أى الدهس » وطبقا لهذه العادة كان الشيخ يمتطى صهوة جواده ويسير فوق دراويشه المنبطحين أرضا فى وضع سجود أو خضوع دون أن يسبب لهم أى ضرر حسب ما يزعمون . لقد صدر حظر رسمى لهذه العادة فى القرن التاسع عشر ، غير أنها على ما يبدو ، بقيت حتى الأربعينيات من القرن العشرين (٢٨) .

وتعد القادرية هى أول طريقة فى الاسلام وكانت تقليديا تعتبر طريقة سنية . ولقد أنشأها عبد القادر الجيلانى وهو أحد الخطباء وعلماء التوحيد الحنابلة (توفى ٥٦١ هـ / ١١٦٦ أو ١١٦٧ م) ، فى بغداد .

كتب لين Lane قائلا : « ان راياتهم وعباءاتهم بيضاء . ومعظم القادرية فى مصر من صائدى الأسماك » ويحمل هؤلاء شباكا فوق أعمدة

خشبية في المواكب الدينية وهذه الشباك ذات ألوان مختلفة (كالأخضر والأصفر والأبيض والأحمر الى آخر ذلك) (٢٩) • ويكتب الجبرتى أن شـــيخ الطريقة يتخـــذ تقليـــديا منصب الأمـــين فى مكتب نقيب الأشراف (٣٠) •

والبكتاشية (تكتب أيضا البقطاشية) والمولوية وهما الطريقتان اللتان كانتـــا ذوى أهمية بارزة فى المقاطعات التركية فى الامبراطورية العثمانية ـ لم يكن لهما سوى عدد محدود من الأتباع فى مصر وظلت أنشـــطتهما مقصورة على الســكان الأتراك ، اذ لم تكن لهما مراكز خارج القاهرة ، فالتكية البكتاشية (البقطاشية) الرئيسية كانت تكية قصر العينى بالقرب من النيل •

وكما هو الحال فى اسطنبول ، كان فرع الطريقة فى القـاهرة مرتبطا بالانكشارية (٣١) •

وكانت المولوية هى طريقة « الدراويش الراقصون » كما عرفت فى أوربا بســـبب عادتهم فى الدوران على القدم اليمنى أثناء أدائهم لدعائهم • ولقد كتب افليا جلبى (شلبى) ، الذى زار الصفة (بضم الصاد وتشديد مع فتح الفاء) المولوية فى القـــاهرة ، أن هذا المكان كانت به قاعة خاصة بالموســـيقا (سمع حانة أو ربما خانة) لأن المولوية كانوا مشهورين بتربيتهم الموسيقية وقاعة أخرى ، على ما يبدو لدراسة المثنوى ، وهى قصيدة صوفية ألفها بالفارسية جـــلال الدين الرومى ، مؤسس الطريقـة (٣٢) •

وتعد البيومية ، وهى فرع آخر من الأحمدية ، مثالا طبق الأصل لطرق العامة من الناس • ولقد أنشأها على بن حجازى البيومى ، الذى صار مجذوبا • وجاء معظم من اعتقدوا به وهم كثيرون من الحسينية . أحد أحياء القاهرة المختنقة الفقيرة التى صارت حصن الطريقة • وكان يرتدى ، على مدار العام ، رداء أبيض وطاقية بيضاء تعلوها عباءة حمراء ، باعتبار أن اللون الأحمر هو لون الأحمدية ، طريقته الأصلية • وكان يقيم حلقات الذكر المنتظمة فى مسجد الظاهر خارج الحسينية وكان يركب

بغلته ، كل ثلاثاء ، محاطا بأتباعه لأداء الذكر فى المسجد الحسينى ، وهو أحد أكثر أضرحة القاهرة توقيرا واحتراما ٠

ولقد اعترض العلماء على وجود جمهور من الحفاة القذرين فى المسجد ، ونجحوا تقريبا فى اقناع أحد الأمراء بمنع على البيومى وأتباعه من الدخول ٠ غير أن الشيخ عبد الله الشبراوى ، الذى كان شيخ الأزهر ، آنذاك ، والذى كان يميل الى المجاذيب (المكشوف عنهم الغيب) تدخل لدى الباشا، والأمراء نيابة عن البيومى قائلا انه عالم كبير ولا يجب التحرش به ٠ ولكى يبرهن الشبراوى على ما يقول ، رتب فصلا للبيومى فى الأزهر ، حيث تأثر به العلماء شديد التأثر حتى انهم تركوه وشأنه ٠

كان على البيومى شيخا ذا مهابة ، بل انه جعل مجرمين يتوبون وصاروا مريديه ٠ فاعتاد أن يقيدهم فى أعمدة جامع الظاهر ويقودهم فى الشوارع وحول رقابهم ياقات ، ويجعلهم يسيرون بطريقة عسكرية حوله بينما يركب ركوبته خلال الشوارع ، بطريقة تتسم بالعظمة والأبهة ، ويحملون الأسلحة والعصى لحمايته ٠ وكان مصطفى باشا ، حاكم مصر ، من بين المعجبين بالبيومى٠ وحين تحققت نبوءة الشيخ بأن الباشا سيصبح صدرا أعظم ، شيد مسجدا للشيخ فى الحسينية به مجمع من المرافق الدينية : كالسبيل ، وكتاب وقبة دفن فيها البيومى بعد وفاته فى عام ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م (٣٣) ، وثمة دليل على أن شيخ الطريقة البيومية أصبح شخصية ذات نفوذ فى حى الحسينية ٠ فقد كتب الجبرتى أنه فى أوائل ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ م ، دخل أحد الأمراء الظلمة المغتصبين ومساعدوه الحى وسرقوا منزل أحمد سالم الجزار ، الذى كان رئيس دراويش البيومية ٠ ونتيجة لهذا الظلم ، أثار أهالى الحسينية الشغب ، مغلقين المسجد الأزهر والحوانيت المجاورة (٣٤) ٠

ان قائمة الطرق الخارجة عن الأصول الدينية الأكثر شيوعا فيما ذكر الجبرتى وغيره من المصادر تشمل السمانية والعفيفية والعيسوية والعربية ٠ وبالطبع ، تعد هذه القائمة بعيدة عن الكمال ٠

وقد تفيد التقلبات التى تعرضت لها الطريقة الخلوتية فى مصر العثمانية كتحذير يواجه الطريقة المنهجية لدراسة الصوفيـة · فحين ظهرت الخلوتية لأول مرة فى مصر قرب نهاية حكم المماليك ، كانت صوفية تركية غير سـنية · وفى القـرن الثامن عشر ، أصبحت نصيرا للسنة ، تتمتع بمكانة رفيعة لا تضارع بين علماء الأزهر (٣٥) · فمنذ نشأتها فى مصر ، طورت الخلوتية منهجا وطريقا تطلبا تعليما صارما على يد معلم · وكان تقدم السالك على الدرب الصوفى يتطلب تعلم « الأسماء الحسنى » بطريقة تدريجية ، حيث كل اسم تال يرمز الى مرحلة روحية أرفع · وكان نظام المتحمس أو الناذر نفسه للطريقة يشمل الاعتزال فى خلوة ومن هنا جاء اسم الطريقة · وكانت الكلاسيكيات الصوفية التى كتبها الكاتب المتصوف العظيم محيى الدين بن عربى فى القرن الثالث عشر والشاعر عمر بن الفارض ، جزءا من الأدب السرى الذى تقتصر دراسته على أعضاء الطريقة · ولقد جاء أبرز الخلوتيين فى مصر فى أواخر الحقبة المملوكية وأوائل الحقبة العثمانية من وسط يتحدث باللغة التركية وكانوا من مريدى عمر روشينى من تبريز (المتوفى ١٤٨٧) ·

ومن بين أبرز الخلوتية ابراهيم جولشينى (المتوفى ٩٤٠ هـ/١٥٣٤م)، الذى هرب من تبريز بعد انتصار الصفويين · وكانت له شعبية جارفة بين الفرق العثمانيـة فى مصر ، حتى انهم كانوا يتشاجرون معا على الماء الذى كان يغسل به يده · فاستدعى الى اسطنبول ، حيث كانت الدولة على وعى بشعبيته فى القاهرة ، وعند عودته كان عليه أن يلزم العزلة التـــامة ·

وثمة اثنان من متصوفة الخلوتية ، أيضا من مريدى روشينى ، هما : محمد دمرداش المحمدى (المتوفى ٩٢٩ هـ / ١٥٢٢ أو ١٥٢٣ م) ، وشاهين الجركسى ، ضابط سابق فى جيش السلطان قايت باى ، وصار ناسكا وعاش عدة عقود على جبل المقطم شرق القاهرة (٣٦) ·

واشتهر عن الخلوتية أنهم كانوا يمارسون السيمياء ، وغير ذلك من العلوم الروحية (كما كان يفعل أعضاء الطرق الأخرى) بل كانوا يشتبه

فى أنهم يزيفون العملات • وثمة خبر يقول بأنه حين توفى الدمرداش ، أشيع أن هناك كنزا فى تكيته • فحين ذهب القاضى للتحقق ، اكتشف معدات لممارسة الكيمياء • وبذلك يكون الخلوتية قد أساءوا استخدام مبدأ الاعتزال فى خلواتهم من أجل الصلاة ، والصوم والتأمل لغرض ممارسة الكيمياء (*) بل وتزييف النقود (٣٧) ، وصار هناك ارتباط بين الخلوتية والعادات التركية والفارسية • فمثلا ، أعد ابراهيم جولشـــينى قبرا بالقرب من خلوته ـ جريا على عادة المشايخ الفرس ـ لكل واحد من متصـــوفيه (٣٨) •

لقد كان عبد الوهاب الشعرانى ممثلا حقيقيا للصـــوفية المعتدلة السنية المصرية • اذ كان أكثر وداعة من أن يتشاجر علنا مع الخلوتية الذين اعتبر أنه ينقصهم الايمان الاسلامى الصحيح وممارسته ، فتجنب المواجهة الصريحة معهم ، غير أنه مع ذلك ، استنكر أســـاليب (أهل الخلوة) ، ولم يكن يقصد بذلك سوى الخلوتية ، لتراخيهم فى الوفاء بأحكام الدين وأعمالهم « للأسماء الحسنى » من أجل أغراض عملية • ذلك أنه كان يدرك الخطر النفسى الكامن فى الزام الصوفى بخلوة لفترات ممتدة من الوقت ، أحيانا تصل الى ٤٠ يوما ، وأثناء الاعتزال لمدة أربعين يوما « الأربعينية » (٣٩) لن يكون من المدهش ، أنه كانت تنمو نزاعات دينية حادة ومنافسات شخصية بين الصوفية الأكثر سنية والأكثر اعتدالا من ناحية والطريقة الصوفية التى تتسم بالنشوة حتى غياب الوعى عند الخلوتية مثل كريم الدين محمد بن أحمد الخلوتى • (المتوفى ٩٨٥ هـ / ١٥٧٨) ، وكان كريم الدين صاحب حانوت قبل أن يقدموه الى الشيخ دمرداش الذى درس معـــه المريد الشـــاب الروحانيات وشعر الصوفية وآدابهم • ورغم أنه أصبح مريد الدمرداش المفضل ، الا أن الشـــيخ لم يذكر كريم الدين كخليفة له (كرنيس للطريقة) • فحين أذل الشيخ الجديد كريم الدين ، ترك المركز الصوفى ، وبمرور الوقت وطد نفسه

(*) المقصود السيمياء بمفهومها القديم الذى يمتزج فيه العلم بالخرافة ، وليس الكيمياء المعروفة الآن كعلم من العلوم الحديثة •

رئيسا للخلوتية في القاهرة • وحين بلغت الشعراني أخبار شعبية كريم الدين ، ذهب ليرى كريم الدين فاذا به يكتشف أن الخلوتي جـــاهل بممارسات أولية مثل كيفية الوضوء وحين عرض الشعراني أن يعلمه سخر الخلوتي منه : « يريد أن يجعل مني فقيها بينما أنا متصوف » • ومنذ ذلك الوقت فصاعدا تجنبه الشعراني •

يقول عبد الرءوف المناوي (المتوفى ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م) ، تابع الشعراني وخليفته ـ كمؤرخ للصوفية المصرية ـ عن حياة كريم الدين العملية : « كانت العلاقات بينه وبين الشـــعراني علاقات متنافسين متكافئين » وبعد وفاة الشعراني عام (٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م) ، صار كريم الدين زعيم الصوفية في القاهرة بلا منازع (٤٠) •

وثمة ملحوظة تعزى الى محمد التركي أحد مريدي كريم الدين ، تبصرنا باتجاه الخلوتية ازاء الشاذلية • فحين كان يشكو من أن متصوفة أيامه جهلاء وأن صوفيتهم تتكون من الزيف والخيالات ، لخص الاضمحلال كما رآه : « لقد أصبح سبيل الخلوتية هو سبيل الشاذلية » (٤١) •

وظلت الصــوفية التركية تؤثر في المجتمع المصري بعـد الفتح العثماني ، كما يمكن أن نرى من سير المشـــايخ الأتراك في مؤلفات المناوي (٤٢) • ومع أن المعلومات الخاصة بالخلوتية في القرن السابع عشر شحيحة ، فان الطريقة استمرت في نشـــاطها على الأسس التي أرسيت في القرن السابق : اذ يكتب افليا جلبي (شلبي) عن عدة تكايا خلوتية ، ويشير الى متصوفة الخلوتية وهم يسيرون في موكب احتفالي طقوسي ، تعلوهم علامات الشرف على النقيض من دراويش الطرق الأخرى غير المنضبطين (٤٣) • وبقيت الزاوية التي أنشـــأها الدمرداش بلا انقطـــاع ـ على الأقل ـ حتى القرن الثـــامن عشر تحت توجيه أسرة المؤسس (٤٤) •

وثمة صفة (خانقاه أو زاوية) أخرى للمتصوفة الأتراك من الطريقة الخلوتية تم بناؤها عام (١١١٢ هـ / ١٧٠١ م) ، في ميدان قرا ميدان •

وقد قام ببنائها محمد باشا حاكم مصر (٤٥) • وحتى القرن الثامن عشر ، كانت الخلوتية مقصورة على الجالية التركية فى مصر ، غير أن هذا تغير نتيجة للنشاط الذى قام به أحد المشايخ المتصوفة الشوام ويسمى مصطفى بن كمال البكرى (١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨ م - ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م) (٤٦) وهو من دمشق ، كان كثير الأسفار ، وكانت زيارته الأولى لمصر عام ١١٣٣ هـ / ١٧٢٠ - ١٧٢١ م ، ولقد نشر الخلوتية طريقتهم على منهاج شيخ تركى يدعى على أفندى قرباش ، وكان منهاجه يسمى القربشلمية • وألف مصطفى البكرى ما يقرب من ٢٠٠ رسالة وأكثر من ٦٠ حزبا ووردا (٤٧) • وكان خليفة مصطفى البكرى فى مصر هو محمد بن سالم الحفنى (أو الحفناوى) ، من علماء المذهب الشافعى البارزين ، الذى قدر له أن يرتفع شأنه حتى يصبح شيخا للأزهر من ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م الى ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م (٤٨) •

لقد بدأ الحفنى حياته اللامعة كصبى فقير من قرية صغيرة بمديرية الشرقية • وفى الرابعة عشرة من عمره، حضر للدراسة فى القاهرة ، حيث قام بنسخ المخطوطات كى يكسب قوته • ثم أعطاه أحد الناس مبلغا كبيرا من المال وبعد أن أتته هذه الثروة ، أصبح شديد الثراء ، بحيث كان يطعم من ٤٠ الى ٥٠ شخصا يوميا على مائدته ، ويمد أتباعه بالعون • وكان أول مرشد متصوف للحفنى شيخ مغربى ، هو أحمد الشاذلى المغربى، غير أن حياته الصوفية الحقيقية بدأت حين ارتبط بالبكرى ، اذ بلغ من شدة ارتباطه بالبكرى أنه ذهب الى القدس كى يزوره هناك ، وهذه مهمة غير عادية بالنسبة لطالب علم مصرى ، لأن المصريين كانوا يترددون فى السفر ، وعادة ما كانوا لا يغادرون بلادهم الا أثناء الحج • ولم يقبل الحفنى الصارم الراغبين للانضمام الى الطريقة بسهولة الا بعد تفحص ما بنفوسهم • غير أن البكرى طلب منه أن يقبل الجميع ، بغض النظر عما اذا كان ذلك المتقدم رجلا ، أو امرأة أو حتى مسيحيا • وفى حقيقة الأمر ، يقال ان الكثيرين من المسيحيين اعتنقوا الاسلام من خلال جهوده فى الهداية • وحسب ما قال الجبرتى ، نشر الحفنى الخلوتية بنجاح عظيم ، وكان له أتباع في الكثير من القرى • وكان الحفني علي علاقات ممتازة مع

الحكام ، وكان راغب باشا يجله اجلالا خاصا . ويعتقد الجبرتى أن نفوذ الحفنى على الأمراء كان من القوة والنفع ، حتى انه استطاع أن يمنع وقوع الصراع الأهلى عن طريق توبيخهم وارشادهم الى جادة الصواب . وبعد وفاته فى ٢٧ ربيع الأول عام ١١٨١ هـ / ١٧ من أغسطس ١٧٦٧م، « انهار النظام القديم » حسب ما قال ثم استطرد : « وجاء على بك الى السلطة » (٤٩) .

وأهم خلفاء الحفنى هو أحمد بن محمد العدوى ، وهو مالكى من الصعيد ، يشتهر باسم الدردير . (توفى ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م) وكان الدردير تلميذا للحفنى فى الأزهر يتلقى علوم الحديث بالاضافة الى أنه كان مريده فى الصوفية . كذلك تولى سلسلة من المناصب الادارية والقضائية فى الأزهر (٥٠) .

ومن بين مريدى الحفنى الآخرين الشيخ محمود الكردى (المتوفى سنة ١١٩٥ هـ/١٧٨٠ م) . وتبين سيرته التفصيلية التى كتبها الجبرتى، مريده المباشر ، دور الأحلام المركزى فى حياة المتصوف . ذلك أن المتصوفة كانوا يعتقدون أن أحلامهم مرشد خاصة فى حالات الشك . ورغم أن الكردى صار تابع الحفنى ، الا أنه أبى أن يتخلى عن أوراد القشيرى مرشده الصوفى السابق . ولم يستمر الحفنى فى اصراره ، فحين التقى الكردى بمصطفى البكرى ، جعله الأخير يختار ما بين أوراد القشيرى والخلوتية . فرأى الكردى فيما يرى النائم النبى ﷺ ، والقشيرى ومصطفى البكرى مع جده ، الخليفة أبى بكر . وأخبر الكردى فى حلمه أن يتبع البكرى وأن يرتل أوراده ، وأشهرها ورد السحر (بتشديد السين مع فتحها وفتح الحاء) ، الذى كان الخلوتية يرددونه قبل بزوغ الشمس (٥١) . وكان الكردى زاهدا كرس حياته للصوفية ، ولم يخطط حياته ليكون واحدا من علماء الشريعة . وعموما ، فان خليفته ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، كان شيخا للأزهر من ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣ م الى ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م (٥٢) . وكان أول تذوق له للصوفية تحت ارشاد الحفنى ، بمثابة الكارثة : اذ حين علمه الحفني أسرار سر أول الأسماء الحسنى ، فقد الشرقاوى توازنه العقلى

(بشكل مؤقت) (*) ولضطر للعلاج فى للصحة لأيام قلائل • وبعد خروجه من المصحة ، جدد فورا دراسته للصوفية ، تحت ارشاد محمود الكردى • وصار ناجحا تمام النجاح ، حتى ان الأخير خلع عليه تاجا ، وهى طاقية يعلوها تاج رفيع ترمز الى أنه نائب القطب الخلوتى •

وكان الشرقاوى ، فى شبابه ــ شأنه شأن الحفنى ــ شديد الفقر ، الى أن منحه بعض التجار الشوام ، هبات جعلته رجلا غنيا •

وكان للخلوتيــة نظــام تفصيلى للتصوف ، يتطلب مستوى فكريا ودينيا من أتبــاعه • فاصبحت الطريقــة هى السائدة بين كبار العلماء وصار التدريب الخلوتى جزءا لا يتجزأ من التكوين الروحى لدى نخبة الأزهريين •

ومن الأمور التى لها مغزاها أن الكثير من الشباب الذى أتوا لتلقى العلم فى القاهرة كانوا بالفعل قد دخلوا احدى الطرق الصــوفية فى بلادهم ، ولكنهم صاروا خلوتية فى العاصمة • وفى الكثير من الحالات ، كان السماح للشخص بالانضمام للخلوتية وسيلة لدمج القادم الجديد فى مجتمع الأزهريين •

ولا حاجة بنا الى القول ، انه كى تتاهل الخلوتية بحيث تكون أبرز الطرق بالنسبة لعلماء الدين (على الأقل المنهاج الذى أنشأه مصطفى البكرى) ، كان عليها أن تتمتع بسمعة لا يرقى اليهــا أى شك من حيث اتباعها للسنة • وخير دليل ، فى الواقع ، فعله الخلوتية لاكتساب هذه المكانة هو المدح الذى كاله لهم الجبرتى الذى اتخذ هو نفســـه طريق الخلوتية • فالمؤرخ ، المتمسك بالســـنة بصرامة ، والذى يزدرى الأشكال المعوجة الســـوقية للصــوفية بما لا يدع مجالا للشك ، يصور المتصوفة الخلوتية خير تصوير • كما أنه يثنى على الطريقة ثناء واضحا ، فهو يقول : (الخلوتية) « طريقة تقوم على دعائم الشريعة الشريفة والدين الحنيف • فهى لا تفرض (على أتباعها) أى شئ لا يمكن احتماله • انها خير الطرق

(*) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

بما أن الذكر الخاص بها هو (لا اله الا الله) » وهذا حسب الحديث الشريف خير ما يستطيع أن ينطق به انسان (٥٣) ٠

الشيخ البكرى

كانت البكرية عائلة صوفية مصرية عريقة من الأشراف ، تدعى نسبها الى « أبى بكر الصديق » ، أول الخلفاء الراشدين ، واتخذت موقعا رئيسا فى الصوفية فى مصر العثمانية (٥٤) ٠ وطبقا لتراث العائلة ، فان البكرية يرجعون بتاريخهم فى مصر الى الفتح العربى فى القرن السابع للميلاد ، وأصبحوا ذوى مكانة فى القرن الخامس عشر ، حين حضر محمد جلال الدين البكرى من ديروط ، وهى قرية فى الصعيد (٥٥) ، حيث كانت العائلة تسكن لعدة أجيال ، واستقر فى القاهرة فى (٨٤٩ هـ / ١٤٣٧ ـ ١٤٣٨ م) كقاض ومفت كان يعرف ، أساسا كفقيه وليس كمتصوف ٠

وكان أول اتصال معروف للعائلة بالصوفية هو ارتباطها بالشيخ الشهير عبد القادر الدشتوتى (تكتب أيضا الدشطوطى) (المتوفى سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٧ م) ، والذى نصب محمد جلال الدين وصيا على وقفه ٠ ويعتقد أن ثروة العائلة ومكانتها جاءت ببركة الدشتوتى ، وظل هذا المنصب فى بيت البكرية حتى القرن التاسع عشر ، كذلك فان الوصايات على أوقاف اضافية أسبغت ثروة ضخمة على البكرية (٥٦) ٠

وأثناء القرن السادس عشر ، وطد البكرية أنفسهم كطريقة صوفية تحت زعامة محمد شمس الدين أبيض الوجه (المتوفى ٩٩٤ هـ/١٥٦٨م) ٠ لقد ألف أبيض الوجه وردا متميزا يسمى حزب الفتح أو حزب البكرى ، كما كان معروفا باعتباره أحد الشافعية ومتصوفا شاذليا كبيرا ٠

ولقد اعتبر الشعرانى الخجول البسيط نفسه أدنى اجتماعيا بكثير من محمد أبيض الوجه البكرى وعائلته (٥٧) ، كما أخرجت هذه العائلة واحدا من مؤرخى مصر العثمانية وهو محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، الذى تعد حولياته مصدرا لا غنى عنه لتاريخ النصف الأول

للقرن السابع عشر (٥٨) . فمع نهاية القرن السادس عشر ، حين أصبح من الممكن للأغنياء من العلماء والمتصوفة وغيرهم من المدنيين ان يحولوا ثرواتهم الى التزامات ، كان تاج العارفين البكرى ، (المتوفى ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤) ، عم المؤرخ ، يملك التزاما على ٥٠ قرية ، كانت تعطى حصادا سنويا مقداره ١٠و٠٠٠ قنطار من السكر وكميات مشابهة من الأرز ، وبذر السمسم ، والقمح (٥٩) .

وكان البكرية يملكون قصرا كبيرا فخما فى حى بركة الأزبكية الراقى فى القاهرة ، والذى صار ملتقى النخبة الاجتماعية والسياسية . كما كانت لديهم مكتبة كبيرة وصالون أدبى . وكذلك كان لديهم مماليك ، الأمر الذى كان غير عادى تماما بالنسبة للمدنيين (٦٠) .

كان راس عائلة البكرى يحمل لقب شيخ سجادات البكرية (السجادة للصلاة وشيخ السجادة تشير الى رئيس احدى الطرق) (٦١) ولم تكن للشيخ البكرى أى سلطة رسمية على الطرق الصوفية ، ولكنه باعتباره مسئولا عن الاحتفالات بمولد النبى ، وهى أكبر حدث صوفى فى القاهرة ، أصبح له بذلك وضع فريد . وليس من الواضح متى أعطى البكرية هذا المنصب المتميز ، ولكن ، فى نهاية القرن السابع عشر ، يصف افليا جلبى (شلبى) الاحتفالات تحت توجيه البكرية على أنها عادة مستقرة تماما .

كانت جميع الطرق الرئيسية تشارك فى هذا المولد ، الذى لابد أنه قوى من مكانة البكرية . وكان البكرية يعقدون مولدا خاصا بهم ، طالما أنه قد أصبح للكثيرين منهم شهرة بأنهم أولياء وكانوا يقيمون وليمة بالقرب من ضريح الامام الشافعى حيث توجد مقابر البكرية (٦٢) .

لقد تمتع البكرية بالاعتراف الرسمى بامتيازهم الاجتماعى والدينى على هيئة عطايا من خزانة الدولة . اذ يقول ابن أبى السرور ان والده أبا السرور البكرى (المتوفى ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨ م) ، كان أول من حصل

على لقب (مفتى السلطنة الشريفة) . وليس من الواضح ما الصلاحيات أو السلطات التى أسندت اليه (٦٣) .

ومما يشهد على مكانة البكرية الرفيعة ، توجيه الخطاب اليهم بانتظام فى الفرمانات والمراسيم الصادرة باسم السلطان فى اسطنبول (٦٤) .

واخيرا وليس آخرا ، فانه منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر، كانت العائلة تطالب بمنصب نقيب الأشراف كما سنوضح فى مكان آخر من هذا الكتاب (٦٥) .

ان نجاح عائلة البكرى يبين ارتفاع شأن وجهاء الصوفية المحليين بحيث انهم وصلوا الى مواقع نفوذ لا سابق لها ، وكذلك الثروة التى أحرزوها أثناء الحقبة العثمانية . ولقد تنافست البكرية مع جماعة عائلة الوفائية فى الامور المتعلقة بزعامة نخبة المتصوفة . وهى الجماعة التى سأتجه لدراستها الآن .

السادات الوفائية

لقد توازى تاريخ العائلة الوفائية فى كثير من النواحى مع تاريخ البكرية ، ومع أنه من المتفق عليه أن البكرية كانت تتمتع بمكانة اجتماعية أرفع شأنا (٦٦) ، الا أن نقاط التشابه بين البيتين تبعث على الكثير من الدهشة : فكلاهما كانت له جذور عميقة فى مصر ، رغم أن البكرية كانوا أعلى شأنا من الوفائية لأنه يقال انهم هاجروا من تونس فى القرن الرابع عشر .

ويرجع اصم الوفائية الى محمد بن محمد الوفاء (المتوفى ١٣٥٨) وترجع العائلة أصلها الى على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء . وكان كل منهما أسرة متصوفة سنية كبيرة الأهمية فى التراث الشاذلى وبها سمات الطريقة ، مثل الموالد والأحزاب ، غير أنهما ـ البكرية والوفائية ـ لم تقبلا المنضمين الجدد ، اذ لم يكن فى مقدور أى من هؤلاء الجدد أن يكون بكريا أو وفائيا ، الا اذا كان قد ولد وفائيا أو بكريا . كذلك فان الوفائية اكتسبت ثروتها بنفس طريقة البكرية ، أى بالوصايات المربحة على

مؤسسات الأوقاف • وباستثمار رأس المال الذى اكتسب بهذه الطريقة للحصول على مناصب الملتزم • وكما ان البكرية كانوا مسئولين عن مولد النبى (ﷺ) ، كان الوفائية مسئولين عن مولد الحسين • وكان شيخ الوفائية ناظر المسجد الحسينى • وشأنهم شأن البكرية ، كان للوفائية موالدهم • وبالمثل ، تمتعوا باعتراف رسمى من اسطنبول ، وكانوا يتلقون منحا ثابتة • وأخيرا ، فانهم تنافسوا مع البكرية على منصب نقابة الأشراف وقد شـغل هذا المنصب أحد الوفائيـة وهو أول مصرى رشح لهذا المنصب (٦٧) •

وكان للوفائية احتفال مميز يسمى التكنية ، كان يسبغ فيه شيخ السجادة الوفائية كنى (جمع كنية) مثل « أبو الأمداد » • أما اللقبان : أبو الاقبال ، وأبو الصفا فكان يهبهما شيخ السجادة الوفائية لمنح البركة• وكان هذا الاحتفال (التكنية) يتم عادة فى السابع والعشرين من رمضان ، فى ليلة القدر • وكان الشيخ يفوض شخصا آخر لحضور الحفل ، فى الحالات الاستثنائية ، كما حدث فى حالة الشيخ عبد الرحمن العيدروسى ، الذى كان من المقرر أن يسبغ كنى فى اليمن (٦٨) •

ربما كان محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن هو أكثر مشايخ الوفائية لفتا للانتباه ، ان لم يكن أحبهم • فالجبرتى يخصص له سـيرة تفصيلية بشكل غير عادى ، تكشف عن الكثير من جوانب المجتمع الذى كان معاصرا له ، وتلقى الضوء على الكيفية التى استطاع بها رجل طموح حازم أن يستغل وضعه كشيخ متصوف له نفوذه ونقيب للأشراف (٦٩) • ولم تكن مطالبة أبى الأنوار بمنصب شيخ السادات الوفائية مطالبة قوية ، ذلك أنه كان وفائيا من ناحية أمه فحسب • فحين انقطع نسل الذكور فى العائلة ، فى ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ ـ ١٧٦٣ م أسرع بوضع التاج على رأسه ، وتزوج أم الشـيخ المتوفى وانتقل الى منزل قريب من قصر الخليفة الوفائى • وانتظر ست سنوات أخرى حتى وفاة أحد المنافسين الذى كان قد عين فى المنصب ، ثم ركب فى عام ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ ـ ١٧٦٩ م مع الشيخ البكرى وغيره من المشايخ المتصوفة الى مركز الخلوتية (رباط فى الخرنفش) وبعد أن قام باداء المراسم الدينية اللازمة ، خلع عليه ، على بك بولوت كابان Bulut Kapan ، حاكم مصر الفعلى ، رداء الشرف

وصار بذلك هو الخليفة الوفائى بحضور كبار المشايخ • وهكذا ، وضع أبو الأنوار يديه على ثروة العائلة الضخمة • يروى الجبرتى أن مسكنهم كان يشبه قصر أحد الأمراء : فقد كان منيفا ، به الكثير من الحدائق ، والخدم ، وكان من الاتساع بحيث يستوعب عددا كبيرا من الضيوف • ولم يهمل أبو الأنوار دوره باعتبـاره راعيـا للعلوم والثقافة ، فاشترى العديد من الكتب لمكتبته وكان يستضيف العلمـاء والشعراء • ومدحه الشعراء وضيوفه ، بمن فى ذلك العلماء وداهنوه على أمل أن ينالوا عطاياه، وأن يلتقوا بالأمراء وغيرهم من الأعيان الذين كانوا يختلفون الى بيته •

وكان أبو الأنوار يدير شئونه المالية بمهارة فائقة • ففى ١١٩٠ هـ / ١١٧٦ م حين وصل الى مصر حاكم جديد ، ومعه رسول كتاب ـ وهو أعلى مسئول عثمانى للشئون الخارجية ـ أقنع أبو الأنوار هاتين الشخصيتين العثمانيتين الكبيرتين بأن يمنحوه ٥٠ كيسا ثم ٥٠ كيسا أخرى ، كى يصلح زاوية أجداده • وبفضل جهوده وجهود أحد العملاء كان قد أرسله الى اسطنبول ليدافع عن قضيته أمام السلطات ، تم اعفاء القرى الواقعة تحت التزامه من الضرائب المعتادة (٧٠)• غير أنه كان أيضا عديم الرحمة ، اذ كان يضرب الكتبة والحاضرين عند الأضرحة الخاضعة لاشرافه ، ويأخذ الأموال عنوة كلما أمكنه ذلك • وفى احدى المرات ، ضرب أمين سر قبطيا يعمل لدى أمير البلد وحين شكا القبطى لسـيده ، أجاب السيد بالقول : « ماذا تريدنى أن أفعل مع شيخ عظيم ضرب مسيحيا ؟ » وكانت معاملة أبى الأنوار لمستأجريه شديدة القسوة ، بل كانت أسوأ من معاملة غيره من الملتزمين • اذ اعتاد أن يزيد من عبء الضرائب الواقع عليهم ، واذا قصروا فى الدفع ، كان يأمر بالقبض عليهم لشهور ويجلدهم بالكرباج • بل ان أبا الأنوار قام بعملية غش بحيث خلع الشيخ البكرى من الوصاية على الضريح الحسينى • ذلك أن الرجلين كان عليهما أن يتبادلا وصايتى ضريحى الحسين والامام الشافعى ، ولكن حسب ما جاء فى كتاب الجبرتى، انتهى الأمر باحتفاظ أبى الأنوار بالمنصبين معا • وبالاضافة الى ذلك ، فقد استولى على وصايا تدر ريعا من أضرحة أكرم وأشهر وليين (الحسين والشافعى) •

لقد أمر مسئولى الأمن أن يجعلوا أصحاب الحوانيت يفتحون حوانيتهم ليلا وأن يشعلوا المصابيح أثناء مولد الحسين لمدة ١٥ ليلة ، بدلا من ليلة واحدة ، حسب ما كان متبعا حتى ذلك الوقت • وكان ذلك بغرض أن يزيد من مكانته ودخله من مولد الحسين • يقول الجبرتى ، ان أبا الأنوار كرس كل حياته لجمع المال وشراء العبيد والجوارى ، والخصيان • وبينما صار أكثر غنى وأعظم سلطة ، لم يعد يتنازل بالاشتراك فى المراسم الدينية فى الأزهر ، أو حتى فى المركز الوفائى ، وانما كان يرتدى ملابس الأمراء ، بدلا من ملابس رجال الدين ، متخليا عن طاقية التاج من أجل ارتداء قاووق • وهو غطاء رأس يشير الى أصله الشريف •

غير أن هذا الشيخ عديم المبادىء ، لم تكن تنقصه الشجاعة • اذ انه أثناء حملة الجزايرلى حسن باشا التأديبية ضد الأميرين المملوكين ، مراد وابراهيم ، أوصوا أبا الأنوار على زوجاتهما وأبنائهما • وحين انتوى الباشا أن يبيعهم فى سوق النخاسة ، قام الشيخ بحمايتهم ، واضطر الباشا للتخلى عن فكرة البيع • وبالمثل ، وبالرغم من تهديدات الباشا ، رفض أبو الأنوار أن يسلم مبلغا من المال استأمنه ابراهيم عليه (من ناحية أخرى ، سلم الشيخ البكرى مبلغا من المال كان مراد قد أعطاه له ، وبعد أن انسحب حسن باشا من مصر ، وعاد الأميران الى القاهرة ، عاقب مراد البكرى وذلك ببيع أراضيه) • وبعد ذلك لم يخش أبو الأنوار من أن يتهم الأميرين باساءة التصرف ، قائلا : ان الفرنسيين فتحوا مصر بسبب تصرفات المماليك الجائرة • أما قصة علاقة أبى الأنوار مع الفرنسيين والصراع ضد عمر مكرم من أجل نقابة الأشراف ، فهما خارج الفترة التى يناقشها هذا الكتاب •

وتوفى فى مارس ١٨١٣ م وهو فى منصب نقيب الأشراف وشيخ السادات الوفائية •

الشيخ المتصوف

كان الشيخ المتصوف يتحكم تحكما تاما فى حياة مريديه • فحسب معتقد المتصوفة ، فان عضو الطريقة الصوفية (الفقير) يجب أن يسلم قياده بالكامل لمشيئة الشيخ ، باعتباره « جثة فى يد مغسل الجثث » •

ولم يكن الشيخ هو المرشد الروحى للسالك فحسب ، بل فى امكانه أن يحدد كل جوانب حياته الشخصية ، بما فى ذلك أكثرها حساسية . فالشيخ هو الحاكم فى طريقته أو صفته (بضم الصاد وتشديد الفاء وفتحها) . ويصف الشعرانى كيف كان محمد الغمرى فى زاويته فى محلة روح . اذ اعتاد الشيخ أن يجمع مريديه مرة أو مرتين فى الأسبوع ويطلب منهم أن يعرضوا عليه خلافاتهم . وفى الطريقة الأحمدية ، كان الشيخ الذى يقوم بدور الحكم ، يجلس فى الخلف حتى لا يرى أحد وجهه . وفى أثناء ذلك ، كان النقيب يسجل الخصومات ، ثم يعلن الشيخ قراراته ، التى يقبلها كل الفقراء . وكان هذا النوع من القضاء غالبا ما يفضل على اللجوء للمحاكم الرسمية ، التى كان الكثيرون يريدون تجنبها اذ اعتبروها بحق ذراع الحاكم . وكان الشيخ كذلك يقوم بوظيفة قس الاعتراف ، اذ كان السالك يفصح عن جميع أفكاره ، الخير منها والشرير لشيخه .

وفى القرن السادس عشر ، تأسست جمعية صوفية تسمى الخواطرية . أسسها محمد بن عراق ، وهو متصوف من الشام . كان مريدا لعلى بن ميمون ، وهو شيخ مغربى ذائع الصيت ، واشتقت اسمها من ممارسة أعضائها ، اذ يفصحون للشيخ عن جميع (خواطرهم) .

لقد سبق ان ذكرنا أهمية الأحلام فى الثقافة الصوفية وغالبا ما كان الشيخ يقوم بتفسير أحلام مريديه (٧١) . وكانت غالبية مشايخ الصوفية ترنو الى نشر طرقهم وأن يجمعوا أكبر عدد ممكن من الأتباع . ومن المحتم، أن الغيرة والمنافسة كانت تنشب بينهم ، وكان المشايخ يتصرفون بأسلوب شديد القبح من أجل تدعيم شعبيتهم ولكى يمنعوا غيرهم من المشايخ من التعدى على نطاقهم . فمثلا كان الشيوخ الملتزمون ينتهزون وضعهم فى مناطق الالتزام لمنع الطرق المنافسة من الدخول (٧٢) . غير أنه لم يكن جميع المشايخ تواقين الى تكريس كل وقتهم لارشاد السالكين الى الطريق (تسليك المريد) ، ذلك أن البعض اعتبر ذلك تشتيتا لهم عن التركيز فى خبراتهم الدينية .

حين رأى عبد القادر الدشطوطى ـ المتصوف كثير الترحال ـ على المرصفى أحد مشـايخ الشعرانى ، منشـغلا بتعليم الذكر ، قال له : « يا على ، تحرر من هذه الأغلال واخرج وسر فى الأرض » غير أن عليا أجابه : « ان الصواب بالنسبة لى هو أن أعمل ما أعمله · والصواب لك أن تفعل ما أنت فاعل » (٧٣) · ذلك أن بعض المشايخ المتصوفة كانوا يفضلون حياة السياحة · فيرتحلون لسنوات كثيرة الى أقطار بعيدة ، وفى حالات نادرة جدا كانوا يرتحلون خـارج أرض الاسلام (٧٤) · كما أن بعضهم الآخر لم يغادروا القرى التى ولدوا فيها أو بلدتهم ، أو كانوا يعودون اليها بعد الدراسة فى القاهرة · وحتى المشايخ الذين كانوا على استعداد لتعليم السالكين كانت لهم آراء شـديدة الاختـلاف بخصوص كيفية القيام بهذا العمل · فبعضهم كانوا صارمين بل قساة فى الغالب على المتقدمين الجـدد والسالكين ، وكان الآخـرون يتسمون باللين ، معتبرين أن انتشار الطريقة وسيلة مثالية لمكافحة الجهل أو نفوذ الدراويش الخارجين على التعاليم ، وعلى الأخص فى الريف · ولابد أننا نتذكر كيف أن الشيخ الحفنى ، تحت تأثير مصطفى البكرى ، خفف من مطالبه من المتقدمين الجدد ونشر الخلوتية عن طريق قبول جميع من تقدموا (٧٥) · ويقدم الشعرانى العديد من الأمثلة عن المشايخ الآخرين الذين تصرفوا على هذا النحو · وربما يعد محمد الشناوى ، شيخه المباشر ، خير ممثل للصوفية اللينة المتفائلة الشعبية بحق · ذلك أنه نشر الذكر فى مديرية الغربية ولم يتردد فى تفويض النساء بل حتى الأطفال فى ترتيب حلقات الذكر ، على النقيض من المشايخ الآخرين ، الذين كانوا يختبرون أولئك الراغبين فى الانضمام الى الطريقة ·

وثمة صفة جوهرية لمشايخ الصوفية هى البركة ، وهو لفظ يصعب ترجمته ، غير أنه يعنى بصفة أساسية الشرف والكرم أو الهيبة · وكان الايمان بقوة البركة شائعا وليس مقصورا على الصوفية · اذ لم تكن البركة مرتبطة بالعلم أو الامتياز الخلقى أو التقوى ، ذلك أنه فى بعض الأحيان كان يعتقد بوجودها فى المجانين (٧٦) ·

ويروى الشعرانى قصة شائقة عن مواجهة بين متصوف مصرى يسمى محمد المنير وشامى اسمه محمد بن عراق · اذ وبخ الثانى الأول على

احضار هدايا تبرع بها التجار المصريون والأمراء لساكني مكة . اذ ادعى ابن عراق أن الهدايا حرام ، بسبب فساد المتبرعين . فقبل المنير التوبيخ ، ظاهريا ، ولكن بعد ذلك بوقت قصير مات الشـــامى حسب ما قيل ، مصعوقا ببركة المنير . ورغم أن الرجلين شخصيتان تاريخيتان ، الا أن الأحداث التى رويت ليست كذلك بالقطع ، كما يتبين من تاريخى وفاتهما أن المنير قد توفى قبل ابن عراق بعامين (٧٧) . وتكمن دلالة هذه القصة فى المواجهة بين نوعين مختلفين من المتصوفة ، واحد يتمسك بالمبادىء الأخلاقية ، والآخر قد حلت به البركة . وترتبط هبة البركة الربانية ارتباطا وثيقان بالايمان بالكرامات أو المعجزات التى تعزى للأولياء . اذ ساد اعتقاد بأن الظواهر المعجزة ليست ممكنة فحسب ، وانما هى موجودة دائما وأن الأولياء لديهم القوة على احداثهـا . فكانت المعجزات أشـياء مسلما بها ليس من جانب رجال كالشعرانى ، الذى كان مروجا للمعجزات يؤمن بالخرافات ، وانما أيضا من جانب الجبرتى ، المؤرخ الأمين رائق الذهن (٧٨) . كذلك كان هناك اعتقاد بأن المتصوفة المشايخ لديهم هبة التنبـــؤ .

يكتب الجبرتى عن متصوف قد تنبأ بترقية أحد حكام مصر الى منصب الصدر الأعظم وعن شيخ آخر تنبأ بترقية أحد العلماء الى منصب شيخ الأزهر (٧٩) . اذ ان الكثيرين من المتصــوفة قد شغلوا أنفسهم بالعرافة وغيرها من الممارسات الروحية (٨٠) . فلقد عزا التصور الشعبى لمشايخ المتصوفة قوى خارقة من كل نوع بما فى ذلك قدرتهم على فرض ارادتهم على البشر والطبيعة .

ولقد اختلف المشـــايخ المتصــوفة من حيث الكيفية التى كانوا يتعيشون منها . اذ عاش معظمهم عن طريق علمهم الدينى كمعلمين أو أوصياء على أوقاف أو حراس لأضرحة شريفة ، أو كانوا يتلقون تبرعات من حكام محليين أو أجانب أو من أغنياء القوم أو العـــامة الذين كانوا يعتقدون بصلتهم بالله .

وثمة اضافة لأمثلة المتصوفة الأثرياء الذين نموا ثرواتهم عن طريق استثمار رءوس أموالهم رغبة فى أن يكونوا ملتزمين(٨١) كما سبق أن بينا ،

وهناك حالة عبد الكريم الزيات (١١١٨ هـ / ١٧٦٨ م) ، وهو متصوف وعالم . وتبين هذه الحالة كيف كان من الممكن لوضع الشيخ أن يجلب له الثروة . لقد أرسل الحفنى ، المعلم الصوفى ، الزيات ، الى الصعيد لأن أحد زعماء قبيلة الهوارة كان يعتقد فى الحفنى فطلب منه أن يرسل أحد مريديه . فقبل الزيات ، بقدر كبير من التكريم ، وخصص له بيتا فسيحا ، وقطعة من الأرض ، وخدما وحاشية . فصار فى غاية الثراء عن طريق تجميع المزيد من الأراضى والعبيد والثروة الحيوانية . وأخذ يعلم ويصدر الفتاوى واكتسب بعض الناس للصوفية ، كما عقد حلقات للذكر الا أنه بسبب تغير الظروف فى الصعيد ـ ربما لأفول نجم رعاته من الهوارة ـ فقد ثروته ومكانته ، وعاد الى القاهرة ليفاجأ بأن الحفنى ، معلمه ، قد مات . وبعد ذلك ، عاد الى بهجورة بلدته فى الصعيد ، غير أنه لم يسترد ثروته الغابرة (٨٢) .

ان هذه السيرة ، تلقى الضوء ، بطريقة تتسم بالحيوية ، على كيفية تداخل العلم الاسلامى بالصوفية . اذ ان الزيات كان قد أرسل الى الصعيد ، أساسا ، كمتصوف ، والجبرتى واضح فى التحدث عن تركيز الزيات فى نشاطاته على الجانب الصوفى . غير أنه ، كان على ما يبدو ، معلما ومفتيا فى آن واحد . بسبب كونه السلطة الدينية الوحيدة فى ذلك الاقليم القصى الذى يسكنه البدو .

ولم يعتمد جميع المشايخ المتصوفة على علمهم الدينى لكسب قوتهم . ذلك أن الطريقة الشاذلية وغيرها من الطرق ، كانت تطلب أن يشتغل الصوفى بعمل نافع . فكان على الخواص ، مرشد الشعرانى الى الصوفية يصنع أشياء من خوص النخيل ، لذا سمى بالخواص . وبعض المشايخ عاشوا حياة شديدة التواضع يتكسبون قوتهم من العمل اليدوى المتواضع ، مثل العناية بالزيت والمصابيح أو أحذية المتعبدين فى أحد المساجد . بل عمل أحد المتصوفة حمالا بسيطا . ويصف الكثير من كتاب السير الكثيرين من المتصوفة بأنهم زهاد حقيقيون يقيمون أودهم بأقل القليل ، ويرفضون الهبات (٨٣) .

وكان نظام الطريقة يضع خطا حادا يفصل بين المتصوفة المتفرغين عن أولئك الذين كانوا يكسبون عيشهم خارج الطريقة ، مع أنهم قبلوا كأعضاء وكانوا يشاركون فى طقوس الطريقة ومراسمها ·

يكتب أ · و · لين قائلا : « ان جميع دراويش مصر تقريبا هم من التجار أو الصناع أو من العاملين بالزراعة وكانوا من آن لآخر فقط ، يشاركون فى طقوس طرقهم المختلفة ومراسمها : ولكن هناك البعض من الذين لم تكن لديهم أى شواغل أخرى عن أداء الأذكار فى احتفالات الأولياء وفى المحافل الخاصة أو الانشاد فى مواكب الجنازات · وهؤلاء يطلق عليهم فقراء وهى تسمية تطلق على الفقراء بصفة عامة ، ولكنها تطلق بصفة خاصة على الأتباع الفقراء » (٨٤) · وعلى الشخص ، كى يكون سالكا ، أن يقبله أحد المشايخ شخصيا أو خليفته المفوض · وتختلف مراسم الحاق السالك من حيث تفاصيلها من احدى الطرق الى الأخرى غير أن هناك بعض العناصر المشتركة بين كل الطرق تقريبا · ان الخطوة الأولى ، عادة ، هى أخذ عهد الطريقة وهكذا يخضع (بضم الياء) المرء نفسه لقواعد الطريقة الخاصة · وقد تشمل المراسم ، أيضا ، البيعة وهى قسم الولاء للشيخ · وهناك مراسم أخرى ، مثل ارخاء حافة عباءة السالك عن طريق الشيخ وارخاء العذبة والباس السالك لباس الطريقة (الباس الخرقة) ويبدو أن هذه المراسم يحتفظ بها فقط للمتصوفة المحترفين الذين وهبوا أنفسهم لذلك ·

وهناك جزء ضرورى لالحاق السالك هو تلقينه الذكر · وعندئذ ، يبدأ السالك رحلته · وتختلف مراحل أخذ الطريق من طريقة الى أخرى ، وأحيانا من شيخ لآخر فى الطريقة نفسها · وغالبا ما يعتمد تقدم السالك على شخصيته واخلاصه ·

وتذكر المصادر أشخاصا آخرين ذوى نشاط تحت مرتبة الشيخ فى الطريقة : الخليفة والنقيب · وكان الأول شخصية مركزية فى الحياة الصوفية ، فلم يكن يسمح بعقد حلقات للذكر دون حضوره (٨٥) · وتقول

دراسة أجريت فى بداية القـــرن العشرين أن الخليفة يحتفظ بمعدات الطريقة ، مثل البيارق والرايات والآلات الموسيقية • ويحصـــل الخليفة على اجازة مكتوبة من الشيخ لتلقين الذكر للسالكين الجدد •

وكان النقيب هو الوصى على طقوس العبادة كما كان مسئولا عن اعداد الجوانب الفنية للتجمعات الصوفية (٨٦) • وكان أعضاء الطرق الصوفية يشتركون فى الموالد وحلقات الذكر ، التى كانت تنعقد مرة فى الأسبوع على الأقل •

وكانوا يسيرون تحت راياتهم فى مناسبات عامة معينة ، مثل خروج المحمل (أى المؤن التى ترسل الى مكة كل عام مع قافلة الحجاج) ووفاء النيل ، وفى ليلة الرؤية (٨٧) •

وكما هو الحال مع التنظيمات الأخرى فى الشرق الأوسط ، كانت العلاقات داخل الطريقة شخصية وعائلية ، أكثر من كونها رسمية • والكثير من مصطلحات العلاقة كان يستعار من الصلة العائلية • فكان الشيخ يسمى الأب أو الجد ، ورفاق المتصوف ــ مريدون آخرون لنفس الشيخ ــ يدعون اخوانه ، وحين كان السالك يكمل مسيرته الروحية فهو « يفطم » • وبالمثل ، فان وضع الشيخ كان ينتقل من الأب الى الابن • ذلك أن الكثير من الطرق كونت أسرا من المشايخ ، ظلت تحمل اللقب لقرون • وكان هذا يصدق بصفة خاصـــة حين تكون الطريقة من النوع الوراثى ، وترتكز على زاوية أو تكية هامة ، أو على ضريح مؤسس الطريقة • وعموما ، فان الخلوتية ، التى لم تنل شعبية كطريقة روحية ، وانما كتنظيم لتعليم المبدأ الصوفى لم تطبق المبدأ الوراثى : فلم يكن خليفة الشيخ هو ابنه ، وانما أبرز مريديه • وأحيانا ما كانت تقع صراعات على خلافة الشيخ بين أبناء الشيخ ومريديه • وفى بعض المناسبات ، كان الشيخ نفسه يعين من يخلفه ، وكان من الممكن للخليفة المتوقع أن يحسن من فرصه وذلك بالاقتران بابنة شيخه (٨٨) •

أخيرا ، مسألة العضوية المتعددة فى الطرق

بناء على الأدلة التى توفرها لنا العديد من سير المشايخ المتصوفة ، من الواضح أن المعيار هو الدخول فى العديد من الطرق • ولقد سبق أن ذكرنا دخول الشعرانى فى ٢٦ طريقة • والمليجى ، كاتب سيرة الشعرانى ، كان يعرف بالوفائى الأحمدى الشناوى الشعرانى (٨٩) •

لقد كتب الجبرتى سيرة أحد العلماء قام بدراسة الصوفية أيضا ، ومنحت له اجازات من عدة طرق صوفية • ومن ناحية أخرى ، كان من حقائق الحياة الصوفية أن العهد الذى يعطيه السالك لشيخه يربطهما معا ويصمد عبر المنافسات بين الطرق • ويكمن الحل لهذا التناقض الظاهر فى التمييز بين العضوية الكاملة فى احدى الطرق كمنظمة اجتماعية ، تستتبع الطاعة للشيخ ، والاشتراك المنتظم فى الطقوس والمراسم ، وبين تعلم الذكر فى حد ذاته أو من أجل الحصول على البركة (٩٠) • ومن الواضح أن الشعرانى لم يشترك بانتظام فى طقوس جميع الطرق التى تعلم طريقتها فى الذكر • وقد يبدو أيضا أن مثل هذا الارتباط السطحى بأكثر من طريقة واحدة كان يسمح به فى حالة المتصوفة الأكثر استقلالا وتعلما ونضجا ، ولكنه ليس مسموحا به فى حالة العامة من الناس (٩١) •

الجوانب الاجتماعية لهذه الطرق

كان سبب وجود الجمعيات الصوفية دينيا (*) • ولا ينبغى التغاضى عن هذه الحقيقة الأساسية عند النظر فى الجوانب الاجتماعية للصوفية •

ولا شك فى أن الطرق حققت وظائف اجتماعية حيوية وقامت باشباع احتياجات اجتماعية ونفسية هامة ، رغم أن هذا نادرا ما كان جزءا من المبدأ الصوفى من الناحية الرسمية • بل على النقيض من ذلك ، كما قال

(★) الجانب الدينى فى الاسلام على الأقل لم يكن فى حاجة لذلك ، والاقرب للصحة انها ظهرت لتلبية حاجات اجتماعية ولتلمس نوع من الحماية فى ظل مجتمع يصعب على غير العسكريين (المماليك) الحياة فيه ــ (المراجع) •

الشعرانى ، ان أبا السعود الجارحى أحد زملائه قد قال : « جميع من أتوا الى انما فعلوا ذلك بسبب متاعبهم مع زوجاتهم ، أو جيرانهم أو سادتهم • ولم يرغب واحد منهم أن يكون أقرب الى الله » • بعبارة أخرى ، فان الناس شعروا أن الصوفية في امكانها أن تمنحهم السكينة والأمل الذى فشل أن يسبغه الاسلام السنى الرسمى ، والذى أصبح دين الفقهاء (*) (٩٢) : وبما ان الصوفية الاسلامية لم تتطلب بل ولم توص بحياة العزوبية ، فان هذا أدى الى تزايد الطرق من حيث الحجم ليس فقط عن طريق انضمام أعضاء جدد ، وانما أيضا من خلال النمو الطبيعى •

وبينما لم يعد المتصوفة حركة للنخبة ، فان الكثير من الناس ولدوا داخل احدى الطرق تماما كما يولدون داخل طبقة اجتماعية ، أو قرية ، أو حرفة •

فى تلك الأوقات ، كان الحراك الاجتماعى فى أدنى الحدود ولم يكن لدى معظم الناس سوى قدر ضئيل من اختيار التنظيم الاجتماعى أو الوسط الذى ينتمون اليه • وكما سبق أن أشرنا ، فان بعض المتصوفة كانوا أثرياء وآخرين فقراء ، وبعضهم جشعين والآخرين زهاداً ، وهناك أمثلة توضح هذا التنوع فى هذا الصدد • ومع ذلك ، كان لمعظم الطرق طابع اجتماعى اقتصادى محدد بوضوح ، وكثيرا ما كان يوجد تعادل وثيق ايجابى بين هذا الطابع والنوعية الدينية لهذه الطريقة •

فالطرق الشعبية أو السوقية ، التى ينتمى أعضاؤها الى الطبقات الدنيا ، اشتهرت أيضا بكونها خارجة على الأحكام الدينية ، ومتراخية فى مراعاة أحكام الاسلام ، إما طرق النخبة الاجتماعية فكان يلحظ اتباعها للسنة • فبينما كانت خلوتية مصطفى البكرى طريقة سنية أساسها الأزهر، كانت الطريقة البيومية ، على سبيل المثال ، وهى الطريقة السائدة فى

(★) كان الاسلام السنى فى عهد الرسول ﷺ والراشدين كافيا لاتباع الحياة الروحية والاجتماعية للمسلمين ، لكنه نتيجة للتراث المملوكى غدا شكلا اكثر منه مضمونا ، فالعيب اذن فى التركيبة المملوكية وليس فى الاسلام ـ (المراجع) •

الحسينية أحد أحياء القاهرة الفقيرة ، ويرأسها جزار ، كانت فاضحة فى خروجها على السنة • وتوجد أيضا فى المصادر الكثير من الاشارات للطابع الخارج على السنة فى الطرق الريفية • فكثيرا ما يشير افليا جلبى (شلبى) بعناية الى الوضع الاجتماعى للمشاركين فى الموالد المختلفة ، أو زوار الأضرحة الشريفة • وهو يقول ، مثلا ، ان من يأتون الى مولد ابراهيم جولشينى هم من الأتراك ، والجنود وأناس مثقفون ومتعلمون مثل الشعراء والكتاب ، أى جمهور نظيف متمدين • ويضيف أن المولد يعد مناسبة لتجمع الخواص ومن الملاحظ ، أن العوام والفلاحين لا يحضرون لسوء الحظ • وعلى النقيض من ذلك ، فان مولد عمر بن الفارض يجتذب جمهورا من الفقراء ومن جميع أنــواع الناس المتسمين بغرابة الطباع ، ولا يحضره أناس من مستوى اجتماعى أعلى (٩٣) • ويقدم الجبرتى ، نظرا لما يتحلى به من حدة الملاحظة للحقائق الاجتماعية ، أفضل الأوصاف : ذلك أن لومه على الطرق « غير المنضبطة ، فى سلوكها أثناء موالدها ، يعكس بلا شك ، ازدراء العالم الأزهرى • ذلك أن الطرق التى اشترك أعضاؤها فى مولد غفل غامض الأصل ، هم « أهل البدعة التى استحقت اللوم»• اذ كان الجبرتى مشمئزا من الصياح والمزاح فى المسجد ، ومغازلة الشبان الذين يتسمون بالأناقة ، وقزقزة المكسرات وجعل المسجد قذرا بسبب ما يلقونه من قشر • وكانت الطرق المشاركة هى العفيفية والسمانية والعربية ، والعيسوية • فأحدثوا جلبة كبيرة بطبولهم ، وغنائهم المرتفع ورقصهم • ثم ازداد الموقف سوءا بالمواكب الصوفية (جماعات الأشاير) من أحياء المدينة الدانية والقاصية ، وهم يحملون الشموع ، والطبول وآلات النفخ الموسيقية ، وينطقون ما يظنون انه ذكر بلغه شــوهاء ، ويتهمون اى شخص يستنكر ما يفعلون بالكفر ، والالحاد • ومعظمهم من الدهماء الذين يعملون فى أحقر المهن ، أناس لا يملكون قوت الغد ، اذ اعتاد بعضهم أن يبيع ما يملك ، ويقترض النقود لشراء الشموع ، وليدفع للطبالين وعازفى آلات النفخ • فهم جميعا من السابلة (٩٤) •

وفى موضع آخر ، يتحدث الجبرتى بطريقة مشابهة ، عن الطرق الشيطانية ، التى تعرف بالأشاير (مواكب المتصوفة) ، وهم دهماء وأعضاء

الحرف الحقيرة ، والذين يربطون أنفسهم بالأولياء المشهورين ، مثل الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهانية وغيرها (٩٥) ٠

وأحيانا كان المشايخ المتصوفة يتحدثون جهرا من أجل المظلومين والفلاحين المستغلين (بفتح الغين) بل ويتصرفون نيابة عنهم ، مدفوعين بالاعتبارات الأخلاقية ٠ اذ لم يخف الشعرانى أبدا أصله الريفى وهو المهاجر الى العاصمة من قرية صغيرة ، رغم أنه حمد الله على نقله من القرية ، التى كانت مكانا فظا جاهلا ، الى المدينة ، التى كانت مكانا للتهذيب والرقى والمعرفة (٩٦) ٠ ومع ذلك ، حاول الشعرانى وزملاؤه من المتصوفة أن يعلموا الفلاحين الدين الصحيح ويخففوا من حياتهم الصعبة ٠ ويعد هذا الاتجاه متناقضا تناقضا حادا مع الازدراء الذى نظر به الشربينى للفلاحين ، وهو من أصل فلاحى : ذلك أنه سخر منهم بهجاء قاس وقال انهم يستحقون تماما ما يقاسون منه من ظلم وشقاء (٩٧) ٠ وتدخل محمد الشناوى ـ الذى كان نشطا فى الريف ، كما سبق ذكره ـ بنجاح فى رفع ظلم قاسى منه الفلاحون على يد ملتزم جائر (٩٨) ٠

ويروى الجبرتى عن حالة من القلاقل الريفية فى جمادى الآخرة ١٢٢٢ هـ / أغسطس ١٨٠٧ م ، بدأها أتباع شيخ متصوف مجذوب يدعى سليمان من منطقة بنها العسل ٠ لقد كان واحدا من النوع المألوف من الأولياء ذوى الشعبية : وكان حديثه مقصورا على الذكر والأقوال الغريبة ، التى كان أتباعه يفسرونها على أنها كشوف ربانية ٠

وكانت الدائرة الخاصة من معجبيه تتألف من ١٦٠ من الشباب غير الملتحين ، معظمهم من بين أبناء مشايخ البلد ، وكانوا يعيشون فى مخيم من الأكواخ والخيام مقامة فى حقل مفتوح حول كوخ الشيخ ٠ وكانوا يرتدون عقودا من اللؤلؤ الملون والأقراط ويحملون سياطا سميكة مصنوعة من ليف النخيل ٠ وبدأت هذه الطريقة النامية بطلب تبرعات من القرى الأخرى ، وصارت أكثر ميلا للعدوانية وأصبحت النواة الصلبة لحركة احتجاج اجتماعية : اذ بدأ أتباع سليمان يحرضون الفلاحين ضد الحكام مستخدمين الشعار القائل : (لا ظلم اليوم ! لا تعطوا الظالمين أيا من

الضرائب الجائرة التى يطلبونها منكم · واقتلوا من يأتى ! » وانجرف الفلاحون · وانتهت الحركة حين ارتكب سليمان الخطأ القاتل بالذهاب الى القاهرة مع أتباعه لتحدى السلطات · لقد أغراه أحد العلماء من القرية نفسها بفعل ذلك ، وكان يحس أن الملتزمين يسيئون اليه ، بالاستيلاء على قطعة من الأرض تخص عائلته · ورفع العالم قضيته أمام كبار العلماء وأمام عمر مكرم ، نقيب الأشراف فى العاصمة ، ولكن بلا جدوى · ثم قام هذا العالم باقناع سليمان بالمسير الى القاهرة مع جميع أتباعه ، واعدا اياه بالفوز العظيم · ومما لا يدعو للدهشة ، ان السلطات لم تكن متحمسة لاستقبال الفلاحين مثيرى الضجة بسياطهم · وأقام دراويش سليمان حلقة ذكر عند المقام الحسينى ثم زاروا ضريح الشافعى وضريح الليث ابن سعد ·

لم يحس عمر مكرم بأن سليمان رجل له كرامة ، أو قداسة ، بل اعتبره مشعوذا · وتفرق أتباع الشيخ ، حتى لم يتبق معه سوى أربعة من الأوفياء · فوضعوا على ظهر قارب فى القاهرة ، ثم أغرقوا فى النيل (٩٩) ·

لقد كان الاضطراب الريفى الذى سببه دراويش سليمان المجذوب شيئا غير عادى فى مصر ، لكنه كان أكثر تكرارا بكثير فى الأناضول ، على سبيل المثال ، حيث كثيرا ما تمرد الفلاحون بزعامة المشايخ المتصوفة ، لأسباب اجتماعية واقتصادية (١٠٠) · ورغم أن هذا التمرد غير معتاد ، الا أن هذه الواقعة تلقى الضوء على بعد اجتماعى للصوفية المصرية ·

وثمة بعد آخر كهذا هو الطبيعة الخيرية الموجودة لدى الكثير من المؤسسات والأنشطة الصوفية المصرية · اذ كان الكثيرون من المتصوفة يطعمون مريديهم والمتعاطفين معهم وغيرهم من الفقراء · فالشعرانى على سبيل المثال ، كانت له زاوية واسعة ، كان يؤوى فيها ٢٠٠ طالب ، ٢٩ منهم كانوا من العميان · ولم يكن هناك الكثير من الطعام كى يكفى أولئك الذين كانوا يعيشون فى هذه الزاوية ، وانما كان هناك ما يكفى للأتباع غير المقيمين كى يحملوه الى بيوتهم (١٠١) · وكانت الموالد من المؤسسات

المرتبطة بالصوفية والتى كانت تقوم بدور أماكن فعل الخير ، حيث كان الطعام المجانى كثيرا ما يتم توزيعه على المحتاجين ، وكان هذا ممكنا بفضل الأوقاف الخاصة . وبالمثل ، كانت الكثير من الصـــفات (أماكن سكنى المتصوفة) بها مطابخ للفقراء أو عابرى السبيل . ويشـــهد افليا جلبى (شلبى) على هذا ، اذ يلاحظ بعناية تلك الأماكن الصوفية التى كانت بها مرافق وأموال لتقديم الطعام والمرطبـات للجمهور ، مع كميات اضـافية خاصة فى العطلات (١٠٢) .

وأخيرا ، هناك علاقة الطرق بالحرف التى انتشرت شبكتها فى كل أنحاء المدن وكانت تشمل جميع السكان تقريبا ، مما يستوجب بعض الاهتمـــام .

يجادل جابريل بير ــ وهو مؤلف أشـمل دراسـة عن الحرف فى مصر ــ بطريقة مقنعة ، بأنه بالرغم من الكثير من أوجه التشابه فى التنظيم والتسمية بين مجموعتى الروابط ، الا أنه لم تكن هناك صلة مباشرة بينهما . ويشير بير عن حق ، أن المثال الذى كثيرا ما يضرب ، والمأخوذ عن لين ، عن صيادى القادرية يؤيد حجته ، بما أنها حالة الاتصال الوحيدة بين احدى الطرق الصوفية واحدى الحرف ، والسبب الذى جعل لين يذكره مرتين ــ ولكنـه لم يسق أى مثال آخـر كهذا ــ قد يشير الى أنها كانت حالة استثنائية ، وليست هى القاعدة . ويستنتج بير : أنه من المحتمل أن معظم أعضاء الطرق كانوا هم أبناء الحرف .

ومهما يكن من أمر ، فما دام قطاع الحرف كان يضم جميع سكان المدن ، (فيما عدا الدرجات البيروقراطية العليا والعلماء) ، مما يجعله يضم أناسا يتفاوتون تفاوتا كبيرا من حيث الثروة والمكانة الاجتماعية ، فليست جميع الحرف وربما ليس جميع أعضاء حرف بعينها كانوا أعضاء فى الطرق . كمـا يذكرنا بير بأن طبيعة النـوعين والغرض منهما كانا مختلفين . فوظائف الحرف كانت ، بصـفة رئيسـية ، ادارية ومالية واقتصادية ، أما الطرق فقد أنجزت مهمة روحية واجتماعية (١٠٣) . ولا يمكن انكار المنطق الذى تقوم عليه حجة بير ، غير أن هناك حاجة الى

المزيد من البحث فى هذا الموضوع • فمثلا هناك معلومات ذكرت ، بشكل عابر ، فى احدى الحوليات التاريخية • هذه المعلومات تلفت انتباهنا الى أن مشايخ الحرف ومشايخ الطرق الصوفية كان ينظر اليهم على أنهم ينتمون الى نفس الفئة الاجتماعية ، أيا كانت الصـــلات الدقيقة بين الرابطتين •

تروى لنا كتب التاريخ الحولى أنه فى عام ١١٠٧م/١٦٩٥ ــ ١٦٩٦م، أقام الباشا وليمة ضخمة بمناسبة ختان ابنه • فعقد سلسلة من حفلات الاستقبال استمرت أربعة عشر يوما ، فى كل يوم كانت تدعى الى القلعة جماعة اجتماعية مختلفة • وكانت هناك مراعاة لمراسم دقيقة جدا وتقسيم طبقى صارم ، بحيث يدعى من هم ذوو مكانة اجتماعية أعلى قبل أصحاب المكانة الاجتماعية الأدنى • وهكذا ، ففى اليوم الأول ، دعى القضاة وعلى رأسهم قاضى العسكر • واحتفظ باليوم الثانى للعلماء والطلاب • واليوم الثالث ، للأشراف وعلى رأسهم نقيب الأشراف • وفى اليوم الرابع ، دعى رؤساء الطرق الصوفية والحرف (أرباب السجاجيد والحرف) معا • وابتداء من اليوم الخـــامس حتى التاسع حفظت الدعوة للجمـــاعات العسكرية ، ومرة أخرى ، حسب رتب وأهمية الوحدات ، ومن العاشر حتى الثالث عشر ، للجماعات المختلفة من التجار ، أما اليوم الرابع عشر فكان للطلبة العميان بالأزهر والشحاذين (١٠٤) •

الأقسام العرقية فى مجتمع المتصوفة

لقد انعكس التنوع العرقى لمصر العثمانية فى المجتمع الصوفى • فمع أن الغالبية الساحقة من الأهالى كانت (ومازالت) من أبناء البلاد المتكلمين باللغة العربية ، الا أنه كانت هناك جاليات لا يستهان بها من الأتراك والمغاربة ، وأخرى أصغر بكثير من الهنود واليمنيين ، ومسلمين من وسط آسيا ، وغيرهم (١٠٥) • وفى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، نقرأ عن وجود دراويش فرس وأتراك فى القاهرة (١٠٦) • ولم تكن الطرق الصوفية فى مصر ممتزجة عرقيا ، كقاعدة عامة • اذ تشير الأدلة الى طرق منفصلة من الأتراك والعرب ، ولقد سبقت الاشارة الى الطابع

التركى السائد فى الطريقة الخلوتية فى بداياتها • وكان من الطبيعى الالتزام بالفصل العرقى ، خاصة فى المبانى التى كانت تستخدم كمراكز صوفية وبها مقار سكنية وحجرات للدراسة •

وفى مقالة حديثة ، يدرس ليونور فرناندز Leonor Fernandes وصيتى وقف لاحدى الزوايا واحدى التكايا تم تأسيسهما فى أوائل مصر العثمانية (١٠٧) • زاوية حسن بن الياس الرومى (التركى) الاسطنبولى التى أنشأها عام ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م بواسطة سليمان باشا ، حاكم مصر ، غير أن وثيقة الوقف وضعها حسن الرومى نفسه • أما الزاوية ، التى كانت تشتمل على مسجد ومدرسة دينية صغيرة ومقبرة ، فكانت مخصصة تماما للمتصوفة من غير العرب من سكان مصر • كما تنص على ذلك وثيقة الوقف بوضوح • وكان ينبغى أن يكون جميع العاملين ابتداء من الشيخ وحتى العمال اليدويين من العجم • وكانت المؤسسة الثانية تكية أنشئت من أجل المتصوف الشهير ، ابراهيم جولشينى • ولم تكن التكية معنية أساسا بالصوفية السنية على النقيض من زاوية حسن وانما ، كانت معنية ، بالأحرى ، بنشر الطريقة • فلم يكن السكن مقصورا على (العجم) وتعنى غير العرب : غير أنه كان مقصورا على أعضاء الطريقة • ان اقتصار زاوية حسن على العجم ــ عمليا ــ ولا شك على الأتراك ، بصفة رئيسية ، كان أمراً واضحا ومحددا • ولكن حتى فى مركز جولشينى ، حيث لم تكن هناك مادة أو شرط يحدد السكن ، فمن المأمون تماما ، أن نفترض أن معظم الساكنين ، وان لم يكن جميعهم بالضرورة ، كانوا من الأتراك •

لقد كان الفصل العرقى والعنصرى الارادى مقبولا على أنه المقياس أو المعيار العادى والطبيعى ، بشكل أكبر فى جالية صغيرة حميمة فى أحد مراكز المتصوفة • ويؤكد افليا جلبى (شلبى) الذى زار مركز جولشينى بعد تأسيسه بمائة وخمسين عاما أن الناس الذين كانوا يحضرون الى هناك كانوا دائما من الأتراك ، وأن العرب لم يدخلوا المكان (١٠٨) • ولم يكن مركز جولشينى هو المركز الوحيد الذى يسميه افليا شلبى وغيره من المصادر منطقة أجنبية محاطة بأهل عرق سائد ، وفى هذه الحالة مكان مقصور على المتصوفة أو العلماء الأتراك ، فى المدينة العربية العظيمة •

وكانت هنـاك جماعات من امثال البقطاشية والمولوية التى كانت امتدادا للطرق الأم فى المقاطعات التركية ، وكذلك طرق لم تكن تركية على وجه التخصيص (١٠٩) ٠

يقول على مبارك ، وهو يكتب فى نهـاية القرن التاسع عشر ، ان جميع الصـفات (جمع صفة بضم الصـاد مع تشـديد الفاء وفتحها) أو المراكز الثمانيـة عشرة الموجـودة بالقـاهرة ، كانت مأهـولة بالدراويش العجـم (غير العـرب) ٠ كمـا يتحدث مبـارك عن وجود مركزين قادرين فى الاسكندرية ، واحد للأتراك ، والآخر للعرب ٠ وان حدث احتكاك بين المتصوفة الأتراك والمتصوفة العرب ، فى مصر العثمانية ، فان المصادر لم تذكره (١١٠) ٠ ومن المهم أن معظم الأحداث الجادة بين المسلمين المتحدثين بالتركية وأولئك المتحدثين بالعربية فى مصر العثمانية كانت تبدأ كهجوم على الصوفية ٠ لقد بدأت فتنة بخلاف بين الواعظ الرومى ، حسب المصادر العربيـة ، (والمقصـود التركية) وطالب يدرس العلوم الدينية ، كمـا ورد فى الحولية التركية ٠ ولقد أطلق عليها بحق فتنة ما قبل الوهابية باعتبـارها كانت تنطوى على هجوم تنقوى وأصولى على الصوفية والمعتقدات الدينية الشعبية (١١١) ٠

ففى رمضان ١١٢٣هـ/أكتوبر ١٧١١م ، بدأ طالب الدين فى الوعظ فى مسجد المؤيد ، الذى كان لفترة طويلة مركزا تركيا ٠ وذكر الخطيب قائمة من البدع وحرض المستمعين ــ وجميعهم من الأتراك ــ بأن يرفضوها ويزيلوها ٠ كان هذا الخطيب متأثرا بكتابات الكاتب التركى الأصولى بيرجيلى محمد (المتوفى ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م) ٠ وكانت النقاط التى أثارها كما يلى :

١ ــ على النقيض مما يظن الصوفية ، فان معجزات الأولياء تبطل بعد وفاتهم ٠

٢ ــ ان قول الشـعرانى بأن الأولياء يمكنهم أن يروا اللوح المحفوظ قول زائف ٠ اذ ان النبى ﷺ نفسه لم يره ، لذا فمن المستحيل أن يراه الأولياء ٠

٣ ـ تعد عادة حرق الشموع وزيت المصابيح عند مقابر الأولياء وتقبيل الأعتاب علامة من علامات عدم الايمان ٠

٤ ـ على المسلمين أن يحطموا القبة المبنية فوق الأضرحة والصفة كقبتى مركز الجولشينى ومركز المولوية ٠

٥ ـ يجب تحويل مراكز الدراويش ، مثل الجولشينى والمولوى والبقطاشى الى مدارس ، ويجب طرد المتصوفة ٠

٦ ـ تحظر زيارة ضريح الامام الشافعى وغيره فى ليالى الجمعة لأداء الذكر أو الصلاة ٠

٧ ـ ان العادة التى يتبعها الدراويش من حيث اقامة حلقات الذكر بالقرب من باب زويلة فى ليالى رمضان ان هى الا اثم يجب ايقافه ٠ (كان هناك اعتقاد أن باب زويلة هو مقـر القطب الخفى سيد الأولياء ، لذلك فان العامة بصفة خاصة يجلون هذا المكان) (١١٢) ٠

فلما أثارت خطب الخطيب الجماهير ، قامت بمهاجمة الدراويش الذين كانـوا يؤدون أذكارهم عنـــد باب زويلة بالعصى والسيوف ٠ فذهب بعض الناس الى زعماء مدارس الشيعة المصرية الثلاثة،وحصلوا على فتوى تؤكد أن معجزات الأولياء حقيقة ، أثناء حياتهم ، وبعد مماتهم ٠ وأن أى شخص ينكر هذا يعد من المعتزلة ، (وهذا الوصف يعنى هنا ملحدا أو عقلانيا) ، كما حذرت الفتوى من انكار أن الرسول أمكنـه أن يرى اللوح المحفوظ يعد كفرا عقوبته الموت ٠

وأخيرا ، قضت الفتوى بأن تحويل مراكز الصوفية الى مدارس غير مسموح به ، بما أن هذا معناه تغيير شروط الوقف ، التى لا تتغير شأنها شأن القوانين الالهية ٠

وحين عرضت الفتوى على الخطيب ، رفضها ، وطالب باقامة مناظرة معهم أو ندوة فى حضور قاضى العسكر (وكان بالطبع تركيا) ٠

ثم قاد الخطيب جمهرة من ألف من « الأتراك الأميين » ، حسب تعبير الحوليات العربية ، واتجهوا الى بيت القاضى ٠ فلما خشى قاضى العسكر من رؤية هذه الجمهرة التى تصعب السيطرة عليها ، أخبرهم بما

كانوا يحبون سماعه ، أى أن الفتوى غير صالحة ، ولكنه هرب الى حريمه دون أن يكتب هذا الحكم · فأجبر الجمهور نائبه على أن يقوم بذلك ·

وفى اليوم التالى ، لم ير أحد الخطيب ، فشك أتباعه بوجود لعبة قذرة · فأجبروا القاضى على أن يركب الى القلعة ، حيث شرح للباشا محنته ·

وظل الأتراك يطالبون بجدال أو مناظرة بين الخطيب والمفتين العرب الثلاثة الأزهريين ، صائحين بالتهديدات ضدهم · وأخيرا أرسل الباشا فى طلب اثنين من أمراء المماليك وطلب منهما قمع هذا الشغب ·

وأرسل الخطيب التركى للمنفى ، وكذلك تم نفى كثير من معجبيه ، وهم من طلاب الدين ، ثم ابعادهم عن الحجرات الصغيرة فى مسجد المؤيد ، حيث كانوا يسكنون · فصعد الجنود الى الحجرات ، وضرب بعض أتباع الخطيب ، كما تم نفى آخرين ·

كان هذا الشغب مواجهة عنيفة بين الحنابلة الجدد ، أو ما قبل الوهابيين ، والمتصوفة والمؤمنين بالصوفية · ولكنها كانت أيضا صراعا بين أصول عرقية واضحة التحديد ـ الأتراك ضد العرب · ذلك أن عدم احترام الخطيب التركى للعلماء « أولاد العرب » وعدم استساغة كتاب الحوليات المعاصرين « للأتراك الجهلاء الأجلاف » أمور تتحدث عن نفسها · ويجب أن نلاحظ أن علماء الأزهر ، وهم أكثر مفسرى الاسلام السنى تمكنا ، وقفوا الى جانب المتصوفة ضد الخطيب الأصولى ، اذ وجدوا أنفسهم فى محنة ، بما أنهم ، هم أيضا ، لم يكونوا متحمسين لممارسات المعتقدات الدينية الشعبية وما بها من افراط ، ولو لم يتعرض الخطيب للتطرف والعنف ، مهددا بذلك النظام العام ، كما فعل ، فربما كان استرضاؤهم أكثر سهولة · غير أن العلماء لم يكن أمامهم مجال كبير للاختيار حين وقعت مواجهة لا شك فيها بين طلاب الدين الأتراك والجنود من ناحية ، والأهالى من ناحية أخرى ·

ومن المفيد أن نعرف كيف رأى حسن الحجازى الشاعر الشهير ، الحادثة • ففى قصيدة قصيرة ، يعيد رواية أحداث الشغب الرئيسية ، متهما الخطيب التركى بالجهل ، ومعبرا عن رضاه المطلق عن الطريقة الحازمة التى قمعت بها السـلطات الحركة • اذ يشير فى أحد أبيات قصيدته : « الى أن الخطيب قد تعدى الحدود السليمة ، وبالغ ، وحرض الجيش » (١١٣) •

ويجدر بنا أن نذكر جانبا آخر من دعاية الخطيب ضد المتصوفة • اذ وجه هجماته ، بصفة خاصة ، ضد المؤسسات التركية ، مثل مركزى الجولشينى والمولوية ، مما يجعل من الواضح تماما ، أن حملته لم تكن موجهة ضد الصوفية العربيـة أو المصرية ، فحسب ، وانما ضد الصوفية والمعتقدات الدينية الشعبية بصفة عامة •

كانت الجالية التركية فى مصر عرضة للتأثر بالصوفية تماما كما كان الحال بالنسـبة للغالبية المتكلمة باللغة العربية ان لم يكن أكثر منها (١١٤) • فكان الخطيب ، يحدد الطرق الصوفية التى يهاجمها ، بالاسم ويحذر مستمعيه بأن ينأوا بأنفسهم عن أماكن العبادة الصوفيـة التى كانوا يجدونها جذابة •

قصارى القول : ان الخصوصية التركية فى الصوفية المصرية وفى الحياة الدينية ظلت صامدة طوال الحقبة العثمانية • لقد بدأت قبل الحقبة العثمانية ، وهناك أدلة على أن بعض المؤسسات التركية أنشئت بمبادرة من الباشوات أو البكوات • فعلى سبيل المثال ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، شيد محمـد بك أبو الدهب تكية جديدة ومدرسة فى القاهرة من أجل المتصوفة الأتراك وطلاب الدين (١١٥) •

فلم تكن المراكز التركية نتيجة لسياسة تمييزية أو انعزالية وانما كانت نتيجة ميل طبيعى لدى المتصـوف التركى الى أن يحيا بين من يشعر بينهم بالراحة من الناحية الاجتماعية واللغوية •

لقد كان الأثر المغربى (الشمال أفريقى) على الصوفية المصرية ، دائما ، أمرا لا يستهان به : فأكثر أولياء مصر ذيوعا ، سيدى أحمد البدوى جاء من المغرب ، وبالمثل ، أبو الحسن الشاذلى وأجداد الشعرانى (١١٦) •

وكان طبيعيا أن تكون نسبة مئوية معينة من الحجاج المغاربة قد توقفت في مصر واستقرت بهـــا فى طريق عودتها من مكة الى الوطن (١١٧) ٠ وفقدت بعض الطرق والجماعات العائلية ، مثل الشاذليين والوفائيين أو الشعرانيين ، تقاليدها المغربية ، وصاروا متمصرين تماما ٠ وعموما ، فان القادمين الجـــدد ، احتفظوا بزيهـــم المغـــربى ، وبلهجتهـــم ، وعاداتهم ، ولقد احتفظ بعض المتصوفة المغاربة بصـــلاتهم مع بلادهم الأصلية (١١٨) ٠ وبينما اشتهر عن المغاربة شكل صارم من الاسلام ، أحيانا ما يكون متعصبا ، اتهم الآخرون بالانحراف الخطير عن السنة ٠ فمثلا ، شـــغل عدد كبير من المغاربة ، وبخاصة المتصـــوفة ، أنفســـهم بالعلوم الروحانية (١١٩) ٠

اذ وصف الجبرتى العيسوية ، وهى طريقة مغربية فى القاهرة ، بأنها طريقة كانت تؤدى نوعـــا عنيفا من الذكر ، فيه ينطق الذاكرون بصيحات منتشـــية بلهجـــة مغربية وهم يضربون بأقدامهم فى وحـدة منتظمة (١٢٠) ٠

وليس ثمة أدلة على وجود مراكز مغربية صوفية منفصلة ، مع أن افليا جلبى (شلبى) يذكر صفة كانت غالبية المتصـــوفة فيها من المغاربة (١٢١) ٠ كذلك يقدم افليا جلبى معلومات عن تكية نقشبندية فى القاهرة كان أعضاؤها من الهند ووسط آسيا ، من البلوشيين (البلوخيين) وأهل بخارى والأوزبكيين والفرس (١٢٢) ٠ كذلك يشير الى الدراويش اليمنيين ٠ فحين كان يصف أحد المواكب ، فان اليمنيين ، بين جميع الجماعات الصوفية ، كانوا هم الأعنف والأكثر شراسة اذ كانوا يستعرضون سيوفهم بعدوانية أثناء المسير (١٢٣) ٠

تنويعات عن علاقة المتصوفة ـ العلماء فى مصر العثمانية

كانت العلاقات بين المتصوفة والعلماء وثيقة جدا بحيث كانت متكافلة متداخلة ربما أكثر مما كانت فى معظم البلاد الاســـلامية ٠ فكثير من المتصـــوفة قد تدربوا كى يكونوا علماء ، وهناك علماء دخلوا الصـــوفية بشكل أو آخر ٠ ومع ذلك ، ظل المتصوفة والعلماء جماعتين متمايزتين ٠

وفى معظم الحالات ، فان نظرة خاطفة الى تأبين (*) تواريخ كتاب السير المعاصرين تحدد ما اذا كان الرجل عالما أو متصوفا • فبينما تضيق الفجوة العقائدية بين المتصوفة السنة والعلماء الى حد لا يستهان به أثناء الحقبة الاسلامية ، الا أن الخط الدقيق بين الفقه والتصوف الاسلامى (بالتعبير التقليدى ، العلم الدينى ، والمعرفة) لم يختف بالرغم من المسالك التى شقتها الصوفية داخل نطاق العلماء (١٢٤) •

وحين كان الشعرانى يكتب فى القرن السادس عشر كشف التوتر الكبير بين المتصوفة والعلماء • وبالرغم من استعداد الشعرانى للوصول الى حلول توفيقية ، الا أنه يمكن للمرء تبين الخلافات بين المتصـــوفة والعلماء (الفقهاء بالذات) من حيث معالجتهـم للدين ومن حيث وجهات نظرهم الاجتماعية (١٢٥) • فالصوفية اعتقدوا لأنفسهم بالتفوق الدينى والأخلاقى على رجال الشرع • وقال الشـعرانى ان العالم بدون معرفة صوفية قد نقصه عنصر مهم من عناصر الدين : والفقيه بدون صوفية أشبه بقطعة جافة من الخبز دون اضافة أى شىء يثريها (١٢٦) • ومنذ ظهور الصوفية فى الاسلام ، مقت الكثير من الصوفية عكوف العلماء على تحصيل العلم من الكتب • وثمة قول مفضل فى الدوائر الصوفية عبر عن هذا الاتجاه بجلاء : « انك تتلقى علمك من ميت ، ينقله لآخر ، أما نحن فنتلقى علمنـــا من الحى الذى لا يموت » (١٢٧) • ومع أن الكثير مـــن المتصوفة كانوا هم أنفسهم غزيرى الكتابة ، الا أن الشك الكامن فى الكتب والتأكيد على الارشاد الشخصى بواسطة أحد المشايخ ، ظلت عناصر دائمة فى الثقافة الصوفية (١٢٨) • فالصوفية كانوا يحتقرون دراسات رجال الشرع ، وكانوا يزدرون حججهم الشرعية صعبة الفهم ازدراء شديدا ، معتقدين أنها لا علاقة لها بالتدين الصـــــادق • ورأى الشعرانى أن الخلافات القائمة بين مذاهب الشريعة الأربعة مصطنعة ويجب الغاؤها • وعلى طريق دفاع الشعرانى عن اصلاح الشريعة الاسلامية من خلال توحيد مدارس الشريعة ، تنبأ بأيديولوجية الاسلام الحديث • بالرغم من أنه بنى اصلاحه على التصوف ، اذ طور المصلحون المحدثون أفكارهم من العقلانية •

(★) اى ذكر مناقبه عند التاريخ لوفاته •

وغنى عن البيان أن الشعرانى لم تكن لديه فرصة لتنفيذ الاصلاح الدينى بسبب ما اتسم به زمانه من محافظة ، وكذلك بسبب مصالح العلماء (١٢٩) ٠

وكثيرا ما اتهم المتصوفة العلماء باضطهادهم ، رغم أنه من الصعب التحقق من هذه الاتهامات فى غالب الأحيان اذ لا يمكن وصف أى عالم واحد بأنه لا يوافق على الصوفية من حيث المبدأ ٠ فقد يتحدث أحد العلماء ضد بعض المتصوفة ، أو الطرق أو الممارسات ولكن ليس ضد الصوفية فى حد ذاتها ٠ وكان الشعرانى يقدم نفسه على أنه رجل مضطهد ، يخطىء الناس فى حقه ، غير أنه كان ، فى الواقع ، ناجحا جدا فى حياته ٠ اذ قال ان له أعداء (لا يسمون) فى الأزهر ، غير أنه ذكر الكثير من كبار علماء الأزهر الذين كانوا يؤيدونه ٠ ولا يوجد أى دليل على أن العداء بين المتصوفة والعلماء كان أسوأ من العداوات التى كانت داخل كل من الجماعتين (١٣٠) ٠

كانت الصوفية تدرس فى الأزهر وغيره من المدارس رغم أنه فى الدراسة ، بالطبع ، كان التأكيد على الفقه الاسلامى (١٣١) ٠ وكان الكثير من مشايخ الأزهر يحبذون الصوفية ، اذ ان ممارسات المتصوفين تغلغلت داخل الأزهر ، وغيره من المساجد ٠ ومن بين الأمثلة الجيدة على ذلك ، حالة على الشونى ، أحد مشايخ الشعرانى ، الذى أدخل المحيى وهى دعوات خاصة تكريما للنبى فى الأزهر ٠ لقد كانت هذه الدعوات ــ التى أصبحت شائعة ، بعد صلاة عشاء الجمعة ــ تستمر خلال الليل (١٣٢) ٠ وبالمثل ، كان كريم الدين الخلوتى يعقد حلقات ذكر منتظمة فى المسجد الحسينى ، بالرغم من أنه من الصحيح أن الكثير من العلماء لم يوافقوا على هذه الممارسات (١٣٣) ٠ ان اعتراض العلماء على البيومى الذى فعل الشىء نفسه فى القرن الثامن عشر ، كان موجها ضد مظهر أتباعه الزرى وما يتخذونه من هيئة وليس ضد الصوفية(١٣٤) ٠ كذلك لقى عبد الغنى النابلسى (المتوفى ١١٤٣ هـ /١٧٣١ م) استقبالا حسنا فى الأزهر ، وهو كاتب متصوف ورحالة ، ومن مؤيدى ابن عربى (١٣٥) ٠

ولا غرو فى أن تأثير الصـــوفية على العلماء صار أقوى بمرور الوقت ، حتى أصبح لجميع العلماء فى الأزهر تقريبا صلات صوفية من نوع ما فى القرن الثامن عشر ، ولم تقتصر هذه الصـلات على المتصـوفة السنية ، وانما امتدت أحيانا الى أكثر أنواع الصوفية انحطاطا ٠

وتلقى هذه القصـــة التى سجلها الجبرتى تحت عام ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م ، ضوءا على مثل هذه العلاقة (١٣٦)٠ كان هناك شيخ معين يدعى أحمد سدومة ٠ وكان شخصية يدور حولها خلاف كثير ، اذ أشيع أنه ساحر ، له سلطة على الجماد ، وقدرة على التواصل مع الجان ٠ ومع ذلك ، كان الشيخ حسن الكفراوى شيخ مفتى الشافعية من أشد المعجبين به وكان يعتقد فى أن له صلة بالله ٠

وفى احدى المرات ، حين كان يوسف بك الكبير منفردا بواحدة من محظياته ، رأى كتابة معينة على أجزاء جسدها الحساسة ، فسألها عنها مهددا بقتلها ما لم تخبره ٠ فأجابت الفتاة أن امرأة تعرفها أخذتها للشيخ سدومة الذى كتب هذه الكتابة فى هذا المكان كى يجعل سيدها يحبهـا ٠ وعلى الفور ، أمر يوسف بك بقتل الشيخ والقـاء جثتـه فى النيل ٠ وحين تم تفتيش منزل سدومة ، وجد الكثير من الأشياء الغريبة هناك ، من بينها تمثال لاله التناسل مصنوع من المخمل ٠ فأخذ الى منزل البك ، وراح هو وغيره من الأمراء فى السخرية من المشايخ وأفعالهم ٠ عندئذ عزل الأمير الشيخ حسن الكفراوى من منصب كبير مفتى الشافعية وكذلك عزله من منصبه التعليمى ٠

وثمة مثال على صلة المتصوف والعالم نراه فى الصداقة بين الشيخ على البيومى مع أحد كبار مشايخ الأزهر كان يتمتع بتأييده ٠ وهناك مثال آخر هو صداقة أحمد بن موسى العروسى (المتوفى ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٤ م ، وهو عالم شافعى بارز) مع رجل مبارك يدعى أحمد العريان ٠ وكان العريان شديد الشغف بالعروسى وزوجه احدى بناته ، كما أنه تنبأ بأن العروسى سيصبح شيخ الأزهر (١٣٧) ٠

ونادرا ما كان دخول أحد العلماء فى الصوفية يؤثر فى حياته العمليه كدارس ومعلم فى الأزهر أو أى مدرسة أخرى ٠

على كل ، هناك قلة من الحالات المعروفة التى قطعت فيها الخبرة الصـــوفية حياة عالم لفترة طالت أم قصرت ٠ ومن بين هذه الحالات ، الشيخ الشرقاوى ، أحد مشايخ الأزهر فى المستقبل ، الذى سبب له لقاؤه الأول مع الصوفية انهيارا مؤقتا ٠

كذلك أخذ الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشى (المتوفى ١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م) ، تدريبه الخلوتى مأخذ الجد حتى انه دخل فى حالة جذب (أى صار مجذوبا) وصار متصوفا حقيقيا نظرا وممارسة ٠ ويروى الجبرتى « انه بعد ذلك عاد الى حالته السابقة » وبمرور الوقت ، صار مفتى الحنفية وأثرى نفسه ٠ وأقام حفلات كبيرة للأمراء ، وأخيرا رشح شيخا للأزهر بتأييد الأمراء وبعض المشايخ ، بعد نضال عنيف وقبيح من أجل المنصب (١٣٨) ٠ ومثال الغزالى ، معروف تمام المعرفة ، فهو عالم التوحيد فى العصور الوسطى ، الذى رفض كل شىء كى يصبح متصوفا ، فى ذروة حيـــاته العملية كمعلم فى أكبر المدارس مكـــانة فى العـــالم الاســـلامى ٠

وثمة عالم تخلى عن حياته العملية فجأة من أجل الحياة الصوفية ، هو محمـــد بن أحمـــد الحنفى الأزهرى ، المعروف بالصـــائم (المتوفى ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ ــ ١٧٥٧ م) ٠ ذلك أنه تخلى عن حياة مزدهرة كعالم حنفى ومعلم حين قابل أحمد العريان وكرس نفسه بالكامل للصوفية ، تاركا جميع الأمور الدنيوية مرتديا لباس الفقراء ٠ وباع ممتلكاته ، وغادر مصر وأخذ يسيح حتى استقر فى ينبع وهى ميناء بحرى على ساحل البحر الأحمر الشرقى ٠ فاستقبله الحاكم المحلى بكل لطف ، غير أنه خدع ببساطة مظهر الشيخ اذ اعتقد أنه مجرد درويش بسيط سائح ٠ وأثناء نزاع قانونى يخص ممتلكات أحد شيوخ البدو المتوفين ، نشأت حاجة لوجود شخص يحل المسألة المعقدة ٠ ومما أثار دهشة الجميع ، اختلى المتصوف فى حجرته فى الجامع وكتب فتوى تفصيلية تتسم بالعلم ٠

فقال الحاكم : « لماذا تخفى نفسك بينما أنت من العظام ؟ » وبعد ذلك بدأ الشيخ يعلم ويزدهر · وأخيرا ، عاد الى القاهرة حيث توفى (١٣٩) · وهذه السيرة توضح أيضا الفرق بين مكانة المتصوف والعالم : فقد يتمتع المتصوف بالمهابة ، وقد يكون قد استفاد من أعمال الخير (فى هذه الحالة احترام الحاكم) ·

المتصوفة والحكام

تقول نظرية قديمة عن التقوى الاسلامية ان رجل الدين المثالى هو الذى ينفر من مصاحبة الحكام · بينما يسعى الحاكم المثالى الى صحبة رجال الدين ·

فى واقع الأمر ، كانت هناك وشائج بين المتصوفة والعلماء وأعضاء الطبقة الحاكمة ، وسعوا الى حظوتهم وعونهم وكان خير مبرر لدى رجل الدين كى يذهب الى منزل أحد الأمراء هو أن يتشفع نيابة عن أحد الناس قد أسيئت معاملته ·

وفى احدى رسائل الشعرانى ، افترض أن الأمير كان مهتما بالفائدة الروحية عندما يكون فى صحبة أحد المتصوفة ، كما يجب على الأمير أن يستسلم لشفاعات الشيخ ·

وكان الشعرانى يمثل بحق الاتجاه الخجل غير السياسى للصوفية ، والصوفية المصرية على وجه التخصيص ، نحو الحكام · وكثيرا ما حث زملاءه المتصوفة أن يتجنبوا فعل أى شىء قد يثير عدم رضى الحاكم : وكان على وعى بأن الشعبية المفرطة قد تعرض الشيخ المتصوف للخطر ، وألا يقصد استفزاز السلطات بأى حال (١٤٠) ·

أما بالنسبة للحكام ، فان الكثيرين منهم كانوا منجذبين الى ما للمتصوفة من مهابة وبركة · فبما أن العلماء كانت تعينهم الدولة مباشرة ، فان تورطهم فى الشئون القانونية والادارية جعلهم يبدون أقل عزوفا عن الدنيا من المتصوفة الذين عادة ما احتفظوا بواجهة من الاستقلال ، مع أن رجال السلطة كانوا يساندونهم مساندة لا تقل عن مساندتهم للفقهاء ·

وكان الحكام يحبون أن يتخذوا وضع رعاة المتصوفة ، فأسهم الكثير من الباشوات والأمراء بمبالغ معتبرة فى اقامة تكايا وزوايا صوفية كما أوقفوا الأوقاف لاعاشتهم · وفى الكثير من الحالات ، كان أحد ضباط الجيش أو أحد الأمراء هو الوصى بحكم المنصب على أوقاف معينة (١٤١)· وعلى مدى الحقبة العثمانيــة ، أراد الكثيرون من الباشــوات والبكوات فى مصر أن يذكرهم التاريخ باعتبارهم بناة أو مجددى التكايا ، والزوايا وأضرحة الأوليــاء (١٤٢) ·

وربما يوجد رمز فى أن على بك بولوت كبان ، الذى حاول فصم روابط مصر بالدولة العثمانية ، قد شيد مسجدا كبيرا بالقرب من قبر أحمد البدوى فى طنطا ، ووضع أيضا قبة على ضريحه (١٤٣) · ومن ناحية أخرى ، أنشأ محمد بك أبو الدهب تكية من أجل الفقراء الأتراك (الدراويش) فهل كانت هذه طريقة لاظهار ولائه لاسطنبول ؟ (١٤٤) ·

وكان فى امكان الحاكم أن يقبل شفاعة المتصوف أو يرفضها · وبهذه الطريقة ، كان فى استطاعته تقوية مركز الشيخ ضمن مجتمعه ، أو يقلل من شأنه بحيث يصبح عديم الأهمية · ومن ناحية أخرى ، كان فى امكان الشيخ المتصوف الذى يتمتع بشعبية ، أن يحسن الصورة العامة لأحد الأمراء أو يزيل الحدة من النقد العام الذى يوجه اليه ·

وفى كثير من الحالات ، كان كل من الأمراء والمتصوفة يحتاج بعضهم لبعض · فرجال الدين يتمتعون بحصانة من نوع ما ، ضد غضب الحكام ، وينطبق هذا على المتصوفة أكثر مما ينطبق على العلماء · ولم تكن حصانة كهذه رسمية أو مطلقة ، غير أنها مع ذلك ، كانت حقيقية · ففى فترة كان فيها أحد الرعية يمكن أن يفقد رأسه بسهولة باشارة من يد الحاكم ، لم يعدم متصوف أبدا · وربما يمكن اعدام الدراويش غير السنية · غير أن هذا يحدث فقط اذا ما تسببوا فى احداث شغب أو اتخذ أحدهم مكانة نبى أو مهدى · فلم يصب أبو الأنوار ، الشيخ الوفائى ، بأى ضرر رغم اجترائه على التحدث بخشونة الى أحد كبار الباشوات العثمانيين ، وكذلك

الى البكوات المماليك • فلديه فقط وضعه كرئيس عائلة متصوفة موقرة عريقة مما يكفى لحمايته •

كما سبقت الاشارة ، فان جماعات البكرية والوفائية كانت تتمتع بالاعتراف الرسمى وتتلقى منحا منتظمة ، بفضل وضعها كأبرز ممثلى الصوفية المصرية •

وكانت الموالد الكبرى ــ التى كانت بصفة رئيسية ، وان لم يكن مطلقة ــ احتفالات صوفية تعد مناسبات للدولة متمتعة باشراف الحكومة ، والدعم والحماية العسكرية •

ورغم تعاطف الطبقة الحاكمة مع المتصوفة ، فان هذه الطبقة المؤلفة من العسكريين كانت أقل ميلا الى التفكير الخرافى من غيرها من شرائح السكان • ذلك أن نفس الأمراء الذين رعوا الصوفيـــة ، لم يكن لديهم كثير صبر ازاء المظاهر الأكثر سوقية التى توجد فى المعتقدات الدينية الشـــعبية •

وفى هذه الطرفة الكثير من الضـــوء على هذه النقطة • اذ يروى الجبرتى بين ما يروى من أحداث عام ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ ــ ١٧٦٠ م ، قصة شاذة غريبة تتعلق بمعزة ، كان يعتقد القائمون على ضريح السيدة نفيسة الذين يفكرون بشكل خرافى ، أنها تمكنت (المعزة) بطريقة غامضة من نجدة السجناء المسلمين من أيدى الافرنجة • (لقد عزا هربهم للسيدة نفيسة ، أشهر النساء من الأولياء الذين دفنوا فى القاهرة) • فصارت المعزة موضوعا للتبجيل : فبدأت النساء يطعمنها بالبندق واللوز ، كما أعطينها ماء بالسكر وماء الأرز كى تشرب ، كما زينت بعقود من الذهب وغير ذلك من ألوان الزينة • فأمر عبد الرحمن كتخدا ، رجل مصر القوى ، فى ذاك الزمان ، الشيخ عبد اللطيف ، رئيس المسئولين عن ضريح السيدة نفيسة، بأن يحضر المعزة الى منزله، حتى يتمكن هو والعاملون لديه من التبرك بها • فحضر الشيخ فى موكب يشبه موكب المتصوفة ، معه بيارق وطبول وآلات نفخ ، (زمامير) • ثم أمر الأمير خدمه بذبح المعزة وتقديمها للشيخ لاطعامه هو وأتباعه • وحين انتهت هذه الوجبة ، كشف عبد الرحمن كتخدا لضيفه ما أكل • وتم توبيخ الشيخ المرتعد وأرسل الى بيته ، وجلد المعزة معلق فى عباءته ، مصحوبا بالرايات والآلات الموسيقية •

الفصل السادس

الدين على المستوى الشعبى

ملحوظة منهجية

دراسة المعتقدات الدينية على المستوى الشعبى فى مصر العثمانية تعد بلا شك أحد جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية الذى يطرح مشكلة منهجية · فالمصادر المعاصرة ـ من حوليات وكتابات المتصوفة ، وروايات الرحالة وغير ذلك ـ تزودنا بمعلومات ثرية وفاتنة · غير أن أكمل معالجة للموضوع وأكثرها منهجية ، متاحة فى الأوصاف والدراسات التى صدرت بعد ذلك ·

وتعد أفضل الدراسات التى تتناول المعتقدات الدينية والشعبية والثقافية فى مصر فى القرن التاسع عشر هو كتاب ادوارد لين Lane « سلوك المصريين المحدثين وعاداتهم » وكتاب على باشا مبارك « الخطط التوفيقية الجديدة » المكتوبين فى النصف الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، على التوالى · ويعد عمل على مبارك ، بخاصة ، أكثر المصادر قيمة · فالمؤلف ، الذى كان مصلحا ، الى جانب كونه اداريا ومن رجالات التعليم ، كان عميق الاهتمام بالمعتقدات الدينية الشعبية ، وكانت نظرته فى هذا الصدد تقليدية تماما ·

وهناك أيضا دراسات قيمة لنواح متنوعة من المعتقدات الدينية الشعبية قام بها دارسون غربيون ومصريون · وبينما لا ينبغى أن يعتمد المرء على مصادر متأخرة لدراسة التاريخ السياسى ، فسوف يكون عدم

الاستفادة منها من قبيل الاسراف فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية الشعبية ، التى لم تتغير كثيرا • ذلك أن بعض التقاليد والعادات التى كانت سائدة فى الحقبة العثمانية ، وما زالت حية يمكن تقصيها حتى العصور الفرعونية •

ان عقد مقارنة بين احتفالات المولد فى القرن التاسع عشر أو العادات المتعلقة بزيارة المقابر مع مثيلاتها فى القرن السادس عشر ، لتظهر تشابها واستمرارية قويين • لذا ، فقد استخدمنا مواد من فترة ما بعد العثمانيين بقدر غاية فى الحذر ، اذا ما لاءمت الصورة التى تنبع من المصادر الأسبق عليها •

الأولياء والملاماتية

الاسلام المعتاد ، شأنه شأن اليهودية المعتادة ـ ولكن ليس كالكاثوليكية المعتادة ـ لم يعترف قط بوجود الأولياء ، وليس لديه اجراء لاشهار كونهم أولياء • غير أن الأولياء يملأون عالم الاسلام كما يراه الناس العاديون بينما حتى الأولياء الذين هم على قيد الحياة ـ وهو ما لا يوجد فى المسيحية (*) ـ يملكون قدرات خارقة وكذلك القدرة على عمل المعجزات • ويوقر الكثيرون المجانين الذين لا ضرر منهم باعتبارهم « أولياء طبيعيون » ويسمح لهم بالتسكع فى الشوارع (١) • وكان الملاماتية ، وهم من نوع شاذ ، يعرفون بسوء السمعة نظرا الى مظهرهم الغريب وسلوكهم • والملاماتية مشتقة من الأصل (لام) هم صوفيون ظهروا فى خراسان فى القرن التاسع ، وخرجوا عن المألوف حتى استأهلوا التعنيف على عدم اعتبارهم الخارق لمتطلبات الشريعة المبجلة لكى يؤكدوا على عدم مبالاتهم للرأى العام ، وتركيزهم على وجود علاقة مباشرة وصادقة مع اللـه •

(★) هذا غير صحيح ، فالكنائس زاخرة بمن يقولون انهم قادرون على الشفاء ، بل والحمل بالنفحة القدسية ، وربما يقصد المؤلف فئة معينة من المسيحيين المثقفين • (المترجم) •

لقد كانت الملاماتية الخالصة بالطبع ، مثالا لا يحققه سوى القليلين ، غير أن مظاهرها الشائعة كانت معروفة جيدا فى الأزمنة اللاحقة · وفى سير الشعرانى على سبيل المثال ، هناك سير أشخاص ملاماتيين كان سلوكهم فاضحا مما جعله يتقزز · وقد ذكرهم فى كتابه جنبا الى جنب مع المتصوفة المتفقهين الأتقياء الملتزمين بالشريعة بسبب الاعتقاد بما فيهم من بركة ، وبسبب وجودهم على حدود المجتمع المتصوف (٢) ·

لقد كانت هنـــاك حدود للتسامح الذى كان يعامل به المجانين · فبمجرد أن يبدأ الولى فى جذب الجماهير ، أو يخلق هياجا أو اضطرابا اجتماعيا أو يتحدى مبادىء الاسلام المستقر تحديا جادا ، كانت السلطات تستجيب لايقافه · فكان مدعو النبوة يتم اعدامهم بسرعة · وكانت هذه هى حال أحد الأولياء جاء الى القاهرة عام ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م · فتبعه العوام · وكتب الجبرتى : « اختلط الرجال والنساء ، وظهر الكثير من الفساد بسببه » (٣) ·

ويجب أن نلاحظ أن هؤلاء الذين أعدموا كانوا من الغرباء ، وليسوا قاهريين ، وفى احدى المرات ، كان هنـــاك ولى من مديرية الفيوم ، وآخر كان تكروريا أى رجلا من غرب أفريقية (٤) ·

وحين كان رضوان باشا زاده ، وهو مؤرخ تركى ، يكتب فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، أشار الى تفشى المدلسين الذين يتصنعون الطهر كواحد من الملامح القومية عند المصريين · فهم يدعون أنهم أولياء حتى يحصلوا على الطعام ولكى يكون لهم نفوذ على من هم فى السلطة ، انهم جهلاء ، الا أنهم يزعمون العلم بالأسرار الالهية (٥) ·

وفى بعض الأحيان يكون الولى سلبيا سلبية تامة ، غير أن الآخرين يستخدمونه مستغلين اعتقاد الناس الخرافى فيه · لقد كانت مثل هذه الحالة هى حالة شـــخص يدعى على البـــكرى (لا علاقة له بالبكرية المشهورين) ، وكان هذا الشخص يتسكع فى الشوارع حافى القدمين وعاريا تقريبا ، ويهرف بكلام غير مفهوم · وصارت احدى النساء لصيقة به ومن خلاله اتخذت مكانة احدى الوليات (مؤنث أولياء) ، تلح على

النساء فى طلب الهبات واعتادت آن تتفوه بفاحش الألفاظ باللغة العربية والتركية وترتدى ملابس الرجال • وسرعان ما أصبح للولى والمرأة أتباع كثيرون من الناس الذين كانوا يسرقون البضائع من الحوانيت • فوضع أحد ضباط الجيش نهاية لذلك ، بأن وضع المرأة فى مستشفى للمجانين (أخلى سبيلها ، بعد ذلك وصارت ولية مستقلة) • كما ضرب الضابط المجانين العراة الذين تبعوا الاثنين • ونجح شخص آخر فى تحويل على البكرى الى مصدر للدخل • وهذا الشخص هو آخوه • الذى حبس عليا وأخذ فى جمع التبرعات • ولما كان على يحيا حياة خاملة ولديه وفرة من الطعام ، فانه صار سمينا • وبعد وفاته ، دفن على كشيخ ولى وأصبح قبره محجا ومكانا للعبادة (٦) •

لقد كتب الجبرتى رواية تفسر الأمر عن واقعة حدثت أثناء الاحتلال الفرنسى وتتعلق بالمجانين • اذ سأل قائد الفرنسيين المشايخ : « هل يسمح دينكم أم يمنع سلوك أولئك الأفراد الذين يجولون فى الشوارع كاشفين عوراتهم ، وهم يصيحون ويدعون أنهم أولياء ؟ ويؤمن بهم العوام ، غير أنهم لا يؤدون الصلاة ولا يصومون كما يفعل غيرهم من المسلمين » وحين أجاب المشايخ بأن هذا مناف للاسلام ، أمر القائد الفرنسى بأن يحتجز المجانين الحقيقيون فى مستشفى المجانين ، وأما الآخــرون الذين يدعون الجنون ، فطردهم من المدينة ، الا اذا تصرفوا تصرفا مهذبا (٧) • فلما واجهت المشايخ مسألة محددة واضحة كهذه ، لم يكن لديهم أى اختيار سوى قول : « نعم » أو « لا » •

ولم تكن الاتجاهات نحو الأنواع المختلفة من الأولياء والمجاذيب على هذه الدرجة من التحديد ، ولذلك فان كلا من الحكام والعلماء كانوا دائما قاطعين فى حضرة القائد الفرنسى •

زيارة القبـور والأضرحة

ان شغف المصريين بزيارة المقابر والأضرحة كعمل من أعمال التقوى أو كنشاط اجتماعى قد لفت انتباه الكثير من المراقبين والرحالين ، اذ

كتب مصطفى على ، وهو مؤرخ تركى وكاتب ، يصف القاهرة فى نهاية القرن السادس عشر : « فى كل يوم جمعة ، ابتداء من صلاة الفجر ، تتخذ جمهرة لا تحصى من الناس طريقها نحو القرافة ، راجلين أو راكبين وهم يظهرون فى طريق المقابر (مقابر القاهرة الشهيرة) وبعد زيارة مقابر الشيخ المبارك الامام الشافعى والامام الليث بن سعد ، يصل الناس الى قبر الست نفيسة · وحين تذهب النساء الى مقابر أقربائهن ، يأخذن عادة بعض النباتات الخضراء والزهور معهن ، فهن يزرن مقابر الموتى بأعشاب عطرية · أما المشايخ ، فهم يذهبون حاملين الرايات ، ويتلون الأوراد · ويزورون المقـــابر والأضرحة ، التى تعتبر طريقة لضمان تقبل الدعاء ثم يعود الجمهور » (٨) · وبعد ذلك بثلاثمائة سنة ، يبين وصف لين Lane أنه لم يتغير الشىء الكثير (٩) · فهناك مزيج من التدين،والرغبة فى زيارة الأضرحة من أجل التعبير عن الاحترام للأولياء ومن أجل التشفع بهم لدى الله ، والتمتع بنزهة أو فرصة خروج اجتماعية · كثير من الناس كانوا يبقون فى المقابر طوال النهار ، أو حتى طوال الليل ، لو كان للأسرة منزل هناك · اذ يقول لين : « ويقال ان الدسائس تكون شائعة بين الأسر التى تقضى الليل فى الخيام بين القبور » وهو بذلك يكرر شكوكا كان قد عبر عنها مصطفى على قبل ذلك فى وقت مبكر (١٠) · فكان من المستحيل عدم اتهام النساء بعدم الاحتشام فى سلوكهن ، غير أننا يجب ألا ننسى ، أن زيارة مقابر الأقرباء أو الأولياء كانت هى الفرصة الوحيدة للكثير من النساء كى يخرجن خارج أعتاب بيوتهن ·

تبجيل الأضرحة الشريفة والمقامات لم يكن بحال مقصورا على القاهرة ، وانما كان منتشرا فى كل أنحاء البلاد وكان شائعا فى البنادر ، مثل دمياط ، وفى معظم القرى · ولا يمل افليا جلبى (شلبى) (١١) قط من عد المقابر الشريفة ووصفها فى كل حى أو مدينة فى طريقه · اذ من الواضح أنه كان يستمتع برحلاته فى مصر بما فيها من معتقدات دينية شائعة بصفة عامة ، وتبجيل المقابر بصفة عامة (١٢) · وتسمى مقبرة الولى فى اللغة العربية قبرا ، وضريحا ، ومقاما ، ومزارا ، أو مشهدا : وعلى النقيض من الألفاظ الأخرى ، يشـــير اللفظ الأخير الى مكان مرتبط ، بشكل ما ، بالولى الراحل ، ولكن غالبا لا يشير الى مكان دفنه أو دفنها

بالفعل • فمثلا السيدة نفيسة ، الولية الشهيرة ، المدفونة فى القاهرة ، لها مشهد فى أسوان ، باعتبارها ظهرت فى حلم لأحد الأشخاص ، أشارت فيه الى ضريح لنفسها فى تلك المدينة (١٣) •

لقد شيدت مساجد كبيرة وجميلة فوق قبور أشهر الأولياء ، مثل الامام الشافعى وابراهيم جولشينى فى القاهرة ، أو أحمد البدوى فى طنطا • أما فوق قبر الولى الأقل شأنا ، فكان يشيد بناء صغير مربع ناصع البياض تعلوه قبة • ويمكن أيضا أن يوجد القبر داخل احدى الزوايا ، أو مجموعة مدافن ، أو مدفن قائم بذاته • وغالبا ما يحاط قبر الولى بمقابر أقربائه أو المنتسبين اليه أو مريديه ، أو غيره من الأولياء • ولقد أصبحت بعض أشهر الأضرحة فى قرافة القاهرة ، مراكز تجمع كامل من المبانى ، ومساكن للمتصوفة وفقراء الناس والأسبلة ، والمساجد والزوايا والكتاتيب وما الى ذلك (١٤) •

فى العديد من المرات ، كان جلبى (شلبى) يلاحظ وجود شجرة قديمة عادة شجرة سدر (نبق) ، بالقرب من أحد القبور (١٥) • ذلك أن الأشجار المباركة أو الآكام تحتل مكانة خاصة فى المعتقد الدينى المصرى ، وقد يكون الاعتقاد فيما تمثله من بركة من بقايا الأزمنة القديمة (١٦) • ويشيد فوق القبر تركيب من الحجر (تركيبة) أو من الخشب (تابوت) ، وفوق القبر كسوة مزركشه بالمخمل أو الحرير • ويحاط التابوت بنوع من السور مصنوع من الخشب أو النحاس ، ويسمى جزء المسجد الذى يضم الولى الحارس الحامى مقصورة ، وهو لفظ قد يشير الى السور الموجود حول القبر • وتزين مقابر الكثير من الأولياء فى القرى برسوم بدائية على الجدران تمثل أشياء مثل الجمل أو القارب ، وهى رسوم يمكن رؤيتها على منزل الحاج • وفى الصعيد ، توجد غالبا رسوم لثعابين ، يعتقد الباحثون أنها أيضا من بقايا التقاليد المصرية القديمة (١٧) • ان القاهرة مقبرة الأولياء ، التى فاقت جميع المدن فى البلاد ، كان بها نصيب الأسد من المقابر ، وأضرحة أشهر أولياء مصر • فكان بالقرافتين عشرات من أكثر المقابر تبجيلا ، التى كانت دائما

تجذب سكان العاصمة ، وكذلك زوارا مسلمين من أماكن أخرى بأعداد غفيرة ·

وكما سبق أن ذكرنا ، كان يوجد بالقرافتين منازل خاصة وأخرى عامة ومرافق حيث يستطيع المترددون عليهما قضاء بعض الوقت · اذ يروى افليا (شلبى) عن العديد من دور الضيافة (التكايا) ، فى تلك المنطقة ، التى كانت تقدم ضيافة بالغة الكرم للمسافرين (١٨) ·

ويمكن تقسيم الأولياء المدفونين فى قرافات القاهرة الى ثلاث فئات رئيسية : آل بيت النبى ، والعلماء ، والمتصوفة ·

ومن المتفق عليه ، بصفة عامة ، أن أقدس أضرحة مصر هو القبر الذى يدفن فيه رأس الحسين الحفيد الشهيد للنبى محمد ﷺ · بل ان حاجا مغربيا معروفا بتمسكه الصارم بالسنة ، يؤكد أن هذا الضريح هو أكثر ما فى مصر توقيرا وأول ما يزوره المغاربة فى القاهرة ، وآخر ما يزورونه قبل رحيلهم (١٩) · وكما هو الحال دائما ، فان الضريح كان هو النواة للعلم الدينى والصوفية وكذلك الصلاة والعبادة · وتوجد بالقاهرة أضرحة لنسل طاهر من النساء اللاتى يرجع نسبهن الى النبى ﷺ : مثل السيدات نفيسة وسكينة ورقية وزينب وعائشة وغيرهن · وتلعب هـذه الأضرحة وعلى الأخص ضريـح السـيدة نفيسـة ، حفيدة الحسين ، دورا بالغ الأهمية فى المعتقدات الدينية لدى المصريين وذلك باضافة طابع نسائى اليها ، وجعلها ذات جاذبية خاصة للنساء (٢٠) · فبسبب دور الرجال المسيطر فى الاسلام العادى ، فان النساء ، اللاتى يهتممن اهتماما كبيرا بالدين لدى المصريين بصفة عامة ، كان لديهن شغف خاص بالوليات من النساء ، ذلك أن معظم من كانوا يزورون قبورهن من النساء · وبما أن السنة كثيرا ما شكوا من أن الرجال والنساء يختلطن فى الزحام أثناء مثل هذه الزيارات ، فلقد رتبت السلطات مداخل خاصة للنساء فى ضريح السيدات : نفيسة وسكينة وعائشة وفاطمة ورقية (٢١) · وتتضح صورة السيدة نفيسة باعتبارها الأم المنقذة من حادثة تثير الرهبة رواها ابن اياس وقعت عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م · فلقد أغرى جار شاب وعبده الأسود طفلة

فى السابعة من العمر كانت تسكن مع أسرتها بجوار ضريح السيدة نفيسة بدخوله · وقطع الشاب حنجرة الطفلة وسرق كوفيتها المذهبة والقى بالجثة فى بئر · وأثناء البحث عن الصبية المفقودة ، قبض على الشاب وهو يحاول بيع الكوفية ، وتحت التعذيب ، اقر وأرشد المحققين الى البئر · فشنق الصبى وشريكه عقابا لجريمتهما ، غير أن الصبية وجدت حية ، بعد ذلك ، فالمجرم كان قد قطع حنجرتها ، غير أن الجرح لم يكن عميقا · فاعتبر استرداد الصبية لعافيتها معجزة · وأخبرت أمها أنها بينما كانت ترقد فى البئر وهى تنزف ، ظهرت لها امرأة محجبة ، وقالت : « لا تبك ، أنا نفيسة · ولسوف أنجيك من هنا » · وهذا ما فعلت (٢٢) ·

لقد تأسست معظم أضرحة عائلة النبى ﷺ أثناء القرنين اللذين حكم فيهما الفاطميون مصر (٩٥٦ ـ ١١٧١م) ، ذلك أن الأسرة الحاكمة الشيعية بنت مشروعيتها الى حد كبير على أصلها الحقيقى أو المفترض باعتبارها من نسل فاطمة ، ابنة النبى ﷺ وزوجة على · ومع ازاحة صلاح الدين لحكم الفاطميين ، تم محو كل أثر شيعى من مصر ، ولم يؤسس الفاطميون ولو جالية شيعية صغيرة لتبقى بعد سقوطهم · ولكن أضرحة الحسين ونسله من النساء ، بالاضافة الى شخصيات أقل أهمية من بيت على استمرت فى الوجود تحت نظام الحكم الجديد ، ولكن دون التأكيد على شيعيتهم · وكان من السهل عمل ذلك ، لأن الاسلام السنى يحترم عليا وآله ، غير أنه ، على العكس من الشيعة ، لا يؤلههم ·

ومن بين الفئة الثانية من الأضرحة الطاهرة ـ أى أضرحة العلماء المشاهير ـ تقف فى الصدارة أضرحة الامام محمد بن ادريس الشافعى ، (المتوفى ٨٢٠ م) ، مؤسس المذهب الشافعى وعالم التوحيد الذى عاش فى القرن الثامن ، والليث بن سعد ، الذى يقع قبره بالقرب من ضريح الشافعى ·

وكان الشافعى هو المؤسس الوحيد لمذهب فقهى والذى دفن فى مصر ، وكان مذهبه الى حد بعيد أهم المذاهب الأربعة ، ومن المفهوم ، أن المسجد وبه قبر الشافعى أصبح رمزا للاسلام المتفقه ·

ويحاط ضريح الشافعى بمقابر الحكام المتوفين ، وكبار العلماء · واعتاد الحكام الجدد القيام بزيارة المكان لدى وصولهم الى مصر كما أصبح الضريح نقطة تجمع للأمراء المصريين والجنود (٢٣) · أما الفئة الثالثة من قبور الأولياء ـ أى قبور المشايخ المتصوفة ـ فهى تتسم بعدم التجانس الشديد · اذ تشمل ، مثلا ، شاعر القرن الثالث عشر عمر ابن الفارض ، ومتصوفة من القرن السادس عشر من أمثال الشعرانى وجيله · وكان هناك أضرحة لمشايخ متصوفة من الأتراك والعرب ، مثل البكرية والوفائية وكثير غيرهم ، كل منهم يجتذب اليه زواره من المؤمنين والعابدين ·

لقد كانت مقبرة الشيخ المتصوف الراحل مصدرا محتملا للدخل ، حيث أن المؤمنين كانوا يحضرون النذور والتبرعات للحفاظ على المقبرة واعاشة حراسها · وكانت أيضا بؤرة الاحترام والزيارات والطقوس وبهذا المعنى ، كانت مركز الطريق ، وموقع الاحتفال السنوى بمولد الشيخ ، وكذلك تأكيدا على استمرارية الطريقة · فبعد وفاة كريم الدين ، على سبيل المثال ، أراد بعض مريديه دفنه بالقرب من معلمه الدمرداش ، غير أن آخرين قالوا : « كلا ، فان مصالحنا تتطلب أن ندفنه ، في زاويتنا » · وحين كان داود العزب ، وهو متصوف آخر على فراش الموت أراد أتباعه أن يحملوه الى القاهرة ، غير أنه استشاط غضبا واتهمهم بمحاولة استغلال وفاته من أجل الكسب المالى (٢٤) ·

ويقال ان الكثير من الأضرحة تحتوى على رفات أولياء ليسوا معروفين على نطاق كبير يشار اليهم ببساطة بعبارة (رجل صالح) أو الولى وأحيانا ما يعرف الولى باسمه الأول (مثلا الشيخ محمود) ، وهو ما يشير الى كونه غفل الذكر · وهناك أماكن للعبادة أخذت اسمها من (الرجال الأربعين) ، أو الرجال السبعة وهم يمثلون أبطال قصص قد نسيت منذ عهد بعيد ، وأضرحة تعزى الى الصحابة ، الذين اشتركوا فى فتح العرب لمصر (٢٥) ·

وعلى النقيض من الأولياء المجهولين ، يوجد أولياء تقدم عنهم المصادر تفاصيل كاملة وعن كيفية ايجاد أضرحتهم · فالجبرتى يروى أن الشيخ

مرتضى دفن زوجته بالقرب من ضريح رقية • وبعد ذلك ، شيد مقصورة وبناء فوق مقبرتها • وفرش المكان بالسجاجيد ، وأضاء الشموع واستأجر المقرئين ، واستضافهم فى بيت مجاور • وبالمثل ، فقد بنى الدواخلى ، نقيب الأشراف ، مقاما ومقصورة على قبر ابنه (٢٦) • مثل الأضرحة التى يزورها الجمهور •

وكانت رعاية مقابر المشايخ غير المهمين فى القرى توزع ـ عادة على الفقراء رجالا ونساء الذين كانوا عادة من العجائز والعميان • ومن ناحية أخرى كان المسئولون عن الأضرحة الكبرى ـ عادة ـ من الأثرياء وذوى النفوذ ، فقد كان مقدمو الهبات والنذور لضريح أحمد البدوى من الملتزمين وكبار أثرياء طنطا (٢٧) • ويتهم الجبرتى الأسرة المسئولة عن مقام أحمد البدوى بفساد الذمة ، وقد أدى ثراء هذه الأسرة الى خلافات بين أعضائها مما أدى الى انتقال مسئولية رعاية الضريح لأسر أخرى • وكان الحكام الجشعون يصادرون أحيانا جزءا من النذور كما فعل على بك فى سنة ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م ، وفعل الفرنسيون ذلك فى وقت لاحق (٢٨) •

وهناك الكثير من العادات والمعتقدات المتعلقة بالمقابر الطاهرة ، غير أننا سنذكر فقط أكثرها انتشارا •

ان المولد عادة حدث سنوى ، غير أن الكثير من الأولياء كانت لهم حضرة ، وهى تجمع أسبوعى يتم ليلا للدعاء وتلاوة القرآن ، والذكر • وكانت الطقوس التى تؤدى فى المقبرة ثابتة ، وتشمل تلاوة الفاتحة وتحية الولى المدفون والدوران حول المقصورة • وكانت بعض العادات الشعبية تشبه المراسم المفروضة على الحجاج أثناء الحج (٢٩) •

وثمة نوع مختلف من الزيارة الأسبوعية عادة ما ينعقد فى أيام الخميس أو الجمعة ، كان مرتبطا بالاعتقاد أنه فى هذا اليوم تزور روح الولى القبر • وهذه الفكرة لها أصل فى أساطير مصر القديمة ولم يوافق عليها الاسلام السنى (٣٠) • وهناك عادة أخرى ، من الواضح أيضا أنها من بقايا العصور الفرعونية ، هى أن يضع الزائر بعضا من شعره أو أظافره أو أسنانه بالقرب من المقابر • ونشأ هذا الفعل اعتقادا بأن مثل هذه

الأشياء « مواد من الروح » يمكن بها احداث صلة مع الولى (٣١) • ومن أكثر العادات شيوعا وضع قطع من القماش على المقابر أو دق مسامير فى شجرة مجاورة • وكان هناك اعتقاد فى عادة دق مسامير فى باب زويلة فى القاهرة ، حيث يظن أن القطب يسكن • وكان لهذه العادة شهرة خاصـــة (٣٢) •

وكان هناك اعتقاد فى أن المقابر المباركة لها قوة لحماية الشخص الهارب • اذ يروى الجبرتى كيف أنه ، فى عام ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م هرب خليل بك ورجاله الى ضريح أحمد البدوى • ولم يجرؤ من كانوا فى أثره على قتله هناك ، وانما نفوه الى الاسكندرية ، حيث تم اعدامه • ويمكن العثور على روايات من نفس الطابع فى المصادر •

ان وظيفة الضريح الشريف كحارس موضع ثقة للبضائع أيضا معروفة تمام المعرفة ، على الأخص بين البدو (٣٣) ، وأخيرا ، يجب أن نذكر الاعتقاد بقدرة المقابر الشريفة على الشفاء ، وقدرتها على معالجة النساء من العقم • فكانت النســاء تأتى الى القبر ، ويحضرن النذور ، ويدعين ويؤدين طقسا ما (٣٤) •

وكان الحكام على وعى بتوقير الأهالى للأضرحة الطاهرة ، وكثيرا ما كانوا يظهرون اهتمامهم الشخصى ، وذلك بزيارة القبور أو تجديدها • وهاك بعض الأمثلة : فلقد تم تجديد ضريح السيدة زينب مرتين أثناء الحقبة العثمانية ، فى ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ ـ ١٥٤٩ م وفى ١١٧٣هـ / ١٧٥٩ ـ ١٧٦٠ م (٣٥) ولقد جدد عبد الرحمن ، باعتباره كتخدا ، ضريح السيدة نفيسة وغيره من الأضرحة الشريفة (٣٦) • وعزل على بك سدنة ضريح أحمد البدوى ، وصادر ممتلكاتهم ، مستخدما الأموال التى تم الحصــول عليها بهذه الطريقة لتأسيس أوقاف على الضريح وللطــلاب والمتعبدين الذين كانوا يقطنون هناك • كما جدد القبة الموجودة على مســجد الشـــافعى (٣٧) • وعرف عن عدة بكوات من المماليك زياراتهم المتكررة هناك (٣٨) • كما كان الوزراء العثمانيون وسلطان مراكش كثيرا ما يبعثون مساهمات من أجل أضرحة الأولياء فى مصر (٣٩) •

المـــوالد

مقـــدمة

كانت الموالد جزءا مركزيا رئيســـيا فى حياة الأهـــالى الدينية والاجتماعية فى الحقبة العثمانية (٤٠) · ولا يعرف ، على وجه الدقة ، متى ظهرت الموالد فى الاسلام · وربما كان ابن جبير ، رحالة القرن الثانى عشر ، هو أول من ذكر احتفالات المولد وهو يتحدث عنهـا كعادة مستقرة تماما ·

لقد عقد علماء التوحيد مناقشات مطولة بخصوص مشروعية المولد · وحكم جلال الدين السيوطى ، الكاتب والمتصوف وعالم التوحيد والمؤرخ الشهير المتوفى ١٥٠٥ بأن الموالد حقـا بدعة ، ولكنها بدعة حسنة · فهو يؤكد أن مأدبة مولد النبى ﷺ حسنة ، لأنها تغرى المسلمين على اخراج المال لفعل الخير ، وأن يتلوا القرآن ، ويقيموا الذكر ، ويفرحوا بميلاد النبى · وحين سئل عالم توحيد فى زمن مبكر عما اذا كان يعتبر المولد شيئا جديرا بالثناء أم التوجس أجاب هكذا : « ان الولائم والوجبات دائما شىء يلقى الترحيب ، فما بالك حين تكون مصحوبة بالفرح ببزوغ نور النبوة فى هذا الشهر » ·

لقد كان الأصوليون المسلمون ، وعلى رأسهم الحنابلة ، ثم بعد ذلك ، الوهابيون ، معارضين حتى لمولد النبى · لذا لا مجال للدهشة ، آن الموالد اللاحقة الخاصة بالأولياء المحليين ، والتى كانت ، فى معظم الحالات ، بقايا لعادات ترجع الى ما قبل الاسلام كانت تلقى الكثير من النقـــد (٤١) ·

الأولياء واقامة موالدهم

تعد قائمة الأولياء الذين يحتفل بموالدهم قائمة طويلة وتشمل رجالا وقليلا من النساء من فترات مختلفة ، ابتـــداء بالنبى ﷺ وانتهاء بأحدث المشايخ المتصوفين ·

وكانت الموالد ، ومازالت ، تعقد لأعضاء من آل البيت ، أسرة النبى ـ الحسين بن على ونسله من النساء • كما نجد من بين الأولياء علماء ومتصوفة وأشرافا وأمراء والكثير من المشعوذين والمجانين اشتهروا بأنهم أولياء (٤٢) •

لقد اعتبر الكثير من الأولياء بأنهم حماة ورعاة : فواحد كان يدافع عن منطقته ضد التماسيح ، وآخر كان يحمى ضد الثعابين ، وثالث كان يعد صديق الفلاحين • وكانت وظيفة الولى من حيث انه راع لقريته واسعة الانتشار (٤٣) •

وقليل من الموالد لم تكن مرتبطة بشخص مبارك ، وانما بمكان مبارك • فكان هناك مولدان يقامان حين يتم تنظيف المقياس ، (مقياس النيل) وحين كان يتوقع أن تكون المياه مرتفعة • وثمة مولد آخر من نفس النوع هو مولد قدم النبى ، (أظن أنه يقصد أثر النبى (ﷺ) : المترجم) وهو مكان بالقرب من القاهرة حيث يعتقد أن محمدا ترك أثرا لقدمه (٤٤) •

وليس من السهل تحديد الوقت الذى أنشىء فيه مولد معين • ومن الواضح أن عملية اقامة الموالد امتدت أحيانا عبر أجيال • فموالد الحسين ونساء بيته أدخلت أثناء الحقبة الفاطمية (٤٥) • وأقيم عدد لا يستهان به من الموالد للمشايخ المتصوفة أثناء القرن السادس عشر ، وهو تطور مرتبط بظروف خلقها الحكم العثمانى ، كانت تؤدى الى انتشار الصوفية • ويضرب على مبارك مثلا بتقاليد المتصوفة الخاصة باقامة مولد أحمد البدوى فى القرن الثالث عشر (٤٦) • وعموما ، لا يمكن الثقة بها ، بما أنه من الواضح أن الكثير من العادات ترجع الى ما قبل الاسلام ومرتبطة بالنيل والزراعة • ولربما حفزت شعبية مولد البدوى الى انشاء موالد أخرى أصغر وان كانت مشابهة ، وهذه هى الطريقة التى أوجدت الموالد فى بلدان دسوق ودمنهور بالاضافة الى مولد الامبابى غرب القاهرة (٤٧) •

من الطبيعى أن معلوماتنا تكون أفضل عادة بالنسبة للموالد الأكثر حداثة • اذ يروى افليا (شلبى) أن مولد الشيخ عقبة الجهينى قد توقف ، لأن الضريح صار حطاما • وفى سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٢ ـ ١٦٥٣ م ، أعاد أبو النور محمد باشا ـ وهو حاكم مشهور باهتمامه بالدين ـ انشاء المسجد وأسس تكية ، وسبيلا ومطبخا وغير ذلك من المرافق هناك • كما أحيا المولد ، الذى كان مقدرا أن يمول عن طريق وقف خاص تحت اشراف قائد الانكشارية (٤٨) • وكذلك يروى الجبرتى ظروف ظهور عدة موالد جديدة • اذ مات عبد الوهاب بن عبد السلام المرزوقى ، وهو متصوف متواضع دأب على التردد على المقابر الشريفة ، مات فى ١١٧٢ هـ/١٧٥٨ م • وبعد أن أصاب أحد الفيضانات مقبرته ، بنى مريدوه وأتباعه مقصورة حول المقبرة ، أى مقاما ، وقبة فصار الضريح مزارا ، وكان الرجال والنساء يختلطون أثناءه • فبنى المتصوفة مقاما آخر هناك دفنوا فيه متصوفة وعلماء آخرين • ثم حددوا تاريخا سنويا للاحتفال ودعوا الزائرين من الصعيد والوجه البحرى • وأنشئت الكثير من الخيام والأعمدة والمطابخ وأماكن عمل القهوة هناك أثناء المولد • فجذبت المناسبة الفلاحين من القرى المجاورة ، بالاضافة الى المحتالين والمغنين والعاهرات وسحرة الثعابين • وكانت الجماهير تشعل الألعاب النارية ، وتلطخ المقابر ، اذ كانوا يتضاجعون ويرقصون لما يزيد عن عشرة أيام • وكانت موسيقا الطبل والناى تعزف ليل نهار • وحتى العلماء كانوا ينصبون خيامهم ، وكذلك كان يفعل أبرز الأمراء ، والتجار • ويلقى الجبرتى باللائمة على العلماء على عدم توبيخهم لسلوك كهذا ، وبذلك جعلوا العوام يعتقدون أن الاشتراك فى هذا المولد عمل من أعمال التقوى (٤٩) •

ويمكن للمرء أن يرى بوضوح كيف أن طريقة مشروعة (من وجهة نظر السنة) لاحياء ذكرى رجل صالح من رجال الدين تتدهور فتصبح حدثا مريعا من أحط الطبقات الاجتماعية ، لم يقدر أو يرغب أهل النخبة فى ايقافه ••

لقد ألغى مولد الحسين بن على وتم احياؤه عدة مرات أثناء الحقبة العثمانية •• اذ يبدو أن هذا الضريح الشيعى الرئيسى فى مصر ، جذب

الشيعة وأشباه الشيعة ومتعددى المذاهب وخلق عادات ، أثارت شكوك السنة ، والسلطات • وروى افليا (شلبى) ، أن هذا المولد كان قد ألغى بسبب نقد جائر •

وفى عام ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨ م ، رفع الأشراف شكوى الى عبد الرحمن باشا كى يسمح بمولد الحسين ، جدهم فأصدر الوالى التوجيهات المرغوبة الى القاضى والشرطة • ويروى افليا أنه بعد ذلك ، تم الاحتفال بوليمة كبرى فى يوم عاشوراء (العاشر من المحرم ، يوم حداد الشـيعة على استشهاد الحسين) (٥٠) •

وعلى النقيض من حماس افليا ، يعبر الجبرتى عن اتجاهه الساخر المرير نحو الموالد والذين يشتركون فيهـا فى روايتـه عن احياء مولد الحسين • اذ ان الوصى على وقف مسـجد الحسين قد أصيب بمرض جلدى ، ربما تناسلى فأقسم بأن يعيد احياء المولد آملا فى أن يشفيه الله • فاستولى على أموال من الوقف ، وبدأ فى تنظيم المولد • ووضع شموعا ومصابيح فى المسجد ، وعين مقرئين نهـارا وقراء لدلائل الخيرات (وهو كتاب شهير للأدعية) ليلا فجاء الكثير من أتباع الطرق الصوفية الشاذة للاحتفال ، ملطخين المسجد ، دون أن يظهروا أى احترام للمكان • أما الرجل الذى أخذ المبادرة فى احياء المولد فلم تتحسن حالته ، كما استنتج الجبرتى بحدة (٥١) •

ويصف الجبرتى ايجاد مولد آخر ـ احياء ذكرى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، الذى كان شيخ الأزهر ومتصوفا • وحددت أرملته وابنه مولده فى يوم وليمة العفيفى بعد أن حصلا على موافقة الباشا • فأعلنت الشرطة عن الاحتفال فى الشوارع ، ودعى الجمهور لحضور الاحتفالات • وأقيمت الأعمدة أمام الضريح وعليها الشـموع • وعلقت بها البيارق وشرائط ملونة • ودعى زعمـاء أو رؤسـاء الطرق الصوفيـة • وقدم الطعـام •

ومرة أخرى يطلب الجبرتى من النخبة الأزهرية توبيخ الدهماء على سوء سلوكهم ، كاشفا عن الفجوة بين توقيره للشيخ الراحل واشمئزازه من المـولد (٥٢) •

أوقات الموالد ومددها

كانت الكثير من الموالد يحتفل بها حسب التقويم القمرى الاسلامى ، ولكن القليل منها بما فى ذلك بعض أهم الموالد ، كانت تعقد طبقا للتقويم القبطى . وكانت موالد الفئة الأولى متناثرة عبر شهور السنة الاسلامية ، باستثناء شهر رمضان . وموالد أكثر كانت تعقد فى شعبان ، الشهر الثامن الذى يسبق رمضان ، مما يعقد فى أى شهر آخر . وبعد رمضان ، لم تكن هناك الكثير من الموالد ، لأن الاستعدادات تكون على قدم وساق من أجل الحج (٥٣) . وكان الكثير من الموالد تستمر من بداية شعبان حتى منتصفه ، أهمها فى الصعيد ، مولد أبى الحجاج فى الأقصر وعبد الرحيم فى قنا ، الذى تقع احتفالاته الرئيسية فى الخامس عشر من الشهر (٥٤) .

وكان مولد الامام الليثى يعقد فى القاهرة فى أقرب جمعة من منتصف شعبان . وكان مولد الدمرداش فى يوم الخميس ، فى النصف الثانى من شعبان (٥٥) .

وكانت مواعيد الكثير من الموالد تحدد بشكل تعس فى منتصف شعبان ، والسبب فى ذلك أن التراث يقول ان مصير الانسان فى السنة التالية يتحدد فى ليلة النصف من شعبان (٥٦) .

وكان توقيت بعض الموالد مرتبطا بالأعياد الاسلامية . فمثلا كان مولد الوفائى ينعقد بعد العيد الكبير بأربعة أيام (٥٧) . وكان مولد الدشطوطى ينعقد فى ليلة المعراج ، ليلة صعود النبى الى السماوات السبع ، فى السابع والعشرين من رجب (٥٨) . وكان مولد أبى القاسم الطهطاوى ينعقد مع مولد النبى (٥٩) .

وكانت تواريخ بعض الموالد الكبرى تتحدد عن طريق التقويم القبطى ، وبذلك ترتبط بالفصول ، وهو أمر مستحيل اذا تم التمسك بالتقويم الاسلامى .

وبعض الموالد كانت مرتبطة بالدورة الزراعية المرتبطة بفيضان النيل ، كما جرت العادة فى العصور الفرعونية (٦٠) • وأهم هذه الموالد هما مولدا أحمد البدوى ، اللذان كانا مرتبطين بالرى • فكان مولد البدوى الكبير ينعقد فى شهر مسرى (من السادس من أغسطس) ، أما المولد الأصغر ففى بداية برمودة (الذى يبدأ فى الثامن من أبريل) •

ويروى مبارك أن مولد البيومى كان ينعقد (طبقا لأيام النيل) وبعض الموالد فى الصعيد كانت تقام حين تبدأ مياه النيل فى الارتفاع • وأخرى كانت تنعقد (فى الصيف) أو (فى زمن الحصاد) (٦١) •

وكان عدد من الموالد يحتفل بها فى أنحاء مصر ، رغم أن مركزها كان فى القاهرة ، مثل موالد النبى ، والحسين ، أو موالد نساء بيت الحسين ومولد الشافعى • وبما أن هذه الأعياد كانت تؤثر فى النشاط فى جميع أنحاء البلاد ، فهى كانت تحدد تواريخ الموالد الأخرى • ذلك أن جوار مساجد الأولياء أو أضرحتهم أحدهما من الآخر جعل من المناسب الاحتفال بموالدهم معا ، أو فى مواعيد متقاربة • فالحاجة الى تزامن النقل ، والتجارة وأمن الموالد المجاورة ربما أثر فى الترتيبات التى تتم من أجل الاحتفالات (٦٢) •

وجدير بنا أن نتذكر أن الحكومة كانت فى نهاية الأمر ، مسئولة عن الموالد ومسئولة عن سلوك الجمهور المنظم (٦٣) • كما يجب ملاحظة الصلات بين الأولياء الراعين أنفسهم • فمثلا ، يحتفل بجميع الأولياء المرتبطين بأحمد البدوى طبقا للتقويم القبطى • وكان الامبابى أحد مريدى البدوى • وكانت البيومية طريقة متفرعة عن الأحمدية والمرزوق كان من نسل البيومى • فكانت مواعيد موالد هؤلاء الأولياء مرتبطة بالأحمدية (٦٤) •

وكانت بعض الموالد تنعقد فى يوم معين من أيام الأسبوع (٦٥) • وكانت الاحتفالات بمولد فى القاهرة تستغرق أسبوعا واحدا (٦٦) ، رغم أن بعض موالد القاهرة كانت تستغرق ثمانية أيام ، مثل مولد الرفاعى ، الدشطوطي ، والبيومي (٦٧) • وعلي النقيض من ذلك ، فان المدة المتوسطة

لموالد المهمة لم تكن تستغرق أكثر من ليلة واحدة • ومثل هذا المولد كان يسمى ليلة ولا يتكون الا من الدعاء دون الكثير من الأمور المعتادة فى المولد (٦٩) •

المشاركون فى الموالد

اجتذبت احتفالات الموالد أعدادا غفيرة من جميع مناحى الحياة • فالموالد تنتمى الى عوالم المعتقدات الدينية فى مصر ، ولكن النخبة أيضا كانت تحضر ، على الأقل ، جزءا من الاحتفال•ومع آن الموالد كانت دائما احتفالات صوفية ، الا أن العلماء والأمراء كانوا يشتركون فيها أيضا • اذ كانت الموالد مختلفة الألوان ومتنوعة بحيث يبدو أن كل شخص يمكنه أن يجد هناك شيئا يعجبه (٧٠) •

فبعض الموالد كانت أحداثا اقليمية ، مثل مولد جـــلال الدين السيوطى فى أسيوط ، وأبى حجـــاج فى الأقصر ، وعبد الرحيم فى قنـا (٧١) • ولم تجتذب الموالد الأصغر سوى أهالى الحى أو القـرية التى يقع فيها المسجد أو القبر (٧٢) • وبعض الموالد ، مثل البيومى ، كانت تجذب القرويين الى المدينة • وأخرى فعلت العـــكس : اذ كان القاهريون يخرجون الى قرية فى مديرية المنيا كى يذهبوا للسوق الذى كان يقام مع المولد (٧٣) •

وكان مولدا أحمد البدوى ، فى طنطا أكثر الموالد ازدحاما من بين كل التجمعات • اذ كان الناس يسعون اليهما من أقصى الأماكن ، كمـا يصدق الحال الآن •

ويؤكد افليا صاحب التجربة والأسفار الكثيرة ، أنه لم ير قط جماهير بضـــخامة ما رآه فى مولد البـدوى ، بمقارنته مع ألمع احتفالات الدولة فى اسطنبول • وهو يلاحظ أن مولد ابراهيم الدسوقى ، الذى كان يعقد بعد ذلك بأسبوع ، أصغر وأكثر نظاما وأكثر جلبا للسرور (٧٤) •

وثمة موالد عديدة كانت تجتذب شريحة معينة من الأهالى • فمثلا كان الجزارون سائدين فى مولد معين فى القاهرة (٧٥) • وكانت هناك

موالد يشترك فيها العلماء خاصة : من مثل هذه مولد المطراوى فى المطرية بالقرب من القاهرة (٧٦) • والشعرانى فى حى باب الشعرية وعلى العكس من ذلك (٧٧) ، فان المشاركين فى مولد عمر بن الفارض ، الشاعر المتصوف الشهير ، كانوا من بين الفقراء وغير المتعلمين (٧٨) • وكان مولد ابراهيم جولشينى مقصورا على النخبة الدينية الفكرية السياسية ، وبه طابع تركى قوى اذا كان وصف افليا له دقيقا (٧٩) •

لقد عرف الجبرتى عن جدارة ، الملامح الأربعة للموالد على أنها ليست زيارة وتجارة فقط وانما كانت حقا نزهة وفسوقا (٨٠) •

وكانت الموالد ، فى الأساس ، دائما أحداثا دينية بالرغم من جوانبها العلمانية • فالمولد ركز دائما على الولى وضريحه • وهناك الكثير من الأدلة التى تشير الى الجدية والتقوى التى كان ينظر بها المصريون من جميع الطبقات الاجتماعية الى أيام هؤلاء الأولياء • فيقول على مبارك فى وصفه لأحد الموالد فى أحد بنادر مديرية أسيوط : لو أن أى انسان أهمل طقس المولد ، فان الآخرين يقولون له : لا تتسبب فى خراب قريتنا لأنهم يعتقدون أنهم اذا ما لم يؤدوا طقوس تلك الليلة ، فسيلحق الضر بمحاصيلهم ـ كما علمتهم تجربتهم ـ وحيواناتهم أو أبدانهم • وهم مقيدون بهذا الاعتقاد مع أنهم يفعلون الطقوس بارادتهم الحرة • وهذه هى الطريقة التى تنظر بها معظم القرى للموالد(٨١)•ويجب التأكيد على أن على مبارك كان يشير الى الصعيد ، حيث كان تبجيل الأولياء وموالدهم قويا بصفة خاصة •

ان الطقوس الدينية الرئيسية أثناء المولد هى :

١ ـ زيارة الضريح (زيارة)

يضع الزائر يديه على القبر ، ثم يغطى وجهه بيديه • ثم يدور حول القبر ، ويقرأ الفاتحة ، ويبارك الولى (٨٢) •

٢ ـ تلاوة القرآن

كان من المعتاد ترتيل القرآن بأكمله (ختمه) أثناء الموالد • وكثيرا ما يستأجر مقرئون محترفون لهذا الغرض (٨٣) •

٣ ـ تلاوة أوراد صـــوفية

دلائل الخيرات ، وهو مجموعة منتقاة ، كانت كثيرا ما تقرأ وترتل أثناء الموالد • كما كانت الأوراد تقرأ فى كثير من الموالد وكان النص المفضل هو حزب الشاذلى ، المعروف أيضا بالبر الكبير • فاذا كان الولى المقصود له حزب باسمه ، فمن الطبيعى أن هذا النص كان يقرأ (٨٤) •

٤ ـ ترتيل مدائح نبوية أو مدائح الأولياء

وكان لقصيدة المولد الشريف ، التى ترتل فى مولد النبى بعد الحزب البكرى ـ شهرة خاصة (٨٥) •

وحسب ما يقول افليـا ، كان مولد الليثى مهرجانا أدبيا بالنسبة للعلماء • اذ اعتاد المؤلفون أن يقدموا ما كتبوه تمجيدا للمولد لكبار مفتى المذاهب • فاذا وافق المفتون على تلاوتها ، كانت الكتيبات توقع وتوضع فى صندوق عند المقام • ويتضمن وصف افليا أن نفس هذا الشىء كان يتم فى مولد الشافعى (٨٦) •

٥ ـ الذكــــر

هو تكرار عبارات معينة فى مدح الله للوصول الى تجربة دينية • ولم يكن هناك مولد دون حلقات للذكر ، رغم أن الأذكار من الممكن أداؤها بشكل مستقل عن الموالد • اذ كانت هناك حلقات الذكر الحميمة التى يقيمها المتصوفة • غير أنه كان يوجد التجمع الكبير حيث يوجد الكثير من المشتركين فى المولد ، الذين اجتمعوا من أجل تأدية طريقة سوقية للذكر الصــــوفى •

وكان هناك الكثير من الرجال والنساء الذين يعتقدون أن وجودهم فى الذكر يكفى لعلاجهم من الأمراض • وأحيانا كان الحشيش وغيره من المخدرات تستعمل للوصول الى النشوة الدينية (٨٧) •

٦ ـ المـوكب

لقد كانت المواكب الصوفية كثيرة الألوان هى أكثر ما يلفت النظر فى الموالد التى تعرف بالاشاعر • ومازالت كذلك • اذ كانت الطرق

تسير تحت راياتها ، أو تحمل المشاعل ليلا ، وهم ينشدون أذكارهم وهم يسيرون • وكان المتصـــوفة يعزفون على آلاتهم الموسيقية ويعرضون حيلهم الغريبة • وفى نهاية المولد ، يحدث موكب عام (الزفة) يضم جميع الطرق (٨٨) •

٧ ـ مراسم دينية أو شبه دينية خاصة

كان من المعتاد ختان الأولاد وحلق رؤوس الأطفال فى الموالد • كما اعتاد الرجـال والنســاء أن يوفوا بما اقســموا عليه أثناء الموالد ، كذلك كانت الصـــدقة التى تقـدم للمتصوفة والفقراء أكثر كرما من المعتـــاد (٨٩) •

الجانب التجارى للموالد

لم يكن الجانب التجارى للمولد مجرد نتيجة طبيعية لتجمع الكثير من الناس فى نفس المكان ، وانما كان هدفا رئيسيا من وراء الأعياد • وهذا يظهر جليا فى تعريف الجبرتى الذى سبقت الاشارة اليه ، بل أكثر من ذلك فى وصف على مبارك لمولد البدوى ، الذى يقول : « انه سوق كبير يعرف بمولد أحمد البدوى ، حيث يجتمع الكثير من الناس من كل أنحاء البلاد ، لا يستطيع حصرهم الا الله وحده • وهم لا يأتون هناك ، فقط من أجل التجارة ، انما من أجل هذا الغرض وأيضا للبحث عن بركة فى الولى سيدى أحمد البدوى » (٩٠) •

ولقد تخصصت الأسواق فى سلع معينة • وكانت أسواق طنطا هى أكبر الأسواق وكانت مشـــهورة بأسواق النخاسة التى كانت بها • ويصف افليـــا التجارة فى قطن الفيوم التى كانت هذه الأســـواق شهيرة بها (٩١) •

واثناء مولد ابراهيم الدسوقى ـ الذى يقام على ضفة النهر ـ كانت القوارب تفد من موانى البحر المتوسط المصرية والصعيد ، حاملة الناس والتجارة • ويذكر افليا بصفة خاصة الأقمشة من اليمن والهند (٩٢) •

الجانب العلمانى للموالد

تعلق جميع المصادر على الجو المرح الشبيه بالكرنفالات الذى كان موجودا فى الموالد ، ذلك أن المهرجانات كانت تقدم للمصريين المحبين للمرح فرصة امتاع أنفسهم (٩٣) • بل ان الجبرتى المعروف بتحفظه الصارم ، يقول ان القاهرة كانت مضاءة بشكل جميل ومزينة أثناء مولد النبى ﷺ (٩٤) • اذ كان المحتالون وسحرة الثعابين ، وألعاب خيال الظل، ورواة الحكايات ، والمغنون وغير ذلك من عروض منوعة تبعث فى الناس التسلية •

كما اشتمل المولد فى الريف والبنادر على سباق جمال وخيول وغير ذلك من عروض الفروسية يقوم البدو العرب بأدائها (٩٥) • وكان بالموالد جانبها الخير المحسن أيضا • اذ كانت تمنح الفرصة لاطعام الفقراء • وفى وقت سابق فى القرن السادس عشر ، آكد الشعرانى على هذه الناحية فى الموالد (٩٦) •

يقول على مبارك ، فى وصفه لمولد ابراهيم الدسوقى ، فى القرن التاسع عشر ، ان أحد أغراضه الرئيسية اطعام الفقراء ، والبؤساء ، وأبناء السبيل (٩٧) •

ومن الممكن أن الموالد انتشرت ، لأنها كانت تقوم الى حد كبير بدور وكالات الرعاية والاحسان غير الرسمية •

الجوانب موضع الاعتراض فى الموالد

لقد كانت للموالد دائما سمعة مختلطة ، فبجانب ملامحها الدينية الايجابية ، كانت بشعة من حيث ما كان بها من عنف وانعدام أخلاق ارتبطا بها •

ففى حقبة المماليك ، نصح العلماء السلطان بأن يحد من المولد فى طنطا لأنهم اعتبروه غير أخلاقى (٩٨) •

وفى أوائل الحقبة العثمانية ، حظر الشيخ محمد الشناوى ما كان يقوم به القاطنون فى طنطا من سرقة الآتين من خارجها للاحتفال بالمولد ، اذ كان القاطنون يزعمون القول : « هذا هو اقليم سيدى أحمد البدوى ونحن فقراؤه » •

وفى وقت قريب ، أى عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م ، كانت تُسرق جمال الأشراف (فى هذه الحالة البدو) الذين كانوا يأتون الى طنطا (٩٩) • ويقال ان نفس الشيخ أدخل الذكر بدلا من الموسيقا والرقص اللذين كانا يؤديان من قبل (١٠٠) •

ويستخدم الجبرتى لغة خشنة للتعبير عن اشمئزازه من الأخلاق المنحلة فى الموالد : لقد اختلطت النساء بالرجال ، والغوازى أو الفتيات الراقصات العموميات كما يسميهن لين Lane كن يرقصن فى الشوارع ، وكانت المضاجعة والدعارة كثيرة (١٠١) • ويذهب الجبرتى الى حد اتهام الفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر بالسماح للمصريين بأن يحتفلوا بالموالد لكى يفسدوهم ، اذ يذكر أن الفرنسيين قد سمحوا للناس بأن يقيموا الموالد لأنهم أدركوا أن هذا يستتبع التخلى عن الدين ، وذلك بأن يتم الاتصال بالنساء اتصالا محرما ، متبعين الشهوة وباحثين عن الملذات ، بفعل ما هو ممنوع ، ودمج النساء مع الرجال (١٠٢) •

وانتقد على مبارك الخرافات ، والافراط والسلوك المعيب الذى كان يفعله الدراويش وغيرهم أثناء المولد مثل أكل الثعابين والزجاج ، والنار والأشواك ، طاعنين أنفسهم بالسيوف والدبابيس ، والمشى عراة علنا ، ناطقين بألفاظ فاحشة وما الى ذلك (١٠٣) •

ومع نهاية القرن التاسع عشر ، لم يتغير الكثير فى هذا الخصوص منذ أيام الحكم العثمانى •

الفصـل السـابع

الأشراف ونقيب الأشراف

الأشراف

مصطلحا الأشراف والسادة : الأشراف (مفردها شريف) والسادة (مفردها سيد) ـ يعتبرون عادة نسل النبى محمد ﷺ عن طريق زواج ابنته فاطمة من على بن أبى طالب · وبشكل أدق ، فان الأشراف هم نسل ابن على الأكبر ، الحسن ، والسادة هم نسل ابنه الأصغر الحسين (١) · وأثناء الحقبة العباسية ، كان لفظ الأشراف ينطبق على جميع آل البيت (أى عائلة النبى ، بمن فيها على سبيل المثال ، نسل محمد بن الحنفية ، وزوجة على الثانية ، وكذلك الهاشميون) ، غير أن حكام مصر الفاطميين ، (٩٦٩ هـ / ١١٧١ م) قصروا استخدام هذا اللفظ على نسل الحسن والحسين · وظل هذا التقييد سارى المفعول حتى بعد أن صار حكم مصر سنيا مرة أخرى (٢) ·

أما الممارسة الاجتماعية فى مصر فلا تميز بين الأشراف والسادة · فالمصادر تتحدث عن أشراف كانوا يدعون بالسادة الأشراف وصار لقب سـيد هو لقب الشريف (٣) · ومع ذلك ، فان التفريق بين الأشراف الحسنيين (أى أشراف حسب التعريف القديم الكلاسيكى) (٤) والأشراف الحسينيين (سادة) ليس مجهولا (٥) ·

ومما يجب ملاحظته أنه حتى عهد قريب ، أى أوائل القرن التاسع عشر ، لم يكن للقب سـيد غير معنى الشريف فى مصر · لقـد شـعر عبد الرحمن الجبرتى بضرورة شرح أن سـيدا ما ، وهو على القبطان ،

كان مملوكا وليس شريفا ، وربما كان هذا الاستنتاج الخاطىء بسبب لقبه • فاللقب ـ في هذه الحالة ـ ناشىء عن طبيعة الاستخدام المغربى عند التحدث الى أحد الأمراء (٦) • وفى الاستخدام الحديث ، فقد لفظ السيد مغزاه الدينى ولا يعدو الآن الا أن يكون ـ ببساطة ـ لفظ احترام •

لقد كان المتصوفة يسمون سادة فى المصادر فى الأزمنة الحديثة (٧)• ومن هنا يقال السادة القادرية والسادة الشاذلية وبعامة ، السادة الصوفية• ولا يتضمن هذا الاستخدام أن جميع المتصوفة أشراف ؛ ولكنه تكريم دينى (٨) قد يكون نشأ عن الاعتقاد بأن « الأقطاب » الأربعة مؤسسى الطرق الصوفية الرئيسية ، كانوا أشرافا ، أو عن الموقع الخاص للنبى ﷺ فى سلاسل المتصوفة التراثى وكذلك ، قد يكون راجعا الى التركيز القوى الذى أعطته الصوفية المتأخرة للنبى ﷺ (٩) (*) •

لقد حظى الأشراف الحقيقيون بتكريم كبير كما قاموا بأدوار رئيسية فى الطرق الصوفية (١٠) • وهناك ما يدل على أن هذا التقليد ظل حتى القرن العشرين (١١) • ولما كانت مكانة الأشراف وراثية من خلال الأب أو الأم (١٢) ، فقد تزايد عددهم تزايدا مثيرا •

انشـــاء الشرافـة

لـما كان الأشراف فى مصر على وعى تام بأصلهم ، فلقد احتفظـوا بسجلات للتسلسل النسبى وكان يعترف بهم ، اجتماعيا ، باعتبارهم نخبة دينية • ولا محيص من أن تثور الشكوك فيما يتعلق بأصل الكثير ممن يدعون هذا اللقب • ومن خير الأمثلة على ذلك ، تعليق الجبرتى على رجل يزعم عودة نسبه الى على : « انه من الأشراف صحيحى النسب ولقد حقق سيد محمد مرتضى نسبه » (١٣) •

لقد وصف على باشـا مبارك كيف أنشـأ نقيب الأشراف الشرافة وساعده فى ذلك عدة (شاويشية) ، واتهم أحد الشاويشية بتخصيص

(*) بمعنى اضفاء كثير من الكرامات والمعجزات له واعتبار نوره أصل الخليقة • (المراجع) •

اموال للأشراف • كما وطد مسئول آخر مكانة الأشراف كوكلاء فى كل منطقة أو مدينـــة • وعلى باشـا مبـارك ، هو مؤلف موسوعة جغرافية لمصر فى القرن التاسع عشر • وكان هؤلاء الوكلاء ، الذين كان ينتخبهم الأشراف المحليون ، مسئولين عن كل ما يتعلق بترسيخ الشرافة • فاذا أراد شخص أن يثبت نسبه الى الأشراف لأن تسلسل أصله كان قد فقد ، فعليه أن يقدم طلبا مكتوبا الى مكتب نقيب الأشراف ، الذى يقوم بالبحث عن اسمه فى كتب الأوقاف ، وعطايا الأشراف ، التى أنشأتها الحكومة المصرية ، وغيرها من الأجهزة • فلو كان اسـم مقـــدم الطلب من بين مستحقى الجعل يصبح عليــه أن يقسـم أنه ينتسب اليهم ، وأن يحضر شهودا يؤيدون ادعاءه • أما اذا كانت الأسماء غير موجودة فى السجلات، فعلى الشهود أن يشهدوا بأنه من الأشراف (١٤) •

أصل الأشراف المصريين

لقد هاجر الكثير من العائلات الشريفة الى مصر • اذ يروى مبارك عن عائلة تسمى بيت الأشراف أتى جدها الكبير ، مجد الدين الى مصر من مكة فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، واستقروا فى منطقة الجيزة ، واشتغلوا بالتجارة ، خاصة تجارة الأغنام والماشية • واستمر أبناؤه من بعـــده فى مزاولة مهنته (١٥) • كما ينقل مبارك عن المقريزى ، المؤرخ المصرى الذى عاش فى القرن الخامس عشر ، والذى يكتب عن قرى الأشراف فى مديرية البحيرة ، حيث استقر الأشراف هناك مع أتباعهم ، وحلفائهم (١٦) • كذلك يكتب مبارك : حين تشتتت عائلات الأشراف فى مديرية أسيوط ، عسكرت جماعة من نسل مروان بن الحكم فى قرية تونة الجبل •• واســتقرت هناك • وكان أشراف أسيوط هؤلاء ينحدرون من الحسين بن على من جانب أمهم ، (وهو حفيد النبى ﷺ) • وكانت الأم هى ابنة مؤسس قرية درت ســـيريان ، التى تعرف بدرت الشريف • وبعد ذلك ، استقروا فى سوهاج ، حيث ما زالوا يعيشون الى اليوم (١٧) • وثمة قرية أخرى اتخذت اسمها من أشراف غير معروفين، وهى كوم الأشراف (١٨) •

ويزعم سكان عدة قرى فى الصعيد الانتساب الى جعفر الصادق ، فهم أشراف ويعرفون بالجعافرة (١٩) • كما أن غالبية عائلات الأشراف

التى سكنت قرية سرس الليان ، فى منتصف القرن العشرين من خارج القرية ، وأحيانا من خارج مصر ، أتوا من الحجاز والعراق والشام والصعيد (٢٠) .

ان الكثير من العائلات الأخرى والقرى التى يتكون سكانها من الأشراف ينتسبون الى رجل يشار اليه بصاحب القرية ، أو مؤسس القرية ، والذى تتخذ اسمها منه . فحسب المقريرى سميت درت الشريف باسم مؤسسها أمير الأشراف العربى ، ثعلب بن يعقوب . جد العرب الذين قادوا تمرد القبائل البدوية فى مصر ضد حكم المماليك أثناء حكم أيبك التركمانى ، أول سلاطين المماليك .

ولقد تم قمع التمرد وسجن زعماؤه وشنقوا ، بعد ذلك ، بناء على أمر السلطان بيبرس (٢١) .

ان أكبر وأشهر مسجد فى جزيرة شندويل ، وهى مدينة بالقرب من سوهاج ، يعرف بمسجد سيدى على ابن سيدى أبو قاسم الطهطاوى ، جد أشراف البلدة (٢٢) .

كذلك يروى مبارك أنه فى زاوية البقلى ، وهى قرية فى مديرية المنوفية ، ينحدر معظم القرويين الألف وسبعمائة عن أبى ربيع السيد سليمان البقلى ، الشريف الحسينى الذى أسس القرية (٢٣) .

نفوذ الأشراف المصريين وتميزهم الاجتماعى

لقد حظى أشراف مصر ، شأنهم شأن الأشراف فى غيرها من البلاد الاسلامية ، بالاحترام لأسباب دينية ، وكثيرا ما كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية رفيعة ، وامتيازات اقتصادية . اذ كان ريع العديد من القرى يتحول الى وقف فيحقق دخلا يوزع على الأشراف (٢٤) . وكان الأشراف يتميزون بعباءاتهم الخضر وكان يسمح لهم أيضا أن يرتدوا أثوابا خفيفة خضراء . ولقد أدخل هذا التميز السلطان الأشرف شعبان ، عام ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م ـ ١٣٧٢ م . اذ أمر بأن يضع الأشراف شارة خضراء على عباءاتهم (٢٥) . واذا كان أحد الأشراف ثريا ومتعلما ، كان يفضل لقب

الشيخ على لقب السيد ، والعباءة البيضاء على الخضراء • وأحيانا كثيرة كان الأشراف العلمـــاء يضعون شـــارة أو شريطا أخضر فوق العبـاءة البيضـــاء (٢٦) •

وكان الأشراف غالبا ما يظهرون كتنظيم محدد فى المواكب الاحتفالية أو غير ذلك من المناسبات الدينية والعامة ، مثل حفل افتتاح القناة أو رحيل قافلة الحج أو فى الموالد • وحين كانت تنظم صلوات عامة بسبب انخفاض ملحوظ فى فيضان النيل ، (صلاة الاستسقاء : المترجم) اعتاد الأشراف أن يخرجوا فى مسيرة الى جامع عمرو بن العاص القديم ، حاملين معهم عباءة النبى ﷺ (٢٧) • ويصفهم افليا شلبى كجماعة ، فكان بعضهم يمتطى الخيل ، والبعض يكون راجلا ، والجميع يرتدون ملابس محتشمة مجرد عباءات خضراء (٢٨) •

ويعطى مبارك ، فى القرن التاسع عشر ، وصفا حيا للأشراف وهم يسيرون أثناء أحد الموالد فى منفلوط (٢٩) •

ويروى م• دى تشابرول M. De Chabrol ، حين كان يكتب فى بداية القرن التاسع عشر ، أن الأشراف يتمتعون عادة بوضـع اجتماعى رفيع ، غير أن بعضهم قد يعمل بمهن وضيعة •

ولم يكن الأشراف يحـاكمون سوى أمـام نقيب الأشراف وكانوا يوضعون فى زنزانة منفصلة • حتى حين كان أحد الأشراف يتم اعدامه ، كان يلقى معاملة أفضل من تلك التى يتلقاها مسلم من عامة المسلمين(٣٠)• ومع أن الأشراف لم يكونوا يتمتعون بحصانة ضد العقاب البدنى ، الا ان الرأى العـــام اعتاد أن يستجيب بغضب حين كانت تســاء معاملتهم أو يتعرضون للعقاب القاسى (٣١) •

وكان الأشراف فى الازمنة العثمانية طبقه ذات شأن اجتماعى : اذ يروى افليـــا شلبى أن ٤٦٫٠٠٠ من الأشراف كانوا تحت السلطه القضائية لنقيب الأشراف (٣٢) واذا كانت أرقام افليا (شلبى) متضخمه بشكل شنيع ، الا أنه لا شك فى أن الأشراف كان عددهم كبيرا • اذ يكفى

ان نلاحظ أن الكثير من العرب المستقرين والرحل كانوا من أصل عربى ادعوا انتسابهم للأشراف وبالمثل ، فان جزءا لا يستهان به من سكان المدن اشتملوا على أشراف • ومن الجدير ملاحظته ان الأوامر الرسمية الموجهة الى الجمهور كانت توجه الى طبقات المجتمع المدنى الأساسية الثلاث : العسكرية ، والأشراف والرعية أو أبناء البلد (٣٣) •

ولقد كان الانتساب الى الأشراف يسبغ تميزا اجتماعيا وامتيازا ، كما أشارت المصادر الى ذلك مرات عديدة ، وكما لاحظ الأجانب • فعلى سبيل المثال ، هناك فرمان عثمانى لعام ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م يؤكد على أن أحد صغار موظفى الدولة كان قد خطفه قراصنة مسيحيون هو من بين الأشراف حقا ؛ ويبدو أن السلطات المصرية أقنعت اسطنبول بأن تفديه بمبلغ باهظ من المال وأن تستبدله بثلاثة من المسيحيين الأسرى فى مصر (٣٤) • ويبدو من المؤكد أن مكانة الأشراف فى مصر قد قويت وتعاظمت أثناء الحقبة العثمانية بالمقارنة مع أيام المماليك • وهذا التغير يتوازى مع نهضة معتقدات المصريين الاسلامية فى مصر العثمانية وفى غيرها من البلاد • ويبدو لنا ، من واقع المعلومات المتاحة والشحيحة نوعا ما فيما يتعلق بأوائل الحقبة العثمانية أن الأشراف كانوا جماعة مترابطة • اذ يروى أنه فى عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ ـ ١٦٦٩ م هاجم حاكم المنصورة قرية مينبول(؟) فى مديرية الدقهلية (*) ، وخرب القرية وقتل خمسة عشر من سكانها ، كانت غالبيتهم من الأشراف • فشكا الأشراف لديوان مصر ، وعرضت القضية على قاضى عسكر الذى حكم على الحاكم بالموت • ومع الوقت ، تم الوصول الى حل توفيقى ، وذلك بتعويض الأشراف بمبلغ ٣٠٫٠٠٠ نصف (٣٥) •

وثمة مواجهة حدثت عام ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م تعد مثالا على الاستقلال الشديد الذى كان ينعم به الأشراف • ففى ذلك العام ، تلقى عبد الله أفندى ، قاضى القدس ، أمرا بأن يذهب للتفتيش على الأشراف ، ربما فى تحقيق يتعلق بمخصصاتهم • فاحتج الأشراف احتجاجا عنيفا ، مدعين أن

(*) لم نستدل عليها في المعجم الجغرافي للبلاد المصرية ـ (المراجع) •

تفتيشا كهذا أمر لا سابقة له • فذهبوا الى الجامع الأزهر وحصلوا على فتوى من العلماء تقول بأن أخذ أموال الأشراف فعل غير شرعى • ثم ذهب الأشراف الغاضبون الى الديوان للاحتجـاج : فلما لم يستجب لمطالبهم فورا ، نزلوا الى المدينة للتظاهر ، وأجبروا النـاس على غلق محالهم ، وساروا نحو الأزهر • وهناك أخذوا البيرق النبوى من المسجد الحسينى ورفعوه فوق مئذنة الأزهر • وأخيرا ، ألغى الباشا التفتيش ، وفر قاضى القدس سيىء الطالع (٣٦) •

وفى حادث آخر ، عـام ١٦٥٩ ، يوصـف الأشراف بأنهم جهاز عسكرى ، يتألف من الفرسان والمشاة اشتركوا فى حملة لقمع حاكم متمرد فى جرجا ، عاصمة الصعيد •

وفى العرض العسـكرى ، كان نقيب الأشراف يسـير مع قاضى عسكر (٣٧) • ويصف نفس المصدر حادثة فى ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م تورط فيها أشراف وبدو سمالوط • تلقى هذه الحادثة ضـوءا على عسـكرية الأشراف وتكبرهم • اذ قتـل الأمير عبد الله بن وافى ، شـيخ عرب المغاربة أحـد الأشراف ، هو السيد محمد • ولم ينجح الأشراف فى أن يثأروا لدمه ؛ وبعد ذلك أعطى شيخ البدو ضريبة الأراضى فى تلك المنطقة وتصالح مع السيد هدية ، زعيم الأشراف ، وتقاسم معه الضرائب • ومن أجل تقوية الحلف ، أراد زعيم البدو أن يزوج ابنـه من ابنـة الشريف القتيل • وحين استشار هدية عم الابنة وأبناء عمها قالوا : « حتى لو قتل آخر رجل منا فلا نوافق على زواج شريفة علوية من بدوى ليس له أى أصل نبيل ، وبالاضافة الى ذلك قتل أباها » • وبعد أن قرروا الانتقام لحادث القتل ، قتل الأشراف الشيخ عبد الله ، حين حضر الى منزل العم ، كما قتلوا بدوا محليين آخرين (٣٨) •

لقد اعتبر الأشراف أيضا عنـاصر غيـورة ذات خطر محتمل على الأهالى • ففى عام ١٧٠٣ م ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة يمارس ضغطا على الباشا كى يعزل أغا الانكشارية ، الذى ضرب تاجرا فرنسيا ضربا مبرحا ، بوصفه رئيس الشرطة ، وحدث ذلك فى وسط الشارع لارتدائه عمامة بيضاء يفترض أنها مقصورة على المسلمين • وكتب القنصل

الى حكومتـه أن عزل الأغا سـيؤدى بالجيش والأشراف والعلمـاء للجوء للعنف • وبخصوص الحادثة نفسها ، تم توضيح أن الرأى العام الاسلامى لن يتسامح فى عزل الأغا صاحب النفوذ ، الذى أعدم بعض الأشراف ، لمجرد ضربهم لأحد المسيحيين (٣٩) • وفى ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ أو ١٧٠١ م ، قتل جندى من كتيبة العزاب أحد الأشراف أثناء شجار فى احدى الأسواق• فأمر الباشا بشنق الجانى ، غير أن دهماء القاهرة والعديد من الأشراف أمسكوا بالجندى من الضـــابط الذى كان يأخـذه الى السجن وقتلوه بلا محاكمة ثم أحرقوا الجثة فى الميدان تحت القلعة (٤٠) • وفى حادثة مماثلة فى سنة ١٧١٢ ، قتل أحد المماليك شريفا ، فى شجار فى أسواق القاهرة ثم فر ، فوضع الأشراف الجثة فى تابوت ، وذهبوا الى الديوان ، وأثبتوا أنه قد تم ارتكاب جريمة قتل • ثم أوقفوا السوق ، وذلك بالقاء الحجارة على أصحاب الحوانيت الذين لم يغلقوا محالهم بالسرعة الكافية ضاربين كل من قابلوه ، بمن فى ذلك الأمراء • واستمر هذا الحال لمدة يومين • كذلك استدعوا الأشراف من القرى المتاخمة للقاهرة كى يتجمعوا فى المسجد الحسينى • وبعد أن حمل الأشراف « البيرق النبوى » سار الأشراف الى منزل الدفتردار قايتاس بك ، حيث تقاتلوا مع مماليكه • ثم قرر الأمراء نفى جماعة من قادة الأشراف ، غير أنهم اضطروا الى العفو عنهم بعد أن توسط عدة مشايخ وعلماء • بعد ذلك ، اعتبر الأشراف أنه من الحكمة ارتداء عباءات بيضاء بدلا من العباءات الخضراء (٤١) •

ان الأحداث التى سبق ذكرها تظهر تضامن الأشراف بشكل قوى ، كما تظهر حساسيتهم لتعدى الحكام على حقوقهـم ، كمـا تظهر نفوذهم فى المجتمع القاهرى ، والتأييد الذى يلقونه من العلماء •

ويروى الجبرتى صـــداما بين الأشراف وحاكم مديريتى الغربية والمنصورة أثناء مولد أحمد البدوى فى طنطــا ، فى جمادى الآخرة عام ١٢٠٠ هـ الموافق لأبريل ١٧٨٦ • تبين هذه الرواية استعداد الأشراف لتحدى الحكام • اذ تمت مصـــادرة جمال العديد من الأشراف (الذين ربما كانوا من البدو) وذلك لأن أصحاب هذه الجمال رفضوا دفع الضريبة الخاصة المفروضة على بيع الجمال أثناء المولد • فأيد ذلك الكثير من المشاركين

فى المولد بمن فيهم العالم الشهير الشيخ دردير ، ونجم عن ذلك شجار بين الجمهور وعسكر الحاكم (٤٢) ٠

ومن بين الفروق الملحوظة فى تركيبة الأشراف أثناء حقبة العثمانيين بالمقارنة بحقبة المماليك هو أن بعض أعضاء الطبقة الحاكمة هم الآن من الأشراف ٠ أما فى حقبة المماليك ، فلم يكن فى استطاعة أى سلطان أو أمير أو جندى أن يكون شريفا لسبب بسيط هو أن المملوك نظريا وفعليا هو ابن لوالدين غير مسلمين كما أنه قد ولد خارج حدود الاسلام الجغرافية ٠ وفى الحقبة العثمانية ، لم تعد الطبقة الحاكمة مقصورة على المماليك فحسب ٠ رغم أن المماليك ، بعد ذلك ، فى نهاية الأمر أصبحوا حكام مصر مرة أخرى تحت السيادة العثمانية ٠

تذكر الحوليات أسماء العديد من الباشوات والضباط الأتراك الذين يطلق عليهم لقب سيد أو شريف ، كانوا أشرافا وخدموا فى مصر (٤٣) ٠ وكان أحد حكام مصر من أصل فارسى هو الشريف محمد باشا ، (حكم ١٠٠٤ ـ ١٠٠٦ هـ/١٥٩٦ ـ ١٥٩٨ م) وهو الذى أصدر مرسوما بوجوب ارتداء الأشراف المصريين عباءة خضراء بدلا من الشارة الخضراء فوق عباءاتهم ٠ اذ لابد أنه كان حريصا على التأكيد على الفوارق الاجتماعية، لأنه أجبر اليهود أيضا على ارتداء قلانس حمراء بغرض اذلالهم وتمسك بحزم بالحدود المفروضة على أولاد البلد (٤٤) ٠

قصارى القول ، بالرغم من أن المعلومات المتاحة عن الأشراف فى مصر العثمانية ليست شديدة الغزارة ، الا أننا نعرف المزيد عن هذه الطبقة الاجتماعية فى القرن التاسع عشر بشكل أفضل ، ويرجع الفضل فى ذلك الى موسوعة على مبارك الشاملة (٤٥) ٠

وعموما ، يجب التأكيد على أن المعلومات الخاصة بالسلطنة المملوكية (التى تعد المصادر التاريخية أكثر ثراء بالنسبة لها وأكثر تعددا من الحقبة العثمانية) تظل مع ذلك أكثر فقرا ٠ فالمرء يحدث لديه الانطباع بأن مكانة الأشراف الاجتماعية ، وتضامنهم وأحوالهم الاقتصادية قد تحسنت الى حد كبير أثناء الحقبة العثمانية ، آخذين فى الاعتبار معظم المعلومات الهامة ـ بخصوص هذا الموضوع ـ المتعلقة بالقرن السابع عشر وما تلاه ٠

ولا تعد هذه المعلومات مثار مفاجأة ؛ ذلك أن ضعف قبضة الحكومة العثمانية قرب نهاية القرن السادس عشر وما تبع ذلك من قلاقل سياسية قوى من شوكة العناصر المحلية ، كما بينا • فهذه العناصر ، بما فيها الأشراف ، قد عاشت فترة المماليك ، غير أن النظام القوى المتسلط فى ذلك الزمان كبح من حريتهم الى حد كبير أكثر مما حدث أثناء الحكم العثمانى • ومع كل ، فان النظام المركزى الذى أقامه محمد على بالاضافة الى حركة التحديث التى بدأت فى القرن التاسع عشر ، أدت الى تدهور تدريجى لهذه العناصر • ذلك أن الأحداث التى اشترك فيها الأشراف توحى بقوة بأن ما كانوا يتمتعون به من ترابط وما كانوا يتسمون به من تأكيد الذات ، لم يكن سوى تعبير عبر به المصريون عن كرامتهم ومعارضتهم للظلم الذى كان الجند الأتراك يمارسونه •

نقيب الأشراف

الفتح العثمانى لمصر والسنوات الأولى للحكم العثمانى :

كان نقيب الأشراف بمثابة المسئول الذى تعينه الحكومة للاشراف على الأشراف • ويشتق لفظ نقيب من مادة نقب التى تعنى بحث وحقق فكان من واجبه أن يفحص أصل المدعين بأحقيتهم بمكانة الشريف وأن يمنع الدخلاء من أن تدرج أسماؤهم فى سجل الأشراف ، حتى لا يستمتعوا بتخفيضات الضرائب التى تصحب ذلك وحتى لا يتلقوا مخصصات ليست من حقهم •

وقد تم ايجاد هذا المنصب أثناء الحقبة العباسية • وكان الفاطميون يطلقون على المتقدمين لهذا المنصب اسم نقيب الطالبيين أو العلويين ، أما لقب نقيب الأشراف فظهر أول ما ظهر أثناء حقبة المماليك •

لقد كان شاغلو هذا المنصب تحت حكم العباسيين والفاطميين من أرباب السيوف تمييزا لهم عن الموظفين الاداريين والدينيين (أرباب القلم) • أما فى السلطنة المملوكية ، فكان نقيب الأشراف يقوم بوظيفة دينية • ورغم أنه كان له الحق فى أن يعتبر (من أرباب السيف) الا أنه كان ينظر اليه تقليديا على أنه «رجل قلم» ويرتدي عباءة كعالم (٤٦) • ويبدو

أن تفسير هذا التغيير أمر بسيط ، وذلك بسبب التركيب الاجتماعى للطبقة العسكرية الحاكمة فى السلطنة المملوكية ، اذ لم يكن من المسموح لأى رجل ليس له أصل مملوكى بأن ينتمى الى أرباب السيوف ، وبالتالى الى المناصب العليا . وكما سبق أن ذكرنا ، لم يكن فى امكان أى أمير مملوكى أن يكون من الأشراف ، وبالتالى لن يكون نقيبا للأشراف .

وفى نهاية الحقبة المملوكية ، وبداية الحكم العثمانى فى مصر ، كان نقيب الأشراف يذكر بالفعل فى كتب التاريخ الحولى وحين يذكر ، فان الطريقة التى يتم بها ذلك لا تدع أى مجال للشك فى أن نفوذه محدود (٤٧) . ذلك أنه ، فى الحقبة المملوكية ، على سبيل المثال ، تذكر المصادر الخليفة العباسى ، والقضاة الأربعة ، ومن آن لآخر تذكر رؤساء الطرق الصوفية ، غير أنها لا تأتى أبدا على ذكر نقيب الأشراف ، وذلك عند وصفها للاحتفالات العامة أو مشاورات الحاكم مع الزعماء الدينيين . وبعد الفتح العثمانى بعامين ، وصل أحد الأشراف من اسطنبول ومعه أمر من السلطان يقرر أنه قد تم تعيينه نقيبا لأشراف مصر (٤٨) . ومن الجدير ذكره ، أن ابن اياس المؤرخ الحولى الذى يصف الفتح العثمانى والسنوات الخمس التى تلته ، يروى هذا التعيين الخاص كأمر واقع عادى وباقتضاب رغم أنه كان قمينا بأن ينتقد أى تعيين أو بدعة نشأت عن اسطنبول بحدة. والأكثر من ذلك ، أن حوليته التفصيلية لا تحتوى على أقل دليل يوحى بأن هذا التعيين قد لاقى أى نوع من المعارضة من جانب العناصر المحلية ، وهذا على النقيض الشديد مما حدث فى الفترة العثمانية بعد ذلك (٤٩) .

وكان المنصب نادرا ما يذكر أثناء السنوات الأولى للحكم العثمانى فى المصادر ، وهو أمر يثير العجب ، مع شح المصادر التاريخية ، التى تناولت مصر فى القرن السادس عشر (٥٠) . وعموما ، هناك ملحوظة قصيرة فى حولية الدياربكرى تتحدث عن تمرد أحمد باشا عام ١٥٢٣ . اذ رشح الباشا شخصا يدعى فهد الدين المحلى . وكان هذا الشخص يتكسب من بيع الوسادات والحواشى . وأثار هذا التعيين لتاجر قاهرى لا اهمية له دهشة أهالى القاهرة ، ويبدو أن هذا التعيين كان يقصد منه اضعاف نفوذ اسطنبول فى مصر (٥١) .

نقيب الأشراف كموظف عثماني

لا يعد منصب نقيب الأشراف مهما فى التـاريخ الاجتماعى لمصر العثمانية فحسب ؛ وانما تعكس التقلبات التى طرأت على هذا المنصب ، أيضا ، تطورات سياسية فى مصر بطريقة تذكرنا بالتغيرات التى طرأت على سلطة الباشا العثمانى نفسه • فحتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان نقيب الأشراف موظفـا تركيـا عثمانيا ، نمطيا ، شـأنه شأن الباشا أو قاضى عسكر (٥٢) • اذ كان مسئولا أمام نقيب الأشراف فى اسطنبول ، رغم أنه (شأنه شأن غيره من نقباء الأقاليم) قام بدور أكثر نفوذا الى حد ما فى شئون القاهرة أكبر مما قام به رئيس النقباء فى العاصمة •

وكان التعيين محدودا بعام واحد مع امكانية التجديد ، ومثله مثل كبار المسئولين ، كان على نقيب الأشراف أن يدفع ثمنا كبيرا من أجل المنصب ويرسل هبة سنوية لاسطنبول (٥٣) •

وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، كان النقيب يحاكم الأشراف (٥٤)• فى كل شيء عدا القضايا الكبرى (٥٥) غير أنه فقد هذه السلطة تحت حكم محمد على (٥٦) • واحتفظ النقيب ومندوبوه فى البلدة بجداول العائلات التى كانت هناك حاجة لها لتحديد أصل من يدعون نسبا شريفا (٥٧) • كما كانوا يرتبون دفع المخصصات المستحقة لهم (٥٨) •

وكان نقيب الأشراف يشارك فى احتفالات مختلفة مثل فتح سـد الترعة عند ارتفاع الفيضان ، أو موكب كسوة الكعبة (٥٩) • وكان يعنى بأن يشارك الأشراف فى الاحتفالات ، مثل موكب المحمل (٦٠) • وكذلك كان يتخذ المبادأة فى الأنشطة الدينية ، مثل اصـلاح المساجد ، وبناء مساجد للدراويش (٦١) •

وكان نقيب الأشراف يساعده عدد من المعاونين والكتبة ، بمن فى ذلك شاويشية ، يرأسهم باش شاويش (أو باش جاويش) الشرف ، وكاتب (خطيب) وهو منصب محتـرم يبـــدو أنه وراثي في عائلات

معينة (٦٢) · وبالاضافة الى نقيب أشراف مصر ، كان هناك أيضا نقباء محليون مسئولون عن احدى المدن أو المناطق · وهكذا ، يذكر أحد المصادر نقيب أشراف مدينـة طهطـا (٦٣) · ونقيب الأشراف فى مديـرية أسيوط (٦٤) ، ونقيب منفلوط ، الذى كان منصبه وراثيا داخل عائلة واحدة (٦٥) ، ونقيب أشراف بلدة أبيـار ، بالاضافة الى نقابات أشراف المنوفية (٦٦) ·

ومع مقدم القرن السابع عشر ، صار نقيب الأشراف واحدا من علية القوم البارزين ، وكان يلاحظ حضوره كثيرا الى الديوان · ومن آن لآخر ، كان يذكر كواحد من المرموقين الذين يحاولون التفاوض على اقامة هدنة بين فصائل المماليك المتحاربة (٦٧) · وحين خلع الكبراء موسى باشا من أجـل اغتيال قايتـاز بك Qaytas Bey فى يوليو ١٦٣١ ، كان نقيب الأشراف هو الذى وضع خلعة الشرف على الأمير الذى تم ترشيحه مندوبا للباشا (٦٨) ·

فى عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م ، انضم نقيب الأشراف برهان الدين أفندى الى قاضى عسكر فى اصدار فتوى أعلنت أن محمد بك ، حاكم جرجا ، متمرد ، وصادق على حملة ضده ، اشترك فيها النقيب (٦٩) · وفى عام ١٢١١ هـ / ١٧٠٩ م ، توفى نقيب الأشراف السيد حسن أفندى· وكان آخر سلسلة فى احدى العـائلات استولت على المنصب لأجيال عدة (٧٠) · ويقدم افليا (شلبى) بعض المعلومات عن هذه العائلة ، التى خدمت كنقباء للأشراف فى مصر حـوالى قـرن ، وخاصـة معلومات عن برهان الدين أفندى ، الذى سبق ذكره ، وتوفى عام ١٦٧٥ ·

وكان برهان الدين شخصا تركيا ولد فى مديرية حامد بالأناضول ، ودرس فى مدرسـة السليمانية الشـهيرة فى اسطنبول · ويوصـف برهان الدين باعتباره رجلا كريما ثريا تحكم فى عدة مؤسسات للوقف وكانت له عوائد من ضرائب أراض ، كان بعضـها يتكون مـن قـرى كاملة (٧١) · وحسب الاجراء العثمانى المعتاد ، كان يتم تعيين مندوب مصرى محل النقيب المتوفى وحين وصـل النقيب الجديد من اسطنبول ، بعد ذلك بحوالى عام ، قضى الليلة فى منزل باش جاويش الأشراف حيث

قتل أثناء نومه · ثم عرض المنصب على المندوب ، فرفضه · وأخيرا تم ترشيح ضابط عثمانى سابق ، نائب قائد ، كتخدا كتيبة العزاب (٧٢) · ويذكر أحد المؤرخين الحوليين الأتراك ، فى روايته لنفس القصة أن جميع الأشراف أيدوا هذا التعيين (٧٣) ·

نقل المنصب الى أعيان محليين

أثناء النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، انتقل منصب النقيب الى عائلتين قاهريتين بارزتين ، السادات الوفائية (أو بنو السادات) ، والبكرى ، وكلتاهما عائلة صوفية قديمة ، ومن بين أكثر العائلات احتراما وثراء فى مصر (٧٤) · اذ ادعت عائلة البكرى الصديقى النسب الى أبى بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، والى الحسن بن على بن أبى طالب ، وبذلك جعلوا العائلة واحدة من عائلات الأشراف (٧٥) · وحسب تراث العائلة ، فانها وصلت الى مصر فى القرن الأول الهجرى ، أو القرن السادس على أبعد تقدير (٧٦) · وفى أى من الحالات يمكن ارجاع أصلهم اليه كعائلة متصوفة مرموقة فى القاهرة فقط فى القرن التاسع عشر ، حين أشير الى محمد جلال الدين البكرى (المتوفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) كقاض بالفيوم · فأقام الوشائج مع المتصوف المتجول الشهير الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وأشرف على شئونه ، وعلى المنازل التى بناها فى القاهرة (٧٧) ·

وفى أوائل الحقبة العثمانية ، كان البكرية شاذلية ، ولكن فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، أصبحوا مرتبطين بالطريقة الخلوتية عن طريق الشيخ مصطفى البكرى الدمشقى (المتوفى سنة ١٧٤٩) (٧٨) ·

وزعمت عائلة السادات الوفائية نسبها الى العائلة المالكة الادريسية فى المغرب ، وكانوا ، مثل البكرية ، أشرافا من نسل الحسن بن على بن أبى طالب · وحسب تراث العائلة ، فانهم حضروا الى مصر من تونس ، وصفاقس فى بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٧٩) · وأنشأوا طريقة صوفية ، كانت أحد أفرع الشاذلية · وكان الوفائية معروفين بثروتهم وشعرائهم وتجمعاتهم ، حيث كان المتصوفة يعزفون على

الآلات الموسيقية ، رغم ما كان يحدثه هذا من ضيق المسلمين السنة (٨٠) ٠ وقام رأس العائلة الشيخ السادات (المعروف أيضا بلقب شيخ السجادة أو خليفة الوفائية) فى القرن الثامن عشر كعنصر توازن للشيخ البكرى، رغم أن الأخير كان يتمتع بمكانة اجتماعية ودينية أكثر رفعة (٨١) ٠ اذ كان الشيخ البكرى مسئولا عن مولد النبى ، بينما كان الشيخ السادات مسئولا عن المولد الحسينى ، وهو الثانى من حيث الأهمية (٨٢) ٠ كما أشرف السادات على وقف المسجد الحسينى (٨٣) ٠ بالاضافة الى ما كان البكرية والوفائية يمتلكونه من أراض الى جانب دخولهم كمشرفين على الأوقاف ، وكان البكرية والوفائية بالاضافة لهذا يتلقون مخصصات حكومية (٨٤) ٠

من الأمور الهامة أنه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، انتقل منصب نقيب الأشراف الى العائلات المحلية التى تحتل مكانا رفيعا فى البناء الهرمى لمتصوفة القاهرة ٠ فقوى هذا التغيير من المنصب ، الذى لم يرتبط أبدا من قبل بالمتصوفة ، وكان هذا مزامنا (مواكبا) للانهيار الذى حدث لنفوذ الحكومة المركزية فى مصر ٠

لقد سبق أن ذكرنا زيادة نفوذ الأشراف فى الحقبة العثمانية ، غير أنه بعد أن حصل الوفائية والبكرية على منصب النقيب ، فاق النفوذ السياسى والاجتماعى الذى تمتع به صاحب المنصب ما كان للأشراف (من قبل) الى حد بعيد ٠ وتقدم المصادر معلومات أكثر بكثير عن النقيب مما تقدمه عن الأشراف (قبل أن يكون لهم نقيب) ، اذ لم يعد منصب النقيب مقصورا على الجانب الادارى ؛ بل انه تمتع أيضا بامتيازات اجتماعية ودينية ٠

وكان أول وفائى (مصرى) يعين نقيبا للأشراف هو رأس العائلة ، السيد محمد أبو الهادى (توفى سنة ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ م) (٨٥) وبعد وفاته ، عين قريبه السيد أحمد بن اسماعيل أبو الامداد (بكسر الهمزة) لخلافته (١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م) ٠ وبعد ذلك بثمانى سنوات ، حين صار رئيس العائلة الوفائية ، رفض منصب سيدى محمد البكرى أول من تولى المنصب (٨٦) ٠ وتشير ملحوظات الجبرتى عن الوفائية الأوائل الذين تولوا

المنصب بأنه لم ينتقل بطريقة تلقائية لرأس العائلة وكان يعد أقل أهمية من زعامة العائلة والطريقة الصوفية • كان محمد أفندى (الأب) أيضا رأس العائلة وعند وفاته عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م ، ورث محمد أفندى البكرى الصغير (الابن) المنصبين • ويشير الجبرتى ، أن تعيين البكرى الصغير أعلن عنه مراد بك ، الذى خلع عليه ثوبا رسميا للمنصبين معا (٨٧) • ولم يعد التعيين من اسطنبول أمرا ضروريا ، وبدا الانتقال الوراثى للمنصب فى العائلة البكرية اجراء طبيعيا لا يتطلب سوى الموافقة الرسمية من قبل حاكم مصر (٨٨) •

عمـر مكرم

انفصل المنصبان : نقابة الأشراف ورئاسة العائلة (الخلافة) مرة أخرى ، حين توفى محمد البكرى الصغير بلا وريث فى عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م • ورشح وريثه خليل البكرى رأسا للعائلة فقط ودفع مراد بك وابراهيم بك ، وهما المملوكان اللذان كانا حاكمى مصر الفعليين ، دينا سياسيا بتعيين عمر مكرم ، وهو من أبناء أسيوط ، نقيبا للأشراف (٨٩) ، فحين كان البكوان الاثنان منفيين فى الصعيد ساندهما عمر مكرم ، وأدى بنجاح مهمة دبلوماسية بالنيابة عنهما لدى الباشا العثمانى ولدى شيخ البلد (أكبر أمراء المماليك نفوذا فى القاهرة) ولدى كبار العلماء فى ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م ، مما مهد الطريق لعودتهما الى القاهرة وأدى فى النهاية الى استيلائهما على السلطة (٩٠) •

لقد كان تعيين عمر مكرم نقيبا للأشراف أمرا غير عادى ، باعتباره كان غريبا دون صلات عائلية أو اجتماعية فى القاهرة (٩١) • كما لم يكن متصوفا أو عالما • ومع أن عمر مكرم حصل على موقعه من خلال الأمراء ، الا أنه أثبت استقلاله • ففى عام ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ، وقف مع الشيخ البكرى والشيخ السادات ضد مراد بك وابراهيم بك مطالبين أن يمنعوا العسف الذى يقترفه الكثير من أمراء المماليك ضد سكان احدى القرى كانت ضمن حسبة الشيخ الشرقاوى ، وهو أحد علماء الأزهر البارزين (٩٢) •

وفى وقت فتح بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ ، رفض عمر مكرم أن يظل فى منصبه ، وذهب للمنفى فى فلسطين • فعين الفرنسيون محله خليل البكرى ، وهو اختيار طبيعى ، لأن خليلا تعاون معهم ـ على العكس من عمر مكرم والشيخ السادات ـ ونتيجة لموقف خليل هذا ، نهب منزله ، بعد ذلك ، وتم اعدام ابنته لاتصالاتها مع الغازين •

ومع عودة الحكم العثماني لمصر ، خلع خليل البكرى من منصبه(٩٣)• ان نشاط عمر مكرم كزعيم شعبى للتمرد على الفرنسيين ، واسهامه الحرج فى تعيين محمد على واليا على مصر ، وكذلك زعامته لمعارضة الغزو البريطاني فى عام ١٨٠٧ ، كلها أمور معروفة تماما ولسنا بحاجة الى تكرارها هنا • ومع ذلك ، يجب التأكيد فى هـذا المجال ، على أن فراغا سياسيا قد طرأ فى الفترة المضطربة بين الجلاء الفرنسى وتدعيم أركان حكم محمد على •

وأثبت عمر مكرم أنه زعيم شعبى من طراز جديد استمد سلطته مباشرة من الأهالى • وكانت سيطرته على المدينة سيطرة تامة (٩٤) •

ولا شك فى أن زعامتـــه صــارت ممكنة بفضل قوة شخصيته وشجاعته • ومع ذلك ، يمكن للمرء أن يفترض أنه بدون منصبه لم يكن له أن يصل الى الموقع الذى جلب له هذا النفوذ • اذ تجب ملاحظة أن نقابة الأشراف كانت الوضع الادارى الرفيع الوحيــد الذى وصــل اليه المصريون •

وبمجرد أن اكتشف عمر مكرم أنه تسبب فى صعود طاغية ، انقلب على محمــد على ، الذى كان يخشى من ســيطرة عمر مكرم التـــامة على الأهالى (٩٥) • ولما فشل الباشا فى رشوته ، قرر عزله • فبتحريض من محمد على ، كتب العلماء عريضة الى اسطنبول متهمين عمر مكرم بأنه قد شطب من السجلات أسماء أشراف يستحقون المعاشات ، وبابدال أقباط ويهود اعتنقوا الاسلام • كذلك اتهم بتجميع العصابات من المغاربة حوله ، وأهالى الصعيد ، والدهماء وكذلك حث الأمراء المصريين على التمرد ضد الحكم العثمانى (٩٦) • ويعتقد الجبرتى أن هذه الاتهامات باطلة ، وأن العلماء وقعوا على العريضـــة من قبيل الخوف من الباشا وغيرتهم من عمر مكرم •

ان الاتهامات ضد عمر بأنه كان يختلط بالعناصر الدنيا يبدو أنها تعكس أسلوب زعامته التى لم تكن قائمة على العناصر الاجتماعية المحافظة٠

وفى عام ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م ، تم عزل عمر مكرم من منصب نقيب الأشراف ونفى الى دمياط ٠ وانتقل المنصب الى شيخ السادات الوفائية ، الشيخ محمد أبـو الأنوار ابن عبد الرحمن ، وهو رجـل طامح طموحا كبيرا ، اذ كان يتلهف للاستيلاء على هذا المنصب منذ وقت طويل ٠

وصار المنصب ، تحت حكم محمد على ، حكرا على البكرية وظل كذلك حتى منتصف القرن ٠ فتولى الشيخ البكرى ثلاثة مناصب فى آن واحد : رأس العائلة البكرية ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر ـ وهو منصب أوجده محمد على لكى يجعل رقابته على الطرق مركزية ـ ومنصب نقيب الأشراف ، المنصب الذى أصبح أقل أهمية من منصب شيخ الطرق الصوفية (٩٧) ٠

وفى القرن التاسع عشر ، تحددت سلطة نقيب الأشراف مرة أخرى بالاشراف على شئون الأشراف ٠ وابتداء من حكم محمد على حتى قلب الأسرة الحاكمة فى عام ١٩٥٢ ، ظل البكرية مرتبطين به ٠ فتزاوجوا من عائلة السادات ، وحسب شهادة محمد توفيق البكرى ، اندمجت العائلتان، وذلك بأن أصبح الشيخ البكرى شيخ السادات أيضا نحو نهاية القرن التاسع عشر (٩٨) ٠

وقصـارى القول ، فان التقلبات التى طرأت على منصـب نقيب الأشراف فى مصر العثمانية لم تكن تقلبات عادية ، حتى اذا ما نظر المرء فى التغيرات التى شكلت أهل النخبة السياسية والاجتماعية فى هذه البلاد ٠ ذلك أن المنصب يبين بكل جلاء صعود أرستقراطية أصيلة من أهل البلد فى القرن الثامن عشر ، وكذلك أثرها المتنامى على حياة مصر السياسية والاجتماعية ٠ كمـا يبين تقوية الطرق الصـوفية ، الذى أوضحناه فى الفصل الخامس ٠

الفصـل الثـامن

الذميون : اليهـود والمسيحيون

الفتح العثمانى والذميون

لابد أن يشتمل أى مسح للأقليـات فى مصر العثمانية مجتمعى الأقباط واليهود مع مزيد من التركيز على المجتمع الأول ، ربما لأنه أكبر بكثير من الثانى (١) • غير أنه بما أن المصادر تقدم معلومات أوفى بكثير عن اليهود ، فان هذا الفصل سوف يتناولهم بمزيد من التفصيل • ان الاهتمام غير المتناسب الذى توليه المصادر لليهود بالمقارنة بالأقباط ، ربما يرجع الى المواقع الرفيعة التى حصل عليها بعض اليهود فى الادارة المالية فى مصر العثمانية • ولا يعنى ذلك ، على أية حال ، أن المصادر ثرية ، بصفة خاصة فيما يتعلق باليهود • وتقدم مواد المحفوظات (الأرشيف) والحوليات مجرد معلومات شحيحة متقطعة عن الذميين بالمقارنة مع غيرهم من العناصر فى المجتمع المصرى ، مثل الطبقة الحاكمة أو العلماء •

وثمة كلمة احترازية أخرى لها علاقة بهذا الأمر • ذلك أن كلا من الوثائق الرسمية ، مثل الفرمانات ، والحوليات كثيرا ما تذكر الذميين فى سياق سلبى واحد ، فمثلا حين يتهم وكيل مالى يهودى أو مسيحى بمعاملات تتسم بالتزوير ، أو حين يثير المسلمون الشغب ضد الذميين • بما أن المصادر قد تذكر مسئولين ذميين أمناء فى النادر ، أو تتحدث عن علاقات يسودها السلام بين المسلمين والذميين ، فان الصورة التى تظهر قد تكون أكثر قتامة عما كانت فى الواقع • وعلى وجه العموم ، فان الفتح العثمانى

قد حسن من ظروف الجالية اليهودية · ذلك أن الحكم المملوكى كان حكما طاغيا ، ومستغلا وتعسفيا يميل الى ظلم الأقليات الدينية · اذ ارتفعت وتيرة أخذ الأموال عنوة ، وتدمير دور العبادة الخاصة بأهل الذمة وغير ذلك من أشـكال الاضطهاد · فمثل هذا النظـام ، كان بالاضـافة الى ذلك (يسترشد بالاسلام السنى روحيا ، اذ شغل العلماء مكانا رفيعا ونفوذا فى السلطنة المملوكيـة) ، مما جعله يشكل عبئا ثقيلا بالنسبة للأقليات الدينية · كما خلقت المتاعب الاقتصـادية وكذلك الاحساس بانعدام الأمن العسكرى أثناء العقود الأخيرة للسلطنة بانعدام الأمن لدى الذميين (٢) · وبالمقـارنة مع ذلك ، كان العثمانيون ، فى القـرن السادس عشر ، فى قمة سلطتهم · فبالنسبة لمصر ، كانت حقبة سليمان القانونى ، تتسم بالحكم الحازم ، الواثق من نفسه ، المنظم الكفء الذى يتمتع بوعى اقتصادى متطور · اذ استفاد العثمانيون استفادة تامة من موارد امبراطوريتهم المادية والبشرية ، بما فى ذلك ما تمتع به أبنـاء أقلياتهم من مواهب اقتصادية (٣) ·

ورغم أن الدولة العثمانية كانت دولة سنية محافظة ، الا أنها كانت برجماتية عملية ومستنيرة بالمقاييس المعاصرة · ذلك أن المعاملة العادلة ، عامة ، والتوجه النفعى المدبر أسهما فى رفاهيـة الذميين بها · فبالرغم مما قيل عن موقف اليهود العام فى السلطنة المملوكيـة ، الا أنهم قد نهضـوا فى ظـل ادارة المماليك الشركس (١٣٨٢ هـ ـ ١٥١٧ م) بالمقارنة مع فترة المماليك الأتراك أو البحرية (١٢٥٠ هـ ـ ١٣٨٢ م) · غير أنه مع نهاية القرن السادس عشر ، فان المواقع التى احتلها اليهود فى ادارة مصر المالية كانت أكثر رفعـة وأكبر نفوذا من أى مواقع كانت لهم منذ الفاطميين (٩٦٩ هـ ـ ١١٧٢ م) ·

الذميون أثناء الفترة الأولى من الحكم العثمانى

بعد فترة قصيرة من فتح السلطان سليم لمصر ، كان يهود القاهرة من بين أولئك الذين تم ترحيلهم الى اسطنبول ، بمقتضى النظام العثمانى التقليدى بالنفى الاجبـارى (السـورجون) Sürgün (٤) ، ومع أن

القاهريين اعتبروا هذا الترحيل اجراء قاسيا ، الا أنه لا يمكن اعتباره معاديا لليهود ، بل يجب النظر اليه باعتباره اعترافا عثمانيا بالمهارات الخاصة لدى الجالية اليهودية ، تماما مثل غيرهم من الجماعات الأخرى ممن تم ترحيلهم والتى كانت تتألف من التجار والحرفيين والكتبة ، أو صغار الموظفين الذين انتقاهم الفاتحون لممارسة مهاراتهم فى العاصمة العثمانية (٥) • ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ، أن اليهود كان ينظر اليهم كطبقة مهنية أكثر من النظر اليهم كأقلية دينية • وبالمثل ، فان المسيحيين الذين تم ارسالهم الى اسطنبول كانوا من موظفى الخزانة ، كما تصفهم الحولية بعناية (٦) • ففى أثناء حكم خاير بك ، أول حاكم عثمانى لمصر (١٥١٧ ـ ١٥٢٢ م) ، لم يمر وضع الذميين بأى تغيير يمكن تمييزه • اذ ان المؤرخ الحولى ينحى باللائمة على خاير بك لاعطائه ابراهيم اليهودى ، مدير ادارة سك العملة ، السلطة فى أن يأخذ «نقود المسلمين» • كما عين خاير بك رجلا مسيحيا يسمى الشيخ يونس فى منصب المدير الأول لمكاتب الدولة ؛ مما جعل المسلمين مرؤوسين لديه • من ناحية أخرى، لم يتردد خاير بك فى فرض أحكام قاسية على الموظفين اليهود والمسيحيين بدار سك العملة ، وعلى الصرافين المتهمين بتقليل قيمة العملة • لقد ضرب أحد موظفى دار السك ثم أمر باقتياده خلال شوارع القاهرة وذراعه المبتور معلق على أنفه • وفى حادثة أخرى ، تم اعدام يهودى ومسيحى بالوضع على الخازوق لافساد العملات • ولا تثبت عقوبات كهذه أن خاير بك كان ضد الذميين ، وانما هى تثبت ، بالأحرى ، قسوته ، التى كثيرا ما وجهها ضد الجناة من المسلمين أيضا (٧) • فكما سبق أن ذكرنا ، أنه فى احدى القضايا الأولى التى نظرت أمام قاض عثمانى فى القاهرة أثناء فترة خاير بك ، كسب أحد اليهود الأتراك قضية ضد أحد أمراء المماليك • ففاجأ قرار القاضى القاهريين الذين لم يعتادوا على أن يقاضى يهودى أميرا مملوكيا ، ناهيك عن أن يكسب القضية (٨) •

لقد اشترك اليهود والمسيحيون كجماعات منظمة فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة مد السلطان لفترة حكم خاير بك : اذ سار المسيحيون فى موكب حاملين شموعا مضاءة ، ولم يحضر اليهود ، فى هذه المرة ، بما أن الاحتفالات تصادفت مع يوم السبت (٩) •

وكان اليهود معرضين للخطر ، خاصة حين تكون هناك أزمة سياسية ، كتغيير في الحكومة ، أو وقوع تمرد . فحين توفي السلطان سليم عام ١٥٢٠ ، هدد الانكشارية يهود القاهرة ، زاعمين أن هناك عادة قديمة تسمح لهم بنهب حارة زويلة ، وهي حي اليهود . وحين تدخل العديد من الأمراء ، هدد الانكشارية بنهب المدينة بأكملها ، غير أنهم تراجعوا بعد استرضائهم بدفع مبلغ من المال . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، حين أصبح الجو متوترا مرة أخرى ، في القاهرة ، خبأ اليهود أقمشتهم القيمة وحصنوا حيهم (١٠) .

وأثناء الحقبة العثمانية ، ربطت المصالح المشتركة بين اليهود والانكشارية بما أن الانكشارية اكتسبوا مقاطعات باعتبارهم أكبر وأقوى الكتائب فأدارها اليهود لهم (١١) . وأثناء تمرد أحمد باشا الخاين ، صار اليهود والانكشارية ضحايا لطغيانه . وحين أمر الباشا بسك اسمه على العملة ، فر ابراهام كاسترو Castro ، رئيس دار السك الى اسطنبول كي يبلغ السلطان بخيانة الباشا . فمارس أحمد باشا ضغطا على اليهود كي يزودوه بالمال ، مهددا باعدام العديد منهم ، وطبقا لمصدر عبري ، هددهم حتى بافناء الجالية بأكملها ما لم يتم الوفاء بمطالبه الباهظة ، حين اقتحمت قوات أحمد القلعة ، قتلت الانكشارية المعسكرة هناك ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا هناك لأمور تتعلق بعملهم في المكاتب المالية (١٢) .

وأثناء تمرد أحمد باشا ، عبرت كراهية المماليك لليهود عن نفسها ، مرة أخرى ، على هيئة هجمات على الحي اليهودي ، اذا جاز لنا أن نصدق رواية المؤرخ الحولي اليهودي ، سامباري Sambari (١٣) .

وطبقا لمصدر تركي ، لم يكن المهاجمون والناهبون من المماليك الشراكسة ، وانما كانوا من قوات غير نظامية (ليفيند Levend) وزعر القاهرة فكان سقوط أحمد باشا بمثابة نجدة لليهود الذين احتفوا بنجاتهم باعتباره عيد بوريم اليهودي (١٤) (عيد يحتفل به اليهود بمناسبة نجاتهم من مذبحة كان يعد هامان لها وتقع عادة في فبراير أو مارس - قاموس

فرانكلين) : بما أن هزيمته وقعت فى مارس ، فى وقت قريب من الاحتفال بالفصح (البوريم تعنى الفصح) (١٥) ٠

وكان المماليك ، عموما ، أكثر عداء لليهود من العثمانيين ، باعتبارهم أكثر تعصبا للدين ٠ اذ ان أكثر الصعوبات التى حاقت باليهود فى الحقبة العثمانية حدثت أثناء تمردين قام بهما المماليك ضد السيادة العثمانية ــ تمرد أحمد باشا الخاين ١٥٢٣ ــ ١٥٢٤ م ــ وتمرد على بك الكبير فى ١٧٦٩ ــ ١٧٧٣ م (١٦) ٠

ان قانونى ــ نامه مصر (أو القانون الادارى الذى وضعه ابراهيم باشا، الصـــدر الأعظم ، بعد استعادة السلطان لمصر فى ١٥٢٥) ، لا يذكر اليهود بصفة خاصة ، أو المسيحيين ، غير أن هذه الوثيقة الأساسية تشتمل على فقرتين تشيران ضمنا الى الذميين ، وتقول احداهما : « ان الكشفة ، والمباشرين ، والمحتسبين وغيرهم من المسئولين كان يتبعهـم مستشارون يغرونهم بأفعـال تنتهك الشريعة وتضر بالمسلمين ٠ فيجب التوقف عن تعيين مثل هؤلاء المساعدين٠واذا نشأت حاجة بالاستعاضة عنهم بمستشارين آخرين ، فيجب أن يكونوا مسلمين متدينين ذوى قدرة » (١٧)٠ وهذا يعطى انطباعا قويا بأن المرسوم يطالب بعزل المستشارين الذميين ٠ ان هذا الأمر مطابق ، من حيث صياغته لمراسيم أخرى تأمر باشـا مصر بعزل موظفى الجمارك اليهود فى ميناءى الاسكندرية والسويس ، الذين اتهموا بالتصرف على عكس الشريعة واحلال مسلمين محلهم (١٨) ٠ ويقول فصل فى هذا القانون الآنف ذكره الذى يتعلق بالعملة : « لقد رفعت شكوى الى أعتـابنا السـامية (أى قصر السلطان فى اسطنبول) بأن الصرافين يغادرون المدينة ويذهبـون الى الريف ويتنقلون من قـرية الى أخرى ٠ وحينما يجدون ذهبـا فى حوزة أحد ، يشترونه ويحتفظون به ٠ وبعد ذلك ، حين تحتاج الحكومة الى الذهب لا يكون متاحا ، ويضطر التجـار لشرائه من الصرافين ، بأى ثمن يطلبونه مهما كان ٠ فمن الآن فصاعدا ، تحظر هذه الطريقة ٠ اذ سيمنع البكلربكية فى مصر من خلال ناظر الأموال الطرفين من الخروج الى القرى وشراء الذهب من أجل كنزه ٠ ومن يعص بعد أن أنذر فستصادر أمواله وسيكون جزاؤه عسيرا » (١٩) ٠ وهنا ،

أيضا ، لا يذكر اليهود بوضوح ولكن يجب أن يكون مفهوما أنهم كانوا عنصرا سائدا ـ بل حسب بعض المصادر كانوا الغالبية بين الصرافين ٠

وكان الكثير من اليهود ـ تقليديا ـ من تجار المعادن الثمينة (٢٠) ٠ فبعد سن القانون الآنف ذكره بحوالى ٣٠٠ سنة ، يروى الجبرتى أن هؤلاء اليهود ، الذين كانت مهمتهم تزويد دار السك بالذهب والفضة ، تم القبض عليهم وضربهم بما أن العملات الذهبية اختفت من الأسواق(٢١)٠ اذن من المحتمل جدا أن تكون الفقرة التى سبق ذكرها من القانون اشارة الى اليهود ، رغم أنه لا يمكن اثبات أنها تشير اليهم وحدهم ٠

اليهود كصرافين

بالرغم من اهمية اليهود فى التجارة ، الا أن عدد من كسب قوته منهم من العمل كصرافين ، وصياغ وجباة ضرائب ورجال مصارف ـ كلهم كانوا يقعون تحت مظلة الصرافين ـ لابد أن يكونوا أكبر بكثير من اليهود المشتغلين بالمهن الأخرى ٠ ذلك أن هذه المهنة اليهودية النمطية حددت الى مدى كبير صورتهم وعلاقتهم مع السلطات ومع غير اليهود ٠ فلم يكن جميع الصرافين من اليهود ؛ بل كان الكثير منهم من الأرمن والأقباط ، وفى القرن الثامن عشر ، كان هناك الكاثوليك الشوام الذين كانوا ينافسون اليهود بنجاح (٢٢) ، ومع ذلك ، فأثناء معظم الحقبة العثمانية ، سيطر اليهود على ادارة أمـوال الديوان ، وسك العملة كما عملوا كرجال بنـوك لدى الانكشارية والباشوات الآخرين والأمراء ٠ فلا غرو فى أن الصورة النمطية لليهود المستحوذين الحاذقين ، المألوفة من بلاد أخرى استمرت أيضا فى مصر ٠ فالتجارة فى المال والمعادن الثمينة والمجوهرات كانت تجارة رابحة ولكنها أيضا خطرة ، وحتما كانت تتسبب فى الغيرة والكراهية ٠ فالأقباط أيضا كانوا متخصصين فى المال ٠ فشأنهم شأن اليهود ، عمل الكثير منهم كصرافين ، وجباة ضرائب ٠ وثمة أوجه شبه مثيرة بين المهن والتقاليد المهنية لدى الجاليتين ٠ فكلاهما كان يستخدم لغته (القبطية والعبرية) ككتابة مقتضبة للحساب وحفظ الدفاتر (٢٣) ٠ ونشأ الفرق الرئيسى بينهم في أن اليهود كانوا من سكان المدينة ، والأقباط كانوا في غالبيتهم

من سكان الريف • وكان اليهود تعينهم الحكومة المركزية عادة ـ الباشا والديوان ـ بينما كان الأقباط نشطاء فى القرى • وبينما كان اليهود مرتبطين عادة بالانكشارية ـ وهى قوة مدنية ومركزية ـ كان الأقباط يخدمون بكوات بعينهم وكشافا ، كأمناء سر وسكرتيرين ووكلاء ماليين(٢٤) • ومع أن الحوليات تقدم معلومات عن اجراءات اتخذت ضد أفراد من اليهود كانوا فى خدمة الديوان ، كما تقدم معلومات عن اجراءات ضد اليهود والمسيحيين ، الا أن الحالة الوحيدة (قبل حكم على بك الكبير) لمحاولة ازالة جميع الصرافين اليهود ظهرت أثناء حكم أحمد باشا الدفتردار • ففى عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٦ م ، عزل هذا الباشا جميع الصرافين اليهود الذين كانوا يعملون بديوان القاهرة ، وأحل مسلمين محلهم ، بصفة رئيسية ، صرافين قدموا من الحجاز • أما تفاصيل الظروف التى أدت الى هذا القرار فالمعلومات عنها شديد الندرة ، غير أن ريمون يرى أنها كانت تستهدف الانكشارية الذين كانت لهم مصالح مشتركة مع اليهود (٢٥) • وعلى أية حال ، من الواضح أن هذه السياسة كانت قصيرة الأجل ، بما أن السلطات اكتشفت أنه لا غنى عن اليهود • وتروى الحوليات تطهير الخدمة المالية من اليهود بالديوان بألفاظ بغيضة معادية للسامية •

لقد تم تحذير الناس من لصوصية اليهود وأعمال التزوير التى يقومون بها ولقد نظف الباشا الديوان من قذارتهم • ويطلق الحولى على اليهود لفظ (شيفيت) Civit وهو لفظ تركى تحقيرى يعنى اليهودى ، أى رجل لزج بغيض كريه (٢٦) • على ضوء هذا الاتجاه ، فان وصف الصرافين اليهود الذى أطلقه افليا (شلبى) الذى لم يكن يحمل ودا للذميين أو اليهود بصفة خاصة أمر له أهميته : « ان الدفتردار مسئول عن الصراف (كبير الصرافين) وهو يهودى ، عين بدوره ، ٣٠٠ يهودى • وفوق ذلك ، لدى كل جامع ضرائب احدى الاقطاعيات صراف يهودى فى المديرية • واليهود عادة شياطين أشرار ماكرون ، غير أنهم أمناء فى مصر • فاذا حدث ، أن اكتشف أحد الجند ، عند تسلمه لراتبه ، أنه يوجد بين العملات ، ما قد قطعت حافته ، (من أجل المعدن الثمين) أو أنه وجد بينها عملات من النحاس ، ثم يقابل الصراف في طريقه فلسوف يستبدل الأخير هذه بأخرى أفضل منها (٢٧) •

لقد قال لين Lane ، وهو يكتب بعد ذلك بمائة وستين سنة قائلا : رغم أن (اليهود) حاذقون جدا فى عقد الصفقات التجارية ، الا أنهم أمناء فى الوفاء (٢٨) وحالة ياسف (وهو المتغير النطقى العثمانى ليوسف) اليهودى معروفة جيدا • وهذه الرواية يسردها ليون زافير Leon Zaphir من القنصلية الفرنسية • لما كان يوسف رئيس دار القاهرة لسك العملة بالاضافة الى كونه صرافباشى ، فلقد استدعى الى اسطنبول للتشاور معه عن الطرق والوسائل التى يقترحها لزيادة العـــائد • وعند عودته الى القـاهرة ، حيـــاه اليهود واحتفوا به وتبعوه فى موكب الى الديوان • وسرعان ما عرف الناس أن يوسف أحضر معه فرمانات امبراطورية تفرض ضرائب اضافية على البن الذى صـــار فى ذلك الوقت ، سلعة التداول الرئيسية وعلى المنازل والحوانيت • ووافق الباشا على هذه الضرائب ، غير أن التجار والأعيان الآخرين الذين عارضوها ، شكوا للأمير ، والجنود ، فطالب هؤلاء بموت يوسف • وحين كان الباشـا يحاول انقاذ مستشاره المالى ، وضعه فى التحفظ لحمايته فى القلعة • وكان الباشا ، نفســه مهددا بالخلع من منصبه غير أن الجنود شقوا طريقهم الى الداخل وقتلوا يوسف • وسحب جسده الى ميــــدان الرميلة تحت القلعة ، وقد حرقته الدهماء • فى السابع والعشرين من أبريل ، عام ١٦٩٥ (٢٩) •

فى بعض الأحيان كانت السلطات العثمانية تقتنع بأن يهودا معينين يسيئون استغلال صلتهم بدار العملة للحصول على مكاسب غير مشروعة • وفى احدى الحالات ، ١١٧٩ هـ/١٧٦٥ م ، وجهت الاتهامات الى ازاق Isaq (التغيير النطقى لاســحاق) وياسف (يوسف) ، اللذين كانا يعملان فى القسم الفنى فى دار السك (كأسط باشى ودجرماشى) وصدرت الأوامر للحاكم المصرى بفصلهما (٣٠) •

وثمة سلسلة من الفرمانات العثمانية صدرت ما بين ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م و ١١٨٠ هـ/١٧٦٦ م ، تشتمل على اتهامات شديدة اللهجة ضد يهود لم تذكر أســماؤهم يعملون مرابين (سيرمايسيس Sermayecis الذى قدم رؤوس أموال للتجار) ووكلاء الحكومة لشراء عملات أجنبية أو قديمة أو ماســحة من أجل دار السك • وتقدم الفرمانات تصرفاتهم

الغادرة وتدخلهم فى عمل دار السك على أنه السبب الرئيسى لهبوط قيمة العملة المصرية ، التى يقال انها كانت ، فى السابق ، من نوعية العملة التى كانت تسك فى اسطنبول ٠

كما أن هناك نصيبا من النقد الحاد مخصصا للمسلمين المشتركين فى الجريمة مع اليهود ، ألا وهم مسئولو دار السك الذين كان من واجبهم فحص جودة العملة ، (صاحبى ايـار) وللأمراء وخاصـة مفتشى الشرطة Walis (٣١) ٠

يجب النظر الى مثل هذه الحالات فى نسبها الحقيقية ، فمن المؤكد أنها تعكس كراهية تشعر بها بعض عناصر السكان المسلمين نحو اليهود ، غير أن المسئولين والمستشارين المتسببين فى الاجراءات المالية الجائرة كانوا غالبا ما يدفعون حياتهم ثمنا لرد فعل الجمهور الغاضب ٠ وحين كان اليهود هم الضحايا ، لم يكن ذلك دائما بسبب عقيدتهم الدينية ، بالضرورة وانما كان ذلك يرجع الى المواقع الحساسة التى كانوا يشغلونها٠ ومع ذلك ، فان دور اليهود كصرافين ومصرفيين صغار ومرابين كان أمرا حيويا ٠ وقد ظلوا يلعبون هذا الدور حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حين فقدوا هيمنتهم بسبب اضطهاد على بك ، واحلال الشوام الكاثوليك محلهم وكذلك الأقباط ٠ غير أنه ، كما يشهد لين ، وغيره من مصادر القرن التاسع عشر ، فان اليهود ظلوا صرافين نشطاء حتى فى فترة ما بعد على (٣٢) ٠

موظفو الجمارك والتجار

لما كان اليهود يمتلكون مهارات لغوية ومالية ، فقد عين الكثير منهم مديرى جمارك فى الموانى البحـــرية والنهرية ، كما عملوا فى مناصب الملتزمين أو جباة الضرائب وهى مناصب كان يشغلها الباشا نفسه أو الانكشارية مع أن اليهود كانوا ، فى بعض الأحيان يفضلون ادارة الجمارك كموظفين يتقاضون أجورا عن أن يعملوا كملتزمين (٣٣) ٠ ولم تكن جميع مصالح الجمارك تحت تحكم اليهود ؛ ذلك أن هذا المنصب كان يعطى فى بعض الأحيان للمسيحيين ٠ اذ لاحظ بوبك ، وهو يكتب ، فى أوائل القرن

الثامن عشر أن جمارك دمياط كانت عادة ما يديرها المسيحيون (٣٤) ٠ ورغم أن هذه المناصب جلبت لليهود ثروة كبيرة ، الا أنها كانت أيضا مصدر حسد وصراع بين المصالح فلا يكاد يوجد مجال للدهشة ، من أن أصحاب السفن والتجار وغيرهم من مستخدمي الموانى سواء كانوا مسلمين ، أو مسيحيين أوربيين ، وكثيرا ما كانوا يشتكون للسلطات من مسئولى الجمارك (٣٥) ٠

وفى النصف الثانى من القرن السادس ، كانت الشكاوى ترفع الى اسطنبول من شخص يدعى شموئيل كوهين (أو كاهانا) أحد أغنياء رجال مصر وأكثرهم نفوذا ، وهو الذى كان ، فى الوقت نفسه ، مديرا لدار السك ومفتش العملة (صاحب ايار) وملتزم عوائد جمارك الاسكندرية ودمياط ، وملتزم الخيار المصرى (خيارشنبر) والتوابل (٣٦) ٠

وثمة فرمان بتاريخ ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م ، موجه الى بكلربكية مصر ، مؤسس على عريضة قدمها بعض قباطنة السفن التجارية الى بيالى باشا Piyale ، الأدميرال العثمانى الشهير ، ضد كوهين ٠ كان كوهين متهما باحتجاز السفن فى المرفا مدة أطول مما يجب ، وبجمع رسوم جمركية باهظة ٠ كما أنه كان متهما بالتحرش بالنساء المسلمات العائدات الى الوطن بعد أداء فريضة الحج : حيث كان يزعم أنهن يهربن البضائع وبذلك كان يدفع بيديه فى صدورهن وآباطهن ٠ ويطلب من البكلر بك أن يعزله فورا ، اذ ثبتت صحة هذه الاتهامات ، ويحل محله مسلما كفئا متدينا ومعمما (أو ثريا) (٣٧) ٠ ومن الواضح أن هذه الوثيقة لا تتعلق فقط بالاتهامات الموجهة ضد كوهين ٠ فبينما لم يكن ليعزل دون تحقيق (وهى طريقة متكررة وجديرة بالثناء فى الفرمانات العثمانية) ، غير أنه اذا ثبتت ادانته ، لا يسند المنصب ليهودى آخر ٠

وهناك فرمان آخر صدر تقريبا فى الوقت نفسه ، أكثر وضوحا مما سبق ذكره : أمر للبكلر بك ودفتردار مصر : فى الماضى ، حين كان المسئولون والملتزمون فى جمارك السويس من المسلمين ، لم يؤخروا

الحجاج أثناء فترة الحج . لكانوا يعدون لهم السفن ، ويقدمون لهم ما يحتاجون اليه ، بحيث يؤدون الحج فى الوقت المناسب ، أما الآن ، وقد أصبح الملتزمون من اليهود ، فهم يؤخرون الحجاج بأعذار مختلفة ولا يصل المسلمون الى الحج الشريف فى الموعد المحدد . وعلاوة على ذلك، فان اليهود حين يؤخرون سفر الحجاج فهم يتسببون فى تحطم السفن فى البحر (بجعلها تبحر فى وقت تهب فيه العواصف) ومن المعروف أن الملتزمين اليهود يظلمون الحجاج ويسيئون معاملتهم ، بل والتجار والركاب بصفة عامة . « فأنا (السلطان) لذلك ، رسمت بأنه ، ابتداء من وصول هذا الأمر بألا يعين أى يهودى فى الميناء (السويس) . أن أى نقود تخص الدولة يمتلكونها يجب أن تؤخذ منهم ، وأن يحل محلهم مسلمون أكفاء متدينون جديرون بالثقة ، يعتنون بالحجاج المسلمين كما كان يحدث فى الأيام الخوالى »(٣٨) . ويمكن للمرء أن يرى أن هذا الفرمان مبنى على مزاعم ذات طبيعة دينية صرفة ، وليست اقتصادية : اذ ان السويس كانت هى الميناء الرئيسى على البحر الأحمر ولقد كانت هناك سياسة عامة فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر فى أيام صلاح الدين بألا يسمح لغير المسلمين بالوصول الى البحر الأحمر بسبب قربه من مدينتى الاسلام المقدستين (٣٩) .

ويبدو أن يكون من الممكن تتبع قضيــة شخص مثــل كوهين الى نهايتها ، طالما كانت الوثائق ذات العلاقة بها غالبا غير متوافرة . غير أننا نعرف ، على أية حال ، أن المبادرة المضادة لليهود نجحت فى هذه الحالة ، على الأقل ، لفترة وجيزة : ذلك أن كشوفا للأجور ، فيما بعد ، ببضع سنوات ، (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م) يبين أن الأمين (وهو شخص مسئول وليس ملتزما) فى ميناء السويس رجل اسمه محمد ، أى أنه ، مسلم(٤٠) .

ان غالبية الشكاوى التى كانت ترفع ضد المسئولين اليهود من موظفى الجمارك كانت ذات طبيعة اقتصادية . فمثلا ، اتهم مدير الجمارك ، فى السويس ، عام ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ، بالتآمر مع العديد من التجار لتهريب الرصاص والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن الثمينة للهند ، بالرغم من وجود حظر صارم على سلب مثل هذه المعادن (٤١) . وثمة اتهامات

مطابقة لهذا تتعلق بتحصيل رسوم جمركية باهظة وعدم تحويل الايرادات الى الخزانة (٤٢) ٠

ومن الواضح أن مسئولي الجمارك كان لهم مشـــاركون مستعدون من بين الباشوات والأمراء داخل المؤسسة العسكرية ، ممن كانوا يقتسمون معهم أرباحهم القانونية وغير القانونية (٤٣) ٠

وعلى مدى الحقبة العثمانية ، أخذت الفرمانات تردد الحظر على بيع القمح ، والأرز وغيرهما من المؤن للتجار الأوربيين ؛ ذلك ان انتهاكات الحظر كانت تتسبب فى ندرة هذه الغلال فى الدولة العثمانية ، وعلى الأخص ، فى اسطنبول ٠ غير أن الاغراء كان ، أحيـــانا ، طاغيا بالنسبة للتجار ومسئولى الجمرك بمن فى ذلك الذميين ، رغم التهديد بعقوبات قاســـية ٠

كانت السلعة التى كانت كثيرا ما يصدر حظر بشأنها هى البن ، الذى لا يتم بيعه للتجار الأوربيين قبل أن يتم الوفاء بمتطلبات الحكومة العثمانية وفاء كاملا (٤٤) ٠

ولقد صدر فرمان عثمانى بتاريخ منتصف شعبان ١١٣٢ هـ (نهاية مايو ، الى بداية يونيو ١٢٧١ م) ، استجابة لشكوى مجموعة من التجار اليهود والمسيحيين طالبين من السلطان بألا تحرمهم السلطات من امتيازهم بشراء البن فى السويس ، ومن الواضح أن الحكومة كانت تريد أن تسيطر على تجارة البن ، حيث كانت تشك فى أن التجار يبيعون البن للأوربيين ٠ وشكا التجار الذميون من أنه حين أصبحت نوايا الحكومة معروفة ، فى مصر ، رفض شركاؤهم التجاريون أن يتعاملوا معهم ٠ وقال التجار الذميون انهم يدفعون ضريبة على الفرد (ضريبة رأس) ، ولا يمكنهم أن يساعدوا أنفسهم الا عن طريق التجارة ٠ فنفى الفرمان السلطانى الصادر ردا على ذلك ، الشائعات القائلة بأن التجارة ممنوعة على الذميين ، غير أنه كرر التحذير بألا يشحن أى تاجر مسلما كان أو ذميـــا البن على ســـفن الكفـــار (٤٥) ٠

وكانت المهن المالية والنقدية هى أهم مصدر للدخل بالنسبة لليهود ، غير أنهم أيضا اشتغلوا بمهن أخرى كانت هامة داخل الجالية اليهودية أو بالنسبة للعلاقات الاقتصادية مع الجاليات الأخرى ٠

وكانت معظم التجارة فى القاهرة تتم داخل اطار نظام الطوائف . وكان أعضاء الطائفة عادة ما ينتمون الى نفس الجالية الدينية أو العرقية . وهكذا فاننا نجد طوائف يهودية واسلامية وقبطية وطوائف من المسيحيين الآخرين . فكان هناك ، مثلا ، طوائف للقصابين اليهود وباعة الجبن (٤٦) . يذكر افليا (شلبى) طائفة صغيرة من صناع العلب اليهود وطائفة يهودية أكبر من صناع الأزرار . وكان بعض اليهـود حائكين ، غير أن معظم الحائكين كانوا من اليونان أو الأقباط . وكان الكثير من اليهود والمسيحيين صناع خمور أو أصحاب محال لبيع الخمور ، وكان الأمراء كثيرا ما يغلقونها لأسباب دينية (٤٧) . كما يروى افليا (شلبى) أن كبير صانعى الخلع (هيلعتسى باسى) كان يهوديا . وكان يصنع فى السنة ما يصل الى ٦٠٠٠ ، وهنـاك مهنة أخرى يصفها شلبى وهى من المهن التى احتكرها اليهود ، وهى « بيع البخور » فى الثانى عشر من المحـرم ، أثناء مولد الحسين (٤٨) .

وكان اليهود دائما مبرزين فى الطب ، غير أن المصادر لا تقدم سوى معلومات شحيحة تتعلق بالأطباء اليهود (والمسيحيين) (٤٩) . وكانت هناك أمثلة على الشراكة فى الأعمال بين اليهود والمسلمين ، بل بين اليهود والمغاربة ، رغم أن المغاربة كان يعرف عنهم تعصبهم الدينى (٥٠) .

سياسة الباشوات تجاه اليهود

لقـد عكست سياســة حكام مصر ازاء الذميين غالبا اتجاهاتهم الشخصية . فبعضهم اضطهد اليهود . اذ فصل أحمد باشا الدفتردار جميع موظفى الديوان من اليهود . وكان الباشوات أحيانا يعذبون مدراءهم الماليين حتى الموت بعـد أن يكونوا قد اغتصبوا أموالهم . ففى احـدى الحالات الشهيرة ، تم القبض على يعقوب اليهودى الذى عمل كبيرا للصرافين تحت حكم العديد من الحكام وعذبه خليل باشا (١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ ـ ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٣ م) متجاهلا توسلات أصحاب النفوذ الذين توسطوا نيابة عن يعقوب . وعبر الباشا عن عزمه على اعدامه ، حتى لو كان معنى ذلك أنه سيضطر الى دفع جميع ديون الصراف . ودفع الباشا ، بالفعل ، ٥٠٠٠ قرش ، وأمر باعدام يعقوب (٥١) .

ويروى الحولى المؤرخ العبرانى سامبارى Sambari عن أحد موظفى الجمارك قبض عليه بسبب الدين فأمر الباشا باعدامه • غير أنه كتبت له النجاة حين قتل الباشا فأطلقه الأمير الذى تولى نائبا عنه (٥٢) •

لقد كانت مثل هذه الحالات استثنائية • فبالرغم من أن معظم الحكام كانوا أتقياء ، الا أن سياستهم تجاه اليهود والمسيحيين مبنية عادة على اعتبارات مالية ، وليس على التعصب الدينى •

وكان الحكام يعينون لعام واحد ، خاضع للتجديد • ولكن كما سبق أن شرحنا ، فبالنظر لقصر الوقت الذى كانوا يقضونه فى مصر عادة ، فانهم كانوا يريدون اثراء أنفسهم أثناء فترة ولايتهم • وبما أنهم يدركون أن المستشارين الماليين اليهود مفيدون لتحقيق هذه الغاية ، فكانوا عادة يحمون هؤلاء المستشارين ويقدمون لهم ما كانوا يحتاجون اليه من تأييد •

وكان بعض الباشوات يحضرون معهم مستشاريهم الماليين اليهود من اسطنبول • وهناك فرمان امبراطورى بتاريخ ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ، يتعلق بشاموئيل كاهانا وربما كان هو الشخص الذى سبق ذكره كمدير لجمارك الاسكندرية • وذكر هذا الفرمان الحاكم بأن عدة فرمانات قد أرسلت اليه بفصل كاهانا الذى على حد زعم الفرمانات ، كان يظلم المسلمين • وتم انذار الحاكم بالتخلص فورا من (المتهم) • فتم فصل كاهانا فى العام التالى ، وأجرى تحقيق دقيق فى أنشطته : وكانت هناك شكوك فى أن لديه شبكة من الشركاء فى الجرائم بعضهم من المسلمين ، حصلوا على التزامات بمساعدته ، بشكل غير قانونى مثلا دون تسليم العبيد المطلوبين (٥٣) • ومن الواضح أن الحاكم أوغر صدر السلطان لعدم فصله كاهانا • ولم يكن الباشا ليفعل ذلك ما لم يكن كاهانا نافعا له •

وفى بعض الحالات ، كان مصير المستشار اليهودى معلقا بمصير الباشا • فبعد استدعاء محمد باشا أبى النور (١٦٥٢ ـ ١٦٥٦ م) ، أعدم فى اسطنبول ومعه حاييم بيرتس Hayyim Perez ، اليهودى الذى رافقه من مصر (٥٤) • أما الحاكم الذى قاسى اليهود أثناء ولايته أشد

المعاناة فكان على بك بولوت كابان ، (الكبير) الذى أحضر الى مصر كعبد - مما يثير السخرية - عن طريق موظف جمرك يهودي وأعطاه لابراهيم كتخدا ، رجل مصر القوى في ذلك الوقت . فكان يحتاج الى مبالغ كبيرة من المال كي يمول سياسته التوسعية وحطمت طلباته المالية الجالية التجارية . غير أنه لم يضر منه أحد أكثر من اليهود .

ان ظهور الشوام الكاثوليك في مصر فى أوائل القرن الثامن عشر جعل من الممكن الاستغناء عن اليهود لأول مرة . فبناء على مشورة من تاجر شامى ، ميخائيل فخر ، قرر على بك أن يضع حدا لتحكم اليهود التقليدى في الجمارك . وفى عام ١٧٦٨ ، أمر بضرب يوسف ليفى (لاوى) ، مدير جمارك الاسكندرية ، حتى الموت ومصادرة ممتلكاته . في العام التالى ، كما لقى ملتزم قسم جمارك بولاق ، اسحاق اليهودى نفس المصير . ومرة تلو الأخرى فرضت ضرائب تعسفية (أفانى avanies) على التجار اليهود ؛ مما دمر أعمالهم ووضع حدا لنفوذهم السياسى (٥٥) . ويتفق ليفينجستون Livingstone وكريسيليوس Crecelius اللذان كتبا دراسات قيمة عن الحاكم على بك الكبير ، على أن سقوط اليهود لم يكن نتيجة للاضطهاد الدينى ، وانما نتيجة كونهم ضحايا سهلة لحاكم جائر كان يبتز المال حتى من المسيحيين المحليين والأوربيين كما أنه لم يهتم بمشاعر المسلمين الدينية (٥٦) : اذ يكتب الجبرتى أن على بك أهان الاسلام عن طريق رعايته للمسيحيين وتحالفه مع روسيا ضد الدولة العثمانية (٥٧) . ومن المشكوك فيه ما اذا كان اليهود المنحوقون الذين صاروا فقراء كانوا سيشعرون بالراحة اذا ما علموا أن اضطهادهم تم لأنهم كانوا ضحايا سهلة وليس بسبب الكراهية الدينية . وربما كانت هذه الفترة مشابهة لفترة أحمد باشا الخاين ، الذى لم يضطهد اليهود ، أيضا ، على أسس دينية ، تبين انعدام الأمن الأساسى للوجود اليهودى حتى في مصر ، حيث كانوا يعيشون تحت حكم حكومة أقل ظلما مما كان فى أى بلد آخر من بلاد الدولة التركية ، حسب ما كتب لين (٥٨) .

الجزية ، أو الجوالى ، أو ضريبة الرأس

اتفقت الدولة العثمانية مع اليهود والمسيحيين على اعطائهم حكما ذاتيا فى الأمور الدينية وتنظيم الجالية والمكانة الشخصية ، شأنها فى ذلك شأن

غيرها من البلاد الاسلامية . ولهذا الامتياز ، كان عليهم أن يدفعوا (الجزية أو الجوالى أو ضريبة الرأس أو ضريبة المنفيين ـ وكان الإصطلاح الأخير هو الشائع في مصر) . وكانت هذه الضرائب تدفع للعلماء والصالحين ، والأغوات الذين كانوا يتلقون معاشات فى مصر (٥٩) . وامتدح رجال الدين النظام لتوظيفه النقود على هذا النحو (٦٠) . ويقدم المؤرخ أحمد شلبى تفاصيل اضافية ذات فائدة خاصـــة ، وذلك باعتباره مراقبا معاصرا . فهو يروى أنه فى عام ١١٤٧ هـ/١٧٣٤ م ، وصل فرمان عثمانى من اسطنبول يتعلق بالجزية . ويؤكد الفرمان الملىء بآيات القرآن والحديث على أن الجزية تؤخذ من يدى المسئول المصرى المحلى وتنقل الى أحد جباة الضرائب من اسطنبول . وكانت الضرائب الجديدة أكثر ارتفاعا حتى ان حوالى ١٠٠٠ مسيحى تظاهروا احتجاجا عليها . وحين بلغ الموكب ميدان الرميلة ، هاجمه الجنود الذين ضربوا المسيحيين ، مما أدى الى قتل اثنين منهم ، وتفرق الآخرون (٦١) .

وينهى المؤرخ الحولى حديثه قائلا انه منذ ذلك الوقت فصاعدا ، لم يعد المسئولون المصريون يجمعون العائد الذي يأتى من الجزية (ضريبة الرأس) أو دار السك وانما يجمعه مسئولون تبعثهم اسطنبول بدلا منهم . ويجب أن نلاحظ أن اليهود لم يشتركوا فى هذه المظاهرات ، كما لم يكونوا جزءا من المحاولات اللاحقة التى قام بها المسيحيون لغش القائمين على تقدير الضرائب الخاصـــة بدخولهم . وهذا المثال ما هو الا واحد من الأمثلة الكثيرة التي تلقى الضـــوء على الكيفيـــة التى كان المسيحيون يستعدون بها لاتخاذ عمل حاسم باعتبارهم أكثر عددا من اليهود (٦٢) .

وهناك بعض المعلومات المتاحة عن الطريقة التى كانت تجمع بهـا ضرائب الجوالى وعدد من الذميين الذين كانوا يدفعونها ، والمبالغ التى كان يدفعها المسيحيون ، والتى كان يدفعها اليهود . فطبقا لسلسلة من الفرمانات الصـــادرة بين ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ ـ ١٧٤١ و ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ ـ ١٧٥٧ م ، فان جميع الذميين ـ من اليهود والمسيحيين الأقباط واليونانيين والأرمنيين ـ كان عليهم دفع الجزية . وكانت السنة القمرية محـــددة حسب التقويم القبطى الشمسى ، الذى كان ملائما للمواسم الزراعية . ولما كانت الحكومة على وعى بأن بها جاليـات كبيرة من غير

المسلمين يمكنهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة كجزية ، فلقد عينت موظفا كبيرا من اسطنبول كجاب للضرائب ، مثل الشيقق ـ ليفيل دفترداری Shiqq-Leveel de Fredari (المسئول عن أموال مقاطعات الامبراطورية فى أوربا ، التى كانت مصدرا لأكبر عائد) (٦٣) ٠

كان الذميون ينقسمون الى ثلاث فئات ضريبية : الموسرون ، والفقراء ، ومتوسطو الحال ٠ وكان كل ذمى يتسلم شهادة (ورقة) ، ترسل فى لفة مختومة من اسطنبول الى السلطات المصرية للتوزيع على الذميين فى البنادر والقرى فى جميع المديريات المصرية (٦٥) ٠ ويوجد فرمان بتاريخ المحرم ١١١٥ هـ / منتصف سبتمبر ١٧٣٤ م موجه الى الباشا ، والمسئول العثمانى المكلف بجباية الجزية ، وبك جرجا (حاكم الصعيد) وحكام مديريات منفلوط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنوفية ، والشرقية ، والمنصورة ، والقليوبية والجيزة (٦٤) ٠ ويذكر فرمان صادر عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وجود ٧٥٠٠ شهادة للموسرين ، و ٢٠٫٥٠٠ للفقراء ، و ٤٠٫٠٠٠ للفئة المتوسطة ، مما يجعل دافعى الجزية ٦٨٫٠٠٠ ٠ وفى عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م ، تم ارسال ٧٠٫٠٠٠ شهادة ، ولكن فى عام ١٧١٠ هـ/١٧٥٧ م، لم يزد المجموع الكلى عن ٤٠٫٠٠٠ (٦٦) ، وربما يرجع ذلك الى أن السلطات فى اسطنبول أدركت أن تقديراتها للسكان النميين كانت متضخمة ٠ وكانت الشكوى المتكررة فى الفرمانات هى أن الكثيرين من الذميين كانوا يتهربون من الضرائب أو أن الكثير من الأسماء قد اختفت من سجلات الجزية عن طريق التزوير ٠ وتحذر الفرمانات بألا يبقى أى شخص دون ورقة (٦٧) ٠ وتذكر بعض الفرمانات حجم الجزية : فى عام ١١٧٠ هـ/١٧٥٧ م ، كان على الثرى أن يدفع ١١ قرشا ، عن كل فرد ، وأولئك المسجلين فى الفئة المتوسطة يدفع كل منهم ٥٫٥٠ والفقراء ٢٫٥٠ (٦٨) ٠ وطبقا لما قال حسين أفندى ، وهو أحد الموظفين البيروقراطيين الذى كتب فى القرن الثامن عشر ، كان نفس المبدأ سارى المفعول ، اذ كانت الضريبة ٤٤٠ ، و٢٢٠ و١١٠ بارة على التوالى (٦٩) ٠ أما الأرقام التى أوردها الجبرتى لعام ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ ـ ١٧٤٤ م ، فكانت ٤٢٠ ، و ٢٧٠ ، و ١٠٠ بارة (٧٠) ٠

قوانين خاصة بالزى والمظهر الخارجي

كان المطلوب من الذميين ارتداء أزياء خاصة ، وعلى الأخص غطـاء الرأس ، أي خوذة ، لكي يتميزوا عن المسلمين · وكانت هذه القـاعدة سارية المفعول ، أيضا ، في المقاطعات العثمانية الأخرى وغيرها من البلاد الاسلامية · اذ يقرر ابن نجيم ، وهو من فقهاء مصر في القرن السادس عشر ، أن الذميين ينبغي أن يرتدوا لباسا مميزا ويجب بصفة خاصة أن يقلعوا عن ارتداء زى العلماء والأشراف · وفي المجتمع الاسلامي حيث كان القانون شخصيا (وليس اقليميا كما هو الحال في الدولة الحديثة) ، لم يكن الالزام بارتداء ملبس خاص في حد ذاته أمرا مهينا · فلم تكن القوانين المتعلقة بالملبس تخلو من اللبس كما لم تكن تلقى طاعة عامة ، وكانت أكثر تأثرا بمبادرة الباشا الحاكم ، أكثر من تأثرها بالحـكومة المركزية في اسطنبول (٧١) · ولعـل تكرار القوانين المتعلقة بملابس الذميين عدة مرات ، بتنويع له مغزاه ، لخير دليل على أن هذه القوانين ظلت على الورق فقط ، لفترات طويلة من الزمن ، ولربما معظم الوقت · وبناء على أمر أصدره حازم حسن باشا عام ١٥٨٠ ، تحتم ، على اليهود أن يرتدوا قبعات حمراء مرتفعة مخروطية الشكل (طراطير) · وأن يرتدى المسيحيون قبعات سوداء (برانيط ، ومفردها برنيطة أو شبقة) بدلا من العمامة الصـفراء (بالنسـبة لليهود) والعمامات الزرقاء (بالنسـبة للمسيحيين) ·

وثمة مؤرخ حولى يدعى الغمرى ، لا يدع أى مجال للشك في أن هدف الباشا كان هو اهانة الكفار وهو أمر تلقى عليه الثناء ، رغم أنه كان ينظر اليه بصفة عامة كحاكم سيئ (٧٢) · كما أصدر حاكم آخر هو شريف محمد باشا ، ١٥٩٦ ـ ١٥٩٨ مرسـوما بتغيير لون غطـاء الرأس تحول فيه اليهود من ارتداء الأحمر الى الأسود (٧٣) ·

وفي السابع عشر من جمادى الأولى ١١٣٨ هـ / الثامن عشر من يناير ١٧٢٦ م ، أمر أحد الباشوات أغا الانكشارية ، الذى كان ينوب عن رئيس الشرطة ، بأن يعلن في شوارع القاهرة بأن اليهود ينبغى أن

يرتدوا طراطير أو طواقي زرقاء (٧٣) ، وأن يرتدى المسيحيون قبعات خاصة (قلقق) (٧٤) وأن يرتدى المسيحيون الأوربيون برانيط . ولقد لاحظ بوكوك أن المسيحيين في مصر كانوا يرتدون شباشب حمراء واليهود يرتدون شباشب زرقاء ، وكلا من الأوروبيين والأتراك يرتدون شباشب صفراء (٧٥) . بعد ذلك ، بما يزيد على قرن ، كتب لين أن كلا من اليهود والأقباط يرتدون عمامة ذات لون غامق ، اما سوداء أو زرقاء (٧٦) . وكان المسيحيون الأوربيون ، خاصة الجماعة التجارية الفرنسية (أمة حسب التقارير القنصلية) ـ كانوا يتلقون معاملة أفضل من تلك التي كان يتلقاها المسيحيون المحليون ، بسبب اتفاقيات شروط التسليم بين فرنسا والباب العالى . غير أنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال محصنين ضد أساءة المعاملة اذا ما قرر الانكشارية أنهم انتهكوا نظم الملابس . فهناك حادثة وقعت عام ١٧٠٣ ، رواها القنصل الفرنسي بالتفصيل ، اذ ضرب أغا الانكشارية تاجرا فرنسيا هو م. لازار بلانك M. Lazere Blanc ضربا مبرحا ، في أحد شوارع القاهرة بسبب ارتدائه غطاء رأس من القماش الأبيض ، بدلا من أن يرتدى غطاء من الفرو فوق رأسه . وبناء على اصرار القنصل الفرنسي ، عزل الباشا الأغا ، غير أنه بعد ذلك ببضعة أيام ، شق جنود مسلحون طريقهم حتى صاروا في حضرة الباشا وجعلوه يعيد تعيين الأغا ، مدعين أن ضابطا قد قتل كثيرا من المسلمين المهمين بمن فيهم أشراف ، لا ينبغي عزله لمجرد ضربه تاجرا فرنسيا (٧٧) .

الحمـــامات

وارتبطت قوانين الحمامات بقوانين الملبس فكان هناك اجبار للذميين بوضع علامات مميزة حين يكونون في حمام عمومي ، رغم أنه يبدو أن هذه النظم كانت أقل مراعاة من سابقاتها . اذ يروى المؤرخ الحولى أحمد شلبى الواقعة الآتية : في المحرم ١١٣٦ هـ / أكتوبر ١٧٢٣ م ، أعلن أغا الانكشارية في شوارع القاهرة أنه من غير المسموح للذميين بدخول الحمامات العمومية دون أن يعلقوا جرسا حول رقابهم كي يفرق بينهم وبين المسلمين . ولقد صدر هذا المرسوم لأن أحد المستحمين وجه السباب لأحد العلماء غير أنه لم يرد معتقدا أن الرجل من الوجهاء . وحين علم العالم فيما بعد ، أن الذي سبه هو صراف يهودي للانكشارية ، أجبر

الأغا أن يصدر هذا الاعلان ، الذي على اية حال ، لم يظل ساري المفعول لوقت طويل ، لأن اليهود فضلوا عدم دخول الحمامات بدلا من وضع الجرس . ولما خشي العاملون في الحمامات من أن تتأثر دخولهم اذا قاطع الذميون الحمامات ، جمعوا ٨٠٠٠ نصف دفعوها للأغا الذي ألغى الفرمان عندئذ (٧٨) . ويروي شلبي أن حمام باعة السكر والحلوى في القاهرة لم يسمح فيه بدخول اليهود والأقباط واليونان ؛ لأن مؤسس وقف هذا الحمام أصر على ذلك . ويقول شلبي ، كما يتوقع منه ، ان هذا كان هو السبب في أن حماما معينا كان نظيفا يرتاده الأتقياء (٧٩) .

العبيد الذين يملكهم ذميون

لا تمنع الشريعة الاسلامية الذميين من امتلاك العبيد ، غير أنها لا تسمح لهم بامتلاك عبيد من المسلمين . فعلى سبيل المثال ، يقرر ابن نجيم أنه يجب اجبار الذمي على بيع العبد الذي يعتنق الاسلام (٨٠) . ويروى محب الدين الحموي ، الكاتب والقاضي الشامي ، في وصفه لمصر ، عام ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م ، أن يفي Yevi زادة القاضي الشهير الذي كان في صحبته أثناء الرحلة ، ألغى العديد من البدع موضع الخشية التي رآها في مصر . ومن بين ما فعل ، فقد جعل الذميين يبيعون جواريهم المسلمات (٨١) . ولقد بذلت جهود لحرمان المسيحيين واليهود من حق امتلاك العبيد وهو حق يتمتع به المسلمون . وان عدد الوثائق التي تتناول العبيد الذين يمتلكهم الذميون ، وعلى الأخص اليهود ، يعد أكبر بكثير من تلك التي تتناول غير ذلك من الأمور . فالفرمانات تردد الشك في أن هؤلاء العبيد قد يكونون من المسلمين ، بل ما هو أسوأ من ذلك ، وهو إنهم كانوا مسلمين أثر عليهم مالكوهم الذميون كي يعتنقوا اليهودية . وتقول الفرمانات مرارا أنه يجب اجبار الذميين على أن يبيعوا عبيدهم للمسلمين ، غير أنه يوجد تأكيد على ألا يظلم أحد الذميين ، الذين يجب أن يتلقوا سعر السوق بالكامل مقابل عبيدهم (٨٢) . وتتضح محنة الذمي الذي يملك عبيدا عن طريق حالة ظهرت في أوائل الحكم العثماني في مصر . اذ كانت لابراهيم رئيس دار السك اليهودي فتاة من جاريته الحبشية . ففي أحد الأيام ، ذهبت المرأة الى القاضي المالكي وأعلنت أنها تريد أن تعتنق

الاسلام · فرفض القاضى أن يرد المرأة وابنتها لابراهيم · وأجاب على توسلات ابراهيم اليائســة : « اذا شئت أن تسترد ابنتك ، فلا تبك ، وانما كن مسلما » · ولم تفد ابراهيم محاولاته أن يرشو القاضى أو يسعى لتدخل خاير بك (٨٣) (كانت الجوارى الحبشيات دائما موضع طلب كبير فى مصر العثمانية ، وهناك فرمان صدر ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م يمنع اليهود من امتلاكهن وقد صيغ بشدة غير معهودة) (٨٤) ·

لقد اتهم المسئولون اليهود والمسيحيون فى القاهرة والموانى أيضا ببيع العبيد المسلمين للأوربيين · ولا حاجة للقول أن هذا لاقى استنكارا شديدا (٨٥) ·

وأحيــانا كان يرتبط الحظــر المتكرر بامتـــلاك الذميين عبيدا باجراءات تهدف الى استعادة ما كان يعتبر هو النظام الصحيح · فحين تمرد الجنود عام ١٥٨٩ ضد عويس باشا ، أعلنت السلطة فى الشوارع أنه محظور على أولاد العرب امتلاك عبيد من البيض (يذكر أحد المصادر أن المقصود هو « عبيد أتراك » يقصد المماليك) ولقد صحب هذا الحظر حظر آخر على المسيحيين واليهود من امتلاك أى عبيد (٨٦) · ولقد أدى الى الحظر الأول رغبة الجنود المتكلمين بالتركية ، الذين كان الكثير منهم مماليك أو سيباهيين ، أن يحتفظوا بامتيازاتهم · كذلك أنذر الذميون من استخدام أو توظيف المسلمين · ففى عام ١٧٢٢ ، وأثناء عراك فى بيت أحد اليهود ، طعن ابن ســيد البيت خادمه المسلم بالخنجر حتى الموت · فكانت لهذه الحادثة خطورتها الخاصة ، ذلك لأن الضحية كان من الأشراف · وحسب المعهود فى هذه الحالات ، اقتيد اليهودى خلال شوارع المدينة يحيطه العار ، وقطع رأسه · ثم أمر أغا الانكشارية بأن يعلن أنه غير مسموح لليهود والمسيحيين أن يستخدموا خدما مسلمين ، وأن أى شخص يعصى هذا الفرمان سيستحق ما يقع له (٨٧) ·

كذلك واجهت الجاليــة الفرنسية التجارية أيضا مشكلات سببها شكوك تتعلق بالجوارى · ففى عام ١٦٨٩ ، انتشرت شائعة فى الاسكندرية بأن أنتوين ميشيل Antoine Michel ، وهو قبطان فرنسى ، كان يحتفظ

بجارية مسلمة . ومرة أخرى ثارت المشاعر العامة لأن المرأة كانت من أصل شريف . ولم تنفع محاولات القنصل باقناعهم بأن المرأة مسيحية تحضر القداس . اذ هاجم الدهماء منزل نائب القنصل الفرنسى ، وأضرموا النار فى المدخل ونهبوا المكان (٨٨) .

وتقدم واقعة رواها الجبرتى مزيدا من التفهم للمشكلات التى كان الذميون يواجهونها ومحنتهم بصفة عامة . ففى ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م ، قررت السلطات أن اليهود والمسيحيين ، الذين يتخذون أسماء أنبياء ، مثل ابراهيم وموسى وعيسى واسحاق ، ويوسف يجب عليهم تغيير أسمائهم . كما أمروا بأن يسلموا جميع عبيدهم قبل أن تفتش منازلهم . ودفع الذميون مبالغ كبيرة كى يتمكنوا من الغاء المرسوم المتعلق بالأسماء ، وربما كان هذا هو الغرض من المرسوم أصلا . أما عن عبيدهم ، فلقد سلم بعضهم ولكن البعض الآخر ، أخفى فى بيوت بعض الأصدقاء من المسلمين حتى انحسرت العاصفة (٨٩) .

لقد أقرت الحكومة فى اسطنبول والسلطات المحلية المبدأ القائل بعدم السماح للذميين بأن يمتلكوا عبيدا بصفة عامة ، وعبيدا مسلمين بصفة خاصة . ولكن شأن هذا التقييد شأن غيره . ذلك أن تكراره يعد خير دليل على أنه لم يطع أو أنه قد تم الاذعان له لوقت قصير ثم تم تجاهله . فالحياة أقوى من المحاذير الادارية ، وظل اليهود يمتلكون العبيد حتى القرن التاسع عشر (٩٠) .

الأحياء اليهودية والمسيحية

فى المدينة الاسلامية التقليدية كان الأهالى يعيشون فى أحياء متجانسة من حيث الدين والخلفية العرقية وغير ذلك . ان مثل هذه الأحياء المنفصلة التى تخص الأقليات الدينية مذكورة فى التقارير التى كتبت عن جميع المدن الكبرى فى مصر . لقد كان أصل حياة الأقليات المنعزلة هو النظر الى الأمن وسياسة الحكومة فى التحكم فى الأقليات ، كذلك فى الرغبة الطبيعية فى السكن معا لأسباب دينية وعرقية واقتصادية

واجتماعية · ويلخص أندريه ريمون André Raymond المعلومات المتعلقة بأحيــاء اليهود والمسيحيين · ذلك أنه مؤرخ القــاهرة وغيرها من المدن العربية فى الحقبة العثمانية · فكان الحى الأول ، حارة اليهود تغطى منطقة مساحتها ستة هكتارات فى وسط المدينة وكانت قريبة من حى الحدادين، حيث كانت تشترى المعادن الثمينة ، وتباع وتستبدل النقود · وكان من السهل الوصول اليه عن طريق خمســة أحياء متصلة وبه جامع فى شارعه الرئيسى (٩١) · وتؤكد جميع أوصاف الحى اليهودى على شدة ضيق شوارعه ، حتى انه فى بعض أماكنه لا يكفى حتى لمرور حصان أو جمل أو لشخصين يسيران جنبا الى جنب (٩٢) · وكانت القذارة الداخلية خادعة ؛ ذلك أن الكثير من المنــازل كانت مؤثثة بأثــاث جيـــد وثمين · اذ كان من الحكمة اخفاء ثروة الشخص عن السلطات والأهالى · وكان الجميع يتخذون هذا الاحتياط ، غير أنه كان مفهوما بصفة خاصة بالنسبة لليهود · ويؤكد وصف افليــا شلبى للحى أن حياة اليهود كانت منظمة جدا ، حتى انهم كان لديهم سهولة فى أداء الصلاة الجماعية وكذلك كانت تعاملاتهم مع غيرهم من أهالى الأحياء الأخرى فى أضيق الحدود · فمثلا كانت لليهود سوق يوجد بها كل ما يحتاجون اليه (٩٣) · ولا توجد لدينا سجلات عن هجمات على حى اليهود أثناء الحقبة العثمانية · اذ كان من الممكن أن يعرض الزعر (المفرد أزعر) حياة اليهود وممتلكاتهم للخطــر أو عن طريق الجنود غير المنضبطين كما حدث بعد الفتح بوقت قصير · ان اليهود ، باعتبارهم أقلية دينية ، يكرهها الكثير من المسلمين ويعرف عنها امتلاكها لثروات كبيرة كانوا ضحايا محتملين للعنف فى أوقات الأزمات · فكان حرس الانكشارية دائما معسكرين عند مدخل الحى ، لكى يحموهم بلا شك · (يذكر افليا مدخلا واحدا ؛ ويصف بوكوك Pococke حرسا مشابهين عند مداخل أحياء المسيحيين) (٩٤) · وكان بالقاهرة سبعة أحياء مسيحية تنتشر عبر منطقة متصلة تغطى ٧ر١٦ هكتارا · وكان خمسة منها فى الجانب الغربى من المدينة · منها حيــان رئيسان ملاصقان لبركة الأزبكية والخليج وهى أفضـــل مناطق السكن لدى الأمراء والبرجوازية المســـلمة الثرية · أما الأوربيون ، وعلى الأخص التجـــار الفرنسيون والايطاليون ، فكانوا يسكنون فى حارة الافرنج ، فى منطقة على طول الخليج

بالقرب من الأسواق الكبيرة وهو موقع يمكن تبريره بالنظر الى اعتبارات الأمن والتجارة (٩٥) ٠

مقابر اليهـود

كان دفن الموتى يشكل أحيانا مشكلة للجالية اليهودية بالقاهرة ٠ اذ يصـف بوكوك Pococke كيف أن اليهـود كانوا يضطرون الى حمل موتاهم من حى اليهود الى مقابرهم بالقرب من البساتين ، على ضفة النيل اليمنى ، وهو مكان يصعب الوصول اليه لأى شخص الا بحراس من العرب الذين يتلقون أموالا على ما يقدمونه من حماية ومع ذلك لا يقصرون فى اساءة معاملتك ٠ وكان أقصر وأنسب طريق يمر « بالقرافة » أى المقابر الاسلامية الشهيرة بالقرب من ضريح الامام الشافعى (٩٦) ، غير أن اليهود لم يسـتطيعوا استخدام هذا الطريق ٠ اذ يشـكو ، سامبارى ، المؤرخ الحولى اليهودى ، من المتاعب التى كان اليهود يعانون منها لأن الطريق على طول النيل كان أطول بعدة أميال (٩٧) ٠ وفرح افليا شلبى ـ الذى كان يكره الكفار ، واليهود على الأخص ـ بما كانوا يلاقونه من بؤس : « حين يفنى يهودى ، تحمل جيفته للدفن ٠ ويسير الموكب ليلا على ضوء المشاعل ٠ ويسـتأجر اليهود جنودا لحماية الجنـازة ويدفنون الرأس بالقرب من البساتين ٠ اذ ليس من المسموح لهم أن يفعلوا ذلك نهارا ٠ انه حقا (عذاب أليم) وهو تعبير قرآنى يشير الى العقاب الذى ينتظر اليهود فى الحياة الآخـرة ٠ فليكثر الله لليهود المتاعب من هذا النـوع (٩٩) ٠ فى تلك الأوقات ، حاول المسلمون سد الطريق المؤدى الى القرافة لأن هذا يسبب أذى للمسلمين » ٠ ولقد توجه بعض المسلمين الى المحكمة بشأن هذا الموضوع ، وروى النحال أن احدى الحالات حسمت لصالح اليهود ٠ اذ قدم اليهود فتاوى شرعية أصدرها أربعة مفتين ، ومراسيم أصـدرها حكام سابقون ومباحث شرعية موقعة من ٤٩ من العلماء مؤكدين على مطالبة اليهود بأن غير المسلمين من حقهم استخدام الطرق العـامة التى تخص المسلمين ٠ فحكم القاضى لصالح اليهود (١٠٠) ٠ وفى القرن الثامن عشر ، ظهرت حادثة مشابهة فى زمن اضطهاد على بك الكبير لليهود ، وانما كانت النتائج مختلفة ٠ وبدأت حين قدم العديد من العلماء عريضة للسلطات

مستخدمين خدمات العائلة المتصوفة الشهيرة ، عائلة السادات الوفائية ـ شاكين من أن اليهود الملعونين ، أعداء الله ، ورسوله والمؤمنين ، الذين لهم حفرة (وهى كلمة احتقار لمقابر اليهود) لدفن من هلك منهم ـ وهى كلمات سباب تستخدم لموت (الكفار) منذ فتح مصر على يدى عمرو بن العاص (فى القرن السابع) هؤلاء اليهود قد استخدموا الطريق الممتد على طول النيل للوصول الى المقابر · اذ رشا بعض من هؤلاء الخاطئين (اليهود) شخصا لا يخشى الله ، فأعطاهم اذنا بأن يطأوا بأحذيتهم وبحيواناتهم خلال القرافة الصغرى المباركة (وهى احدى مقبرتى القاهرة الرئيسيتين)، حيث تدفن رفات الأولياء وآل بيت النبى والعلماء · ولقد حصل اليهود على اذن بفعل ذلك انتهاكا للشريعة ·

ورفع عبد الخالق بن وفاء ، رأس العائلة الوفائية ، عريضة لحاكم مصر مطالبا بألا يسمح لهم بالمرور وأن يعودوا الى طريقهم الأصلى (على طول النيل) وألحقت فتوى ووثيقة بالعريضة وطلب العلماء أن يعاد التأكيد على فرمان يؤيد موقفهم · ثم أصدر نائب الباشا مرسوما يمنح فيه العلماء ما طلبوه · ويكرر المرسوم ، المكتوب بالتركية ، الحجج المعادية لليهود الموجودة فى العرائض العربية وان كان بلغة أدق وأكثر اعتدالا (١٠١) ·

الجالية اليهودية فى الاسكندرية

عاشت الجالية اليهودية أيضا فى المدن الكبيرة نسبيا مثل رشيد ودمياط والمحلة الكبرى ومنفلوط وطنطا ، غير أن أكبر واهم جالية بعد القاهرة كانت جالية الاسكندرية · ومع أن جالية الاسكندرية لم تكن بعد قد حققت الوزن الذى وصلت اليه أثنـاء القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، الا أنها كانت بارزة تماما بما أن الاسكندرية كانت ميناء مصر الرئيسى حتى فى ذلك الوقت · ومع أن عـدد اليهـود فى الاسكندرية العثمانية غير معـروف فلقد كانوا ، مع ذلك ، بارزين اذا ما أخذنا فى الاعتبار الحجم الصغير لمجمل السكان ·

ويذكر يهود الاسكندرية مرات أكثر فى الوثائق العثمانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بما يذكر به أبناء دينهم فى القاهرة ، وذلك لأن الاحتكاك بين اليهود والمسلمين كان أكثر احتداما مما هو فى العاصمة،

فيهود الاسكندرية كانت لهم علاقة خاصة بقلعة المدينة ، التى استكملت عام ١٤٧٩ / ١٨٨٤ ، بأمـــر من قايتباى ، السـلطان المملوكى الذى وضع جنودا هناك ٠

وعنـد نهاية الحـــكم المملوكى ، عموما ، فقدت المدينة الكثير من أهميتها ، بلا شك بسبب انهيار تجارة العبور (الترانزيت) المصرية فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر (١٠٢) ٠ وهناك وفرة من الأدلة التى تبين أن هذه التجارة استردت عافيتها بشكل ملحوظ أثناء القرن السادس عشر ، غير أن الأهمية العسكرية للقلعة ظلت هامشية ٠ فأمر اليهود بالعيش فى القلعة لحفظها من الدمار ٠ ويبين هذا المرسوم أن القلعة لم تعد لها أى أهمية عسكرية ، خاصة وأن اليهود كانوا عزلا من السلاح ٠ وتردد عدة فرمانات صدرت ما بين عام ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م وعام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ، أن اليهود قد عاشوا فى القلعة وبنوا هناك منازلهم ومعابدهم ، ولكنهم غادروها حديثا وأقاموا مبانيهم فى الخـارج على قبور الأولياء المسلمين والشهداء وصحابة النبى ٠ وبفعلهم هذا ، قيل ان اليهود متهمون لسببين : فلقد تركوا سكناهم فى القلعة دون صدور اذن بذلك ، متسببين فى دمارها وتحويلها ملاذا للمجرمين ، كما بنوا منـــازلهم وبالوعاتهم على أضرحة اسلامية شريفة ٠ فأمر السلطان بوجوب مراعاة اليهـود للشريعة والقانـون والأمر الواقع ؛ فعليهم أن يسكنوا القلعة مرة أخرى ، ويجب هدم مبانيهم اذا كانت بيت انتهاكا للشريعة ٠ وتنذر هذه المراسيم باجراء تحقيق دقيق قبل اتخاذ أى اجراء وألا يستغل الموقف كذريعة لظلم أى شخص (١٠٣)٠وثمة مرسوم آخر مرتبط بعريضة رفعها المسلمون فى الاسكندرية ضد مدير الجمارك اليهودى على بنائه حسب ما يدعى ٦٠ ـ ٧٠ منزلا فى المدينة ٠ ولقد اتهم باستخدام مواد بناء أخذها من بيوت الوقف داخل القلعة وكذلك حجارة من المساجد المتداعية ٠ وهذه الشكوى أيضا تستخدم حجة دينية ضد يهودى ثرى ، بينما يبـــدو من المؤكد أن الدافع الحقيقى وراء العريضـــة هو حســد جيرانه له (١٠٤) ٠

تروى حولية أحمـــد شلبى حادثة وقعت فى الاسـكندرية عـام ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م قتل فيها أحد اليهود مسلما ٠ فامسك به المسلمون

وأرادوا أن يمزقوه اربا غير أن الانكشارية أنقذوا الرجل وأخذوه الى المحكمة الشرعية ، حيث أخبر القاضى المسلمين ، بعد توجيه الاتهامات : « ان اتجاهكم نحو هذا الذمى اتجـاه متعصب » • فلما سمع المسلمون ذلك ، قذفوا القاضى بالحجارة ، واختطفوا اليهودى ، وقتلوه • ثم أحرقوا جثته ونهبوا الخان الذى اعتاد أن يتاجر فيه هو وغيره من اليهود • وأبلغت القاهرة بالاعدام بدون محاكمة (ألتلنيش) ، غير أنه لم يتخذ أى اجراء ضد المسلمين (١٠٥) • وتكشف هذه الحادثة ، مرة أخرى ، الجو المتوتر بخاصة فى الاسكندرية • وكانت الاسكندرية كمركز للنشاط التجارى الأوربى مدينة تقع فريسة لغارات القراصنة من كل نوع من آن لآخر • ذلك أن موقعها الحدودى ، وربما نفوذ الحجاج من شمال أفريقيا أيضـا ، جعل المسلمين فى الاسكندرية أكثر تشددا من مسلمى القاهرة •

المسيحيون واليهود

لا ينبغى لأية مناقشة تتناول مكانة الذميين أن تتغاضى عن العلاقات بين المسيحيين واليهود تحت الحكم الاسلامى ، فمن ناحية ، كانت الجاليتان الذميتان متساويتين كليا ، غير أن اتجاه المسلمين نحوهما كان مختلفا • اذ ان هناك الكثير من المراجع التى تشير الى أن اليهود كانوا غالبا موضع كراهية واحتقار أكثر من المسيحيين بكثير ، وتوجد أصول هذا التفريق فى القرآن الكريم (١٠٦) • ويمكن رؤية تعبير واضح لهذا فى كتابات المتصوف الشهير عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م) الذى كان يحترم الرهبان المسيحيين ، وانما يمقت اليهود ، ومع ذلك ، لم يخل الأمر من اضطهاد للمسيحيين فى مصر العثمانية كمـا سبق أن لاحظنا ، اذ كان المسيحيون أكثر عددا ، الى حد كبير من اليهود ، وكانت الكثير من القرى مسيحية بالكامل • لذلك ، كان المسيحيون أكثر جسارة فى سلوكهم وردود أفعالهم من اليهود ؛ لاحظ ، على سبيل المثال ، مظاهرة المسيحيين ضد زيادة الجزية (١٠٨) •

وثمة اتهام كثير التردد ضد المسيحيين فى الوثائق الرسمية هو أنهم تجرأوا على أن يجاهروا بدينهـم ورموزه ، كشرب الخمر ، ودق الأكف

الخشبية بصوت مرتفع ، كدعوة للصلاة وما الى ذلك ، وهى مزاعم لم توجه ضد اليهود (١٠٩) • ففى عام ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م ، على سبيل المثال ، أقام العديد من المسيحيين فى الاسكندرية كنيسة فى موقع مسجد متهدم ومقبرة اسلامية • وحين حضر المسلمون كى يروا ماذا حدث ، طاردهم الرهبان بعيدا بالسلاح (١١٠) •

وفى عام ١٧٥٠ أو ١٧٥١ ، وفى حادثة أكثر أهمية الى حد بعيد ، خطط الأقباط أن يقوموا بالحج الى القدس • وكان أبرز أعضاء الجماعة هو نوروز ، وهو أمين سر لدى رضوان كتخدا • فتحدث نوروز الى الشيخ عبد الله الشبراوى ، شيخ الأزهر فى ذلك الوقت ، وأعطاه هبة ودفع له ١٠٠٠ دينار • فأصدر الشبراوى فتوى وخطابا بمعنى ألا يعاق الذميون عن مراعاتهم لعاداتهم الدينية والحج • فغادر المسيحيون فى موكب ملىء بالأبهة تصحبهم نساؤهم وأولادهم مصحوبين بموسيقا الطبول والنايات• بل انهم استأجروا بدوا لحراستهم فى طريقهم • غير أنه بعد ذلك ، فى اجتماع فى منزل الشيخ البكرى ، تم توبيخ الشيخ الشبراوى على الرأى الشرعى الذى أصدره • واتهمه البكرى بأخذ رشاوى من المسيحيين ، وقال ساخرا : « فى العام القادم ربما حتى يقيمون محملا ، وسيكون هناك حاج مسيحى ! » ثم غادر البكرى الغاضب المجلس وشجع الدهماء على مهاجمة المسيحيين • فهاجمهم طلبة الأزهر بالعصى والحجارة ، كما قاموا بنهب احدى الكنائس • ويستنتج الجبرتى أن المسيحيين فقدوا كل المال والجهد الذى استثمروه فى حجهم المخطط (١١١) •

وفى الكثير من الحالات ، كان المسيحيون هم فقط الذين يتعرضون للظلم والمضايقة حيث لا يذكر الجبرتى ـ مصدرنا الأساسى عن أواخر القرن الثامن عشر ـ معاملة سيئة مشابهة لليهود • واحتمال أن تكون تقاريره غير دقيقة أو غير تامة ، احتمال ضئيل ، بما أن الجبرتى مشهود له بالصدق والدقة خاصة فى الأمور المتعلقة بالتاريخ الاجتماعى • فهو يروى عن هدم الأمير المملوكى مراد بك الشهير للكنائس بالاسكندرية عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م (١١٢) •

وفى مناسبة أخرى ، عام ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ، أمر الباشا بهدم مساكن المسيحيين وحظر عليهم ركوب الحمير . وكما حدث كثيرا من قبل ، كانت هذه الاجراءات القاسية تتحول الى غرامة على المسيحيين الشوام وأقباط القاهرة (١١٣) .

كما يسجل الجبرتى المراسيم التى تحظر على المسيحيين ركوب الخيل ، واستخدام الخدم المسلمين ، وشراء العبيد ، وكذلك اجبارهم على مراعاة قواعد الملبس . ففتشت منازل المسيحيين بحثا عن العبيد ، وكان من يوجد منهم يباع فى المزاد فانتهز دهماء القاهرة هذه المراسيم لمضايقة المسيحيين ، فكان على الحكومة أن تعلن أنها تنوى حمايتهم (١١٤) .

ولا ينبغى أن يداخل المرء الانطباع بأن حياة الأقباط فى مصر العثمانية كانت حياة بؤس مقيم ، وحياة اضطهاد . ذلك أن مستوى معيشتهم كان عموما أعلى من مستوى معيشة المسلمين وشأنهم شأن اليهود، احتل بعض زعمائهم مواقع نفوذ . اذ يكتب الجبرتى عن المعلم (وهو لقب مهذب لمخاطبة ذمى) ابراهيم الجوهرى (المتوفى عام ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ أو ١٧٩٥ م) الذى كانت له سلطة على جميع الموظفين أو الكتبة الأقباط والصرافين . وازدهرت الكنائس والأديرة فى عهده ، بسبب عوائد من مؤسسات الوقف التى أنشأها (١١٥) .

لقد كان هناك قدر كبير من الاحتكاك بين اليهود والطوائف المسيحية المختلفة — مثل الأقباط والأرمن والشوام الكاثوليك — بما أنهم كانوا يتنافسون على نفس مصادر الدخل : كانتاج وبيع الخمور وتجارة المجوهرات ، كالذهب والفضة وغير ذلك من البضائع والصرافة ، والربا والخدمة الحكومية فى مجال المال . ولابد أن هذه المنافسة زادت من حدة التوترات الدينية (١١٦) .

وهناك شهادة على وجود معاداة المسيحيين للسامية فى مصر العثمانية فى ثلاثة مراسيم صدرت فى ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م — ٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م — و٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م) من جانب الباشوات المصريين لنوابهم فى الطور (ميناء صغير فى شبه جزيرة سيناء) . نفهم من الوثائق أن رهبان دير سيناء اشتكوا من أن مجموعة من اليهود استقروا هناك اقامة

دائمة . وهذا على عكس العادة القديمة القاضية بأنه حين يأتى يهودى الى الطور لعمل ما ، فعليه أن يغادر المكان بمجرد استكمال عمله . فاستقرارهم هناك انتهاك للشريعة والقانون والعادة المستقرة . وقال الرهبان ، ان يهوديا اسمه ابراهام ، انتقل الى الطور مع أسرته لتأليب المتاعب . كذلك بينت عريضة الرهبان أن الجبل مقدس وليس من المعتاد أن يعيش اليهود فى سيناء . فوجود اليهود هناك يدنس جبل سيناء الذى اكتسب قداسة بسبب كشف الله لموسى (١١٧) .

ومع أن الرهبان المسيحيين كان ينظر اليهم باعتبارهم كفارا ، الا أنه كان يسمح لهم أن يسكنوا جبل سيناء ، وقد منحوا عهدا بالحماية . ومن الجدير بالذكر أن حاكم مصر المسلم يكرر — بموافقة ظاهرة — الاتهامات الدينية وغير الدينية التى وجهها الرهبان ضد اليهود (١١٨) . ومع ذلك، يمكن أن نستخلص منها أن اعتناق المسيحيين للاسلام كان شائعا ولكن اعتناق اليهود كان نادرا للغاية . بالطبع ، اعتنق بعض اليهود الاسلام ؛ فسير الجبرتى تشمل المعتنقين من اليهود الذين حسن اسلامهم بل والذين صاروا علماء . اذ كان العديد من المماليك يهودا سابقين . غير أن حالات الاعتناق الكبيرة التى جعلت الجالية القبطية تتآكل فى مصر لم يكن هناك ما يضارعها بين اليهود . فبالنسبة للمسلمين ، كان المسيحيون فى مصر معتنقين محتملين للاسلام ، بينما لم يكن اليهود كذلك (١١٩) . اذ يناقش ابن نجيم المصرى ، (٩٧٠ هـ / ١٥٦٣ م) ، الذى كتب بغزارة فى الشريعة الاسلامية ، امكان اعتناق المسيحيين للاسلام ، مع أن نفس الصفحة فى كتابه تشمل العديد من الفتاوى المتعلقة باليهود (١٢٠) . وتشتمل الحوليات على بضعة أمثلة على مسيحيين اعتنقوا الاسلام للنجاة من الاضطهاد (١٢١) ، غير أن اليهودى كان يرفض العرض بأن يفعل الشىء نفسه . فى حالة واحدة حين كان يتم اعدام مسيحى ويهودى عن طريق الوضع على الخازوق ، صاح المسيحى وهو يتألم بالشهادتين (١٢٢) (وهى طريقه المسلمين لاظهار الايمان) ، ولكن اليهودى لم يفعل (١٢٣) .

فى تاريخ التصوف ، مررنا بمشايخ متصوفة من الذين أثروا فى مسيحيين مصريين ، ولكن هذا لم يحدث مع اليهود (١٢٤) ، فلم يعتنقوا الاسلام .

الاتجاهات الدينية نحو الذميين

فى الشريعة الاسلامية الكثير مما يقال عن مكانة الذميين · وكان العلماء متداخلين فى الأجهزة القضائية والادارية فى النظام العثمانى ، ولقد بذلوا قصارى جهدهم كى يراعوا أحكام الشريعة المتعلقة بالذميين · وتحفظ الملخصات القانونية ومجموعات الفتاوى مكانا لموضوع الذميين · ان ابن نجيم الذى قد يصلح مثالا على اتجاهات الفقهاء المصريين ، لم يقترح أى آراء جديدة (ربما يقصد اجتهادية : المترجم) وبنى آراءه على سوابق من مذهبه الحنفى · ذلك أن نبرة حججه معتدلة ويعكس اتجاهه المزيج التقليدى من التسامح مع الذميين وازدرائهم : فهو يصر على دمجهم فى المجتمع ، ودونيتهم ، غير أنه دافع عن حقهم فى حياة آمنة · فحكم ، مثلا ، أن القاضى لاينبغى أن يقبل شهادة المسلم ضد الذمى ، اذا كان من المعروف أن الشخصين عدوان (١٢٥) ·

لقد استفتى ابن نجيم كيف يجب دفن الزوجه اليهودية لمسلم كانت حاملا حين توفيت · وعلى عكس رأى (أبو يوسف) الفقيه الحنفى الشهير (المتوفى ٧٩٨) القائل بأن مثل هذه المرأة يجب أن تدفن فى مقابر المسلمين ، حكم ابن نجيم بأنها يجب أن تدفن فى المقابر اليهودية ، وظهرها الى القبلة بحيث ان الطفل غير الوليد (الذى يعد مسلما حسب الشريعة الاسلامية) يمكنه أن يواجه القبلة (١٢٦) · كما نظر ابن نجيم فى مسألة تدمير دور عبادة الذميين أو اغلاقها · ذلك أن تدمير الكنائس والكنس فى عهد المماليك فى مصر موضوع موثق بطريقة جيدة ، غير أن الأمر ليس كذلك فى مصر العثمانيـــة · اذ وافق الكاتب المتصـــوف عبد الوهــاب الشعرانى ، معاصر ابن نجيم على هدم الكنائس والكنس ، طالما على المؤمنين أن يتمسكوا بما هو صالح ويحظروا ما هو غير صالح · غير أنه حذر بأن هذا لا يتم الا اذا أمرت السلطات بذلك · وألا يفعل أحـــد ذلك بمبادرة شخصية منه (١٢٧) · غير أن ابن نجيم أفتى بأنه اذا ما أغلقت كنيسة أو كنيس ولو بلا مبرر ، كما حدث حين أمر بذلك قاض شهير هو محمد بن الياس ـ أى باغلاق كنيس فى حارة زويلة فى أوائل الحكم العثمانى فى مصر ـ فلا ينبغى فتحه · فحسب رأى ابن نجيم أنه حتى لو وصل فرمان سلطانى باعادة فتحها ، فلن يجرؤ حاكم محلى (الباشا) أن يطيع الفرمان خوفا من رد فعل الأهالى (١٢٨) ·

وعمليا ، كان على الذميين أن يمثلوا أمام المحاكم الاسلاميـة بالرغم من أنهم يسيرون أمورهم فيما بينهم • فمثلا كان على الذميين أن يذهبوا الى قاض حين يلزم اعتماد احدى الوثائق من جانب المحكمة • كما حدث حين استأجر أحد اليهود ملكية تخص وقفا اسلاميا (١٢٩) والمشاجرات بين الجاليتين اليهوديتين : الرابيين والقرائين التى لم يستطيعوا تسويتها بأنفسهما ، كانت تعرض على المحاكم الاسلامية • ففى احدى الحالات ، توجه اليهود القراءون الى أحد القضاة الذى أمر بأن يتم الاعتراف برغبتهم وهى أن يعتبروا جالية يهودية منفصلة (١٣٠) • وثمة خلافات داخلية أخرى يهودية عرضت على قاض تتعلق بالجالية المستقرة والقادمين الجدد من بلاد شرقية غير محددة يسمون مشارقة • وطلب من الفقيه الأجهورى المتوفى ١٦٥٦ أن يدلى برأيه فى المشكلة الآتية : ان اليهود فى مصر يملكون صندوقا للاحسان للعناية بالمحتاجين من أعضاء الجالية • وحديثا دخل أناس من الشرق يسمون أنفسهم يهودا • وهم أصحاء وليست لديهم أى حاجة للاحسان ، وبعضهم تجار • الا أنهم يطالبون باحسـان من الصندوق ، غير أن المتبرعين أسهموا بالمال بشرط ألا تقدم المساعدة سوى للفقراء • ومن ثم فان السؤال الموجه للأجهـورى : هل للشرقيين حق فى طلب المساعدة من الصندوق ؟ وكما يمكن أن نتوقع ، فلقد حكم ضد القادمين الجدد (١٣١) •

ولم تكن العلاقة بين الذميين ورجال الدين مقصـورة على الاسـلام المعيارى السنى • اذ كان عبد الوهاب الشعرانى مثالا طبق الأصل لمن يمثل المعتقد الاسلامى فى مصر ، كتب أن كراهيته لليهـود والمسيحيين كتبها الله ، ومع ذلك ، كان الشعرانى يؤمن أنه من بين الفضائل التى أسبغها الله عليه هى أن اليهود والمسيحيين اعتبروه رجلا مباركا وطلبوا منه أن يكتب تعويذة أو أحجبة للمرضى من أبناء دينهم (١٣٢) •

لا غرو أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، قال لين « Lane » : من السمات الملحوظة فى شخصية شعب مصر وغيرها من البلاد ، فى الشرق أن المسـلمين والمسـيحيين واليهود ، يؤمنون بخرافات بعضهم البعض بينما يمقتون المذاهب الرئيسية الموجودة فى عقيدة كل منهم (١٣٣) •

الفصل التاسع

الحياة فى القاهرة العثمانية

ديموجرافية السكان والنمو الحضرى

كانت القاهرة العثمانية تتألف من ثلاث وحدات : القاهرة وهى المدينة الفاطمية داخل الأسوار ، والأحياء الملاصقة لها الى الشمال والغرب والجنوب ، ومصر القديمة ، أو القاهرة القديمة وهى بلدة متهالكة نوعا ما ، وتقع جنوب غرب القاهرة وتبعد بحوالى ٢ر٣ كيلو مترا ، وبولاق ، وهى على بعد كيلو متر نحو الغرب من القاهرة ٠

كانت القاهرة ، أكثر اتساعا من حيث منطقتها ، وعدد سكانها من المدينتين التابعتين لها مجتمعتين ٠ وكانت القاهرة القديمة تقدم الخدمات اللازمة للقوارب الآتية فى النيل من الصعيد ، بينما كانت بولاق تفعل الشىء نفسه بالنسبة للسفن الواصلة اليها من موانى مصر الواقعة على البحر المتوسط ٠ وبما أن فكرة اقامة بلدية أو حكم محلى كوحدة قانونية أو ادارية لم تكن فكرة معروفة فى مصر العثمانية ، فلم يطرح قط سؤال ما اذا كانت (القاهرة الكبرى) هى وحدة واحدة أو ثلاث وحدات ، أو أنها مدينة كبيرة مع ضواحيها أو المدن التابعة لها ٠

لقد كتب الكثير عن تدهور القاهرة ، ومدن عربية أخرى ، أثناء الحقبة العثمانية ٠ وتعكس هذه النظرة تراجع القاهرة من حاضرة دولة الى عاصمة لاحدى الولايات ، وكذلك توقف تشييد منشآت عظيمة ، مثل المساجد والأضرحة العظيمة التى عرفت بها السلطنة المملوكية ٠ فلقد لاحظ أندريه ريمون André Raymond أن القاهرة بدأت فى الانهيار

قبـل الفتح العثمانى ، بسـبب تحويل طريق التوابل الهندية الى رأس الرجاء الصـالح وكذلك عدم الأمن الذى سـاد العقود الأخيرة من الحكم المملوكى . فى الحقبة العثمانية ، اسـتفادت القاهرة من التجارة التى نشّطت بسبب الحج السنوى الى مكة المكرمة ، وتجارة البن الدولية ، التى بدأت فى أوائل القرن السـادس عشر ، ومع الوقت احتلت المكانة التى كانت تشغلها تجـارة التوابل سابقا . وبالرغم من أن القـاهرة العثمانية لم تعد حاضرة دولة الا أنها كانت ما تزال مدينة بالغة الأهمية ، باعتبارها مقرا لأحد الباشوات (الولاة) ، ومركزا لعدد كبير من الجنود والموظفين الذين كانوا يستهلكون كميات كبيرة من البضائع الاستهلاكية.

ذلك أن نشاط القاهرة المنتعش والحى ، وجد تعبيرا له فى كثرة القوافل والأسواق الشرقية وطوائف الحرفيين والتجار (١) .

وأثناء قرون الحكم المملوكى ، لم تتوسع القاهرة الا توسـعا ضئيلا خارج حدود القـاهرة الفـاطمية . أما أثنـاء القرنين الأولين من الحكم العثمانى ، فلقد نمت مساحة المدينة . ذلك أن خريطة القاهرة عام ١٧٩٨، حين وصفها العلماء الفرنسيون بالتفصيل فى كتاب وصف مصر ، تبين توسعات كبيرة فى المناطق السكنية نحو الغرب الى ما وراء باب زويلة فى أقصى جنوب القاهرة وفى اتجاه الغرب فيما وراء الخليج ، أى الترعة . ويلاحـــظ ريمون جانبين لنمو المدينة : نقل المدابغ بعيدا عن المنـاطق السكنية لما تبعثه من رائحة كريهة جدا من جنوب باب زويلة عام ١٦٠٠ الى جـوار باب اللوق وهى منطقـة فى أقصى غرب المدينة ، وبذلك أصبح فى امكان المناطق جنوب المدينة أن تتطور . بالاضافة الى هذا ، انتقلت مناطق الأثرياء السكنية نحو الجزء الغربى للمدينة . ففى بداية القرن السـادس عشر ، بنى معظم الأمراء منازلهم فى القـاهرة وبالقرب من القلعة ، وفى النصف الثانى من القرن السـابع عشر ، فضلوا المنطقـة الواقعة حول بركة الفيل والخليج ، بينما فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كانت معظم الأحياء الراقية حول بركة الأزبكية (٢) .

لقد كانت الحقبة العثمانية حقبة زيادة سكانية . ولسوء الحظ ، لا توجد معطيات دقيقة تتعلق بسكان القاهرة فى أوائل القرن السادس

عشر • لقد كانت القاهرة هى أوسع مدينة عثمانية بعد اسطنبول • ويمدنا القانون الصادر عام ١٥٢٥ ببعض الأرقام التى قد تشير الى حجم القاهرة بالنسبة لغيرها من بلدان مصر الأخرى • فمثلا كان على مخازن الغلال العثمانية أن تبيع للقاهرة ١٠٠ر٠٠٠ أردب من القمح • ولرشيد ٢٠٠٠ ، ودمياط ٣٠٠٠ ، والاسكندرية ١٠ر٠٠٠ (٣) • لذا فمن المعقول، أن نفترض أن القاهرة كانت على الأقل ، أكبر من الاسكندرية بعشر مرات • فطبقا لما ذكره بير Bear ، كان بالقاهرة ثلثا سكان مدن مصر بالكامل (٤) • ولا تتوافر لدينا أرقام أقدم من عام ١٨٠٠ ، حين قام جومار Jomard ، وهو أحد مؤلفى كتاب وصف مصر ، بتقدير سكان القاهرة بـ ٢٦٣ر٧٠٠ (٥) • ويقول ريمون ، ان هذا الرقم يبين أن عدد سكان القاهرة فى نهاية الحقبة العثمانية كان أكبر بكثير مما كان عليه فى بداية القرن السادس عشر ، حين كان ، بالتأكيد أقل من ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة • ويقدر ريمون أنه فى القرن السابع عشر ، فاق سكان المدينة ٣٠٠ر٠٠٠ •

لقد صمدت قوة المدينة السكانية فى العقود الأخيرة المليئة بالكوارث من القرن الثامن عشر ، حين تقلص عدد السكان نتيجة لسلسلة من أوبئة الطاعون والمجاعات ، والاستغلال الاقتصادى القاسى ، والنزاعات بين الفرق (٦) •

ورغم ندرة المعطيات السكانية ، الا أنه يبدو أن التغييرات السكانية فى القاهرة العثمانية ، نتجت كليا عن المواليد والوفيات حيث كانت الهجرة الى الداخل أو الى الخارج مجرد هجرة هامشية • اذ كان الانتقال قليلا من القرى الى المدينة • ففى زمن المجاعة ، كان الفلاحون يحضرون بحثا عن الطعام غير أنه لم يكن مسموحا لهم بالبقاء • فكان أولئك الذين لا يعودون الى بلادهم يعاقبون عقابا شديدا ثم تتم اعادتهم لحراثة الأرض • وكانت هناك بعض الاستثناءات من هذه القاعدة ، وأهم هذه الاستثناءات العلماء الذين كانوا يهاجرون الى القاهرة ، من الريف • ولكن بالرغم من الأهمية الاجتماعية والثقافية لهذه الهجرة ، الا أنها لم تكن تذكر من الناحية العددية (٧) •

لقد كانت القاهرة العثمانية ، مدينة شاسعة ، بالمقاييس المعاصرة وكان الرحالة يتأثرون تأثراً كبيرا بسعتها واختلاف أجناس سكانها . ان جميع الروايات التى كتبت عن القاهرة ، سواء كتبها أتراك كمصطفى على وافليا شلبي أو التى كتبها الزوار من المغاربة أو الكثير من الأوربيين ، تصف دهشة مؤلفيها من منظر هذه المدينة الواسعة بما فيها من أعداد كبيرة من الأجانب والتجار وغيرهم من شرائح المجتمع (٨) .

الجماعات العرقية فى القاهرة العثمانية

اعتمادا على وصف مصر ، يعطى ريمون التقسيم العرقى التالى لسكان القاهرة عام ١٨٠٠ : أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ من المسلمين من أهل البلاد المصريين ، ٢٥٫٠٠٠ من المسلمين الأجانب (*) ، ١٠٫٠٠٠ من الأتراك ، ١٠٫٠٠٠ من المغاربة و ٥٠٠٠ من الشوام و ٢٥٫٠٠٠ من الأقليات الدينية (١٠٫٠٠٠ من الأقباط ، ٥٠٠٠ من اليونان ، ٥٠٠٠ من الشوام الكاثوليك ، ٢٠٠٠ من اليهود ، و ٢٠٠٠ من الأرمن) ، و ١٢٫٠٠٠ من أعضاء الطبقة الحاكمة من مماليك وجنود من أصل تركى أو أصول أخرى . وجالية صغيرة من التجار الأوربيين (٩) .

وكان الناس الذين ينتمون الى أصل عرقى مشترك أو دين يميلون لأن يحيوا ويعملوا معا فى أماكن متجاورة محددة بوضوح أو أحياء (حارات) . وبصفة عامة كانت كل مجموعة تتخصص فى أنشطة اقتصادية أو تجارية معينة . ولقد سبق لنا أن ناقشنا الأقباط واليهود فى مكان آخر من هذا الكتاب (١٠) . وكان الأتراك يشكلون أكبر مجموعة أجنبية (**) وعاشوا فى منطقة خان الخليلى ، السوق الشهيرة . واشتغلوا

(*) لابد أيضا أن يؤخذ هذا المصطلح بتحفظ ، فالفلاحون كانوا ممنوعين من الاقامة فى القاهرة ، الا اذا التحق واحد منهم فى الأزهر .

(**) استخدام لفظ أجنبية فى هذه الحالة وحالات أخرى يجب أخذه بتحفظ ، فمفهوم « الوطنية » كما نعرفه اليوم لم يكن واضحا فى هذه الفترة على هذا النحو ، ومن المؤكد أن كل هذه العناصر — أو غالبها — لم تكن تعتبر نفسها أجنبية — (المراجع) .

بالتجارة على نطاق صغير ، بصفة رئيسية فى تجارة التبغ الذى كثيرا ما كان محل استياء المسلمين الأتقياء ، ولكنهم أيضا اشتغلوا بتجارة البن والأقمشة (١١) .

لقد استقر القادمون الجدد من المقاطعات التركية الأخرى فى مصر وكانت الفوارق الكبيرة بين الأتراك وأولاد البلد من المصريين من حيث الطبع والمظهر ، أبرز من أن تغيب عن ملاحظة الرحالة الأجانب والمراقبين المصريين على حد سواء . غير أنه لا بد أن التزاوج بين الأتراك وأهل البلاد من المصريين كان كثير الحدوث (وان كان أكثر حدوثا بين الطبقات الدنيا منه بين الخاصة) ، كما يمكن أن يتضح فى ملاحظات مصطفى على عام ١٥٩٩ : « نادرا ما يكون أطفال الناس الذين هم من أصل مصرى يتسمون بالجمال ... وحين يظهر شاب حسن المنظر من آن لآخر ، بينهم ، فلسوف يتضح أنه بالتأكيد اما تركى (رومى) أو ابن تركى (رومى زاده Rumizade) . وحتى بين أولئك الذين هم من أصل (رومى) ، فان أولئك الذين ينتمون الى الجيل الأول يكونون أحسن منظرا ويتدهور من ينتمون الى الجيل الثانى أو الثالث من حيث المنظر » (١٢) .

كما سبق أن لاحظنا ، فان سمعة الأتراك بالافتقار الى التقوى كانت أسوأ من سمعة المصريين (*) كذلك فان ميلهم لتحبيذ الصوفية أمر أكثر شهرة من أن يحتاج الى تفصيل فى هذا المجال . غير أنه فى الحادث الشهير الذى وقع عام ١٧١١ م ، حرض واعظ تركى غيره من الأتراك فى القاهرة ضد عبادة الأولياء (١٣) (**) .

لقد رسخت المجموعة المغربية الكبيرة المؤلفة من التونسيين والجزائريين نفسها بسبب الحج وبسبب صلاتهم التجارية . ولما كان المغاربة تجارا صغارا فى البن والأقمشة ، فلقد تحلقوا حول الأسواق الرئيسية فى الغورية والفحامين ، وبجوار مسجد ابن طولون .

(*) من المعروف أن المصريين من أكثر الشعوب تدينا وان اختلط تدينهم بالخرافة فى أحيان كثيرة ، وربما يشير المؤلف لجماعة العلوج (جمع علج) وهم الذين أسلموا ولم يحسن اسلامهم وكان لهم دور فى الحياة المصرية (راجع مقدمة المراجع لآخرة المماليك لابن زنبل) نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - (المراجع) .

(**) المقصود التمسح بالأولياء - (المراجع) .

ولقد عرفت عنهم التقوى ، وحالتهم المزاجية النـارية الميـالة الى المشاجرة وروح الجماعة • اذ كان الرحالة المغاربة يتلقون ضيافة تتسم بالدفء • كذلك احتفظت الجالية بروابط وثيقة مع الرواق المغربى فى الأزهر (١٤) •

أما الجماعة الشامية ، الأقل عددا والأضعف من سابقتيها ، فكانت تتاجر فى البن والأقمشة والمصنوعات الشامية وعلى الأخص ، الصابون • وتركزت هذه الجالية حول خان الحمزاوى وفى حى الجمالية (١٥) •

لقد كان اليونان جاليـة تجاريـة أخرى • كما تخصص الأرمن فى أعمال الحدادة والبناء • أما الكاثوليك الشوام ، الذين لم يصلوا سوى فى بدايـة القرن الثـامن عشر ، فكانت لهم أهميتهم فى حياة القـاهرة الاقتصادية بسبب ما كان لهم من صلة مع التجار الأجانب •

وكان الأوربيـون (الافرنج) وغالبيتهم من التجـــار الفرنسيين والايطاليين ، يعيشون ويتاجرون على طول الخليج وبالقرب من الأسواق الكثيرة لأسباب اقتصادية وأمنية (١٦) •

الأمن والجريمة والرذيلة والعدل

الجريمة والرذيلة

لم تكن القاهرة ، شأنها شأن كل مدينة كبرى ، تخلو من الجريمة • ولقد ضمن التحصين أن يبقى مستواها منخفضا نسبيا ومحتملا ، الى حد جعل المؤرخين الحوليين يعتبرون موجـات الجريمة شيئا غير معتاد • كان النشالون ينشطون فى المدينة ، غير أنهم كانوا تحت السيطرة : اذ كان الوالى (رئيس الشرطة) يسجلهم وكانوا يعتبرون احدى الطوائف ، وان كانت طائفة غير أخلاقية (١٧) • أما من كانوا أكثر منهم فهم عصـابات السطو (المنسر) الذين كانوا من آن لآخـــر يثيرون الرعب فى منـاطق بأكملها • وفى المناطق المتطرفة من الضواحى من مصر القديمة وبولاق ،

باعتبارهما معرضتين للخطر بشكل خاص ، وباب اللوق فى أقصى غرب القاهرة كان معروفا بكونه مركزا للجريمة والرذيلة · اذ كانت عصابات الشطار والزعر والحرافيش نشطة فى الأماكن المجاورة الفقيرة وكذلك الأحياء المتطرفة (الحارات البرانية) ، مثل الحسينية ، والعطوف (جمع عطفة) وكفر الزغانى ، والقرافة والحطابة وعرب اليسار وباب اللوق · اذ يروى افليــا شلبى أن المناطق المجاورة لباب اللوق كانت قصرا على المجرمين الذين كانوا يخدرون الشباب لكى يسرقوهم بل ويقتلوهم (١٨)· وفى ميناء بولاق النهرى ، كان قطاع الطرق كثيرا ما يداهمون البيوت والحوانيت والقوارب · ويصف فرمان عثمــانى بتاريــخ ٩٢٨ هـ / ١٥٧٤ م بولاق كمكان خطير حيث ينشط المجرمون ، هم والعرب البدو ، الذين يذكرون بالتحديد · فيؤمر الوالى (رئيس الشرطة) بارسال قوة كى تقوم بالحراسة هناك ليل نهار (١٩) · وفى احدى الحالات ، عام ١١٤٧ هـ /١٧٣٤ م ، داهم اللصوص الوقحين غرف نوم السكان وانتشلوا المجوهرات من النساء عنوة ، وقالوا لأزواجهن : « لقد أنقذت حياتكم ، لأنكم تحت حماية نسائكم » (٢٠) · وتوجد روايات عن ضحايا السطو فى مناطق مزدهرة بالأعمال نسبيا تم التعويض عنها · ففى ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م ، أفرغ اللصوص محتويات ثمانية مخازن فى السوق بالقرب من منطقة ابن طولون · فشكا الملاك ، وهم من التجــار المغــاربة ، فعوضهم رئــيس الشرطة بكيسين · وبعد موجة مشابهة من السطو فى منطقــة بركة الرطــلى ، قدم الســـكان عريضـــة كانت نتيجتها عزل رئيــس الشرطة (٢١) ·

كان هناك نوع آخر من الجريمة يصعب منعه ، اذ ان مرتكبيه هم أنفسهم المسئولون عن الأمن ، أى الجنود · اذ تروى الحوليات عن الكثير من الحالات عن تحرش الجنود بالأطفال والنساء وكذلك ممارستهم السرقة· ومن أبشع الجنود ، بصــفة خاصة ، من حيث عدم انضباطهم وقسوتهم السراجـة Serrajs أى مساندو بكوات المماليك الراكبون ، خاصة أثناء تسلم جركس محمد بك للسلطة فى أوائل القرن الثامن عشر · فلقد ركبوا خيولهم خلال شوارع القاهرة شاهرين سيوفهم وبنادقهم وفعلوا ما حلا

لهم فعله · اذ انه فى احدى الحالات الشهيرة ، فاجأ العديد من السراجة مجموعة من النساء وخادماتهن وهن يتنزهن ويتناولن الطعام بالقرب من بركة الأزبكية وجردوهن من حليهن وكل متعلقاتهن · بعد ذلك ، منعت السلطات النساء من مغادرة بيوتهن بلا حماية (٢٢) ·

وتروى روايات أخرى عن جنود كانوا يسرقون الملابس من الحمامات العمومية أو يختطفون أغطية رؤوس الرجال فى الشوارع ·

كانت الأيام السـابقة على خـروج الجنود فى حملة ما لها خطورة خاصة بالنسبة للنسوة والصبية · وعلى سبيل الاحتياط ، كانوا يمنعون من الخروج الى الشوارع حتى ترحل القوات (٢٣) ·

وثمة فرمان بتاريخ ٩٨١ هـ / ١٥٧٤ م ، يأمر بأن الجنود الذين يؤذون الأهالى يجب أن يحاكموا حسب الشريعة الاسلامية ، التى تفرض عقوبة الاعدام على جرائم القتل وألا يحميهم أربابهم فى الجيش (٢٤) ·

من الواضح أن الدعارة كانت منتشرة انتشارا تاما فى المدينة ، بالرغم من اتجاه الحكومة واستنكار العلماء · فبالرغم من أن الدعارة غير مشروعة ، الا أنها تقابل بالتسامح ، ذلك لأن بضعة مسئولين كانوا يحصلون على دخول منتظمة من ورائها · لذا كانت المحاولات التى تجرى لقمعها دائما ما تصحبها اجراءات ضـد المشروبات الروحية ، كالنبيـذ والبوظة (نوع من البيرة) (٢٥) ·

ويروى ابن اياس حالة تصرفت فيها السلطات تصرفا حازما ضـد الدعارة والشراب ابتغاء مرضاة الله وذلك حين لا يرتفع النيل فى موعده· وفى رجب عام ٩٢٥ هـ / يوليو ١٥١٧ م ، أمر الباشا باغلاق جميع الحانات وغرز الحشيش واغراق عوامة تسمى أنس (بضم الهمزة وتسكين النون) فى النيل · ويلاحظ المؤرخ الحولى بسخرية أنه بمجرد ارتفاع النيل ، عاد كل شىء الى حالته المعتادة ، حيث ان العثمانيين أنفسهم كانوا يبيعون المشروبات الروحية ، وسمح لبنات أنس أن يعملن بمهنة أمهاتهن (٢٦) ·

وينص قانون البلاد (قانونى نامه مصر) أنه فى احدى المرات تجاهلت السلطات التعديات ضد الشريعة وذلك بالتساهل مع الشراب والدعارة ، اللذين كانا مصدرا للعوائد والضرائب (مقاطعة) (٢٧) · وبالرغم من هذا الموقف الرسمى القوى ، الا أن الشراب والدعارة لم يتوقفا ، رغم أن الباشوات ، من آن لآخر ، تصرفوا بمبادرة منهم ، أو دفعوا للتصرف بواسطة فرمان من اسطنبول · وفى احدى الحالات ، دفع الباشا ١٢ كيسا لرئيس الشرطة لتعويضه عن خسائره من الأرباح (الضرائب) التى تأتيه من الرذيلة وشرب الخمر (٢٨) ·

يقدم افليا شلبى أكثر من وصف تفصيلى للدعارة فى القاهرة فى القرن السابع عشر · اذ كانت النساء ــ كما هو الحال فى المهن الأخرى ــ ينتظمن فى هيئة رغم أنها كانت توصم بأنها مهنة لا أخلاقية · فكانت بعض النساء يسرن فى الشوارع ويمكن مشاهدتهن بالقرب من باب اللوق · وكانت عاهرات الطبقة الراقية تستقبلن الزبائن فى بيوتهن ، وتعملن من خلال قواديهن (*) · وكانت جميع العاهرات مسجلات لدى الشرطة · يستثنى من هذا من كن تحت حماية الجيش ، (أو الشرطة فالفوارق بينهما كانت غير واضحة فى هذا العصر ــ المراجع) أى من كن يدفعن نقودا لضباط عسكريين ، (السوباشى أو الوالى) (**) ويدفعن الضرائب · كما يذكر افليا شلبى العاهرين الذكور (الشواذ) الذين كانوا ينشطون بالقرب من باب اللوق (٢٩) (***) ·

الأمن وحفظ السلام فى القاهرة

كما أشرنا من قبل ، لم يكن للقاهرة وضع الحكم البلدى أو المحلى · لذا كانت هناك وحدات تحت امرة الباشا مسئولة عن الأمن · ولم يكن

(★) أى أن لكل عاهرة منهن قوادها الخاص بها ، أو مجموعة القوادين الملحقين بخدمتها ·

(★★) الوالى هنا هو رئيس شرطة القاهرة ، وليس الباشا (والى مصر العثمانى) ·

(★★★) تتفق كتب الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن السابع عشر على ما أورده المؤلف · راجع على سبيل المثال رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الالف كتاب الثانى ·

هنـاك فرق واضـح بين الشرطة والجيش · اذ كانت بعض الفعاليـات العسكرية والكتائب مسئولة عن واجبات الشرطة ، أما المسئولية النهائية فكانت مسئولية الباشا نفسه ·

وفى القرن الأول من الحـكم العثمانى ، حين كان الباشـا الحاكم ما يزال قويا ، وأحيـانا فى القرن السـابع عشر أيضا ، كان الباشوات يتعاملون شخصيا مع الجريمة فى القاهرة · فكثيرا ما تصف الحوليات سياسة أحد الباشوات ، بأنها حازمة أو ضعيفة كما تصف الكيفية التى كان ينفذ بهـا سـيـاسته · اذ قمع خسرو Khusreu باشا (١٥٣٤ ـ ١٥٣٦) ، الجريمة بشكل شديد الفعالية ، حتى ان أصحاب الحوانيت كان يمكنهم أن يدعوا حوانيتهم مفتوحة ليلا · وقيل عن مسيح باشا (١٥٧٥ ـ ١٥٨٠) ، انه أمر بأن تقطع أذرع اللصوص وأقدامهم ، وأن يلقى بها فى الشارع · ولقد لقب حسين باشا (١٦٣٥ ـ ١٦٣٧) (المجنون) بسبب افعاله القاسية والشاذة · فلقد أشرف شخصيا على انفـاذ فرمان يمنع التدخين علنا · اذ كان يتجول فى الشوارع متنكرا بحيث لا يتعرف عليه أحد وحكم بالاعدام الفورى على حوالى ٥٠ شخصا ضبطوا وهم يدخنون · ومن ناحية أخرى ، كان مصطفى باشا (١٦٤٠ ـ ١٦٤٢) ساذجا أطلق سراح المجرمين · اذ كان واليه (رئيس شرطته) فاسـدا فأطلق سراح اللصوص فى مقابل دفع الرشاوى · ففى أثناء فترة حكمه ، تم السطو على ٤٨ حانوتا ،فى وقت واحد ، فاشـتكى أصـحاب هذه الحوانيت فعزل الوالى (٣٠) · ومع تدهور سلطة الباشوات ، بعد القرن السادس عشر ، تناقص أيضا دورهم فى المحافظة على القانون والنظام ·

كما كان هناك ضباط برتبـة بك مسئولون عن أمن بعض المناطق داخل القاهرة الكبرى · ويروى أن البكوات كانوا مسئولين عن الحرس الموجودين فى المناطق البعيدة مثل بولاق ومصر القديمة والامام الشافعى وسبيل علام · وطبقا لافليـا شلبى ، كان على البك نفسـه أن يعوض ضحايا السرقة أو السـطو (٣١) · وكان يسمى الموظف المسئول عن المحافظة على السلام فى مناطق معينة باسم صاحب درك ، وهو لفظ يعرف بشكل أفضل من حيث علاقتـه بطريق الحجيج الى مكة (٣٢) · وكانت

القوة المسئولة مسئولية مباشرة ونظامية عن المحافظة على الأمن هى الحامية وكتيبتى المشاة الخاصتين بها ، وهما الانكشارية والعزاب · وكانت الانكشارية ، عادة ، عبارة عن دوريات ، والعزاب حراسة ليلية · كما كانت هناك أقسام حراسة ، تسمى قولوق ، تتألف من الجنود · ان الأغا ، أو قائد كتيبة الانكشارية ، الذى كان هو الضابط الحاكم للحامية العثمانية بكاملها فى مصر ، هو أعلى سلطة فى الشرطة ، وكان يتمتع بسلطات واسعة فى انزال أقصى العقوبات · وكان يخضع لرئاسته قائد الشرطة ، (الوالى) (٣٣) أو السوباشى (بانتركية) أو زعيم وان كان ذلك يطلق فى مرات أقل · وكان هناك ثلاثة ولاة ، واحد للقاهرة ، وآخر لبولاق ، وثالث لمصر القديمة · وكان الأغا يقوم بالدورية أثناء النهار ، والوالى أثناء الليل (٣٤) · وكان المحتسب يمارس أيضا سلطة الشرطة · اذ انه فى عصور الاسلام الوسطى ، كان المحتسب يراقب وينظم جميع الأسواق والحرف ، حتى فى قاهرة نهاية عصر المماليك وبداية عصر العثمانيين · فكان بركات بن موسى ، محتسبا شديد النفوذ ، وكانت سياساته للحفاظ على استقرار هادىء سياسات شديدة القسوة (٣٥) ·

ومع الوقت ، فقد المحتسب قدراً كبيرا من سلطته · اذ كانت واجباته ، محدودة بصفة رئيسية ، بوضع الموازين موضع التنفيذ ، وكذلك المقاييس والأسعار فى أسواق الطعام · فكان يجول راكبا فى المدينة ، يسبقه ضابط يحمل ميزانين كبيرين ، ويتبعه جنود وخدم · كما كان يتزعم الاحتفال بليلة الرؤية عشية رمضان ، وهو ما سبق وصفه (٣٦) ·

لقد زاد الفتح العثمانى من سلطة القاضى على حساب سلطة الوالى (المقصود هنا رئيس الشرطة) والمحتسب · اذ يحدد القانون أن الوالى لن تصبح له بعد الآن وظيفة قضائية ، اذ ان هذه الوظائف سوف تصبح من اختصاص القاضى دون سواه · وبالمثل ، فان أى شجار فى المدينة كان المحتسب يتعامل معه قبل الفتح ، صار الآن تحت حكم القاضى (٣٧) · وكانت الحارات عبارة عن جاليات متجانسة · وكانت هذه الجاليات تتمحور حول انتماء معين (دينى أو عرقى أو مهنى) · وكانت تحمى هذه

الحارات بوابات عند المدخل ، عادة من طريق واحـد يفضى الى الحارة • وكانت أبواب الحارة تغلق ليلا • ولم يكن الحارس الليلى يسمح بالدخول سوى لمن يعرفهم • وثمة مؤشرات الى أنه أثناء الحقبة العثمانية أصبحت الحـارات أكثر حمايـة بل وتحصـينا مما كانت عليـه تحت حـكم المماليك (٣٨) • فبعد الاحتلال مباشرة ، أمر السلطان سليم بفتح الدروب فى مدخل الحارات وأن تبنى الأسوار لصد الدخلاء • ولقد فعل ذلك حين خشى من القوات غير المنضبطة • ويقول ابن اياس ، ان السـكان قاموا بتضييق البوابات الواسعة لكى يسـدوا الطريق أمام مرور الخيالة (٣٩) ويقول ان خسرو باشا قد طور الأمن العام وذلك بتقوية أسوار الحارات وبواباتها •

وفى أزمنة الأزمات ، كانت تصدر الأوامر للسكان باغلاق البوابات، غير أنهم أحيانا ما كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم • اذ تكون انطباع جيد لدى مصطفى على (٤٠) عن يقظة خفر الليـل المصريين والمسئولين عنهم الذين يبقى بعضـهم البعض الآخر يقظا حتى الصـباح بالصيحات (المتواليـة) (٤١) •

لقد كان حظر التجول الليلى اجراء أمنيا فرض أثناء أوقات الخطر ، حين يكون هناك خوف من أن يتسبب الجنود ـ أو اللصوص ـ فى احداث المتاعب • اذ انه قد حدث ، على الأقل ، أن طلب السـكان أنفسـهم أن يفرض حظر للتجول (٤٢) •

العقوبـة

كثيرا ما أعلن أن من يعصون الأوامر ، مثل تلك المتعلقة بالاجراءات الاقتصادية (كمعدلات الصرف الجديدة ، أو فتـح الحوانيت) وكذلك الأوامر المتعلقة بالأمن العام (كالبقاء داخل المنـازل أثناء حظر التجول الليلى) سيدفعون حياتهم ثمنا لهذا العصيان •

ولقد تم اعدام الكثيرين فورا بشكل عاجل بناء على قرار الحاكم ، أو مرؤوسيه أو أحد الأمراء دون الاستماع لهم أمام أحد القضاة • اذ انه

اجراءات الشريعــة كثيراً ما كانت تجعل اعدام هؤلاء أمرا صعبا ، كما أن الشريعة تحد من العقوبات ، بما فى ذلك طريقة الاعدام · ذلك أن الكثير من الناس كانوا يعدمون على جنح تافهة حسب نزوة أحد الباشــوات ، أو أحد الأمراء ·

لقد تعددت طرق الاعدام ، مثل التمثيل بالجثة ، والتعذيب ، وغير ذلك من العقوبات القاسية والاذلال التى يصفها مؤرخو القاهرة العثمانية وصفا تفصيليا :

لقد كان الاعدام بالخازوق طريقة شائعة بصفة خاصة · ففى بداية تلك الحقبة ، وضع رئيس الشرطة أربعــة وعشرين رجلا على الخازوق ، فى يوم واحد ، كان معظمهم من اللصوص ومزيفى العملة · وكانت النساء اللاتى يتهمن بالسلوك الشائن أحيانا ما يربطن بذيل حصان ، ويتم جرهن فى الشوارع (٤٣) ·

وكانت هناك طريقة شنيعة للاعدام ، وهى تقشير جلد المذنب وهو على قيد الحياة ثم ملء جلده بالقش ، ثم يوضع على ظهر حصان ويعرض أمام الديوان (٤٤) · وكانت هذه الطريقة يختص بها قطاع الطرق (وهم غالبا من زعماء العرب) · وكانت هناك عقوبة أخرى قاسية وهى الخدمة كمسيرى الدفة فى غلايين البحرية العثمانية · وكانت هذه العقوبة يختص بها أولئك المجرمون الذين لا يستحقون الاعدام أو البتر · اذ كان المحكوم عليهم يتم ارسالهم الى الكابودان (القبطان) فى الاسكندرية أو السويس·

يتضح من العديد من فرمانات القرن السادس عشر أن الفترة التى كان على المتهمين أن يخدموا فيها كجدافين لا يحددها القاضى ، وانما تكون حسب احتيــاجات البحريــة · وكان هذا مناقضــــا للقوانين أو ارادة السلطان · ولم يكن يحتفظ بالرجال على السفن لغير ذلك من الأسباب · والأسوأ من ذلك ، أن الرجال كانوا أحيــانا يتــم اختطافهم من شوارع القاهرة ويرسلون الى السفن للعمل ، وكانوا عادة من الفــلاحين والبدو الذين حضروا الى المدينة · ويقول أحد الفرمانات بتاريخ ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م

ان أحد البكوات قد أرسـل بخمسين أو سـتين رجلا للعمـل على الغلايين بلا مبرر ، ولذا يأمر الفرمان باجراء تحقيق فى هذه الواقعة (٤٥) ٠

السـجون

المعلومات الخاصة عن السجون بالقاهرة العثمانية شحيحة ٠ اذ انه فى بداية الحقبة ، يتكلم الدياربكرى ، عن سجنين ، سجن الديلم وسجن الرحبة ، اللذين كانا تحت قضاء رئيس الشرطة وقاضى عسكر ، كل على حدة٠اذ كان السجن الأول مخصصا للعسكريين والبيروقراط Ehl-i-öfrt أما السجن الثـانى فكان للرعـايا العـاديين الذين حكمت عليهم محكمة يرأسـها أحد القضـاة ٠ وكان هناك سجن آخر ، العرقانة ، يقع داخل القلعـة ٠ وكان من بين من يحتجزون هناك الموظفون والوكلاء الماليون الذين يقصرون فى دفع ما عليهم من دين للخزانة ٠ ويصدق ما قيل عن الرجال الذين كانوا يرسلون الى البحرية على المساجين ٠ اذ تبين الفرمانات التى كانت ترسـل من اسطنبول الى السلطات المصرية أن ادارة العدل كانت قاصرة لا تتسم بالكفاءة ، حتى أثناء عصر الدولة العثمانية الذهبى بالرغم من أفضل نوايا الحكومة المركزية (٤٦) ٠ فمن ناحية كان أصحاب المناصب المصريون يتلقون أوامر باجراء مسح لأحوال السجون فى القاهرة وغيرها من المديريات وأن يطلقوا سراح من سجنوا ظلما أو أولئك الذين قضوا مدتهم ٠ ومن ناحيـة أخرى ، كانت السـلطات تتلقى تحذيرات بألا تطلق سراح السجناء دون ضمان ملائم (٤٧) ٠

الصـحة العامة

الطاعـون

كانت أوبئة الطاعون تظهر كل بضع سنوات ٠ وتسميها السلطات الطاعون أو فصل الوبـاء ٠ بالنسبة لانتشـار الوباء فى سنة بعينها ، غير أنها لا تقـدم سوى النزر اليسير من المعلومات ولا تـكاد تقدم أية أوصاف يمكن أن تعين على تحديد طبيعتها ٠

ومما لا شك فيه ، أنهـا كانت متنوعة · فمثلا ، أحد الأوبئة التي يقـال انها وصلت من الهند عن طريق اليمن ومكة لم يكن قاتلا وأمكن علاجه على ما يقال ، بأكل السكر والبرتقال المر (٤٨) · غير أنه يبدو أن المؤرخين الحوليين لم يشعروا أن النوع المعتاد من الطاعون يحتـاج الى توصيف : اذ كان دائما ما يقتل قسما كبيرا من الأهالى · وكان الافتراض السائد أنه نشأ فى الأراضى الواقعة الى الجنوب من مصر ، وفى الحبشة ، بصفة خاصـة ·

وكان الطاعون كثيرا ما يعرف بنعت خاص ، يشير بشكل ما الى طبيعته وظروفه ، مثل الاثيوبى أو الأصفر ، أو الرهيب ، أو مرض النبلاء والأطفال · ولقد عرف نوع من الطاعون فى حكم مصطفى باشا (١٦٢٤ ـ ١٦٢٦) ، يذكره النـاس « بالطاعون الهادىء » لأن البـاشا حظر نواح النسـاء المرتفـع المعتاد أثنـاء مواكب الجنازات كما حظر ارتداء ثيـاب الحداد (٤٩) السوداء · لقد فعل ذلك بغرض احتواء الذعر الذى كان الناس يشعرون به · وعادة كان الطاعون يدوم ما بين شهرين أو أربعة ، وأحيانا كان يستمر الى مدة سـبعة أشهر · ويقول لين Lane انـه فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، حين كان يحل الطاعون بمصر ، فان ذلك يكون عادة فى الربيع ، ويشتد هذا المرض فى فترة رياح الخماسين ، (وهى فترة تستمر حوالى خمسين يوما من أبريل الى مايو) (٥٠) · غير أن حوليى مصر العثمانية يشـيرون أيضا الى فترات أخرى ينشب فيها الطاعون ·

وتروى المصـادر المعـاصرة أرقاما شديدة المبـالغة لعدد ضحايا الطاعون · ومع ذلك ، فمن الواضح أن بعض أوبئة الطاعون دمرت أهالى القاهرة والبلاد ككل · فلقد قدر أن الطاعون الذى عم البلاد عام ١٧٨٤ ، مثلا ، قد قضى على سدس سكان مصر (٥١) · ويروى لين أن الطاعون الذى حدث عام ١٨٣٥ ، دمر ما لا يقل عن ٨٠٫٠٠٠ نسمة فى القاهرة ، أى ثلث السـكان (٥٢) · يتحدث المؤرخون الحوليون عن افراغ أحياء بأكملها بسبب الوباء ، كما يصفون عدد الجنازات الذى لا ينتهى (٥٣) ·

وكما يمكن أن يتوقـع ، بل كما يبين تاريخ الطـاعون فى حقبـة المماليك ، فلم تتأثر جميع أقسام السكان تأثرا متساويا (٥٤) • ذلك أن أشد المناطق اصـــابة هى تلك التى لم يطور أهلها مناعة طبيعية ، مثل المماليك الذين تم استيرادهم ، والجنود العثمانيين فى الأيام الأولى من الحكم العثمانى ، وكذلك الشباب • ففى الطاعون الذى نشب عام ١٧٩١ ، فنى ١٤ من ٢٤ من الســناجق البكوات ، كلهم من المماليـك • وفى السنة التالية ، قضى الوباء على الكثير من الملتزمين (٥٥) •

وفى احدى هبـات الوباء ، كان معظم الضحايا ما بين الرابعة عشرة والخامسة والعشرين وظلت الفتيات فى عزلة عن العالم الخارجى • وفى عام آخر ،أكد الناس أن الضحايا كانوا أناسا تعدوا سن الستين ، وفى احـدى المرات ، دهم الفيضـــان ضحايا من بين الأجانب والعبيد بشكل رئيسى (٥٦) •

كان الدعاء هو وسيلة الأهالى المعتادة لمواجهة الطاعون • وكان ثمة مكان مفضـــل بصفة خاصـــة للدعاء • ذلك المكان ، هو مسجد الجيوشى فى جبل المقطم وراء القلعة • ذلك لأن الناس كانوا يعتقدون آن الدعوات المرفوعة هناك يمكن الاستجابة لها • ولم تكن تتخذ اجراءات عملية • وفى هذا الصدد ، كانت القاهرة فى أيام العثمانيين تشبه ما كانت عليه أثناء حكم المماليك • ذلك أن الجهل والخرافات كانت تعوق أى تقدم حقيقى فى سبيل الكفاح ضد الأوبئة • فكان هناك اعتقاد قديم يمنع المسلم من أن يغادر منطقة موبوءة بالطاعون ، ولكن حتى بعض رجال الدين فروا مع أسرهم الى صحراء سيناء أثناء اشتداد الوباء فى المدينة ، بينما اعتبره معظم الناس ارادة الله الحتمية ويجب تحملها بصورة قدرية (٥٧) •

وفى القرن التاسع عشر فقط ، تم اتباع نظم للحجر الصحى لصد ادخال المرض من البلاد الأخرى ، وكان هذا الاجراء بفضل النفوذ الأوروبى •

وكانت أول مرة ــ وربما المرة الوحيدة ــ التى تتخذ فيها العثمانيون اجراءات للصحة العامة ضد الوباء فى عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م ، حين أمر العثمانيون بأن تقتـل جميع الكلاب فى القـاهرة وأن تعلق جثثها أمام

المحال ، اتباعا لعادة فى اسطنبول • وظن أحد المؤرخين الحوليين أن المقصود من هذا الأمر هو اخافة الطاعون لابعاده • ولم يكن الناس يحبون قتل الكلاب (رغم أن الاسلام يعتبر الكلاب نجسة) وكانوا يعتبرون ذلك فالا سيئا • بل انهم توسطوا لدى الحاكم لاعتاق الكلاب (٥٨) •

كان القانون المصري (المقصود الرأى الشرعى فى مصر) يحظر حرق الأموات ، سواء كان الميت مسلما أو ذميا ، قبل الحصول على اذن من الخزانة • ويبدو أن هذا كان للتأكد من أن الدولة حصلت على نصيبها من التركة (٥٩) • غير أنه ، أثناء طاعون عام ١٦١٨ العنيف ، أعفى الباشا الأسر من هذا الالتزام من قبيل الرحمة بالأهالى (٦٠) • اذ أمر الباشا الخزانة بأن تدفع نفقات الدفن نيابة عن الفقراء أثناء الطاعون (٦١) •

النظافة

كان العثمانيون مهتمين بالنظافة • ويأمر القانون حاكم مصر بأن يهتم بأن يتم كنس شوارع القاهرة بشكل منتظم وأن ترش بالماء • وكان كل شخص يتحمل مسئولية فى جعل المنطقة الواقعة أمام منزله نظيفة (٦٢) • وغالبا ما كان الحكام يصدرون الأوامر للأهالى بأن يزيلوا القمامة من أمام حوانيتهم أو بتنظيف الخليج ، أى الترعة التى كانت تحمل المياه أثناء شهور ارتفاع النيل • كما أمر محمد باشا بأن تنظف الأماكن الدينية نظافة تامة ؛ ففاز لعمله هذا بوصفه بأنه (أبو النور) • ويكتب مصطفى على :

« من اللطيف جدا أنهم احتفظوا بمنطقة أعمالهم نظيفة وأن عربات الرش ترش شوارع القاهرة وتنظفها ليل نهار • وكانت مصروفات جميع هذه الخدمات لكل حانوت هى منقور واحد ، (عملة صغيرة ، سدس بارة) فى الأسبوع ••• » (٦٣) ويجب أن نضيف ، عموما ، أن مثل هذا الوصف المواتى (والانتباه الرسمى) كان مقصورا على أقسام المدينة الخاصة بالأعمال بينما كانت الأحياء السكنية ، أى الحارات البعيدة عنها ، بخاصة تتسم بقدر شنيع من القذارة والاهمال • ولم يلحظ هذه الملاحظات افليا

شلبى فحسب • فيمكن أن نقول ان نزعته الوطنية التركية جعلته يقارن الكثير من الأشياء فى مصر بمثيلاتها فى اسطنبول (بما فيها النظافة) ويجدها قاصرة (٦٤) • وانما أيضـا نجد أن الرحالة الألمانى يوهان فيلد Wild ، الذى زار مصر فى بداية القرن السـابع عشر ، يلاحظ الملحوظات نفسها بالضبط (٦٥) • ويستخدم حسن حجازى ، وهو شاعر محبوب من شعراء القاهرة ، لغة عنيفة فى وصفه لحارات أولاد العرب ، وهى أحياء القاهرة التى كان يسكنها الأهالى الفقراء ، ووصفها بأنهـا قذرة ومتربة وشديدة الضوضـاء (٦٦) •

ويشعر مصطفى على بالاشمئزاز العميق من المياه القذرة فى بركة الشافعى حيث يتوضأ العامة (٦٧) •

ومرة أخرى ، يقدم لنا افليا شلبى وصفا تفصيليا وتقييما عن وضع الصحة العامة فى القاهرة • اذ كان هواء المدينة غير صحى ، كما يقول ، غير أنه كانت هناك بضعة أماكن بالقرب من المدينة تتمتع بالهواء النقى العليل ، مثـل العادليـة وسـبيل علام والمطرية ، وبركة الحـج وجبل المقطم • كما كان الهواء عليلا فى المنازل المقامة على ضفاف البرك •

وكانت المدينة شديدة الازدحام ، ولم تكن هناك بين المبانى سوى مساحات ضيقة • كذلك كان الكثير من المنازل تتكون من ثلاثة أو أربعة طوابق • وكان الهواء خانقـا ، بوجـه خاص ، فى الخانات وبلكات (*) الشقق • اذ كان يعانى سكان هذه الأماكن المتجاورة من الذباب وروائح المجارى التى تزكم الأنوف • ويقول افليـا شلبى ان هذه الروائح ضارة بصحة الأطفال ، وان كل شخص يمكنه أن ينتقل من القاهرة الى الريف لعدة أشهر لم يكن يتأخر فى فعل ذلك (٦٨) •

وطبقا لمصطفى على ، لم يكن الطعام فى القاهرة صحيا ، وانما كان عديم الطعم به دهون وعسير الهضم بل وقذرا • فيقول :

ان أهل الريف والحضر يأكلون طعاما ثقيلا عسير الهضم • فهم يستهلكون ، فى أيـام الصيف الحارة ، أطبـاقا لا تهضم مثل رؤوس

(*) بضم الباء وتشديد الكاف وفتحها •

العجول وأقدامها والرئة والفشة والطحال بسبب رخص أسعارها ... » (٦٩) .

فلا غرو اذن ، فى أن مستويات الصحة العامة فى المدينة كانت متدنية جدا — على وجه العموم . ذلك أن مصطفى على يقول : ان معظم أهالى مصر مصابون بمرض أو بآخر . فلا يكاد المرء يلتقى بشخص سليم العينين صحيحهما ولا يعانى من أحد الأمراض ، وتظهر عليه الصحة البدنية » (٧٠) .

وحين كان يكتب افليا شلبى ، بعد ذلك ، بمائة وستين عاما يرسم صورة مشابهة كما يفعل الرحالة الأوروبيون . اذ لاحظ جميعهم أن أمراض العيون كانت ، بصفة خاصة ، واسعة الانتشار .

طبقا لافليا شلبى ، كان يقال عن الشخص ضعيف البصر ان عينيه مثل عين المصرى . ويضيف أنه كان هناك نقص فى الأطباء ، وخاصة أطباء العيون (٧١) .

وتعد المعلومات الخاصة بالأطباء فى القاهرة العثمانية معلومات شحيحة . اذ من المؤكد أن هذه المهنة لم تكن قد بلغت ذروتها . وكان الأطباء ، شأنهم شأن المهن الأخرى منتظمين فى طائفة ، أو هيئة . وكان الكثيرون من الأطباء من بين اليهود ، وبعد بداية القرن الثامن عشر ، كانوا من الشوام الكاثوليك . ففى عام ١٧٣٠ ، كانت طائفة الحكيم باشى من الشوام الكاثوليك (٧٢) .

ويذكر افليا شلبى بضعة مستشفيات فى القاهرة ، غير أنه من الواضح أنها لم تكن تقدم علاجا حقيقيا ، فلم يكن المرضى هناك يحصلون سوى على الطعام . ذلك أن المستشفى الوحيد الجدير بايراده هو البيمارستان المنصورى ، التى سميت على اسم السلطان المملوكى منصور قلاوون . فلقد أحدثت أثرا طيبا لدى افليا فيقول :

لقد اشتملت على قسم للمرضى العقليين ، وقسم للنساء ، به عاملات من النساء أيضا • ولقد أدهشه أن الأطباء الذكور كانوا يدخلون أماكن النساء في المستشفى دون « خجل » لعلاجهن (٧٣) •

وعند نهـاية الحقبـة العثمانيـة ، تحـول هذا المستشفى الى حطام (٧٤) •

لقد كانت مصر مشهورة بانتاج أنواع الترياق ، وهى أدوية مضادة للسموم ، يسمى ترياق فاروق • وكان يصنع عن طريق استخلاص السم من الثعابين • وتخصص أفراد قبيـلة بنى خبير العربيـة الذين كانـوا يسكنون في منطقة الجيزة ، فى هذه المهنة • وكانوا يرتدون لباسا خاصا للوقاية حين يؤدون عملهم ، الذى يصفه افليا بتوسع اذ كرس فصـلا كاملا لهذه الصناعـة • « كان بامكان العقار معالجة مختلف الأسقام » ويشهد افليا مثلا أن الدواء أعاد اليه فحولته (٧٥) •

وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، كانت طائفة صناع الأدوية المسكرة تعقد حفلا سنويا فى المستشفى الذى كان يصنع فيه الشيخ الترياق • وكان الترياق يباع فى كل أنحاء الشرق الأوسط لتمويل الحفاظ على المؤسسة (٧٦) •

الحمامات العموميـــة

لقد تأثر الرحالة الأجانب تأثرا ايجابيا بحمامات القاهرة العمومية • فهم يصفونها بأنهـا نظيفة ومنظمة ومبهجـة ، حتى ان مصطفى على الذى اعتاد على الانتقاد يكتب قائلا :

« ثمة نقطة أخـرى هى جمـال حماماتهم (العمومية) • فبمعظمهـا أحواض للاستحمام » • كما أن ما بها من رخام لا يفسد كما هو الحال فى حمامات البلاد الأخرى • ذلك أنهم يهتمون دائما بجعله براقا كالمرآة الصافية (٧٧) • ويقدم افليا شلبى بعض التفاصيل • ففى زمانه كان هناك ٥٥ حماما عموميا (٧٨) ، بالاضـافة الى ذلك ، كانت هناك حمامات خاصة فى منازل الأثرياء مثـل الأمراء ، والخصـيان السود ، والعلماء

الأغنياء والتجار . وكان في كل حمام عمومي ، فسقية وحوض ونافورة للزينة (سلسبيل) . كذلك يلاحظ شلبي أن الحمامات المصرية لا يوجد تحتها فتحات (سيهينمليك) مثل الحمامات التركية (٧٩) .

النقــــل

كانت القاهرة تتمتع بشـبكة واسـعة من الطرق ، بعضها عامة رئيسية (مثل القصبة من باب الفتوح الى بـاب زويلة ــ وبين القصرين أو بين الصورين) ، وكذلك الكثير من الطرق الصغيرة والأزقة المؤدية الى الطرق الأكثر اتساعا (٨٠) .

وكان في امكان أهل القاهرة ، اما أن يسيروا أو يركبوا الخيــل والبغال والجحوش والحمير . وكانت هذه هي وسائل النقل الوحيدة . ولم تكن ركوبة الشخص مســــألة تتعلق بالملاءمة أو الراحة ، والوضع الاقتصادي فحسب ، وانما كانت أيضا تعبيرا عن المكانة الاجتماعية . اذ لم يكن من المسموح سوى للعسـكريين بركوب الخيــل . ولقــد حظر الاسلام ، منذ أيامه الأولى ، على الأقليات غير المسلمة أن تفعل ذلك (*) . وثمة محاذير كانت أكثر صرامة بحيث كانت تحظر على الذميين استخدام البغال الغالية والحمير الصغيرة النشطة السريعة أو حتى الحمير التي يزيد ثمنها على ١٠ دراهم . بل ان فقهاء معينين لم يسمحوا للذميين بركوب أي حيوانات على الاطلاق داخل احدى المدن (٨١) .

وفي حوالي عام ١٧٣٥ ، ذكر أحد الفرمانات العثمانية أهل البلاد من المصريين بأنه محظور عليهم ركوب البغال وأن يضعوا سرجا على الخيل، غير أنه كثيرا ما ركب العلماء والأثرياء ، بالاضافــة الى صغار ضـباط الجيش ، البغال (٨٢) (**) .

(★) لا علاقة للاسلام بمثل هذه الممنوعات فليست هناك أحاديث نبوية أو آيات قرآنية تمنع الذمي أو حتى غير الذمي من ركوب دابة بعينها أو لبس ثياب بعينها ، فالمسألة اذن ذات أبعاد أمنية أو اجتماعية ولا علاقة لها بالدين ــ (المراجع) .

(★★) هذا يؤكد ما ذكرناه في تعليق سابق من أن قيود اللباس والمركوب مسألة اجتماعية وأمنية ولا علاقة لها بالدين ــ (المراجع) .

كان الحمار هو الركوبة الشائعة فى مصر · اذ كان الجميع يركبونها فيما عدا القلة المتميزة التى كانت تمتلك خيولا او بغالا ·

وكان افليا شلبى دائما ما يقارن بين القاهرة واسطنبول · وهو يقول ان الحمير فى القاهرة أشبه بالقوارب فى اسطنبول ، أى أنها وسيلة الانتقال الشعبية ، فهى تعدو بسرعة ، على حد قوله · ويقول أحد الأوروبيين زار القاهرة عام ١٥٨١ ، وهو جان باليرمJean palerme (٨٣) ان الحمير هناك أدت نفس الوظيفة التى أدتها جندولات البندقية (٨٤) ·

وكان للمدينة جهاز مفصل وجيد التنظيم لاستئجار الحمير والجمال لنقل التجارة فى القاهرة وما يجاورها ، بما فى ذلك من محطات وأسعار ثابتة (٨٥) · فحسب كتاب وصف مصر ، كان بالقاهرة ٣٠٠٠ من سائقى الحمير (المكاريين) (٨٦) ·

واعتبر العثمانيون ، فى زمن فتحهم ، أنه من غير الأخلاقى أن تركب النسوة حميرهن أو أن يستأجرن حميرا أخرى · اذ أعلن أحد المراسيم أن النسوة المتقدمات فى السن فقط يمكنهن أن يركبن الدواب فى السوق·

ويروى ابن اياس أن سائقى الحمير باعوا ، عندئذ ، حيواناتهم · واشتروا بدلا منها خيلا مسرجة ، كانت النساء يركبنها وهن يجلسن على سجاد بينما يمسك المكاريون بالألجم حسب ما جرت عليه العادة فى اسطنبول ·

وبعض النساء كن يركبن البغال بدلا من الحمير (٨٧) · ولم يسر مفعول هذا المرسوم لفترة طويلة · اذ انه فى نهاية القرن السادس عشر يروى مصطفى على ، الكاتب التركى ، عما أحس به من صدمة : « ان نساءهم ، جميع نسائهم ، يركبن الحمير · حتى زوجات المرموقين يركبن الحمير الى متنزه بولاق ··· » ويشكل هذا السلوك غير اللائق عيبا خطيرا بالنسبة لمدينة القاهرة ، لأنهم فى البلاد الأخرى كانوا يضعون العاهرات على ظهور الحمير كنوع من العقاب · أما فى القاهرة ، فان النساء يركبن

الحمير بمحض ارادتهن ، ويعرضن أنفسهن للجمهور ، لذلك يبدو أنه من الملائم أنهن يجب وضعهن على ظهر الجمال على سبيل العقوبة (٨٨) ٠

ويعبر افليا وغيره من المراقبين عن دهشتهم من أنه حتى الناس المحترمون فى القاهرة كانوا يركبون الحمير ولم يعتبروا ذلك شيئا مشينا (٨٩) ٠ وفى عام ١٥٤٧ ، يتحدث الرحالة الفرنسى ، بيلون Belon بنفس النبرة : « غير أنه لم يكن من المشين بالنسبة للأهالى أو الأجانب أن يتنقلوا فوق ظهور الحمير ! » (٩٠) ويقول مصطفى على ان العلماء المصريين يرضون لأنفسهم بركوب حمار ، دون أن يشعروا بأى خجل ٠ فهم يركبون حميرهم الصغيرة ، وأحيانا ما ينحشر ثلاثة منهم معا فوق حيوان واحد ، فيشكلون عبئا ثقيلا بالنسبة للأتان الضعيف (٩١) ٠

الاحسان

كان اعطاء الصدقة للجياع والفقراء عملا مثاليا محببا غالبا ما يمارسه أثرياء القاهرة وأصحاب النفوذ فيها ٠ اما وفاء لركن اسلامى أو خوفا من أعمال الشغب الناتجة عن قلة الطعام ، اذا ما أصبح بؤس الفقراء شيئا لا يمكن احتماله ، أو كلا الأمرين معا ، بالطبع ٠ ذلك أن أعمال شغب بسبب قلة الطعام ظهرت من آن لآخر ، فى القاهرة ٠ وكان بعضها خطير الشأن حيث كانت الدهماء تلقى الحجارة على الجنود والأمراء(٩٢) ٠ فكما بين ريمون Raymond بالتفصيل ، كانت الفجوة بين الفقراء والأغنياء فى القاهرة فجوة واسعة (٩٣) ٠ لذا اعتبرت الطبقة الحاكمة أنه من الضرورى ، أن توجد مجموعة من المؤسسات من شأنها تخفيف أشد حالات المعاناة ، على الأقل ، فى أوقات الأزمات الاقتصادية ٠ ففى أثناء المجاعات كان الباشا يحمل على عاتقه اطعام عدد معين من الفقراء ويحض الأمراء على أن يحذوا حذوه ٠ (كان لمثل هذا السلوك سوابق تاريخية فى السلطنة المملوكية) ٠ (٩٤) ٠ اذ انه أثناء احدى المجاعات عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م ، أطعم اسماعيل باشا ١٠٠٠ رجل فقير ، وأطعم كل أمير ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ شخص من الأيتام ٠ كما أعطى كل صبى هبة قطعة ذهبية ومجموعة من الملابس ٠

وكما سبق أن ذكرنا ، كان الباشا يأمر بأن تدفع الخزانة مصروفات دفن الفقراء أثناء نشوب الطاعون ٠

وكان بعض الكبراء ينتهزون بانتظـام ، مناســبات مختلفـة كى يمنحوا الطعام لفقراء القاهرة ، كما يشهد على ذلك مصطفى على والجبرتى وغيرهما (٩٥) ٠ وتعـد العلاقة التى أنشأها الأمير ابراهيـم أبو شنب (١١٣٠ هـ / ١٧١٧ أو ١٧١٨ م) مع الشحاذين ذات أهمية خاصة ٠ اذ كان يعرفهم جميعا بشكل شخصى وكان يتذكر مقدار الصدقة الذى كان يعطيه لكل منهم ٠ وفى احدى المرات ، بعد أن عاد الى القاهرة ، بعد غياب طويل ، حضر شيخ الشحاذين ورجاله للترحيب به ٠ وقدموا له حصانا أصيلا وملتزماته الغالية ٠ وفى مقـابل ذلك ، منـح ابراهيم بك جميع الشحاذين هبات من النقود والملابس وعقد وليمة خاصة لهم (٩٦) ٠

وكان المذهب السنى والمعتقدات الدينيـــة المصرية ، تتيح الفـرص لتقديم الاحسان والخير ٠ اذ كان أعضاء الطبقة الحاكمة والأثرياء الذين كانوا يرغبون فى فعل الخير ينشئون مؤسسات للوقف تمول مدارس للأيتام ، وتصونها وكذلك تقـدم الطعام للمحتاجين أثنـاء الموالد وغير ذلك من المناسبات الدينية ٠ كما كانت زوايا من أمثال زاوية عبد الوهاب الشعرانى تقدم الطعام والمأوى للكثير من المتصـوفة والفقـــراء (٩٧) ٠ لقد كانت أشهر المؤسسات الخيرية هى مطابخ الحساء العمومية أو دور الفقارات أو (أماريت بالتركية) التى كانت تقدم الطعام مجانا للفقراء ٠ وبما أن هذه المؤسسات تمولها الأوقاف وكانت فى معظمها مرتبطـة بمساجد ، فانها كانت أقل كرما من مثيلاتها فى اسطنبول ، على حد قول افليا شلبى ، حيث كان فى امكان المحتاجين الحصول على الطعام مرتين يوميـا ٠ وكانت معظم دور الفقراء توزع الطعام فى أيام الجمعة ، وفى العطلات الخاصة ٠

وكانت أكبر الدور (العمارات) فى مسجد السلطان قلاوون ، تقدم الحساء يوميا والأرز واللحم أيضا فى أيام الجمعة ليلا (٩٨) ٠

الاحتفالات العامة

شعب محب للمرح

كان أهل القاهرة شغوفين بكل أنواع المراسم العامة والاحتفالات والاستعراضات، اذ كانوا يحبون أن يسترخوا ويسلوا أنفسهم ، ويخرجوا للنزهات ، والأكل فى الأماكن الخلوية • وهذا الميل لم يغب عن ملاحظة الرحالة الأجانب ذوى الميول الأكثر خشونة من مقاطعات الدولة العثمانية الأخرى ، أو الرحالة من شمال أفريقية • فبعد الفتح العثمانى ، افتقد أهل القاهرة الاحتفالات الرائعة والعروض التى كانوا قد تعودوا عليها فى ظل حكم المماليك • ومع مرور الوقت ، على أية حال ، تمكنوا من امتاع أنفسهم وأن يحتفلوا ، مرة أخرى ، حين تبنى السادة الجدد هذا الملمح من حكم المماليك • فكتب مصطفى على عام ١٥٩٩ :

هناك احتفالات غريبة فى كل أسبوع ، حسب عادات أهل القاهرة • فهم يقولون عن حياتهم الاجتماعية انها تقدم الفراغ والسعادة • أى أنهم لم يكونوا قانعين بالوليمتين الشريفتين كما لم يقنعوا بالتجمعات الرائعة المرتبطة برحيل الحجاج ووصولهم • فعلى العكس من البلاد الأخرى ، فى القاهرة ، لا يكاد شهر يمر دون احتفال ما ، ودون أن يتقاطروا جماعات قائلين اليوم هو يوم النزهة الى هذا المكان أو ذاك ، أو اليوم هو الذى يمر فيه هذا الموكب أو ذاك • لذا ، فان معظم وقتهم يمر فى فراغ (٩٩) •

كذلك يتحدث مصطفى على عن تكرار التجمعات الاجتماعية المصرية الى جانب العيدين الدينيين ، اللذين كانوا يحتفلون بهما بقدر كبير من الحبور ، اذ كان حاكم البلاد يظهر على صهوة جواد ، فى اليوم الثانى من كل عيد ، ويوزع الخلع على الجنود ، الذين كانوا يستعرضون مهاراتهم فى الألعاب الحربية (١٠٠) • ومما يؤكد وصف مصطفى على أقوال جون فيلد Wild الذى زار القاهرة عام ١٦٠٦ ــ ١٦١٠ • اذ يقول ان أهل القاهرة لديهم نوع من الاحتفال فى كل يوم تقريبا ، وخاصة فى بولاق أو على ضفاف النهر (١٠١) •

وفى المناسبات التى يتم الاحتفال بها طبقا للتقويم الاسلامى ، مثل رحيل الحجيج الى مكة فى كل عام ، فى الأسـبوع الأخير من شـوال ، أو الكسوة ، وهى الغطاء الأسود المزركش بالحرير ، أو المحمل اللذين كانا يعرضـان فى مواكب بهيجة قبـل رحيـل الحج ، ثم تحملان الى مكة · كانت عودة الحجاج فى نهاية شهر صفر ، بالمثل تجتذب الجماهير (١٠٢) ·

وثمة عيد اسلامى آخـر هو ليلة الرؤية ، أى ليلة مراقبة الهلال · وكان أكبـر العـروض تأثيرا فى تلك الليلة موكب جميع الطوائف ، وهو حدث أتاح لافليا شلبى فرصـة ليطالع جميع فنون القـاهرة المنظمة وحرفها بالتفصيل · وكان لهذا الموكب ما يشابهه فى اسطنبول · وكان ، فى القاهرة ، يبدأ بالمحتسب ورجاله ، تتبعهم مختلف الطوائف تحمل كل منها رايـاتها ، ورموزهـا وممتلكاتها بين غزف الموسـيقا والمشاجرات الهزلية وغير ذلك من حيل لتسلية المتفرجين ·

يقول افليا ان هذه الليلة كانت تعرف لدى الأهالى « بليلة النساء » ، بما أنه كان يستحيل منعهن من مغادرة بيوتهن لمشاهدة الموكب · ومن الواضح أن السماح لهن بفعل ذلك كان يؤدى الى عقد الزيجات (١٠٣) ·

وطبقا لملحوظة فى حولية أحمد شلبى ، فلقد انقطع موكب الطوائف لمدة تقرب من ٤٠ عاما ، من ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م الى ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م ، وذلك حين أمر المحتسب مشايخ الطوائف بأن يحيوا التقليد القديم المتمثل فى اسهامهم فى نفقـات الطعـام والشراب وفرق الموسـيقا ، والشموع والمصـابيح وأجور العاملين · غير أن تجار أسواق الغورية والجماليـة الذين كان لهم نفوذ كبير وصلابة فى الرأى رفضوا المشاركة والدفع ، مدعين أن الموكب غير أخلاقى (١٠٤) · ولقد وصفنا الموالد التى كانت تنعقد حسب التقويم الاسلامى (مع وجود استثناءات عديدة هامة) ، فى الفصل السادس (١٠٥) ·

وأبرز الأعياد التى كان يحتفل بها حسب التقويم القبطى مرتبطة بايقاع النيل السنوى ، وفاء النيل ، حين يصل النهر الى أعلى مستوى

له · كان يحتفل بهذا الحدث أسبوعا بأكمله ، عادة بين الأول والحادى عشر من شهر مسرى القبطى (٦ ــ ١٦ من أغسطس) ·

وكانت ذروة المراسم تتمثل فى فتح ترعة القاهرة ، حين ينفتح السد الذى كان يغلق الترعة بواسطة أمير رفيع الرتبة مع الخاصة الحاكمة والجماهير الغفيرة وهى تتفرج · وكان ذلك يتم مع ارتفاع المياه · وكان جميع أهل القاهرة يقضون الليل على ضفتى النهر ·

وكان الكثير من القوارب المزركشة بها أناس يعزفون على الآلات الموسيقية مستعدة لدخول الترعة بمجرد فتح السد ·

وكانت جميع الأعمال تتوقف فى المدينة، التى كانت تزخر بالتسلية من أنواع عديدة · اذ كانت تنطلق الألعاب النارية ، وتطلق المدافع (١٠٦) ·

وكانت هناك عطلة أقل أهمية تسبق هذه العطلة الرئيسية ، تسمى ليلة النقطة ، فى حوالى الحادى عشر من بؤونة (السابع من يونيو) ، وكانت هذه تشير الى بداية ارتفاع النيل · كما كان هناك اعتقاد بأنه فى مثل هذه الليلة تسقط نقطة معجزة فى النهر فتتسبب فى ارتفاعه (١٠٧) ·

ومن حين لآخر ، كانت السلطات ، أيضا ، تأمر أهل القاهرة بمراعاة العطلات المرتبطة بالأسرة الحاكمة أو المتعلقة بالانتصارات العسكرية · فكان لابد من الاحتفال بميلاد وريث السلطان وذلك بتزيين الحوانيت واضاءتها ليلا · وكانت مثل هذه الاحتفالات تفرض عبئا غير مرغوب فيه على السكان بسبب توقف جميع الأعمال والتعاملات فى هذه الأيام · ففى بضع حالات ، سحبت الحكومة العثمانية (المركزية) الطلب الخاص بتزيين المدينة واستعاضت عنه بدعوات الأهالى للسلطان من قبيل النظر الى ما يواجه الناس من صعوبات · وفى احدى المناسبات ، قصر أحد الفرمانات الرسمية مدة الاحتفالات (١٠٨) · وربما يبدو أن الناس لم

يكونوا متحمسين بالنسبة لمناسبات الدولة هذه ، لأنها لم تكن تشكل جزءا من التقاليد الشعبية كما لم تشتمل على ترفيه أو عروض ٠

الترفيه والتسلية

عادة ما كانت شوارع القاهرة زاخرة بالمسلمين من كل نوع : مثل الراقصات ، والرواة والمشعوذين واللاعبين بالثعابين (الحواة أو الرفاعية) ولاعبى العرائس فى ألعاب الظل وغير ذلك ٠ وكان عددهم يتزايد فى العطلات والاحتفالات ٠

وكانت المقاهى أماكن محببة للالتقاء والاسترخاء ٠ لقد أدخلت الى مصر فى أوائل القرن السادس عشر ٠ ولاقت بعض المعارضة من جانب الأصوليين الدينيين الذين اعتبروا شرب القهوة بدعة تستحق اللوم ، ومع مرور الوقت أصبح شرب القهوة شيئا شائعا للغاية (١٠٩) ٠ اذ يكتب مصطفى على : « ومن الملحوظ أيضا تكاثر المقاهى فى القاهرة ، وتركز المقاهى فى كل خطوة ، وفى أماكن من الملائم للناس أن يتجمعوا فيها ٠ اذ يذهب الى هناك المصلون الذين يستيقظون فى الصباح الباكر وكذلك الأتقياء ٠ ذلك أن احتساء فنجان من القهوة يضيف حياة الى حياتهم »(١١٠) ٠ ويلاحظ الكاتب على كل حال ، أن المقاهى هى أيضا ملتقى المنحلين ومدمنى الأفيون ، وهذا مما يؤسف له ٠

مع مقدم القرن الثامن عشر ، صار شرب القهوة مقبولا حتى عند أكثر الناس تحفظا وهم المغاربة ، كما تؤكد هذا روايات أسفارهم ٠ ففى نهاية القرن الثامن عشر ، اعتبر أحد الرحالة المغاربة شرب القهوة عادة مصرية طبق الأصل وافق عليها ، على العكس من التدخين الذى اعتبره غير صحى ، بل وحراماً ٠ فلقد وجد شرب القهوة شيئا مقتصدا جدا ، لما فيها من ميزة كبيرة وهى تقليل نفقات الضيافة ٠ اذ لا يمكن تقديمها حتى الى أحد الباشوات وبالتأكيد يمكن تقديمها للمسئولين الأقل رتبة ، فتحرر المضيفين من المزيد من الالتزامات ، كتلك التى كانت لديهم حين يقدمون الطعام بدونها ٠ فاذا فعلوا ذلك ، فسيعتبرون كأنهم لم يكرموا ضيوفهم مطلقا (١١١) ٠

ويكتب افليا شلبى قائمة بالأماكن التى كان يذهب اليها المصريون للترفيه للهرب من حرارة المدينة وما بها من تلوث . فالتمشية على ضفتى النيل أو الخليج والابحار بالقوارب حين يكون النيل مرتفعا ، من الوسائل المفضلة لقضاء وقت الفراغ عند ساكنى المدينة . كما كانت المتنزهات والأماكن الخلوية لتناول الطعام وأماكن التنزه كثيرة فى القاهرة وما جاورها . كما تشتمل قائمة افليا على البرك الكبيرة (بخاصة الأزبكية)، وقرية البساتين على بعد ساعتين مشيا من المدينة ، وجزيرة الروضة ، وكذلك الأهرام بالجيزة . كما كان بالقصر العينى حديقة بديعة . وهذا المكان هو موقع على ضفة النيل ، ومركز بقطاشى شهير . كما كانت تعرف المطرية بمياهها العذبة بينما كانت معظم الآبار تميل الى اللون الأسود . وتقع المطرية على بعد ساعتين سيرا نحو شمال القاهرة . كذلك كانت أشجار الجميز حول المدينة تجذب محبى النزهات الخلوية . وكانت هناك بضعة أماكن مخصصة لاستخدام الطبقة الحاكمة وحدها . اذ احتفظ بالقرب من مسجد السلطان حسن مثلا بمنطقة لأرستقراطية القاهرة حيث يمكنهم الاسترخاء واطلاق السهام . ويلقون بالجريد وهو نوع من لعب الرماح المثلمة مثلما يرى فى العاب الخيل (١١٢) .

التقسيم الطبقى الاجتماعى والاقتصادى لسكان القاهرة

ان الهوة التقليدية الاسلامية التى تفصل بين الخاصة والعامة (*) أو الخط العثمانى الذى يفصل بين العسكر والموظفين والرعية ، يجب أن يتم تصحيحه بما تقدمه المصادر من أدلة وكذلك ما أدركه المراقبون المعاصرون . ففى قاع السلم الاجتماعى فى القاهرة يوجد العبيد السود الذين كانوا يعملون خدما للمنازل وخادمات . وكان الكثير من الجوارى السود يحتفظ بهن كمحظيات . ولا توجد تقديرات لعدد العبيد السود

(★) كل ما يحدثنا عنه المؤلف وغيره من سلبيات هى فى الواقع تراث مملوكى تداخل مع الفكر الاسلامى فتداخل النسيجان واختلط الأمر ، لكن حقيقة الأمر أن الاسلام عندما ظهر سوى بين الملك والسوقة ، وجعل التفاضل بالتقوى ، لكن القبيلة سرعان ما غلبت لفترة ثم اجتاح العالم الاسلامى تراث العبيد البيض ــ انظر مقدمة المراجع .

فى القاهرة فنادرا ما تذكرهم المصادر كأفراد ، ولا يذكرون قط كجماعة أو طبقـة (١١٣) ·

البروليتاريا : عادة ما يطـــلق على هذه الطبقة العامة أو السوقة أو أهل الحرف السافلة (أى المشتغلين بمهن حقيرة) · وكان هؤلاء أفقر طبقة فى مجتمع المدينة · وفى نهاية القرن الثامن عشر ، قدر كتاب وصف مصر عددهم بستين ألفا ، هو العدد الكلى للبروليتاريا ، الذين كان يتراوح دخلهم اليومى بين ٥ و٣٠ بارة · وكان هناك العمال الذين ليس لهم دخل ثابت كالسـقائين ، والمكاريين والبـاعة الجائلين والكناسين والحمالين والشحاذين وما الى ذلك · وبما أن هؤلاء يعيشون تحت خط الفقر ، فلقد كانوا يتأثرون تأثـرا مباشرا بالأزمات الاقتصـادية ، كمـا كانوا عرضة للعنف حيث تصبح ظروف حياتهم لا تطاق (١١٤) ·

ويروى المؤرخون الحوليون اضـطرابات شـعبية أثنـاء المجاعـات وحالات الندرة الشديدة فى أعوام ١٧١٤ ، ١٧١٥ ، ١٧٢٢ ، ١٧٢٣ ، ١٧٣١ ، ١٧٣٣ ·

لقد كانت الفترة من ١٧٣٦ الى ١٧٧٠ فترة تميزت بالرخاء النسبى ، ولكن حين عانى الناس من استيلاء البكوات على المال بالقوة ، فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، سـاد التوتـر بين البروليتـاريا مرة أخرى (١١٥) ·

وكان الحرفيون والتجار ــ حوالى ١٥٠٫٠٠٠ فى نهاية القرن الثامن عشر ــ هم العمود الفقرى للعنصر المنتج اقتصاديا فى القاهرة · ولما كانوا منتظمين فى طوائف فان المؤرخين الحوليين يطلقون عليهـم أهل الحرف أو « المتسببون » ، أهل المهن وتجار القطاعى · لقد كان هناك تمايز اقتصادى كبير داخل هذه الطبقة · اذ كان التجار أكثر يسرا عموما من الحرفيين · بل ان بعض التجار كانوا يملكون ملتزميات ريفية ·

وكان الحرفيون والتجار عادة يعملون فى أحياء الأعمال وأسواق القاهرة الكبيرة ، مثل الغورية والحمزاوى وخان الخليـلى والجمالية ·

وعادة ما كانوا يسكنون بالقرب من حوانيتهم • اذ كان الأكثر ترفا يحيون فى منازل يملكونها ، أما الآخرون فيسكنون فى مجمعات من المساكن المستأجرة ، تسمى الربع (١١٦) •

وكانت البرجوازية التجارية (١١٧) تقدر بحوالى ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ فى نهاية الحقبة ، وكانت الخاصة من بينهم تتكون من ٦٠٠ ـ ٧٠٠ تاجر • كانوا يشتغلون بتوريد واستيراد الأقمشة ، والتوابل ، والعبيد ، والأهم من ذلك ، اشتغالهم فى تجارة البن وكان عدد كبير من هذه المجموعة من الأجانب (*) : كالمغاربة والأتراك والشوام •

ويمكن اعتبار هؤلاء التجار الأثرياء طبقة اجتماعية بالمعنى الحديث للكلمة • اذ كانت ثرواتهم تصل أحيانا الى ما يبلغ ١٥ بارة • وكانوا يمثلون ترابطا داخليا ملحوظا ووعيا طبقيا ويتزاوجون من داخل الطبقة الى حد كبير •

وكان التجار يتمتعون باستقلال حسب ما تسمح به ظروف ذلك الزمن ، فلم يخضعوا لاشراف المحتسب• فكان رئيسهم المنتخب ، الشهبندر دائما ثريا ذا نفوذ • وكان لهم أسلوب فى الحياة يتسم بالبذخ ويسكنون فى منازل رائعة فى أرقى أحياء المدينة • وابتداء من نهاية القرن الثامن عشر ، مال التجار الى الانتقال من القاهرة الغاصة بالأعمال، نحو الغرب الى الأماكن الطليقة الفسيحة على الخليج حول بركة الأزبكية ، التى كانت آخذة فى أن تصبح المنطقة الراقية بلا منازع • كما كانت مفضلة لدى البكوات وأغنياء العلماء • اذ امتلك الكثير من التجار الأثرياء مماليك بالرغم من الحظر الذى كثر تكراره بعدم امتلاك المدنيين لعبيد من البيض •

(*) أى من غير المماليك ، فحين يقال المصريون فى الفترة منذ قيام دولة الجراكسة حتى الحملة الفرنسية ، فالمقصود هم مماليك القاهرة خاصة ، أما أهل البلاد فيطلق عليهم اسم (الفلاحون) ـ (المراجع) •

كان من المعتاد بالنسبة للتاجـر الغنى أن يحصل على التزامات ·
وتبرع الكثير منهم بأراض للصدقات وبنوا المساجد وصفات للمتصوفة ·

وكانت هناك فى الغالب وشائج أسرية بين كبار التجار والمشايخ الموسرين ، والعلمـاء والمتصـوفة · واشتغل بعض العلماء بالتجـارة ، واستثمر المشايخ أموالا فى الورش والحمامات وغير ذلك من الأعمال ، فاستشارهم الحكام فى الأمور الاقتصادية ·

وتعد أسرة الجبرتى (المؤرخ) مثـالا جيـدا على أسرة من العلماء الناجحين اقتصاديا · اذ أقامت صلات وثيقة مع طبقات القاهرة العسكرية والتجاريـة · ونحو نهايـة القرن الثـامن عشر تدهورت ظروف التجار الأثرياء بسبب الأزمة التى ألمت بالاقتصـاد المصرى · اذ اعتصر بكوات المماليك الأهالى وفرضوا قروضا اجبارية على هؤلاء التجار · وعموما ، فان بعض الصعوبات كانت ناتجة عن تطورات حدثت فى التجارة الدولية ·

اذ صار الاقتصاد المصرى استعماريا تقريبا (*) ، يصدر المواد الخام ، ويستورد المنتجات المصـنعة ، مثل الأقمشـة الانجليزية والفرنسـية · وكانت أسوأ صفعة للتجار هى المنافسة من البن الذى أنتجه الفرنسيون فى الأنتيل Antilles · اذ انه بسبب جـودته الأقل من البن المصرى ـ وهو ـ أى البن المصرى أربح مادة فى التجارة التى تعبر مصر ـ فكان ثمن بن الأنتيـل أقـل منه بخمسة وعشرين فى المائة · فغزا هذا البن الفرنسى أخيرا الأسواق المصرية التقليدية المتنوعة فى سالونيكا والمغرب ، بل وأدخل فى مصر نفسها ·

لقد كانت هذه التغييرات مواتية أيضا لمصالح التجار الأوربيين فى مصر ، وكذلك اليهود والمسيحيين المحليين ، الذين كانوا يعملون معهم على حسـاب التجـار المصريين المسلمين والطبقة الحاكمـة ، المكونة من العسكريين ــ والباشا وحاشيته وضباط الكتائب السبع وبكوات المماليك

(*) almost Colonial ، والمعنى غير واضح تماما بالنسبة لى ـ (المراجع) ·

وكانت قوة الجيش ١٠٫٠٠٠ رجل · ومن الطبيعى وجود فروق اقتصادية واجتماعية ضخمة بين الأمراء الأغنياء والجنود البسطاء ·

وكانت الخاصة الحاكمة تتحدث بالتركية ومعظمهم ، وان لم يكن جميعهم لم يولدوا فى مصر · ان ثروة الطبقة المتجمعة من المرتبات ، وهى متواضعة فى حالة الأفراد غير أنها مرتفعة جدا بالنسبة للأمراء ، وذلك من خلال الاستغلال المنظم لعوائد مصر بفرض الضرائب فى المدن والريف وكذلك الأنواع المختلفة من الاتاوات ومشاركة الحرفيين والتجار بالاكراه ·

وبعض أكثر الأمراء ثراء عاشوا أسلوب حياة فخما ، اذ عاشوا فى منازل ضخمة رائعة وكانت لديهم حاشيات كبيرة·كذلك تطلب نظام الرعاية للأفراد والتنظيم السياسى المملوكى من الأمراء أن ينفقوا مبالغ طائلة على منازلهم وأهل بيوتهم · فتلك البيوت كانت تقوم بدور المقار للفرق ·

انتقل المماليك ، شأنهم شأن كبار التجار ، من مناطقهم الأصلية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر · فقد كانوا يغادرون السكن بجوار القلعة ، وربما كان ذلك بسبب انهيار سلطة الباشا ، وانما بالتأكيد لأن هذه المنطقة كانت دائما مسرحا لقتال عنيف بين الوجاقات العسكرية المتحاربة · وكان مسجد السلطان حسن القريب وغيره من الآثار أهدافا استراتيجية فى تلك المعارك · فانتقل الكثير من الأمراء الى الأجزاء الشمالية الغربية من المدينة أولا الى جوار بركة الفيل ، خاصة الى منطقة قوسون على الشاطىء الشرقى لهذه البركة · وأثناء الفترة من ١٦٥٠ والى ١٧٥٥ ، أصبحت الضفة اليمنى من الخليج هى المكان المفضل للسكن ، بالنسبة للخاصة من العسكريين ·

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فضل الأمراء الأماكن المحيطة ببركة الأزبكية ·

وكان لكل أمير منزلان : واحد واسع يسكنونه مع أسرهم ، وآخر صغير يخفون كنوزهم فيه ويلجأون اليه فى الأوقات العصيبة · أما المسئولون أصحاب الرتب الأقل مثل الكشاف وقواد الكتائب ، فكانوا

يسكنون فى القاهرة ، بصفة أساسية فى أحيائها الجنوبية٠وكان الكشاف أدنى من البكوات بدرجة واحدة فى البناء الهرمى العسكرى (١١٨) ٠

الحــرف

يعد ظهور شبكة متنامية من حوالى ٢٤٠ طائفة أحد التطورات المثيرة فى تاريخ القـاهرة الاجتماعى والاقتصـادى ويشير الى حيويـة تجارتها وصناعتها الصغيرة (١١٩) ٠ لأن الطائفة كانت تسمى سينيف Sinif (جمع اسناف Esnaf) حسب المصادر التركية وطائفة (مفرد طوائف باللغة العربية) والاصطلاح الأخير عام ويشير الى أية جماعة ، مثل الطريقة الصوفية أو الجماعة الدينية ٠

ويوجد أكثر الأوصاف تفصـيلا للطائفة فى مقالة باللغـة العربية كتبها كاتب مصرى مجهول فى أواخر القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر (وهذا العمل لم ينشر ويسمى بمخطوطة جوثا) ، وفى فصل طويل فى روايات الرحلات التى كتبها شلبى بعنوان كتاب السـياحات (سياهات نامى) فى السبعينيـات من القـرن السابع عشر ٠ وهناك معلومات اضافيـة متنـاثرة فى حوليـة أحمد شـلبى ، والجبرتى وغيرهما (١٢٠) ٠

ان الأصول التاريخية للطوائف غير واضحة ٠ ويبدو أن الدارسين يتفقون على أن الطوائف تم ايجادها تحت الحكم العثمانى (١٢١) ، غير أن هذا لا يعنى أنه لم توجـد أى تنظيمات مهنية ، أو أن التضامن بين من يشتغلون بنفس المهنة لم يكن شيئا معروفا قبل عام ١٥١٧ ٠ بل على العـكس من ذلك ، هنـاك أدلة مسـتمدة من السنوات الأولى للسيطرة العثمانية على أن مشايخ الأسواق (وهذا الاصطلاح قد استخدمته المصادر فيما بعد ، للتكلم عن رؤساء الطوائف) وجماعات الحرفيين وهى تسير الى القلعة ومعهم رايات مرفوعة ونسخ من القرآن ؛ لاظهار شكاواهم ضد الضرائب الجديدة ونظـم العملة ٠ اذ يروى الدياربكرى أنه فى الحادى عشر من ربيع الثـانى من عـام ٩٢٩ هـ ، الموافق السـابع والعشرين

من فبراير ١٦٢٥ م ، تظاهرت الطوائف المهنية ضد محتسب عين حديثا ، من الأتراك العثمانيين • ويعتبر المؤرخ الحولى ، وهو قاض عثمانى ، الظاهرة تعبيرا عن التعصب العربى ضـــد المحتسب الذى حل محل بركات بن موسى ، وهو مصرى يتكلم العربية (١٢٢) •

كما تعـكس مخطوطة جوثـا Gotha التوتر بين العرب والأتراك داخل الطوائف • اذ يتهم المؤلف المصرى العثمانيين بأنهـم تسببوا فى تدهور الطوائف وبالتمييز ضد أولاد العرب • بل والأكثر من ذلك ، فان الأتراك متهمون بالفساد ، بينما يذكر السـلاطين المماليك باعتبارهـم حكاما يتسمون بالفضـيلة وبأن حكمهم هو العصر الذهبى للطوائف • ويقال ان السلطات العثمانية قد تدخلت فى حياة الطوائف ؛ وذلك بتعيين مشايخ لم يكونوا سوى وكلاء الحكومة الماليين (١٢٣) •

ان مخطوطة جوثا Gotha لا تقـــدم معلومات ثرية عن الطوائف فحسب ، وانما أيضا معلومات عن الاتجـاه المعادى للعثمانيين الذى كان سائدا بين الحرفيين المصريين •

ولا تقدم المخطوطة الكثير من حيث القاء الضوء على أصل الطوائف ، بل انها اذا كانت قد فعلت شـيئا ، فهو أنها أضافت الى البلبلة القائمة أصلا • اذ يفترض المؤلف ـ على عكس الأدلة التاريخية ـ أن الطوائف لم توجد تحت حـكم السـلاطين المماليك ، بل انهـا ازدهرت تحت حكمهـم وتدهورت بعد الفتح العثمانى • فمن الواضح أن العثمانيين قد منهجوا وتوسعوا فى البنى التى كانت موجودة بشكل بدائى قبلهم بل وأعطوها شكلا رسميا • وكان هذا هو دأبهم بالنسبة للكثير من المؤسسات •

وثمة فرق بين الطوائف العثمانيـــة (ومن ثم المصريـة) ونظيرتها الغربية هو أن الطوائف الأوروبية كانت تنظيمات اقتصادية تتمتع بالحكم الذاتى ، وتمثل مصالح أعضائها فى مواجهة الحكومة ، بينما كانت الدولة تتحكم فى الطوائف العثمانية • وغالبا ما كان الحرفيون والتجار ينتخبون

رؤساء الهيئات العثمانية ، غير أنهم كان لابد من تثبيتهم من قبل سلطات الحكومة • وفى الكثير من الأحيان ، كان شيخ الطائفة يمثل الحكومة امام اعضاء الطائفة ، وليس العكس • فلقد وفر نظام الطوائف للحكومة بوسيلة مناسبة الحصول على الضرائب من التجار والحرفيين • اذ كانت الدولة ، وليست الطوائف هى التى تحدد أسعار البضائع ، خاصة أسعار المواد الخام غير المصنعة •

وكان للطوائف تقاليدها وأخلاقياتها ومراسـمها • وكانت جميعا تعرف بالفتوة • وكان من أهم تقاليد الطائفة الشد ، أى التثبيت والربط حين يتقـدم لعضـوية التنظيم شخص جديد ، وكل طائفة أيضـا كانت لها ممتلكاتها ، من رموز ورايات وكذلك لها وليها الذى يرعاها ، غالبا ما يكون شخصية من الصحابة •

وتزخـر جميع المراســم وكتابـات الفتوة بالروح الاســلامية والمصطلحات الاسلامية ، وغالبا ما تذكر المرء بالمتصوفة بشكل قوى (١٢٤)•

لقد كانت الطوائف تشارك فى بعض المراسم العامة ، مثل الرؤية • وخاصة الطوائف التى يتحكم المحتسب فيها ، أو احتفالات قطع الخليج الذى كان اليوم الذى يفتش فيه كبير المهندسين المعماريين على الطائفة • كما كانت الطوائف تعقد احتفالا عاما فى أيام الموالد ، ورحيل المحمل ، وما شاكل ذلك •

يقدم شلبى قائمة من ثلاثين فئة من الطوائف كل منها تشتمل على تنظيمات فرعية مشتغلة فى مجال خاص من النشاط الاقتصادى (١٢٥) •

كانت هناك مقاييس أخرى تميز الطوائف • فبعضها كان يعتبر غير أخلاقى ، على سبيل المثال ، طوائف : العاهرات ، والقوادين والشحاذين وتجار الرقيق الأسود والنشالين والكناسين • وتمتعت بعض الطوائف بمكانة اجتماعية رفيعة ، مثل طوائف الأطباء والحلاقين وباعة العقاقير وباعة الكتب وطوائف تجار الغلال الاثرياء ، وتجار الأرز والأوعيـة والنحاس

والفراء والسراجين . وكانت جميع الطوائف ذات المكانة الرفيعة طوائف أخلاقية . أما الطوائف ذات المكانة الدنيـا فهى من حيث المبدأ ، تلك الطوائف التى يتألف أعضاؤها من الفلاحين ، والنوبيين ، الذين كانوا يعملون كخدم أو خفـر وحداة جمال ومكاريين وسقائين وطهاة . وكانوا جميعا يحصلون على دخول متدنية نسبيا ، أو يشتغلون بمهن قذرة ، مثل باعـــة الزيت أو البـاعة بالسمسرة أو المهن التى يشتبه فيها على أسس دينية ، مثل الحدادين والمهن الاجرامية وغير الأخلاقيـة .

كانت بضع طوائف مركزة تركزا جغرافيـا ، مثـلا حى الحسينية بما فيه من طائفة الجزارين (القصـابين) الشهيرة أو ميدان الرميلة ، الذى كان مركز البقالين (البدالين) .

كما كانت الطوائف تصنف بنوع السيطرة الذى يمارس عليهـا . فمعمار باشى القـاهرة كان مسئولا عن جميع أعمـــال التشييد . يجمع الضرائب من طوائف البنائين ، وبناة الحجر والمهندسين المعماريين وواضعى الحجـارة . وكان أمين الخردة المسئول عن طوائف العاملين فى مجـــال التسلية يتحكم ويفرض الضرائب على جميع العروض العـامة . وكانت الطوائف غير الأخلاقية تحت اشراف مفتشى الشرطة الذين كانوا يحددون الضرائب . وأخيرا ، كانت طوائف التجارة ، التى تبيع أو تنتج الطعام ، تحت سيطرة المحتسب .

وبعض الطوائف كانت لها ملامح عرقيـة مميزة . فمثلا ، سـيطر المغاربة والأتراك والشوام على التجارة فى أنواع معينة من البضائع .

وكانت هناك أيضا طائفة الخدم النوبيين . وكانت عضوية طوائف معينة تتألف من اليهود أو المسيحيين .

ويكتب افليا شلبى عن طوائف كانت غالبية أعضائها من الأقباط او اليهود وان لم يكن كلهم . (كالحدادين) من القبط أو (صناع الأزرار) من اليهود ، وكانت بضـع طوائف تضم أعضاء مسلمين وذميين . ويظن ريمون أن هذا لم يكن يشير الى اتجاه متسامح من جانب السلطات ، وانما

كان ، بالأحرى يعبر عن تردد السلطات فى السماح بوجود طوائف ذمية منفصلة (١٢٦) ٠

كانت الطائفة تنظيما هرميـا : اذ يوجد الشيخ على قمة الهرم ، وتحته يوجد مندوبه (كاهيا أو كتخدة) وهو مساعد مسئول عن المراسم (نقيب) ، وكبار السن فى الطائفـة (اختيـارية) ، وربما كان تنظيم الاختياريـة هذا غير رسمى ٠ كما كان الأعضـاء يلقبون حسب مكانتهم المهنية : أسطة أو عامل صبى (١٢٧) ٠

لقد كانت طوائف القاهرة مظهرا مثيرا على قدرة المدينة الحرفيـة والتجارية ٠ ومع ذلك ، فلم يكن أثرهم على الاقتصاد ايجابيا بالكامل ٠ فلقد كانت تنظيمات شديدة الانغـلاق ، وكان من المحتمل أن يتسبب اتجاهها المحافظ فى وجود الاحتكار والجمود التكنولوجى ٠

لقد كان المبـدأ الوراثى بارزا ، بخاصـــة فى طوائف الحرفيين ٠ أما فى طوائف التجار ، فكان هنـاك مزيد من المرونة والمزيد من الفرص للتقدم الاجتماعى (١٢٨) ٠

علاقة الحرفيين والتجار بالجيش

كانت مصر كلهـا تعد مقاطعة واحدة ضـخمة ٠ فما هى الا مصدر للدخل يستغله السلطان ٠ فى البداية ، كانت معظم المقاطعات توكل الى مسئولين يسمون أمناء وهم موظفون مأجورون ، مسئولون عن جلب العوائد من المقاطعة ٠ وبالتدريج ، حل محل هذا النظام نظام الالتزام ٠ وبواسطته ، كانت تخرج مصادر الدخل ، عادة عن طريق المزاد غالبا ـ لضباط الجيش الأقوياء والأثرياء ومشايخ العرب ، ولكن بعد ذلك كانت تعطى للأثرياء من المدنيين ، مثل التجار والعلماء ٠ والكثير من الالتزامات قسمت فيما بعـد ، على وكلاء أداروهـا من أجل الملتزم الأصـلى ٠ فمثـلا كان اليهود يتعاملون فى جمع دخـول جمارك مصر ٠ وكانت هذه موكلة لحاكم مصر أو للانكشارية ٠

ومع نهاية القرن الثامن عشر ، لم يكن على ضباط الكتائب ان يشتروا التزامات ، فلقد صار فى امكانهم ، عندئذ ، ان يتسلموها كميراث ·

لقد كانت علاقة رعايا السلطان المنتجين والعسكريين هى علاقة استغلال اقتصادى الى درجة لم تشهدها الحكومة العثمانية فى وقت الفتح (١٢٩) · ففى القاهرة وحدها ، كان هناك أكثر من ٩٠ مقاطعة فصار العبء المالى الجاثم على صدر القطاع المنتج من أهالى القاهرة ، عبئا أثقل فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر (١٣٠) ·

عموما ، لم تكن الصورة ببساطة هى صورة علاقة طفيلية · ذلك أن عملية الدخول فى مشروعات بين الطوائف والعسكريين خلقت مجتمعا معقدا من المصالح بين الطبقة العسكرية وأصحاب الحرف والحوانيت والتجار · وكانت الانكشارية والعزاب أكثرها انهماكا بشكل حميم ، مع الحرفيين فى المدينة ·

ولا يمكن فصل أعمال الثأر الدموية بين هذه الكتائب عن خلفيتها الاقتصادية ، التى كانت كفاحا للتحكم فى مصادر الدخل المدنية هذه (١٣١) ·

لقد سبقت الاشارة الى أن المدنيين قد اخترقوا الحاجز بين الطبقة العسكرية والرعية ، حين بدأ الأهالى المصريون فى الالتحاق بالجيش ، وكانت لهم طبيعة مختلفة ·

لقد كان الارتباط الشديد بين الحرفيين والتجار مع الكتائب اجتماعيا ، ان لم يكن مشروعا ، للحصول على الحماية والاعفاء من الضرائب · فلم تكن هذه الظاهرة جديدة على مصر ، كما لم تنفرد بها ، وانما اتخذت فى مصر نسبة ضخمة مع منتصف القرن السابع عشر · اذ كان مشايخ الطوائف ، بصفة خاصة ، واقعين تحت ضغط ثقيل من جانب الجيش كى ينضموا الى الكتائب ، كجزء من سياستها فى مصر

الخاصة بالتحكم فى المهن · فدخل الحرفيون والتجار الكتائب بأعداد متزايدة حين حققت الانكشارية سيادة سياسية ، عام ١٧٠٩ ·

وحين أخطر أحد القضاة مشايخ الطوائف بأن الباب العالى حظر مرة أخرى ، على المدنيين الالتحاق بالكتائب ، تلقى الاجابة التالية : « كلنا عسكر أولاد عسكر » (١٣٢) ·

وانتشرت عادة وضع التجار الأثرياء لماليكهم فى الكتائب · وبالمثل ، فلقد شجع رجال الأمراء على الانشغال بالأنشطة الاقتصادية · فى الوقت نفسه ، بدأ الجنود فى دخول المهن ، وهى عملية لها جذورها فى أيام الفتح الأولى ، حين افتتح الجنود الأتراك أكشاكا لبيع البيرة (١٣٣)· وازداد تدفق الجنود على المهن نحو نهاية القرن السادس عشر ، حين كان نظام الدفشرمة (نظام التجنيد العثمانى) ، قد أخذ فى الانهيار · وحين حدث تراخ فى تطبيق القواعد التى تحظر على الانكشارية الزواج وهم فى الخدمة العسكرية الفعلية ، وكذلك قواعد منعهم من الاشتغال بالتجارة · فما دامت رواتب الجنود غير كافية وغير منتظمة ، فقد تطلعوا لزيادة دخولهم بطرق قانونية أو غير قانونية · وفى سنة ١٧٨٣ ، وصف فولنى Volney الكتائب بأنها أقرب الى أن تكون مجموعات من المتشردين (الصيع) Vagabonds والحرفيين ، أكثر من كونها مجموعات من العساكر (١٣٤)· وشاعت التحالفات الناتجة عن النسب (التزاوج) بين التجار الأثرياء والأمراء والقادة العسكريين ذوى الرتب الأدنى والحرفيين وأصحاب الحوانيت · وثمة حوادث بعينها تبين الى أى مدى تشابكت مصالح الجيش مع التجار ، كوقائع حدثت مع يوسف اليهودى سنة ١٦٩٧ والأزمة التى دارت حول افرنج أحمد سنة ١٧١٠ ·

الخاتمـــــــــة

كان التغير الاجتمـاعى متباطئا فى مجتمع حـديث مثل المجتمع المصرى ٠ ذلك أن ايقاع الحياة وطريقة الحياة والتراكيب الاجتماعيـة الأساسية كانت فى نهـاية الحقبة العثمانية تماما كما كانت فى البدء ٠ اذ يتفق المؤرخون على أنه ، حتى فى اسطنبول ، حاضرة الامبراطورية ، والتى كانت أكثر عرضة للنفوذ الأوربى ، بما لا يدع مجالا للمقارنة ، مع القاهرة ، فان التغيير الاجتماعى قبل القرن التاسع عشر كان محدودا ٠

لقد كانت مصر تقع فى عمق الامبراطورية العثمانيـة ، فى الفناء الخلفى ، بعيـدة عن الأحداث المثيرة ، والتيـارات الجديدة التى كانت تؤثر فى قلب الامبراطورية ٠ ومع ذلك ، فان ضم مصر الى الامبراطورية فى حد ذاته أدخل بعض التغيير الاجتماعى ٠ ذلك أن ظهور شبكة قوية متنامية من الطوائف فى القاهرة لا شك كان نتيجة للحـكم العثمانى على سبيل المثال ٠ ومن الممكن اعتبار انتشار الطرق الصوفية فى مصر جزئيا ، على الأقل ، كتأثير للثقافة العثمانية والنظام الاجتماعى ٠

أثرت السـيطرة العثمانية على مصر ببعض الطرق العميقـة جـدا وأسهمت بلا وعى ، فى ايجاد كيان مصرى ٠ اذ لم يتم أبدا التعبير عن الحكم العثمانى ، بالمعانى التى نجدها أحيانا فى كتابة التاريخ الحديث بالروح الوطنيـــة ـــ أى أن المصريين كانوا مقهورين يستغلهم السـادة الأتراك ٠ ذلك أن العثمانيين لم يحكموا مصر ، أو غيرها من المقاطعات ، كأتراك بما أنهم يعتبروا أنفسهم كذلك ٠ فكانت الامبراطورية (الدولة

العثمانية) دولة اسلامية ، بل أقوى دولة وقوة عالمية رئيسية • وكان من الممكن قبول حكمها في مصر كأمر له كامل المشروعية •

ومع مرور الوقت ، ومع تدهور الامبراطورية ، أخذ الوجود العثمانى فى مصر يشكل عبئا • فعبر المصريون عن مقتهم لسوء الحكم العثمانى بالطريقة التى كانوا يعرفونها فى تلك الأوقات السابقة على العصور الحديثة ـ وذلك من خلال الدين •

لقد أكد الاسلام ذو الطابع المصرى نفسه كما لم يفعل لعدة قرون : من خلال مركزية الأزهر وظهور شيوخ الأزهر (المقصود المنصب) ودخول الصفوة الدينية والقادة الشعبيين ـ علماء ومتصوفة وأشراف ، بالاضافة الى انتعاش الموالد • وفى القرن الثامن عشر . أصبحت الصفوة العسكرية والمدنية فى مصر أكثر تفتحا واستقلالية فى التفكير من العثمانيين ، وصار الأمراء المماليك والقضاة أكثر مصرية وعروبة بالتدريج ، لكنه نادرا ما ظهرت الهوية المصرية فى مواجهة الهوية العثمانية أو التركية وجها لوجه قبل القرن التاسع عشر ؛ لكنها كانت كامنة بالفعل قبل الحملة الفرنسية وحكم محمد على •

الحـواشي وقائمـة المصـادر

- آثرنا الابقاء على المراجع التركية بالحروف اللاتينية كما كتبها المؤلف ، الا اذا كان المؤلف عربى الاسم رغم أنه تركى فقد كتبنا اسمه فى هذه الحال بالعربية (مثل عبد الكريم ، وعبد الرحمن ، حلاق ... الخ) .

- استخدم المؤلف بعض الاختصارات لمصادر وثائقية تركية وقد أبقينا عليها بحروفها اللاتينية لسبب بسيط وهو أن عناوين الدفاتر فى الأرشيفات العثمانية أصبحت الآن مكتوبة بحروف لاتينية ، ومن ذلك : MD = Mühimme Defteri.

  أى الدفاتر المهمة (أرشيف اسطنبول) . MM = Mühimme Misr.

  أى أرشيف الأمور المهمة المتعلقة بمصر ـ أرشيف الصدر الأعظم ، اسطنبول .

- استخدم المؤلف عدة اختصارات أخرى هى :

ـ احمد شلبى (فقط) ليقصد كتابه أوضح الاشارات فيمن تولى مصر والقاهرة من الوزراء والباشات .

ـ عبد الكريم بن عبد الرحمن (فقط) ليشير الى كتابه التركى الذى أوردنا اسمه بالتركية بحروف لاتينية .

ـ الدياربكرى (فقط) ليشير الى كتابه ذكر الخلفاء والملوك المصرية .

ـ حلاق (فقط) ليشير الى كتابه التركى المدرج فى قائمة المصادر .

ـ ابن اياس (فقط) ليشير الى كتابه بدائع الزهور .

ـ الجبرتى (فقط) ليشير الى كتابه عجايب الآثار فى التراجم والأخبار .

ـ مبارك (فقط) ليشير لكتاب على باشا مبارك الخطط التوفيقية الجديدة .

ـ مصطفى على ليشير الى كتابه : Description of Cairo of 1599.

- أما اختصاراته لبعض المراجع الأوربية فكالآتى :

BSOAS : Bulletin if the School of Oriental & African studies.
EL = Ency. of Islam 1st ed.
EL 2 = Ency. of Islam 2nd ed.
IJMES = International Journal of Middle East Studies.
JESHO = Journal of the Economic & Social Histoty of the Orient.
LANE = E. W. Lane, the manners & Customs of the modern Egyptians.

WZKM = Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes .

هوامش الفصل الأول

(١) عن دولة المماليك ومجتمعهم انظر :

D. Ayalon's collected articles, *Studies on the Mamluks of Egypt* (1250-1517 (London, Variorum Reprints. 1977) and *The Mamluk Military Society* (London, Variorum Reprints, 1979) and R. Irwin, The *Middle East in The Middle Ages : The Early Mamluk Sultanate*, 1250-1382 (London, 1986).

(٢) عن التكوين الاجتماعي في المدن في عصر المماليك • انظر :

I. M. Lapidus *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge. Mass.. 1967).

(٣) عن الخلفية السيكلوجية لفشل المماليك في استخدام الأسلحة النارية انظر :

D. Ayalon, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom* (London, 1956).

(٤) عن التنافس العثماني المملوكي وتوابعه • انظر :

On the Ottoman-Mamluk rivalry and its consequences, see Andrew C. Hess, 'The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth Century World War,' *IJMS*, vol. 4 (1973), pp. 55-76.

(٥) من الواضح من التواريخ الحولية العربية أن المماليك كانوا واعين للتفوق العسكرى العثماني ، فكلما انتهت مشكلة مع العثمانيين سلميا ، تنهد السلطان المملوكي وحاشيته بارتياح •

(٦) من منظور تاريخي يبدو معقولا أن نناقش أن الفتح العثماني لمصر والشام لم يكن مجرد مخرج من سلسلة من سوء الفهم أو مجرد تحول غير واضح المعالم ، وانما الأقرب أن يكون نتيجة لا مفر منها للوضع الذى يقتضى أن تكون هناك جبهة سنية تحت زعامة واحدة في مواجهة الهراطقة من شيعة ومسيحيين (فارس وحكم هبسبرج في الامبراطورية النمساوية) ، ومن الطبيعى أيضا أن الدولة العثمانية كانت تقصد من التوسع والغزو تدبير مزيد من الموارد مما أدى في النهاية الى ابتلاع الدولة المملوكية الهامدة • وقد تعرضت المراجع التالية للتطورات التاريخية بشكل موجز وذكى :

P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*. 1516-1922. (Ithaca. NY, 1966). pp. 33-45. On Ottoman policies towards the Mamluks, see D. Ayalon. 'Mamluk Military Aristocracy during the First Years of the Ottoman Occupation of Egypt.» in C.E. Bosworth, Ch. Issawi, R. Savory and A.L. Udovich (eds.). *The Islamic world : Studies in* The End of the Mamluk Sultanate (Why Did the Ottoman Spare the Mamluks of Egypt and Wipe Out the Mamluks of Syria ?). *Studia slamica* 65 (1987). 125-48..

(٧) Iyas, pp. 174-7.

(٨) Ibid., pp. 157-183.

(٩) Ibid., pp. 169-70, 186-7, 213, 219-20, 297, 366-7, 407-8, 429, 474-5.

(١٠) Ibid., pp. 150, 153-5, 162, 170, 207-8.

(١١) Ibid., p. 172.

(١٢) Ibid., pp. 178-9. 184-5.

(١٣) القول بأن الخليفة العباسى كان بينهم يعد برهانا اضافيا على أن حكاية نقل الخلافة الى السلطان سليم ليست الا حكاية وضعت بعد ذلك · فاذا كان الخليفة شخصا مهما يمتلك صلاحيات ، تركه العثمانيون يعود الى دياره بهذه البساطة ·

(١٤) See, for example, Iyas, pp. 174, 214, 223, 335. 356, 372, 452, 462-3.

(١٥) Ibid., pp. 417-20, 427.

(١٦) Ibid., pp. 165, 417-18, 242, 253-4, 460-466-7.

(١٧) Ibid., p. 461. Diyarbakri, fol. 226 b-268 a.

(١٨) Iyas, pp. 165-427.

(١٩) The sources on Kha'ir Bey are Ibn Iyas and Diyarbakri. See also, J.-L. Bacqué-Grammont, 'Une dénonciation des abus de Ha'ir Bey, gouverner de l'Egypte ottomane, en 1521,' *Annales ...Islamologiques*, vol. 19, 1982, pp. 5-52.

(٢٠) On the revolt of al-Ghazali. See Holt. op. cit., pp. 46-7.

(٢١) On that revolt see ibid., p. 48. and Diyarbakri. fol. 292b-302a, and Chapter 3 below.

(٢٢) On Ahmet Pasha's revolt, see Holt, op. cit., pp. 48-51 and Diyarbakri, fol. 310a-337b.

(٢٣) نص قانونى ـ نامه مصر نشره :

O. L. Barkan, XV ve XV Iinci astrlarda Osmanli Imparatorfugunda zirai, ekonominin hukuki ve mali esaslart, vol. 1 (Istanbul. 1943), pp. 355-87.

(٢٤) الدراسة الأساسية عن الادارة فى مصر العثمانية كتبها :

S. J. Shaw. The Financial and Administrative and Development of Ottaman Egypt. 1517-1798 (Princeton, NJ. 1962).

(٢٥) اعتمدنا فى هذا المسح على المصادر التالية :

Holt op. cit., chapters 5, 6 : Holt. The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798, in Holt. ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* (London, 1968), pp. 79-90 : Holt. The Last Phase of the neo-Mamluk Regime in Egypt, in *L'Egypte au XIXe siècle* (Paris. 1982)). pp. 65-75 ; Raymond, *Artisans et commerçants* H D. Crecelius, *The Roots of Modern Egypt : The Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Abu al-Dhahab*, 1760-1775 (Minneapolis and Chicago, 1981) : M. Winter. Turks, Arabs and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt. *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*. vol. 72. 1980, pp. 97-122.

(٢٦) عن البيليوجرافيا (قوائم المصادر) لهذه الفترة انظر :

P. M. Holt, 'Ottoman Egypt (1517-1798) : An Account of Arabic Historical Sources.' in Holt. ed., *Political and Social Change in Modern Egypt*. pp. 3-12 ; S.J. Shaw. 'Turkish Source-materials for Egyptian History. » in ibid., pp. 28-48.

(٢٧) See Winter, 'Turks, Arabs and Mamluks, pp. 112-13.

حقيقة ان محمد باشا أبطل سجلات الجراكسة التى تسجل أعطياتهم ، ووضع سجلات اخرى (دفترى التربيع daftari al tarbi) • محمد بن ابى السرور البكرى الصديقى ، النزهة الزاهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط رقم ٤٩٩٥ مجموعة يهودا جامعة برنستون) ورقة ٤٥ ب •

Mehmet Pasha abolished the Circassians' register, which recorded pensions and put another one in use (*daftari al-tarbi'*), Muhammad Ibn Abi'l-Surur al-Bakri al-Siddiqi, al-Nuzha al-zahiyya fi dhikr wulat Misr wa'l-Qahira al-Mu'izziyya (Ms. 4995, Yahuda Collection. Princeton University) fol. 45b.

(٢٨) P.M. Holt, 'The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century,' in Holt, *Studies in the History of the Near East* (London, 1973) pp. 177-219.

(٢٩) Holt. Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt.' in Ibid., pp. 161-76.

(٣٠) Holt, 'The Exalted Lineage of Ridwan Bey : Some Observation on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy,' in ibid., p. 228.

(٣١) Holt, 'The Career of Küçük Muhammad (1676-94),' in Ibid., pp. 231-51.

(٣٢) A Raymond, 'Une 'revolution' au Caire sous les Mamelouks. Le crise de 1123/1711.' *Annales Islamologiques*, vol. 6, 1965, pp. 95-120.

(٣٣) MM. vol. 3, no. 561, fol. 121b, mid-Rajab, 1138 (December 9, 1726) ; vol. 4 no. 337, fot. 76 a, mid-Safar. 1143 (August 30.

(٣٤) Crecelius, *op. cit.*, p. 173.

هوامش الفصل الثانى

(١) U. Haarmann, 'Ideology and History, Identity and Alterity : The Arab Image of the Turk from the 'Abbasids to Modern Egypt.' *IJMES.*, Vol. 20, no. 2, May 1988, pp. 175-96, for a broad and insightful discussion of the subject.

(٢) محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان فى حوادث الأزمان تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، خاصة الصفحات من ٢٩ الى ٣١ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٧٠ ، وكان هذا الكاتب الشامى متألما وواعيا بالجوانب غير السارة للحياة فى ظل الاحتلال العسكرى · انظر على سبيل المثال المرجع السابق ص ص ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٠ ·

(٣) عن الشعرانى انظر : Winter, *Society and Religion.*

(٤) ابن نجيم ، الفتاوى الزينية (مخطوط ـ ٤١١٥ فى مجموعة جاريت Garrett جامعة برينستون) ورقة ٥٠ أ ، ٦٢ أ ·

(٥) عبد القادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكه المعظمة · القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، صص ١١٢ ، ١٢٦ ، ٢٦٤ وما بعدها ·

(٦) قطب الدين النهروالى المكى ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام · تحقيق ف · فستنفلد Wüstenfeld · بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٨٣ وما بعدها ·

(٧) انظر عبد الكريم رافق ، ابن أبى السرور وكتاباته BSOAS مجلد ٣٨ ، جـ ١ ، ١٩٧٥ · ص ص ٢٤ ـ ٣١ ·

(٨) النهروالى ، كتاب الاعلام ، ص ص ٢٨٣ ـ ٢٩٠ ، ٣٣١ ـ ٣٥٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ ـ ٣٩٧ ، ٤٠٦ ـ ٤٢٧ ·

(٩) مرجع سابق ، ص ٢٩١ ·

(١٠) Winter, *Society and Religion*, p. 268.

(١١) See M. Winter, 'A Seventeenth-Century Arabic Panegyric of the Ottoman Dynasty,' *Asian and African Studies* (Jerusalem), Vol. 13. no. 2.

(١٢) النهروالى ، كتاب الاعلام ، ص ٤٠٥ ·

(١٣) أمثلة عن ذلك · انظر على سبيل المثال : مصطفى على ص ٤٠ (حاشية ٤١) ، ص ٥٧ (حاشية ٥٧) ·

(١٤) ابن اياس ، صفحات متفرقة ·

(١٥) The article 'Ghuzz', in EI 2 vol. 2, part 2, pp. 1106-11.

(١٦) فى حوالى نهاية الفترة التى نبحثها بدأت الاتجاهات تتغير فقد لاحظ الجبرتى فى سياق حديثه عن موت السلطان محمد الأول ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م أنه كان آخر السلاطين العثمانيين الذين وهبهم الله صفات السلوك الحسن واحترام الشريعة ... الخ الجبرتى ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

Toward the end of the period under survey, that attitude seems to have changed, however, On the occasion of the death of Sultan Mahmut I in 1168/1754, al-Jabarti notes : 'He was the last of he Ottoman (Sultans) to be endowed with the qualities of good conduct, gallantry, respect of sacred things, integrity, and worthy deeds.' Jabarti, vol. 1, p. 205.

(١٧) See H. Inalik, *'L'Empire Ottoman,' Actes du ɪer congrés international des études balkaniques et sud-est européenes,* (Sofia, 1969), III, p. 88 : Winter, 'A Seventeenth-Century Arabic Panegyric,' p. 155.

(١٨) See H.A.R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the ... West* (London 1950) vol. 1, part 1, p. 140 .

(١٩) عن الحوليات التاريخية العربية لهذه الفترة انظر :

P.M. Holt, 'Ottoman Egypt (1517-1798) : an Account of Arabic Historical Sources, in P.M. Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* (London, 1968), pp. 3-12. For a survey of the Turkish chronicles, see S.J. Shaw, 'Turkish Source-Materials for Egyptian History,' in ibid., pp. 28-48. For a convenient list of pashas and their terms of office in Ottoman Egypt, see Mustafa 'Ali, pp. 17-18 (for the sixteenth century) ; P.M. Holt, 'The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century.' in P.M. Holt, *Studies in the History of the Near East* (London, 1973), pp. 189-91 (for the seventeenth century) ; M. de Hammed, *Histoire de l'Empire Ottoman,* M. Dochez, trans. (Paris, 1844), vol. 3, pp. 666-7 (for the eighteenth century). For general surveys about the pashas and their activities, see E. Combe, 'L'Egypte Ottoman,' in *Présis de l'histoire d'Egypte* (Cairo, 1933), vol. 3, pp. 21-39 and H. Dehéain, 'L'Egypte turque.' in G. Hanotaux, *Histoire de la nation égytienne* (Paris, 1931), pp. 13-38.

(٢٠) مصطفى على ، ص ٧٣ .

(٢١) على أفندى ، حولية باشوات مصر (مخطوط ١٠٥٠ فى مجموعة مظفر أوكاك ، جامعة أنقرة ، أوراق من ١٤ أ الى ٢٤ ب .

(٢٢) أحمد شلبى ، ص ص ٣٤٢ ـ ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

(٢٣) See J.S. Shaw, 'Landholdings and Land-tax Revenues in Ottoman Egypt,' in Holt, *Political and Social Change,* pp. 91-103.

(٢٤) A. Raymond, 'The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns.' *International Journal of Turkish Studies,* Vol. 1, no. 1, Winter 1979-80, pp. 84-101. See also the last chapter of the present book.

(٢٥) M. Winter, 'The Islamic Profile and the Religious Policy of the Ruling Class in Ottoman Egypt.' *Israel Oriental Studies* (Tel. Aviv, 1988), vol. 10, pp. 132-45.

(٢٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن . أوراق ٨٧ أ الى ٧٩ ب .

(٢٧) الحوليات المصرية مليئة بأمثلة الباشوات الأقوياء والضعفاء ، والباشوات

المحبوبين والمكروهين • انظر على سبيل المثال : عبد الكريم بن عبد الرحمن ، وحلاق ، ومحمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : النزهة الزاهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة (مخطوط ـ ٤٩٩٥ ، مجموعة جاريت Garret ـ جامعة برنستون) •

(٢٨) عن سياسة الباشوات الدينية ، انظر : Winter,' the islamic profile'.

(٢٩) قانونى نامه مصر ، ص ٣٥٨ •

Barkan's edition. See also R. Mantran, « Note sur le Kanunname-i Misir.' *Cahiers de linquistiques d'Orientalisme et de Savistiques : études sémitiques et islamiques.* vol. 9, Juillet, 1977, pp. 35-44 ; P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 1516-1922 (Ithaca, NY, 1966), pp. 51-2.

(٣٠) *Qanun-name-i Misir*, p. 358.

(٣١) Ibid., pp. 358-9.

(٣٢) Ibir., p. 359.

(٣٣) See, for example, U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, 155T-E615* (Oxford, 1960). pp. 68-9.

(٣٤) MD, vol. 7, no. 1335, pp. 462-3, Dhu'l-Hijja 1, 975 (May 29, 1568).

(٣٥) MD, vol. 35, no. 745, Ramadan 2, 986 (November 2, 1578).

(٣٦) M Winter, 'Military Connections between Egypt and Syria (including Palestine) in the Early Ottoman Period,' inA. Cohen and G. Baer, eds, *Egypt and Palestine A Millennium of Association* (868-1048,) (Jerusalem, 1984), pp. 141 ff., based on the MD.

(٣٧) See ; for example, MD, vol. 50, no. 45, p. 12, Ramadan 1, 991 (September 18. 1583), no. 14, p. 14, Dhu'l-Qa'da 15, 991 (November 30, 1583).

(٣٨) MD, vol. 26, no. 551, . 199, Jumada 19, 982 (October 6, 1574).

(٣٩) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، تحقيق حمد الجاسر • الرياض ، ١٩٦٧ • ص ص ٤٠٨ ، ٤٣٢ ـ ٤٣٣ •

(٤٠) MD. vol. 7, no. 1329, *awa'il Dhu'l-Qa'da*, 1975 (*May* 1-10, 1567).

(٤١) Winter., ' Military Connections between Egypt and Syria.'

(٤٢) على سبيل المثال ، نجد أن النهروالى يذكر أن مصر قد أصبحت وطنا للجنود الذين يخدمون فيها حيث ينعمون بالسلام والهدوء فأحبوها وتآلفوا مع السكان • البرق اليمانى ، ص ص ١٩ ، ١٩٩ •

(٤٣) M. Winter, ''Ali Efendi's (Anatoian Campaign Book' : a Defence of te Egyptian Army in the Seventeenth Century', *Turcica*, vol. 15, 1983, pp. 267-309.

(٤٤) MD, vol. 75, no. 199, p. 111, Shawwal, 1013 (February-March, 1604).

(٤٥) MD, vol. 26, no. 498, p. 183, Jumada I 10, 982 (August 28, 1574) ; vol. 73. nos. 634, 643, 644. Dhu'l-Hijja, 1003 (August-September. (1595) ; vol. 75, no. 199, p. 111, Dhu'l-Hijja, 1013 (April-May. 1605).

(٤٦) MD, vol. 7, no. 1329, p. 459, Dhu'l-Qa'da 1, 975 (April 28. 1568).

(٤٧) MD, vol. 5, no. 1146, p. 430, Sha'ban 14,. 973 (March 6, 1566) ; vol. 23, no. 693, p. 313. Dhu'l-Qa'da 23, 981 (March 16, 1573).

(٤٨) Ali Efendi, fol. 23 a.

(٤٩) Ibid., fol. 20 a.

(٥٠) MD. vol. 50. no. 177 p. 42 Dhu'l-Qa'da 993 (November 8 1585).

(٥١) Alı Efendi Fol. 19 b.

(٥٢) MD, vol. 50, nos. 165, 182, 238, pp. 39, 42, 51. Safar-Dhu'l-Qada 993 (February-November 1585).

(٥٣) MD. vol. 22 pp. 320, pp. 165-6 Rabi' the I 26. 981 (July 26, 1573) ; vo.l 29, no. 9, p. 5.

رمضان ، ١ ، ٩٨٤ (٢٢ نوفمبر ١٥٧٦) مجلد ٢٣ ، رقم ٢ ص ٢ ، رمضان ، ٢ ، ٩٨٥هـ (١٣ نوفمبر ١٥٧٧) عن كتائب الشاويشية والمتفرقة انظر :

S.J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Develompment of Ottoman Egypt*, 1517-1798, (Prinseton. NJ., 1962), pp. 193 ff.

(٥٤) Winter, 'Ali Efendis Anatolian Campaign Book,' p. 275. and note. Several décrees refer to the *aghas*. See, for example, MD. vol. 31, no. 190, p. 76, Jumada I 12, 985 (July 28. 1577) ; vol. 55, no. 605, p 264, 1004/5 ; vol. 60, no. 45, p. 20, Shawwal 21, 993 (October 16,1585).

(٥٥) MD. vol. 26, no. 645, p. 226. Jumada II 7, 982 (September 24, 1574).

(٥٦) *MM*, voli 7, no, 531, p. 245 b, *awakhir* Jumada I, 1127 (May 24, June 2, 1715).

(٥٧) MM. vol. I, no. 237, p. 53 a, *awasit* Ramadan, 1124 (October 12-21, 1712) ; vol. 3, no. 137, p. 27a, *awa'il* Rabi' I, 1133 (January 1-10, 1722) ; vol. 5, no. 352, *awakhir* Ramadan, 1156 (November 8-17, 1743).

(٥٨) MD, vol. 39, no. 201, p. 81, Shawwal 27, 987 (December 17, 1579).

(٥٩) *MD*, vol. 22, no. 355, p. 184, Rabi' I 28, 981 (July 28, 1573). 1573).

(٦٠) *MD*, vol. 23, no. 390, p. 184, Jumada II 27, 981 (October 24, See also MD. vol. 60, no. 31, p. 14. Shawwal 26, 993 (October 21, 1585), for another edict in the same vein.

(٦١) Qanun-name-i Misir, p. 376 (paragraph 36).

(٦٢) *MD*, vol. 26, no. 822, p. 284, Rajab 6, 982 (October 2, 1573).

(٦٣) See al-Jaziri. Durar, pp. 374-6 : JR. Blackbouri, The Collapse of Ottoman Authority in Yemen, 968/1560-976/1568.' Die *Welt des Islams*, N.S. vol. 19, nos. 1-4, (1979), p. 121.

(٦٤) MD. vol. 14, no. 170, p. 120. Safar 9, 987 (July 23, 1570). Al-Nahrawali compares Yemen to a foundry in which the Egyptian soldiers melt like salt, al-Bark al-Yamani, p. 91.

(٦٥) Document E 2283, Topkapi Sarayi archives, Istanbul, 957 (1550-1).

(٦٦) MD. vol. 19, no. 120, p. 54, Muharram 19, 980 (June 2, 1572).

(٦٧) *MD*, vol. 7, no. 358, p. 139, Rabi II 17, 975 (October 21, 1567), vol. 14 no. 179, p. 126, Safar 19, 978 (July 23, 1570) ; vol. 26, no. 236, p. 92, Rabi I 28. 982 (July 18, 1574).

(٦٨) *MD*, vol. 7. no. 2099, p. 735, Rabi I 11, 976 (September 3. 1568) ; vol. 27, no. 578, p. 249, Dhu'l-Qu'da 5, 983 February 5, 1576): vol. 49, no. 212, p. 60. Rabi II 28, 991 (May 21, 1583). See also Mustafa Ali, p. 52. where the writer describes in his usual vivid manner how the Turks (Rumis) the Egypt are tempted to be enlisted in the army in order to be sent to Yemen and Habesh. never to come back.

(٦٩) 'Ali Efendi. *A Chronicle of the Pashas of Egypt*, fol. 42a, 42 b.

(٧٠) See M. Winter. 'Turks, Arabs and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt, '*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, vol. 72 (Vienna, 1980) pp. 97-112, and the bibliography cited there.

(٧١) On the Jelali revolts, see O. L. Barkan, 'The Price Revolution of the Sixteenth Century A Turning Point in the Economic History of the Near East *IJMES*, vol. 6 (1975), pp. 3-28 : H. Inalcik. 'Military and Fiscal Transformation in the Ottoman Empire, 1960-1700.' *Archivum Ottomanicum*, vol. 6, 1980, pp. 283-337.

(٧٢) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية (مخطوط ـ ٥٣ فينا) ورقة ١٧ أ ٠ حلاق ، ورقة ٩١ ب ـ ٩٢ أ وفى هذه المناسبة ذاتها منع المتمردون اليهود والنصارى من اقتناء العبيد ٠

(٧٣) حلاق ، ورقة ١٠٣ أ ـ ١٠٣ ب ، على أفندى ، ورقة ٢٣ أ ـ ٢٤ ب ٠

(٧٤) D. Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' *JESHO*, vol. 3, part 2 (August 1960), pp. 152-8.

(٧٥) MD, vol. 60, nos. 595, 596 Ali, p. 254. Jumada 18. 994 (April 27, 1586).

(٧٦) الدياربكرى ، ورقة ١٤ ب ٠ مصطفى على صص ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٦ ٠

(٧٧) See, for example, 'Ali Efendi, fol. 34 a.

(٧٨) *MD*, *vol. 46*, no. 611, p. 270. Dhul'-Hijja 6, 986 (February 3, 1579) ; vol, 76. p. 86, 1013 (1604-5).

(٧٩) *MD*, vol. 49, no. 91, p. 24, 991 (1583/84) ; vol 53, no. 461, p. 157, Ramadan 2, 992 (September 7, 1584) : vol. 75, no. 193. p. 109, 1013 (1604-5). See also Shaw, *Financial and Administrative Organization*, pp. 184 ff. ; Holt, 'The Beylicate in Ottoman Egypt,' p. 185.

(٨٠) Ali Efendi, fol. 27b.

(٨١) مصطفى على ، ص ٥٨ ٠

(٨٢) Holt, the Beylicate in Ottoman Egypt, pp. 184-5.

(٨٣) MD. Vol. 7, no. 2106. p. 771 Rabia 126, 976, September 18, 1568 Vol. 76 no 144, p. 58 Jumada I 1210 September, 4, 1607.

(٨٤) MD, Vol. 39, no. 418, p. 203 Muharram 10, 988 (February 26, 1580). Vol 55. no 112, p. 63 Dhu'l. Hijja 4, 922 December 7, 1584).

(٨٥) See Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 78-9; Combe, 'L'Egypte ottomane5. pp. 21-39.

(٨٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٦٣ب و ٦٤ ب ، حلاق ، ورقة ١٨٠ أ .

(٨٧) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبى ، ص ص ٢٧٣ ـ ٣٩٢ ، عبد الكريم ابن عبد الرحمن ورقة ٧١ ب . Dehérain, L'Egypte turque, p. 104.

(٨٨) See P.M. Holt. 'Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt,' *BSOAS*. vol. 25, part 1 (1962), pp. 38-51. See also. Ahmad Shalabi, pp. 282-4.

(٨٩) 'Ali Efendi, fol. 28a ; Hallaq, fol. 108a.

(٩٠) Holt, The Beylicate in Ottoman Egypt, pp. 181-6.

(٩١) Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 80-1 ; Winter. Ali Efendi. fol. 46b.-55b.; Hallaq, fol. 140a-148b.

(٩٢) Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, p. 82 ; Hallaq, fol. 158a-178b.

(٩٣) See P.M. Holt, 'The Exalted Lineage of Ridwan Bey : Some Observations in a Seventeenth-Century Mamluk Geneology. *BSOAS*, vol. 22, part 2, 1955, pp. 222-30.

(٩٤) Evliya. p. 159.

(٩٥) Ibid., pp. 131, 143, 328, 401.

(٩٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٢٦ ب .

(٩٧) *MD*, vol. 55, no. 112, p. 63. Dhu'l-Hijja 4, 992 (December 7, 1584). vol. 75, no. 172 Shawwal 1, 1013 (February 20, 1605) : vol. 76. p. 86 1013 (1605) : vol. 78. no. 746, p. 282. Dhu'l-Hijja. 1018 (February-March, 1610). عبد الكريم عبد الرحمن ، ورقة ٣٦ ب ، fol. 36 b, 76 b : حلاق ، ورقة ١٢٥ fol. 125 b. 198 b, 208 a-b, 211

محمد أبى السرور البكرى الصديقى النزهة الجلية مخطوط ٤٤٤٥ ، ورقة ٧ ب . b. See Winter, Turks, Arabs, and Mamluks.' p. 104.

(٩٨) Evliya. pp. 159-60 ;! Here Evliya provides a long list of Arabic Words current in Egypt, which the Mamluks used with their Turkish.

(٩٩) Ibid., p. 581.

(١٠٠) Ibid., p. 602.

(١٠١) على عكس كتابات ايفيليا شلبى غير الدقيقة عن البلاد المختلفة فان وصفه لمصر يلقى قبولا من الكتاب الآخرين .

Both show and Raymond use him extensively-See S. Ishaw Turkish Source-materials for Egyptian History, in Holt, Artisans et commerçants, p. 205 note 1.

(١٠٢) حلاق ، ورقة ٩٣ ب ، ٩٤ ب .

MD, vol. 7, no. 2100, p. 769, Rabi' I 24, 976 (September 16, 1568) ; vol. 28, no. 120, p. 50, Rajab 25, 984 (October 18, 1576).

(١٠٣) On the *Sekban* see H. Inalcik. Military and Fiscal Transformation in the Ottoman Empire, (1600-1700, *'Archivum Ottomanicum* (Louvin, 1980), vol. 6. especially pp. 292-330. On *sekban in the service* of Egyptian emire, see for example. 'Abdulkarim ibn 'Abddrrahman, fol. 48b ; Winter, 'Turks, Arabs, and Mamluks,' p. 115.

(١٠٤) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٦٩ أ ، ٧١ أ ، حلاق ، ورقة ١٥٠ أ وما بعدها .

(١٠٥) نفسه ، ورقة ١٠٥ ب ، ١٨٦ أ .

(١٠٦) نفسه ، ٢٣٧ أ ، ٢٣٧ ب ، أحمد شلبى ص ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(١٠٧) حلاق ، ورقة ٢١٦ أ ، ٢٣٧ أ .

See *MD*, vol. 22, no. 351, p. 182, Rabi' I 28, 981 (July 28, 1573);

(١٠٨) On the changes in the Ottoman armies in the period generally, see H. Inalcik, 'Military and Fiscal Transformation in the Ottoman Empire.' For *firmans* ordering the governor of Egypt to enlist *gharib yigit* Turkish troops. see *MD*, vol. 6, no. 412, p. 191, Rabi' II 20, 972 (November 25, 1564) ; vol. 14, no. 912. p. 633, Rajab 19, 978 (December 17. 1570) ; vol. 22, no 351, p. 181, Rabi' I 82, 981 (July 28, 1573). For *firmmans calling for an Egyptian contingent* of 3.00 troops see, for example, *MM*. vol. 1, no. 499, fol. 111a *awa'il* Muharram. 1130 (December 5-14. 1717) ; vol. 5, no. 340, *awakhir* Rajab, 1105 (November, 14-23, 1737).

(١٠٩) Evliya. pp. 125, 145.

(١١٠) Ibid., p. 222 : Ahmad Shalabi, pp. 187, 468 ; Jabarti, Vol. I, p. 25.

(١١١) See *Archives Nationales*. Paris. Affaires Etrangères. B1 313, I, correspondente consulaire (le Caire. 1669-98), pp. 148, 200-4, 407-15 ; B1 315, III, pp. 203-5 (Mai, 1704).

(١١٢) Raymond, Artisans et commerçants, p. 728.

(١١٣) *Archives Nationale*, Paris, Afaires Etrangéres, B1 313, I. pp. 200-4.

(١١٤) الجبرتى / وقائع ذى الحجة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١م .

(١١٥) Shaw, *The Financial and Administrative Development*, pp. 35-8, 165, 168, 313-5.

(١١٦) أحمد شلبى ، ص ٥٤٠ .

(١١٧) See Ibid., pp. 489, 493 : *MM*, vol. 1, no. 182. fol. 42a, *awasit* Rabi' I, 1123 (April 29 - May 8, 1711) ; no. 196, fol. 44a, awa'il Safar, 1124 (March 10-19, 1712).

(١١٨) أحمد شلبى ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣١٥ ، ٤٤٨ ـ ٤٥١ .

(١١٩) *MM*, vol. 4, no. 337. fol. 76a, *awasit* Safar, 1143 (August 26- September 4, 1730) ; vol. 6, no. 268, fol. 59a-59b, awasit Muharram, 1159 (February 3-12, 1746).

(١٢٠) See, for example, *MD*, vol. 80, no. 1164, p. 419, Muharram 2. 1023 (February 12, 1614) ; vol. 82. ni 272, pp. 126. Ramadan 18. 1026 (September 19, 1617) ; *MM*. vol. 3, no. 35, fol. 8 b, awa'il Shawwal, 1131 (August 17-26, 1719) ; ibid., no. 587, fol. 125 b. *awakhir* Rajab, 1138 (March 25-April 3, 1726) ; vol. 6, no. 265, fol. 58a-58b, *awasit* Rajab, 1158 (August 9-18, 1745).

(١٢١) أحمد شلبى ، ص ٣٢١ ·

(١٢٢) نفسه ، ص ٤٤١ MM, vol. 1, no. 74. مايو ٢١ ـ ٣٠ ، ١٧٠٩ ·

(١٢٣) أحمد شلبى ، ص ٢٢٥ ·

MM. vol. 1, no. 615, 1126. (١٧١٤)

(١٢٤) النهروالى ، البرق اليمانى · ص ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ·

الجبرتى ، مجلد ٣ ، ص ١٣ · Winter, Ali Effendi, passim .

(١٢٥) MM. Vil. 5, no. 180.

(١٢٦) *MM*, Vol 5, no. 180, pp. 74-6, *awakhir* Ramadan, 1147 (February, 14-23, 1735).

(١٢٧) See for example, *MM*, vol. I, no. 372, fol. 83a-83b, awa'il Rajab, 1126 (July 13-22, 1714) ; ibid., no. 499, fol. 111a, *awa'il* Muharram, 1130 (December 5-14, 1713); voll. 3, no. 66, fol. 14a. *awakhir* Rabi II. 1132 (March 2-11, 1720) ; ibid.. no. 354, fol. 73b-74 b. awa'il Ramadan. 1135 (June 5-14, 1723).

(١٢٨) Ibid., vol. 7, no. 164, fol. 79b-80a, awasit Ramadan, 1167 (July 2-11, 1754) : no. 120, fol. 60a, *awaist* Rabi' II, 1167 (February 5-14, 1754).

(١٢٩) Ibir., vol. 3, no. 549, fol. 119 b, *awa'il* Rajab, 1138 (March 5-14. 1726). See also Ahmad Shalabi, pp. 336, 359-60.

(١٣٠) الجبرتى ، مجلد ١ ، ص ١٢٩ ·

Raymond, Artisans et Commercants, pp. 727-735.

(١٣١) See D. Kimche, The Political Superstructure of Egypt in the late Eighteenth Century,' *Middle East Journal*, Vol. 22, no. 4, 1968, pp. 454-6.,

(١٣٢) MM, vol. 7. no. 158, pp. 345 - zsha 'ban 10, 117, (April 8, 1759).

(١٣٣) R. Pococke, A Description of the East some other countries (London 1743), vol. 1, p. 167.

(١٣٤) عن ابراهيم كتخدا ، انظر الجبرتى ، مج ١ ص ص ١٩١ ـ ١٩٢ ·

Dehèrain, L'Egypte Turque. pp. 110-115.

(١٣٥) أحمد شلبى ، ص ٤٥٧ : المعنى كما ورد بالنص : « الباشا الجديد الذى وصل مصر فى ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ م قدم خلع التشريف لاثنى عشر من السناجق (البكوات) كان أربعة منهم من المماليك » ، ثم يذكر لنا هذا المؤرخ أسماء هؤلاء البكوات ·

(١٣٦) D. Ayalon, « Studies in al-Jabarti, *JESHO*, vol. 3 (1960). pp. 148-74. 275-325.

(١٣٧) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٤٥ ·

(١٣٨) ثمة مناقشة شائقة تؤكد بشدة على تركيز المجتمع المملوكى على مصالحه الشخصية دون النظر للاعتبارات المثالية من حيث النظر للولاء والأخوة أو حقوق الرابطة ·
انظر :

R. Irwin, *The Middle East in the Middle Ages : The Early Mamluk Sultanate*, 1250-1382 (London, 1986), chapter 8, especially, pp. 154-6.

(١٣٩) أحمد شلبى ، ص ص ٣٧٤ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ·

(١٤٠) See Ibid., p. 30 (*akhadha min atba'ihi thalathata mamalik.*).
See P.M. Holt, 'The Career if Kücük Muhammad, *Studies in the History of the Near East* (London, 1973), p. 237. Compare to Ayalon, Studies in al-Jaberti'. *JESHO*, vol. 3, part 3 (October 1960), pp. 278-83.

(١٤١) See D. Ayalon, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk* Kingdom (London, 1956), especially, pp. 96-7.

(١٤٢) Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' p. 310, citing several instances from al-Jabarti.

(١٤٣) See D. Ayalon, 'Discharge from Servite, Banishments and Imorisonments in Mamluk Sociey,' Israel Orienal Studies, vol. 2, pp. 25-50.

(١٤٤) Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' p. 310, citing several passages in Jabarti.

(١٤٥) الجبرتى ، مج ١ ، ص ١١٦ ·

(١٤٦) Ahmad Shalabi, pp. 486, 615.

(١٤٧) Ayalon, 'Studies in al-Jabarti'. vol. 1, pp. 190, 259.

(١٤٨) الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٩٠ ·

(١٤٩) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٨ · Ibid., vol. 2, p. 28.

(١٥٠) نفسه مج ، ص ٣١٨ ·

(١٥١) Ahmad Shalabi, p. 506. Dehérain, *L'Egypte turque*, p. 75.

(١٥٢) Ahmar Shalabi, 481.

(١٥٣) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٤٥ ·

(١٥٤) Ahmad Shalabi. pp. 508-9.

(١٥٥) Ibid., pp. 391, 628 : Jabarti, vol. 1, p. 124.

(١٥٦) Ahmad Shalabi, pp. 345 ff : Jabarti, vol. 1, pp. 51-6.

(١٥٧) Ibid., vol. I, p. 278.

(١٥٨) Ibid., vol. 1, pp. 191-2.

(١٥٩) Ahmad Shalabi, p. 188 : Jabarti, vol. 1, p. 105.

(١٦٠) Ibid., vol. 1, pp. 203-4.

(١٦١) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٢٦ ب وعلى افندى Al. effendi ، ٢٤ ـ ·

(١٦٢) Evliya, p. 144.

(١٦٣) Pococke, p. 193.,

(١٦٤) Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' p. 154. الجبرتى ، مج ١ ص ص ٩٤ ـ ٩٥ ·

(١٦٥) Ahmad Shalabi, p. 427.

(١٦٦) Ibid., p. 392.

(١٦٧) ابن اياس ، ص ١٨٣ ٠

(١٦٨) انظر ما ذكرناه سابقا ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٠٧ ٠

(١٦٩) Pococke, p. 180.

(١٧٠) الجبرتى ، مج (٢) ، ص ٩١ ٠

(١٧١) See, for example, Ahmad Shalabi, pp. 367, 518 : 207.

(١٧٢) يذكر المؤرخ أن معظم مماليك خليل بك كانوا سودا مما يشكل تناقضا فى استخدام المصطلحات ، ويعطى انطباعا قويا أن هذا الامير واتباعه لم يكونوا اسوياء اى لم يكن امرهم طبيعيا atypical
On back Mamluks, see Ayalon, 'Studies in al-Jabarti,' pp. 316-7.

(١٧٣) الجبرتى ، مجلد ، ص ص ١٧ ــ ١٩ ٠
Ayalon, 'Studies in al-Jabarti, p. 166.

(١٧٤) سنناقش ذلك تفصيلا فى الفصل الخامس ٠

(١٧٥) Ayalon. 'Studies in al-Jabarti,' pp. 318-21.

لم استخدم كلمة (عرق) أو (جنس) race بمعناها العلمى الدقيق وانما وفقا للمفاهيم السائدة فى العصور الوسطى وفى المجتمعات العثمانية ٠

(١٧٦) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٨٠ ٠

(١٧٧) نفسه ، مجلد ٢ ، ص ص ٥٤ ، ٢١٠ ــ ٢١١ ٠

(١٧٨) أحمد شلبى ، ص ٤٧٢ ، الجبرتى ، مجلد ١ ، ص ٩٨ ٠

(١٧٩) يرجع العداء بين الجنود العثمانيين من ناحية والمماليك من ناحية أخرى الى بدايات الحكم العثمانى ولم يختف بعد ذلك ٠ انظر على سبيل المثـال : الدياربكرى ، ورقة ٢٨٧ أ ــ ٢٩٦ ب وكتاب على افندى يوضح هذا أيضا ، وانظر أيضا العداء ضد العثمانيين كما تجلى فى تصرفات اسماعيل بك بن اواظ ، وذكر الجبرتى (مجلد ١ ، ص ١١٨) انه لا اصدقاء للعثمانيين ولا يمكن الوثوق بهم ٠

(١٨٠) الجبرتى ، مجلد ٤ ، ص ١٢٨ ٠

(١٨١) نفسه ، مجلد ٤ ، ص ١٢٩ حقيقة أن المماليك كانوا قد أصبحوا جزءا من المجتمع المصرى تتضح من خلال واقعة رواها الجبرتى فى أحداث صفر ١٢٠٢ هـ / نوفمبر ١٧٨٧ اذ يذكر أن اسماعيل بك حاكم القاهرة القوى سأل العلماء ان يرسلوا الى اسطنبول لترسل قوات لفرض النظام فى مصر ، فاجاب العروسى شيخ الأزهر (الذى كان انتخابه لمنصبه دون غيره من غير المصريين يمثل نقلة ذات طابع وطنى) قائلا انه لا حاجة لذلك فالأتراك أو العسكر الرومية لن يقدروا على العسكر المصرية والأفضل هو اكرام العسكر المصرية والتودد لهم ، فهذا افضل من تقديم أبناء وطنك (بلدك) للغرباء ، والذى تعطيه للغرباء أعطوه لأولاد بلدكم اولى) ٠

الجبرتى ، مجلد ٢ ، ص ص ١٥٣ ــ ١٥٤ ٠

هوامش الفصل الثالث

(١) On the *Mühimme Defteri*, see U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, 1522-1615 (Oxford, 1960).

(٢) ابن اياس ، ص ١٥٥ يجب أن تعزى هذه المشاعر الى حقيقة أن ابن اياس كان ابن أمير مملوكي ، وعداؤه للبدو يعكس ثأرا قديما بين المماليك والبدو يعود الى منتصف القرن الثالث عشر عندما تم تاسيس دولة المماليك فقد ثار البدو في هذا الوقت ضد المماليك بقيادة زعيم عربي من أصول شريفة (ينسب لآل البيت) • وقد قمع المماليك هذه الثورة بقسوة • المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة ، ١٩٤٢) المجلد ، جـ ٣ ، صص ٣٨٦ ـ ٣٨٨ •

(٣) ابن اياس ، ص ١٠٧ •

(٤) نفسه ، ص ص ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ •

(٥) نفسه ، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥ •

(٦) نفسه ، ص ص ١٩٦ ـ ١٩٧ •

(٧) ابن الياس ص ٢١٦ ، الدياربكري ، ورقة ١٢٥ أ •

(٨) نفسه •

(٩) خطاب من خاير بك للسلطان سليم ، كتب في ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، وثيقة E 5850/2 في ارشيف طوبقابي سرايي Topkapi Sarayi باسطنبول •

(١٠) ابن اياس ، صص ٢٢٢ ـ ٢٢٦ ، الدياربكري ، ورقة ١٢٥ أ ، ١٢٦ ب •

(١١) ابن اياس صص ٢٦١ ـ ٢٦٤ ، الدياربكري ، ورقة ١٢٣ ب ، ١٧٢ أ •

(١٢) ابن اياس ، صص ٢٢٠ ـ ٢٤١ ، الدياربكري ، ورقة ١٣٦ ب ـ ١٣٧ أ •

(١٣) ابن اياس ، ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، لدياربكري ، ورقة ١٧١ ب •

(١٤) ابن اياس ، صص ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٣٨٣ ، الدياربكري ، ورقة ١٧٨ ب ، ١٨٠ ب •

(١٥) ابن اياس ، صص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ، الدياربكري ، ورقة ١٩٣ ب ـ ١٩٤ أ •

(١٦) ابن اياس ، صص ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، الدياربكري ، ورقة ١٩٦ أ ـ ١٩٧ أ •

(١٧) ابن اياس ، ص ٣٢٥ ، الدياربكري ، ورقة ٢٠٧ أ •

(١٨) نفسه ، عن الزيني بركات بن موسى ، [illegible] ابن اياس والدياربكري ، صفحات متفرقة •

(١٩) ابن اياس ، صص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ الدياربكري ورقة ٢٠٧ أ ، انظر أيضا Evliya ، ص ص ٢٤٣ ـ ٣٤٤ •

(٢٠) ابن اياس صص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، الدياربكري ٢٠٧ ب ـ ٢٠٨ ب •

(٢١) ابن اياس ، صص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ ، الدياربكري ، ورقة ٢٠٩ أ ، ٢٢٢ أ ـ ٢٢٢ ب •

(٢٢) ابن اياس ، ص ٣٧٢ ، الدياربكرى ، ورقة ٢٣٣ أ ، ٢٣٦ ب ٠
(٢٣) ابن اياس ، ص ٣٧٥ ، الدياربكرى ، ورقة ٢٣٤ ب ٠
(٢٤) ابن اياس ، ص ٤٤٧ ، الدياربكرى ، ورقة ٢٦٢ أ - ٢٦٢ ب ٠
(٢٥) نفسه ، ورقة ٢٦٢ أ ، ٢٨٨ أ ، ٢٩١ أ ، ابن اياس ، صص ٣٧٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ٠
(٢٦) الدياربكرى ، ورقة ٢٩٢ ب ٠
(٢٧) نفسه ، ورقة ٢٩٤ ب ٠
(٢٨) نفسه ، ورقة ٢٩٥ أ ٠
(٢٩) نفسه ، ورقة ٣٥٨ ب ٠ معلومات مهمة عن جانم الحمزاوى واعدامه المفاجىء فى ذى الحجة سنة ٩٤٤ هـ / مايو سنة ١٥٣٨ م بامر سليمان باشا حاكم مصر ، أوردها قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكى فى البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (الرياض ، ١٩٦٧) ص ص ٧١ - ٧٥ ٠
(٣٠) الدياربكرى ، ورقة ٣٥٨ ب - ٣٥٩ ب ٠
(٣١) نفسه ، ورقة ٢٥٩ ب ، ٢٩٦ أ ٠
(٣٢) نفسه ، ورقة ٢٩٧ ب - ٢٩٨ أ ٠
(٣٣) نفسه ، ورقة ٣٠١ ب - ٣٠٢ أ ، ٣٠٤ ب ٠
(٣٤) نفسه ، ورقة ٣٠٥ أ - ٣٠٦ أ ٠
(٣٥) نفسه ، ورقة ٣٠٧ ب - ٣٠٩ ب ٠
(٣٦) نفسه ، ورقة ٣١٤ أ ، ٣١٧ أ ، ٣١٧ ب ، ٣٢٢ أ ، ٣٢٨ ب ٠
(٣٧) نفسه ، ورقة ٣٢١ أ ٠
(٣٨) نفسه ، ورقة ٣٢٤ ب - ٣٢٥ أ ٠
(٣٩) نفسه ، ورقة ٣٣٥ أ - ٣٤٤ أ ٠
(٤٠) نفسه ، ورقة ٣٣٦ أ - ٣٣٧ ب ٠
(٤١) لاحظ شو S. J. Shaw عن حق أن هذه الثورة المملوكية لم يتم القضاء عليها بسرعة فى عام ١٥٢٤ ، وأن أتباع احمد ظلوا يواصلون المقاومة وسيطروا على مناطق ريفية كثيرة ٠

J. S. Shaw, 'Landholding and Land-tax Revenues in Ottoman Egypt, in P.M. Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* (London, 1968), p. 93, n. 3.

ولابد أن نضيف أن هؤلاء الاتباع كانوا من شيوخ البدو وليسوا مماليك وأن معركتهم لم تكن استمرارا للثورة المملوكية ، وانما كانت تمردا بدويا ٠

(٤٢) الدياربكرى ، ورقة ٣٣٨ أ ، ٣٤٠ ب ٠
(٤٣) نفسه ، ورقة ٣٤١ ب ٠
(٤٤) نفسه ، ورقة ٣٤٣ أ ٠
(٤٥) نفسه ، ورقة ٣٤٣ ب ٠
(٤٦) نفسه ، ورقة ٣٤٥ أ ، ٥٤٥ ب ٠
(٤٧) نفسه ، ورقة ٣٤٢ ب ٠
(٤٨) نفسه ، ورقة ٣٤٥ أ ٠
(٤٩) نفسه ، ورقة ٣٤٢ ب ، ٣٤٣ أ ٠
(٥٠) مصطفى على ، ص ٥٧ ٠

(٥١) الدياربكرى ، ورقة ٢٤٦ أ .

(٥٢) نفسه ، ورقة ٢٤٩ أ .

(٥٣) قانون نامه مصر . Qanun-name-i Misir, p. 363 (15).

(٥٤) Ibid., p. 364 (18).

(٥٥) Ibid., p. 364 (17).

(٥٦) MD, vol. 26, p. 263, no. 755, Jumada II 24, 982 (October 11, 1574).

(٥٧) الدياربكرى ، ص ٢٧١ أ .

(٥٨) البكرى الصديقى ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، عبد الرحيم عبد الرحمن (محقق) المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ .

(٥٩) *MD*, vol. 24, p. 312, no. 845, Safar 3, 982 (May 25, 1575).

(٦٠) See P. M. Holt, *Egypt and the Fertile Cresent*, 1516-1922 (Ithaca, NY, 1966), p. 51 ; G. W. F. Stripling, *The Ottoman Turks and the Arabs*, 1511-1574 (Urbana, Ill., 1942), pp. 73-4 ; S. J. Shaw, 'Turkish Source-materials for Egyptian History,' in Holt, ed. *Political and Social Change in Modern Egypt*, pp. 34-5.

(٦١) See S. J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt*, 1517-1798 (Princeton, NJ, 1962), pp. 52, 78, 85.

(٦٢) Ibid., p. 31.

(٦٣) *MD*, vol. 22, pp. 161-2, no. 315, Rabi' I, 981 (July, 1573).

(٦٤) Diyarbakri, fol. 287a.

(٦٥) *MD*, vol. 22, p. 149, no. 296, Rabi' I, 981 (July, 1573) ; vol. 23, p. 209, no. 708, Duh'l-Qa'da 23, 981 (March 16, 1574) ; vol. 24, p. 4. no. 9, Dhu'l-Qa'da 16, 981 (March 9, 1574) ; vol. 26, p. 167, no. 445, Jumada I, 982 (August-September, 1574).

(٦٦) *MD*, vol. 27, p. 104, no. 254, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575).

(٦٧) *MD*, vol. 40, p. 11, no. 22. Dhu'l-Hijja 23, 986 (February 20, 1579).

(٦٨) عبد القادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة . القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ، ص ٣٦٩ ، احمد الرشيدى ، حسن الصفاء والابتهاج بذكر من ولى امارات الحج (مخطوط ، المكتبة الوطنية ، باريس) ورقة ٥٢ أ ، وتحدثنا هذه المصادر عن داود بن عمر امير بدو الهوارة فى الصعيد ، واحمد بن بقار امير بدو جذام فى الشرقية وعيسى بن اسماعيل امير بدو العونة فى البحيرة .

(٦٩) *MD*, vol. 22, p. 165, no. 320. Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573).

(٧٠) حلاق ، ورقة ٧٧ ب .

(٧١) See P. M. Holt. The Beylicate in Ottoman Egypt. *Studies in the History of the Near East* (London, 1973), pp. 182-3.

(٧٢) *MD*, vol. 22, p. 184. no. 355. Rabi' I 28, 981 (July 28. 1573).

(٧٣) *MD*. vol. 22, p. 146. no. 292. Rabi' I 15, 981 (July 15, 1573).

(٧٤) *MD*, vol. 24, p. 132, no. 365, Dhu"l-Hijja 28, 981 (April 20, 1574) ; vol. 40 p. 268, no. 622, Ramadan 27, 987 (November 17, 1579)

(٧٥) *MD*, vol. 23, p. 209, no. 708, Dhu'l-Qa'da 23. 981 (March 16, 1574) ; vol. 50, p. 15. no. 59, Dhu'l-Qa'da 15, 991 (November 30, 1583) ; vol. 61, p. 107, no. 267, Sha'ban 24. 994 (August 10, 1586).

(٧٦) *MD*, Vol. 22, p. 151, no. 300, Rabi' II 15, 981 (August 14, 1573).

(٧٧) *MD*, vol. 22, p. 145, no. 290, Rabi' I 15, 981 (July 15, 1573) ; Ibid., p. 146, no. 291, same date ; ibid., no. 292, same date ; ibid., p. 149. no. 296, same date ; ibid., p. 151, no. 300; ibid., p. 155, no. 307. Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573) ; ibid., pp. 161-2, no. 315, same date : ibid., p. 162, no. 316, same date.

(٧٨) *MD*, vol. 24, p. 312. no. 845, Safar 3, 982 (May 25, 1574).

(٧٩) *MD*, vol. 23, p. 178, no. 376. Rajab 29, 981 (November 24, 1573) ; vol. 36, p. 153, no. 423, Safar 2, 987 (March 31. 1579).

(٨٠) MD, vol. 26, p. 264, no. 757, Jumada II 24 982 (October 11, 1574).

(٨١) See, for example, D. Ayalon, 'Studies in al-Jabarti, » *JESHO*, vol. 3, 1960, part 2, p. 151 and part 3, p. 299.

(٨٢) حلاق ، ورقة ٨٧ ا ٠
MD, vol. 10, p. 312, no. 508, Dhu'l-Hijja 22, 987 (May 17, 1571).

(٨٣) MD, vol. 22, pp. 181-2, no. 350, Rabi' I 28, 981 (July 28, 1573).

(٨٤) On the office of amir al-hajj in Ottoman Egypt see Shaw, *The Financial and Administrative Organization*, by index.

(٨٥) الرشيدى ، حسن الصفا والابتهاج ، ورقة ٥٣ أ ٥٤ أ ٥٥ ب ، ٥٦ أ ، ٥٧ أ ، ٥٧ ب ٠
MD, vol. 67, p. 123, no. 331, Rajab 23, 999 (May 17, 1591).

(٨٦) MD1. vol. 59, pp. 36, 38, nos. 161, 164, 172, Rabi' I 12, 993 (March 14, 1585) ; ibid., p. 10, no. 34, Rabi' I 25, 993 (April 26, 1585).

(٨٧) MD. vol. 10, p. 312, no. 508, Dhu'l-Hijja 22, 978 (May 17, 1571) ; vol. 22, p. 148, no. 295, Rabi' I 15, 991 (July 15, 1573) ; vol 28. p. 178, no. 413, Rajab 25, 984 (October 19, 1576).

(٨٨) *MD*, vol, 19, p. 276. no. 552, Rabi I 26, 980 (August 6, 1572). Vol. 28, p. 169. no. 393 Rajab 25, 984 (October 18, 1576).

(٨٩) *MD*, vol. 22, pp. 163-5, no. 319, Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573).

(٩٠) *MD*, vol. 22, p. 163, no. 318, Rabi I 26, 981 (July 26, 1573) ;

vol. 22, pp. 165-6, no. 320, Rabi I 26, 981 (July 26, 1573); vol. 27, pp. 5-6, no. 27, Rajab 1, 983 (October 6, 1575) ; vol. 28. p. 169, no. 393, Rajab 25, 984 (October 18, 1576) ; vol. 35, p. 291, no. 738, Shawwal 986 (December 1578).

(٩١) *MD*, vol. 21, p. 162, no. 398. Dhu'l-Qa'da 8, 980 (March 11, 1573) ; vol. 26, p. 173, no. 468, Jumada I 5, 982 (August 23, 1574); vol. 27, p. 104, no. 254, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575); vol. 27. p. 243, no. 565. Dhu'l-Qa'da 5, 983 (February 5, 1576)
الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٣٨١ *al-fawa'id*. p. 381.

والجزيرى هذا المؤرخ العربى متفق مع الاقوال الذاهبة الى أن سليمان باشا حاكم مصر من ٩٣١ هـ/١٥٢٥ م حتى ٩٤١ هـ/١٥٣٥ م ومرة أخرى من ٩٤٢ هـ/١٥٣٦ م حتى ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨م أمر بشنق داود بن عمر الذى كان معروفا بالكرم والعدل ، للاستيلاء على ثروته واتهم الباشا البدو بارسال غلال غير نظيفة له ، وأمر باعدام شيخين آخرين معه : انظر : النهروالى ، البرق اليمانى ، ص ٧٦ .

(٩٢) *MD*, vol. 50, p. 59, Dhu'l-Qa'da 15. 991 (November 30, 1583) : Shaw, *The Financial and Administrative Organization*, p. 88.

(٩٣) *MD*, vol, 27, p. 243, no. 566, Dhu'l-Qa'da 5, 983 (Fabruary 5, 1576).

(٩٤) MD. Vil. 19, p. 276 no. 552 Rabl 126, 980 (August 6. 1572).

(٩٥) MD, vol. 27, p. 104, no. 254, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575).

(٩٦) محمد بن عبد المعطى الاسحاقى ، كتاب أخبار الأول ، القاهرة ، ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٥ م ، ص ١٦٧ .

MD. vol. 61. p. 107. no. 267. Sha'ban 24, 994 (August 10. 1586).

(٩٧) *MD*, vol. 21, p. 92, no. 221, Shawwal 10, 980 (February 13, 1573).

(٩٨) *MD*. vol. 27, pp. 5-6. no. 27, Rajab 1, 983 (Octobe r6, 1575) ; vol. 73, p. 464, no. 1023, Shawwal 29, 1008 (May 28, 1595).

(٩٩) *MD*. vol. 24, pp. 232-3. no. 616, Muharram 26, 982 (May 18, 1574).

(١٠٠) MD, vol. 24, p. 250, no. 663, Muharram 26, 982 (May 18, 1574).

(١٠١) MD, vol. 26, p. 229, no. 655, Jumada II, 982 (September, 1574) ; vol. 27, p. 243, no, 565, Dhu'l-Qa'da 5, 983 (February 5, 1576)

عن سليمان بك انظر : Holt, 'The Beylicate in Ottoman Egypt,' pp. 183 and 218, note 21. See also J.-C. Garcin, *Un centre musulman de la Haute Egypte médiévale : Qus* (Cairo, 1976), p. 516, note 1.

(١٠٢) *MD*, vol. 28, p. 140, no. 333, Rajab 25, 984 (October 18, 1576).

(١٠٣) *MD*, vol. 28, p. 287, no. 715, Rajab 25, 984 (October 18, 1577 b) ; vol. 34, p. 264, no. 554, Rabi' I 16, 986 (May 23, 1578).

(١٠٤) *MD*, vol. 29. p. 226, no. 517, Dhu'l-Hijja 14, 984 (March 4, 1577).

هذه اول اشارة لنقل سليمان .

(١٠٥) *MD*, vol. 30, p. 325, no. 754, Rabi' II 14, 985 (June 30, 1577) : vol. 36, p. 343, no. 902, same date as above : vol. 43, p. 198, no, 358, Rajab 7, 988 (August 18, 1580).

(١٠٦) *MD*, vol. 33, p. 103, no. 213. Ramadan 20, 985 (November 30, 1577).

(١٠٧) *MD*, vol. 36, p. 343, no. 901, Rabi II 9, 987 (May 6, 1579) ; vol. 36. p. 343, no. 902, same date as above ; vol. 43, p. 198, no. 358, Rajab 7, 988 (August 18, 1580).

(١٠٨) *MD* ,vol. 36, p. 153, no. 423, Safar 2, 987 (March 31, 1579) ; vol. 40, p. 177, no. 391, Sha'ban 11, 987 (October 3, 1579).

(١٠٩) Compare with Garcin, *op. cit.*, p. 516, note 1.

(١١٠) Garcin, *op. cit.*, p. 521 ff.

(١١١) انظر محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ٠ ص ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ٠

(١١٢) حلاق ، ورقة ١٤٤ ا ـ ١٤٤ ب ٠

(١١٣) نفسه ، ورقة ١٧٢ ب ـ ١٧٥ ب ٠

(١١٤) النهروالى ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧

Evliya, pp. 264, 776, 1003.

(١١٥) أبو سالم العياشى ، الرحلة العياشية ، تحقيق محمد حجى ، الرباط ، ١٩٧٧ ، المجلد ١ صص ١١٨ ـ ١١٩ ٠

(١١٦) احمد شلبى ، ص ١٩٣ ، حلاق ، ورقة ٢٤٠ ب ـ ٢٤١ أ ، عبد الكريم ابن عبد الرحمن ، ورقة ٩٢ ب ـ ٩٤ ا ، الجبرتى ، مج ١ ، صص ٢٤ ، ٩٥ ، وانظر أيضا عبد الرحيم عبد الرحمن ، دور المغاربة فى تاريخ مصر فى العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية (تونس) ، يناير ، ١٩٧٨ ، مج ٢ ، ارقام ٥٣ ـ ٦٨ ، ص ص ٥٣ ـ ٥٦ ٠

(١١٧) الجزيرى ، درر الفوائد ، ص ٤٨١ وما بعدها ، وعن نظام الدرك انظر :

R. Humbsch, *Beiträge zur Geschichte des osmanischen Agypten* (Freiburg i. Br., 1979), pp. 81, 116, 118, 133.

(١١٨) الجزيرى ، ص ص ١٥٤ ، ٤٠٥ ـ ٤٠٨ ٠

(١١٩) نفسه ، ص ص ٩٠ ، ٤٠٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ٠

(١٢٠) انظر على سبيل المثال : نفسه ، ص ٣٧٤ ، أحمد شلبى ، ص ص ٣٤٠ ، ٣٥٥ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٨٥ ، ويجب أن نلاحظ أن نعت (الجزار) قد أطلق عليه تشريفا له وتكريما لقتله آلاف البدو (الجبرتى ، مج ١ ، ص ١١١) وفى منتصف القرن السابع عشر مدح على أفندى الجيش المصرى (المملوكى) لحصدهم ٤٥٠٠ راس بدوى شحنوها كالبطيخ واحضروها للديوان ٠

M. Winter 'Ali Efendi Anatolian Campaign Book : A defence of the Egyptian Army in the 7th Century. Turcica, Vol. 15, 1983, p. 287.

(١٢١) أحمد شلبى ، صص ٢٠٣ ، ٤٤٢ حلاق ، ورقة ٢٢٧ ا ، ٢٣٧ ب ٠

(١٢٢) A. Raymond, 'Une "Revolution" au Caire sous les Mamelouks. La crise de 1123/1711,' *Annales Islamologiques*, vol. 6, 1965. pp. 107, 108, 112.

(١٢٣) R. Pococke, *A Description of the East and Some Other Countries* (London, 1743). vol. 1, pp. 89, 162.

(١٢٤) See Garcin, *op. cit.*, pp. 522-31 ; S. J. Shaw, ed., *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century : The Nizamname-i Misir of Cezzar Ahmed Pasha* (Cambridge, Mass., 1962), p. 41 ff ; idem, *Hüseyn Efendi, Egypt in the Age of the French Revolution* (Cambrirge, Mass., 1964), p. 141.

(١٢٥) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٣٤٣ ــ ٣٤٥ .

(١٢٦) تقدم لنا حولية أحمد شلبى (بالتركية) كثيرا من المعلومات عن عرب الحبايبة فى بواكير القرن ١٨ . انظر على نحو خاص صفحات : ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ــ ٣٩٦ .

(١٢٧) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٣٤٥ ــ ٣٥٠ .

(١٢٨) أحمد شلبى ، ص ص ٢٨١ ، ٣٣٨ ــ ٣٤١ ، ٣٧٣ ــ ٣٧٤ ، ٣٩٥ ــ ٣٩٦ ، الجبرتى ، مج ١ ص ١١٨ .

(١٢٩) نفسه ، مج ١ ، ص ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ، ٣٨٠ .

(١٣٠) نفسه ، مج ٢ ، ص ٩٣ .

(١٣١) نفسه ، مج ٢ ، ص ١١٦ .

(١٣٢) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ١٦١ ــ ١٦٢ .

هوامش الفصل الرابع

العلمـــاء

(١) H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* (London, 1957), vol. 1, part 2, p. 99, and note.

(٢) See, for example, I. M. Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* (Cambridge, Mass., 1967), pp. 107-13, 130-41. J. Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt* (London, 1939), pp. 28-36.

(٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٤١٩ .

(٤) نفسه ، مج ٢ ص ص ١٧ ـ ١٩ .

(٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٠٨ .

(٦) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبى ، ص ص ٢٢٤ ، ٤٦١ وعن طلب اسماعيل بك من العلماء طلب العون العسكرى من اسطنبول ، انظر : الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٧) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبى ، ص ٣٧٠ ، ٥٦٧ .

(٨) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٩) نفسه ، مج ١ ص ٢٨ .

(١٠) أحمد شلبى ، ص ٣٩٣ .

(١١) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكى ، البرق اليمانى ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ ، ص ٤٠٠ .

(١٢) انظر على سبيل المثال احمد شلبى ، ص ص ٢١٤ ، ، ٢٢٤ ، ٣١٢ ، ٥٨٣ .

(١٣) انظر الفصل الأول .

(١٤) ابن اياس ، ص ١٦٥ .

(١٥) نفسه ، ص ٤٥٨ استخدم مصطلح قاضى عسكر ليدل على رئيس القضاة (قاضى القضاة) خلال الحقبة العثمانية رغم انه فى الحقبة الأخيرة كان يطلق عليه مثلا Menla وهو تحريف للفظ مولى mawla او Mavla

(١٦) نفسه ، ص ص ٤١٧ ـ ٤١٩ ، ٤٥٢ .

(١٧) نفسه ، ص ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century (Minneapolis and Chicago, 1979), pp. 12 ff., 47.

(١٨) سعد الدين

Sa' düddin, *Tajül-tevarih* (Istanbul, n.d.), vol. 2, p. 375 ;

قطب الدين النهروالى ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، تحقيق ف . فستنفلد ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٨٢ .

(١٩) ابن اياس ، ص ٤٥٣ ، الدياربكرى ، ورقة ٣١٠ أ .

(٢٠) نفسه ، ورقة ٢١٧ ب ، يمكن القول استنادا الى استنتاجات عقلية ، ان سيادة المذهب الحنفى التركى تعود الى زمن قمع ثورة احمد باشا ، الا اننا لا نملك الدليل على هذا الاستنتاج .

(٢١) *Qanun-name-i Misir*, p. 382.

(٢٢) *MD*, vol. 27, no. 248, p. 102, Sha'ban 18, 983 (November 22, 1575).

(٢٣) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية (مخطوط H.O. ٣٥ فينا) أوراق ١٤٦ أ ـ ١٥٦ أ ، Evliya, p. 129 F.

(٢٤) انظر الفصل الخامس .

(٢٥) احمد شلبى ، ص ص ٣٠٥ ، ٣١٥ .

(٢٦) G. H. El-Nahal. *The Judicial Administration of Ottoman Egypt*, p. 14 : A. Raymond. 'Le Caire sous les Ottomans, 1517-1798,' in M. Maury, A. Raymond, J. Revault. M. Zakariya, eds., *Palais et Maisons du Caire. vol. 2, L'époque ottomane*, (Paris, 1983), p. 32.

(٢٧) See, for example, Winter, *Society and Religion*. pp. 219-27, 236-41.

(٢٨) See Lane, p. 65.

(٢٩) Gibb and Bowen, vol. 1, part 2, p. 123. note 4, citing Jabarti, vol. 4. p. 229.

(٣٠) Winter, *Society and Religion*, p. 227.

(٣١) Evliya, p. 448 ; Ahmad Shalabi, p. 519 ; Jabarti (mentioning the three chief muftis). vol. 1, p. 418.

(٣٢) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٣٣) J. Heyworth-Dunne. pp. 77-83 ; Jabarti, vol. 1, pp. 219, 304 vol, 2. p. 75.

الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٢١٩ ، ٣٠٤ ، مج ٢ ، ص ٧٥ .

(٣٤) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٣٥) Gibb and Bowen, vol. 1, part 2 p. 155, note 1.

(٣٦) See G. Baer, Fellah and Townsman in Ottoman Egypt, *Asian and African Studies* (Jerusalem, 1972), vol. 8, no. 3, pp. 221-56,

(٣٧) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ، ٣٦٩ .

(٣٨) See A. Loutfi el-Sayed. A Socio-Economic Sketch of the 'Ulama' in the Eighteenth Century. in *Colloque international sur l'histoire du Caire* (DDR. 1972), pp. 313-9.

(٣٩) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٧٣ .

(٤٠) انظر على سبيل المثال : ابن نجيم ، الفتاوى الصغرى (مخطوط ٤١١٥ ـ مجموعة جرت Garret ـ جامعة برنستون) ورقة ٦٤ أ ـ ب .
MD, vol. 74, no 494, p. 205, Muharram 24, 1005 (September 18, 1597).
احمد رفيق : مج ١ ، ص ٢٣ . : on altin ca Istanbul hayan, 1988

(٤١) E. Combe, 'L'Egypte ottomane,' *Precis de l'histoire d'Egypte* (Cairo, 1933), vol. 3, p. 27.

(٤٢) MM, vol. 5, no. 212, p. 91, Rabi II 1, 1157 (August 31, 1734).

(٤٣) النهروالى ، كتاب الاعلام ، ص ٣٣٣ .

(٤٤) *MD*, vol. 27, no. 249, p. 102, Sha'ban 18, 983 (November 22 1575) ; vol. 75, nos. 94, 95, 223, 270, 274, pp. 62, 121, 148, 149,1013 (1604-5).

(٤٥) انظر على سبيل المثال : أحمد شلبى ، ص ٣٣٢ ، والجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٤٦) G. Baer, *History of Landownership in Modern Egypt*. 1800-1950 (London, 1962), pp. 50-61.

(٤٧) محمد بن ابى السرور البـكرى الصديقى ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط ـ ٤٩٩٥ مجموعة جرت ـ جامعة برنستون) ورقة ٣٥ أ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٤٨ .

(٤٨) على سبيل المثال : أحمد شلبى ، ص ٤٨٨ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٦٩ ، ١٦٧ ـ ٨ ، محمد بن أبى السرور ، مج ٢ ، ص ٩٨ .

(٤٩) See G .Baer, 'Jerusalem Notables in Ottoman Cairo,' in A. Cohen and G. Baer, eds, *Egypt and Palestine; a Millenniuu of Association* (868-1948) (Jerusalem, 1984), pp. 167-75 ; U. M. Kupferschmidt, 'Connections of the Palestinian 'Ulama' with Egypt and other Parts of the Ottoman Empire', in ibid., pp. 182-4. See also Heyworth-Dunne, p. 35.

(٥٠) Evliya, pp. 195, 196, 205, 216, 218-9, 225, 227; 231, 235, 293.

(٥١) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٥٧ .

(٥٢) ابن اياس ، ص ٤٢٧ .

(٥٣) Winter, *Society and Religion*, al-Azhar, by index.

(٥٤) Evilya, pp. 150.

أبو سالم العياشى ، الرحلة العياشية ، مج ١ ، ص ١٢٦ .

(٥٥) Heyworth-Dunne, pp. 17-18.

(٥٦) See Ibid., pp. 28-9 ; Gibb and Bowen, part 2, p. 154, note 3,, citing Chabrol ; *MM*, vol. 4, no. 203, fol. 48 a, *awasit* Shawwal, 1141 (April 30, 1729).

(٥٧) Heyworth-Dunne, p. 25.

(٥٨) لوصف قيم لنظام الأزهر ودراساته فى أواخر القرن التاسع عشر انظر : على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة (القاهرة ـ بولاق ، ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩) مج ٤ ، ص‌ص ٢٠ ـ ٤٤ وانظر : Gibb and Bowen, vol. 1 part 2 pp. 98-99.

(٥٩) See D. Crecelius, 'The Emergence of Shaykh al-Azhar as the Preeminent Religious leader in Egypt.' *Colloque international sur l'histoire du Caire* (DDR, 1972), yp. 109-23; See also : A. C. Eccel, *Egypt, Islam and Social Change : Al-Azhar in Conflict and Accommodation* (Berlin, 1984), y. 203 ; Sulayman al-Zayyat, Kanz *al-jawhar fita-rikh al-Azhar* (Cairo, n.d.), pp. 123-34.

(٦٠) Winter, *Society and Religion*, p. 228.

(٦١) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٦٥ ٠

(٦٢) وفقا لقائمة Eccel (ص ١٣٦) فان ابراهيم البرماوى الشيخ الثانى للأزهر كان شافعيا ، وقد سقط اسمه من قائمة الزيات (كنز الجواهر) ٠

(٦٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٧٠ ، يجب أن نلاحظ أنه رغم أن الخراشى عادة ما يذكر كأول شيخ للأزهر الا أن أحمد شلبى يسجل موت شيخ الأزهر سلطان المزاحى (النطق غير مؤكد) فى العاشر من جمادى الآخرة ١٠٧٦ (١٨ ديسمبر ١٦٦٥) ، الا أنه لا يقدم لنا تفاصيل أخرى ٠ أحمد شلبى ، ص ١٦٢ ٠

(٦٤) الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ ٠

(٦٥) نفسه ، مج ١ ، ص ٧٣ ، ٨٧ ٠

(٦٦) نفسه ، مج ١ ، ص ٢٠٩ ٠

(٦٧) نفسه ، مج ١ ، ص ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ ٠

(٦٨) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥ ٠

(٦٩) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ٥٢ ــ ٥٤ ٠

(٧٠) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ ٠

(٧١) نفسه ، مج ٤ ، ص ص ١٥٩ ــ ١٦٤ ٠

(٧٢) See G. Baer, 'Popular Revolt in Ottoman Cairo,' *Der Islam*, vol. 54, no. 2 (1977), pp. 213-42.

(٧٣) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ٨ ــ ٩ ٠

(٧٤) نفسه ، مج ٢ ، ص ٩٣ ٠

(٧٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٥٢ ٠

(٧٦) أحمد شلبى ص ٥٧٢ ٠

(٧٧) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٨٩ ٠

(٧٨) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ٨ ــ ٩ ، ١٠٣ ــ ١٠٤

(٧٩) أحمد شلبى ، ص ٤٣٣ ٠

(٨٠) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٥٢ ٠

(٨١) نفسه ، مج٢ ، ص ١٥٨ ٠

(٨٢) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥٨ ٠

هوامش الفصل الخامس

الصوفيــة

(١) A. Schimmel 'Sufismus und Heiligenverhrung im spätmitelelterlichen Agyptien (Eine Shizze),' in E. Gräf, ed., *Festschrift Werner* Caskel (Leiden, 1968), pp. 274-89.

(٢) Winter, *Society and Religion.*

(٣) See ibid., pp. 25-31.

(٤) See Chapter 1, p. 10.

(٥) See Schimmel, 'Sufismus.

(٦) J. Heyworth-Dunne. *Introduction to the History of Education* in Modern Egypt (London, 1939), p. 9, note, 3, based on al-Jabarti.

(٧) محمد محيى الدين المليجى ، المناقب الكبرى ـ تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى (القاهرة ، ١٣٥٠ هـ /١٩٣٢) ص ص ٦٦ ـ ٦٧ ، وعن قائمة للطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر ، انظر : على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة (القاهرة ـ بولاق ، ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩) مج ٣ ، صص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، وانظر أيضا :
P. Kahle, 'Zur Organisation der Derwischorden in Egypten,' Der Islam, vol. 6 (1916), pp. 149-69; F. de Jonh, *Turuq and linked Institutions in Nineteenth Century Egypt* (Leiden, 1978), chapter 2.

(٨) انظر De long ، الفصل الأول .

(٩) المليجى ، المناقب الكبرى ، ص ٨٤ .

(١٠) See Winter, *Society and Religion*, pp. 25-8.

(١١) Ibid., pp. 88-101.

(١٢) See, for example, Jabarti, vol. 2, pp. 94, 99, 147.

(١٣) See J. S. Trimingham, *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, 1971), pp. 47-51, 84-90 ; Winter, *Society and Religion*, pp. 88-93.

(١٤) هناك استثناءات ، فقد ذكر Evliya (ايفيليا شلبى) تكية شاذلية فى القاهرة يقيم فيها صوفيون يمنيون. Evliya, p. 230.

(١٥) De Jong, pp. 27, 32.

(١٦) Winter, *Society and Religion*, pp. 93-101.

(١٧) Ibid., pp. 100-1 ; De Jong, p. 8; Jabarti, vol. 4, p. 120.

(١٨) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ص ١١٩ ـ ١٢١ .

(١٩) نفسه ، مج ١ ، ص ٨٤ .

(٢٠) ابن اياس ، مج ٥ ، ص ٤٣ .

(٢١) Evliya, p. 428.

(٢٢) Lane, p. 249.

(٢٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٧٦ De long, pp. 10, 117.

(٢٤) Winter, *Society and Religion*, pp. 98-9.

(٢٥) مبـارك ، مج ٣ ، صص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٢٦) Winter, Society and Religion, pp. 104-105, 121-122.

وانظر أيضا : توفيق الطويل ، التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى . القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١١٢ .

(٢٧) Winter, *Society and Religion, pp.* 102-3, 120-1, note 47.

(٢٨) Trimingham, pp. 37-40 ; De Jong ; pp. 18-19 ; Jabarti, vol. 1, p. 109.

(٢٩) Lane, pp. 248-9, 489. See Trimingham, pp. 40-4 and by index.

(٣٠) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ٨٩ ، ١٥٠ .

(٣١) H. A. R Gibb and H. Bowen, *Islamic Soriety and the West* London 1965), vol. 1, part 2, pp. 190-6 ; De Jong, pp. 26-7.

(٣٢) Evliya, p. 230.

(٣٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٣٤) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٨٨ . Delong, p. 34, note 177.

(٣٥) See B. G. Martin, 'A Short History of the Khalwati Order of Dervishes,' in N. R. Keddie, ed., *Schilars, Saints and Sufis : Muslim Religious Institutions in the Middle East since* E500 (Berkeley and Los Angeles, 1972), pp. 290-305 ; Winter, *Society and* Religion, pp. 105-12 ; E. Bannerth, 'La Khalwatiyya en Egypte,' *Mélanges de l'Institut Dominicaine des Etudes Orientales,* 8 (Cairo, 1964-6), pp. 1-75.

(٣٦) عبد الوهاب الشعرانى ، الطبقات الكبرى . القاهرة ، بدون تاريخ ، مج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٣٧) الدياربكرى ، ورقة ٢٤٦ ب ـ ٢٤٧ أ .

(٣٨) عبد الرءوف المناوى (بضم الميم أو كسرها) ، الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية (مخطوط ، مجموعة جرت ، جامعة برنستون) ورقة ٤١٦ أ .

(٣٩) Winter, *Society and Religion* pp. 107-9.

(٤٠) Ibid., pp. 69, 110-11.

(٤١) المناوى ، الكواكب الدرية ، ورقة ٤٦٦ أ .

(٤٢) نفسه ، ورقة ٤٦٥ ب ، ٤٦٦ أ ، ٤٦٦ ب .

(٤٣) Evliya, pp. 219, 228, 229, 255, 429.

(٤٤) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٦٠ .

(٤٥) نفسه ، مج ١ ، ص ٣٠ .

(٤٦) كان مصطفى البكرى « شريفا » ويدعى أيضا نسبته الى أبى بكر الصديق ، ولا يجب الخلط بينه وبين أسرة البكرى الصديقى ذات الاصول المصرية القديمة (العريقة)

(٤٧) عن مصطفى البكرى ، انظر الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٦٥ .

P. Gran, Islamic roots of Capitalism ; Egypt 1760-1840 (Austin and London, 1979), p. 43 f.
C. Brockelmann, Al Bakri, Mustafa Kamal Al-Din, El. vol 1, p. 965 f.

(٤٨) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٨٩ ، وما بعدها .

(٤٩) فتح حفيد الحفنى منزله بعد موته . الجبرتى مج ٤ ، ص ٧٦ .

(٥٠) عن سيرة حياته ، انظر ، الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٥١) عن سيرة حياته كاملة انظر الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ٦١ ـ ٦٨ ، وعن ورد السحر ، انظر : Lane, p. 251.

(٥٢) عن سيرة حياته انظر الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٥ .

(٥٣) الجبرتى ، مج ١ ، مصر ٢٩٤ ـ ٢٩٥ . وليس مؤكدا ما اذا كانت العبارة للجبرتى ، وعلى أية حال فهو يكررها بما يفيد موافقته عليها ، وقد نظر الجبرتى للسمانية (فرع من الخلوتية) بغير تعاطف . انظر : De long, p. 28.

وقد رجع للجبرتى ، مج ١ ، ص ٤١٧ .

(٥٤) يوجد تاريخ باللغة العربية كتبه أحد أفراد الأسرة .

انظر محمد توفيق البكرى ، بيت الصديق . القاهرة ، ١٣٢٣ هـ /١٩٠٥ م وانظر ايضا : See also N.C.D., 'Bait al-Siddik, L'aristocratie religieuse en Egypt,' *Revue du Monde Musulman*, vol. 4 (1908), pp. 241-83.

(٥٥) تسمى القرية ايضا دهروت الأشراف أو دهروت البكرية .

De long, p. 9, note 10.

(٥٦) See Winter, *Society and Religion*, pp. 222-3; De Jong, pp. 215-17, for a genealogy of the family, and by index.

(٥٧) Winter, *Society and Religion*, p. 223.

(٥٨) انظر الفصل الأول ، والفصل الثانى .

(٥٩) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط ـ مجموعة جرت ٤٩٩٥ برنستون) . ورقة ٢٧ ب ـ ٢٨ أ .

(٦٠) See de Jong, pp. 61-62 : Evliya pp. 465-6 ; Jabarti, vol. 3, p. 25.

(٦١) See de Jong p. 11.

(٦٢) Evilya, p. 474.

(٦٣) البكرى الصديقى ، النزهة الزهية ، ورقة ٥٣ ب ـ ٣٦ أ .

(٦٤) See, for example, *MM*, vol. 6, no. 227, fol. 48a, *awasit* Jumada I, 1158 (June 11-20, 1745) ; vol. 7, no. 758, p. 345, Sha'ban 10, 1172 (April 8, 1759).

(٦٥) See pp. 195-6.,

(٦٦) محمد توفيق البكرى ، بيت السادات الوفائية القاهرة ، بدون تاريخ .

(٦٧) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ١١ .

Trimingham, pp. 49, 87. Gran, Islamic roots of Capitalism, pp. 38 ff.

(٦٨) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٨ . De long, p. 76, Note 205.,

(٦٩) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ١٨٥ وما بعدها ·

(٧٠) صدر عن الديوان فى القاهرة عدة فراسيم (مودعة بدار الكتب بالقاهرة) تثبت أن الجبرتى لم يكن مبالغا بشأن المعاملة التفضيلية التى شملت أبا الأنوار من قبل الحكومة · والفرمانان المؤرخان فى ١١٩٦ هـ و ١٢٠٧ هـ يخاطبان السلطات المحلية فى فرسكور والغربية يأمرانها باستثناء ممتلكاته ، بما فى ذلك الالتزام الخاص به من أية ضرائب · انظر الوثيقتين رقم ٢ و ٣ رقم ٢٧٨٤ تاريخ ، دار الكتب ، القاهرة ·

(٧١) See M. Winter. "Ali ibn Maymun and Syrian Sufism in the Sixteenth Century,' *Israel Oriental Studies*, vol. 7, 1977, p. 294.

(٧٢) De Jong, p. 41.

(٧٣) Winter, Society and Religion, p. 140.

(٧٤) انظر على سبيل المثال : الجبرتى ، مج ١ ، صص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، مج ٢ ، ص ص ٢٨ ، ٨٩ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ ·

(٧٥) أوردنا ذلك فى موضع سابق ·

(٧٦) Winter. *Society and Religion* pp. 57. 126.

(٧٧) Ibid., pp. 143-4 ; Winter, 'Ali ibn Maymun,' p. 296.

(٧٨) Winter, *Society and Religion*, pp. 184-8; Jabarti, vol. 1, pp. 69, 303-4 ; vol. 2, 61 ff. ; vol. 3, p. 238 ff.

(٧٩) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٣٨ ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ ·

(٨٠) نفسه ، مج ١ ، ص ١٥٩ ·
Winter, Society and religion, pp. 172-176.

(٨١) Winter, pp. 153-5 ; A. Lutfi al-Sayyid Marsot, 'A Socio-Economic Sketch of the '*Ulama*' in the Eighteenth Century, *Colloque international sur l'histoire du Caire* (DDR, 1972), p. 315.

(٨٢) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٨٦ ·

(٨٣) Winter, *Society and Religion*. pp. 128-9, 150-5.

(٨٤) Lane, pp. 251-2.

(٨٥) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ٦٩ ـ ٧٠ ·

(٨٦) See Trimingham, Chapters IV and VII, for a discussion of the organization of the Sufi orders and their ritual and ceremonial.

(٨٧) Lane, pp. 479, 489, 491.

(٨٨) Winter, *Society and Religion*, p. 139.

(٨٩) المليجى ، المناقب الكبرى ـ صفحة العنوان ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٨٧ ·

(٩٠) Winter, *Society and Religion*, pp. 142.

(٩١) See Lane, p. 251.

(٩٢) الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، مج ٢ ، ص ١١٨ ·

(٩٣) Evliya, pp. 467, 469-70. By the term 'fellahin' Evliya could Well mean just the native Egyptians in a derogatory way. See Lane, p. 27.

(٩٤) الجبرتى ، مج ٣ ، ص ص ٣٩ ـ ٤٠ ·

(٩٥) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٢٠ ·

(٩٦) عبد الوهاب الشعراني ، لطائف المنن (القاهرة ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م) مج ١ ، ص ٣٣ .
Winter, Society & religion, pp. 275-276.

(٩٧) See G. Baer, 'Fellah and Townsman in Ottoman Egypt,' *Asian and African Studies* (Jerusalem, 1972). vol. 8, no. 3, pp. 221-56.

(٩٨) Winter, *Society and Religion*, p. 57 ; al-Sha'rani, *al-Tabaqat al-kubra*, vol. 2, p. 120.

(٩٩) الجبرتي ، مج ٤ ، ص ص ٦٣ ـ ٦٥ .

(١٠٠) See for example, H. Inalcik, *The Ottoman Empire : The Classical Age* 1300-1600 (London, 1973), pp. 187-93.

(١٠١) الشعراني ، لطائف المنن ، مج ٢ ، ص ص ١٥٨ ـ ١٦٠ .

(١٠٢) See, for example, Evliya pp. 240-2, 246-2, 246-7, 251, 255.

(١٠٣) G. Baer, *Egyptian Guilds in Modern Times* (Jerusalem, 1964), pp. 125-6.

(١٠٤) أحمد الدمرداشي ، كتاب الدرة المصونة في اخبار الكنانة (مخطوط ١٠٧٤ ـ ١٠٧٣ Or المكتبة البريطانية) أوراق ٢٥ أ ، ٢٦ ب .

(١٠٥) See, for example, Evliya, pp. 242, 243, 244, 251, 253, 690.

(١٠٦) Lane, pp. 252-3.

(١٠٧) L. Fernandes, 'Two Variations on the Same Theme : The Zawiya of Hasan al-Rumi atd the *Takiyya* of Ibrahim al-Gulshani', *Annales Islamologiques*, vol. 21, (1985), pp. 95-111.

(١٠٨) Evliya, pp. 244-5.

(١٠٩) وانظر الجبرتي ، مج ١ ، ص ٤١٨ Ibid, p. 580.

(١١٠) مبارك ، مج ٢ ، ص ١٣٠ ، مج ٦ ، ص ٥٤ .

(١١١) وردت هذه الحادثة في عدة مراجع : فمن المراجع التركية : حلاق ، ورقة ٢٩٦ ب ـ ٣١٠ أ . ومن المراجع العربية : أحمد شلبي ، ص ص ٢٥١ ـ ٢٥٥ ، الجبرتي ، مج ١ ، ص ص ٤٨ ـ ٥٠ ، وانظر :

B. Flemming, 'Die vorwahhabische Fitna im osmanischen Kairo, 1711,' *Ismail Hakki Uzuncarsh'ya Armagan* (Ankara, 1976), pp. 55-65 ; R. Peters. *The Battered Dervishes of Bab Zuwayla : A Religious Riot in Eighteenth Century Cairo* (a paper read at the Hebrew University in June 1985 during the International Colloquium on 18th Century Renewal and Reform Movements in Islam); Gibb and Bowen, vol. 1, part 2, p. 160, note 1. *The fitna* had deeper ethnic connotations than has been noticed.

(١١٢) Lane, p. 237.

(١١٣) الجبرتي ، مج ١ ، صص ٤٩ ـ ٥٠ .

(١١٤) من الشائق أن نلاحظ أن الجبرتي عندما ذكر أن حسن باشا استعاد التكية البقطاشية الشهيرة في القصر العيني ، قرر أن الباشا فعل ذلك بتحريض من الدرويش لأن الترك يميلون لهذا النوع من التدين . الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٤٤ .

(١١٥) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٤١٨ • وانظر :
MM, vol. 8, no. 668, fol. 18a, *awakhir* Rabi' II, 1188 (July 1-10, 1774). See Daniel Crecelius, '*The waqf* of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in historical perspective,' *IJMES*, vol. 23, no. 1 (February 1991). pp. 57-81.

(١١٦) الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، مج ٢ ، ص ١٩ •

(١١٧) انظر على سبيل المثال حالة قاسم المغربى القصرى (المتوفى ٩٥٦/١٥٤٩ أو ١٥٥٠) الذى وصل لمصر لأول مرة وهو فى طريقه لمكة ، ثم عاد مرة أخرى لبلده فاس الا أنه رجع الى مصر أخيرا ليستقر بها وتبعه ٥٠٠ من الصوفية • المناوى ، الكواكب الدرية ، الورقة ٤٤٦ ب ـ ٤٤٧ أ •

(١١٨) انظر على سبيل المثال : الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢١٠ ، مج ٢ ، ص ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ • الحسين بن محمد الورثلانى ، نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والأخبار بيروت ، ١٩٧٤ • ط ٢ ، ص ٢١٠ • Evliya, p. 253.

(١١٩) Heyworth-Dunne, p. 12.

(١٢٠) الجبرتى ، مج ٣ ، ص ٣٩ • Lane, pp. 466-467.

(١٢١) Evliya, p. 253.

(١٢٢) Ibid., p. 242.

(١٢٣) Ibid., p. 251.

(١٢٤) See 'Kahwa,' in *EI*, vol. 4, p. 451, by C. van Arendonk.

(١٢٥) See Winter, *Society and Religion*, pp. 58-9, 230-6.

(١٢٦) فى كتاب الشعرانى ، لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهد المحمدية • القاهرة ، ١٣٨١/١٩٦١ مج ١ ، ص ٦٧ •

(١٢٧) يعزى هذا القول الى أبى يزيد البسطامى (المتوفى ٢٦١/٨٧٥) وهو صوفى فارسى شهير ، وقد أورده الشعرانى فى الطبقات الكبرى ، مج ١ ، ص ٥ •

(١٢٨) See Winter, *Society and Religion*, pp. 192-5.

(١٢٩) Ibid., pp. 236-41.

(١٣٠) Ibid., pp. 58-9.

(١٣١) For a list of Sufi texts studied at al-Azhar, see Heyworth-Dunne, pp. 56-7.

(١٣٢) See Winter, *Society and Religion*, pp. 47, 78 ; al- Sha'rani al-Tabaqat al-Kubra, Vol. 2, pp. 155-6 : 1 Goldziher Uberdenbrauch der *Mahya*.
— Versammlungen im Islam.,' *WZKM*, vol. 15 (1901). pp. 33-50.

(١٣٣) المناوى ، الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية ، ورقة ٤٥٥ ب •

(١٣٤) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٣٧ •

(١٣٥) انظر : توفيق الطويل : التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ص ١٨٠ •

(١٣٦) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ص ١٨ ـ ١٧ •

(١٣٧) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ •

(١٣٨) نفسه ، مج ٢ ، ص ٥٢ •

(١٣٩) نفسه ، مج ١ ، ص ٢١٠ .

(١٤٠) Winter, *Society and Religion*, pp. 262-72.

(١٤١) See, for example, **Evliya, p. 241.**

(١٤٢) انظر على سبيل المثال : الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٠٠ .

(١٤٣) نفسه ، مج ١ ، ص ٣٨٢

(١٤٤) انظر ملحوظة ١١٥ .

(١٤٥) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٦٢ .

هوامش الفصل السادس

(١) انظر : Lane, p. 234. « بعضهم يسيرون عراة تماما وهم موقرون ومبجلون تماما ، حتى أن النساء ـ بدلا من تجنبهم ، فانهن يعانين من تصرف هؤلاء البؤساء معهن بحرية تامة في الطرقات العامة » .

(٢) انظر : M. Winter, Society & religion, pp. 112-116.

(٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٨ .

(٤) نفسه ، مج ١ ، ص ٤٧ ، مج ٤ ، ص ٦٥ .

(٥) رضوان باشا زاده .

Ridwan Pashazade, *Ta'rih-i Misir* (Ms. H.O. 6 ; Mxt 933, Vienna), the end of the ms.

(٦) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٧) نفسه ، مج ٣ ، ص ١٤١ .

(٨) مصطفى على ، ص ٣٣ .

(٩) Lane, pp. 243-245.

(١٠) Ibid, p. 243. مصطفى على ، ص ٤١ .

(١١) H.A.R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* 1957), vol. 1, part 2, p. 202, note 3.

(١٢) See, for example, Evliya, pp. 471-3, 476, 551, 557, 560-3, 573, 575, 579-80, 629-30, 637, 647, 747, 749.

(١٣) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية القاهرة ، ١٩٥٣ . ص ٢٦٩ .

R. and H.H. Kriss, *Volksglaube im Bereich des Islams* (Wiesbaden 1960), vol. 1, p. 217.

(١٤) See ibid., pp. 69, 112 ; Evliya, pp. 260-2.

(١٥) Ibid., pp. 650, 652, 654.

(١٦) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها القديمة والشهيرة (القاهرة ـ بولاق ، ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩) مج ١٠ ، ص ٦٠ ، مج ١٣ ، ص ٦١ .

(١٧) Kriss, pp. 112, 115.

(١٨) Evliya, p. 256.

(١٩) أحمد بن محمد الفهرى الفاسى ، الرحلة (مخطوط ـ ١٤٠٣ دار الكتب ـ تاريخ) ص ص ١٠٥ ، ٢٠١ ، ٢٨٢ .

(٢٠) Lane, p. 243 ff. ; Jabarti, vol. 2, p. 6; Evliya, pp. 552, 557, 638 ; Kriss, vol. 1, p. 60.

(٢١) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٦ ٠

(٢٢) ابن اياس ، صص ٣٤٦ ـ ٣٤٨ ٠ من الطبيعى أن يرد الى أذهاننا تشابه مع المسيحية ٠

(٢٣) See Evliya, p. 562 ff.

(٢٤) Winter, *Society and Religion,* p. 141, citing al-Munawi.

(٢٥) انظر على سبيل المثال ، مبارك ، مج ٢ ، ص ص ٣٦ ، ٤٠ ، مج ٤ ، ص ص ١٩ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٢٧ مج ٥ ، ص ٧٥ ، مج ٨ ، ص ١١٢ ، مج ١١ ، ص ص ١٥ ، ١٦ مج ١٢ ، ص ص ١٢٩ ، ١٣٨ ، مج ١٤ ، ص ١٠٨ ، مج ١٥ ، ص ص ٤ ، ٩٦ ٠
Kriss, pp. 116-118.

(٢٦) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٠١ ، مج ٤ ، ص ٢٩٥ ٠

(٢٧) نفسه ، مج ٣ ، ص ١١٢ ٠

(٢٨) نفسه ، مج ١ ، صص ٣٠٦ ، ٣٨٢ ، مج ٢ ، صص ٤٠ ، ١١٢ ، ٢٢٩ ، مبارك ، مج ١٥ ، ص ٧٢ ٠

(٢٩) انظر مبارك ، مج ٤ ، ص ص ٩٠ ، ١٠١ ٠
Lane, pp. 244-245.
Kriss, pp. 61, 68.

(٣٠) Kriss, pp. 61, 207-208.
أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد المصرية ، ص ٣٢٢ ٠
M. Meyerhof, 'Beitraege zum Volksheilglauben der heutigen Aegypter,' *Der Islam*, vol. 7 (1917), p. 335.

(٣١) See S. M. Zwemer, *The Influence of Animism on Islam* (London, 1920), p. 72 ; W.S. Blackman, 'Some Social and Religious Customs in Modern Egypt with Special Reference to Survivals from Ancient Times.' *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte*, vols. 13-14, (1924-26), pp. 47-61.

(٣٢) W. S. Blackman, *The Fellahin of Upper Egypt* (London, 1927), p. 247 ; Kriss, p. 81.

(٣٣) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٠٦ ، مج ٤ ، ص ٦٤ ، مبارك ، مج ١٠ ، ص ٩٣ ٠

(٣٤) Blackman, 'some social and religious customs», Meyerhof 'Beitraege » p. 340, Kriss, Vol. 1. pp. 211-217.

(٣٥) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٦ ٠

(٣٦) نفسه ، مج٢ ، ص ٦٠ ، الجبرتى ، مج ٣ ، ص ٢٢٥ ٠

(٣٧) نفسه ، مج ١ ، ص ٢٨٢ ٠

(٣٨) نفسه ، مج ٢ ، صص ٣٨ ، ٨١ ٠

(٣٩) نفسه ، مج ٢ ، ص ١٤٨ ، مج ٣ ، ص ١٨٨ ٠

(٤٠) المعنى الحرفى للمولد هو يوم الميلاد ، أما فى الممارسات الاسلامية الشعبية فيعنى الاحتفال بمولد أحد الأولياء وتبلغ ذروة هذا الاحتفال بزيارة قبر الولى ، وكثير من الموالد يتم الاحتفال بها فى يوم وفاة الولى وليس فى يوم ولادته ، وفى كلتا الحالتين

لا يكون التاريخ الذى يتم الاحتفال فيه متفقا ، من الناحية التاريخية الصحيحة ، مع أى من التاريخين (تاريخ الولادة أو تاريخ الوفاة) ، ودراسة النصوص المختلفة تبين أن مصطلح المولد يمتد ليشمل أى احتفال دينى أو صوفى حتى ولو لم يكن له صلة بأى ولى ·
انظر :
Winter, *Society and Religion,* pp. 177-84 ; see H. Fuchs. '*Mawlid,*' *EI,* pp. 419-22.

(٤١) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣١
J. W. McPherson. *The Moulids of Egypt* (Cairo, 1941), p. 29 ; G.E. von Grunebaum, *Mohammadan Festivals* (London, 1958), pp. 73-6.

الاحتفال بأيام الأولياء (القديسين) ليس قصرا على الاسلام ، فهناك احتفالات شبيهة باحتفالات انجليزية فى القرن السابع عشر ، وكانت هذه الاحتفالات عبارة عن أسواق fairs وقد ارتبطت مثل الموالد الاسلامية باسم أحد القديسين وان فقدت طبيعتها الدينية ·
انظر Blackman, The fellahin of upper Egypt. p. 253.

(٤٢) انظر على سبيل المثال ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٢٠ ، مبارك ، مج ٢ ، ص ص ٦ ، ٩٢ ، ١١٧ ، مج ٣ ، ص ٩٣ ، مج ٤ ، ص ٦٤ ، مج ١١ ، ص ٥٧ ·

(٤٣) McPherson, pp. 13, 15, 18 ; Kriss, pp. 85, 79, 173-4.

(٤٤) See Evliya. pp. 473-4.

(٤٥) مبارك ، مج ٢ ، ص ٧٨ · Mcpherson, p. 33.

(٤٦) مبارك ، مج ١٣ ، ص ٥٠

(٤٧) McPherson, pp. 31, 287.

(٤٨) Evliya, p. 472.

(٤٩) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٢٠ ·

(٥٠) Evliya, p. 476.

(٥١) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ص ٤٩ – ٤٠ ·

(٥٢) نفسه ، ص ١٦٣ ·

(٥٣) مبارك ، مج ٩ ، ص ٦١ ·

(٥٤) Mcpherson, p. 132 : Kriss, p. 106.

(٥٥) McPherson, pp. 232, 257.

(٥٦) Kriss, p. 61 ; Lane, pp. 476-7 ; McPherson, p. 306.

(٥٧) مبارك ، مج ١١ ، ص ١٨ ·

(٥٨) نفسه ، مج ٣ ، ص ٧٢ · Mcpherson, p. 183.

(٥٩) نفسه ، مج ١٣ ، ص ٥٢ ·

(٦٠) McPherson, p. 228.

(٦١) مبارك ، مج ٢ ، ص ٦ ، مج ١٣ ، ص ٥٠ ·
وعن وصف مولد البدوى فى بدايته انظر : Evliya, pp. 624-626.

(٦٢) مبارك ، مج ١ ، ص ٩٢ ·

(٦٣) نفسه ، مج ٢ ، ص ٣٩ ، مج ٨ ، ص ص ٢٥ ، ٤٣ ، مج ١٠ ، ص ٣٩ ، ٥٨ ·

(٦٤) McPherson, pp. 17, 18, 246; Kriss, vol. 1, p. 71.

(٦٥) McPherson, pp. 13, 18.

(٦٦) Ibid., p. 52 ; Mubarak, vol. 1, p. 90.

(٦٧) مبارك ، مج ٢ ، ص ٦ ، مج ٣ ، ص ٧٢ ، مج ٤ ، ص ١١٨ .

(٦٨) نفسه ، مج ٩ ، ص ٦١

(٦٩) نفسه ، مج ٣ ، ص ٤٠ ، مج ٨ ، ص ٧٧ .

(٧٠) McPherson, p. 199 ; Meyerhof, Beitraege. p. 338 ; Kriss, vol. 1, p. 106.

(٧١) مبارك ، مج ١ ، ص ٩٢ .

(٧٢) نفسه .

(٧٣) نفسه ، مج ٢ ، ص ٦ ، مج ٨ ، ص ٢ ، مج ١٤ ، ص ٩٧ .

(٧٤) Evliya, pp. 624-5, 644-5.

(٧٥) مبارك ، مج ٥ ، ص ٩٤ .

(٧٦) نفسه ، مج ١٥ ، ص ٤٧ .

(٧٧) Evliya, p. 475.

(٧٨) Ibid., pp. 469-70.

(٧٩) Ibid., p. 476.

(٨٠) الجبرتي ، مج ٤ ، ص ٣ .

(٨١) مبارك ، مج ١٢ ، ص ٩٦ .

(٨٢) McPherson, p. 70.

(٨٣) مبارك ، مج ١ ، ص ٩٢ .

(٨٤) Lane, p. 463 ; P. Kahle, Zur Organisation der Derwischorden in Egypten, *Der Islam*, vol. 6 (1916), p. 153, note 2.

(٨٥) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣٣ .

(٨٦) Evilya, p. 472.

(٨٧) الجبرتي ، مج ٣ ، ص ص ٣٩ ـ ٤٠ ، مبارك ، مج ٤ ، ص ص ٦٩ ، ١١٤ ، مج ١٢ ، ص ص ٩٦ ـ ٩٧ ، مج ١٧ ، ص ٢٣ .

أحمد بن محمد الفاسى الرحالة المغربى الذى زار القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر كان غير متعاطف مع (الذكر) بشكله الشعبى ، وكان قد شاهده فى مسجد الحسين (رحلة الفاسى ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ تاريخ رقم ١٤٠٣) ص ٢٠٣ .

(٨٨) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣١ ، مج ٤ ، ص ١١٨ .

(٨٩) McPherson, pp. 68, 78 ; Kriss, vol. 1, p. 57. G. E. von Grunebaum, *Mohammedan Festivals*, p. 83 ; W.S. Blackman, An Ancient Egyptian Custom Illustrated by a Modern Survival,' *Man*, 1925, pp. 25-6 ; Mubarak, vol. 1, p. 42 ; vol. 12, p. 106.

(٩٠) مبارك ، مج ١٣ ، ص ٤٥ .

(٩١) نفسه ، مج ٨ ، ص ٢ ، مج ٩ ، ص ص ٥ ، ٨٣ ، مج ١ ، ص ٨ ، مج ١٥ ، ص ٥ .

(٩٢) Evliya. p. 644.

(٩٣) مبارك ، مج ١ ص ٩٤ .

(٩٤) الجبرتى ، مج ٣ ، ص ص ١٩٠ ، ٢٢٢ .

(٩٥) مبارك ، مج ، ص ١٢٣ ، أحمد أمين ، قاموس ، ص ٢١٨ .
McPherson, pp. 74-83.

(٩٦) See Winter. *Society and Religion*, pp. 128-3.

(٩٧) مبارك ، مج ٢ ، ص ٧ .

(٩٨) ابن حجر العسقلانى نقلا عن :
I. Goldziher, Leculte des saints chez les Musulmans' *Revue de l'Histoire des Religions* (Paris, 1880), vol. 2, p. 310.

(٩٩) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٠٤ .

(١٠٠) Winter. Society and Religion, pp. 57, 98, citing al-ha'rani's *al-Tabaqat al-kubra,* vol. 2, p. 57.

(١٠١) الشعرانى ، مج ١ ، ص ص ٢٢٠ ، مج ، ص ٢٤٨ .

(١٠٢) نفسه ، مج ٤ ، ص ٦ . منطق الجبرتى هنا فيه خلل ، فهو لكراهينه للفرنسيين نسى انهم لم يدخلوا « الموالد » الى مصر ، فدوافع الفرنسيين لتشجيع الموالد لم تكن سوى لرغبتهم فى أن تعود الأمور الى مسارها الطبيعى الذى كانت عليه بعد فترة الاضطرابات التى سببها الغزو الفرنسى .

(١٠٣) مبارك ، مج ٤ ، ص ١١٨ ، مج ٨ ، ص ٢ ، مج ١٢ ، ص ٩٦ ، مج ١٤ ص ١٣٢

(١) See C. van Arendonk, *Sharif,'* EI vol. 4, pp. 32-9, P. Hitti, *History of the Arabs* (London 1960), p. 440, n. 4. This distinction between *sharif and sayyid* was adhered to particularly in Arabia. See H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West* (London, 1957), vol. 1, part 2, p. 93, n. 1.

(٢) خلال العصرين المملوكي والعثماني كان قصر مصطلح (أشراف) قد أثار امتعاض العلماء والصوفية المصريين الذين كانوا ـ بوجه عام ـ من السنة . وعلى أية حال فقد ترسخ استخدام هذا المصطلح ولم يعد من الممكن تغييره · انظر :

محمد توفيق البكرى ، بيت الصديق · القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ص ٣٩٥. جلال الدين السيوطى ، الجاوى للفتاوى ط ٢ القاهرة ، ١٣٧٨ هـ /١٩٥٩ م مج ٢ . عبد الوهاب الشعرانى ، لطائف المنن · القاهرة ، ١٣٥٧ هـ /١٩٣٨ م · مج ١ ص ص ٥ ، ١٠٨ ·

(٣) Lane, p. 135. In Persia, the descendants of both Hassan and Husayn are called *sada, see H. Lammens. Islam. Its belief and Institutions* (Hebrew trans., Jerusalem, 1955), p. 110. In Chubaysh in southern Iraq, only the term *sada* is used, see S. M. Salim, *Marsh Dwellers of the Euphrates Delta* (London, 1962), pp. 62-4.

(٤) انظر على سبيل المثال ، مبارك ، مج ٢ ، ص ٨٤ ، مج ١٥ ، ص ١٠ ·

(٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ٨٣ ، مج ١٣ ، ص ٤٠ ·

(٦) الجبرتى ، مج ٣ ، ص ٢٧٨ ·

(٧) انظر على سبيل المثال : الأهرام ١١ مارس ، ١٩٣٧ ، ٢٩ نوفمبر ١٩٣٩ ؛ البلاغ ٢١ فبراير ١٩٤٢ ، ٢٦ مارس ، ١٩٤٢ ·

(٨) اليافعى ، صوفى يمنى فى القرن الرابع عشر للميلاد شرح لنا أن أى واحد يناضل ببطولة هو (شريف) حتى اذا لم يكن من سلالة النبى (ﷺ) ، ومن هنا فان الصوفية « أشراف » لأنهم يجاهدون نفوسهم فالنفس هى عدو الانسان الأول ، ومن هنا فهم أشراف · انظر :

عبد الله اليافعى : نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية · القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٠٠ ·

(٩) See J. S. Trimingham, *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, 1971), p. 27.

(١٠) بالنسبة لعبارات الاعجاب والتوقير التى يخاطب بها الأشراف كما ذكرها عبد الوهاب الشعرانى الصوفى المصرى الشهير فى القرن السادس عشر للميلاد انظر :
Winter, Society and Religion, pp. 278-82.

وانظر ترجمة الصوفى السيد محمد بن عثمان الدمرداشى الخلوتى فى الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٦٠ وعن السادة الأشراف فى الطريقة القادرية انظر الجبرتى أيضا ، مج ٢ ، ص ص ٨٩ ، ١٥٠ ·

(١١) احمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ٠٠ القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٩٩ ٠

(١٢) زواج شريف من شريفة أمر مقبول اجتماعيا ، أما زواج غير الشريف من شريفة فتوضع ازاءه بعض المحاذير ، وموضوع الشرافة هذا ليس مدرجا فى صميم الاسلام الرسمى ، وانما هو قضية اجتماعية فليس هناك نصوص شرعية متصلة به ، وليس هناك ما يمنع من تغير وضع نسل الأشراف ، واختلفت الآراء فى وضع ابن الشريفة من زوج غير شريف ، فبعض العلماء لا يقرون له بالشرافة ٠ انظر : Van Arendonk, p. 327.

اذ نقل فتوى ابن حجر الهيثمى ، وانظر أيضا : السيوطى ، الحاوى ، مج ٢ ، ص ٨٣ ٠

وثمة بعض الشك أن مثل هذا الشخص كان يعتبر شريفا فى المجتمع المصرى رغم أن دعواه للشرافة تكون اضعف ٠ انظر : الشعرانى ، لطائف المنن ، مج ٢ ، ص ٣٣
Lane, p. 135.

وفيما يتعلق بالنظرة فى القرن العشرين ، انظر :
J. Berque, Histoire Sociale d'un village egyptien au xxe Siecle, Paris, 1957, p 62.

(١٣) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٥٦ ٠

(١٤) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٣٤ ٠

(١٥) نفسه ، مج ٨ ، ص ٢١ ٠

(١٦) نفسه ، مج ٨ ، ص ٣٢ ، مج ١١ ،ص ٥

(١٧) نفسه ، مج ١١ ، ص ٩٦ ٠

(١٨) نفسه ، مج ١٥ ، ص ١٢ ٠

(١٩) نفسه ، مج ٩ ، ص ٨٤ ، مج ١١ ، ص ٦٤ ٠

وانظر أيضا :
A. Hammer, Growing up in an Egyptian Village, London, 1954.

(٢٠) Berque, p. 61 Apparently, the majority of *ashraf settled in* the early Islamic period, many of whom moved to Lower Egypt only more recently. Awareness of *Sharifism*, Like other facets of popular religion, is stronger in Upper than in Lower Egypt.

(٢١) مبارك ، مج ١١ ، ص ٤ ، المقريزى ، البيان والاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ ، صص ٩ ــ ١ ، ٣٨ ٠ يقرر المقريزى بوضوح أن البدو (العربان) فى مصر كانوا ثائرين ضد حكم المماليك الأتراك . وقد ثاروا بقيادة أمير عربى كان هو أيضا شريفا ٠

(٢٢) مبارك ، مج ١٠ ، ص ٦٥ ٠

(٢٣) نفسه ، مج ١١ ، ص ٨٤ ٠

(٢٤) See, for example, *MM*, vol. 78, no. 1039, p. 404, Safar 14, 1022 (April 5, 1613).

(٢٥) السيوطى ، الحاوى ، مج ٢ ص ٨٥ ، وانظر أيضا :
Van Arendonk, EI, pp. 324-329.

(٢٦) See the desription of the French traveler Villamont, who visited Egypt at the end of the sixteenth century. Villamont, *Voyages en Eavote des années* 1589, 1590 et 1591 (Cairo, 1971), pp. 215-16, See also Lane. pp. 32, 135, Green is considered a 'good' color, According to the Koran, 18 : 31, the clothes worn in pararise are green.

(٢٧) عبد الكريم بن عبد الرحمن .
'Abdulkerim ibn 'Abdurrahman, *Ta'rikh-i Misr-i Qahire* (Ms. Add. 7878, The British Library), fol. 97b.
وانظر أيضا : الجبرتى ، مج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٢٨) See, for example, Evliya, p. 161.

(٢٩) مبارك ، مج ١٥ ، ص ٩٥ .

(٣٠) M. de Chabrol, 'Essai sur les moeurs des habitants modernes de l'Egypte,' Description de l'Egypte .(Paris. 1812), vol. 2, pp. 457-8.

(٣١) انظر على سبيل المثل : ابن اياس مج ٣ ، ص ٢١٨ ، مج ٥ ، ص ١٤٩ ، وفيما يتعلق بحصانة الأشراف فى حلب واستثنائهم من العقاب البدنى انظر :
H. L. Bodman, Political Factions in Aleppo 1760-1826 Durham, 1963, p. 921.

(٣٢) Evliya, p. 161.

(٣٣) *MM*, vol. 6, no. 268, fol. 59a, *awasit* Muharram 1159 (February 3-12, 1746) ; Ahmad Shalabi, pp. 375-472.

(٣٤) MD, vol. 60, no. 515, p. 217. Rabi II 3, 994 (Juy 2, 1586).

(٣٥) مبارك ، مج ١٣ ، ص ٤٤

(٣٦) عبد الكريم بن عبد الرحمن
Abdulkerim Ibn 'Abdurrahman, *Tevarih-i Misr-i Qahire* (a manuscript in the Süleymaniye Library. Istanbul. Hacci Mahmut Efendi, no. 4877), fol. 112b-113a.

(٣٧) مبارك ، مج ١٥ ، ص ٩٧ ، حلاق ، ورقة ١٧٠ ب .

(٣٨) نفسه ، مج ١٥ ، ص ٩٩ .

(٣٩) Archives Nationales, Affaires etrangères, Correspondance consulaire, B 315. III, le Caire, pp. 110b, 120b.

(٤٠) حلاق ورقة ٢٤٣ ب ـ ٢٤٤ أ .

(٤١) أحمد شلبى ، صص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ، حلاق ، ورقة ٣٠٢ ب ـ ٣٠٣ أ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٥٠ .

(٤٢) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٤٣) عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٥٦ أ ، ٨٧ ب ، ١٠٦ أ حلاق ، ورقة ٩٣ ب ، وانظر أيضا الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٤٤) حلاق ، ورقة ٩٥ ب .

(٤٥) See M. Winter. 'The *ashraf and niqabat al-ashraf* in Egypt in Ottoman and Modern Times.' *Asian and African Studies* (Haifa), vol. 19, no. 1, March 1985, pp. 17-41.

(٤٦) E. Tyan, *Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam*, 2nd edn. (Leiden 1969), pp. 550-4 ; M. Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks* (Paris, 1923), p. 163.

(٤٧) ذكر ابن اياس (نقيب الأشراف) فى موضع متواضع جدا فى قوائم مناصبه الدينية ، انظر ابن اياس ، ص ٥ ٠

(٤٨) نفسه ، ص ٣٠٢ ٠

(٤٩) يمكن للمرء ان يثبت أن التعيين قد تم بعد الفتح بوقت قصير ، وفى وقت كان الناس فيه لا يزالون خائفين من اى اجراء عثماني ، وعلى اية حال فان العلماء المصريين لم يكونوا يترددون في الاعتراض على الحكام الجدد اذا تدخلوا فى الأمور المهمة أو النظام القضائى أو قيادة قافلة الحج ٠ وهذا واضح من خلال كتب التاريخ الحولنى ، انظر على سبيل المثال : ابن اياس ، ص‌ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٨ ، ويلاحظ أن منصب نقيب الأشراف لم يكن مهما بدرجة تستوجب المواجهة مع السلطات العثمانية ٠

(٥٠) من الشائق أن نلاحظ أن عبد الوهاب الشعراني ، الصوفى الذى كتب كتبا كثيرة تضم تراجم للعلماء والصوفية خلال الأربعين سنة الأولى من الحكم العثماني ـ لم يذكر منصب نقيب الأشراف ولا حتى مرة واحدة ، رغم حديثه عن الاشراف ٠ انظر : الحاشية رقم ١٠ فيما سبق ٠

(٥١) الدياربكرى ، ورقة ٣١٦ ب ٠

(٥٢) يذكر الجبرتى أن منصب نقيب الأشراف كان بمثابة منصب (الوالى) لدى العثمانيين ٠

(٥٣) See Gibb and Bowen, part 2, pp. 99-100.

(٥٤) الشكوى الموجهة ضد احد الأشراف كانت تقدم لنقيب الأشراف ، والموجهة ضد مسلم عادى كانت تقدم لقاضى الشرع ، والموجهة ضد جندى كانت تقدم لأوجاقه (كتيبته) ٠

(٥٥) See R. Pococke, *A Description of the East and some Other Countries* (London, 1743), vol. I, p. 171 ; de Chabrol, p. 458.

(٥٦) N.-C. D., L'aristocratie religieuse en Egypte-Bait as-Siddik,' *Revue du Monde Musulman*. 4/2. p. 275.

(٥٧) مبارك ، مج ١٢ ، ص ٩٦ ٠

(٥٨) انظر الاتهامات الموجهة لعمر مكرم لدفعه أعطيات لأفراد لا يستحقونها فى الجبرتى ، مج ٤ ، ص ص ١٠ ، ١٩٤ ٠

(٥٩) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٦ ، مج ٣ ، ص ٢٠١ ٠

(٦٠) نفسه ، مج ٣ ، ص ١٩٥ ٠

(٦١) مبارك ، مج ٤ ، ص ١٩ ، مج ٨ ، ص ٣٩ ٠

(٦٢) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٧٤ ، مج ٢ ، ص ١٥٠ ، مج ٣ ، ص ١٤٨ ، مج ٤ ، ص ١٩٦ ٠

(٦٣) مبارك ، مج ١٣ ، ص ٥٢ ٠

(٦٤) نفسه ، مج ١٢ ، ص ٩٦ ٠

(٦٥) نفسه ، مج ١٥ ، ص ٩٦ ذكر الجبرتى نقيب أشراف رشيد ودمياط ودمنهور ·
انظر أيضا : Gibb and Bowen, vol. 1, part 2, p. 101, no 4.

(٦٦) مبارك ، مج ٨ ، ص ٣٠ ·

(٦٧) See, for example, *MM*, vol. 7, no. 758, pp. 345-6 Sha'ban 10, 1172 (April 8, 1759); Ahmad Shalabi, p. 320.

واحمد شلبى ، صص ٣١٢ ، ٤٧٢ ·

(٦٨) حلاق ، ورقة ١٢٤ ب ، واحمد شلبى ، ص ص ٣١٢ ، ٤٧٢ ·

(٦٩) حلاق ، ورقة ١٦٩ ب ·

(٧٠) احمد شلبى ، ص ٢٢٦ ، والجبرتى ، مج ١ ص ٧٤ ·

(٧١) Evliya, pp. 161, 288, 328, 639.

(٧٢) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٧٤ ·

(٧٣) حلاق ، ورقة ٢٦٨ ب ·

(٧٤) انظر قائمة بأصحاب المناصب فى نقابة الأشراف من حوالى سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٩١١ فى :
F. de Jong, Turuq and Turuq-Linked Institutions in Nineteenth Century Egypt (Leiden, 1978), pp. 220-1.

(٧٥) مبارك ، مج ٣ ، ص ١٢٣ ، وانظر أيضا : البكرى ، بنت الصديق ، ص ٧ · فى هذا الكتاب يكتب الشيخ البكرى ــ الذى كان نقيبا للأشراف ورئيسا لطريقة صوفية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ــ تاريخا لأسرته ، ويقدم لنا معلومات طريفة عن حياته لكنه يقدم لنا القليل عن العصر العثمانى نقله من كتابات الشعرانى والجبرتى والنابلسى وغيرهم ·

(٧٦) البكرى ، ص ٦ ·

(٧٧) الشعرانى ، الطبقات الصغرى ، تحقيق عبد القادر عطا ، القاهرة ١٣٩٠/١٩٧٠ ، ص ص ٥٠ ــ ٥٢ ·

(٧٨) B. G. Martin, 'A Short History of the Khalwati Order of Dervishes. in N. R. Keddie, ed., *Scholars, Saints and Sufis* (Berkeley, 1972), pp. 297-8.

(٧٩) محمد توفيق البكرى ، بيت السادات الوفائية · القاهرة ، بدون تاريخ ، لكن يمكن ارجاع طبعه لحوالى ١٩٠٠ ، ص ص ٣٣ ، ٥٧ ·

(٨٠) الشعرانى ، لطائف المنن ، مج٢ ، ص ص ١٧ ، ١٠٦ ــ ١٠٧ ·

(٨١) Gibb and Bowen, vol. 1, part 2. p. 101 ; Lane, p. 247.

(٨٢) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٥٤ ، مج ٣ ، ص ص ١٥ ، ٨٠ ، ٢٢٥ ، ٢٥٧ ·

(٨٣) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٢٠ ·

(٨٤) See S. J. Shaw. The Budget of Ottoman Egypt, 1005-1006/1596-1597 (The Hague-Paris 1968), p. 182 ; Idem, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798* (Princeton, NJ, 1962), p. 139 ; F. Vansleb, *The Present State of Egypt* (London, 1678; reprinted Westmead, England, 1972), p. 175.

(٨٥) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٦٠ ، مج ٢ ، ص ص ٢٧ — ٢٨ ، أحمد أمين ، ص ١٧٢ ، البكرى ، بيت الصديق (الترجمة الفرنسية) ص ٢٦٧ .

(٨٦) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣١٦ .

(٨٧) نفسه ، مج ٢ ، ص ٧٢ .

(٨٨) يجب أن نلاحظ أنه فى تاريخ مبكر لا نستطيع تحديده ، ربما كان فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، منع الأمراء المماليك شريفا من حلب من شغل منصب نقيب الأشراف فى مصر رغم أنه تلقى أمرا بالتعيين من اسطنبول . وقد شغل هذا الشريف عدة مناصب فى مصر وتزوج من أسرة البكرى . الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٠١ .

(٨٩) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٩٠) للخلفية التاريخية انظر :

For the historical background. see P.M. Holt, *Egypt and the Fertile* Crescent 1516-1922 (Ithaca, NY., 1966), pp. 99-100.

(٩١) كان لعدم توفيق عمر لعلاقاته الاجتماعية بالعلماء الكبار فى العاصمة أثره فى اقتراح الشيخ المهدى بطرده من نقابة الأشراف وقوله « هو ليس الا بنا واذا خلانا فلا يساوى بيشاى bishay ان هو الا صاحب حرفة أو جابى وقف يجمع الايراد ويصرفه على المستحقين » الجبرتى ، مج ٤ ، ص ٩٦ . وكان عمر مكرم رجلا ثريا ويدير أوقافا مهمة كوقف الامام الشافعى ، ووقف سنان باشا فى بولاق . انظر الجبرتى ، مج ٤ ، ص ٩٩ . وانظر أيضا عفاف لطفى السيد :

The Political and Economic Functions of the Ulama in the 18th Century, JESHO, vol. 16 (1973), pp. 141, 153-4. Al-Mahdi meant that all of 'Umar's.

وعبارة المهدى تعنى أن كل وظائفه (عمر مكرم) كمدير للوقف تعتمد على منصبه كنقيب للأشراف ، وأنه اذا طرد من نقابة الأشراف فسيصبح بلا قوة اقتصادية ، فهو يختلف عن العلماء المهمين الذين كانوا مديرين للأوقاف وملتزمين بسبب مكانتهم الاجتماعية والدينية رغم أنهم لا يشغلون مناصب فى الحقيقة . وهناك دراستان ظهرتا فى مصر عن عمر مكرم :

— عبد العزيز محمد الشناوى ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية . القاهرة ، ١٩٦٧ ،

— محمد فريد ابو حديد ، السيد مكرم . القاهرة ، ١٩٥١ .

(٩٢) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٩٣) انظر ترجمته فى الجبرتى ، مج ٤ ، ص ص ٨٦ — ٨٨ .

(٩٤) نفسه ، مج ٤ ، ص ٢٩٥ .

(٩٥) نفسه ، مج ٤ ، ص ٩٦ .

(٩٦) نفسه ، مج ٤ ، ص ١٠٠ .

(٩٧) شيخ مشايخ الصوفية هو رئيس المجلس الأعلى للطرق الصوفية الذى يجب أن تعتمد الحكومة قراراته. Der Islam, vol. 6, (1916), p. 152. ويؤيد De long رأينا عن تدهور قوة نقابة الأشراف فى القرن التاسع عشر فى دراسته عن الطرق الصوفية فى هذا القرن .

(٩٨) البكرى ، بيت الصديق ، ص ٢٠ (الترجمة الفرنسية ص ص ٢٦٦ — ٢٦٧) .

هوامش الفصل الثامن

الذميون : اليهود والنصـــارى

(١) الأرقام الدقيقة غير متوافرة ، فحتى نهاية القرن الثامن عشر كان اجمالى عدد الأقباط فى مصر يقدر بحوالى ١٥٠ر٠٠٠ أو حوالى ١/٧ اجمالى السكان و ١/١٥) واحد على خمسة عشر) من الأقباط (أى حوالى ١٠ر٠٠٠) كانوا يعيشون فى القاهرة · وكان معظم القبط يعيشون فى الصعيد والفيوم وكان اجمالى عدد اليهود فى الفترة نفسها حوالى ٥٠٠٠ غالبهم (٣٠٠٠) فى العاصمة والباقى في الاسكندرية ودمياط · ورشيد وغيرها من المدن · انظر :

H. Motzki, *Dimma und Egalité ; die nichtmuslimischen Minderheiten Agyptens in der zweiten Halfte des 18. Jahrhunders und die Expediton Bonapartes* (1798-1801), (Bonn. 1979), pp. 25-6 ; J. Heyworth-Dunne *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt* (London, 1939), pp. 84-7.

(٢) See for example, E. Strauss (Ashtor). *The History of the Jews in Egypt and Syria under the Mamluks* (Jerusalem, 1944, in Hebrew), vol. 2. pp. 204-36 : idem, The Social Islolation of Ahl adh-Dhimma,' in O. Komlos, ed., *Etudes orientales à la mémoire de P. Hirschler* (Budapest, 1950), pp. 73-94.

(٣) Strauss, *Hostory of the Jews in Egypt and Syria*, vol. 2, p. 176.

(٤) ابن اياس ، ص ١٨٢ ·

(٥) نفسه ، ص ٢٣٢ ·

(٦) نفسه ، ص ١٨٤ ·

(٧) نفسه ، ص ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ ، ٣٧٧ ــ ٣٧٨ ، ٤٥٣ ، ٤٨٠ ·

(٨) على أية حال ، لابد أن نلاحظ أن هؤلاء اليهود ــ على نحو خاص ــ لم يكونوا مصريين وانما أتوا من الولايات التركية الاخرى ، اذا كان ما ذكره الدياربكرى دقيقا اذ وصفهم بأنهم روميللى او ترك Turk or Rumlu · انظر : الدياربكرى ، ورقة ٢٦٦ ب ، ٢٦٨ أ ·

(٩) ابن اياس ، ص ٢٨٩ ·

(١٠) نفسه ، ص ٣٧٤ ·

(١١) S. J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt*. 1517-1798 (Princeton, NJ, 1962), p. 103.

(١٢) See Diyarbakri. fol. 326a ; Eliyahu Kapsali, *Seder Eliyahu Zuta* (in Hebrew), A. Shmuelevich, Sh. Simonson, M. Benayahu, eds (Jerusalem and Tel Aviv, 1966), vol. 2, p. 168 ; Joseph Sambari, *Selections* (in Hebrew), A. Neubauer, ed. (Oxford 1887), vol. I. p. 145 ; Diyarbakri, fol. 326 a.

(١٣) Sambari, p. 145.

(١٤) الدياربكرى ،ورقة ٣٢٧ ا ــ ب ٠

(١٥) Kapsali, vol. 2, pp. 147-201 ; Sambari, p. 145.

(١٦) رغم ان (احمد) كان باشا عثمانيا الا أن تمرده (ثورته) يمكن النظر اليها كتمرد مملوكى ، مادام كان يعمل على عودة السلطنة المملوكية ٠ انظر ما سبق أن ذكرناه فى الفصل الأول ٠

(١٧) قانون نامه مصر ٠ *Qanun-name-i Misir*, pp. 381-2.

(١٨) *MD*, vo.l. 7. no. 859, p. 302, Sha'ban 13, 975 (February 12, 1568) : vol 30, no. 691, p. 299, Rabi' I 28, 985 (June 15, 1577).

(١٩) *Qanun-name-i Misir*, p. 386.

(٢٠) See for example, Evliya, pp. 135, 179 ; A. Raymond, *Artisans et commercants*, pp. 228, 282, 335, 461-2 ; S.J. Shaw, ed. ; *Hüseyn Efendi, Egypt in the Age of the French Revolution* (Cambridge. Mass., 1964), pp. 46, 115-6 and note 157.

(٢١) الجبرتى ، مج ٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٢٢) See Shaw, *Hüseyn Efendi*, pp. 115-16, note 157 ; Raymond, *Artisans et commerçands*, pp. 228, 282, 459, 460, Raymond says (p. 336).

وليس صحيحا أن معظم الصرافين كانوا يهودا ، فقد كان منهم مسلمون اكثر من اليهود ٠

(٢٣) من الطريف ملاحظة ان مهنة المحاسبة أو حفظ الدفاتر ارتبطت بالقبط أكثر من ارتباط مهنة الكتابة (كتبة) بهم ، حتى أن مسمى هذه المهنـة الأولى اصبح مرادفا لقولنا (قبطى) ٠

انظر الجبرتى ، مج ٢ ، ص ٢٦٢ ، مج ٣ ، ص ص ١٥٤ ــ ١٥٥ ٠

(٢٤) See R. Pococke, *A Descriotion of the East and Some Other Countries* (London, 1743), vol. I. 176-7 : H. Dehérain, L'Egypte turturque' in G. Hanotaux, *Histoire de la Nation Egyptienne* (Paris. 1931), vol. 5, pp. 80-2.

(٢٥) Raymond, *Artisans et commerçants*, p. 740.

(٢٦) عبد الكريم عبد الرحمن

Abdulkerim ibn 'Abdurrahman, *Tevarih-i Misr-i Qahire* (Ms. 4877 Hacci Mahmut Collection. Suleymaniye Library, Istanbul), fol. 7a.

(٢٧) Evliya, p. 135.

(٢٨) Lane, p. 562.

(٢٩) حلاق ، ورقة ٢٢٥ ا ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٧ ٠

Raymond, Artisans et commercants, vol. 1. p. 27.

(٣٠) *MM*, vol. 8, no. 395, p. 197, *awasit* Jumada I, 1179 (October 26 December 4, 1765).

(٣١) *MM*, vol. 8, no. 343, pp. 171-2, *awa'il* Safar, 1179 (July 20-29, 1765) ; no. 345, pp. 172-3 (same date) ; no. 380, pp. 183-9, awakhir Ramadan, 1179 (March 3-12, 1766) ; no. 475, pp. 242-5, awa'il Muharram, 1180 (April 15-24, 1766).

(٣٢) See J.M. Landau, *Jews in Nineteenth Century Egypt* (New York 1969), pp. 134, 150, 157, 171, 205, 207, 215, 239, 243.

(٣٣) *MD*, vol. 42, no. 1011, pp. 330-1, Shawwal 21; 988 (November 29, 1580).

(٣٤) Pococke op. cit., p. 172.

(٣٥) فى العصور الوسطى عندما كان موظفو الجمارك فى الاسكندرية مسلمين بالفعل كانت هناك نزاعات خطيرة بينهم وبين الحجاج المغاربة • انظر على سبيل المثال النقد المرير الذى يوجهه ابن جبير الرحالة الأندلسى ضد موظفى الجمارك فى عهد صلاح الدين الأيوبى الذين قابلهم فى رحلته خلال الثمانينيات من القرن الثانى عشر الميلادى فى الاسكندرية وفى قوص بصعيد مصر • انظر ابن جبير ، الرحلة ، ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ص ٣٩ ـ ٤٠ •

(٣٦) *MD*. vol. 30, no. 733, Rabi I 8, 985 (May 26, 1577).

(٣٧) Ibid., vol. 7, no. 859, p. 302, Sha'ban 13, 975 (February 12, 1568).

(٣٨) Ibid., vol. 3, no. 691, p. 299, Rabi' I 28, 985 (May 13, 1580).

(٣٩) See A. S. Ehrenkreutz, *Saladin* (Albany, NY, 1972), p. 180.

(٤٠) *MD*. vol. 50, no. 170, Dhu'l-Qa'da 1, 993 (October 25, 1585).

(٤١) Ibid., vol. 35, no. 750, p. 296. Sha'ban 19, 986 (October 21, 1578).

(٤٢) Ibid., vol. 53, no. 427, p. 147. Sha'ban 25, 992 (September 1, 1584).

(٤٣) *MM*, vol. 8, no. 527, fol. 142 a. *awasit* Rajab, 1181 (December 3-12, 1767).

(٤٤) Ibid., vol. 4, no. 334, fol. 75a. (the volume contains documents from 1139/1726 until 1146/1733), For the general Ottoman background, see O. L. Barkan. Teh Price Revolution of the Sixteenth Century : A Turning Point in the Economic History of the Near East,' *IJMES*, vol. 6 (1975), p. 6 f.

(٤٥) *MM*., vol. 3, no. 63, fol. 13b, *awasit* Sha'ban, 1132 (June - 18-27, 1720).

(٤٦) G. Baer. *Egyptian Guilrs in Modern Times* (Jerusalem, 1964), p. 29.

(٤٧) Evliva, pp. 366, 370-1.

(٤٨) Ibid., pp. 406, 476.

(٤٩) Sambari, *Selection* p. 156 ; Shaw, Hüseyn Efendi, p. 132 ; Raymond, *Artisans et commerçants*, pp. 440, 460, 649.

(٥٠) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، دور المغاربة فى تاريخ مصر فى العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية (تونس) مجلد ١٠ ـ ١١ (ينـاير ١٩٧٨) ص ٥٩ ٠

(٥١) حلاق ، ورقة ١٢٧ ب ٠ Sambari, Selections, p. 150.
Sambari, p. 161.

(٥٢) MD, vol. 34, no. 42, p. 22, Safar 22, 986 (April 30. 1578); vol. 36. no. 462, p. 169, Safar 9, 987 (April 7, 1579).

(٥٣) No. 462 p. 169 Safar 9. 987 (April 7, 1579).

(٥٤) Sambari, *Selections*, p. 150.

(٥٥) See D. Crecelius. *The Roots of Modern Egypt* : A Study *of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab* 1760-1775 (Minneapolis and Chicago, 1981), pp. 132-3.

(٥٦) Ibid., p. 133 : J.W. Livingston, 'Ali Bey al-Kabir and the Jews *Middle Eastern Studies*, vol. 7 (1971), p. 225.

(٥٧) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٨٠ وما بعدها ٠

(٥٨) Lane, p. 559.

(٥٩) *MD* vol. 75, ni. 191, p. 108 (the volume contains documents from Dhu'l-Hijja 1011 through Sha'ban 1013).

(٦٠) انظر قطب الدين النهروالى ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق ف ٠ فستنفلد ٠ بيروت ، ١٩٦٤ ٠ ص ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ٠

Winter, 'A Seventeenth-Century Arabic Panegyric of the Ottoman Dynasty, *Asian and African Studies*, Vol. 13 (July 1979), pp. 145-6.

(٦١) احمد شلبى ، ص ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ ٠

(٦٢) MM, vol. 7, no. 359, fol. 166a, *awasit* Rabi' II, 1170 (January 3-12 1757).

(٦٣) *MM*, vol 5, no. 150, p. 60, *awasit* Rabi' I, 1147 (August 11-20. 1734).

(٦٤) *MM*, vol. 5, no. 699, pp. 250-1, *awakhir* Muharram, 1155 (March 28 April 6, 1742).

(٦٥) *MM*, vol. 5, no. 512, p. 188, *awasit* Safar. 1153 (May 8-17, , 1740).

(٦٦) MM, vol. 7, no. 367, p. 166, *awasit* Rabi II. 1170 (January 3-12, 1757).

(٦٧) *MM*, vol. 8, no. 373, p. 185, *awa'sit* Muharram. 1180 (June , 9-18. 1766).

(٦٨) *MM*, vol. 7, no. 367, p. 166, *awasit* Rabi' II ; 1170 (January 3-12. 1757).

(٦٩) *Shaw*, Hüseyn Efendi, p. 64.

(٧٠) الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٤٦ ٠ تم الغـاء الجزية فى مصر سنة ١٨٩٥ ٠

(٧١) ابن نجيم ، الأشباه والنظائر (مخطوط ـ ٨٣٣ فى مجموعة جرت يهودا ـ جامعة برينستون) ورقة ١٨٤ أ ، وعن القوانين المتعلقة بالثياب فى الحقب الباكرة ، انظر :
See Landau, *Jews in Nineteenth Century Egypt*. p. 169.

(٧٢) حلاق ، ورقة ٨٩ ب ، أحمد بن سعد الدين الغمرى ، ذخيرة الاعلام (مخطوط ١٨٥٠ ـ عربى ـ المكتبة الوطنية بباريس) ورقة ١٧٠ أ ٠

(٧٣) حلاق ، ورقة ٩٥ ب ، وعن شريف محمد باشا ، انظر :
Arabs and Mamluks in thl Army of Ottoman Egypt. *WZKM*, vol 72 (1980), pp. 106-11.

(٧٤) أحمد شلبى ، ص ٤٦٩ ٠

(٧٥) Lane, pp. 537, 559.

(٧٦) *Archives Nationales*, Paris, Affaires Etrangeres, Correspondance constlaire, B1, le Caire, 315, III, pp. 110-17.

(٧٧) Poccke, p. 177. On the physical appearance of the Jews, see Lane, pp. 558-9.

(٧٨) أحمد شلبى ، ص ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ ٠

(٧٩) Eviliya, p. 258.,

(٨٠) ابن نجيم ، فتاوى (مخطوط ـ ٥٧٧٧ ـ مجموعة جرت يهودا ـ جامعة برنستون) ورقة ٥٤ ب ٠

(٨١) محب الدين الحموى ، الدرة المضيئة فى الرحلة المصرية (مخطوط ـ لاندبرج Landberg ـ ٤٢٧ ـ جامعة Yall) ورقة ٢٦ أ ٠

(٨٢) See, fod example, *MD*, vol. 32, p. 422, Shawwal 13, 1003, (June 21, 1595).

(٨٣) ابن اياس ، صص ٢٤٢ ـ ٤٤٣ ، الدياربكرى ، أوراق ٢٦١ ب ـ ٢٦٢ أ ٠

(٨٤) MD Vol. 23, no. 26, p. 17, Jumada I 1, 981 (August 29, 1573).

(٨٥) Ibid., vol. 7, no. 1611, p. 572, Muharram 2, 976 (June 27; 1568); vol. 27 no. 610, p. 260, Duh'l-Qa'ra 17, 983 (February 17, 1576).

(٨٦) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية (مخطوط H.O. ـ ٣٥ فينا) ورقة ٨٨ ب ، وفى أحد المصادر انه كان ممنوعا على أهل الذمة اقتناء عبيد سود (وكان من المشكوك فيه تماما امكان اقتناء أهل الذمة لعبيد بيض) ٠

(٨٧) أحمد شلبى ، ص ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ٠

(٨٨) *Archives Nationales*, Paris. Etrangères, Correspondance consulaire B1, le Caire 313, I, pp. 93-6, December, 9, 1689.

(٨٩) الجبرتى ، مج ٢ ، ص ١١٩ ٠

(٩٠) See Landau, *Jews in Nineteenth Century Epypt*, pp. 171-2; S. Douin, ed., Egypte de 1830 ; *Correspondance des consuls de France en Egypte* (Rome, 1935), pp. 86, 98-100.

(٩١) A. Raymond, 'Le Caire sous les Ottomans / 1517-1798,' in M. Maury, A. Raymond, J. Revault. M. Zakariya, eds, *Palais et Maisons du Caire* (vol. 2 ; *Euoque Ottimane*, XVIe-XVIIIe Siécles (Paris, 1983), p. 80.

(٩٢) See, for example, Landau, *Jews in Nineteenth Century Egypt*, pp. 152, 157-8, 205.

(٩٣) Evliya, p. 190.

(٩٤) Ibid. ; Pococke, p. 170.

(٩٥) Raymond. 'Le Caire sous les Ottomans,' p. 81.

(٩٦) Ibid., p. 35.

(٩٧) Sambari, *Selections*, p. 157.

(٩٨) Evliya uses the expression merd olmak. Which is equivalent to the Arabic halaka, to denote the death of non- Muslims.

(٩٩) Evliya, p. 514..

(١٠٠) G. H. et-Nahal, *The Judicial Administration of Ottoman* Egypte in the Seventeenth Century (Minneapolis and Chicago, 1979), p. 57.

(١٠١) See, *A Collection of documents concerning the Family of al-Sadat al-Wafa'iyya*. Ms. Ta'rikh 2784. *Dar al-Kutub*, Cairo, documents nos. 10, 22, 39.

(١٠٢) ابن اياس ، ص ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥ .

(١٠٣) *MD*, vol. 28, no. 348, p. 149, Jumada I 13, 984 (August 8, 1576) ; vol. 73. no. 933, p. 423, Shawwal 13, 1003 (June 21, 1595); vol. 78, no. 209, p. 85, Safar 13, 1018 (May 18, 1609).

(١٠٤) Ibid., voll. 35, no. 336, p. 132, Jumada II 5. 986 (February 21, 1561).

(١٠٥) أحمد شلبى ، ص ٥٣٠ .

(١٠٦) القرآن الكريم .

(١٠٧) Winter, Society and Religion, ppp. 284-5.

(١٠٨) See p. 211 above.

(١٠٩) See, for example, D. vol. 28, no. 616, p. 254, Rajab 25, 984 (October 18, 1576); vol. 29, no. 75, p. 31, Ramadan 25, (December-16, 1576) ; no. 238, p. 98, Dhu'l-Qa'da 2, 984 (January 21, 1577).

(١١٠) Ibid., vol. 33, no. 549, p. 269, Dhu'l-Qa'da 27, 985 (Feburary 5, 1578.

(١١١) الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٨٨ .

(١١٢) نفسه ، مج ٢ ، ١٠٣ .

(١١٣) نفسه ، مج ٣ ، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(١١٤) نفسه ، مج ٢ ، ص ص ٢٠ ، ٢١ ، ٥٤ ، ١١٩ – ١٢٠ ·

(١١٥) نفسه ، مج ٢ ، ص ٢٦٢ ·

(١١٦) See, Shaw, *The Financial and Administrative Organization*, p. 140; idem, *Hüseyn Efendi*, pp. 94, 115-16, 132, 159; Raymond, *Artisans et commerçants*. pp. 228, 282, 460.

(١١٧) R. Humbsch *Beiträge zur Geschichte des osmanischen Agyptens nach arabischen Sultans und statthalterurkunden des Sinai-losters)*, (Freiburg, 1976), pp. 347, 349. It is true that the monks possessed an imperial edict issued by Selim II forbidding the Jews to stay in Sinai. See K. Schwarz. *Osmanische Sultanurkunden des Sinai-Klosters in türkische Sprache* (Freiburg, 1970), pp. 41-2.

(١١٨) الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٠٢ ·

(١١٩) Lane, p. 556.

(١٢٠) ابن نجيم ، فتاوى ، ورقة ٣٩ ب ·

(١٢١) ابن اياس ، ص‌ص ٤٤٥ ، ٤٧٥ – ٤٧٦ ، الدياربكرى ، ورقة ١٢٦ ب – ١٢٧ أ ·

(١٢٢) أحمد شلبى ، ص ٣٣٨ ·

(١٢٣) الدياربكرى ، ورقة ٢٦٢ ب – ٢٦٣ أ ، ابن اياس ، ص ٤٤٥ ·

(١٢٤) الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٠١ ، محمد بن سليم الحفناوى ، منتهى العبارات (مخطوط – ٤٩٩٢ مجموعة جرت يهودا – جامعة برنستون) ورقة ٣٧ ب ·

(١٢٥) ابن نجيم ، فتاوى ، ورقة ٦٩ ب ·

(١٢٦) نفسه ، الأشباه والنظائر (مخطوط ٨٣٣ مجموعة جرت يهودا ، جامعة برنستون) ورقة ٢٢٥ أ ·

(١٢٧) Winter, Society and religion, pp. 263-264.

(١٢٨) ابن نجيم ، الأشباه والنظائر ، أوراق ٢١٢ – ٢١٩ ·

(١٢٩) Documents from a private collection in the United States on Jews in Ottoman Egypt.

(١٣٠) El-Nahal, p. 42.

(١٣١) الأجهورى ، الزهرات الوردية من فتاوى الشيخ الأجهورى (مخطوط ٢٧١ من مجموعة ٨٩٥ جامعة كاليفورنيا – لوس أنجلوس) غير مرقم · وعن اليهود الشارقة انظر : Sambari, Selections, p. 150.

(١٣٢) Winter, Society and Religion, pp. 287-288.

(١٣٣) Lane, p. 241.

هوامش الفصل التاسع

(١) A. Raymond. The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab towns,' *International Journal of Turkish Studies*, vol. I, no. 1, 1979-1980, pp. 84-101.

(٢) Ibid., pp. 91-92. Idem, Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au, Cairo au XVIIIe siècle,' *JESHO*, vol. 6, 1963, pp. 58-103.

(٣) See *Qanun-name-i Misir*, p. 369.

(٤) G. Baer, Village and City in Egypt and Syria, 1500-1914.' in G. Baer, *Fellah and Townsman in the Middle East; Studies in Social History* (London, 1963, p. 56).

(٥) يذكر J. A. McCarthy أن هذه الأرقام تشير الى عدد البيوت لا عدد الأفراد ، ووفقا لهذا الفرض ، فان عدد سكان القاهرة سنة ١٨٠٠ يكون ٩٠٠ر٢١٠ فقط . فى :
J. A. McCarthy 'Nineteenth Century Egyptian population' in : E. Kedourie (ed.) Middle eastern economy (London, 1976), pp. 1-39.
ويقول Lane الذى عاش فى القاهرة ويعرفها جيدا ، ان عدد سكانها سنة ١٩٣٥ كان ٠٠٠ر٢٤٠ (وعدد سكان مصر كلها ٥ر٢ مليون) وهو تقدير يؤكد تقدير مكارثى .
Lane, p. 4.

(٦) Raymond, 'The Ottoman Conquest,' p. 92.

(٧) انظر Baer, Village and City in Egypt, and Syria, pp. 56-57.

ومن الطريف أن نلاحظ أن على العكس من الفكرة الشائعة التى مؤداها أن الفلاحين لا يغادرون قراهم أو نادرا ما يغادرونها ، فان لدينا برهانا واضحا أن الفلاحين المصريين قد هاجروا حتى اسطنبول بحثا عن الرزق . وفى فرمان صدر سنة ١٥٧٦ نفهم منه أن اسطنبول مليئة بالفلاحين المصريين الذين يتسولون فى الأسواق ، ويأمر الفرمان بضرورة اعادتهم الى قراهم . ونفهم من الفرمان أن هذه ليست حالة فردية .
MD, vol. 27, no. 947, p. 369, Dhu'l-Hijja 8, 983 (March 10, 1576). See also ibid., Vol. 22, no. 311, p. 159, Rabi' I 26, 981 (July 26, 1573).

ويقدم لنا المؤرخ الحولى التركى الدياربكرى دليلا على الطريقة المؤلمة التى كان يعاقب بها الفلاحون الذين يمكثون فى القاهرة . الدياربكرى ، ورقة ٣١٢ ا .

(٨) مصطفى على ، ايفليا شلبى ، أبو سالم عبد الله العياشى فى الرحلة العياشية (الرباط ، ١٩٧٧ ، ٢ مج) ، الحسين بن محمد الورثلانى ، نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار (ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٤) أحمد بن محمد الفاسى ، الرحلة (مخطوط ـ تاريخ رقم ١٤٠٣ دار الكتب بالقاهرة) .
P. Belon, Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans, 1547 (Cairo, 1973).

(٩) A. Raymond, 'Le Caire sous les Ottomans, 1517-1798,' in M. Maury, A. Raymond, J. Revault, M. Zakariya, eds., *Palais et du Caire*, vol. 2, *Epoque Ottomane* (Paris, 1983), p. 28.

(١٠) See Shopter 8.

(١١) Raymond, 'Le Caire sous les Ottomans,' p. 35.

(١٢) مصطفى على ، ص ٤٠ .

(١٣) انظر الفصل الخامس .

(١٤) الورثلانى ، ص ٢٨٤ ، الفاسى ، ص ١٣٥ .

Raymond, Le Caire sous les ottomans, p. 35.

(١٥) Ibid.

(١٦) Ibid.

(١٧) Evliya, p. 383.

(١٨) Ibid., p. 382.

(١٩) *MD*, vol. 26, no. 755, p. 263, Jumada II 24, 982 (October 11, 1574).

(٢٠) أحمد شلبى ، ص ٦١٨ .

(٢١) حلاق ، ورقة ١٣٦ أ .

(٢٢) انظر على سبيل المثال أحمد شلبى ، ص ص ٣٢٦ ، ٣٥٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

D. Aylon, « Studies in Aljabarti 1 » JESHO, Vol. 3 (1960), pp. 304-306.

(٢٣) أحمد شلبى ، ص ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣ .

(٢٤) *MD*. vol. 23, no. 390, p. 184, Shawwal 3, 981 (January 26, 1573).

(٢٥) أحمد شلبى ، ص ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٤٤ .

(٢٦) ابن اياس ، ص ٣٠٥ .

(٢٧) قانون نامه مصر . *Qanun-name-i Misir*, p. 378 (33).

(٢٨) أحمد شلبى ، ص ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ .

(٢٩) Evliya, pp. 281-282.

(٣٠) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (مخطوط مجموعة جرت ٤٩٩٥) جامعة برنستون ، ورقة ٢٩ ب ، ١٦٥ ، ٦٨ ب ، ٦٩ ب ، ٧٣ أ ، ٧٦ ب ، عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٧ ب ، ١١ ب ، ١٣ أ ، حلاق ، ورقة ٧٦ ب .

(٣١) Evliya, pp. 131, 306.

(٣٢) See Qanun-name-i Misir, p. 378.

(٣٣) لا يجب الخلط بينه وبين منصب الباشا الذى كان يطلق عليه أيضا لفظ وال (حاكم الولاية) .

(٣٤) A. Raymond, 'Problémes urbains et urbanisme au Caire' in ***Colloque international sur l'Histoire du Caire*** (DDR, c. 1972), **pp. 358-60.**

(٣٥) اياس ، ص ص ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٣٣٥ .

(٣٦) A. Raymond, *Artisans et commerçants* pp. 588-96 ; S. J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt,* 1517-1798 (Princeton, NJ, 1962); pp. 118-21.

(٣٧) *Qanun-name-i Misir,* p. 382 (41); G. H. El-Nahal, *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth century* (Minneapolis and Chicago, 1979), p. 63.

(٣٨) On the *hara,* see A. Raymond, 'Quartiers et mouvements populaires au Caire aux XVIIIe siècle,' in P. M. Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt* London, 1968), pp. 104-16; idem, *Artisans et commerçants,* pp. 441-8; idem, 'Problèmes urbains et urbanisme.

(٣٩) ابن اياس ، صص ١٦٤ ، ١٧٤ ، ٣٠٩ ٣٢٨ .

(٤٠) عبد الكريم بن عبد الرحمن ورقة ٧ ب .

(٤١) مصطفى على ، ص ٣٤ .

(٤٢) الدياربكرى ، أوراق ٢٩١ أ ، أحمد شلبى ، صص ٥١٤ ، ٦١٨ .

(٤٣) انظر على سبيل المثال : ابن اياس ، ص ٢٩٠ ، ٤٦١ ، الدياربكرى ، ورقة ٣١٢ أ ، Evliya, pp. 160, 343-344.

(٤٤) نفسه ، ص ص ١٦٠ ، ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

(٤٥) See, for example, 'Abdulkerim ibn 'Abdurrahman Tevarih-i *Misr-Qahire* (Ms. 4877 Hacci Mahmut Collection, Süleymaniye Library, Istanbul), fol. 30 b-31a : MD, vol. 5, no. 272, p. 118, Safar 29, 973 (September 25, 1565); vol. 33, no. 214, p. 105, Ramadan 20, 985 (December 1, 1577); vol. 34, no. 54, p. 27, Muharram 14, 986 (March 23 (1578) ; Ibid. no .116 p. 55. Muharram 20, 986 (March 29, 1578); vol. 45, no. 1144, p. 97, Rajab 6, 989 (August 6, 1581).

(٤٦) الدياربكرى ، ورقة ٢٨٤ ب ، Evliya, p. 160.

(٤٧) MD, vol. 21, no. 245, p. 101, Shawwal 17, 980 (February 20, 1573) ; vol. 23, no. 114, p. 54, Jumada II 8, 981 (October 5, 1573).

(٤٨) أحمد بن سعد الدين الغمرى ، ذخيرة الاعلام (مخطوط ـ عربى ـ ١٨٥٠ ، المكتبة الوطنية ، باريس) ورقة ١٨١ أ .

(٤٩) مراجع عن الطاعون انظر على سبيل المثال :

ـ مؤلف مجهول (بدون عنوان ـ مخطوط عربى ـ ١٨٥٤ ـ المكتبة الوطنية بباريس ، ورقة ١٥٦ ب ـ ١٥٧ أ) .

– حلاق ، ورقة ١١٨ ب ، ١٥٦ ب ٠

– أحمد شلبي ، صص ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ٢٩٣ ، ٤٨٩ ، ٦٠٧ – ٦٠٩ ٠

– الجبرتي ، مج ٢ ، ص ٥١ ، ١٩١ ٠

E. Combe, 'L'Egypte oltoman' in précis de l'histoire d'Egypte Vol. 3, Cairo, 1933, pp. 28, 31, 34.

Raymond, 'Problemes urbains et urbanisme' p. 365.

(٥٠) Lane, p. 2.

(٥١) A. Raymond, 'Le Caire — Economie et société urbaines à la fin du XVIIIe si&cle. *L'Egypte au XIXe* si&cle (Paris 1982), p. 134.

(٥٢) Lane, p. 3, note 1.

(٥٣) البكري الصديقي ، (مخطوط – مجموعة جرت ٤٩٩٥) ورقة ٧٦ أ ، حلاق ، ورقة ١٣٨ أ ٠

(٥٤) See M. c. Dols, '*The Black Death in the Midde East* (Princeton, NJ, 1977), chapter V : D Dyalon, 'The Plague and its Effects upon the Mamluk Army,' *Journal of the Royal Asiatic Society* (1946), pp. 67-73.

(٥٥) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١٩١ ، أحمد سلبي ، ص ١٧٠ ٠

(٥٦) نفسه ، ص ٢٩٣ ، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (مخطوط H.O. ، ٣٥ فينا) ورقة ١١٣ ب ٠

(٥٧) ابن أياس ، مج ٤ ، ص ٢٦٨ ٠

(٥٨) الدياربكري ، ورقة ٢٤٠ أ ، ابن اياس ، صص ٢٤٨ – ٢٤٩ ٠

(٥٩) قانون نامه مصر *Qanun-name-i Misir*. p. 379 (34).

(٦٠) The Continuator of Ishaqi, fol. 140-141a.

(٦١) محمد بن يوسف الحلاق

Mohammad ibn Yusuf al-Hallaq, *Ta'rikh-t Misr-i Qahire* (Ms. H.O.S), Vienna), fol. 87 b.

مخطوط H.O ، ٣٧ فينا ، ورقة ٨٧ ب ٠

(٦٢) قانون نامه مصر ٠ *Qanun-name-i Misir*, p. 383 (45).

(٦٣) مصطفى علي ، ص ٣٤ ٠

(٦٤) Evliya, pp. 195, 365.

(٦٥) Johann Wild, *Voyages en Egypte*, 1601-1610, p. 316.

(٦٦) الجبرتي ، مج ١ ، ص ٧٩ ٠

(٦٧) مصطفى علي ، ص ٣٨ ٠

(٦٨) Evliya, p. 515.

(٦٩) مصطفى علي ، ص ٤٤ ٠

(٧٠) نفسه ، ص ص ٤٢ ـ ٤٣ ·

(٧١) Evliya, p. 385 ; See also Wild, op. cit., p. 103.

(٧٢) On the Physicians see ibid., pp. 367-8, 385; Raymond, 'Pro, blèmes urbains et urbanisme,' p. 365 ; idem, *Artisans et commerçants*, pp. 460, 493, 534, 551.

(٧٣) Evliya, pp. 262-4.

(٧٤) Raymond, 'Problèmes urbains et urbanisme,' p. 365.

(٧٥) Evliya, pp. 264 ff.

(٧٦) G. Baer. *Egyptian Guilds in Modern Times* ɹ*Jerusalem*, 1964), p. 118.

(٧٧) مصطفى على ، ص ٣٤ ·

(٧٨) Lane (p. 343) enumerates between 60 and 70 *hammams*.

(٧٩) Evliya, pp. 257-60.

(٨٠) Ibid., pp. 588-9; Raymond 'Problemes urbains et urbanisme' pp. 361-2.

(٨١) Sse E. Strauss (Ashtor), 'The Social Isolation of Ahl adh-Dhimma.' in O. Komlos. ed., *Etudes orientales à la mémoire de P. Hirschler* (*Budapest*, 1950), pp. 82-5.

(٨٢) احمد شلبى ، ص ٢٧٣ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٠٤ ·

(٨٣) Evliya, p. 383.

(٨٤) Jean Palerne Fordsien, *Voyage en Egypte 1581*, S. Sauneron, ed.. (Cairo : Institut Français d'Archrologie Orientale du Caire, 19713, p. 69.

(٨٥) Raymond, 'Problèmes urbains et uroanisme,' pp. 363-4.

(٨٦) Raymond, -Le Cairo sous les Ottomans,' pp. 54-5.

(٨٧) ابن اياس ، ص ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ ·

(٨٨) مصطفى على ، ص ٤١ ·

(٨٩) Evliya, p. 383.

(٩٠) Belon, *Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans* 1547 Cairo, 1970), p. 106 b.

(٩١) مصطفى على ، ص ٤٢ ·

(٩٢) G. Baer, 'Popular Revolt in Ottoman Cairo,' *Der Islam*, *vol* 54, no. 2, 1977, pp. 213-42.

(٩٣) A. Raymond, 'Le Caire — Economie et societé urbaine à la fin du XVIIIe siécle,' in *L'Egypte au XIXe siècle* (Paris, 1982), pp. 124-5.

(٩٤) I. M. Lapidus, *Muslim Cities in the Later Middle Ages* Cambridge, Mass., 1967), p. 52.

(٩٥) احمد شلبى ، ص ١٩٧ ، عبد الكريم بن عبد الرحمن ، ورقة ٨٧ ب ـ ٨٨ ا ٠ مصطفى على ، ص ص ٤٩ ـ ٥٠ الجبرتى ، مج ١ ، ص ص ٢٦ ، ٢٠٣ ٠

(٩٦) احمد شلبى ، ص ١٨٨ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ١٠٥ وانظر الفصل الثانى ٠

(٩٧) See Winter, *Society and Religion*, pp. 50-1.

(٩٨) Evliya, pp. 256-7.

(٩٩) مصطفى على ، ص ٤٩ ٠

(١٠٠) نفسه ، ص ٣٦ ٠

(١٠١) Wild, p. 278.

(١٠٢) Lane, pp. 439-ff., 486 ff.

(١٠٣) Ibid., p. 478 f; Evliya, p. 356.

(١٠٤) احمد شلبى ، ص ٦٠٦ ٠

(١٠٥) انظر الفصل السادس ٠

(١٠٦) Lane, pp. 498 ff.

(١٠٧) Ibid., pp. 495-6; Evliya, p. 326.

(١٠٨) Raymond, *Artisans et commerçants*, p. 386.

(١٠٩) 'Kahwa, *El*, vol. 4, pp. 449-53 by C. van Arendonk.

(١١٠) مصطفى على ، ص ٣٧ ٠

(١١١) الفاسى ، الرحلة ، ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، الورثلانى ، نزهة الأنظار ، ص ٢٦٨ ٠

(١١٢) Evliya, p. 479.

(١١٣) G. Baer, 'Popular Revolt in Ottoman Cairo,' p. 214.

(١١٤) Ibid., pp. 219-20; A. Raymond, Le Caire-Economie et société, pp. 121-5.

(١١٥) Raymond, *Artisans et commerçants*, pp. 91-7; Baer Popular Revolt in Ottoman Cairo,' p. 220 ff.

(١١٦) Ibid. ; Raymond, *Artisans et commerçonts*, p. 391.

(١١٧) Raymond, 'Le Caire-Economie et Societé, p. 126.

(١١٨) Idem, 'Essai de géographie des quartiers de rlsidence aristocratique au Caire au XVIIIe siécle JESHO, vol. 6, 1963, pp. 58-103.

(١١٩) الجدير بالملاحظة أن اسطنبول التى كان سكانها أكثر من القاهرة بثلاث مرات لم يكن بها الا ١٥٠ طائفة حرفية فى هذا الوقت ٠

Raymond, Artisans et Commerçants, p. 511.

(١٢٠) G. Baer. *Egyptian Guilds in Modern Times*, pp. 2-3.

(١٢١) See, G. Baer, 'Guilds in Middle Eastern History,' in M. A. Cook ed. Studies in the eionomii hiotsry of the Middle **East** (London, 1970), pp. 27-28.

(١٢٢) الدياربكرى ، ورقة ٢٨٦ ب ٠

(١٢٣) Baer, Egyptian Guids in modern times, pp. 14-15.

(١٢٤) Ibid, pp. 1-10.

(١٢٥) Ibid, pp. 33-48.
Evliya, pp. 358-386.

(١٢٦) Raymond, Artisans et Commerçants, p. 526.

(١٢٧) Baer. Egyptian Guilds in modern times, pp. 6-10, 49-57.

(١٢٨) Raymond Artisans et Commerçants, pp. 523 - 532.

(١٢٩) نوقش هذا الموضوع بالتفصيل فى المرجع السابق ، ص ص ٦٥٩ ـ ٧٢٦ ٠

(١٣٠) Ibid, p. 650.

(١٣١) كانت فرق الخيالة تقيم خارج القاهرة ، لذا فقد كانت تهاجم القرى وتنهبها ٠

(١٣٢) أحمد شلبى ، ص ٢٢٥ ، الجبرتى ، مج ١ ، ص ٣٧ ٠

(١٣٣) ابن اياس ، ص ٣٠٥ ٠

(١٣٤) C. F. Volney, travel through Syria and Egypt in the years 1784 and 1785. (London, 1887), vol. 1, p. 166.

قائمـــة المصـــادر

القواميس وقوائم المصادر ودوائر المعارف

— امين ، أحمد ، قاموس العادات والتقاليد المصرية · القاهرة ١٩٥٢ ·

— بروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية ·

Encyclopaedia of Islam. 1st edn. Eds M.T. Houtsma, T.W. Arnold, R. Basset, *et al.* 4 vols and suppl. Leiden/London, 1912-42.

Encyclopaedia of Islem. 2nd edn. Eds H.A.R. Gibb, J.H. Kramers, E. Levi-Provençal et *al.* 4 vols. Leiden/London, 1954.

Holt, P.M. Ottoman Egypt (1517-1798) : an Account of Arabic Historical sources.' In P.M. Holt (ed.), *Political and social Change in Modern Egypt*, pp. 3-12. London, 1968.

Redhouse, Sir James. *Turkish-English Lexicon.* Istanbul, 1890.

Shaw, S.J. 'Turkish Source-materials for Egyptian History.' In *P.M. Hoit* (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*, pp. 28-48,. London. 1968.

الوثائق الارشيفية

اولا : Basbakanlik Arçivi (*Pariml Ministers's Archive*) Istanbul

— Mühimme Defteri

— Mühimme-i Misir.

ثانيا : Topkapi Sarayi Müzesi, Istenbul
Documents E 2283 (957/1550-1) ; E 5850/B 2 (923/1517).

ثالثا : *Dar al-kutub* (The National Library), Cairo
Ms. *Ta'rikh* 2784 - A collection of documents concerning the family of al-Sadat al-Wafaiyya.

رابعا : Archives Nationales, Paris.

Affaires Etrangères. Correspondance Consulaire I-III, Le Caire. 1669-98.

وثائق منشورة

Barkan. O.L. *XV ve XVI nci astrlada Osmanli Imparatorlugunda ziral ekonominin hukuki ve mali esoslan* vol. I, pp. 355-87. Istanbul 1943.

Douin, S. (ed.), *Egypte de 1828 à 1830 : Correspondance des consuls de France en Egypte*. Rome, 1935.

Humbsch, R. *Beitraege zur Geschichte des osmanischen Agypten nach arabischen Sultans und statthalterurkunden des Sinai-Klosters*), Freburg i.Br., 1976.

Refik, Ahmet. *On altinci astrda Istanbul hayati*. Vol. I, Istanbul, 1988 (new printing).

Schwarz, K. *Osmanische Sultanurkunden des Sinai-Klosters in türkische Sprache*. Freiburg, i. Br., 1970.

مراجع عربية وتركية وعبرية (تاريخية ودينية وتراجم)

— عبد الكريم بن عبد الرحمن :

Tevarih-i (tarikh'i) Misr-i Qahire.

1. Ms. Add. 7878, the British Library.
2. Ms. 4877 Hacci Mahmut Efendi Collection, Süleymaniye Librery, Istanbul.

— أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى :

أوضح الاشارات فيمن تولى مصر والقاهرة من الوزراء والباشات الملقب بتاريخ العينى • تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ •

— على أفندى :

A chronicle of pashas of Egypt.

(مخطوط ١٠٥٠ ـ مجموعة مظفر أوقاق Ocak ـ جامعة انقرة) •

— مؤلف مجهول ، استمرار للاسحاقي – لا عنوان له •
(مخطوط عربى – ١٨٥٤ ، باريس ، المكتبة الوطنية
(Bibliothéque Nationale

— البكرى الصديقى ، محمد بن أبى السرور ، **كشف الكربة فى رفع الطلبة** ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فى المجلة التاريخية المصرية ، ٢٣ (١٩٧٦) : ٢٩١ – ٣٨٤ •

— البكرى الصديقى ، محمد بن أبى السرور ، **النزهة الجلية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة** (مخطوط – ٤٤٤٥ ، جامعة برنستون – مجموعة جارت Garrett) .

— البكرى الصديقى ———— ، **التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية** (مخطوط – H.O. ، ٣٥ فيينا Vienna) .

— البكرى الصديقى ———— ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، (مخطوط – ٤٩٩٥ ، مجموعة جارت يهوذا Garret Yahuda – جامعة برنستون) •

— الدمرداشى ، أحمد ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة (مخطوط – المكتبة البريطانية British Library — Or — ١٠٧٣ – ١٠٧٤) •

— الدياربكرى ، عبد الصمد ، ذكر الخلفاء والملوك المصرية (مخطوط – المكتبة البريطانية – Add ٧٨٤٦) .

— الغمرى ، أحمد بن سعد الدين ، ذخيرة الاعلام (مخطوط ، باريس ، المكتبة الوطنية arabe 1850) .

— الحلاق (أو الخلاق – بالخاء) محمد بن يوسف •

al-Hailaq (al-Kallaq), Muhammad ibn Yusuf. Tarih-i Misr-i Qahire.
1. Ms. T.Y. 628. Istanbul University Library.
2. Ms. H.O. 37, Vienna.

— الحفناوى ، محمد بن سالم ، منتهى العبارات (مخطوط ٤٩٩٢ مجموعة جارت يهودا – جامعة برنستون) •

— ابن أياس محمد بن أحمد ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، مجلد ٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م •

— ابن نجيم ، عمر بن ابراهيم ، الأشباه والنظائر (مخطوط ، مجموعة جرت يهوذا ـ جامعة برنستون) .

— ابن نجيم ـــــــ ، فتاوى (مخطوط ، ٥٧٧٧ ، مجموعة جرت يهوذا ، جامعة برنستون) .

— ابن نجيم ـــــــ ، الفتاوى الزينية (مخطوط ، ٤١١٥ ، مجموعة جرت يهوذا ، جامعة برنستون) .

— ابن طولون ، محمد ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، حققه محمد مصطفى . جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

— الاسحاقى ، محمد بن عبد المعطى ، كتاب أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . القاهرة ، ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م .

— الجبرتى : عبد الرحمن ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ م ، القاهرة (بولاق) ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م .

— الجزيرى : عبد القادر بن محمد ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة . القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

Kapsali, Eliyahu. *Seder Eliyahu Zuta*. Eds. A. Shmuelevich, Sh. Simonson, M. Benayahu. 2 vols. Jerusalem/Tel Aviv, 1966.

— المليجى : محمد محيى الدين ، المناقب الكبرى ـ تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م .

— المقريزى : أحمد بن على ، البيان والاعراب ، حققه عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ .

— المقريزى : ـــــــ ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . ٤ مج ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

— مبارك : على باشا ، الخطط التوفيقية الجديدة ، القاهرة (بولاق) ، ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩ .

— المناوى : عبد الرءوف ، **الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية** (مخطوط ، ٢٤٩ ، مجموعة جرت Garret ، جامعة برنستون) .

— النهروالى المكى ، قطب الدين محمد بن أحمد ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى . تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ .

ـــ النهروالى ـــــــ ، كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق و · فستنفلد Wüstenfeld ، بيروت ، ١٩٦٤ (طبعة جديدة) ·

ـــ الرشيدى : أحمد ، حسن الصفاء والابتهاج بذكر من ولى امارات الحج (مخطوط) المكتبة الوطنية بباريس
. (bibliotheque Nationale

ـــ رضوان باشا زاده :
Ridwen. Pashazade. *Ta'rih-i Misir* (Ms. H.O. 6 : Mxt 933. Vienna).

ـــ سعد الدين :
Sa'düddin. *Tajül-tevarih*. 2 vols. Istanbul, n.d.

ـــ سامبارى : جوزيف :
Sambari. *Joseph Selections. Ed. A. Neubauer. Oxford*, 1887.

ـــ الشعرانى ، عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ٢ مج ، القاهرة ، بدون تاريـخ ·

ـــ الشعرانى : ـــــــ ، الطبقات الصغرى ، تحقيق عبد القادر عطا ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ·

ـــ الشعرانى : ـــــــ ، لطائف المنن ، ٢ مج ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م ·

ـــ الشعرانى : ـــــــ ، لواقـح الأنوار القدسـية فى بيـان العهد المحمدية ، ٢ مج ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ·

Shaw, S.J. (ed.), *Hüseyn Efendi. Egypt in the Age of the French Revolution. Cambridge, Mass.*, 1964

— ed. *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century* : The Nizamname-i Misir of Cezzar Ahmed Pasha. Cambridge. Mass., 1962.

ـــ السيوطى : جلال الدين ، الحـاوى للفتـاوى ، ٢ مج ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م ·

ـــ الأجهورى ، على ، الزهرات الوردية من فتـاوى الشيخ الأجهورى (مخطوط ٢٧١ من مجموعـة ٨٩٥ ، جامعـة كاليفورنيـا ، لوس أنجلوس) بدون ترقيم ·

Winter, M. 'Ali Efendi's « Anatolian Campaign Book » : a Defence of the Egyptian Army in the Seventeenth Century,' *Turcica* 15 (1983), 267-309.

ـــ اليافى ، عبد الله ، **نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية**، القاهرة ، ١٩٦١ ٠

الرحـــلات

ـــ العياشى : أبو سالم ، **الرحلة العياشية** ، ٢ مج ، الرباط ، ١٩٧٧ ، طبعـة جديدة ٠

Belon, P. *Voyage en Egypte de Pierre Belon du Mans 1547.* Cairo, 1970.

Evliye Celebi. seyahatname. Vol. X Istanbul, 1938.

ـــ الفاسى ، أحمد بن محمد الفهرى ، ، الرحلة ، (مخطوط ، دار الكتب المصرية ، تاريخ ١٤٠٣ هـ ٠

Foresien, Jean Palerne. Voyage en Egypte 1581. Ed. S. Sauneron. Cairo, 1971.

ـــ الحموى ، محـب الدين ، الدرة المضيئة فى الرحـــلة المصرية ، مخطوط ـ لاندبرج ، ٤٢٧ ، جامعة ييل (Yale) .

Lane, E. W. The Manners and Customs of the Modern Egyptians. London. 1963.

Procoke, R. *A Description of the East and Some Other Countries.* Vol. I. London, 1743.

Tietze. A. *Mustafa 'Ali's Description of Cairo of 1599.* Vienna. 1975.

Vansleb, F. *The Present State of Egypt.* London, 1678 (repr. England. 1972).

Villamont. *Voyages en Egypte des années* 1589, 1590 *et* 1591. Cairo, 1971.

Volney, C.F. *Travels through Syria and Egypt in the Years* 1784 *and 1785*. Vol. I. London, 1887 (repr. England, 1972).

ـــ الورثلانى ، الحسن بن محمـــــد ، نزهة الأنظـار فى علم التاريخ والأخبار ، بيروت ، ١٩٧٤ ٠

Wild, Johann. *Voyeges en Egypte 1601-1610.* Ed. and trans. O.V. Volkoff. Cairo, 1973.

مراجع ثانوية

ــ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : دور المغاربة فى تاريخ مصر فى العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، ١٠ ـ ١١ / ٥٣ ـ ٦٨ (١٩٧٨) : ٥٣ ـ ٥٦ .

Ammar, H. *Growing Up in an Egyptian Village.* London, 1954.

Arendonk C. van. *'Kahwa.' Encyclopaedie of Islam'* 4 : 449-53.
— *'Sharif.' Encyclopaedia of Islam* 4 : 324-9.

Ayalon, D. êDischarge from Service. Banishments and Imprisonments in Mamluk Society.' *Israel Oriental Studies* 2 (1972) : 25-50.

— 'The End of the Mamluk Sultanate (why did the Ottomans spare the Mamluks of Egypt and wipe out the Mamluks of Syria ?), *'Studia Islamica,* 65 (1987), 125-48.

— *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom.* London, 1956.

— Mamluk Military Aristocracy during the First Years of the Ottoman Occupation of Egypt.' In C.E. Bosworth. Ch. Issawi ,R. Savory and A.L. Udovich (eds), *The Islamic World : Studies in Honor of Bernard Lewis* (Princeton. NJ. 1989), pp. 413-31.

— *The Mamluk Military* Society. Variorum Reprints. London, 1979.

— 'The Plague and its Effects upon the Mamluk Army.' *Journel of the Royal Asiatic Society* (1946) ; 67-73.

— Studies in al-Jabarti I : Notes on the transformation of Mamluk society in Egypt under the Ottomans.' *JESHO* 3/2 and 3/3 (1960) : 148-74. 275-325.

— Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517). Variorum Reprints, London, 1977.

Bacqué-Grammont, J.-L. «Une dénonciation des abus de Ha'ir Beg, gouverneur de l'Egypte ottomane, en 1521.' *Annales Islamologiques* 19 (1982) : 5-52.

Baer, G. *Egyptian Guilds in Modern Times*. Jerusalem, 1964.

— 'Fellah and Townsman in Ottoman Egypt.' *Asian end African Studies*, 8/3 (1972) : 221-56.

— 'Guilds in Middle Eastern History.' In M.A. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East*, pp. 3-10. London, 1970.

— *History of Landowrership in Modern Egypt*, 1800-19508. London, 1962.

— 'Jerusalem Notables in Ottoman Cairo.' In A. Cohen and G. Baer (eds.), *Egypt and Palestine ; a Millennium of Association* (868-1948), pp. 167-75. Jerusalem, 1984.

— 'Popular Revolt in ottoman Cairo.' *Der Islam* 54/2 (1977) : 213-42.

— êVillagl and City in Egypt and Syria, 1500-1914.' in G. Baer. *Fellah and Townsman in the Middle East : Studies in Social History*, pp. 49-106. London. 1982.

— البكرى ، محمد توفيق ، بيت السادات الوفائية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، حوالى ١٩٠٠ .

— *Bayt al-Siddiq*. Cairo 1323/1905.

Bannerth, E. 'La Khalwatiyya en Egypte,' *Mélanges de l'Institut Dominicaine des Etudes Orientales*, 8 (1964-66) : 1-75.

Barkan, O.L. 'The Price Revolution of the Sixteenth Century : A Turning Point in the Economic History of the Near East.' *IJMES*, 6 (1975) ; 3-28.

Berque, J. *Histoire sociale d'un village égyptien au XXe siècle*. Paris, 1957.

Blackburn. J.R. 'The Collapse of Ottoman Authority in Yemen, 968/1560-976/1568.' *Die Welt des Islams* N.S. 19/1-4 (1979) : 119-76.

Blackman. W.S. 'An Ancient Egyptian Custom Illustrated by a Modern Survival.' *Man*, 25 (1925) : 25-6.

— 'Some Social and Religious Customs in Modern Egypt with Special Reference to Survivals from Ancient Times.' *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte.* 13-14 (1924-26) : 46-61.

— *The Fellahin of Upper Egypt* London. 1927.

Bodman. H.L. Jr. *Political Factions in Aleppo,* 1760-1826. Durham, 1963.

Brockelmann, C. 'Al-Bakri (Mustafa Kamal al-Din).' *Encyclopeedia of Islam,* 1 : 865-6.

Cahen. C. *'Ghuzz.' Encyclopaedia of Islam,* 2/2 : 1106-11.

Chabrol, M. de 'Essai sur les moeurs des habitants modernes de l'Egypte.' *Description de l'Egypte, Etat moderne,* vol II, Paris, 1812.

Combe, E. 'L'Egypte Ottomane.' *Précis de l'histoire d'Egypte,* vol. III. pp. 1-128. Cairo, 1933.

Crecelius. D. 'The Emergence of Shaykh al-Azhar as the Preeminent Religious Leader in Egypt.' *Colloque International sur l'Histoire du Caire,* (Cairo), Grafenhainchen (DDR) pr. (1972) : 109-23.

— *The Roots of Modern Egypt : A Study of the Regimes of Ali Bey al-Kabir and Muhammad Abu al-Dhahab,* 1760-1775. Minneapolis/Chicago, 1981. —

Deherain, Henri. 'L'Egypte turcue.' In G. Hanotaux (ed.), *L'Histoire de la Nation Egyptienne,* vol 5, Paris, 1931. —

Dols, M.W. *The Black Death in the Middle East.* Princeton, NJ, 1977.

Eccel, A.C. Egypt, *Islam and Social Change : Al-Azhar in* Conflict and Accommodation. Berlin, 1984.

Ehrenkreutz, A.S. Saledin. Albany, NY, 1972.

Fernandes, L. 'Two Variations on the Same Theme : The Zawiya of Hasan al-Rumi and the *Takiyya of Ibrahim* al--Gulshani,' *Anneles Islamologiques,* 21 (1985) : 95-111.

Flemming B. *'Die vorwahhabische Fitno in osmanischen* Kairo, 1711.' In *Ismail Hakki Uzunçarsuili'ya Armagan,* pp. 55-65. Ankara, 1976.

Fuchs, H. *'Mawlid.' Encyclopaedia of Islam,* 3 : 419-92

Garcin, J.-C. *Un centre musulman de la Haute Egypte médiévale : Que.* Cairo, 1976.

Gaudefroy-Demombynes, M. *La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes.* Paris, 1923.

Gibb, H.A.R. and Bowen, H. Islamic Society end the West, vol. 1, *Islamic Society in the Egypteenth Century.* (Parts 1 and 2). London. 1950-7.

Goldziher, I. 'Le culte des saints chez les Musulmans.' *Revue de l'Histoire des Religions. 2 (1980)* : 257-351.

— 'Uber den Brauch der Mahya — Versammlungen in Islam.' WZKM, 15 (1901) : 33-50.

Gran, P. *Islamic Roots of Capitalism* : *Egypt* 1760-1840. Austin/London, 1979.

Grunebaum, G. E. von. *Mohammaden Festivals.* London. 1958.

Haarmann. U. 'Ideology and History, Identity and Alterity : The Arab Image of the Turk from the 'Abbasids to Modern Egypt.' *IJMES,* 20/2 (1988) : 175-96.

Hacmer. M. de Histoire de l'Empire Ottomane, Trans. M. Donchez. Paris. 1844.

Hess A.C. 'The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth Century World War.' *IJMES.* 4/1 (1973) : 55-76.

Heyd. U. *Ottoman Documents on Pelestine,* 1552-1615. Oxford. 1960.

Heyworth-Dunne, J. *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt.* London. 1939.

Hitti. P. *History of the Arabs.* London, 1960. (ترجم للعربية)

Holt, P.M. *Egypt and the Fertile Crescent*. 1516-1922. *A Political History*. Ithaca, NY, 1966.

— 'Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt.' In P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*, pp. 161-76. London, 1973.

— 'The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century.' in P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*. pp. 177-219. London, 1973.

— 'The Career of Küçük Muhammad (1676-94).' In P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*, pp. 231-51. London. 1973.

— 'The Exalted Lineage of Ridwan Bey : Some observations on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy.' In P.M. Holt. *Studies in the History of the Near East*, pp. 220-30. London, 1973.

— 'The Last Phase of the neo-Mamluk Regime in Egypt,' In *L'Egypte au* XIXe *siècle* (Colloques Internationaux du C.N.R.S., 594), pp. 65-75. Paris, 1982.

— 'The Pattern of Egyptian Political History 1517 to 1798.' In P.M. Holt (ed.), *Politicel and Social Change in Modern Egypt*, pp. 79-90. London, 1968.

Inalcik, H. *'L'Empire ottoman.' Acets du 1er congres international des études balkaniques et sud-est européenes*, 3 (*Sofia, 1969*) 75-103.

— 'Military and Fiscal Transformation in the Ottoman Empire, 1600-1700.' *Archivum Ottomanicum*. 6 (1980) ; 283-337.

— *The Ottoman Empire : The Classical Age*, 1300-1600, London, 1973.

Irwin, *R. The Middle East in the Middle Ages : The Early Mamluk Sultanate*, 1250-1382. London, 1986.

Jong, F. de. *Turuq and Turuq-linked Institutions in Nineteenth Century Egypt*. Leiden, 1978.

Kahle, P. 'Zur Organisation der Derwischorden in Egypten.' *Der Islam. 6 (1916)* : 149-69.

Kimche, D. 'The Political Superstructure of Egypt in the late Eighteenth Century.' *Middle East Journal,* 22/4 (1968) : 448-62.

Kriss, R. and Kriss, H.H. *Volksglaube im Bereich des Islams.* 2 vols. Wiesbaden, 1960.

Kupferschmidt, U.M. 'Connections of the Palestinian *'Ulama'* with Egypt and other Parts of the Ottoman Empire.' In A. Cohen and G. Baer (eds.), *Egypt and Palestine : a Millennium of Association* (868-1948), pp. 176-89. Jerusalem. 1984.

Lammens. H. *Islam : Its Beliefs and Institutions.* Hebrew translation. Jerusalem. 1955.

Landau, J.M. *Jews in Nineteenth Century Egypt.* New York, 1969.

Lapidus, I.M. *Muslim Cities in the Later Middle Ages.* Cambridge, Mass., 1967.

Livingston, J.W. 'Ali Bey al-Kabir and the Jews.' *Middle Eastern Studies.* 7 (1971) : 221-28.

McCarthy, J.A. 'Nineteenth-century Egyptian Population.' In E. Kedourie (ed.), *The Middle Eastern Economy : Studies in Economics and Economic History,* pp. 1-39, London 1976.

McPherson, J.W. *The Moulids of Egypt.* Cairo. 1941.

Mantran, R. 'Note sur le Kanunname-i Misir.' *Cahiers de l're-gistiques d'orientalisme et de Slevistiques : études sémitiques et islamiques* 9 (1977) : 35-44.

Marsot. Afaf Lutfi al-Sayyid. 'A Socio-Economic Skitch of the 'Ulama in the Eighteenth Century.' international *sur l'Histoire du Caire.* (Cairo), Grafenhainchen (DDR) pr. (1972) : 313-19.

—— 'The Political and Economic Functions of the Ulama in the Eighteenth Century." NESHO, 16 (1973) : 130-54.

Martin, B.G. 'A Short History of the Khalwati Order of Dervishes.' In N.R. Keddie (ed.), *Scolars, Saints and Sufis. Muslim Religious Institutions in the Middle East since 1500*, pp. 290-305. Berkeley and Los Angeles. 1972.

Meyerhof, M. 'Beitraege zum Volksheilglauben der heutigen Aegypter.' *Der Islam,* 7 (1917) : 307-44.

Motzki, H. '*Dimma und Egalité ; die nichtnnuslimischen Minderheiten Agyptens in der zweiten Hälfte des 18 Jahrhunders und die Expedition Bonapartes* (1798-1801). Bonn, 1979.

El-Nahal, G. H. *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century.* Minneapolis/Chicago, 1979.

N.-C. D. 'Bait as-Siddik. L'aristocratie religieuse en Egypte.' *Revue du Monde Musulman,* 4 (1908) : 241-83.

Rafeq, Abdul Karim, 'Ibn Abi-'l-Surur and His Works.' BSOAS, 38/1 (1975) : 24-31.

Raymond, A. *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle.* 2 vols. Damascus, 1973.

— 'Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au XVIIIe siècle.' *JESHO,* 6 (1963) 58-103.

— 'Le Caire : Economie et société urbaines à la fin du XVIIe Siécle « L'Egypte au XIXe Siécle (Colloques internationaux du CNRS, 594), pp. 121-39, Paris, 1982.

— 'Le Caire sous les Ottomans, 1517-1798.' In, Maury, A. Raymond, J. Revault and M. Zakariya (eds.), Palais et maisons du Caire, Vol. 2, Epoque ottomane, XVIe-XVIIIe siécle, pp. 15-89 Paris, 1983.

— 'Problèmes urbains et urbanisme au Caire.' *Colloque international sur l'Histoire du Caire,* (Cairo), Grafenhainchen (DDR) pr. (1972) : 353-72.

— Quartiers et mouvements populaires au Caire aux XVIIIe siècle.' In P.M. Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt,* pp. 104-16. London, 1968.

— 'The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns.' *International Journal of Turkish Studies,* 4/1 (1970-80) : 84-101.

— 'Une Revolution' au Caire sous les Mamelouks. La crise de 1123/1711.' *Annales Islamologiques,* 6 (1965) : 95-120.

Salim, S.M. *Marsh Dwellers of the Euphrates Delta.* London, 1962.

Schimmel, A. 'Sufismus und Heiligenverehrung im spaetmittelalterlichen Agypten (Eine Skizze).' In E. Graef (ed.), *Festschrift Werner Caskel,* pp. 274-89. Leiden, 1968.

Shaw, S.J. *The Budget of Ottoman Egypt,* 1005-1006/1596-1597. The Hague/Paris. 1968.

— *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt,* 1517-1798. Princeton, NJ. 1962.

— 'Landholding end Land-tax Revenues in Ottoman Egypt.' In P.M. Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt,* pp. 91-103. London, 1968.

Strauss (Ashtor), E. *The History of the Jews in Egypt and Syria under the Mamluks.* 2 vols. Jerusalem, 1944. (In Hebrew).

— 'The Social Isolation of Ahl adh-Dhimma.' In O. Komlos ed.), *Etudes orientales à la mémoire de P. Hirschler.* pp. *73-94.* Budapest. 1950.

Stripling, G.W.F., *The Ottoman Turks and the Arabs.* 1511-*1574.* Urbana, III., 1942. —

— الطويل : توفيق ، التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

Trimingham. J.S. *The Sufi Orders in Islam.* Oxford. 1971.

Tyan, E. *Histoire de l'ôrganisatino judiciaire en pays d'Islam.* Leiden, 1969.

Winter, M. ' 'Ali ibn Maymun and Syrian Sufism in the Sixteenth Century.' *Israel Oriental Studies,* 7 (1977) : 281-308.

— 'A Seventeenth-Century Arabic Ranegyric the Ottoman Dynesty.' *Asian and African Studies,* 13/2 (1979). 130-56.

— 'Military Connections between Egypt and Syria (including Palestine) in the early Ottoman Period.' In A. Cohen and G. Baer (eds.), *Egypt and Palestine ; A Millennium of Association* (868-1048), pp. 139-49. Jerusalem, 1984.

— *Society and Religion in Early Ottoman Egypt : Studies in the Writings of 'Abd al-Wahhab al-Sha'rani.* New Brunswick, NJ, 1982.

— 'The *ashraf and niqabat al-ashraf* in Egypt in Ottoman and Modern Times.' *Asian and African Studies* (Haifa), 19/I (1985) : 17-41.

— 'The Islamic Profile and the Religious Policy of the Ruling Class in Ottoman Egypt.' *Israel Oriental Studies,* 10 (1988) 132-45.

— 'Turks, Arabs and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt.' *WZKM,* 72 (1980) ; 97-122.

ـــ الزيات : سليمان ، كنز الجواهر فى تاريخ الأزهر · القاهرة ، بدون تاريخ ·

Zwemer, S.M. *The Influence of Animism on Islam.* London, 1920.

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، **الموسوعة الأثرية العالمية**
ويليام بيتر، **معجم التكنولوجيا الحيوية**
ج.كارفيل، **تبسيط المفاهيم الهندسية**
ب. كوملان، **الأساطير الإغريقية والرومانية**
و. د. هاملتون وآخرون، **المعجم الجيولوجي المصور في المعادن والصخور والحفريات**
حسام الدين زكريا، **المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج١)**
خيرية البشلاوي،**معجم المصطلحات السينمائية**
دونالد نيكول، **معجم التراجم البيزنطية**

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د.محمد نعمان جلال، **حركة عدم الانحياز في عالم متغير**
إريك موريس؛ آلان هو، **الإرهاب**
ممدوح عطية، **البرنامج النووي الإسرائيلي**
د. ليلوار تشامبرز رايت، **سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر**
إزرا .ف. فوجل، **المعجزة اليابانية**
د. السيد نصر السيد، **إطلالات على الزمن الآتي**
بول هاريسون، **العالم الثالث غدا**
مجموعة من العلماء، **مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء**
و. مونتجمري وات، **الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر**
بادي أونيمود، **أفريقيا الطريق الآخر**
فانس بكارد ، **إنهم يصنعون البشر (٢ج)**
مارتن فان كريفلد،**حرب المستقبل**
ألفين توفلر ، **تحول السلطة (٢ج)**
ممدوح حامد عطية ، **إنهم يقتلون البيئة**
د.السيد أمين شلبي، **جورج كينان**
يوسف شرارة ، **مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية**
د. السيد عليوة، **إدارة الصراعات الدولية**
د. السيد عليوة، **صنع القرار السياسي**
جرج كاشمان، **لماذا تنشب الحروب(٢ج)**
إيمانويل هيمان، **الأصولية اليهودية**
أنجيلو كودفيللا، **المخابرات وفن الحكم**
آلان أنترمان، **اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)**

ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكائيل ألبي، **الانقراض الكبير**
فيرنر هيزنبرج، **الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية**
فريد هويل، **البذور الكونية**
ويليام بينز، **الهندسة الوراثية للجميع**
د. جوهان دورشنر، **الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد**
إسحق عظيموف، **الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)**
روبرت لافور، **البرمجة بلغة السي باستخدام تيربوسي (٢ج)**
إدوارد ايه فايجينباوم. **الجيل الخامس للحاسوب**

د. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر
ى. رادو نسكاياى ، الإلكترونيات والحياة الحديثة
جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول
إيفرى شاتزمان، كوننا المتمدد
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
كاتى ثير، تربية الدواجن
د.محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير
جينا كولاتا، الطريق إلى دوللى
دور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا
إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل
بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
ويليام هـ... ماثيوز، ما هى الجيولوجيا؟
إسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل
ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة
بانش هوفمان، آينشتين
زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه
ر .ج. فوربس، تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ج)
د.فاضل أحمد الطائى، أعلام العرب فى الكيمياء
رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان
إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء
ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة
أندريه سكوت، جوهر الطبيعة
إيجور إكيموشكين، الإيثولوجي
بارى باركر، السفر فى الزمان الكونى
ديمترى ترايفونوف، ظلال الكيمياء
بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة
جيفرى ماوساييف ماسون، حين تبكى الأفيال
ليونارد أ. كول، السلاح الحادى عشر
و. جراهام رينشاردز، أسرار الكيمياء
د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون

رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكدوال، مجموعات النقود (صيانتها، تصنيفها، عرضها)
د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا
سامى عبد المعطى، التخطيط السياحى فى مصر
جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى
ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
فيكتور مورجان، تاريخ النقود
د. تشارلز مى مانز، إدارة الأعمال بلا مديرين

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء
فرانسوا ديماس، آلهة مصر
سيريل ألدريد، إخناتون
موريس بيربر، صناع الخلود

بكـــنت أ. كتش، رمسيس الثانى: **فرعون المجد والانتصار**

ألن شورتر، **الحياة اليومية فى مصر القديمة**

ونفرد هولمز، **كانت ملكة على مصر**

جاك كرابس جونيور، **كتابة التاريخ فى مصر**

نفتالى لويس، **مصر الرومانية**

عبده مباشر، **البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ ــ ١٩٧٣)**

د. السيد طه أبو سديرة، **الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية.**

جابرييل باير، **تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة**

عاصم محمد رزق، **مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية**

ت. ج. هـــ. جيمز، **كنوز الفراعنة**

حسن كمال، **الطب المصرى القديم**

أ. أ. س. إدواردز، **أهرام مصر**

سومرز كلارك، **الآثار القبطية فى وادى النيل**

كريستيان ديروش نوبلكور، **المرأة الفرعونية**

بيل شول وأدبنيت، **القوة النفسية للأهرام**

جيمس هنرى برستد، **تاريخ مصر**

د. بيارد دودج، **الأزهر فى ألف عام**

أ. سبنسر، **الموتى وعالمهم فى مصر القديمة**

ألفريد ج. بتلر، **الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)**

روز أليندم؛ **الطفل المصرى القديم**

ج. و. مكفرسون، **الموالد فى مصر**

جون لويس بوركهارت، **العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية**

سوزان راتييه، **حتشبسوت**

مرجريت مرى، **مصر ومجدها الغابر**

أولج فولكف، **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**

د. محمد أنور شكرى، **الفن المصرى القديم**

ت.ج. جيمز، **الحياة أيام الفراعنة**

إيفان كونج، **السحر والسحرة عند الفراعنة**

تشارلز نيمس، **طيبة (آثار الأقصر)**

رندل كلارك، **الرمز والأسطورة فى مصر القديمة**

ديمترى ميكس، **الحياة اليومية للآلهة الفرعونية**

محمد عبد الحميد بسيونى، **بانوراما فرعونية**

حمدى عثمان، **هؤلاء حكموا مصر**

جوزيف دلى، **العمارة العربية فى مصر**

ميكل ونتر، **المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى**

بربارة واترسون، **أقباط مصر**

إيريك هورنونج، **فكرة فى صورة**

بيير جرانديه، **رمسيس الثالث**

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه ، **حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)**

وليم مارسدن، **رحلات ماركو بولو (٣ج)**

أبو القاسم الفردوسى ، **الشاهنامة (٢ج)**

إدوارد جيبون، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ج)**

ناصر خسرو علوى، **سفر نامة**

فيليب عطية، **ترانيم زرادشت**

جورج جاموف، **بداية بلا نهاية**

محمد كرد على، **بين المدنية العربية والأوروبية**

سابعاً: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، **الموسيقى تعبير نغمى ومنطق**

ألويز جرايتر، **موتسارت**

شوكت الربيعي، **الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربي**
ليوناردو دافنشي، **نظرية التصوير**
د.غبريال وهبه، **أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى**
روبين جورج كولنجوود، **مبادئ الفن**
مارتن جك، **يوهان سباستيان باخ**
ميخائيل ستيجمان، **فيفالدى**
هيربرت ريد، **التربية عن طريق الفن**
أدامز فيليب، **دليل تنظيم المتاحف**
حسام الدين زكريا، **أنطون بروكنر**
جيمس جينز، **العلم والموسيقى**
هوجو لا يختنتريت، **الموسيقى والحضارة**
محمد كمال إسماعيل، **التحليل والتوزيع الأوركسترالى**
د.صالح رضا، **ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر**
إدموندو سولمى، **ليوناردو**
سيونايد ميرى روبرتسون، **الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة**

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، **التطور الحضارى للإنسان**
س. م. بورا، **التجربة اليونانية**
جوستاف جرونيباوم، **حضارة الإسلام**
أ. د. جرنى، **الحيثيون**
ل. ديلابورت، **بلاد ما بين النهرين**
ج. كونتنو، **الحضارة الفينيقية**
آدم متز، **الحضارة الإسلامية (٢ج)**
جوزيف نيدهام، **تاريخ العلم والحضارة فى الصين**
ستيفن رانسيمان، **الحضارة البيزنطية**
سبتينو موسكاتى، **الحضارات السامية**

تاسعا: التاريخ

جوزيف داهموس، **سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى**
هنرى بيرين، **تاريخ أوربا فى العصور الوسطى**
أرنولد توينبى، **الفكر التاريخى عند الإغريق**
بول كولز، **العثمانيون فى أوربا**
جوناثان ريلى سميث ، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**
د. بركات أحمد، **محمد واليهود**
ستيفن أوزمنت، **التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)**
و. بارتولد، **تاريخ الترك فى آسيا الوسطى**
فلاديمير تيسمانيانو، **تاريخ أوربا الشرقية**
د.ألبرت حورانى، **تاريخ الشعوب العربية (٢ج)**
نويل مالكوم، **البوسنة**
جارى ب . ناش، **الحمر والبيض والسود**
أحمد فريد رفاعى، **عصر المأمون (٢ج)**
آرثر كيستلر، **القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم**
ناجاى متشيو، **الثورة الإصلاحية فى اليابان**
محمد فؤاد كوبريلى، **قيام الدولة العثمانية**
د. إبرار كريم الله، **من هم التتار؟**
ستيفن رانسيمان، **الحملات الصليبية**
آلبان ويدجرى، **التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)**
جوسيبى دى لونا، **موسولينى**
جوردون تشيلد، **تقدم الإنسانية**
هـ. ج. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)**
هـ . سانت موس، **ميلاد العصور الوسطى**
يوهان هويزنجا، **اضمحلال العصور الوسطى**

هـ . ج. ويلز، **موجز تاريخ العالم**

لورد كرومر، **الثورة العرابية**

و. مونتجمرى وات، **محمد فى مكة**

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و . فريمان، **الجغرافيا فى مائة عام**

ليستر ديل راى، **الأرض الغامضة**

رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)

إميليا إدواردز، **رحلة الألف ميل**

رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)

رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)

رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر

رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)

يوميات رحلة فاسكو داجاما

س . هوارد، **أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا**

إريك أكسيلون، **أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا**

وليم مارسدن، **رحلات ماركو بولو (٣ج)**

حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر ، **الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)**

سوندراى، **الفلسفة الجوهرية**

جون لويس، **الإنسان ذلك الكائن الفريد**

سدنى هوك، **التراث الغامض: ماركس والماركسيون**

إدوارد دو بونو ، **التفكير المتجدد**

رونالد دافيد لانج، **الحكمة والجنون والحماقة**

د.توماس أ. هاريس، **التوافق النفسي: تحليل المعاملات الإنسانية**

د. أنور عبد الملك، **الشارع المصرى والفكر**

نيكولاس ماير ، **شارلوك هولمز يقابل فرويد**

أنطونى دى كرسبنى، **أعلام الفلسفة المعاصرة**

جين وروبرت هاندلى، **كيف تتخلصين من القلق؟**

هـ ج. كريل، **الفكر الصينى**

د. السيد نصر السيد، **الحقيقة الرمادية**

برتراند راصل، **السلطة والفرد**

مارجريت روز، **ما بعد الحداثة**

كارل بوبر، **بحثا عن عالم أفضل**

ريتشارد شاخت، **رواد الفلسفة الحديثة**

جوزيف داهموس، **سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى**

د. روجر ستروجان، **هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟**

إريك برن، **الطب النفسى والتحليل النفسى**

بيرتون بورتر، **الحياة الكريمة (٢ج)**

فرانكلين ل. باومر، **الفكر الأوربى الحديث (٤ج)**

هنرى برجسون، **الضحك**

أرنست كاسيرر، **فى المعرفة التاريخية**

و. مونتجمرى وات، **القضاء والقدر**

إدوارد دو بونو، **التفكير العملى**

ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د.محيى الدين أحمد حسين، **التنشئة الأسرية والأبناء الصغار**

م. و ثرنج، **ضمير المهندس**

رايموند وليامز، **الثقافة والمجتمع**

روى روبرتسون، **الهيروين والإيدز**

بيتر لورى، **المخدرات حقائق نفسية**

د.ليو بوسكاليا، **الحب**

برنسلاو مالينوفسكى، **السحر والعلم والدين**

بيتر ر. داى، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

بول جيرهارت، تعليم المعوقين

أرنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة

رونالد د. سمبسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس، المرشد إلى فن المسرح

برونو باشينسكى، حفلة مانيكان

جلال العشرى، فكرة المسرح

جان بول سارتر؛ جورج برناردشو؛ جان أنوى مختارات من المسرح العالمى

د.عبد المعطى شعراوى، المسرح المصرى المعاصر: أصله وبدايته

توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم

زيجمونت هبنر، جماليات فن الإخراج

أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ج)

آلان ماكدونالد، مسرح الشارع

نك كاى، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية

بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية

أندريه فيلبيه، الممثل الكوميدى

لى ستراسبرج، تدريب الممثل

جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء

د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

د.حاموم بيتروفيتش، النحل والطب

م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى

ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة

جول ويست، الرواية الحديثة: الإنجليزية والفرنسية

أنور المعداوى، على محمود طه: الشاعر والإنسان

جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصى

تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية

محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال فى متاهة

سوريال عبد الملك، حديث النهر

د.رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة

ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر

نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى

رالف نى ماتلو، تولستوى

والتر ألن، الرواية الإنجليزية

هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال

مالكوم برادبرى، الرواية اليوم

لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة

د. جابرييل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار

ديلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى التاريخ

د. على عبد الرءوف البمبى، مختارات من الشعر الإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)

ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية

ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)

جورج ستاينر، بين تولستوى ودستويفسكى (٢ج)

ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية

فيكتور برومبير، ستندال

فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى

يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية

د.نعمة رحيم الغزاوى، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً

ف.برميلوف، دستويفسكي

لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل البيليوجرافى:روائع الآداب العالمية (ج١)

محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية : مقال من النوع الأدبى

هنرى باربوس، الجحيم

ميجيل دى ليبس، الفئران

روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمى

يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)

ب. إفور ايفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى

فخرى أبو السعود، فى الأدب المقارن

سليمان مظهر، أساطير من الشرق

ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائى عند تولستوى

د. صفاء خلوصى، فن الترجمة

بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا اللاتينية

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجير، الإعلام التطبيقى

بيير ألبير، الصحافة

هربرت شيلر، الاتصال و الهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية فى السينما العربية

ج.دادلى أندرو، نظريات الفيلم الكبرى

روى آرمز ، لغة الصورة فى السينما المعاصرة

هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)

جان لويس بورى وآخرون ، فى النقد السينمائى الفرنسى

محمود سامى عطا الله ، الفيلم التسجيلى

ستانلى جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكى

جوزيف وهارى فيلدمان، دينامية الفيلم

قدرى حفنى، الإنسان المصرى على الشاشة

مونى براح، السينما العربية من الخليج إلى المحيط

حسين حلمى المهندس، دراما الشاشة: بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)

إدوارد مرى، عن النقد السينمائى الأمريكى

جوزيف م. بوجز، فن الفرجة على الأفلام

سعيد شيمى، التصوير السينمائى تحت الماء

دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما

هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة

يوجين فال، فن كتابة السيناريو

دانييل أريخون، قواعد اللغة السينمائية

كريستيان ساليه ، السيناريو فى السينما الفرنسية

آلان كاسبيار، التذوق السينمائى

تونى بار، التمثيل للسينما والتليفزيون

بيتر نيكولز، السينما الخيالية

بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكى

دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية

ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء.

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، أعلام وأفكار

د.مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى

ت. كويلر ينج، الشرق الأدنى

جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا للعلم

ابن زنبل الرمال، آخرة المماليك

د. محمد عوض محمد، نهر النيل

آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين

أوجست دييس، أفلاطون

يعقوب فام، البراجماتية

بلوطرخوس، العظماء

روبرت دييو جراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة النص

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٩٤٧/٢٠٠١

ISBN — 977 — 01 — 7575 — 7